

جامعة الجزائر (2)

أبو القاسم سعد الله

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية

قسم التاريخ

علاقات المغرب الأقصى بالدولة العثمانية

وإيالاتها العربية في المشرق والمغرب

(1171-1265هـ / 1757-1848م)

أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر

إشراف الأستاذ:

د. محمد العربي معريش

إعداد الطالب:

موسى شرف

السنة الجامعية: 2015-2016م

جامعة الجزائر (2)

أبو القاسم سعد الله

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية

قسم التاريخ

علاقات المغرب الأقصى بالدولة العثمانية

وإيالاتها العربية في المشرق والمغرب

(1171-1265هـ / 1757-1848م)

أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر

إشراف الأستاذ:

إعداد الطالب:

د. محمد العربي معريش

موسى شرف

أعضاء لجنة المناقشة

رئيسا	جامعة الجزائر (2)	أ. د. شكيب بن حفري
عضوا مقررا	جامعة الجزائر (2)	أ. د. محمد العربي معريش
عضوا	جامعة الجزائر (2)	أ. د. إبراهيم سعيود
عضوا	جامعة زيان عاشور (الجلفة)	أ. د. نايلي عبد القادر
عضوا	جامعة الجزائر (2)	أ. د. دراج محمد
عضوا	جامعة لونسي علي (العفرون-البليدة)	أ. د. دهاش صادق

السنة الجامعية: 2015-2016م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إهداء

إلى من قال فيهما الله جلّ جلاله: {وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ
وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْنِيمَا كَمَا رَحِمْتَ رَبِّيَانِي حَقِيرًا}

سورة الإسراء الآية (24)

إلى أبيي الحنون أطال الله في عمره وإلى روح والدتي الكريمة تغمدها
الله برحمته.

إلى روح أخي الغالي تغمده الله برحمته.

إلى زوجتي التي تحملت معي مشقة إهداء هذا البحث،

إلى ابنتي الغالية (أسيل)

إلى كل أفراد أسرتي.

كلمة شكر

الحمد لله رب العالمين، و به نستعين، و ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، و صلى اللهم وبارك على النبي الأمين محمد رسول الله و على آله وصحبه أجمعين.

قال الله تعالى: {وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ} ﴿البقرة من الآية: 237﴾
وقال عليه الصلاة والسلام:

﴿من صنع إليكم معروفاً فكافئوه، فإن لم تجدوا ما تكافئوه فادعوا له حتى تروا أنكم قد كافأتموه {رواه أحمد، وأبو داود، وصححه الألباني}﴾
وقال عليه السلام: ﴿لا يشكر الله من لا يشكر الناس﴾ {رواه أحمد، والبخاري وأبو داود، وصححه الألباني}

"كن عالماً، فإن لم تستطع فكن متعلماً، فإن لم تستطع فأحب العلماء، فإن لم تستطع فلا تبغضهم " . بعد رحلة بحث و جهد و اجتهدت تكلفت بإنجاز هذا البحث ، نحمد الله عز وجل على نعمه التي من بها علينا فهو العلي القدير ، كما لا يسعني إلا أن أخص بأسمى عبارات الشكر والتقدير للأستاذ المشرف الدكتور "محمد العربي معريش" الذي رافقني طيلة مراحل إنجاز هذا البحث وكان حريصاً على إخراجه في ثوب علمي جميل، فلم يدخر جهداً في تقديم نصائحه وتوجيهاته وعلمه في سبيل ذلك.

المقدمة

ظلت الدولة العثمانية منذ مواجهتها للمد الصليبي الإسباني في حوض المتوسط عامة وفي بلاد المغرب الإسلامي خاصة، مع بداية القرن 16م، تشكل بالنسبة للمغرب الأقصى، الكابوس المزعج والخطر الدائم، الذي طالما هدد وحدته واستقراره بالنظر إلى إستراتيجيتها الرامية إلى توحيد دول المغرب الإسلامي تحت راية الخلافة العثمانية في إسطنبول. وبالنظر كذلك لرغبة المغرب الأقصى في التوسع والهيمنة على الأقاليم المتاخمة لحدوده لاسيما المغرب الأوسط والأدنى. والواقع أن الأحداث التي تخللت العلاقات بين الجانبين منذ ظهور العثمانيين في بلاد المغرب الإسلامي إلى منتصف القرن 18م ، تبين مدى التوتر الذي كان قائما بين الدولتين، واضطر المغرب الأقصى في مناسبات عدة، إلى الاستجداد بدول أوربية للتخلص من المضايقات العثمانية، مع أن الأخيرة لم تتأخر عن تقديم المساعدات لسلطين المغرب، وقت الحاجة، ولعل خير شاهد على جهود العثمانيين في وصول السعديين لتولي سدة الحكم في المغرب، معركة وادي المخازن سنة 1578م والقضاء على التهديد البرتغالي الصليبي لهذا الإقليم.

لقد حفلت كتب الرحالة في العصر الحديث وكذا كتب المؤرخين من مختلف المناهل والمشارب، بالأحداث السياسية بين المغرب الأقصى والدولة العثمانية، والعداء المستمر، لاسيما وأن المغرب الأقصى كان مجاورا للعثمانيين، كون الجزائر كانت إيالة عثمانية. كان الخليفة العثماني نزولا عند طلب سلاطين المغرب يلوم ولاية الجزائر العثمانيين عن تصرف قاموا به تجاه المغرب الأقصى أو حلفاؤه من الدول الأوربية التي كانت تربطها علاقات صداقة مع المغرب. كما كان سلاطين المغرب يتدخلون في الأقاليم الجزائرية، تارة بدعوى صد الحملات العثمانية، أو القضاء على قطاع الطرق من القبائل المقيمة في الحدود أو ملاحقة المتمردين عن سلطة المخزن، وتارة أخرى بدعوى نصره المستصرخين والمستنجدين بهم ضد الحكم العثماني.

إن كتابات المؤرخين تكاد تخلو من الحديث عن العلاقات الاقتصادية والثقافية بين العثمانيين والمغاربة، رغم كون الأقاليم الصحراوية للمغرب والجزائر وحتى تونس وطرابلس، كانت معبرا للقوافل التجارية نحو المشرق، وكذا رحلات الحج، التي غالبا ما كانت تعج بالعلماء والأدباء، الذين دون شك، كتبوا عن رحلاتهم، في حلهم وترحالهم.

إن علاقة المغرب الأقصى مع الإيالات العثمانية في المشرق والمغرب خلال مراحل العداء أو التقارب مع الدولة العثمانية كانت متشعبة، منها ما كان في الإطار الرسمي والدبلوماسي، كالعلاقات التي كانت تربط أمراء وشرفاء مصر واليمن والحجاز بسلاطين المغرب العلويين أو الأواخر بالأسرة القرمانلية في طرابلس أو البايات الحسينيين في تونس. كذلك على المستوى الشعبي، لم تتوقف حركة الأفراد والقوافل بين أقاليم الدولة العثمانية مشرقا ومغربا بغرض التجارة أو طلب العلم، أو أداء لفريضة الحج، حتى أضحت المغاربة أكثر الجاليات المسلمة تواجدا بالمشرق.

الإشكالية:

من البديهي أن أي بحث أو دراسة أكاديمية تبنى على تصور عام للموضوع المراد دراسته، كما تتطلق من مجموعة إشكاليات تتجلى الإجابة عليها بحسب تطور المعطيات والمستجدات وكذا نوع الوثائق المستعملة في البحث وأهميتها. ولعل البحث الجدي يدفع صاحبه لعدم التوقف عن طرح المزيد من الأسئلة في ثنايا البحث، وهو ما حرصنا على القيام به سعيا منا في الانتقال بالبحث من الدراسات التاريخية السردية والوصفية المملة أحيانا، إلى دراسة حيوية ممزوجة بين السرد والوصف والتعليق تارة والتحليل والمقارنة بين آراء المؤرخين تارة أخرى. وعليه، فمن بين الإشكاليات المطروحة للبحث:

هل حقيقة أن المغرب الأقصى ظل مستعصيا على العثمانيين منذ توحيدهم لجزء من بلاد المغرب الإسلامي تحت راية الخلافة الإسلامية؟ ولماذا لم تخضع الدولة العثمانية المغرب الأقصى لسلطانها الفعلية كما فعلت مع الإيالات المغاربية الأخرى، واكتفت بالتدخل غير المباشر في سياسة المخزن، في وقت كان لها من الإمكانيات والقدرة، ما جعلها تتغلب على أقوى الجيوش الأوروبية في حوض المتوسط؟

هل فعلا عمل الأتراك العثمانيون على تطوير حكام المغرب بخطة الحدود، حتى يمنعونهم من التوسع خارج حدود المغرب؟ ثم من كان السباق لطرح فكرة الحدود هل المغرب أم الدولة العثمانية؟

بالرغم من قدرة العثمانيين والمغاربة على تجاوز خلافاتهم السياسية لاسيما في مرحلة التقارب مع منتصف القرن 12هـ/18م، لماذا لم يتحد الطرفان في مواجهات العثمانيين الحقيقية ضد روسيا والنمسا وضد دول أوروبية أخرى كانت تمثل التهديد الصليبي لدول

المغرب الإسلامي؟ ولماذا كان المغرب في كل مرة يكتفي بالتلويح بقطع العلاقات الدبلوماسية مع الدول الأوروبية المعادية للدولة العثمانية، في حين كان بإمكانه المشاركة في معارك حاسمة إلى جانب العثمانيين ضد نابليون بونابرت مثلا في حملته على مصر؟ وكذا في معركة نافرين سنة 1827م؟ إذا علمنا أن قوة المغرب البحرية على حسب ما تناقلته المصادر المغربية والأجنبية كانت أحسن حالا مما كانت عليه القوى البحرية للإيلات العثمانية مجتمعة، كما أن المغرب في كل مرة كان يقول أن روابط الأخوة الإسلامية بين العثمانيين والمغاربة أقوى من أن تعكرها خلافات سياسية طائشة كان يثيرها أتراك الجزائر ضد المغرب؟ لماذا بقيت هذه العلاقات نظرية في شقها الرسمي على الأقل؟

وفي مواقف أخرى عاشها المغرب الأقصى في نهاية القرن 18م وبداية القرن 19م، تبين أن المغرب كان بإمكانه استرجاع أراضيهِ المحتلة في كل من سبتة ومليلية بعد أن سيطر "نابليون بونابرت" على إسبانيا وعين أخاه على عرشها، وطلب من سلطان المغرب، المولى سليمان تموين جيوشه في جبل طارق ومنع ذلك عن القوات البريطانية، وكذا الاعتراف به كحاكم لإسبانيا مقابل استرجاع المغرب للجزيرتين، لماذا قابل سلطان المغرب هذا العرض بالرفض، خاصة وأن العلاقات المغربية، الفرنسية كانت جيدة في هذه الفترة، وفضل المغرب الاستعانة بإنجلترا أملا في استرجاع الجزيرتين؟ هل هذا الرفض مرده الحملة الفرنسية على مصر والتعاطف الإسلامي مع الدولة العثمانية؟ لماذا عندما تعلق الأمر بالخلافات الجزائرية المغربية على حدود البلدين، سعى المغرب للاتفاق مع دول أوروبية لكسر شوكة الجزائر؟ ألم يكن من الأجدر للجزائر والمغرب تسوية الخلافات بطرق سلمية، وتوحيد جهودهما لمواجهة المد الصليبي الأوربي في حوض المتوسط، خاصة وأن العلاقات بين البلدين شهدت بعض مواقف التضامن فيما بينهما؟ أم أنها لم تكن تمثل غير مصلحة ظرفية طارئة، انتهت بمجرد قضائها؟ هل عقد أواصر الصداقة بين المغرب وفرنسا كان سبيلا لحل المشكلات الدولية، على ما ذهب إليه بعض المؤرخين؟ وإذا كان الأمر كذلك، لماذا لم تحل مشكلة جزيرتي سبتة ومليلية المغربيتين بطرق سلمية، وفضل المغرب الاستعانة بإنجلترا لاسترجاعهما؟ ثم كيف تمت معالجة الخلاف بين الجزائر والمغرب وما يرتبط به من خيوط الموقف العثماني تجاه المغرب عموما على ضوء العلاقات المغربية الفرنسية؟

وفي موضوع ذي صلة، إلى أي مدى أثرت الدعوة الوهابية في سياسة المغرب الداخلية والخارجية في علاقات المغرب مع الدولة العثمانية، إذا علمنا أن حكام المغرب كانت لهم مراسلات مع الوهابيين الذين تعرضت مدينتهم لتهديد جيش مصر العثماني؟ إذا كان الصراع سياسيا في الغالب بين المغرب والجزائر في هذه الفترة، هل أثر ذلك على النشاط الاقتصادي بين البلدين لاسيما وأن الأقاليم الجنوبية للجزائر وكذا المغرب كانت مركزا لتجارة الجنوب ومعبرا للقوافل التجارية نحو السودان الغربي، وكذلك بالنسبة لقوافل الحج نحو المشرق، خاصة وأنها كانت بعيدة عن الرقابة المخزنية والرقابة العثمانية في غالب الأوقات؟ إلى أي مدى أثرت الأزمات الداخلية في المغرب والجزائر على الحركة التجارية؟ هل أثرت الخلافات السياسية بين النظامين الحاكمين في كل من الجزائر والمغرب على العلاقات الشعبية غير الرسمية بين البلدين في جانبها الثقافي والاجتماعي؟

• دوافع اختيار الموضوع:

جاءت معالجتي لهذا الموضوع ضمن مذكرة الماجستير الموسومة بـ"الإصلاحات في المغرب الأقصى في عهد السلطان محمد بن عبد الله بين (1171هـ-1205هـ/1757م-1790م)"، وكان تناول الموضوع في مبحث، لم يحض بالقدر الكافي من الدراسة والتحليل، ركزت فيه على العلاقات السياسية بين المغرب والدولة العثمانية بوجه عام، فرأيت من المناسب دراسته دراسة أوسع وأشمل من خلال أطروحة دكتوراه، أعالج من خلالها علاقات المغرب والدولة العثمانية، مع الباب العالي و مع الإيالات في المشرق والمغرب، الرسمية منها وغير الرسمية.

ومن الدوافع التي حفزتني إلى اختيار الموضوع، البحث في مواضيع أصيلة لم يتناولها طلبة الدكتوراه في بحوثهم الأكاديمية في الجزائر على الأقل.

كما لم يحض الموضوع بالدراسة الكافية في الماجستير كما أسلفت، ومنه جاءت الرغبة في مواصلة البحث فيه بتوسع.

ولعل معرفتي المتواضعة بجوانب الموضوع وتوفر بعض المادة العلمية من مصادر ومراجع، كان حافزا لدي لمواصلة البحث.

تختلف محاولة دراستي لعلاقات المغرب مع الدولة العثمانية وإيالاتها، عن الدراسات التي قام بها الباحثون المغاربة الذين ركزوا جل اهتماماتهم على العلاقات السياسية، وإن

وجدت دراسات في جوانب غير سياسية، فهي قليلة ومتفرقة. الأمر الذي دفعني إلى دراسة تتناول العلاقات السياسية والاقتصادية والاجتماعية مجتمعة.

كما أن طبيعة الموضوع هي من فرض عليّ الاعتماد في دراستي على أسلوب المقارنة بين آراء المؤرخين، مغاربة، جزائريين وأجانب، محاولة لإضفاء الحيوية على الموضوع، بالإضافة إلى توظيف العديد من الأسئلة، وانتهاج الأسلوب نقدي تارة، والتعليق على بعض الأحداث تارة أخرى.

أيضا لا يخلو الموضوع من السرد والوصف بحكم طبيعة المادة العلمية، ونظرا لاعتمادي في هذه الدراسة على المصادر المغربية بالدرجة الأولى، التي تعرضت لأحداث العلاقات بين المغرب والدولة العثمانية وإيالاتها، في شكل روايات وقصص، مما أثر بصورة أو بأخرى في أسلوب وطريقة تناولي للبحث.

ولمعالجة الموضوع وضعت له خطة، ضمنتها العناصر الآتية:

المدخل: يتناول التدخل العثماني في الحوض الغربي للمتوسط وكذا العلاقات المغربية العثمانية في العهد الوطاسي والسعدي والعهد العلوي الأول أي ما بين القرن 10هـ / 16م والنصف الأول من القرن 12هـ / 18م.

الفصل الأول: عالجت فيه مرحلة التقارب العثماني المغربي بداية من النصف الثاني من القرن 12هـ / 18م، كما تطرقت إلى التعاون الثنائي بين البلدين في المجال العسكري وموقف البلدين من الأوضاع الدولية.

وتطرقت في المبحث الثاني إلى الجوانب الثقافية في العلاقات بين الدولة العثمانية والمغرب الأقصى من خلال تبادل الخبرات العلمية والثقافية والرحلات المغربية إلى المشرق وإسطنبول.

الفصل الثاني: يبحث في جزئه الأول، العلاقات بين المغرب الأقصى والحجاز بشقيها السياسي والثقافي، على امتداد القرن (12هـ / 18م) والنصف الأول من القرن (13هـ / 19م). وما تخلل ذلك من أحداث تتعلق بالعلاقات الوهابية المغربية في هذه الفترة.

وخصصت الجزء الثاني من هذا الفصل للحديث عن علاقة المغرب بإيالة مصر من الناحية السياسية والدبلوماسية والثقافية والعلمية.

الفصل الثالث: يتناول العلاقات المغربية مع إيالتي ليبيا وتونس، التي تعتبر نموذجاً للعلاقات الثنائية الجيدة على مختلف المستويات والأصعدة، جاء الفصل الثالث ليتناول هذه العلاقات من زاويتين مختلفتين، رسمية (سياسية ودبلوماسية)، وغير رسمية (شعبية)، أي العلاقات القائمة بين الجالية المغربية المقيمة في كل من ليبيا وتونس، والعابرة لأراضي هذين البلدين في اتجاه بلاد المشرق لأغراض مختلفة، ثقافية وعلمية.

الفصل الرابع: يتطرق لعلاقات المغرب الأقصى بإيالة الجزائر العثمانية، من زوايا مختلفة، سياسية، اقتصادية، واجتماعية، ثقافية، على امتداد القرن (12هـ / 18م) وكذا النصف الأول من القرن (13هـ / 19م).

فأما العلاقات السياسية عنوان المبحث الأول، فهي الوجه الرسمي البارز مقارنة بأوجه العلاقات الأخرى غير الرسمية بين الجزائر والمغرب.

وأما العلاقات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية فهما عنواني المبحث الثاني والثالث على التوالي، فبالرغم من الطابع الشعبي لهذه العلاقات إلا أنها كانت حية وكانت تمثل قنوات للتواصل بين شعبيين شقيقين، الجزائري والمغربي. وفي الأخير خاتمة ضمنتها جملة من النتائج والاستنتاجات.

• مصادر الموضوع ومراجعته:

اعتمدت في دراسة هذا الموضوع على عدد من المصادر المخطوطة والمطبوعة، من ذلك مثلاً مخطوط الابتسام في دولة بني هشام، لأبي العلاء إدريس وهو مؤلف ضخم يفوق الثلاث مائة صفحة. ومخطوط الروضة السليمانية للزياني، ورحلة ابن الطيب الشرقي وهي رحلة مخطوطة، ووفقاً لما نقله الأستاذ محمد الفاسي عن هذه الرحلة فإنها موجودة في متحف لايبزيك بفينا، ويعد صاحب الرحلة من علماء المغرب البارزين في النصف الثاني من القرن 18م الذين تركوا أثراً بارزاً في بلاد المشرق عامة والحجاز خاصة. كما ساحت لي الفرصة بعد البحث والتقصي في المكتبة الوطنية الجزائرية في قسم المخطوطات من العثور على وثيقتين مخطوطين، الأولى تعود إلى عهد المولى إسماعيل، وتحمل رقم 53 ضمن الملف الأول من المجموعة 3205 وأما الثانية فتعود إلى عهد المولى سليمان، وتحمل رقم 43 من نفس الملف ومجموعة الوثيقة الأولى، وكلتا الوثيقتين تتضمن معلومات عن علاقة المغرب في عهد هذين الحاكمين بإيالة الجزائر.

هذا بالإضافة إلى المراجع العربية والأجنبية، في صيغة "PDF"، أو في صيغتها الورقية، مع عدد من المجلات الإلكترونية، مثل مجلة "كان" التاريخية، أو بعض أعداد مجلة دعوة الحق المغربية، التي تعد من بين أهم المراجع التي اعتمدت عليها في جل فصول هذه الدراسة. وقد تسنى لي خلال زيارتي للمغرب، الحصول على بعض المقالات ذات الصلة بالموضوع من مكتبة الملك عبد العزيز بالدار البيضاء، والدراسات الحديثة الإصدار ككتاب إبراهيم ياسين المعنون بـ "سلطة مغربية في غرب الجزائر، 1830-1832م"، وهو كتاب يتناول مواقف المغرب سلطة وشعبا من الاحتلال الفرنسي للجزائر، وكذلك كتاب "واحات والتخوم وحدود المغرب الشرقية" لخالد بن الصغير الذي يتميز بكثرة النصوص والخرائط التي وضعها الفرنسيين أو المغاربة عن أقاليم المغرب وحدوده.

واستعنت في كل فصل من فصول الأطروحة بمصادر ومراجع حديثة، لا تعكس منها وجهة النظر المغربية فقط، ووظفت بعض الدراسات الليبية والتونسية ككتاب "حوليات ليبية" لشارل فيرو، وكتاب "إتحاف أهل الزمان في أخبار تونس وعهد الأمان" لابن أبي الضياف بأجزائه الثمانية. أما المؤلفات الجزائرية فبالرغم من قلتها فإنها كانت لبنة حقيقية في كتابة هذا الموضوع وعلى سبيل المثال نذكر كتاب "المرأة" لحمدان بن عثمان خوجة، ورحلة ابن حمادوش الجزائري، بالإضافة إلى بعض المؤلفات للأستاذ أبو القاسم سعد الله رحمه الله، وكتاب ورقات جزائرية للأستاذ سيعدونى ناصر الدين، مع استعانتى الكبيرة بكتاب الأستاذ عمار بن خروف "العلاقات الجزائرية السعودية" بشقيها السياسي والاقتصادي. وللإشارة فإن الدراسة التي قام بها الأستاذ عمار بن خروف، تتناول علاقة الجزائر بالمغرب الأقصى خلال القرن السادس عشر (أي مرحلة البيلربايات بالجزائر والسعديين بالمغرب الأقصى)، وهي دراسة قيمة ومفيدة لا يمكن لأي باحث في هكذا مواضيع أن يتخلى عنها. ورافقتي طيلة مراحل البحث بعض المصادر المهمة على سبيل المثال، كتاب الترجمانة الكبرى للزياني، وكذا رحلة ابن عبد السلام الناصري بجزئها الأول والثاني.

يبقى أن أنوه بأهمية موقع المكتبة الوطنية الفرنسية الغني بالوثائق التاريخية لشمال إفريقيا، وخاصة تاريخ الجزائر وتاريخ المغرب الأقصى، وقد تسنت لي الفرصة تحميل بعض المصادر والخرائط الهامة. وضفتها في هذه الدراسة إلى جانب العديد من المؤلفات.

• صعوبات البحث:

لا يخلو بحث من البحوث الأكاديمية من الصعوبات والعراقيل التي تعيق تقدمه وإنجازه وعليه لم يكن بحثي هذا في مأمن منها هو الآخر، وإذا حاولت أن أعدد بعضاً منها فإنني أذكرها كما يلي :

- نقص الدراسات الأكاديمية المتعلقة بالموضوع.

- نقص المادة الأرشيفية، وإن وجدت فهي لا تعدو أن تكون مجرد عناوين لمصادر مفقودة في بلادنا، مصادر غربية بلغات أجنبية كالإسبانية والبرتغالية والفرنسية، ومن ثم صعوبة ترجمتها، والاستغناء عن بعضها، لضيق الوقت وهو ما دفعني أيضاً لتقليص حجم البحث من خمسة فصول إلى أربعة، فاضطرت إلى تحويل الخامس إلى عنوان المبحث الأخير من الفصل الرابع.

هذا الجهد محاولة متواضعة من طالب مبتدئ، يسعى إلى تطوير إمكانياته الفكرية واللغوية، ويساهم به كلبنة لبناء صرح الثقافة التاريخية، ويسعى من خلاله إلى تنوير الباحثين والقراء، ومع الجهد المبذول، لازلت أطمح إلى الإضافة أو الحذف أو التعديل بغية بلوغ العمل مرتبة أفضل.

وفي الختام لا يسعني إلا أن أتقدم بالشكر الجزيل إلى الأستاذ المشرف "الدكتور محمد العربي معريش" على نصائحه المفيدة، وتوجيهاته القيمة، وصبره على أخطائي وهفواتي، طيلة مراحل البحث. كما أتقدم بالشكر إلى كل من قدم لي يد العون أثناء إنجاز هذا البحث، راجياً من الله أن يتقبله مني ويجعله من صالح الأعمال.

المختصرات

المفردة	رمزها
- الجزء	ج
- الطبعة	ط
- العدد	ع
- السنة	س
- المجلد	مج
- دون مكان طبع	د. م. ط
- دون تاريخ طبع	د. ت. ط
- الصفحة	ص
- صفحات متتالية	ص ص
- المكتبة الشاملة الإصدار الثاني	م. ك.إ.ص. ث.

- Sans date s . d.

- Page p

- Tome T

المدخل

I - العلاقات المغربية العثمانية من القرن 16م إلى منتصف القرن 18م:

1 - التوسع العثماني في شمال إفريقيا في القرن 10هـ/16م:

امتدت فتوحات الدولة العثمانية لتشمل العديد من الأقاليم في العالم، فقد اجتاحت جيوشها الإسلامية مناطق شاسعة من القارات الثلاثة: إفريقيا وآسيا وأوروبا⁽¹⁾، وبذلك غدت دولة آسيوية وأوربية وإفريقية. وفي مسارها التاريخي كان العثمانيون ينظرون إلى أنفسهم أنهم مسلمون قبل كل شيء. فأحرزوا باسم الإسلام انتصارات خاطفة وباهرة، وتساقطت في أيديهم دول أوربية عديدة امتلأت قلوب حكوماتها فزعا وهلعا من هذه الدولة الإسلامية الطارئة عليها في عقر دارها⁽²⁾.

وعلى الرغم من كون العثمانيين مسلمين، لم يمنعهم انتمائهم للإسلام من الدخول في صراعات مع نظرائهم من المسلمين في العالم العربي كذلك⁽³⁾. إذ غدت البلاد العربية من آسيا إلى إفريقيا مزدحمة بالصراعات الإقليمية بين الصفويين⁽⁴⁾،

(1) كان الغزو العثماني العسكري لأوروبا آخر غزو لأوروبا المسيحية في التاريخ الحديث والمعاصر، وقد بدأ في القرن الرابع عشر الميلادي، وبلغ ذروته في القرن الخامس عشر في وقت كانت فيه موجة الإسلام تتحصر عن الأندلس بسقوط غرناطة آخر معاقل الإسلام سنة 898هـ/1492م. وكان من الطبيعي أن تثير انتصارات الدولة العثمانية العديدة في أوروبا قلق البابوية، فقد دعا البابا "بونيفاسيوس التاسع"، الدول الأوربية إلى الحرب ضد المسلمين في فرنسا والبلدان المجاورة لجلال الألب، وجنوبي ألمانيا، وإذا كانت الفكرة الصليبية قد نسيها الأوربيون في الظاهر منذ أمد طويل، فإنها عادت للظهور من جديد في هذه الفترة. أنظر:

- إسماعيل أحمد ياغي، الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث، ط2، مكتبة العبيكان، الرياض، 1998، ص: 15. وكذلك:
- كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة أمين فارس، منير البعلبكي، ط6، دار العلم للملايين، بيروت، 1974، ص: 419.

(2) عبد العزيز محمد الشناوي، الدولة العثمانية، دولة إسلامية مفترى عليها، ج1، د.ط، مكتبة أنجلو المصرية، القاهرة، 1980، ص: 6.

(3) نفس المرجع، ص: 6.

(4) قامت دولة الصفويين في إيران نتيجة تفتت الإمبراطورية التيمورية، وقد تزعمها في البداية الشاه إسماعيل الصفوي الذي رفض الاعتراف بسلطة الأمراء المسلمين من أهل السنة، وراح يعمل على بعث المذهب الشيعي في الأناضول، حيث التف حوله عشرات الآلاف من التركمان، الذين شكلوا فيما بعد مع الشاه إسماعيل الصفوي النواة الأولى للجيش الصفوي. كما اتخذ إسماعيل الصفوي تبريز عاصمة لدولته عام (908هـ/1502م)، ثم سيطر بعد ذلك على إيران، وأخذ يتطلع للتوسع خارجها على حساب المسلمين من أهل السنة في العراق والشام، وهذا ما جعل العثمانيين يواجهون المد الشيعي الصفوي. أنظر:

- محمد سهيل طقوش، تاريخ العثمانيين من قيام الدولة إلى الانقلاب على الخلافة، ط2، دار النفائس، بيروت، 2008، ص ص: 152-156.

والمماليك⁽⁵⁾ والعثمانيين من جهة، وبين الأسر الحاكمة في بلاد المغرب الإسلامي من جهة أخرى. لاسيما تلك التي توالى على حكم المغرب الأقصى.

والواقع أن تردي الظروف الداخلية والخارجية في البلاد العربية هي التي دفعت العثمانيين لضم البلاد العربية⁽⁶⁾. في محاولة منهم لاستبدال نظام حكم قائم على نمط الدويلات السلطانية، بآخر جديد يخضع للعثمانيين في شكل خلافة إسلامية، ضمن دولة واحدة متماسكة وموحدة الأقاليم شرقاً وغرباً⁽⁷⁾.

وتشهد الأحداث التاريخية في مسار الدولة العثمانية أن ظهورها كقوة عسكرية عظيمة سيلحق هزائم كثيرة بخصومها من المسلمين ومن غير المسلمين. بالإضافة إلى الهيبة التي اكتسبها العثمانيون كحماة للإسلام في مواجهة تحركات البرتغاليين والإسبان الذين احتلوا العديد من الأماكن على سواحل شمال القارة الإفريقية، لاسيما الجزائرية والمغربية منها⁽⁸⁾.

⁽⁵⁾ اعتمدت الخلافة الإسلامية في أواخر أيام الدولة العباسية على سياسة جديدة ترمي إلى استخدام تجارة الرقيق العالمية كوسيلة لنشر النفوذ السياسي والحضاري والعسكري لديار الإسلام، عن طريق اتخاذ المماليك، المحاربين من نفس الجنس المعادي لدار السلام، وتربيتهم تربية إسلامية، ثم الرمي بهم في وجوه أهلهم لمحاربتهم. فمثلاً الدولة الخوارزمية في خوارزم (غرب إيران حالياً) استخدموا المماليك الترك لمحاربة (كافرتك) الذين عرفوا فيما بعد بالمغول أو التتار. كما استعمل الأيوبيون المماليك الأرمن (الأكراد والجراسكة) والروم التركلي (خليط من الترك واليونان الذين توالدوا بآسيا الصغرى) والفرنج لمحاربة الصليبيين. وأصبح المماليك يمثلون عماد الجيوش النظامية في كل من الدولة السلجوقية والدولة الأيوبية منذ عصر السلطان الصالح نجم الدين أيوب. ومع قيام الدولة العثمانية وتوسعها في بلاد الشام ومصر، دخلت دولة المماليك في سوريا ومصر في صراع مع السلطان بايزيد الثاني، بحثاً عن النفوذ بين القبائل التركمانية، ليستمر الوضع حتى تغلب العثمانيون على المماليك في عهد سليم الأول. أنظر:

- أحمد فؤاد سيد، "ملاحظات جديدة حول ظهور المماليك"، دراسات عربية وإسلامية مهداة إلى أديب العربية الكبير، أبي فهر محمود محمد شاكر، بمناسبة بلوغه السبعين، د.ط، مطبعة المدني، القاهرة، 1982، ص: من 39 إلى 80. وكذلك: - روبر منترن، تاريخ الدولة العثمانية، ترجمة بشير السباعي، ج1، ط1، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة، 1962، ص: 212-215.

⁽⁶⁾ طقوش، ، ص: 161.

⁽⁷⁾ نفس المرجع، ص: 161.

⁽⁸⁾ حركت البرتغال سنة 1415م حملة بحرية على المغرب الأقصى تزعمها الأمير هنري الملاح، وعلى إثر ذلك احتلت ميناء سبتة، ثم واصلت البرتغال حملاتها وتمكنت من الاستيلاء على أصيلا، والعرائش ثم طنجة في عام 1471م. وواصلت أطماعها في مراكز هامة جداً مثل ميناء "أسفى وأغادير، وأزمور. أنظر:

- علي محمد الصلابي، صفحات من التاريخ الإسلامي في شمال إفريقيا، الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط، د.ط، د.م.ط، د.ت، ص: 252. (م.ك. ش.إ. ث).

والحقيقة أنه منذ تربع السلطان سليم الأول⁽⁹⁾ على عرش الدولة العثمانية في عام (918هـ/1512م)، انتهجت الدولة سياسة خارجية توسعية قائمة على مجموعة من الأسس، وهي القضاء على الدولة الصفوية الشيعية، وضم الدولة المملوكية، وحماية الأراضي المقدسة. وكذلك ملاحقة الأساطيل البرتغالية ودعم حركة الجهاد البحري في الشمال الأفريقي للقضاء على التحرش الإسباني ومواصلة الدولة جهادها في شرق أوروبا⁽¹⁰⁾.

وعليه فقد شهد عهد سليم الأول ضم مصر. وهذا الحدث في حد ذاته يعتبر نقطة تحول في مسار الدولة، ذلك أن آخر الخلفاء العباسيين في مصر محمد المتوكل على الله⁽¹¹⁾، الذي حضر أجده مصر بعد سقوط بغداد مقر خلافة العباسيين على يد هولاكو⁽¹²⁾. سنة (656هـ/1091م)، كانت له الخلافة في مصر نظريا لا أكثر، وقد تنازل عن حقه في الخلافة الإسلامية إلى السلطان سليم الأول⁽¹³⁾. وسلمه الآثار النبوية الشريفة،

⁽⁹⁾ ولد عام 875هـ/1480م، وهو ابن السلطان "بايزيد الثاني"، تقلد الحكم سنة (918هـ/1512م) وهو تاسع سلاطين الدولة العثمانية، عاش سليم الأول أربعة وخمسين عاما قضى منها ثماني سنوات في الحكم (1512-1520م)، لقّب بـ "ياووز سليم" "القاطع". كان عالما، وشاعرا أميل إلى حسن النظم وله ديوان أشعار باللغة التركية والفارسية والعربية، وهو أول سلطان عثماني لقب بأمير المؤمنين وخليفة المسلمين. أنظر:

- يوسف آصاف، تاريخ سلاطين آل عثمان العظام، د.ط، المطبعة العمومية، مصر، 1895، ص: 56-59.

⁽¹⁰⁾ الصلابي، ص: 232.

⁽¹¹⁾ بعد معركة مرج دابق انتقل المتوكل مع سليم الأول إلى مصر. وسعى سليم الأول في مناسبات عدة إلى الانتفاع بنفوذ الخليفة العباسي في مفاوضاته مع "طومان باي" لكنه لم يفلح، عندئذ أرسله إلى إسطنبول. ولسوء سلوكه سجنه السلطان العثماني، وبقي في السجن إلى أن توفي السلطان سليم الأول حيث عاد بعد ذلك إلى القاهرة. أنظر:

- طقوش، ص: 174.

⁽¹²⁾ في عام 651هـ تحرك المغول بقيادة (هولاكو) لغزو الأراضي الفارسية والعربية الواقعة فيما وراء النهر وكذا من أجل القضاء على الخلافة العباسية في بغداد، وفي عام 653هـ وصل هولاكو وجيشه إلى العراق، وهناك أرسل إلى الخليفة المستعصم ببغداد يدعوه فيها إلى الاستسلام دون قيد أو شرط. رد الخليفة المستعصم على هولاكو برسالة جوابية متناقضة جمعت بين الكبرياء والتحدي، والضعف والخور. وبعد استفاد الطرق الدبلوماسية، وفشل المراسلات المتكررة بين هولاكو والمستعصم، هاجم الجيش التتري بغداد في محرم سنة 656هـ. وعندها قبض على الخليفة وأتباعه وقتلوا ببشاعة، ثم نهب التتار دار الخلافة، ودمروا بغداد. وبهذا سقطت الخلافة العباسية في بغداد في الرابع عشر من صفر عام 656هـ. أنظر:

- سامي بن خالد الحمود، الانتصار على التتار، دراسة تجمع بين الماضي والحاضر، د.ط، د.م.ط، د.ت.ط، ص: 21-27.
(م.ك.ش.إ.ث).

⁽¹³⁾ فريد بك المحامي، تاريخ الدولة العلية العثمانية، تحقيق إحسان حقي، ط1، دار النفائس، بيروت، 1401هـ/1981م، ص:

وكذلك مفاتيح الحرمين الشريفين⁽¹⁴⁾، ثم تلا ذلك إلقاء الخطبة في مساجد القاهرة، باسم الخليفة العثماني: "اللهم انصر السلطان ابن السلطان، ملك البحرين والبحرين، كاسر الجيشين، سلطان العراقيين (الكوفة والبصرة)، خادم الحرمين الشريفين، الملك المظفر سليم شاه"⁽¹⁵⁾. ومنذ ذلك التاريخ صار كل سلطان عثماني أميرا للمؤمنين وخليفة لرسول رب العالمين اسما وفعلا⁽¹⁶⁾.

وبعد أن وضع الخليفة العثماني يده على مصر، كان من الطبيعي أيضا أن يتطلع شريف مكة أبو البركات الهاشمي (901-931هـ/1495-1524م) إلى الحصول على رضا السلطان العثماني، وموافقته على تعيينه حاكما على مكة وضواحيها، وتبعا لذلك أرسل شريف مكة ابنه على رأس وفد إلى القاهرة لتقديم فروض الطاعة والولاء للخليفة العثماني، حاملا معه مفاتيح مكة والمدينة، وكذا الراية الشريفة والبردة الموجودة لدى الأشراف، وعرض عليه دخول الحجاز تحت حماية الدولة العثمانية⁽¹⁷⁾.

(14) اهتم سلاطين الدولة العثمانية بمخلفات الرسول عليه الصلاة والسلام والتي كانت قد جاءت هدية من الشريف بركات أمير مكة المكرمة إلى السلطان سليم الأول في أثناء إقامة هذا الأخير بمصر كرمز لدخول الحجاز تحت السيادة العثمانية، حفظت هذه الهدايا في خزانة (طوب قابي) بإسطنبول وأطلق عليها (أمانات مقدسة) وهي جملة عربية وضعت في صياغة تركية وكانت هذه الأمانات تضم بردته صلى الله عليه وسلم، وعرفت في اللغة التركية (خرقة شريف) وسجادة صلاة، والبيرق النبوي - أي العلم النبوي - وقوسا وسهما، وحدوة فرس، وسنا من أسنانه، وشعيرات من لحيته وحجرا يحمل أثر قدمه، ومفاتيح الكعبة، ونسختين من القرآن الكريم يقال أنهما كانتا للخليفة الراشد عثمان بن عفان رضي الله عنه، بالإضافة إلى أدوات وثياب وأسلحة تنسب لأنبياء سابقين - عليهم صلوات الله وسلامه - وكذا للخلفاء والصحابه رضوان الله عليهم. أنظر:

- الشناوي، ص: 23.

(15) طقوش، ص: 174.

(16) المحامي، ص: 194.

(17) لم يكن سلطان مصر في عهد المماليك هو الذي يختار شريف مكة، بل كان كبار أشراف الحجاز يختارونه من بينهم، ويطلبون إلى سلطان مصر تثبيتته في منصبه. وبعدما ساءت العلاقة بين الأشراف والمماليك في آخر عهدهم، عقب اكتشاف البرتغاليين رأس الرجاء الصالح عام (904هـ/1498م)، انجر عن ذلك دخول المنطقة في اضطرابات وثورة ضد النظام المملوكي في مصر الذي لم يعد قادرا على تأمين وحماية المنطقة، أضف إلى ذلك إقدام الحاكم المملوكي على اعتقال عدد من القضاة ورجال العلم الحجازيين في مصر. ومع دخول سليم الأول إلى مصر عام (923هـ/1517م) أفرج عن هؤلاء المعتقلين، الذين عرضوا عليه أن يكتب إلى أمير مكة الشريف بركات بن محمد (1495م - 1524م) داعيا إياه الدخول في طاعته. فوجد الأخير من الحكمة أن يدخل في طاعته لمواجهة الظروف المختلفة التي تحيط به. أنظر:

- إسماعيل أحمد ياغي، العالم العربي في التاريخ الحديث، ط1، مكتبة العبيكان، الرياض، 1418هـ - 1997م، ص: 42-43.

وقد ضمن هذا الولاء للأشراف حكم الحجاز من جهة، بعدما كانوا تحت السيطرة المملوكية، كما أمّن لهم فائدة اقتصادية هامة من خلال استمرار تدفق الحجاج من الدول العربية والإسلامية من المشرق والمغرب، بعد سيطرة العثمانيين على سواحل البحر الأحمر من جدة إلى اليمن، ثم سيطرتهم على الحوض الغربي للمتوسط بعدما انضوت الجزائر تحت راية الخلافة العثمانية سنة (924هـ/1518م) ثم تلتها كلا من طرابلس الغرب وتونس سنتي (958هـ-1551م/982هـ-1574م) من جهة أخرى (18).

ومع هذا كله حافظ العثمانيون على استقلال الحجاز واحتفظ الأشراف بالحكم الذاتي له، مع تمتعهم بجميع الحقوق الموروثة عن الأسرة الهاشمية، واكتفى العثمانيون بتولي حراسة شواطئ البحر الأحمر وحماية قوافل الحجاج والاعتناء بأحوال الطرق، وتقديم المؤن والمساعدات وقت الحاجة (19).

ويبدو من تسلم سليم الأول مفاتيح الكعبة من ابن شريف مكة عام (923هـ/1517م)، أنه قد كرس دوره كخليفة للمؤمنين، وبذلك أصبحت للسلطان سليم سلطتين دينية وسياسية على شرق المتوسط، وكان يريد توسيع هذه السلطة على غرب المتوسط، حيث كان يسعى لاستكمال شروط الخلافة بضم بقية دول شمال إفريقيا لنفوذه (20). فالسلطان العثماني الذي أضاف إلى ألقابه لقب خادم الحرمين الشريفين أصبح مسؤولاً عن حماية المسلمين شرقاً وغرباً، ثم إن واجب السلطان كخليفة للمسلمين، كان يحتم عليه الدفاع عن الحوض الغربي للمتوسط وحمايته من المد المسيحي (21).

(18) طقوش، ص ص: 175-176.

(19) نفس المرجع، ص ص: 175-176.

(20) لم يعر السلاطين العثمانيين لقب الخليفة أي اهتمام جدي بعد فتحهم لمصر، لأن الخلافة كانت قد فقدت مكانتها منذ أحقاب طويلة، وكان الخليفة العباسي في القاهرة مجرداً من كل سلطة فعلية، ولم يبدأ اهتمام العثمانيين بلقب الخليفة إلا حين اشتد ضغط بعض الدول الأوربية على الدولة العثمانية وممتلكاتها، فاتخذ السلاطين العثمانيين من الخلافة وسيلة لمقاومة ضغط هذه الدول. أنظر: - ياغي، العالم العربي، ص: 42.

(21) فهد بن محمد السويكت، "مواقف الأشراف السعديين بالمغرب من مسألة الخلافة العثمانية"، مجلة الملك سعود، ع: 19، كلية الآداب، الرياض، 1427هـ/2006م، ص: 180.

وفي الوقت الذي كان التوسع العثماني في المشرق العربي قد تمّ نتيجة لعدة اصطدامات عسكرية كبرى في جالديران⁽²²⁾ ومرج دابق⁽²³⁾ والريدانية⁽²⁴⁾، فضلا عن المعارك الأخرى التي خاضتها الدولة العثمانية لضم العراق⁽²⁵⁾، نجد أن التوسع العثماني في بلاد المغرب الإسلامي، كان في الغالب نتيجة لإلحاح القوى المعنية هناك على العثمانيين أن يدخلوا في حماية الدولة العثمانية، لاسيما سكان مدينة الجزائر⁽²⁶⁾.

فبعد التهجير الجماعي الذي طال مسلمي الأندلس، نزحت أعدادا كبيرة منهم إلى شمال إفريقيا، وحدثت العديد من المشكلات الاجتماعية والاقتصادية في ولايات الشمال

(22) ازداد الخطر الشيعي ضراوة في السنوات الأخيرة من عهد السلطان بايزيد الثاني وعندما تولى السلطان سليم السلطنة قامت أجهزة الدولة العثمانية الأمنية بحصر الشيعة التابعين للشاه إسماعيل الصفوي المناوئين للدولة العثمانية ثم قام بتصفية أتباع الشاه إسماعيل، فسجن وأعدم عدداً كبيراً من أنصار الشاه إسماعيل في الأناضول ثم قام بمهاجمة إسماعيل نفسه. ووصلت القوات العثمانية إلى صحراء "جالديران"، في أوت عام 1514م واحتلت المواقع الهامة بها، مما مكنها من إيقاع الهزيمة بإسماعيل الصفوي وجنوده. واضطر إسماعيل إلى الفرار في نفس الوقت الذي كان سليم الأول يستعد فيه للدخول إلى "تبريز" عاصمة الصفويين. ودخل سليم الأول تبريز واستولى على الغنائم ثم اتخذها مركزاً لعملياته الحربية. أنظر:

- الصلابي، ص ص: 236-238.

(23) هي معركة خاضها العثمانيون بقيادة سليم الأول ضد المماليك بقيادة قانصوه الغوري، وذلك بعد أن ضم سليم الأول إمارة ذي القدر التي كانت تشكل تهديدا حقيقيا بغاراتها المتكررة على القوافل العثمانية، ومنعها من إمدادات الحرب في الجهة الشرقية للدولة العثمانية إذ كانت هذه الإمارة الحد الفاصل بينه وبين المماليك، وبالإستيلاء عليها أضحت الطريق مفتوحا أمامه في مواجهة المماليك. وعليه عد قانصوه الغوري تصرف السلطان سليم بمثابة إعلان الحرب على المماليك، فأخذ يعد العدة لذلك، كما توجه السلطان سليم بجيش عزم من الأناضول إلى بلاد الشام، في أوائل 922هـ/ ربيع 1516م، والتقى الجيشان في "مرج دابق" شمالي حلب في رعى معركة دامت ثمان ساعات، كانت كافية لانتصار العثمانيين على المماليك، وأصفر ذلك عن ضم العثمانيين لحلب وحماة وحمص ودمشق. أنظر:

- طقوش، ص ص: 165-168.

(24) بعد سيطرة السلطان سليم الأول على بلاد الشام، وتجهزه لفتح مصر، تقدم بجيوشه لدخولها في ذي الحجة 922هـ/ كانون الثاني 1517م، فوقف له المماليك بقيادة "طوماي باي" - ابن شقيق الغوري - مرة أخرى وحاولوا صدّه عنها، وعلى إثر ذلك قامت المواجهة بين العثمانيين والمماليك في "الريدانية" شمالي القاهرة انتهت بانتصار العثمانيين على المماليك. أنظر:

- نفس المرجع، ص ص: 170-171.

(25) بعد أن سيطر العثمانيون على بلاد الشام كان من الطبيعي أن يوجهوا أنظارهم صوب العراق ووقفوا توسع الصفويين به، وكان العثمانيون في أعقاب انتصارهم على الصفويين في جالديران عام (920هـ/ 1514م)، قد فرضوا نفوذهم على الموصل وديار بكر وعينوا حكاما من قبلهم عليها، أما بغداد التي كانت في يد "محمد خان الصفوي" فقد تركها وفر إلى إيران بعد أن رأى الأهالي ترحب بالقوات العثمانية، كان ذلك على عهد سليمان القانوني في 31 ديسمبر 1534م. أنظر:

- ياغي، العالم العربي، ص ص: 54-57.

(26) طقوش، ص: 216.

الأفريقي⁽²⁷⁾ هي في واقع الأمر امتداد لأزمات شهدتها بلاد المغرب الإسلامي بعد سقوط دولة الموحدين⁽²⁸⁾، ووفقا لما نقله ابن خلدون (732هـ - 808هـ/1333م - 1406م) في كتابه العبر⁽²⁹⁾، فإن الأزمات في بلاد المغرب الإسلامي بدأت في آخر المائة الثامنة للهجرة (النصف الثاني من القرن الرابع عشر)، بعد انتشار قبائل بني هلال وبني سليم⁽³⁰⁾ البدوية في شمال إفريقيا، وتأثيرهم السياسي والاقتصادي والديمقراطي وانهلال العصبية البربرية، وانتشار الطاعون الذي فتك بعدد كبير من السكان⁽³¹⁾.

ومع ذلك فإن ابن خلدون لا ينفي فضل الأندلسيين ودورهم في نقل مظاهر الحضارة إلى تونس وكذا المغرب الأقصى⁽³²⁾. ولما كان من بين المسلمين النازحين إلى هذه المناطق أعداد وفيرة من البحارة، كان من الضروري أن تبحث عن الوسائل الملائمة لاستقرارها، إلا أن بعض العوامل قد توافرت لتدفع بأعداد من هؤلاء البحارة إلى طريق الجهاد ضد القوى المسيحية في البحر المتوسط. ويأتي في مقدمة هذه الأسباب الدافع الديني المتمثل في الصراع بين الإسلام والنصرانية وإخراج المسلمين من الأندلس ومتابعة الإسبان والبرتغال للمسلمين في الشمال الأفريقي⁽³³⁾.

(27) الصلابي، ص: 268.

(28) سلالة مغربية حكمت المغرب من سنة 541هـ إلى سنة 668هـ. أسسها المهدي ابن تومرت على أنقاض دولة المرابطين، وكان عبد المؤمن بن علي الندرومي الكومي من قرية تاجرا بتلمسان أول حاكم لها.

(29) كتاب عرض فيه ابن خلدون في مقدمته (الجزء الأول) الأصول المنهجية في علمي التاريخ والاجتماع، وعنوانه الكامل "كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر" وهو من بين أهم إنتاج علمي في العصر الإسلامي الوسيط. أنظر:

- أبو عمران وآخرون، معجم مشاهير المغاربة، د.ط، المؤسسة الجزائرية للطباعة، جامعة الجزائر، 1995، ص: 196.

(30) كان العرب الهلاليون بالحجاز، وبعدما أسست الدولة الفاطمية بمصر انتقلت قبائل منهم إلى صعيد مصر، وعندما قطع الصنهاجيون بإفريقيا علاقتهم بالفاطميين، وجهوا هذه القبائل إلى القيروان وتونس فاستقرت بها. ومع ثورة بنو غانية على الموحدين انضم إليهم بنو هلال، فسار إليهم يعقوب المنصور الموحدي، وشتت شملهم ونقل جموع بني هلال وبني جشم إلى المغرب فأنزل قبيلة رياح ببلاد الهبط بالمغرب، وأنزل قبائل جشم ببلاد تامسنا، ثم انتشرت فروع هذه القبائل في بلاد المغرب والصحراء الغربية. أنظر:

- الصديق ابن العربي، كتاب المغرب، ط3، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، دار الغرب الإسلامي، 1984، ص: 81.

(31) محمد خير فارس، علي عامر محمود، تاريخ المغرب العربي الحديث "المغرب الأقصى د ليبيا"، منشورات جامعة دمشق، 1999-2000، ص: 5.

(32) ابن خلدون عبد الرحمن، مقدمة ابن خلدون، ج1، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، د. ت. ط، ص: 37.

(33) الصلابي، ص: 268.

ومن تبعات ذلك أن الإسبان استولوا على عدد هام من النقاط الحصينة على طول سواحل المغرب الأقصى والجزائر كما أرغموا الحفصيين⁽³⁴⁾ في تونس على الخضوع لهم. وأدى هذا إلى تحويل النشاط الجهادي الإسلامي من شرق المتوسط إلى غربه، مما مهد للفتح العثماني في شمال إفريقيا⁽³⁵⁾.

ولعل السؤال الجدير طرحه هنا، ألم يعد الفضل للعثمانيين بعد ظهورهم في الحوض الغربي للمتوسط وشمال إفريقيا، في أن الأقاليم المغاربية حافظت على عروبته وإسلامها، خاصة بعد الحملات الصليبية التي قادتها كل من إسبانيا والبرتغال وفرسان القديس يوحنا؟ ومن وجهة نظر أخرى، قد يقال أن الدولة العثمانية هيمنت على العرب وحكمتهم بالقوة، وأنها استعمرتهم واستغلتهم؟ ثم ماذا حقق المغرب غير الاستقلال، نتيجة انفلاته من الهيمنة العثمانية والإيبيرية في نفس الوقت؟

خضعت بلاد المغرب الإسلامي لحكومات واهية بعد سقوط دولة الموحدين في بلاد المغرب والأندلس، كادت تُلغى أنفاسها الأخيرة: بنو حفص في تونس يحكمون - نظريا - البلاد التونسية وطرابلس الغرب، ومنهم فرع يحكم شرق البلاد الجزائرية (بجاية وقسنطينة والزاب)، وبنو مريم الوطاسيون⁽³⁶⁾ يحكمون المغرب الأقصى إلى مدينة وجدة⁽³⁷⁾،

(34) ينتسب الحفصيون إلى أبي حفص عمر بن يحيى الهنتاتي، من قبيلة هنتاتة من المصامدة في جنوب المغرب الأقصى، انفصلت دولة بني حفص عن الدولة الموحدية في أيام أبي زكريا يحيى سنة 627هـ / 1229م، ودامت ثلاثة قرون، سقطت على يد الأتراك بقيادة سنان باشا سنة 981هـ / 1573م. أنظر:

- نور الدين عبد القادر، صفحات في تاريخ مدينة الجزائر، من أقدم عصورها إلى نهاية العهد التركي، ط2، نشر كلية الآداب، مطبعة البعث، قسنطينة، 1965م، ص: 38-39.

(35) ياغي، الدولة العثمانية، ص: 77.

(36) ينتمون إلى قبيلة زناتة الكبرى التي كانت تحتل بلاد النخيل من غدامس في ليبيا إلى السوس الأقصى، وكانت أغلبية هذه القبائل بالمغرب الأوسط، فكان بنو مريم يقيمون فيما بين فيكيك وسجلماسة وملوية. لما سقطت دولة الموحدين في أواسط القرن السابع، دخل المرينيون إلى المغرب وأسسوا دولة جديدة. أما بني وطاس فهم فرقة من بني مريم الزناتيين، كانوا يعرفون ببني الوزير، دخلوا المغرب مع المرينيين وكانوا عنصر فتنة وشغب فأعدم الملوك عددا منهم، ثم تولوا الوزارة لأواخر ملوك المرينيين، فاستفحل شرهم وعظمت صولتهم، إلى أن جاء عبد الحق آخر ملوك بني مريم فأفناهم عن آخرهم، ولم يفلت منهم سوى محمد الشيخ الوطاسي الذي تولى الملك بعد انقراض بني مريم سنة (872هـ / 1467م). أنظر:

- ابن العربي، ص: 81-83.

(37) مدينة جميلة أسسها أهل البلاد في سهل على مقربة من شاطئ البحر المتوسط، وهي قريبة من تلمسان، تكثر فيها الحبوب والمراعي وهي مدينة محاطة بالبساتين والحدائق، وبحسب الروايات فقد كانت تتألف من خمسة آلاف نسمة في القديم، وخربها أحد =

وبنو زيان التلمسانيون⁽³⁸⁾ يحكمون - نظريا - مابين ذلك، وفعليا لا يحكمون إلا تلمسان وضواحيها وساحل البحر المتوسط إلى مقربة من مدينة الجزائر. أما بقية البلاد الوسطى والجنوبية فكانت إمارات قبلية عديدة، تشمل مشيخة مدينة الجزائر⁽³⁹⁾ (إمارة كوكو) التي يحكمها ابن القاضي⁽⁴⁰⁾، وهي القسم الغربي من جبال القبائل الكبرى⁽⁴¹⁾.

= ملوك فاس المرينيين في حربه ضد ملك تلمسان سنة 1515م لأنها امتنعت عليه، ولما دخل عروج مدينة تلمسان أرسل رسله إلى وجدة حتى يعترف أهلها به لأنهم رفضوا الانقياد إليه. أنظر:

- مارمول كرباخال، إفريقيا، ج2، ترجمة محمد حجي وآخرون، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مكتبة المعارف، الرباط، 1984م، ص ص: 294-295.

(38) أسستها قبيلة بني عبد الواد القاطنة بين سعيدة شرقا ووادي ملوية غربا. امتد نفوذ هذه الدولة في كثير من الأحيان إلى القطر الجزائري كله، وقد كان يزاحمها غربا بنو مرين وشرقا بنو حفص، كما تعرف كذلك باسم دولة بني عبد الواد نسبة إلى جدهم لأنه كان يتعبد في واد هناك، ولعل تسمية هذا الجد جاءت من انفراده بأسرته بسكنى الواد، اشتهرت هذه الدولة التي حكمت المغرب الأوسط باسمها الأخير إلى غاية عهد السلطان أبي حمو الثاني، ثم عرفت باسم دولة بني زيان أو الزيانية نسبة إلى زيان وهو والد يغمراسن، انتهى حكم هذه الدولة على يد الأتراك مع احتلالهم عاصمة الدولة تلمسان بخلع الأمير مولاي حسن آخر ملوك بني زيان سنة 961هـ/ 1554م. وقد ذكر تاريخ هذه الدولة أبو زكرياء يحيى بن خلدون في كتاب سماه "بغية الرواد في أخبار الملوك من بني عبد الواد". أنظر:

- عبد القادر، صفحات، ص ص: 39-40.

(39) كان لمدينة الجزائر هيئة تحكمها تحت رئاسة شيخ، وقد تولى عليها في فترة من الزمن العالم الشهير سيدي عبد الرحمان الثعالبي، ولكنه تولى عن مشيخة المدينة واشتغل بالتعليم والتدريس وكانت وفاته سنة (870هـ/ 1465م)، أي نحو أربعين سنة قبل مجيء الأتراك إلى الجزائر. ثم انتقلت الرئاسة من الثعالبة إلى أولاد سالم من بني علان الهواري وكان آخرهم الشيخ سالم التومي وكان سكناه بحي (حومة) باب الوادي داخل مدينة الجزائر. أنظر:

- نفس المرجع، ص: 48.

(40) عينه السلطان الحفصي بتونس واليا على بونة (عنابة) ومقاطعة قسنطينة. جعل ابن القاضي قرية " أورير" الصغيرة في قبيلة أيت يحيى المطللة على وادي السباو مركزا لقيادته، فأطاعه بنو جناد والقرى والمدامر الأخرى القريبة منهم وكانت سيطرته ممتدة من جيجل إلى الجزائر. يعود أصل ابن القاضي إلى القاضي الشهير أبي العباس أحمد الغبريني (ت 714هـ/ 1314م)، من أعيان بجاية، له كتاب سماه "الدرية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية". وعندما تولى خير الدين باشا حكم الجزائر، عين ابن القاضي واليا على إمارة "كوكو" قرب "أربعاء بني ايراثن" بجل جرجرة، وبالرغم من أن ابن القاضي ساعد الأتراك في جهادهم ضد الاسبان إلا أنه كان من حين لآخر يثور عليهم، ثم يعقد الصلح معهم، وفي غياب خير الدين باشا عن مدينة الجزائر انتهز ابن القاضي الفرصة لاحتلالها، ولكن بعد عودة خير الدين فر ابن القاضي حتى لقي حتفه بثنية ابن عيشة بأحواز شرق الجزائر سنة (934هـ/ 1527م) أنظر:

- نفس المرجع، ص ص: 45-46 و ص ص: 64-65.

(41) أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا 1492-1792م، ط3، دار البصائر، الجزائر، 2009، ص:

أما القسم الشرقي من تلك الجبال، فتحت إمرة الأمير عبد العزيز الحفصي، يحكمها من عاصمته " قلعة بني عباس" (42)، وإمارات أخرى واهية تقتسم المنطقة الوسطى من بلاد المغرب الإسلامي فيما بينها ولا تدين بالولاء لأحد (43).

ولا ريب أن تدهور الوضع العام في بلاد المغرب الإسلامي وكذا تحول النشاط الجهادي من المشرق إلى المغرب الإسلامي، تزامنا مع قيام حروب الاسترداد (44). وتبعات ذلك على مسلمي المغرب والأندلس، هو الذي فتح الباب على مصراعيه أمام العثمانيين للتواجد في الحوض الغربي للمتوسط وشمال إفريقيا (45).

وقبل ظهور العثمانيين في شمال إفريقيا كان النشاط الجهادي ضد الأسبان والبرتغاليين غير منظم حتى ظهور الأخوين خير الدين وعروج بربروس (46)، فقد استطاع الرجلان تجميع القوات الإسلامية في الجزائر وتوجيهها نحو الهدف المشترك لصد أعداء الإسلام ومنعهم من

(42) تقع قلعة بني عباس التاريخية في إغبل اعلي بولاية بجاية، يعود تاريخ تأسيسها إلى القرن 15م على يد الأمير عبد الرحمان أحد أحفاد الأدارسة، والذي قدم إليها من قلعة بني حماد بالحصنة بعد احتلالها من طرف عرب بني هلال. أنظر: - كريخال، ج2، ص ص: 385-390.

(43) من ذلك إمارة "بني مهلهل" التي استبدت بأمور القيروان وما إليها، وفصلتها عن الدولة الحفصية في تونس. وإمارة عائلة بوعكاز المعتمدة على عصبية عرب الداوادة، التي نصبت سلطانها على الزاب والحصنة وبعض جهات الصحراء. أنظر: - المدني، ص: 83.

(44) بعد أن كانت الدولة الإسلامية في الأندلس متماسكة وموحدة، بدأت تقام ممالك مسيحية في شمال اسبانيا المحررة مثل ممالك "قشتالة" و"أراجون". ولقد استغل المسيحيون ظروف المسلمين لاسترجاع الكثير من المدن الإسلامية في الأندلس من ذلك: قرطبة سنة 1236م وإشبيلية 1248م. ومع اتحاد مملكة ليون وقشتالة مع مملكة أراجون، استطاع الملك فيردناند والملكة إيزابيلا، استرجاع الممالك العربية في الأندلس الواحدة تلو الأخرى إلى أن سقطت في أيديهم غرناطة آخر قواعد المسلمين سنة 1492م. أنظر: - عبد الرحمن علي الحجي، التاريخ الأندلسي من الفتح حتى سقوط غرناطة (92-897هـ/811-1492م)، ط2، دار القلم، دمشق، 1981، ص ص: 524-530.

(45) يعتقد الأستاذ بنحادة عبد الرحيم أستاذ التاريخ الحديث بالمغرب الأقصى أن الأتراك بعد سقوط الأندلس لم يقدموا الدعم المناسب والفعلي لمسلمي الأندلس بل اكتفوا بالتعبير عن الرغبة والأمل في الدعم والمساندة، ولكنهم تركوا مسألة المساعدة الفعلية للإخوة بربروس العاملين في البحر الأبيض المتوسط. أنظر:

- عبد الرحيم بنحادة، العثمانيون المؤسسات والاقتصاد والثقافة، ط1، اتصالات سبو، الدار البيضاء، المغرب، 2008، ص: 35.

(46) يرجع أصل الأخوين المجاهدين إلى الأتراك المسلمين، والدهما يدعى يعقوب بن يوسف. وأهم سيدة مسلمة أندلسية كان لها الأثر على أولادها في تحويل نشاطهم شطر بلاد الأندلس التي كانت تنن في ذلك الوقت من بطش الإسبان والبرتغاليين، وكان لعروج وخير الدين أخوان مجاهدان هما إسحاق ومحمد إلياس وعلى ما ذكره المؤرخ الجزائري أحمد توفيق مدني مستنداً على أثريين مازالا موجودين في الجزائر أولهما رخامة منقوشة كانت موضوعة على باب حصن شرشال، وثانيهما رخامة كانت على باب مسجد الشواس بالعاصمة الجزائرية، وقد نقش على الرخامتين اسم أوج بن يعقوب. أنظر: - المدني، ص ص: 141-146.

التوسع في سواحل الشمال الإفريقي⁽⁴⁷⁾. كما ساعد الجهاد البحري الذي تزعمه الأخوان خير الدين وعروج بربروس في الجزائر منذ القرن السادس عشر على توحيد صفوف المسلمين بالسواحل المغاربية، فأصبحوا بمثابة كتلة حضارية واحدة تحت راية الدولة العثمانية، هذه الدولة التي كان لها الفضل في وقف الانهيار الذي حل ببلاد الإسلام من مشرقها إلى مغربها، والذي ابتدأ في فترة سابقة على يد المغول ببغداد والصليبيين بالشام ثم الأندلس⁽⁴⁸⁾.

إنّ ما أورده كتب المؤرخين عن الدور الذي لعبه عروج وخير الدين في الحوض الغربي للمتوسط، يؤكد حرصهما على الجهاد في سبيل الله ومقاومة أطماع إسبانيا والبرتغال في الممالك الإسلامية في شمال إفريقيا، ولقد أبدع الأخوان في الجهاد البحري ضد النصارى وأصبحت لحركة الجهاد البحري في القرن السادس عشر مراكز مهمة في شرشال⁽⁴⁹⁾. ووهران والجزائر ودلس⁽⁵⁰⁾ وبجاية وغيرها في أعقاب طرد المسلمين من الأندلس، وقد شاعت وذاعت أخبارهما في بلاد المغرب والأندلس وأصبحا يمثلان قوة إسلامية عظيمة توجهت نحوها الأنظار⁽⁵¹⁾، وقد قويت بفعل انضمام المسلمين الفارين من الأندلس والعارفين بالملاحة وفنونها والمدرّبين على صناعة السفن⁽⁵²⁾.

وعليه بفضل جهود هذين الأخوين ومن آزرهما في جهادهما من الأهالي والأندلسيين، تمّ تصفية الجيوب الإسبانية وبالتالي وضع حد للتوسع المسيحي بشمال إفريقيا، باسترجاع

(47) الصلابي، ص: 268.

(48) ناصر الدين سعيدوني، وثائق جزائرية، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، ط2، دار البصائر، الجزائر، ص: 135.

(49) مدينة كبيرة عتيقة بناها الرومان، تقع بين مدينة تنس ومدينة الجزائر، تطل على البحر المتوسط، استول عليها القوط لمدة طويلة، وبعد الفتح الإسلامي لبلاد المغرب أعاد إليها المسلمون ازدهارها وجمالها، وقعت في قبضة الإسبان في عهد الملك فرديناند، كما دخلها الأندلسيون وعمروها واختلطوا بسكانها من البربر والعرب، باعتهما أندري دوريا واستولى عليها بعد هجوم مباغت على الحامية التركية التي كانت تتواجد بها. أنظر:

- كاريخال، ج2، ص: 356-357.

(50) مدينة مظلة على ساحل البحر المتوسط ضمن إقليم مدينة الجزائر من ناحية الشرق، كانت تضم حصنا تقيم فيه الحامية التركية، اشتهر سكانها بالصيد والصباغة، كما أراضيها واسعة وقمحها جيد وماشيتها كثيرة. أنظر:

- نفس المصدر، ج2، ص: 372.

(51) المدني، ص: 148.

(52) الصلابي، ص: 270.

جيجل عام (920هـ/1514م)، وتنس (922هـ/1516م)⁽⁵³⁾ وحصن الصخرة (البينيون)⁽⁵⁴⁾ بمدينة الجزائر عام (936هـ/1529م)، وبجاية (963هـ/1555م)⁽⁵⁵⁾.

والأهم في هذا كله أن الانتصارات العديدة التي حققها عروج وخير الدين في جهادهما ضد الغزاة الصليبيين قد أثارت الإعجاب لدى القوى الإسلامية الضعيفة في هذه المناطق، ويبدو ذلك من خلال طلب سكان الجزائر من الأخوين عروج وخير الدين البقاء في الجزائر، مع مراسلتهم للخليفة العثماني سليم الأول، رغبة في جعل الجزائر إيالة عثمانية⁽⁵⁶⁾.

هذا وقد أبدت الدولة العثمانية استجابة لطلب سكان مدينة الجزائر، ومنذ تاريخ (924هـ/1518م) صارت الجزائر إيالة عثمانية، وخير الدين بربروس حاكما عليها⁽⁵⁷⁾.

لقد أنشأ خير الدين إيالة الجزائر التركية وجعل حدودها تمتد من وجدة على مجرى وادي ملوية غربا⁽⁵⁸⁾، إلى أقصى بلاد القبائل والونشريس⁽⁵⁹⁾ والتطري⁽⁶⁰⁾ وتلمسان حتى

⁽⁵³⁾ كانت ضمن إمارة تلمسان، يحدها من جهة الغرب تلمسان ومن الشرق مدينة الجزائر ويحدها جنوبا جبال الأطلس وشمالا البحر المتوسط، أما تنس المدينة فهي مدينة عتيقة بناها السكان الأصليون، وهي تقع في سفوح جبال الأطلسي، بين مدينة وهران ومدينة الجزائر. وقعت في يد الأتراك في عهد خير الدين باشا. أنظر:

- كاريخال، ج2، ص: 353-354.

⁽⁵⁴⁾ احتل الإسبان الصخرة الوسطى بمرسى الجزائر، أين يوجد برج الفنار الآن، وبنوا عليها حصنهم المعروف بالبينيون (الصخرة العالية)، وكان ذلك سنة 916هـ/1510م، وأنزلوا فيه حامية وذخائر وآلات حربية، وضيقوا على أهل المدينة. أنظر:

- عبد القادر، صفحات، ص: 48.

⁽⁵⁵⁾ سعيدوني، ص: 135.

⁽⁵⁶⁾ قام الأستاذ عبد الجليل التيمي بترجمة وثيقة تركية محفوظة في دار المحفوظات التاريخية باستنبول - طوب قابي سيراى- تحت رقم 4656، وهذه الوثيقة عبارة عن رسالة موجهة من أعيان سكان مدينة الجزائر، ومؤرخة في أوائل شهر ذي القعدة عام (925هـ/1519م)، كان الغرض منها ربط الجزائر بالدولة العثمانية. أنظر:

- الصلابي، ص: 271.

⁽⁵⁷⁾ نفس المرجع، ص: 276.

⁽⁵⁸⁾ نهر كبير ينبع من الأطلس الكبير، ويسقي سفوح جبال بني يزناسن، ليصب بعدها في البحر مخترقا إقليم الحوز، ويسمى أيضا بوادي "ملوكان"، كما أنه نهر عريض جدا اعتاد المسيحيون أن يسيروا فيه بزوارقهم متستريين بأشجاره الكثيفة ليغيروا على المسلمين. أنظر:- كربيخال، ج1، ص: 37.

⁽⁵⁹⁾ جبل عال شديد الانحدار، سكانه أشداء في الحروب، إذ كانوا على قتال دائم لملوك تلمسان الزيانيين، أعالي الونشريس لا تصلح للزراعة فلا ينمو فيها إلا الدوم الذي تصنع منه السلال والحصر، أما سفوحه فهي أراض صالحة للزراعة، تتبع فيها أعين كثيرة. أنظر:- نفس المصدر، ج1، ص: 361.

⁽⁶⁰⁾ نسبة إلى بابلك التطري، أحد الأقاليم الإدارية التابعة للحكومة التركية في الجزائر يغطي المدينة وضواحيها، يخضع لسلطة الباي، ومركز قيادته المدينة، وبالتيطري يوجد جبل أشير الذي نزلت به قبيلة الثعالبة العربية في القرن 8 هـ. أنظر:

- عبد القادر، صفحات، ص: 26.

الصحراء، وبهذا أخذت بلاد الجزائر تتكون بشكلها الحالي على وجه التقريب⁽⁶¹⁾. ولأن الهجمات الصليبية الإسبانية والبرتغالية لم تتوقف على السواحل المغاربية، كان من الضروري أن يواصل العثمانيون فتوحاتهم في شمال إفريقيا، بمشاركة الجزائر، فجاء الدور بعد ذلك على طرابلس الغرب، التي تم تحريرها من يد فرسان القديس يوحنا⁽⁶²⁾ سنة (958هـ/1551م)⁽⁶³⁾، ثم تحرير تونس، بقيادة علق علي⁽⁶⁴⁾ سنة (982هـ/1574م)⁽⁶⁵⁾. بالمحصلة استطاعت الدولة العثمانية في القرن السادس عشر تحقيق عدة أهداف إستراتيجية شكلت مجتمعة أسسا ثابتة حكمت وضعية الدولة العثمانية داخل المجال الإسلامي لمدة ثلاثة قرون، أي حتى مجيء الحملة الفرنسية إلى مصر. تمثل الهدف الإستراتيجي الأول في كسر السيطرة العسكرية والسياسية للقوى الأوروبية في المتوسط وفي شمال إفريقيا وشواطئ الجزيرة العربية⁽⁶⁶⁾.

(61) حسين مؤنس، تاريخ المغرب وحضارته من الفتح الإسلامي إلى الغزو الفرنسي، ج3، دم.ط، 1992، ص: 164.

(62) جمعية تأسست لإسعاف المرضى من زوار بيت المقدس سنة 1113م، وصارت في عهد الصليبيين منظمة عسكرية سنة 1137م، تحصن أعضاؤها في قبرص سنة 1291م، وسنة 1310م احتلوا جزيرة رودس ومنها سمو "فرسان رودس"، ثم حطوا في مالطا سنة 1530م، فسموا "فرسان مالطا"، وحكموها حتى حملة نابوليون بونابرت على مصر سنة 1798م. أنظر:

- حروفش بطرس وآخرون، المنجد في الأعلام، ط1، دار المشرق، بيروت، 1989. ص: 523.

(63) أقدم أهل طرابلس الغرب الذين عانوا كثيرا من المضايقات الإسبانية ثم من طرف فرسان القديس يوحنا، على دعوة العثمانيين للمجيء إلى بلادهم، فأرسل أهل مدينة تاجوراء لهذا الغرض وفدا إلى اسطنبول، أين استجاب السلطان سليمان القانوني لطلبهم. أنظر:

- ياغي، العالم العربي، ص ص: 62-63.

(64) ولد علق علي باشا في أواخر القرن السادس عشر من أسرة متواضعة بقرية ليكاستيلي (Licasteli) بساحل كلابريا جنوب إيطاليا واشتغل كملاح، وقع في أسر السفن الجزائرية بالقرب من السواحل الإيطالية الجنوبية سنة 1520م، عرف بالفرطاس، لمرض جلدي تسبب في سقوط شعره، فتجنبه رفاقه، وربما كان ذلك سببا في إعلان إسلامه، وحسب بعض المصادر، فإنه أسلم ليتجنب العقاب لتسببه في قتل أحد رفاقه في الشجار، والراجح أن إسلامه على يد الحسن بن خير الدين كان اقتناعا ورغبة فتخلّى عن الكنية المسيحية "لوقا قاليني"، (Luca Caleni)، واختار لنفسه اسم العلق علي. عمل بعد إسلامه مساعدا لعلّي أحمد رايس، أحد رفقاء خير الدين باشا، عينه السلطان سليم الثاني بايلربايا على الجزائر سنة (996هـ/1568م). لعب العلق علي دورا بارزا في قيادة الدولة الجزائرية وفي نصرته الأندلسيين في إسبانيا سنة (997هـ/1569م). كما كلفه السلطان سليم الثاني بقيادة الأسطول الجزائري في معركة الليبانت سنة (979هـ/1571م). أنظر:

- أبو عمران، ص ص: 370-377.

(65) سعيدوني، ص ص: 146-148.

(66) حسن الضيقة، دولة محمد علي والغرب، الاستحواذ والاستقلال، ط1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 2002، ص: 61.

وتمثل الهدف الثاني في توفير شروط قيام وحدة سياسية واقتصادية بقيت راسخة الأسس حتى القرن الثامن عشر الميلادي.

أما الهدف الثالث تجسد فيما أحدثته الدولة العثمانية من تجديدات في مباني السياسة والثقافة والاقتصاد داخل المجال العربي- الإسلامي، وترتب عليها إطلاق ديناميات اجتماعية واقتصادية شتى، لعبت في المراحل التاريخية اللاحقة دورا فعالا في مقاومة شتى التحديات الخارجية والداخلية التي واجهتها الدولة العثمانية⁽⁶⁷⁾.

بعدما عرضنا أحوال العالم العربي والإسلامي زمن ظهور الأتراك العثمانيين كإحدى أهم القوى الفاعلة في الساحة العالمية في القرن السادس عشر، بقي علينا أن نعرض أوضاع المغرب الأقصى محور بحثنا، إذ لا يمكن الحديث عن العلاقات المغربية العثمانية خلال الفترة المعنية دون الوقوف على أوضاع المغرب الأقصى قبل ذلك.

حاولت بعض الدراسات المغربية إصاق ويلات المغرب في القرن الخامس عشر والسادس عشر بالغزو الأيبيري. ودون أن نقلل من أهمية هذا العامل، فإننا لا نظن أنه الوحيد. ولذا وجب التركيز على العوامل الداخلية الأخرى الكامنة وراء الخراب الذي دمر البلاد⁽⁶⁸⁾. وإن كان هذا الموضوع ليس عنوان الدراسة كما أسلفنا، إلا أن الإشارة إليه تقودنا للحديث عن الصراع الوطاسي- السعدي⁽⁶⁹⁾ حول حكم المغرب، وكيف استعان أفراد من الأسرتين بالأتراك العثمانيين لبسط نفوذهم عليه، والتخلص من الضغوط الأجنبية.

⁽⁶⁷⁾ نفس المرجع، ص: 61.

⁽⁶⁸⁾ عبد المجيد قدوري، المغرب وأوروبا، ما بين القرن الخامس عشر والثامن عشر، مسألة التجاوز، ط1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 2000م، ص: 90.

⁽⁶⁹⁾ من أشرف الحجاز، قدم جدهم الأكبر أحمد بن قاسم إلى درعة بالمغرب الأقصى عام (1232هـ/630م)، وحين استقر بها خلف عددا من الأولاد منهم "زيدان" ثم من أولاد زيدان "مخلوف" ومن أولاد مخلوف "علي"، ومن أبناء علي عبد الرحمان الذي استوطن إقليم السوس، وخلف عبد الرحمان محمد المدعو "القائم" الذي خلف والده على رأس زاوية أسسها بقرية "تكمادارت" بدرعة، ويعد محمد القائم أول ملوك الدولة السعدية، إذ يبيع له بتيديسي سنة 915هـ/1509م). ونظرا لكبر سنه تنازل عن الملك لابنه أحمد المعروف بالأعرج، توفي محمد القائم سنة 923هـ/1517م. أنظر:

- أبو القاسم الزياتي، تحفة الحادي المطرب في رفع نسب شرفاء المغرب، تقديم وتحقيق الأستاذ رشيد الزاوية، ط1، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية، المطبعة الأمنية، الرباط، 2008، ص: 72-75.

2- العلاقات السعدية العثمانية:

كان المغرب في بداية القرن السادس عشر يعيش محنة تاريخية. ووفقا لما نقله حسن الوزان⁽⁷⁰⁾ في كتابه وصف إفريقيا، فقد بدت صورة المغرب في هذه الفترة صورة قاتمة: "مغرب ممزق تقلصت فيه السلطة المركزية وتوطدت السلطات الإقليمية، وصورة مغرب مدمر بتأثير الحروب والفتن الداخلية والغزو الخارجي البرتغالي والإسباني. وقد تجلى ذلك بانحطاط الحياة المدنية، فقد فقدت الكثير من المدن ازدهارها السابق كمراكش⁽⁷¹⁾ وآزمور⁽⁷²⁾ وآسفي⁽⁷³⁾... وهجرت أو درست مدن أخرى. وإذا استثنينا مدينة فاس⁽⁷⁴⁾ التي احتفظت

⁽⁷⁰⁾ ينتسب الحسن الوزان إلى قبيلة بني زيات الزبانية، الواقع موطنها في جبال الريف المغربية، ولد الوزان بمدينة غرناطة قبيل سقوطها في يد الإسبان، ويختلف المؤرخون في تحديد سنة ولادته فيجعلها بعضهم عام 901هـ/ 1495م وبعضهم عام (906هـ/1500م). انتقل الوزان مع أسرته صغيرا إلى فاس حيث درس على يد كبار علماء القرويين، وبعدما صار له باع في العلم أخذ يجالس الفقهاء والقضاة في المدن والقرى التي كان يزورها خلال رحلاته العديدة، ويناظرهم ويناقشهم في النوازل الفقهية والفتاوى الدقيقة، وهو إلى ذلك كاتب وشاعر يحبر الرسائل وينظم القصائد، ما جعل السلطان محمد الوطاسي المعروف بالبرتغالي يقره من مجلسه، وأسند إليه - على حادثة سنة - مهام سياسية، قام الوزان بعدة رحلات داخل المغرب وخارجه، مكنته من تسجيل مشاهداته اليومية غدت على ما يبدو أساس كتابه الجغرافي "وصف إفريقيا". وقع الحسن الوزان أسيرا في يد القراصنة الإيطاليين بالقرب من جزيرة جربة التونسية، وأخذوه إلى نابولي ثم قدموه هدية إلى البابا ليون العاشر بروما الذي اشتهر بإحياء العلوم والآداب والفنون في أوربا عصر النهضة، وسرعان ما وثق البابا بالوزان فقره إليه، وحمل الوزان اسم مالكه وحاميه البابا فصار يدعى (ليون) أو بحنا الأسد الغرناطي أو الإفريقي، قضى الوزان في روما الثلاثين سنة من الأسر إلا أنه حافظ على ثبات عقيدته وإسلامه. اشتغل الوزان في روما بتعليم اللغة العربية للخاصة من رجال الكنيسة. وللوزان العديد من المؤلفات باللغة اللاتينية والعربية في التاريخ والجغرافيا، وتتصل موضوعاتها اتصالا وثيقا بالمسلمين وأحوالهم. ومن مؤلفاته نذكر: (معجم عربي - عبري لاتيني، وكتاب في التراجم باللاتينية ... توفي الوزان حوالي 957هـ/ 1550م. أنظر:

- الحسن بن محمد الوزان الفاسي، وصف إفريقيا، ج1، ط2، ترجمة محمد حاجي، محمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1983، ص ص: 5-14.

⁽⁷¹⁾ عاصمة المغرب، وبها اشتهر المغرب شرقا وغربا، تقع في سفح الأطلس الكبير، أسسها يوسف بن تاشفين في أواسط القرن الخامس هجري، بلغت أوج قوتها وازدهارها في عهد الموحدين، فصارت عاصمة للمغرب الإسلامي. أنظر:

- ابن العربي، ص: 178-179.

⁽⁷²⁾ مدينة صغيرة على ضفة وادي أم الربيع، بين الدار البيضاء وجديدة يرجع تاريخها إلى العهد الفينيقي. أنظر:

- نفس المرجع، ص: 51.

⁽⁷³⁾ تقع على الشاطئ الأطلسي بين الجديدة والصويرة، يرجع تاريخ تأسيسها إلى العصر القديم. احتلها البرتغال، كما دخلتها جالية أندلسية كبيرة بعد سقوط الأندلس. أنظر:

- نفس المرجع، ص ص: 60-61.

⁽⁷⁴⁾ تعد مدينة فاس من أكبر المدن الإسلامية في المغرب، يرجع تاريخ بناءها إلى عصر المولى إدريس الثاني، تعرضت للغزو الفاطمي على يد جوهر الصقلي سنة 349هـ، دخلها الأمويون في عهد المنصور بن أبي عامر سنة 365هـ، وفي عهد المرابطين والموحدين انتقلت عاصمة المغرب منها إلى مراكش. أنظر:

- نفس المرجع، ص ص: 207-211.

بازدهاها النسبي لأسباب تاريخية وسياسية واقتصادية، فإن باقي المدن تحولت إلى قرى كبيرة لا يتجاوز عدد سكان أكبرها عشرة آلاف نسمة. ويقابل تقلص القطاع الحضري توسع القطاع الريفي البدوي، ويعني هذا تراجع الاقتصاد النشط المفتوح داخليا وخارجيا. وتوسع الاقتصاد المحلي المعاشي. كل هذا وغيره قابله الغزو الإيبيري الذي خنق المغرب اقتصاديا وشل تجارته الخارجية التي كانت أحد أسباب ازدهاره. ذلك أن المغرب كان يلعب خلال عدة قرون دور الوسيط بين أوروبا وإفريقيا السوداء⁽⁷⁵⁾.

إن الوضع المتردي للمغرب إذا، حمل في طياته بذور تحول جديد، فالفوضى والغزو الإيبيري، ولد ردود فعل معاكسة. أبرزها فقدان الأسرة الوطاسية الحاكمة لهيبتها بسبب عجزها ومهادنتها للأوروبيين الغزاة، وبالمقابل انتعاش روح المقاومة الوطنية الدينية (الجهاد)⁽⁷⁶⁾.

وفي الوقت الذي عجز فيه الوطاسيون على فرض سيطرتهم على كامل البلاد، كانت القوى الصوفية قد وطدت سلطتها الروحية على المغرب، بل وأخذت تلعب دورا سياسيا بارزا في حياة البلاد.

ولما كانت المقاومة العنيفة غير كافية، تطلع المغاربة إلى زعامة قادرة على توحيد الجهود وتنظيم الجهاد والحلول محل الأسرة الوطاسية المنهارة⁽⁷⁷⁾. ولأن المغرب كان بحاجة إلى قيادة جديدة قادرة على التعبئة الشعبية لمحاربة الغزو، فضل زعماء الصوفية توجيه السكان نحو السعديين⁽⁷⁸⁾.

إن تولي السعديين شؤون الحكم في المغرب الأقصى دفعهم للدخول في صراع مع خصومهم الوطاسيين، كما لم يمنعهم جهادهم ضد الغزاة البرتغاليين وكذا توسعهم شرق المغرب من الاصطدام بالأتراك العثمانيين الوافدين الجدد إلى شمال إفريقيا. لكن هل

(75) خير فارس، ص ص: 24-25.

(76) نفس المرجع، ص ص: 31-32.

(77) نفس المرجع، ص ص: 31-32.

(78) من ذلك أن ابن مبارك أحد المرابطين بالمغرب رفض أن يتولى مهمة قيادة المغاربة للجهاد ضد الغزاة الأجانب، ووجههم إلى أبي عبد الله محمد الشيخ عميد الأسرة السعدية والملقب بالقائم بأمر الله، الذي قبل أن يتولها بعد اتصالات ومشاورات بينه وبين المرابط الأنف الذكر، وبينه وبين قومه، وفقهاء السوس وأعيانه في سنة 915هـ/1509م. أنظر:

- عمار بن خروف، العلاقات السياسية بين الجزائر والمغرب، في القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي، ج1، د.ط، دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2006م، ص: 50.

الصلات الأولى لحكام المغرب الأقصى مع الأتراك العثمانيين تبدأ من القرن السادس عشر الميلادي؟

تشير الكتابات التاريخية المهمة بتاريخ المغرب وتاريخ العثمانيين في شمال إفريقيا إلى أن تاريخ العلاقات بين المغرب والأتراك العثمانيين يرجع إلى سنة (857هـ/1453م) إذ ارتبط هذا التاريخ بحادث إسلامي هام ألا وهو فتح العثمانيين بقيادة محمد الثاني للقسطنطينية.⁽⁷⁹⁾ فبمناسبة هذا الحدث الهام أرسل السلطان عبد الحق المريني (ت 869هـ/1464م) للسلطان العثماني رسالة تهنئة، شأنه في ذلك شأن باقي ملوك البلاد الإسلامية. غير أن المعلومات عن تفاصيل هذه الصلات قليلة، كما أن العثمانيين في هذه الفترة كانوا منشغلين بفتوحاتهم في شرقي أوروبا⁽⁸⁰⁾.

على أن العلاقات العثمانية المغربية لم تشهد تطورا ذا بال إلا ابتداء من الربع الأول من القرن السادس عشر الميلادي، الذي شهد امتداد النفوذ العثماني إلى شمال إفريقيا، وقيام حكومة الجزائر التركية. وذلك أمر طبيعي لأنه لا يمكن إغفال عامل المكان في تلك العلاقات، فالدولة العثمانية غدت على تخوم المغرب بعد أن كانت بعيدة عنها. ومن ثم فإن العلاقات المغربية العثمانية تحولت في الجزء الأكبر منها إلى علاقات مغربية جزائرية⁽⁸¹⁾.

وإذا بحثنا في خيوط هذه العلاقة فإنه يلاحظ أن بدايتها تعود للعقد الثاني من القرن العاشر الهجري - السادس عشر الميلادي على الأقل، وهي الفترة التي استقر فيها أوائل الأتراك العثمانيين بقيادة الإخوة بربروس أولا في جيجل سنة 1514م ثم مدينة الجزائر فتلمسان في سنة (923هـ/1517م). فمن مدينة تلمسان أرسل عروج إلى السلطان الوطاسي محمد البرتغالي (ت 932هـ/1525م) عرضا يتمثل في التحالف معه ضد النصاري العدو المشترك لهما، وتبين الخطوة التي خطاها عروج تجاه السلطان الوطاسي رغبة عروج القوية في إقامة علاقات متينة معه، يأمن بها جانبه ويؤمن حدوده، ويدعم موقفه. وبدوره كان

(79) ولد محمد الثاني الملقب بالفاتح عام 833هـ/ 1429م بمدينة أدرنه، وتولى الحكم عام 855هـ/ 1451م، فتح القسطنطينية عام 857هـ/1453م، وبعدها بسنتين تمكن من فتح أثينا. عاش محمد الفاتح ثلاثا وخمسين سنة، حكم منها واحد وثلاثين سنة. استولى خلالها على أكثر من مائتي مدينة وبنى العديد من المساجد والمدارس. أنظر:

- آصاف، ص: 48-52.

(80) بن خروف، ص: 81.

(81) نفس المرجع، ص: 81.

السلطان الوطاسي يسعى إلى التقرب من القوى المجاورة للمغرب أملا في مواجهة الغزو البرتغالي والإسباني. وقد كان الحسن الوزان من بين رسل السلطان الوطاسي إلى البلاد الجزائرية في سبتمبر 921هـ/1515م، ليشرح لعروج موقف سلطان المغرب ويطلع عليه على أوضاع البلاد في ظل التحرش الإسباني والبرتغالي على سواحل المغرب⁽⁸²⁾. ولقد أثمرت هذه الجهود في مناسبات عدة⁽⁸³⁾. وشهدت العلاقات العثمانية الوطاسية تطورا ملحوظا في عهد الحسن بن خير الدين⁽⁸⁴⁾ حين أضحى العرش الوطاسي مهددا بالزوال أمام استفحال الخطر السعدي، مما جعل الوطاسيين يطلبون النجدة من الأتراك العثمانيين مقابل الولاء لهم. وهنا نجد السلطان العثماني يرحب بولاء الوطاسيين، إذ من شأن هذا الولاء أن يمكن للعثمانيين توطيد مركزهم في شمال إفريقيا، ومد نفوذهم على المغرب الأقصى والحوض الغربي للمتوسط. وفي المقابل قامت الدولة العثمانية سنة (952هـ/1545م) بالوساطة لصالح الوطاسيين لدى الملك السعدي أبو عبد الله محمد الشيخ المهدي (896-964هـ/1491-1575م). ففي أعقاب تطورات الصراع الوطاسي والسعدي وكذا النصر الذي حققه الملك السعدي محمد الشيخ على حساب الملك الوطاسي أحمد بن محمد

(82) نفس المرجع، ص ص: 81-82.

(83) من ذلك: تزود السفن الجزائرية سنة 937هـ/1531م بالموونة خاصة الحبوب من الموانئ المغربية في شمال فاس، بعد المجاعة التي ضربت الجزائر في تلك السنة. وكذا رفض السلطان الوطاسي تقديم العون للملك الزياني أبي حمو الثالث الذي جرده عروج من ملكه في تلمسان. بالإضافة إلى تحرك السلطان الحفصي على رأس قوات مغربية لنجدة عروج بعد التحالف الإسباني الزياني...أنظر:

- نفس المرجع، ص ص: 82-85

(84) يعرف كذلك بحسان ابن خير الدين باشا، الابن الوحيد له، ولد بمدينة الجزائر، وتربى بين أهلها، ودرس على يد علمائها، وكانت أمه سليمة إحدى بيوتاتها الكبيرة. قضى حسان شبابه عاملا في الجيش العثماني إلى أن عينه السلطان سليمان القانوني مكان والده خير الدين بايلربايا سنة (953هـ/1545م)، من أعماله أنه أسس مدينة القليعة سنة (957هـ/1550م) غربي مدينة الجزائر، استدعي إلى اسطنبول سنة (959هـ/1552م)، فخلفه صالح رايس كحاكم على الجزائر، لكنه عاد مرة أخرى إلى الجزائر وتولى الحكم فيها سنة (964هـ/1557م)، استدعي مرة أخرى إلى الاستانة ثم عاد إلى الجزائر للمرة الثالثة سنة (969هـ/1562م)، وفي هذه العهدة أقدم على تقسيم القطر الجزائري إلى أربع مقاطعات (دار السلطان، بايلك التطري مركزه المدينة، بايلك الغرب مركزه مازونة ثم معسكر ثم وهران، بايلك الشرق مركزه قسنطينة)، عين قائدا للأسطول العثماني برتبة قبودان باشا سنة (974هـ/1565م). أنظر:

- المدني، ص: 301. وكذلك: عبد القادر، صفحات، ص ص: 95-99.

البرتغالي، رأت الأسرة الوطاسية ضرورة توجيه نداء للسلطان العثماني سليمان القانوني⁽⁸⁵⁾، للتدخل من أجل إطلاق سراح أسراهم، غير أن الوساطة العثمانية لم تنجح⁽⁸⁶⁾. وفشلت جميع العروض التي قدمها الوطاسيون للسعديين، إلى أن اضطر الوطاسيون في الأخير إلى الخضوع لشروط السعديين. وعمل الملك السعدي محمد الشيخ على تفويض دولة الوطاسيين، بالتوسع شمال المغرب وشرقه وإقامة حكم مركزي قوي، تكون فيه سلطته مطلقة، لا ينافسه ولا يناوبه أحد، سواء من داخل أسرته أو من فلول الأسرة الوطاسية، أو من القوى القبلية أو الدينية القائمة في المغرب⁽⁸⁷⁾.

ومن أجل تحقيق هذا الهدف قام الملك السعدي بتوجيه حملة عسكرية نحو تلمسان بعد أن بسط الأتراك أيديهم عليها، فقد عز ذلك في نفسه لأنه كان يرى فيهم غرباء عن القطر المغربي، كما أن تلمسان حينها صارت مأوى لخصومه الفارين من فاس، فقد اتخذوها ملجأ لهم، وكان من هؤلاء الفارين إليها أحد أبناء الأسرة الوطاسية، يدعى أباحسون الوطاسي⁽⁸⁸⁾. رأى أبو عبد الله محمد الشيخ المهدي أن يفاجئ خصومه الأتراك على حين غفلة، وفي تلمسان قبل أن يبدؤوه هم بذلك، فتوجه إلى تلمسان وحاصرها تسعة أشهر، حتى استولى عليها في 23 جمادي الأولى سنة 957هـ/1550م. وفي أثناء ذلك فقد أحد أبنائه يدعى "حران"، ثم واصل الملك السعدي التقدم بجيشه شرقا حتى وصل نهر شلف⁽⁸⁹⁾. بيد أن

⁽⁸⁵⁾ هو السلطان سليمان خان ابن السلطان سليم الأول ابن السلطان بايزيد، عاشر سلاطين الدولة العثمانية، ولد عام 900هـ/1494م، تولى زمام السلطة في الدولة العثمانية عام 926هـ/1519م، في عهده عرفت الدولة العثمانية أوج قوتها، كما وضع لها عدة قوانين تتعلق بالإدارة ولذلك لقب بالقانوني. في عهده خضعت جزيرة رودس للدولة العثمانية، وقد كانت في يد فرسان القديس يوحنا، كما أبرم اتفاقات صداقة وتعاون مع ملك فرنسا فرانسوا الأول. أنظر:

- آصاف، ص ص: 60-65.

⁽⁸⁶⁾ بن خروف، ص ص: 56 و 87.

⁽⁸⁷⁾ نفس المرجع، ص: 58.

⁽⁸⁸⁾ أبو حسون الوطاسي علي بن محمد الشيخ بن أبي زكريا يحيى الوطاسي أبو الحسن (961 هـ-1554م)، ويقال له أبو حسون، ويعرف بالبادسي، ثالث ملوك بني وطاس في فاس، وآخرهم. بويع بعد وفاة أخيه محمد بن محمد سنة 932 هـ. أنظر: - مجهول، تاريخ الدولة السعدية التكميلية، تقديم وتحقيق عبد الرحيم بنحادة، ط1، عيون المقالات، دار تينمل للطباعة والنشر، مراكش، 1984، ص ص: 15-26.

⁽⁸⁹⁾ نهر كبير ينبع من جبال الونشريس، ثم ينحدر مارا بسهول بين تنس وتلمسان، يسميه بطليموس "كرطين" كان يسكن على ضفافه أعرب أثرياء شجعان يسمون أولاد سعيد. أنظر:

- كاريخال، ج1، ص: 38.

الأتراك عادوا فاستردوا المنطقة كلها. لكن حدث أن ثار أهل تلمسان على الحامية التركية الأمر الذي شجع الملك السعدي على معاودة الكرة والهجوم على تلمسان مرة أخرى. غير أنه وفي هذه المرة لم يوفق في مسعاه، فعاد أدراجه تاركا تلمسان وضواحيها لوقت آخر⁽⁹⁰⁾.

وفي سبيل وضع حد لتحركات الملك السعدي على أقاليم الجزائر، أرسل حكام الجزائر الأتراك إلى فاس، الشيخ العالم أبي عبد الله الخروبي الطرابلسي⁽⁹¹⁾، في شأن عقد الهدنة مع الملك السعدي ورسم الحدود بين الجزائر والمغرب، غير أن مهمة هذا العالم باءت بالفشل، فلم يوفق الشيخ الخروبي في مهمته، فخاب بذلك مسعى الأتراك.

ولقد أرجع المؤرخ حسين مؤنس فشل مهمة الشيخ الخروبي إلى كونه رجل علم لا يفقه من أمور السياسة شيئا، فبدل أن ينجز المهمة التي كلفه الأتراك بها، راح يجادل فقهاء المغرب في مسائل لا علاقة لها بالغاية التي جاء لأجلها⁽⁹²⁾.

وكان الناصري (1835-1897) قد ذكر: "أن أبا عبد الله الخروبي قدم إلى المغرب الأقصى مرتين في سبيل السفارة بين ملوك المغرب الأوسط والمغرب الأقصى، فأخذ عنه كثير من أهل المغرب الأقصى..."⁽⁹³⁾

إن من بقي من أمراء بني وطاس الفارين إلى تلمسان وعلى رأسهم أبي حسون، وبتشجيع من أتراك الجزائر لم يتركوا الأمور في المغرب تستتب للسعديين، فقد أخذ أبو حسون زمام المبادرة لاسترجاع سلطان أسرته البائد، وتحالف مع الأتراك، ودخل إلى فاس، أين استولى عليها في صفر 960هـ/ الموافق لفرابر 1552م، أما أبو عبد الله محمد الشيخ المهدي، ففر تاركا فاس إلى مراكش⁽⁹⁴⁾.

(90) أبو العباس أحمد السلاوي الناصري، الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، ج2 ط1، تحقيق محمد عثمان، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2007، ص ص: 236-237.

(91) كان نزيل الجزائر وخطيبها، وكان فصيحا له دراية واسعة بشؤون الإدارة والسياسة، عينته الإدارة التركية بالجزائر للسفارة إلى سلطان المغرب في شأن الحدود فارتحل في المأمورية مرتين، مرة إلى مدينة فاس سنة (959هـ/1551م) ومرة أخرى إلى مدينة مراكش سنة (961هـ/1553م). توفي الشيخ الخروبي بالجزائر سنة (963هـ/1555م). أنظر:

- عبد القادر، صفحات، ص ص: 53-54.

(92) مؤنس، ج2، ص: 174.

(93) الناصري، ج2، ص: 238.

(94) مؤنس، ج2، ص: 177.

يذكر ديكو طوريس في كتابه تاريخ الشرفاء، أحداث المعركة التي وقعت في فاس، بين الأتراك وأبي حسون من جهة والملك السعدي أبي عبد الله محمد الشيخ المهدي وأبناءه من جهة أخرى، غير أنه أضاف أن سبب الهزيمة التي لحقت بالملك السعدي هي وقوف أهل فاس القديمة⁽⁹⁵⁾ إلى جانب أبي حسون والأتراك، إذ قال: "وبعد أن وصل الشريف إلى فاس الجديد (يقصد الملك السعدي أبي عبد الله محمد الشيخ المهدي)، أمر مولاي عبد الله بالذهاب إلى فاس البالي لمنع الأتراك من اقتحام القسبة، فامتل عبد الله، لكنه عندها اكتشف أن أهل فاس البالي يؤيدون تماما أبا حسون، وأنه يخاطر بحياته، فرجع إلى الشريف وقال له إنه لا يجب أن يثق بأهل فاس البالي وأنه يتعين التفكير عاجلا في تدبير الأمور"⁽⁹⁶⁾.

ما يفهم من كلام طوريس أن أهل فاس رحبوا بأبي حسون والأتراك، وهو ما أكده في قوله: "... أقام الأتراك محلثهم أمام هذه المدينة التي دخلها أبو حسون وصالح ريس⁽⁹⁷⁾ ... فاستقبلوا بفرح عظيم من السكان الذين حملوا إليهم هدايا كثيرة..."⁽⁹⁸⁾

⁽⁹⁵⁾ وتعرف بفاس البالي، بناها المرابطون وتهدمت في عهد السعديين، تقع على بعد 90 كلم من مدينة فاس في الطريق المؤدية إلى وزان. أنظر:

- ابن العربي، ص: 212.

⁽⁹⁶⁾ ديكو طوريس، تاريخ الشرفاء، ترجمة محمد حجي، محمد الأخضر، د.ط، الجمعية المغربية للتأليف والنشر، شركة النشر والتوزيع، الدار البيضاء، المغرب، د.ط، ص ص: 203-204.

⁽⁹⁷⁾ حسب المصادر فإن أصوله من الإسكندرية، وقد مارس النشاط البحري منذ الصغر، رفقة خير الدين بربروس، وقد سمحت له ظروف الصراع القائم في المتوسط في النصف الأول من القرن السادس عشر أن يشارك في العديد من المعارك، كان أهمها معركة (بريفيزا) بسواحل بحر الأدرياتيك، عندها نجح في محاصرة أسطول أندري دوريا (Doria André) وإلحاق الهزيمة به وقد اشتهر بعد ذلك وأصبح قائدا للأسطول العثماني برتبة أميرال باشا. تولى صالح ريس حكم الجزائر بعد الحسن بن خير الدين (959هـ/963هـ - 1552 - 1556م)، انصب اهتمامه على إقرار النظام والقضاء على التمرد وتوسيع نفوذ السلطة في أقاليم الجنوب والتصدي لمحاصرة وتصفية مراكز الوجود الإسباني بالسواحل الجزائرية. أنظر: - أبو عمران، ص 316.

⁽⁹⁸⁾ طوريس، ص: 204.

غير أن الأتراك شرعوا في نهب المدينة وكان ذلك حسب جملة من الشروط كانوا قد اتفقوا عليها مع أبي حسون منذ البداية⁽⁹⁹⁾، فأخذوا كل ما خف وزنه وغلا ثمنه من ذهب وفضة ونقود ورجعوا بها إلى الجزائر. ولا مانع هنا أن نسوق حادثة عاشها ديكو طوريس يصف فيها الأتراك أثناء إقامتهم بفاس - رغم أنه كان يمقتهم ويصفهم بالبرابرة- إذ قال: "وفي أثناء إقامة الأتراك بفاس اشتكى رجل مغربي من فاس لقائد الجيش التركي من سوء معاملة أحد الجنود الأتراك له، فأرسل القائد في طلبه، ولما لم يحضر عاجلا، امتطى القائد فرسه ل يبحث عنه، فوجده بإحدى الساحات أمام قصر الملك، وهناك بعد أن أشبعه سبا ولعنا، أمر أن يمدد على الأرض وأن يجلد مائة جلدة، فارتدى الجندي فورا على الأرض التي كانت مليئة بالوحل، فأوثق بمضغطة وجلد مائة جلدة، ... وأخذ المغربي حقه"⁽¹⁰⁰⁾.

وفي موقف آخر أعطى صالح رايس قائد الجيش العثماني الأمان لليهود والمسيحيين، فأمنهم على أموالهم وأعمالهم وأولادهم. "فقد خاطبه المسيحيون الذين كانوا على أحد السطوح مستجدين بهم (يعني الأتراك)، فأجابهم صالح رايس أن لا خوف عليهم..."⁽¹⁰¹⁾.

قد يفهم من هذا الكلام أن الأتراك لم يكونوا يريدون الإساءة إلى سكان المغرب، بالرغم مما كان يحدث بينهم من مناوشات، ولكن سرعان ما كانت الأمور تعود إلى طبيعتها ولكن الأتراك كان همهم الثروة لا أكثر.

إلا أن الأحداث التي سيأتي ذكرها تباعا، تبين أن الأتراك العثمانيون كان هدفهم بسط نفوذهم على المغرب الأقصى شأنه في ذلك شأن الجزائر وتونس وطرابلس الغرب. وكان القضاء على الغزاة الصليبيين من أكبر اهتماماتهم، لاسيما وأن الأتراك الذين أعلنوا الخلافة الإسلامية سعوا إلى ضم المغرب في نطاق توحيد البلاد الإسلامية والوقوف بها صفا واحدا ضد الهجمات الخارجية المسيحية، ولتأمين حدود إمبراطوريتهم الغربية ثم لاستغلال الموقع المغربي في مهاجمة غربي أوربا وشبه جزيرة أيبيريا قلعة المسيحية الحصينة، بالإضافة إلى

(99) حسب صاحب كتاب الدولة السعدية التكمارية فإن الأتراك لما أعجبهم محاسن البلاد، كتبوا بذلك إلى الجزائر وأرادوا القيام على أبي حسون، وكانت يده مرفوعة عنهم، وكانوا يفعلون ما يريدون في المدينة يقبضون الصبيان والنسوان وينهبون ما أرادوا، حتى ضاقت الرعية من سوء فعلهم، فصاروا يقتلونهم ليلا في فرشهم ويخبئونهم. أنظر:

- مجهول، تاريخ الدولة السعدية التكمارية، ص: 24.

(100) طوريس، ص: 206.

(101) نفس المصدر، ص: 205.

أن التوسع في المغرب يَمَكِّن الأتراك من التحكم في طرق المواصلات البحرية الإسبانية والبرتغالية مع العالم الجديد والشرق الأقصى ومراقبتها⁽¹⁰²⁾.

بعد سيطرة الأتراك على فاس، أرسل صالح راييس قوة من جيشه ومن المتطوعين المغاربة ليحرروا حجرة بادس⁽¹⁰³⁾ وكانت في يد البرتغاليين، فحرروها بدون أية مقاومة. وبعد أن استولوا عليها، قدموها كهدية لصهر أبي حسون الذي احتفظ بها طويلا إلى أن استرجعها الملك السعدي منه، وبقيت في يده ثلاث سنوات. فعاد الأتراك وأخذوها منه، إلى أن احتلها الإسبان سنة (972هـ / 1564م)⁽¹⁰⁴⁾.

في خضم هذه الظروف أعد الملك السعدي أبو عبد الله محمد الشيخ المهدي العدة لاسترجاع فاس مرة أخرى، وتمكن من تأليف قوة من أهل سوس،⁽¹⁰⁵⁾ وهاجم فاس في السنة نفسها التي طرد منها، ففضى فيها على أبي حسون وحلفائه وألحق بهم شر هزيمة⁽¹⁰⁶⁾. وعندما استقر له أمر الحكم في المغرب، بقي فيه سبعة عشر عاما من 955هـ إلى 972هـ / 1548م - 1565م وخلالها قضى على خصومه من الوطاسيين وأتباعهم، من ذلك قاضي فاس أبا محمد عبد الوهاب بن علي الزقاق، متهما إياه بالميل إلى أبي حسون الوطاسي، وقتل كذلك خطيب مكناس⁽¹⁰⁷⁾ لكلام بلغه عنه⁽¹⁰⁸⁾.

(102) أبو فارس عبد العزيز الفشتالي، **مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفا**، دراسة وتحقيق عبد الكريم كريم، د.ط، مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية والثقافية، المغرب، د.ط، ص: 1.

(103) مدينة أثرية تقع على ساحل المتوسط، على بعد 40 كلم من الحسيمة، ويقال لها بادس غمارة، وبادس فاس، تميزا لها عن باديس الجزائر. كانت بادس في القرن السابع مزدهرة تنافس سبتة في نهضتها العلمية والأدبية، وكانت بها مدرسة لا تزال أثرها باقية إلى الآن، كما كانت المدينة مركزا تجاريا هاما بالريف وتعتبر المرفأ الطبيعي لمدينة فاس. أنظر:

- ابن العربي، ص: 74.

(104) **طوريس**، ص: 208.

(105) يطلق اسم سوس بالمغرب على منطقة شاسعة، تمتد شمالا من جبال الأطلس عند حدود حاحا إلى رمال الصحراء في الجنوب، ومن المحيط غربا إلى نهر السوس شرقا والذي سميت المنطقة باسمه كما يفصل هذا النهر إقليم السوس عن إقليم جازولة، ويشتمل إقليم السوس على أكبر جزء من مملكة مراكش، التي تضم درعة والسوس الأقصى. أنظر:

- **كاربخال**، ج2، ص: 27.

(106) **مؤنس**، ج2، ص: 177.

(107) تعرف بمكناسة الزيتونة من أكبر المدن المغربية، تقع قرب جبل زرهون، يرجع تاريخ تأسيسها إلى العصور الهجرية الأولى في مكان يسمى تاكرارت، اتسعت عمارتها في العصر المريني، واتخذها المولى إسماعيل عاصمة لدولته. أنظر:

- ابن العربي، ص: 183.

(108) **مؤنس**، ج2، ص: 177.

ولأن الحرب سجال ورحاها لا تتوقف إلا بالقضاء على الخصوم أو الركن إلى الصلح، دبر الأتراك مكيده لاغتيال الملك السعدي أبا عبد الله محمد الشيخ المهدي، حدث ذلك في أيام السلطان العثماني سليمان القانوني، الذي في عهده عرفت الدولة العثمانية أوج قوتها. فحسب ما نقله الناصري في الاستقصاء، فإن سليمان القانوني كان يعتبر نفسه سلطانا لجميع المسلمين، وقد حز في نفسه بقاء المغرب الأقصى وعلى رأسه أبا عبد الله محمد الشيخ المهدي السعدي، مستقلا عن العثمانيين وبعيدا عن طاعة السلطان. ففكر في حيلة للتخلص منه، فكتبه متلفا إياه، واكتفى بأن طلب منه أن يدعو له في مساجد المغرب ومنابرها، ويضرب اسمه على سكة المغرب، وقد قام وفد تركي بنقل هذه الرسالة إلى المغرب، غير أن الملك السعدي لم يرق له ذلك، واعتبر الأمر إهانة لشخصه، فعتف رسول السلطان العثماني وطرده، ولما طلب الأخير الجواب لينقله للسلطان سليمان القانوني، رد الملك السعدي قائلاً: "لا جواب لك عندي حتى أكون بمصر إن شاء الله وحينئذ أكتب لسلطان القوارب"⁽¹⁰⁹⁾.

وقبل هذه الوفادة كان أبو عبد الله محمد الشيخ المهدي على حسب ما ذكرته المصادر، يردد دائما: "لا بد لي أن أذهب إلى مصر وأخرج الترك من أحجارها، وأنزلهم من ديارهم"⁽¹¹⁰⁾. وكان يطلق لسانه في السلطان سليمان القانوني ويسميه (سلطان الحوطة)، يعني أن الأتراك كانوا أصحاب أساطيل وسفر في البحر. فلما بلغ كلامه هذا السلطان العثماني، فكر في التخلص منه. فيما تذهب مصادر أخرى إلى أن السلطان سليمان القانوني لما بلغه خبر استيلاء السعديين على المغرب، كتب إلى الملك السعدي أبو عبد الله محمد الشيخ المهدي يهنئه بالملك ويلتمس منه الدعاء على منابر المغرب⁽¹¹¹⁾.

أورد البعض مقاطع من رسالة السلطان سليمان القانوني مع اختلاف في تاريخها حيث جاء فيها: "إلى الجنب العالي الأمير الكبير الأكرمي ... الحسبي النسبي نسل السلالة الهاشمية فرع الشجرة الزكية النبوية طراز العصابة العلوية... حاكم ولاية فاس الشريف محمد دام علوه وزاد سموه...". وقد احتفظت الرسالة لمحمد الشيخ بألقاب نسبه الشريف، ولكن من

(109) نفس المرجع، ص: 177.

(110) محمد الصغير بن عبد الله الوفرائي، نزهة الحادي بأخبار ملوك الحادي، د.ط، مطبعة بردين، أنجي، د.م، ط، 1888م، ص:

42.

(111) الناصري، ج2، ص: 238.

الناحية السياسية تدرجه في درجة حكام الولايات أو العمالات تحت لقب (حاكم ولاية فاس) بينما تضيف الرسالة على الوالي العثماني بالجزائر لقبا من الألقاب العالية (أمير الأمراء).⁽¹¹²⁾

إن الرسائل التي بعث بها السلطان سليمان القانوني إلى محمد الشيخ، هي عبارة عن فرمانات⁽¹¹³⁾، إذ اعتبر السلطان العثماني من خلالها محمد الشيخ خادما من خدامه. بمعنى أن المغرب من منظور السلطان العثماني ولاية عثمانية ومحمد الشيخ مجرد حاكم فيها⁽¹¹⁴⁾. ويذكر المجهول صاحب كتاب "تاريخ الدولة السعودية التكمдарتية" أن السلطان سليمان القانوني، أوفد رسوله إلى ملك فاس أبو عبد الله محمد الشيخ المهدي السعدي، يهنئه بالملك، ويعلمه بما كان عليه بنو مريين الوطاسيين معه من الهدايا والود والخدمة إليه، وأنه كان في نصرتهم دائما⁽¹¹⁵⁾. وقد اتضح موقف السعديين بما هو رائج في بعض كتب تاريخ المغرب، من أن محمد الشيخ قد أجاب السفير العثماني إجابة لا تخلو من التجريح⁽¹¹⁶⁾ قائلا: "سلم على أمير القوارب سلطانك، وقل له أن سلطان المغرب لا بد له أن ينازعك على مجمل مصر، ويكون قتاله معك عليه إن شاء الله ويأتيك إلى مصر والسلام"⁽¹¹⁷⁾.

وأورد البعض صيغة هذا الجواب باختلاف يسير فقال: "ولما قرأ السلطان أبو عبد الله الشيخ كتاب السلطان سليمان وجد فيه أن يدعو له على منابر المغرب ويكتب اسمه على سكتة كما كان بنو وطاس يفعلون، فحمى أنفه وأبرق وأرعد وأحضر الرسول وأزعجه"، ولما طلب رسول السلطان العثماني من الملك السعدي الجواب، كان جوابه على ما ذكرناه سابقا⁽¹¹⁸⁾.

(112) السويكت، مجلة الملك سعود، ص: 188.

(113) الأمر السلطاني الرسمي المكتوب الصادر عن السلطان في قضية من القضايا، كان يتم تدوينه بالخط الديواني في الديوان الهمايوني، ويسجل ملخصه في سجل الديوان. أنظر:

- سهيل صابان، المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية، مراجعة عبد الرزاق محمد حسن بركات، السلسلة 3، مطبوعات مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، 2000، ص: 164.

(114) السويكت، مجلة الملك سعود، ص: 188.

(115) مجهول، تاريخ الدولة السعودية التكمدارتية، ص: 32.

(116) السويكت، مجلة الملك سعود، ص: 190.

(117) مجهول، تاريخ الدولة السعودية التكمدارتية، ص: 32.

(118) السويكت، مجلة الملك سعود، ص: 190.

يعلق أحد المؤرخين المعاصرين على هذا الموقف، مشيراً إلى أن هذا الجواب دليل قوي على أن الحاكم السعدي لم يكن يرى شرعية الخلافة العثمانية. كما يعكس الجواب مدى طموح محمد الشيخ الذي كان يحلم بإمامة المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها⁽¹¹⁹⁾. وهنا لا بد من الإشارة إلى أن مسألة الخلافة من بين أهم النقاط التي أثارت حولها الخلافات في العلاقات العثمانية مع البلدان العربية والإسلامية، لاسيما مع المغرب، إذ يمكن القول أن مسألة الخلافة كانت في نظر سلاطين المغرب مرتبطة بنسبهم الشريف، وأن الخلافة في قريش وغيرهم متغلب، أضف إلى ذلك أن سلاطين بني عثمان أعاجم لا تصح الخلافة فيهم، وبالتالي لا يجب الاعتراف بنفوذهم، حتى لو أدى ذلك إلى خوض حرب ضدهم. فهذا هو الزياني⁽¹²⁰⁾، مؤرخ الدولة العلوية في المغرب يقول في مسألة الخلافة: "ومن الفرض في علم النسب⁽¹²¹⁾، أن يعلم المرء أن الخلافة لا تجوز ولا تصح إلا في ولد فهر بن مالك بن النضر بن كنانة، ولو وسع جهل هذا لأمكن إدعاء الخلافة لمن لا تحل له، وهذا لا يصح أصلاً"⁽¹²²⁾.

(119) نفس المرجع ، ص: 190.

(120) هو أبو القاسم أو بلقاسم كما كان يوقع هو، ابن أحمد أبي الحسن علي بن إبراهيم الزياني، نسبة إلى قبيلة زيان من أهل الأطلس المتوسط، ولد بحاضرة فاس في سنة 1148هـ / 1734م، وقد نشأ في حجر والده. وقرأ القرآن واشتغل بطلب العلم على يد شيوخه أحمد بن طاهر الشرقي، ومحمد بن الطيب القادري، وعبد القادر بوخريص، وعمر الفاسي، ومحمد بن إبراهيم التاودي ابن سودة ومحمد البناني وغيرهم. اتصل بالبلاط الملكي العلوي وخدم عدة سلاطين منهم المولى عبد الله وابنه محمد بن عبد الله وأخيرا السلطان أبو الربيع المولى سليمان. زار عدة أقاليم شرقا وغربا، وكان سفيرا للسلطان محمد بن عبد الله إلى إسطنبول. له عدة مؤلفات في علم التاريخ وما اتصل بأخبار الدولة العلوية ونسب ملوكها من ذلك: الترجمانة الكبرى، تحفة الحادي المطرب، البستان الطريف، والترجمان المغرب... أنظر:

- عبد الله كنون، **ذكريات مشاهير رجال المغرب في العلم والأدب والسياسة**، ج1، ط1، تقديم محمد بن عزوز، مركز التراث الثقافي المغرب، دار ابن حزم، الدار البيضاء، 2010، ص ص: 622-653.

(121) بدأ الاهتمام بعلم النسب عند العرب قبل مجيء الإسلام، إذ كان المجتمع العربي قبليا بالدرجة الأولى، وربما سبق علم التاريخ في التدوين، ثم تطور بشكل ملحوظ في عهد الخلفاء الأوائل، خاصة حين بدأت العطاءات وتوزيع الجيوش وإسناد المناصب تأخذ بعين الاعتبار الأساس القبلي. ومن الطبيعي أن يتوج هذا الاهتمام بظهور كتب مصنفة في أنساب بعض الجماعات، مثل النسب الكبير لأبي يقضان النسابة ت 190هـ / 806م، وجمهرة النسب لهشام محمد السلّيب الكلبي ت 204هـ / 819م ونسب قريش وأخبارها لعلي بن محمد المدائني ت 225هـ / 843م... وقد أشار ابن خلدون في مواضع متفرقة من مقدمته إلى أهمية النسب كعامل من عوامل الالتحام والقوة في الأسرة أو القبيلة التي تضطلع بمسؤولية الحكم. وأما ما يرتبط بالنسب والخلافة فابن خلدون: "يرى في القريشية شرطا أساسيا في الخلافة، وفيه يقول: "وأما النسب القريشي، فلإجماع الصحابة يوم السقيفة على ذلك". أنظر:

- الزياني، ص ص: 7-8.

(122) السويكت، **مجلة الملك سعود**، ص: 178.

وبالرجوع إلى موقف السلطان العثماني من جواب الملك السعودي، بعدما أبلغه الرسول الجواب، فقد اغتاز السلطان لذلك وغضب غضبا شديدا، حتى أنه أمر بتجهيز الجيوش ليدخل المغرب الأقصى بنفسه عن طريق البر وعن طريق البحر. لكن الحكماء والوزراء أنكروا عليه ذلك وأشاروا عليه بما هو أيسر، فقالوا له: "نفعل ما هو أيسر من ذلك" (123). وكانت الخطة تدبير مكيدة لاغتيال الملك السعودي، وهذا ما سنأتي على ذكره لاحقا.

غير أن طوريس يذكر أن الخليفة العثماني سليمان القانوني بعث إلى الحسن بن خير الدين حاكم الجزائر الذي كان قد خلف صالح رايس، فطلب منه أن يفتك بالملك السعودي إذا سنحت له الفرصة (124)، ذلك أن الخليفة كان ناقما عليه لامتناعه من تنفيذ أوامره (125).

وجاء في كتاب مناهل الصفا للفشتالي أن تقرب الملك محمد الشيخ السعودي من الدول الأوروبية عامة والإسبان والبرتغال خصوم الأتراك على وجه الخصوص، كان من بين العوامل التي دفعت سليمان القانوني سلطان الدولة العثمانية إلى تدبير مؤامرة اغتيال الملك السعودي وهو يهم بعقد حلف عسكري مع الإسبان والبرتغال ضد الأتراك في شمال إفريقيا (126).

لقد فشلت جميع المحاولات الدبلوماسية التي قام بها الأتراك لدى محمد الشيخ للدخول في طاعتهم، واتضح للأتراك مدى تواطؤ السعوديين مع الإسبان والبرتغاليين ضدهم، مما جعلهم يفكرون في غزو المغرب ويهيئون الاستعدادات لذلك، لكن لما تأكد الأتراك من مسألة الهدنة بين المغرب ودولتي شبه جزيرة إيبيريا، عدلوا عن فكرة الغزو عسكريا واكتفوا بتدبير مؤامرة اغتيال محمد الشيخ في 964/12/27 هـ الموافق لـ 1557/10/23 م (127).

(123) مجهول، تاريخ الدولة السعودية التكمдарتية، ص: 32.

(124) طوريس، ص: 219.

(125) حسب ما ورد في كتاب المجهول فإنه لا يتوفر الأرشيف العثماني إلا على وثيقتين تخصان العلاقات بين الباب العالي والملك محمد الشيخ السعودي، وهما محفوظتان بأرشيف "طوبي قابي" باسطنبول :

- الأولى: رسالة إلى محمد الشيخ وتحمل تاريخ (أوائل محرم 959 هـ/ يناير 1552 م) تخبر بعزل حسن باشا وتولية صالح باشا. أما الثانية: من سليمان القانوني وتحمل نفس تاريخ سابقتها وتشيد بجهد محمد الشيخ، بإرسال خلع ثلاثة (لتكون صلة للمحبة وسببا لنسج المودة). أنظر:

- مجهول، تاريخ الدولة السعودية التكمдарتية، ص: 31.

(126) الفشتالي، ص: 30.

(127) السويكت، مجلة الملك سعود، ص: 190.

ويشير أحد الباحثين في مصادر التاريخ العثماني أن السلطات التركية تعتبر هذا السلوك مشروعاً ويدخل في إطار عقوبات الخائنين لهم وهو عمل رجولي وبطولي⁽¹²⁸⁾. ومهما يكن الأمر، فإن الأتراك دبّروا اغتيال هذا الملك، ذلك أنه كان لأبي عبد الله محمد الشيخ المهدي جماعة من الأتراك الانكشارية يعملون لديه، وكان قد قربه منه بعد انتصاره على أبي حسون، وقد كانوا وقتها إلى جانب أبي حسون، لكن الملك السعدي رأى أن يقربهم منه ويستفيد من خبرتهم الحربية، وكان رئيس هذه الجماعة يلقب بالكاهية⁽¹²⁹⁾. ولقد وثق فيهم الملك السعدي حتى صاروا من المقربين لديه، إذ كانوا يدخلون عليه ويقبلون يده، على طريقة سلاطين المغرب⁽¹³⁰⁾.

وقد فكر الصدر الأعظم⁽¹³¹⁾ العثماني في استخدام هذه الجماعة لما علم بأمرها، فأرسل جماعة من الجند في هيئة تجار وطلب منهم الاتصال بالكاهية وإبلاغه أمر السلطان العثماني للاتفاق معهم على اغتيال الملك السعدي مقابل مكافأة مالية ينالونها⁽¹³²⁾. ولما وصلت هذه الجماعة إلى المغرب ودخلوا سوق فاس ومعهم البضائع، اتصلوا بالكاهية وقدموا له أنفسهم وأبلغوه أمر الخليفة العثماني، فرحب بهم، واستقبلهم في بيته، ثم ما لبث أن قدمهم إلى الملك السعدي على أنهم جزائريون، جاؤوا ليعاونوه فيما يرجو من

(128) نفس المرجع، ص: 190.

(129) وأصل الكلمة كتحدا وتتطق كيخيا، وتعني صاحب البيت أو رب البيت، واللفظ في الأصل فارسي، وقد اصطلح على استخدامه لمن يعمل نائباً أو قائماً بالأعمال. وكان يطلق في البداية على من يشرفون على أعمال رجالات الدولة أو الوزراء، ومن ينوبون عنهم، ثم شاعت الكلمة لتطلق في معناها الواسع على مديري الأعمال والمشرفين العاملين في معية الكبار، المعتمدين عليهم في إدارة الأمور الخاصة. وقد استخدم الاسم في الدولة العثمانية مضافاً إلى الدائرة التي يتبعها الشخص، فقول كتحدا الخزينة (كيخيا الخزينة) وكيخيا آغا، أو كتحدا الصدارة... الخ. أنظر:

- صابان، ص: 188.

(130) مؤنس، ج2، ص: 178.

(131) الشخص الذي حاز منصب رئيس الوزراء في الدولة العثمانية، وكان وكيلاً مطلقاً للسلطان، وللتفريق بينه وبين غيره من الوزراء أطلق عليه الوزير الأعظم، كما لقب بالصدر العالي وصاحب الدولة، غير أن لقب الصدر الأعظم انتشر أكثر من غيره واستمر استخدامه إلى اضمحلال الدولة العثمانية. وكان له صلاحيات كافة الأمور في الدولة، ولديه ختم السلطان، وهو كذلك رئيس الديوان الهمايوني، وكافة الأوامر التي تصدر لنصب أو عزل أو قتل كانت تصدر منه، إلا أنه كان يستأذن السلطان في موضوع يتعلق بأحد الوزراء، أو القاضي أو شيخ الإسلام، كما أن الطلب الذي كان يقدمه للسلطان كان حرياً بالموافقة والاستجابة من حيث الأصول المتبعة. مع أن السلطان لديه كافة الصلاحيات في عزل الصدر الأعظم من منصبه أو حتى قتله، وكان يطلق على الدائرة التي يعمل فيها الصدر الأعظم باب باشا، والباب الأصفي. أنظر:

- صابان، ص: 143-144.

(132) مؤنس، ج2، ص: 178.

الاستيلاء على الجزائر، ولما اطمأن الملك السعدي لهم ووثق فيهم، صاروا من خيرة رجاله، فتحينوا الفرصة واغتالوه وهو في أحد خرجاته بالقرب من تارودانت⁽¹³³⁾ في مكان يسمى الكلكال أو (أكلاكل) إذ كانوا يومها يحرسون خبائه ليلاً. ثم فصلوا رأسه عن جسده ووضعوه في كيس مملوء بالملح والنخالة، وساروا به إلى الجزائر ومنها إلى إسطنبول فوضعوه بين يدي السلطان⁽¹³⁴⁾. حيث بقي رأسه معلقاً على أبواب المدينة إلى أن تلاشى⁽¹³⁵⁾.

أما من بقي من الأتراك في جيش السلطان وكان عددهم كبيراً، فقد سار إليهم أبو محمد الغالب (933هـ-981هـ/1526م-1573م) بن الملك السعدي الممّال وخليفته على رأس جيش كبير ووقعت بينهم حرب عظيمة أبيد فيها الأتراك عن بكرة أبيهم⁽¹³⁶⁾.

وعلى ما ذهب إليه المؤرخ حسين مؤنس فإن القصة بتفاصيلها التي وردت بها، فيها علماً يبدو طعم القصص الشعبي، خاصة أنه لم يعرف أن الاغتيال على هذه الصورة كان من أخلاق سليمان القانوني.

وفي أوائل سنة (970هـ/1562م) حاول الحسن بن خير الدين حاكم الجزائر غزو فاس لكنه انهزم بمقربة من وادي اللب بوضواحي فاس وارتد إلى تلمسان.

ولما تولى الأمير عبد الله الغالب بالله السعدي مكان أبيه تحالف مع الاسبان وتنازل لهم عن حجرة بادس مقابل مساعدتهم له في محاربة الأتراك، الذين كانوا يضايقونه كثيراً وكانت سفنهم لا تكف عن التحويم حول موانئ المغرب، وهذا ما جعله يتحالف مع الاسبان ويتنازل لهم عن بعض الجزر على السواحل المغربية، حتى يحمي المغرب من هجماتهم البحرية⁽¹³⁷⁾. غير أن الوفراني يصف قصة تنازل الغالب عن حجرة بادس بالأمر المشبوه، ويرجعه إلى الدسائس والمؤامرات التي حيكت ضد الدولة السعدية للتقليل من شأن أمرائها، إذ قال: "وهذه الأمور شنيعة إن صح أنه فعلها، ولست أدخل في عهدتها لأنني إنما رأيته في أوراق مجهولة المؤلف، اشتملت على ذم هذه الدولة، وظني أنها من وضع بعض أعدائهم

(133) من المدن المغربية القديمة جداً، احتلها المرابطون وحاصرها الموحدون وكانت شبه مستقلة عن المرينيين، اتخذها محمد الشيخ السعدي، عاصمة له، وسماها المحمدية، تقع على مقربة من وادي سوس. أنظر:

- ابن العربي، ص: 93.

(134) مؤنس، ج2، ص ص: 178-179.

(135) الوفراني، ص: 43.

(136) مؤنس، ج2، ص ص: 178-179.

(137) نفس المرجع، ج2، ص ص: 181-183.

لحطه من قدرهم، وإخراجه إياهم من النسب الشريف، ووصف دولتهم بالدولة الخبيثة، ولذا تجنب منها كثيرا من الأخبار التي لا تظن بأولئك السادة رحمهم الله⁽¹³⁸⁾.

لقد اندفع الغالب في سياسة التقرب من النصارى والعمل على مهادنتهم بدافع الخوف من الخطر العثماني، إلى درجة تنازله لبعض دول النصارى عن أجزاء من تراب المغرب.⁽¹³⁹⁾ كما شدد الغالب الخناق على أصحاب الطرق والمرابطين الموالين للأتراك في المغرب⁽¹⁴⁰⁾.

وعلى الرغم من التباعد الجلي في المواقف بين المغرب في عهد الغالب وبين العثمانيين، إلا أن هذا لم يمنع من وجود تقارب بينهما في بعض الفترات، وذلك على إثر توسط بعض العلماء والمصلحين، مما أثمر تبادلا للهدايا وحسن الجوار الذي استمر حتى وفاة الغالب سنة (981هـ/1573م)⁽¹⁴¹⁾.

وقد فكر الغالب في إقامة سفارة له بإسطنبول، حينما أرسل سنة (980هـ/1572-1573) وفدا من السفراء إلى السلطان العثماني، برئاسة المرابط محمد بن علي الدلائي، محملا بالهدايا الثمينة، ومع عودة الوفد إلى المغرب كان الغالب قد وافته المنية⁽¹⁴²⁾.

وفي الدراسة التي أجراها الباحث "فهد بن محمد السويكت" من جامعة الملك سعود بالرياض عن موقف السعديين من الخلافة العثمانية، فند ما ذكرته دراسات أخرى عن التبعية السعدية للعثمانيين في عهد الغالب، فقد استندت هذه الدراسات حسبه إلى أحد المراسيم التي بعثها سليم الثاني⁽¹⁴³⁾ إلى علماء وأعيان فاس ومراكش في سنة (975هـ/1567م)، بشأن الرد على الأهالي من قضية تولية الشريف عبد المؤمن بدلا من أخيه الحاكم عبد الله

(138) الوفراني، ص: 49.

(139) السويكت، مجلة الملك سعود، ص: 194.

(140) ألتر عزيز سامح، الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية، تحقيق محمود علي عامر، ط1، دار النهضة العربية، بيروت، 1409هـ-1989م، ص: 236.

(141) السويكت، مجلة الملك سعود، ص: 194.

(142) عزيز سامح، ص: 236.

(143) ولد عام 930هـ/1525م، وجلس على كرسي الخلافة عام 974هـ/1566م، عن عمر يناهز الأربعة والأربعين عاما، حاول إصلاح الشؤون الداخلية للدولة العثمانية في وقت حاول قادة الجيش الإنكشاري السطو على الحكم حينما هاجموا إسطنبول، فأخمد تمردهم بطرق سلمية وبتوزيع الأموال. توفي السلطان سليم الثاني عام 982هـ/1574م بسبب حمى أصابته، ودفن في أجيا صوفيا. أنظر:- آصاف، ص ص: 68-69.

الغالب، وأوضح العثمانيون للأهالي لزوم الإبقاء على عبد الله الغالب وطاعته: "فلا جرم قبل تاريخ هذا المنشور العالي والدي المرحوم... سليمان خان... نصب المشار إليه أميراً لتلك الولاية وأنعم مرسوما شريفاً، فأرسل المشار إليه ذلك المرسوم إلى سدنتا العلية بطلب تجديده فأعطياه من سدنتا السنية منشورنا السني الخاقاني، فمرسومنا الشريف المطاع وأمرنا المنيف واجب الإتياع أن تكونوا فخر الأمراء المشار إليه على أحسن حال وأكمل اتحاد لرايه السديد مطيعين وفكره الصايب منقادين (كذا)" (144).

يفهم من هذا المرسوم أن العثمانيين في عهد سليمان القانوني كانوا قد أصدروا أمر تولية عبد الله الغالب على المغرب، بعد أن اغتالوا والده محمد الشيخ، وأن الغالب قد أرسل بطلب تجديد مرسوم السلطان في عهد سليم الثاني، وأن هذا الأخير قد وافق على ذلك. وحسب السويكت فإن المصادر المغربية لا يوجد فيها ما يشير إلى إثبات التبعية السعدية للعثمانيين، وخاصة في عهد الغالب نتيجة لاغتيال والده من قبلهم (145).

وفي مداخلة ألقته الباحثة العربية "نفيسة الذهبي" بالندوة الدولية "المغرب والبحر الأبيض المتوسط الغربي في العصر العثماني" بالرباط (146)، حاولت من خلالها التخفيف من وطأة الوجود العثماني في المغرب، فقد اعتبرت أن التدخل العثماني الذي حصل في المغرب لم يصل إلى حد إلحاق المغرب بالدولة العثمانية، كما أن الحكام السعديين الجدد للمغرب وصلوا إلى الحكم كمجاهدين ولذلك كان من الطبيعي أن يستتجدوا حين الحاجة بقوة

(144) السويكت، مجلة الملك سعود، ص: 195.

(145) نفس المرجع، ص: 195.

(146) أسالت مسألة تبعية المغرب للدولة العثمانية الكثير من الحبر وأثارت الكثير من الجدل في الدراسات التاريخية المهمة بالعلاقات العثمانية المغربية، آخرها الندوة الدولية العلمية الأكاديمية التي عقدت بالرباط ما بين 12 و 14 نوفمبر 2010، تحت عنوان "المغرب والبحر الأبيض المتوسط الغربي في العصر العثماني" والتي استغرق الإعداد لها أكثر من سنتين بالتعاون مع المعهد الملكي للبحث في تاريخ المغرب ومركز الأبحاث والتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية باسطنبول "أرسیکا" وبمشاركة واسعة للباحثين عرب وأتراك وأوربيين. وقد كانت وجهات النظر المختلفة لهؤلاء في ضرورة إعادة النظر في العلاقات المغربية العثمانية، لاسيما أن بعض الباحثين كشف عن وثائق عثمانية أكد من خلالها أن المغرب كان جزء من الفضاء العثماني شأنه في ذلك شأن الجزائر وتونس وغيرها من الإيالات العثمانية، مع وجود وجهات نظر أخرى لباحثين مغاربة فندت هذا الطرح وقالت: لم يكن المغرب جزء من الفضاء العثماني إلا أنه تأثر بالمجال العثماني المجاور له. وحسب مجلة المؤرخ فإن هذا موضوع يثار للمرة الأولى في المغرب على هذا المستوى الأكاديمي. أنظر:

- محمد الأرنؤوط، "تحقيق وثائق عثمانية جديدة: هل كان المغرب تابعا لاسطنبول"، مجلة المؤرخ، العدد: 5 - 6، المغرب، 2009، ص: 17.

إسلامية كبرى مثل الدولة العثمانية⁽¹⁴⁷⁾. غير أنّ الباحث العربي "فاضل بيات" ذكر أن ما معه من وثائق عثمانية جديدة يدحض الرأي الشائع القائل: "أن المغرب هو البلد الوحيد الذي بقي خارج الحكم العثماني"، ويوضح البيات أن الخلاف بين الإخوة السعديين (عبد الله الغالب وعبد المؤمن وعبد الملك) هو الذي قاد إلى التدخل العثماني في المغرب. وهو ما تم فعلا سنة (965هـ/1575م) فقد أضحت الدولة العثمانية تتصرف في المغرب الأقصى وكأنه جزء من أراضيها وكانت تتعامل مع السعديين كما تتعامل مع الحفصيين في تونس والأشراف في مكة⁽¹⁴⁸⁾.

أما الباحث "خالد فؤاد طحطح" من المغرب، فيشير إلى أن العثمانيين حاولوا منذ البداية إتباع سياسة الاحتواء اتجاه سلاطين السعديين الأوائل، وهو الأمر الذي أكدته الرسائل العثمانية إلى السعديين والتي كانت تجس نبض هؤلاء من خلال طبيعة المخاطبة التي لم تكن تحمل أكثر من صفة لحاكم فاس، وهو ما كان يعتبر من منظور العثمانيين أن المغرب ولاية تابعة لهم⁽¹⁴⁹⁾.

ومن وجهة نظرنا نقول أن هذه التبعية كانت ظرفية وفي مراحل معينة من الصراع السعدي السعدي، والسعدي العثماني والأحداث اللاحقة ستوضح ذلك.

ففي رسالة مؤرخة (975هـ/ الموافق لـ شهر أوت 1567م) موجهة من لدن السلطان العثماني سليم الثاني إلى الأمير السعدي عبد المؤمن، تفيد بعدم موافقة السلطان على تعيينه حاكما على فاس بدلا من أخيه عبد الله الغالب، وذلك لأن الأخير تمّ تعيينه من قبل والده السلطان سليمان القانوني: "هذا مرسومنا الشريف العالي السلطاني وأمرنا المنيف السامي الخاقاني مازال نافذا ومطاعا في المشارق والمغرب أرسلناه إلى العلماء الفضلاء والصلحاء وجميع الأمراء والكبراء وأهالي فاس وديار مراكش وبلاد سوس وسائر توابع تلك الأرض المباركة"⁽¹⁵⁰⁾.

(147) نفس المرجع، ص: 18.

(148) نفس المرجع، ص: 18.

(149) خالد فؤاد طحطح، "العلاقات المغربية العثمانية خلال العصر الحديث (القرن السادس عشر - أواخر القرن الثامن عشر)"،

دورية كان التاريخية، العدد 14، ديسمبر 2011، ص: 107.

(150) الأرنؤوط، مجلة المؤرخ، ص: 17.

ومع وفاة الأمير السعدي الغالب بالله سنة (982هـ / 1574م) تولى ولده محمد المتوكل على الله مقاليد الحكم في المغرب، إلا أن محمد المتوكل لم يكن يحظى بمحبة أفراد الشعب، لأنه كان مغرورا ولا يحترم أحدا، وقد ذاع صيته منذ عهد أبيه بحياة اللهو والمجون، هذا علاوة على أن اعتلاءه العرش، لم يكن مما يقره أعمامه (عبد الملك وأحمد وعبد المؤمن)⁽¹⁵¹⁾. وهذا كان سببا كافيا لهجرانهم له وفرارهم إلى الجزائر أين استجاروا بحاكمها الحسن بن خير الدين، وكان ثالثهم عبد المؤمن حسن الخلق، حتى أن الحسن بن خير الدين أعجب به وزوجه إحدى بناته وأسند إليه حكم تلمسان وأقام بها سكناه ووجد فيها ترحيبا من أهلها. إلى أن اغتاله المتوكل في مكيدة دبّرت له⁽¹⁵²⁾.

أما عبد الملك وأحمد فقد كانا يعملان على إعداد الوسائل والسبل التي تمكنهم من استرجاع حقوقهم في وراثة عرش المغرب. كان عبد الملك شخصا مرغوبا شعبيا أكثر من ابن أخيه السلطان محمد المتوكل، وكانت عبارات المديح تنهال عليه باستمرار كونه شاعرا بارعا، يجيد الأسبانية والإيطالية ويتحدث التركية بطلاقة ويتقن اللعب على عدة آلات موسيقية مختلفة، وهو جندي مقدام وباسل ومواظب على متابعة أمور التسليح والجنديّة، وكان على علم تام بالعادات والعلاقات العالمية والدبلوماسية والأحداث العالمية وطرق إدارة الدول، تساعد في ذلك أمه (لالا سحابة الرحمانية) بنصائحها القيمة، وزوجته التركية ابنة القائد التركي البحري رايس مراد، التي ساعدته على نيل محبة وعطف الحكومة التركية، بالإضافة إلى مساعدة أخيه أحمد المنصور له⁽¹⁵³⁾.

أضف إلى ذلك مشاركة عبد الملك وأحمد المنصور إلى جانب الجيش التركي بالجزائر في معركة لبانت⁽¹⁵⁴⁾ سنة (979هـ / 1571م). لكن وعلى الرغم من المعلومات القليلة عن

(151) فالح حنظل، العرب والبرتغال في التاريخ (93هـ - 1134هـ / 711م - 1720م)، ط1، منشورات المجمع الثقافي، أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة، 1418هـ - 1997م، ص: 445.

(152) طوريس، ص ص: 230 - 231.

(153) حنظل، ص ص: 447-445.

(154) بالقرب من مدينة اللبانت اليونانية يوم 17 جمادي الأول 979هـ الموافق لـ 7 أكتوبر 1571م أين التقى الأسطول الإسلامي العثماني، الذي كان يضم في تنظيمه الأسطول الجزائري بقيادة العلي، والأسطول الأوربي المسيحي الذي أسندت قيادته للأميرال يوحنا الاستيري ابن شارلكان ملك اسبانيا. كانت الغلبة في هذه المعركة للأسطول المسيحي، فقد لحقت بالأسطول العثماني خسائر فادحة، فقد خلالها 94 سفينة من بينها 30 سفينة جزائرية. أنظر:

- المدني، ص ص: 373 - 374.

حقيقة مشاركة هذين الأميرين في هذه المعركة، إلا أن المؤرخ المغربي "عبد المجيد قدوري" لمح إلى ذلك وأشار إلى ما ذكرته بعض الوثائق الإسبانية من أن أحد المفكرين الإسبان ويدعى "سيرفانتيس" استعمل شخصية عبد الملك في مسرحية بعنوان "سجناء الجزائر" (Prisioneros Argelia) وتناوله كشخصية مميزة وقعت في أسر الإسبان في معركة لبانت، ثم كيف أن عبد الملك كانت له علاقات مميزة مع الأمراء الإسبان الذين توسطوا له عند الملك فليب الثاني ليطلق سراحه ومن ثم يقدم له الدعم لاسترجاع العرش من ابن أخيه محمد المتوكل⁽¹⁵⁵⁾. وكيف أن العلاقات التي نسجها عبد الملك وأخوه أحمد المنصور مع الأتراك والإسبان هي التي مكنتهما من اكتساب الخبرة الحربية والسياسية والإدارية⁽¹⁵⁶⁾. كما شارك عبد الملك وأخوه أحمد المنصور في فتح تونس سنة 1574م حتى أصبحت إيالة عثمانية، ومن تونس انتقلا إلى اسطنبول، ولما علم السلطان سليمان بما كان من أمرهما أكرمهما وقربهما إليه⁽¹⁵⁷⁾.

وعلى ما ذهب إلى بعض المصادر فإن مشاركة عبد الملك إلى جانب الجيش العثماني في تحرير تونس، كان الأساس الذي ارتكز عليه الأتراك، والمنطلق الذي انطلقوا منه في دعمهم له في المطالبة بعرشه في المغرب، لاسيما وأن أعيان المغرب من علماء وقضاة وغيرهم، كانوا فيما سبق قد راسلوا الباب العالي في شأن تولية عبد المؤمن أخو عبد الملك عرش المغرب "إنه أولى بضبط تلك الولاية من عبد الله" إلا أن مشاركة عبد الملك في تحرير تونس حسمت أمر العرش لصالحه، وراح الأتراك يمدونه بالدعم اللازم لتحقيق ذلك⁽¹⁵⁸⁾. فمنذ تولي السلطان العثماني مراد الثالث⁽¹⁵⁹⁾ العرش في اسطنبول، وعبد الملك وإخوته يطلبون إليه أن يمدهم بالجند ليفتحوا المغرب الأقصى باسمه⁽¹⁶⁰⁾. ومع أن الخليفة العثماني

(155) التقى الملك الإسباني فليب الثاني مع عبد الملك عندما كان هاربا من أخيه عبد الله الغالب، وقد رأى الملك الإسباني ضرورة احتواء نشاط عبد الملك لمصلحة إسبانيا، وكان يرى أن الانقضاض على الأتراك وأخذهم على عجلة من أمرهم هو أحسن الطرق لإبعادهم نهائيا عن المغرب العربي. أنظر:

- حنظل، ص: 445.

(156) قدوري، ص ص: 162 - 163.

(157) مؤنس، ج2، ص: 185.

(158) قدوري، ص ص: 166 - 167.

(159) ولد عام 953هـ / 1546م، وتولى الحكم عام 982هـ / 1574م، وهو ابن تسع وعشرين سنة، فجدد العهود مع دول الإفرنج، وفي عهد عرفت الدولة العثمانية هجوما من طرف عساكر المجر، لكنه ردهم إلى بلادهم خاسرين، كما شهدت فترة حكمه تمردات =

كان يسرّ لسماع ذلك، إلا أنه كان يتريث في تلبية طلب عبد الملك. ففي 12 جمادي الأولى 976هـ الموافق لـ 1568م أرسل السلطان العثماني إلى الحسن بن خير الدين حاكم الجزائر فرماناً، أمره فيه بتشكيل هيئة من العلماء والمصلحين من أجل التوسط لحل الخلاف القائم بين الإخوة الأمراء، ومن ثم ترك المجال لأهالي فاس لاختيار من يرغبون في توليته حاكماً عليهم⁽¹⁶¹⁾. ولما فشلت الوساطة كان الحل العسكري الخيار الثاني الذي استعمله السلطان مراد الثالث، وعليه هياً حاكم الجزائر الجند لدخول المغرب مع الأمراء السعديين⁽¹⁶²⁾.

سار عبد الملك في جيش الأتراك وكان عددهم يومئذ أربعة آلاف⁽¹⁶³⁾، ولما علم ابن أخيه محمد المتوكل بالأمر، عجز عن مجابتهم وحدثت انشقاقات في صفوف جيشه، فالتحق عدد كبير منهم بعمه عبد الملك⁽¹⁶⁴⁾، والتقى الطرفان في معركة (خندق الريحان)، في شهر يوليو 1576م واستمرت المعركة لمدة ثلاثة أيام، ثم لم يلبث الطرفان أن التقيا في معركة أخرى عرفت بمعركة الركن وقيل أيضاً اسمها "الروكان"⁽¹⁶⁵⁾.

وبعد قتال طويل تمكن عبد الملك من دخول فاس، أما محمد المتوكل ففر من فاس إلى مراكش، ومنها إلى طنجة⁽¹⁶⁶⁾ أين استعان بالبرتغاليين لينصروه على أعدائه⁽¹⁶⁷⁾.

=وانقسامات داخلية في بعض أقاليم الدولة العثمانية لكنه استطاع أن يقضي عليها ويعيد الاستقرار والأمن بها، لاسيما في منطقة القرم وإيران. توفي عام 1003هـ/1594م لعارض فجائي أصابه، دفن بأجيا صوفيا. أنظر:

- آصاف، ص: 96-70.

(160) يذكر الوفرائي أن السلطان العثماني مراد الثالث رفض في البداية طلب الأمير السعدي عبد الملك، فلم يزل الأخير هو وأمه سحابة الرحمانية عند السلطان مراد يلحون عليه حتى أجابهما إلى ذلك، ويذكر البعض أن سبب رفض السلطان في البداية إنما كان لانشغاله بإيالة تونس وما كان يجري فيها من حروب مع الاسبان. أنظر:

- الوفرائي، ص: 60.

(161) عزيز سامح، ص: 237.

(162) مؤنس، ج2، ص: 185.

(163) تذكر بعض الدراسات أن تعداد الجيش التركي الجزائري بلغ سبعة آلاف (7000) جندي مسلح بالبنادق وسبعمئة خيال (700) وألف إنكشاري، وستة آلاف (6000) خيال محلي، وكان قائد الجيش يومها أمير الأمراء "رمضان باشا". أنظر:

- عزيز سامح، ص: 249.

(164) الوفرائي، ص: 43.

(165) حنظل، ص: 448.

(166) مدينة أسساها الرومان على شاطئ المحيط الأطلسي بالقرب مضيق جبل طارق، احتلها البرتغاليون سنة 1415 م، أحاطوها بأسوار متينة محصنة بخنادق وحصون، كانت طنجة مزدهرة تضم جامعة وعددا من النبلاء المحنكين في الحروب. أنظر:

- كاريخال، ج2، ص: 208-209.

(167) مؤنس، ج2، ص: 185.

وبعد دخول عبد الملك فاس واستلامه الحكم، جدد البيعة للأتراك، واستعان بفرقة من الإنكشارية تعرف "بالزوحاقية" وكلفهم بحراسته، وبالمقابل قدم لحكومة الجزائر عشرة مدافع (10) وخمسمائة ألف (500000) قطعة ذهبية. أما أهالي فاس فبدورهم قدموا للجيش التركي الهدايا والتحف الثمينة. وساروا في توديعه إلى غاية خروجهم من فاس⁽¹⁶⁸⁾.

غير أن المؤرخ فالح حنظل يرى أن قصة دفع عبد الملك الأموال إلى الحكومة التركية لا يفسرها سوى الرفض المغربي للدور العثماني في مستقبل علاقاته الدولية، لذلك فإن عبد الملك كان حكيما وذكيا في تعامله مع الأتراك بهذه الطريقة⁽¹⁶⁹⁾.

وفي أثناء ذلك رفع حاكم الجزائر تقريرا مفصلا للسلطان مراد الثالث، يخبره فيه عن غزوه لفاس، وكيف أنه ضمن الحماية لعبد الملك الذي جدد له البيعة، والذي لبس الحلة الهمايونية أثناء تقلده الحكم⁽¹⁷⁰⁾ كما تقلد السيف المرصع، متفاخرا بانتصاره وبمساعدة الأتراك له⁽¹⁷¹⁾.

وفي هذه الأثناء كان محمد المتوكل ملك المغرب قد دخل إلى طنجة وتقرب من البرتغاليين، وفر عند الملك "سيباستيان" البرتغالي⁽¹⁷²⁾ واستنجد به ضد عمه عبد الملك.

⁽¹⁶⁸⁾ عزيز سامح، ص: 250.

⁽¹⁶⁹⁾ حنظل، ص: 448.

⁽¹⁷⁰⁾ همايون كلمة تعظيم خاصة بالسلطين العثمانيين، ف "هما" باللغة الفارسية و "أما" باللغة التركية تعني طائرا أسطوريا ذا حظ وقدرة، وقد اتخذها السلطين الغز الأتراك رمزا لهم وانتقل منهم إلى سلاطين الدولة العثمانية، وكان يستخدم هذا الرمز مضافا للأشياء المتعلقة بالسلطين، كالخط الهمايوني، والحلة الهمايونية، والجيش الهمايوني وهكذا. أنظر:

- صابان، ص: 226.

⁽¹⁷¹⁾ - عزيز سامح، ص: 250.

⁽¹⁷²⁾ ولد في 20 يوليو 1554م، ابن الأمير جان ابن جوان الثالث ملك البرتغال، والأميرة دونا جوانا أخت الملك فليب ابن الملك شارلكان ملك اسبانيا، فسيباستيان كان وريث عرش سلالة أفيزا البرتغالية الحاكمة. وعندما توفى الملك دون جوان الثالث سنة 1557م، لم يتجاوز سيباستيان وقتها الثلاث سنوات، فأل حكم البرتغال إلى أمه، ولعجزها تنازلت عن العرش لأرملة دون جوان الثالث الملكة دونا كترينا أخت الملك شارلكان. كان سيباستيان في السادسة عشر من عمره عندما قاد الحملة البرتغالية على المغرب والتي كان يعد لها منذ عام (978هـ/1570م)، وقد تربى في وسط أخلاقيات مثالية تهفو إلى نشر التعاليم الجزويتية التي ترى في الجندية المثل الأعلى للحياة، وأن نشر العقيدة الكاثوليكية في مقدمة الأهداف، كما كان يرى أن حل المشكلات الاقتصادية التي كانت تعاني منها البرتغال بسبب مزاحمة الانجليز وغيرهم من الدول الأوروبية لا تنتهي إلا بالعبور إلى إفريقيا وخوض الحرب المقدسة بنفسه ضد (الكفار) المسلمين وسحق بلاد المغرب العربي أولا. أنظر:

- حنظل، ص ص: 378-379 و ص: 453 .

فاشترط عليه ملك البرتغال أن يكون للبرتغاليين سائر السواحل المغربية وللملك السعدي ما ورائها. فأجابهم محمد المتوكل لطلبهم وتعاهدوا على ذلك، وحلف لهم هو على ما ذكر⁽¹⁷³⁾. فجمعوا له جيشا كبيرا، قيل أنه ناهز المائة والخمسة وعشرون ألف جندي⁽¹⁷⁴⁾. فنزلوا به أصيلا⁽¹⁷⁵⁾ من بلاد المغرب، وراست القبائل محمد المتوكل لتكون إلى صفه إن هو دخل في حرب مع أعمامه والأتراك، بيد أن البرتغاليين أخذوا ينهبون أطراف البلاد فاغتازت القبائل لأمرهم⁽¹⁷⁶⁾. وبلغها أمر الاتفاق الذي أبرمه محمد المتوكل مع ملك البرتغال، فما لبثت القبائل أن بايعت عمه عبد الملك المقيم بفاس⁽¹⁷⁷⁾ ونقض العلماء بيعتهم لمحمد المتوكل، ووجه عبد الملك رسالة إلى علماء المغرب وشرفائه يحييهم على ذلك، ويدعوهم لمساندته، فأجابه كافة أهل المغرب من شرفاء وعلماء وصلحاء ورؤساء القبائل برسالة مطولة. فأمر عبد الملك أخاه أن يخرج بالجيش من فاس، ويتقدم إلى وادي المخازن بالقرب من قصر كتامة وقطع الوادي، على بعد ستة أميال من مدينة القصر الكبير⁽¹⁷⁸⁾. وقام عبد الملك بتهديم القنطرة ليقطع الطريق على سياستيان ملك البرتغال، ثم التقى الطرفان في وادي المخازن يوم 30 جمادى الأولى سنة 986هـ / 4 أوت 1578م، وفي أثناء

(173) مجهول، تاريخ الدولة السعدية التكمدرتية، ص: 60.

(174) الوفرائي، ص: 73.

(175) مدينة قديمة أسسها الرومان، وفتحها العرب سنة 94هـ-713م، وأخرجوا منها القوط. واحتلها البرتغاليون سنة 1471م إلى سنة 1550م، ثم احتلها الأسبان، وعادت إلى المغرب بعد مفاوضات بين أحمد المنصور السعدي والملك فليب الثاني سنة 1589م. أنظر: - عبد القادر العافية، الحياة السياسية والاجتماعية والفكرية بشفشاون وأحواضا خلال القرن 10هـ-16م، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، 1982، ص: 38، (الهامش).

(176) مجهول، تاريخ الدولة السعدية التكمدرتية، ص: 60.

(177) كان عبد المالك يلقب بالألقاب السلطانية "المعتصم بالله أمير المؤمنين" وكان كثيرا ما يذكر هذا اللقب في مراسلاته، فقد ذكر اليفرنى هذا الخبر في قوله: "وقفت على رسالة كتب بها إليه أبو مروان تدل على ذلك ونصها: "بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله المعتصم بالله المجاهد في سبيل الله أمير المؤمنين عبد المالك ابن أمير المؤمنين أبي عبد الله محمد الشيخ الشريف الحسنى أيد الله أمره...". أنظر:

- الوفرائي، ص: 77.

(178) ويسمى أيضا قصر صنهاجة وقصر كتامة وقصر عبد الكريم. أسسه عبد الكريم بن عبد الرحمان بن العجوز الكتامي في عصر الموحدين. وهي مدينة متوسطة، تقع في مفترق الطرق بين العرائش وفاس وتطوان، تحيط بها الجنان والحقول والبساتين التي تسقى بمياه نهر اللكوس. أنظر:

- ابن العربي، ص: 219-220.

المعركة توفي عبد الملك في الصدمة الأولى⁽¹⁷⁹⁾. وكتب أخوه أحمد وفاته، واستمر القتال على أشده حتى ولى المشركون الأدبار، وهب ريح النصر، ودارت على البرتغاليين وحلفائهم من الجنود الإسبان دائرة البوار وتقهقروا إلى الوادي وغرقوا فيه. وتوفي في هذه المعركة ثلاثة ملوك: "الشهيد عبد الملك وابن أخيه "المسلوخ"⁽¹⁸⁰⁾ والملك "سيباستيان البرتغالي"⁽¹⁸¹⁾. وبعد أن أذن الله بالنصر على الغزاة، بويغ أبو العباس أحمد المنصور ملكا على المغرب وبعث إلى سائر ممالك الإسلام المجاورين للمغرب وإلى الخليفة العثماني يخبرهم أن "الله أنعم عليه بإظهار الدين وإهلاك عبدة الصليب". فكان أول المهنيين حاكم الجزائر "الحسن بن خير الدين"، وما لبث أن بعث له السلطان مراد الثالث يهنئه بالنصر وأرسل إليه بهدية "تمثلت في سيف محليّ ومرصع بالجواهر"⁽¹⁸²⁾.

وقد كاد المنصور أن يدخل في أزمة سياسية مع السلطان العثماني مراد الثالث، لعدم احتفائه بالوفد التركي القادم إليه من إسطنبول، فقد أخذ الهدية وأهمل الوفد⁽¹⁸³⁾، فغضب السلطان العثماني من المنصور لإهماله سفرائه وفكر في غزو المغرب، غير أن المنصور تدارك الأمر، لأنه كان يعلم يقينا أن الأتراك هم أصحاب الفضل عليه في بسط سيادته على

(179) تذكر المصادر أن سبب وفاة عبد الملك، أنه تلقى سما وذلك أن قائد الأتراك الذي كان معه واسمه "رضوان العليج" بعث لبعض قواده أن يتلقاهم بكعك مسموم هدية لعبد الملك وقت مرورهم أمامه ليتخلص منه، بعد أن دخلت جيوش الأتراك مدينة فاس ليحكموا سيطرتهم عليها، إلا أن هذا الأمر لم يتم في حينه وانتهى أمر عبد الملك في وادي المخازن. أنظر:

- الوفراني، ص: 77.

(180) يقال أن محمد المتوكل وجد غريقا في وادي اللوكس، وذلك أنه لما رأى الهزيمة ألقى بنفسه فيه فغرق، فاستخرجه الغواصون، فسلب أحمد المنصور جلده وحشاه بالتبن وطاف به في مراكش، وممن وجد في القتل "أبو عبد الله محمد بن عسكر" صاحب كتاب "دوحة الناشر"، فقد كان من بطانة محمد المتوكل، ورافقه إلى ملك البرتغال لطلب الدعم. أنظر:

- نفس المصدر، ص: 75-76.

(181) عبد الحق المربني، "أصداء معركة وادي المخازن في الشعر المغربي"، مجلة التاريخ العربي، الرباط، د.ت، ص: 488-492. (م. ك. ش. إ. 2).

(182) الوفراني، ص: 86.

(183) يذكر الفشتالي في كتابه أن السلطان العثماني مراد الثالث، أرسل في هذه الوفادة مفتي الجزائر الشيخ العالم الخطيب الشهير "أبي الطيب البسكري" واختاره لشهرته ومكانته في العلم والرياسة ليحسن أداء الرسالة، وليلد بإرساله على علو عمله وشرف مقدار المرسل إليه، فسر المنصور وأقام لهم مراسم الضيافة، وأكرمهم حتى انقلبوا إلى مرسلهم محبورين. أنظر:

- الفشتالي، ص: 50-51.

المغرب، كما كان يعرف شدتهم وبأسهم، فسارع بالاعتذار إلى الخليفة العثماني وأرسل إليه هدايا قيمة⁽¹⁸⁴⁾.

وبالرغم من الخطوة التي قام بها "أحمد المنصور" تجاه العثمانيين، إلا أنهم وعلى رأسهم وزير البحر العثماني "العلاج علي"، كانوا ييبغضون المنصور، وكانوا يتحينون الفرصة للتخلص منه⁽¹⁸⁵⁾. فقد كان "العلاج علي" يأمل في أن يتقلد حكم المغرب "إسماعيل بن عبد الملك" المتوفى في معركة وادي المخازن، وكان إسماعيل مقيما في الجزائر مع أمه التركية، وكان هدف العثمانيين من ذلك إضعاف المنصور وإيجاد حاكم بديل موال لهم⁽¹⁸⁶⁾.

وكان العلاج علي يذكر المنصور عند الخليفة العثماني بأقبح الأوصاف، ويذكر ما كان من أبيه محمد الشيخ السعدي من القدر تجاه الأتراك، فقد قال له في ذلك: "قد ضاع صنيعك في هذا الغادر وصنيع والدك من قبلك". فلم يزل يذكره بالسوء حتى أوغل صدر الخليفة، ثم أمر الخليفة العثماني "مراد الثالث" العلاج علي أن يوجه حملة عسكرية لدخول المغرب والتخلص من المنصور. فلما وصلت أنباء الأتراك إلى المنصور، أخذ يعد العدة لملاقاتهم⁽¹⁸⁷⁾، لكنه فضل الوسائل الدبلوماسية، فبعث رسله إلى السلطان العثماني وهدايا قيمة واعتذر عما بدر منه من سوء المعاملة. فقبل السلطان مراد الاعتذار وقبل الهدايا بقبول حسن، وبعث إلى العلاج علي أن يعود أدراجه ويتخلى عن مهاجمة المغرب، وبعد هذا الحدث لم تتوقف السفارات بين المنصور والسلطين العثمانيين⁽¹⁸⁸⁾.

(184) مؤنس، ج2، ص: 195.

(185) يرجع عبد العزيز الفشتالي سبب هذا الحقد، إلى أن العلاج علي كان حديث العهد بالكفر لتأخر إسلامه، وكان يضمير العداوة للإسلام ويجاهر بها خصوصا لأبناء النبي عليه السلام بالمغرب، ورغبة منه في تحريك العداوة بين المملكتين (المغربية والعثمانية). والمعروف في تاريخ الجزائر الحديث أن العلاج علي كان من أشهر حكامها وأشجعهم في الذود عن الإسلام والمسلمين، فقد شارك في معارك عدة وحقق الكثير من الانتجازات والانتصارات لازالت كتب التاريخ تذكرها. أما ما ذكره الفشتالي فإنه يحتاج إلى البحث والنقضي أكثر لاستبيان الحقيقة. أنظر:

- الفشتالي، ص: 62.

(186) خير فارس، ص: 61.

(187) أشار الفشتالي إلى أن المنصور في هذه الفترة تعرض لمؤامرة دبرها له الأتراك مع قائد جيشه "سعيد الدغالي" التركي الأصل، فقد كتب هذا القائد لحاكم الجزائر، يعلمه بأن الوقت قد حان لاحتلال المغرب، وتحقيق رغبة السلطان العثماني، وذلك لأن الحاكم المغربي الجديد غير قادر على تسلم السلطة، وليس هناك من يخلفه، وعلم المنصور بالمؤامرة ففضى على مدبريها من رجاله. أنظر:

- الفشتالي، ص: 43.

(188) الناصري، ج2، ص: 291.

وبالرغم من المجاملات بين الطرفين، فإن السلطان العثماني كان يرى نفسه الخليفة الوحيد، وأن المنصور ليس إلا حاكما أو أميراً على المغرب⁽¹⁸⁹⁾. كما أن إلحاح العثمانيين على موضوع تسليم إسماعيل بن عبد الملك حكم فاس من جهة، ورغبة المنصور في تأكيد استقلاله عن الأتراك واعتباره ندا للسلطان العثماني من جهة أخرى، كان يحول دون وصول المفاوضات بين الطرفين إلى نتائج ملموسة⁽¹⁹⁰⁾. وعلى ما يبدو فإن المنصور كان يهتم بإجراء اتفاق مع ملك إسبانيا "فليب الثاني" لمواجهة الأسطول العثماني الذي زادت قوته بعد زوال الخطر البرتغالي، مقابل تخلي المغرب عن العرائش⁽¹⁹¹⁾ للإسبان⁽¹⁹²⁾.

وفي هذه النقطة بالذات يذكر الباحث "محمد جادور" الأستاذ بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بالدار البيضاء بالمغرب، أن فليب الثاني كان يضغط على أحمد المنصور بشتى الوسائل لكي يسلمه مدينة العرائش، أو يستبدلها بمدينة الجديدة⁽¹⁹³⁾ أو مدينة أصيلا، وبرر ذلك بكون الأخيرة لا تصلح لرسو السفن. بينما يوفر مصب نهر لوگس⁽¹⁹⁴⁾ الأمن للسفن الإسبانية التي تحتاج لإصلاح أي خلل أصابها، خاصة وأنه قادر على استيعاب ثلاثمائة سفينة (300)، تستخدم لمواجهة نشاط الجهاد البحري المنطلق من الجزائر⁽¹⁹⁵⁾.

(189) يذكر صاحب كتاب تاريخ سلاطين آل عثمان أن المراد الثالث أخضع الجزائر وبلاد فاس إلى الخلافة العظمى سنة 984هـ/ 1576م. وهذا على ما يبدو بعد المساعدات الكبيرة التي قدمها الأتراك للسعديين في معركة وادي المخازن. أنظر: - آصاف، ص: 70.

(190) خير فارس، ص: 62.

(191) تقع العرائش على شاطئ الأطلسي بين القصر الكبير وأصيلا، على الضفة اليسرى لوادي اللوكس، بنيت قصبتها سنة 897 هـ، احتلها الأسبان سنة 1019 هـ، وحررها المولى إسماعيل سنة 1101 هـ. أنظر:

- ابن العربي، ص: 200.

(192) عزيز سامح، ص: 260-261.

(193) مدينة صغيرة على ضفة وادي أم الربيع، بين الدار البيضاء وجديدة يرجع تاريخها إلى العهد الفينيقي. أنظر:

- ابن العربي، ص: 51.

(194) يعرف بلكوس، ينبع من جبال غمارة ثم يتجه نحو المغرب مخترقا إقليمي أزغار والهبط، ومن هناك يمر بالقرب من القصر الكبير مشكلا بحيرات كبيرة كثيرة السمك، كانت السفن الأوربية ترسو به محملة بالبضائع، غير أن مدخله من جهة البحر صعب جدا لدرجة أن ريان السفينة قد يهلك إن لم يكن له الحنكة لدخول مجرى هذا النهر. أنظر:

- كرخال، ج1، ص: 36-37.

(195) محمد جادور، "دبلوماسية أحمد المنصور السعدي من خلال تقايد أسير برتغالي"، مجلة المؤرخ، العدد: 4، المغرب، أوت 2009، ص: 4.

ومع ذلك فإن شعور العثمانيين والمنصور بتزايد الخطر الأسباني بعد ضم البرتغال، وتضايق المنصور من إلحاح الإسبان على تسلم العرائش من المغرب، ومساعي إنجلترا للتقريب بين الطرفين، جعلهما يستمران في الاتصالات وتبادل السفارات والهدايا⁽¹⁹⁶⁾.

ففي سنة (988هـ/1580م) تلقى المنصور من السلطان العثماني مراد الثالث رسالتين يقترح فيهما على المنصور التحالف وأن يقدم السلطان العثماني (300) سفينة حربية وقوات عثمانية تشترك مع المغاربة في مهاجمة إسبانيا. كما عرض السلطان العثماني ابنه زوجة للمنصور لتوثيق هذا التحالف⁽¹⁹⁷⁾.

وبدوره حرص أحمد المنصور على استمرار علاقة الصداقة والتقارب بين المغرب والدولة العثمانية في كثير من المناسبات، وكانت مراسلاته مع الباب العالي تؤكد هذا الحرص، فقد جاء في إحداها أن المملكتين محروستا الجوانب، والأطراف من سوء الشقاق والاختلاف، ومعمورتا الأرجاء بالوفاق والائتلاف: "وحتى يعلم كل مبغض وفاجر ومسلم وكافر، لذ المملكتين كروحين في جسد (كذا)، وساعدين في عضد، لفرط الإتحاد (كذا)"⁽¹⁹⁸⁾.

كما أن السلطان العثماني نفسه، كان يبعث إلى إيالات كل من طرابلس الغرب وتونس والجزائر فرمانات بعدم التعرض للسفراء أو سفن المغرب إذا هي عبرت البحر. ففي إحدى الرسائل الموجهة إلى حاكم الجزائر جاء فيها: "إلى أمير أمراء الجزائر... حاكم فاس ومراكش مولاي أحمد... يجب عليك تأمين نقل الرجل السفير الذي قدم إلينا برسالة وقبلناها، وحسب الشرع الشريف علينا إيصاله إلى بلاده سالما، لذلك عليك معاملته بالمعروف وبكل احترام، كما يجب عليك تزويده بعدد كاف من العساكر لضمان سلامته وإيصاله. والمشار إليه أحمد سيقوم في دياره بإعلان الخطبة باسمنا وسنضرب النقود أيضا باسمنا كعربون جيد على صداقتنا الصافية والذكرى الحسنة، وإذا لم يرد دليل يؤكد خيانتة لنا أبقية مكانه، وعليك التأكد من ذلك وأعلمنا بالتفاصيل ساعة بساعة. 2 صفر 989هـ"⁽¹⁹⁹⁾.

وبتاريخ (990هـ/1582م) استقبل السلطان العثماني سفارة مغربية، وكانت السفارة قد تزامنت مع احتفال السلطان العثماني بختان ولد له يدعى "محمدًا، فأكرم السلطان الوفد

(196) خير فارس، ص: 62.

(197) نفس المرجع، ص: 62.

(198) جادور، مجلة المؤرخ، ص: 6.

(199) عزيز سامح، ص ص: 261-262.

المغربي وزوده بفرمان سلطاني يخول للملك السعدي أحمد المنصور حق حصر حكم المغرب الأقصى في عائلته جيلا بعد جيل، ومما جاء في الفرمان:

"إلى حاكم فاس مولاي أحمد: ...قررنا منحك حق الحكم ولمن سيأتي من نسلك جيلا بعد جيل بدون انفراض، وعممنا هذا الفرمان على سائر ممالكنا المحروسة وحكامها، وبأنك أصبحت من جملة الممالك المضافة إلى ممالكنا المحروسة وأن تعليماتنا بهذا الخصوص شاملة، ومادامت تبعيتكم لمعالينا تعتمد على الصداقة والإخلاص، ولقاء هذا الإخلاص ستحكم البلاد نسلا نسلا إلى يوم القيامة. بلغ الفرمان إلى أوجاق الغرب بتاريخ 23 رجب 990هـ⁽²⁰⁰⁾.

وذكر المحبي في خلاصة الأثر⁽²⁰¹⁾: "أن المنصور كان موادعا لسلطين آل عثمان فيرسل إليهم بالهدايا في كل سنة وكانوا هم يرسلون إليه المكاتيب والخلع السنية. حتى أن السلطان مراد ابن سليم خان (مراد الثالث) كتب إليه في أثناء مكاتيبه: "لك علي العهد أن لا أمد يدي إليك إلا للمصافحة وأن خاطري لا ينوي لك إلا الخير والمسامحة"، ورسله دائما تأتي إلى قسطنطينية (اسطنبول) من جانب البحر ويمكنون زمانا طويلا، ويتعهدون الوزراء ويكاتبون من له قرب إلى الدولة. ولم يحصل لأحد من أولاد محمد الشيخ ما حصل لهذا المنصور فإنه قد طال في الملك مدته واتسعت مملكته وقويت شوكتة... وكان ابتداء تملكه في آخر سنة خمس وثمانين وتسعمائة واستمر سلطانا ثمانية وعشرين سنة"⁽²⁰²⁾.

(200) نفس المرجع، ص ص: 226.

(201) ولد بدمشق سنة (1061هـ/1650م)، نشأ بها في كنف والده واشتغل بطلب العلم، فقرأ على العلامة الشيخ إبراهيم الفتال والشيخ رمضان العطيفي والشيخ عبد الغني النابلسي والشيخ علاء الدين الحصكفي مفتي دمشق والشيخ وغيرهم، وأخذ بالحرمين عن جماعة من علمائهما منهم الشيخ حسن العجيمي المكي والشيخ أحمد النخلي المكي وغيرهما. برع وتفوق في فنون العلم وفاق في صناعة الإنشاء البليغ ونظم الشعر، وكان يكتب الخط الحسن العجيب وألف مؤلفات حسنة بعد أن جاوز العشرين، منها: الذيل على ربحانة الشهاب الخفاجي سماه نفحة الريحانة ورشحة طلاء الحانة، والتاريخ لأهل القرن الحادي عشر سماه خلاصة الأثر في تراجم أهل القرن الحادي عشر ترجم فيه زهاء ستة آلاف من مشاهير القرن 11هـ / 17م، المضاف والمضاف إليه والمتمنى الذي لا يكاد ينتهي، وغيرها. شد الرحال إلى الحجاز وناب في القضاء بمكة ورحل إلى مصر وناب في القضاء بها، تولى التدريس بالمدرسة الأمينية بدمشق إلى أن وافته المنية. أنظر:

- أبي الفضل السيد محمد خليل أفندي المرادي، سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر، د.ط، د.م.ط، د.ت. ص: 117.
(م. ك. ش. إ. ث.).

(202) تقي الدين بن داود المحبي، خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، د.ط، د.م.ط، د.ت، ص: 140، (م. ك. ش. إ. ث.).

ولكن وعلى الرغم من مظاهر الود والتقارب بين العثمانيين والسعديين، فإنه حدثت بين الطرفين أزمات كادت تؤدي إلى حرب بين الجانبين من ذلك مشكلة "فكيك" أو فغيغ، فهذه المدينة التي تقع في الحدود بين تلمسان وفاس كانت خاضعة لحكم الأتراك، إذ كانت تدفع لهم الضرائب سنويا وكان حاكمها مواليا للأتراك، لكن حدث أن أرسل أحمد المنصور أحد أعوانه للتخلص من هذا الحاكم واستبدله بآخر موال له. فاحتج حاكم الجزائر حسن باشا على الحادثة ورفع الأمر إلى السلطان العثماني الذي جاء رده كالاتي: "فغيغ كيف كانت قديما تدار، الآن يجب أن تدار على نفس المنوال، ولا يحق لحاكم فاس التدخل فيها، إننا نأمرك بتطبيق ذلك، وننبهك لكي لا تنسى ولكي لا تمتلئ الصدور بالحق، ويعم الفساد وتتحول الأزمة من جزئية إلى كلية، عليك تدارك ذلك جيدا، وإذا استدعى الأمر مما حدث، فكن صاحب بصيرة واجعل العقل سيد الموقف، لأنه إذا حدث شيء يتعارض وشرف وناموس السلطنة العلية، فإنك تتحمل كامل المسؤولية" (203).

ولأن أحمد المنصور صار أكثر اطمئنانا من جهة الأتراك فإنه قام بحملة على إقليم التوات (204) الذي كان أهله في وقت سابق يدفعون الضرائب لأمرأ بني مرين، ولكنهم منذ زمن بعيد لم يدفعوا شيئا، ففكر المنصور في غزوهم وإخضاعهم لسلطانه، فأعد حملة سنة (994هـ/1585م) دامت سبعين يوما (70)، وبعد مقاومة عنيفة من أهل توات تمكن المنصور من القضاء عليها وإبادة الكثير من أهلها، ثم بسط سلطانه على المنطقة (205). كما حدث أن أرسل أحمد المنصور إلى إسبانيا بعثة بقيادة أحد الأساقفة يدعى "الأب مرين" (Marin) الذي اقترح عليه بعد عودته إلى المغرب قطع كل علاقاته مع إسطنبول ومع باشاوات الجزائر، مقابل مساعدات تقدمها إسبانيا له من ذلك: ضمان أمنه وتسليمه الأميرين السعديين اللاجئين بأبيبيريا وهما الناصر بن الغالب والمولى الشيخ (206).

(203) عزيز سامح، ص: 265-266.

(204) توات إقليم واسع يشتمل على 20 واحة، أهمها: أدرار، تويريرت، المنصور، رقان، بها الكثير من أشرف المغرب. أنظر: - عبد الرحمن ابن زيدان، العز والصولة في معالم نظم الدولة، ج1، المطبعة الملكية، الرباط، 1381 هـ-1961م، ص: 162، (الهامش).

(205) عزيز سامح، ص: 348.

(206) جادور، مجلة المؤرخ، ص: 5.

وعلى أية حال فالمنصور كان شديد الإعجاب بالأتراك ودائم التقليد لهم، من ذلك أن جيشه كان منظما تنظيما محكما كما هو معمول به عند الأتراك، فقد كان لجنده لباس خاص، وألقاب كتلك معمول بها عند الانكشارية من البيلربيات والبشاوات والصبايحية⁽²⁰⁷⁾، وكانت له فرق خاصة من الأتراك في جيشه تلقب بالبياك (أصحاب القلائس الصفراء) والبلبدروش (أصحاب اللقائف، وهي الرماح القصيرة، غليظة العصا مغطاة بالحديد ومرصعة بالمسامير)⁽²⁰⁸⁾.

كما أكد المنصور في معاهداته مع باشاوات الجزائر أنه تابع للأتراك، وأكد ذلك باتخاذة ذيل الفرس الأبيض، وهو رمز تركي عثماني، كشعار لإرضاء الباشا حاكم الجزائر ولنيل صداقته، بل حتى أنه كان يؤدي إتاوات التبعية للباب العالي⁽²⁰⁹⁾.

وهنا تجدر الإشارة إلى أن بعض المصادر المغربية تعتبر الهدايا التي كان يقدمها السلاطين السعديين للباب العالي عبارة عن ضريبة التبعية، فهي عنوان لتبعية المغرب للعثمانيين، في حين يعتبرها البعض الآخر وسيلة ذكية للتخلص من ضغوطات العثمانيين⁽²¹⁰⁾.

ومع وفاة المنصور عادت العلاقات المغربية العثمانية إلى التوتر⁽²¹¹⁾. ثم إن تاريخ الأسرة السعدية منذ وفاة المنصور عام (1012هـ/1603م) وحتى مقتل آخر سلطان سعدي عام (1070هـ/1659م) هو تاريخ المنازعات بين أولاد المنصور وأحفاده، وانقسام المغرب إلى سلطتين إحداهما في مراكش والأخرى في فاس. وهو فوق هذا كله تاريخ الإمارات المغربية المستقلة التي أنشأها زعماء مرابطون سيطروا على القسم الأكبر من المغرب،

⁽²⁰⁷⁾ كلمة بيلرباي تعني أمير الأمراء وتتطرق كذلك بكركك، وهي منصب إداري عال في الدولة العثمانية، وكان البيلرباي يتولى قيادة الجيوش العثمانية، وكان نافذ الكلمة يأتي بعد السلطان مباشرة. أما كلمة باشا، كلمة قديمة تعني قدم الملك أو الشاه، ثم صارت لقبا أطلقه العثمانيون على المستخدم (الموظف) واستعملت بعد ذلك كلقب لحكام الولايات، وأخيرا أصبحت لقبا تشريفيا في الدولة العثمانية، كما أطلق هذا اللقب على رتب متعددة مدنية وعسكرية. وكلمة الصبايحية أو السباهية فتعني الخيالة والفرسان في الجيش العثماني واصطلح استعماله للدلالة على الخيالة صاحب الأرض (الفلاح). أنظر:

- صابان، ص ص: 52 و 64 و 164.

⁽²⁰⁸⁾ الناصري، ج 2، ص ص: 349-350.

⁽²⁰⁹⁾ جادور، مجلة المؤرخ، ص: 4.

⁽²¹⁰⁾ السويكت، مجلة الملك سعود، ص: 197.

⁽²¹¹⁾ إبراهيم حركات، المغرب عبر التاريخ، من بداية المرينيين إلى نهاية السعديين، مج2، ط1، دار الرشاد الحديثة، المغرب، 1398هـ-1978م، ص: 343.

ومنازعات هذه الإمارات مع السعديين من جهة، ومنازعاتها فيما بينها من جهة أخرى⁽²¹²⁾. وهذا ما أدى إلى ظهور أسرة جديدة حاكمة في المغرب بقيادة الأشراف العلويين⁽²¹³⁾.

لا يختلف العلويون عن السعديين في علاقاتهم مع الدولة العثمانية، فقد كانت رغبتهم في التوسع شرقا نحو الجزائر ومن ثمّ بسط نفوذهم عليها جلية في الكثير من المناسبات وفي كثرة الحملات العسكرية على هذا الإقليم، وهو ما كانت السلطة العثمانية على وعي كبير به. فكانت السبابة لطرح مسألة الحدود بين المغرب وإيالة الجزائر العثمانية، ولعل قصة الشيخ أبي عبد الله محمد الخروبي رسول حاكم الجزائر إلى الملك أبي عبد الله محمد الشيخ مهدي والتي سبق وذكرناها في علاقة العثمانيين بالسعديين واضحة في هذه المسألة⁽²¹⁴⁾.

3- العلاقات العلوية العثمانية إلى منتصف القرن 12هـ/18م:

مع تولي العلويين الحكم في المغرب استطاع الأتراك إقناعهم بفكرة رسم الحدود بين المغرب والجزائر، واستطاعت إحدى البعثات إقناع الشريف محمد العلوي (1046-1075هـ/1636-1664م) بكتابة تعهد في ذلك، لكن مع هذا كله ظل العلويون متمسكين بفكرة ضم الواجهة الشرقية للمغرب، وتجلّى ذلك في كثرة الحملات التي قام بها المولى الرشيد (1077-1083هـ/1666-1672م) ثم من بعده المولى إسماعيل (1083-1140هـ/1672-1727م)، في حين لوح الأتراك العثمانيون في الجزائر بورقة الحدود، واعتمدوها كسبيل لإيقاف هذه التهديدات⁽²¹⁵⁾. ويوحى تمسك العثمانيين بوادي تافنة⁽²¹⁶⁾ كحد فاصل

(212) خير فارس، ص: 72.

(213) أول من دخل المغرب من الأشراف العلويين هو الحسن بن قاسم بن محمد بن القاسم، دخل سجلماسة مع بعض نفر منها، كانوا قد عادوا من موسم الحج، وفيها صاهر شيخها واستقر بمكان يقال له المصلح، وأنجب نسله من الأشراف العلويين، الذين يعرفون أيضا بالفلاليين نسبة إلى إقليم تافيلالت سنة 664هـ - 1265م. أنظر:

- الناصري، الاستقصاء، ج3، ص: 3-10.

(214) طحطح، دورية كان التاريخية، ص ص: 108.

(215) نفس المرجع، ص ص: 106-112.

(216) نهر صغير يخرج من جبال الأطلس فيجري نحو الشمال ليصب في حوض المتوسط مخترقا مفازة أنكاد، على بعد 42 كيلومتر من وهران إلى جهة الغرب، وقليل الاتساع ويسمى كذلك بنهر أرسكول. أنظر:

- كاريخال، ج1، ص: 38.

بين الطرفين اعتبار الاتفاق مع المولى محمد حجة قانونية أشهروها في وجه المولى إسماعيل (217).

وحسب الباحث خالد فؤاد طحطح فإن الأتراك العثمانيون حاولوا منذ العهد السعودي تطبيق موقف الشرفاء بخطة الحدود المرسومة، حتى يمكن حصر نفوذهم في المغرب الأقصى، وإن كانوا فشلوا في بداية الأمر مع السعديين فإنهم نجحوا مع العلويين (218). غير أن طموحات الشرفاء في إحياء مشروع الإمبراطورية الموحدية الكبرى اصطدمت بفكرة رسم الحدود بين المغرب وإيالة الجزائر العثمانية بالرغم من أن انتماء الشرفاء إلى آل البيت كان الدافع الأساسي لإحياء هذا المشروع، الذي يستند بدوره إلى فكرة "الأحقية في الخلافة الإسلامية"، لذلك فالصراع بين الشرفاء السعديين ومن بعدهم العلويين يتجاوز مسألة الحدود. كما أن فكرة الحدود السياسية دخيلة على المنطقة المغاربية، وأن الفهم الذي كان سائدا خلال هذه الفترة هو أن دار الإسلام مجال جغرافي وفضاء حضاري يحق للمسلم أن يستوطن في مختلف جهاته، وأن الحدود لا يمكن أن تكون إلا بين دار الإسلام ودار الحرب (219).

وعليه فإن فهم العلاقة بين الشرفاء العلويين والدولة العثمانية يقتضي الوقوف عند الكثير من الأحداث التي تهم هذا الموضوع.

لقد كان المغرب مع نهاية الدولة السعدية وبداية عهد الدولة العلوية مجزء إلى عدة مناطق، يتقاسم حكمها بعض من بقي من الأمراء السعديين من جهة، وبعض المرابطين من أمثال الدلائيين من جهة أخرى (220)، أين كانوا يسيطرون على فاس وضواحيها، بينما استأثر مرابطون آخرون بباقي أجزاء المغرب، فكان كروم الحاج يحكم مراكش وما جاورها،

(217) طحطح، دورية كان التاريخية، ص ص: 108-109.

(218) نفس المرجع، ص ص: 108-109.

(219) نفس المرجع، ص ص: 108-109.

(220) ينتسب الدلائيون إلى قبيلة مجاط، أحد فروع صنهاجة، أسس الشيخ أبي بكر بن محمد السعيد الدلائي الزاوية حوالي الثلث الأخير من ق 10هـ، السادس عشر الميلادي، في أرض دلاء قريبا من تادلا، تفرعت عنها مدينة أخرى تقع جنوبها على بعد 12 كلم، أنشأها حفيده محمد الدلائي سنة 1048هـ-1636م فورثت عن الدلائية القديمة اسم الزاوية الدلائية البكرية، دخلت الزاوية في صراع مرير مع السعديين وقائد سلا العياشي والمولى إسماعيل العلوي. أنظر:

- محمد حجي، الزاوية الدلائية دورها الديني والعلمي والسياسي، المطبعة الوطنية، الرباط، المغرب، 1964، ص ص: 26-33.

وأبوحسون صاحب إلغ⁽²²¹⁾ يستبد بالسوس، أما المقدم الخضر غيلان⁽²²²⁾، فاستولى على بلاد الهبط⁽²²³⁾، والرئيس أعراس استأثر بالريف المغربي⁽²²⁴⁾، في حين سيطر الأتراك العثمانيون على الأجزاء الشرقية للمغرب. أما بعض سواحل المغرب المطلة على البحر المتوسط أو تلك المطلة على المحيط الأطلسي فكانت في قبضة الإسبان والبرتغال. وكان لزاما على حكام المغرب العلويين التعامل بحذر وحزم مع هؤلاء من أجل فرض سلطانهم على المغرب، والتوسع خارجه شرقا إذا اقتضى الأمر⁽²²⁵⁾.

وفي هذه النقطة بالذات فإن أول اتصال للعلويين بالعالم الخارجي - على ما تذكره المصادر التاريخية المغربية - كان في عهد السلطان سيدي محمد بن الشريف (محمد الأول)، وبين ممثل الباب العالي في الجزائر⁽²²⁶⁾. وسبب ذلك هو قيام المولى محمد بن علي الشريف العلوي سنة (1057هـ/1647) بالهجوم على قبيلة بني يزناسن⁽²²⁷⁾ وهي قبيلة بربرية في الأصل تابعة للجزائر، كانت تستقر بالقرب من وجدة، فلما أغار على بلاد بني

(221) عاصمة إمارة أبي حسون السملالي، اتسعت هذه الإمارة وازدهرت خلال نصف قرن حتى قامت الدولة العلوية بتوحيد البلاد وكانت هذه المدينة مركزا هاما في التجارة بين أوروبا والسودان وقصدها الوفود التجارية من عدة دول كهولندا وإنجلترا وفرنسا. ويسوس مدينة أخرى تسمى "إلغ" اشتهرت بوجود مركز الزاوية الدراوية التي أسسها الحاج علي الألفي الدراوي رحمه الله. أنظر: - ابن العربي، ص: 68.

(222) أبي العباس الخضر غيلان الجرفطي من قبيلة بني جرف أو كرفط الواقعة بين العرائش وتطوان، كان من أتباع المجاهد أبي عبد الله محمد العياشي، وقائدا في جيشه ببلاد الهبط، فلما قتل الأخير سنة 1051هـ/1641م، خلفه غيلان كقائد بالمنطقة، وقاد الجهاد ضد الغزاة الأجانب، قتل غيلان على يد المولى إسماعيل في 11 جمادي الأولى 1084هـ / 18 سبتمبر 1673م ببلاد الهبط. أنظر: - محمد داود، تاريخ تطوان، مج1، د.ط، معهد مولاي الحسن، تطوان، 1379هـ - 1959م، ص: 235-343.

(223) أطلق هذا الاسم فيما مضى على المنطقة الواقعة بين تطوان والعرائش وطنجة، ثم اندثر بالمرءة. ويطلق اليوم على بعض القبائل فقط، وهي الفحص الغربية، الساحل، وأهل سريف وبني زكار والخلط وبني عروس وبني يسف وغيرهم. أنظر: - ابن العربي، ص: 242.

(224) نسبة إلى سلسلة جبال تمتد في شكل هلال من سبتة إلى مليلية يتراوح ارتفاعها من ألف إلى ألفي متر وتتحد منها عدة أودية قليلة الأهمية تصب كلها في حوض المتوسط، وكانت جبال الريف مركزا لحركة المقاومة الكبرى التي تزعمها عبد الكريم الخطابي ضد الاحتلال الإسباني. أنظر: - نفس المرجع، ص: 145.

(225) عبد الهادي التازي، التاريخ الدبلوماسي للمغرب من أقدم العصور إلى اليوم، مج9، العهد العلوي 1، د.ط، مطابع فضالة، المغرب، 1408هـ-1988م، ص: 9.

(226) نفس المرجع، مج9، ص: 9.

(227) هذه الكلمة محرفة عن كلمة بني يزناتن أي زناتة، وتطلق على مجموعة كبرى من القبائل الزناتية المستقرة بين نهر ملوية وكيس بالمغرب الشرقي. أنظر: - ابن العربي، ص: 86.

يزناسن، التي كانت موالية للأتراك، نهب أموالها وشتت أهلها، ومن ثم عاد إلى وجدة. لكنه رجع مرة أخرى وأغار على جميع المناطق الشرقية لبلاد المغرب ونهب خيراتها حتى وصل تلمسان، لكن أهل تلمسان وبمساعدة من الأتراك طردوه سنة (1058هـ / 1648م)⁽²²⁸⁾.

قضى المولى محمد الشريف الشتاء كاملاً في وجدة، ومن ثم حرك جيشه ليغزو المناطق المجاورة لها شرقاً، فقبل أن يدخل إلى معسكر، قام باي الغرب بتحصين المناطق الغربية وطلب مساندة من قوات الجزائر ومع وصول الأخيرة كان المولى محمد قد دخل عين ماضي بالأغواط⁽²²⁹⁾، والغاسول⁽²³⁰⁾ قبل أن يعود أدراجه⁽²³¹⁾. وكان قد نشر الرعب وأفزع الناس الذين لم يجدوا من سبيل سوى الفرار إلى الجبال، كما أسفرت حركته هذه عن مبايعة عرب المعقل⁽²³²⁾ له من أمثال: الأحلاف وهم عرب العمارنة والمنبات وغيرهم⁽²³³⁾.

ويذكر صاحب الاستقصاء أن المولى محمد الشريف أغار على القبائل العربية القاطنة شرق مدينة وجدة⁽²³⁴⁾ ونهب أموالها، على غرار الجعافرة وعرب الحارث وسويد وحصين بني مالك بن زغبة، وغيرها⁽²³⁵⁾، في حين قدمت عليه قبائل أخرى فبايعته ودخلت في طاعته من ذلك قبيلة حميان من بني يزيد بن زغبة، قبيلة دخيسة⁽²³⁶⁾.

(228) عزيز سامح، ص ص: 382-383.

(229) نفس المرجع ص ص: 382-383.

(230) تقع الغسول في الجنوب الغربي للجزائر على بعد ستين كيلومتر (60 كلم) تقريباً من البيض في الجهة الجنوبية في اتجاه ولاية غرداية، وهي منطقة مشهورة بنبته النعناع ذات الجودة العالية على مستوى القطر الجزائري كله.

(231) الناصري، الاستقصاء، ج3، ص: 16.

(232) من العرب الداخلين إلى المغرب ينسبهم البعض إلى بني هلال، إلا أن ابن خلدون يرجح أنهم يمنيون، كانوا يسكنون اليمن، قبل دخولهم المغرب، وعند دخولهم كان عددهم لا يتجاوز 200 فرد، فاعترضهم بنو سليم فانحازوا إلى بني هلال، ونزلوا بوادي ملوية وتافيلالت، وجاوروا زناتة وحالفوهم. أنظر:

- عبد الوهاب بن منصور، قبائل المغرب، ج1، المطبعة الملكية، الرباط، 1969، ص: 415.

(233) مؤنس، ص ص: 227-228.

(234) كانت وجدة في عهد المولى محمد الشريف مقسمة إلى قسمين، قسم مؤيد للأتراك وقسم معادي للأتراك فأما المعادي للأتراك فقد اتحد مع المولى محمد الشريف، وعمد بعض رجاله وكانوا من المرابطين إلى تأليب أهل تلمسان على الأتراك. وفي خضم هذا التمرد الذي قاده هؤلاء المرابطون كان المولى محمد الشريف قد تمكن من الاستيلاء على وجدة. أنظر:

- عزيز سامح، ص: 382.

(235) تقطن معظم هذه القبائل جنوب مدينة تلمسان في حين أن عرب السويد تستوطن هضاب وسهول السرسو إلى وادي مينا، أما بني مالك فتستوطن البقاع التي حوالي مدينة وهران ومرساها الكبير. أنظر:

- المدني، ص ص: 84-85.

(236) الناصري، الاستقصاء، ج3، ص: 16.

وكان الأتراك في هذه المناطق يعانون صعوبات ومتاعب جمة بسبب نجاح المولى محمد الشريف في توطيد الصلة بعرب المنطقة وتمكينهم من الاستيلاء على وجدة وندرومة⁽²³⁷⁾ وتلمسان سنة (1060م/1650م). عندها سارع الأتراك إلى إرسال قوة من الانكشارية إلى تلمسان والمناطق المجاورة لها استطاعت أن تبعد المولى محمد عنها⁽²³⁸⁾. ولوضع حد للمولى محمد الشريف، قام حاكم الجزائر عثمان باشا⁽²³⁹⁾ بمباشرة المفاوضات معه كحل مبدئي ليثني المولى محمد عن غاراته على أقاليم الجزائر، وأن أحسن ما يبادره إليه هو محاولة التفاهم معه، لأنه لا يضر الدولة العثمانية بقدر ما يلحق الأذى بالضعفاء والمساكين الفقراء، ولهذا استقر رأي حاكم الجزائر عثمان باشا في أن يكتب إليه كتابا أخويا إسلاميا يدل على العقل⁽²⁴⁰⁾.

أرسل الكتاب مع اثنين من فقهاء الجزائر هما الفقيه عبد الله بن عبد الله الغفار النفزي والحاج محمد بن عبد العالي الحضري المزغناوي واثنين من أهل ديوان الأتراك⁽²⁴¹⁾، كان ذلك في رجب 1064هـ الموافق لماي 1654م⁽²⁴²⁾.

لما قرأ المولى محمد الكتاب انتبه إلى خطئه، وأدرك أن عرب المعقل لعبوا به واستغلوا قوته لينهبوا الناس، ولما رأى الفقيهان ذلك باديا على محياه، كلماه وقالاه: "... نحن

(237) مدينة قديمة أسسها الرومان في سهل فسيح على بعد 15 كيلومتر من جبل الأطلس، و24 كيلومتر من البحر، موقعها شبيه بموقع روما، ومنها اتخذت اسمها. خربت دورها أيام حروب ملوك تلمسان وملوك تونس وفاس إذ كانت مبنية على النمط الروماني، بالطوب الغليظ الموثق بالجير. وهي تقع في أجمل مكان في إفريقيا حسب "مارمول". أنظر:

- كاريخال، ج2، ص: 295-296.

(238) خير فارس، ص: 79.

(239) تولى عثمان باشا منصب الداي بعد موت علي باشا بوصباغ سنة 1179هـ/ 1765م وعرف بالشجاعة والحزم، وكرم الأخلاق، وتفضيل المصلحة العامة والالتزام بالنقش والتقييد بأحكام الشريعة الإسلامية. فقد كان محافظا على الأموال العامة، وحريصا على إنفاقها في أوجه الخير المتعددة وفي تحصين البلاد والاستعداد لصد الهجمات الأوربية، حتى أنه كان يقتصد من مرتبه الخاص لصالح الجهاد. وقد ألزمته حياة النقش البقاء عازبا. وكان الداي عثمان على دراية واسعة بأمور الإدارة وشؤون البلاد، فقد وفق في اختيار عدد من البايات اشتهروا بالكفاءة والحنكة مثل صالح باي قسنطينة (1771/1792م)، ومحمد الكبير باي وهران (1779/1796م)، ومصطفى الوزناجي باي التيطري (1775/1792م). أنظر:

- أبوعمران، ص: 71-75.

(240) مؤنس، ص: 227-228.

(241) التازي، ج9، ص: 11-12.

(242) ذكر الناصري فحوى هذه الرسالة المطولة المكونة من ثلاث صفحات في كتاب الاستقصاء. أنظر:

- الناصري، الاستقصاء، ج3، ص: 17-19.

جنّناك لتعمل معنا شريعة جدك وتقف عند حدك، فما كان جدك يحارب المسلمين ولا يأمر بنهب المستضعفين، فإن كان غرضك في الجهاد فربط على الكفار الذين هم معك في وسط البلاد، وإن كان غرضك في الاستيلاء على دولة آل عثمان فابرز إليها واستعن بالرحمان الرحيم فلا يكون عليك في ذلك ملام. فهذا ما جنّنا له والسلام. وأما إيقاد نار الفتنة بين العباد فليس من شيم أهل البيت الأمجاد. ولا يخفى عليك أن ما تفعله حرام لا يجوز في مذهب من مذاهب المسلمين، ولا قانون من قوانين الأعجام (كذا). وهذان عالمان من علماء الجزائر قد جاء إليك ليسمع منك ما تقوله، ويحكم الله بيننا وبينك ورسوله، فقد تعطلت تجارتنا، وأجفلت عن وطنها رعيّتنا، فما جوابك عند الله في هذا الذي تفعله في بلادنا وأنت ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم، مع أنه لم يعجزنا أن نفعله نحن في بلادكم ورعيّكم، على أننا محمولون على الظلم والجور عندكم، لكن تأبى ذلك همة سلطاننا⁽²⁴³⁾.

وحسب المؤرخ المغربي عبد الهادي التازي فإن الرسالة التي بعث بها حاكم الجزائر إلى السلطان محمد الشريف لم ترق السلطان، لأن حاكم الجزائر عثمان باشا أراد برسالته هذه تهديد السلطان ومن ثمّ الثني من عزيمته، بيد أن الأخير تلقى الرسالة بغضب، فعاتب الرسل ووبخهم، فاعتذروا له، فما هم إلا رسل الحاكم، وبالمقابل بعث السلطان محمد الشريف جواب إلى حاكم الجزائر كان درسا في المقابلة بالمثل، بل إنه أثار بعض القضايا التي تتعلق بالمغرب وعلاقته بالأتراك كقضية تغاضي أحمد المنصور السلطان السعدي عن الأتراك وسماحه لهم بأن يكونوا في جنده⁽²⁴⁴⁾.

ومما جاء في الجواب الذي بعث به السلطان محمد الشريف بتاريخ (1065هـ/ 1654م): " ... إن آل تلمسان ما أثارهم إلا جوركم في الأموال والبنين ومكابدتهم لضيم على مر السنين ... ولئن غرسني الله - كما أشرت - لهذه الإيالة قاعدة وأساسا أول، فعلى الله سبحانه الاعتماد والمعول ... وما فانتا من كرامات يدركها الأخ أو الابن أو الحفيد." ⁽²⁴⁵⁾

وما جاء في الجواب أيضا أن الأتراك دبّروا المؤامرات للسعديين وأولهم السلطان محمد الشيخ . فلما وصل الجواب إلى حاكم الجزائر أحمد عثمان باشا بهت من الصراحة التي

(243) مؤنس، ص ص: 227 - 229.

(244) التازي، مج 9، ص: 11.

(245) نفس المرجع، مج 9، ص: 12.

واجهه بها السلطان محمد الشريف، فقرر حاكم الجزائر أن يوجه سفارة أخرى للمغرب كانت الرسالة فيها شفوية تنم عن الأسف والتوسل: "نحن جئناك لتعمل معنا شريعة جدك وتقف عند حدك... وهذان فقيهان من علماء الجزائر جاءا إليك حتى يسمعا منك ما تقوله ويحكم الله بيننا وبينك ورسوله، فقد تعطلت تجارتنا وأجفلت عن وطننا رعييتنا... الخ" (246).

إن ما سمعه السلطان محمد الشريف من هذين العالمين دفعه للتأسف على ما فعل، وعاهد الله على ألا يعود إلى مثله، واكتفى بما فتحه الله عليه من سجل ماساة (247) ودرعة (248) وكتب إلى والي الجزائر عهدا بذلك (249).

ثم إن ما أسفرت عنه هذه السفارة هو رسم الحدود بين المغرب والجزائر، إذ اتخذ وادي تافنة كحد فاصل بين البلدين، وقد التزم المولى محمد بعدم تخطي الحدود إلا فيما يرضي الله ورسوله (250).

وإليك ما ذكره الناصري في هذه القصة: "قلما سمع المولى محمد كلامهم أثر فيه وعظمهم وداخلته القشعريرة، وعلاه سلطان الحق فأذعن له وقال والله ما أوقعنا في هذا المحذور إلا شياطين العرب انتصروا بنا على أعدائهم وأوقعونا في معصية الله، فأبلغناهم غرضهم فلا حول ولا قوة إلا بالله وإني أعاهد الله تعالى لا أعرض بعد هذا اليوم لبلادكم ولا لرعييتكم بسوء، وإني أعطيكم ذمة الله وذمة رسوله لا قطعت وادي تافنة إلى ناحيتكم إلا فيما يرضي الله ورسوله (كذا)" (251).

(246) نفس المرجع، مج9، ص: 12.

(247) أسسها الخوارج الصفرية من بني مدرار سنة 140هـ-757م، كانت قاعدة لبلاد المغرب، احتلها المرابطون ثم الموحدون، ثم المرينيون، نزل بها الشريف الجليل الحسن بن القاسم، جد الملوك العلويين وبلغت من المكانة العلمية والاقتصادية ما جعل الأندلس نفسها تتعامل بدنانير سلجماسية المعروفة (بالعشرية). أنظر:

- عبد الله ابن عبد العزيز، الموسوعة المغربية للأعلام البشرية والحضارية، معلمة الصحراء، ج9، مطبعة فضالة، المغرب، 1976، ص ص: 119-120.

(248) ترجع تسمية درعة إلى النهر الكبير الذي تتفجر عيونه من جبال الأطلس الكبير، وتتدفق في اتجاه الجنوب نحو هسكورة، ومنها نحو ليبيا حيث يشكل عدة بحيرات. يبلغ نهر درعة زهاء 450 كيلومتر، لكنه قليل الاتساع، توجد على ضفاف هذا النهر عدة قرى ومدن، في الجهات المرتفعة عن مجراه، تحد منطقة درعة غربا منطقة سوس وجزولة، وتحدها شرقا مدينة سلجماسية، وجنوبا بلاد السودان، وشمالا تتاخم جبال الأطلس الكبير التي تطل على مملكة مراكش. أنظر:

- كاريخال، ج3، ص ص: 137-146.

(249) مؤنس، ص ص: 228-229.

(250) التازي، مج9، ص ص: 11-12.

(251) الناصري، الاستقصاء، ج3، ص: 20.

وفيما يبدو أن المولى محمد الشريف بالرغم من تعهده بعدم الهجوم مرة أخرى على حدود الجزائر، فإنه لم يلتزم ببند اتفاقية الصلح مع الأتراك، إذ نجده سنة (1068هـ/ 1658م)، يعاود الهجوم على تلمسان، غير أن الحامية التركية المتواجدة بها منعتة من دخولها وتصدت له بقوة،⁽²⁵²⁾ فعاد إلى سجلماسة التي كان قد اتخذها منطلقا لهجوماته بعد أن استعصت عليه فاس التي طرده أهلها منها.⁽²⁵³⁾ وسبب ذلك أن أهل فاس كانوا يتعاملون مع قبائل بني يزناسن في الجزائر وكان بنو يزناسن الممون لأهل فاس بما يحتاجونه من الطعام والمؤن، لكن الإغارة التي فاجأهم بها المولى محمد الشريف في السابق قطعت عن أهل فاس أبواب الرزق والتجارة وجعلتهم -أي أهل فاس- ينفرون من المولى محمد الشريف ويتحالفون مع خصومه من الزاوية الدلائية⁽²⁵⁴⁾.

وفي غمرة هذه الأحداث قام المولى الرشيد -وهو أخ للمولى محمد الشريف- بالثورة على أخيه والانفصال بإقليم تازا، فتوجه إليه المولى محمد الشريف وخاض ضده حربا انتهت بهلاك المولى محمد الشريف في (محرم 1075هـ/جوان 1664م)⁽²⁵⁵⁾.

ومع وفاة المولى محمد الشريف وتولي المولى الرشيد حكم المغرب سنة (1075-1082هـ/1664-1671م) واصل الأخير سياسته تجاه الأتراك بالصورة نفسها التي كانت على عهد سالفه، إذ بعث إليه أتراك الجزائر بعثة طلبت منه عدم السماح لجيشه بالتوغل في الأراضي التي هي تحت نفوذهم، كما التزموا هم كذلك بنفس الشروط⁽²⁵⁶⁾.

كما تفرغ المولى الرشيد لتوحيد أراضي المغرب التي كان يتقاسم حكمها المرابطون وشيوخ القبائل، فقام بتأديبهم، وكسر شوكتهم، وكان أهل الزاوية الدلائية داخل المغرب أقوى

(252) سبقت الإشارة في تعريف وادي تافنة أنه لا يبعد كثيرا عن تلمسان، فهو يقع بين وهران وتلمسان، وإذا اعتبرنا، هذا الوادي حدا فاصلا بين المغرب وإيالة الجزائر، فهذا يجعل تلمسان جزء من المغرب، ولا يحق في هذه الحالة للحامية التركية أن تتمركز بها، بعد إبرام الأتراك الاتفاقية مع المغرب وإلا اعتبر ذلك خرقا لبندوها وهذا لا يصح، لأن اتفاقيات رسم الموالية تبين أن الأتراك لم يتخلوا قط عن وادي ملوية كحد فاصل بين المغرب وإيالة الجزائر، وهذا ما سنوضحه في الفصل الرابع.

(253) عزيز سامح، ص ص: 382-383.

(254) مؤنس، ص ص: 229-230.

(255) عزيز سامح، ص ص: 382-383.

(256) التازي، مج 9، ص: 12.

وأشد خصومه، وبعد أن تمكن منهم أبعدهم إلى تلمسان⁽²⁵⁷⁾، ولم يرجعوا منها إلى المغرب إلا بعد وفاة المولى الرشيد⁽²⁵⁸⁾.

ولأن المغرب في هذه الفترة كان عرضة للغزاة الأجانب من الأوربيين، قامت جماعة من المغاربة تعرف بجماعة العياشي⁽²⁵⁹⁾ بإعلان الجهاد ضد هؤلاء الغزاة. وكان على رأس هذه الجماعة قائد يعرف باسم "الخضر غيلان"، وقد تمكنت هذه الجماعة من بسط سيطرتها على أجزاء مهمة من المناطق الغربية للمغرب، وهذه الجماعة في الأصل ضمت في صفوفها مجموعة هامة من الأندلسيين الذين ارتبطوا ارتباطاً وثيقاً (بقراصنة) الجزائر الأتراك⁽²⁶⁰⁾

(257) إن أهل الدلاء الذين أجلاهم المولى الرشيد إلى تلمسان، كانوا المولى إسماعيل بعد توليه الحكم في المغرب، متوددين إليه بالعطف والرغبة في فكاكهم من أسر الغربة والسماح لهم بالرجوع إلى إبلانته والإقامة فيها، فرق لرغبتهم وامتن عليهم بإجابته لطلبهم، فكتب لهم كتاباً يأمرهم فيه بالعودة إلى فاس، وكان رجوعهم في جمادي الأولى 1085هـ/1674م، ولم يتأخر في الرجوع من تلمسان إلا العلامة أبي العباس أحمد بن عبد الله بن محمد الحاج مع أولاده وإخوته من أبيه لغياب والده بالمشرق، فانتظر حتى عاد الأخير من المشرق، ولكنه كاتب المولى إسماعيل معتذراً له عن سبب تأخره. أنظر:

- عبد الرحمن بن زيدان، المنزع اللطيف في مفاخر المولى إسماعيل بن الشريف، تقديم وتحقيق عبد الهادي التازي، ط1، مطبعة إديال، الدار البيضاء، 1413هـ-1993م، ص ص: 157-158.

(258) خير فارس، ص: 82.

(259) أبو عبد الله محمد بن أحمد الزياني المعروف بالعياشي نسبة إلى أولاد عياش من قبيلة زيان أحد بطون بني مالك الهلالية المنتشرة بحوض سبو (منطقة الغرب) ولد حوالي (971هـ / 1563م) تلقى العلم على يد فقهاء وفي مقدمتهم أبو محمد عبد الله بن حسون السملالي، عرف محمد العياشي بمعارفه الفقهية، وبورعه واستماتته في مقاتلة النصارى، اضطر العياشي التحول من الحياة العلمية الفقهية إلى حمل راية الجهاد ضد الغزاة الأوربيين لبلاد المغرب في فترة الفوضى التي أعقبت وفاة الملك السعدي المنصور الذهبي، واستمرت قرابة الثلاثين سنة (1603-1633م). عرف العياشي لدى العامة بالمجاهد وازداد تعلقهم به، ومما زاد في شهرته أنه كان يبعث بخمس الغنائم التي كان يحصل عليها في جهاده إلى السلطان السعدي زيدان بن أحمد المنصور في مراكش، وقد ناهز سن الثامنة والسبعين، وقد اغتيل العياشي في كمين نصبه له عرب الخلط بعين القصب غرب سوق الأربعاء في 19 محرم 1051هـ/1641م. أنظر:

- أبو عمران، ص ص: 401-407.

(260) عرفت القرصنة في اللغات الأوربية على أنها: "وصف للسفن التي كانت تجهز ببلاد المغرب للهجوم على النصارى"، أي سفناً معدة للجهاد، مع كل ما تحمله كلمة قرصنة من خلفيات تاريخية ومع كل ما لها من خصوصيات، ولكن كمؤرخين نحتفظ بالاسم الذي عرفت به في وثائق العصر والذي يميزها عن غيرها من المفردات. ومع مرور الوقت وفي المغرب الأقصى على الخصوص فإن القرصنة في القرن الثامن عشر ميلادي تحولت نوعاً ما إلى نشاط بحري تابع للدولة، فبعد انتهاء أزمة الجيش سنة 1757م عادت القرصنة في عهد السلطان محمد بن عبد الله إلى مكانتها القديمة، وكانت تحظى بسمعة كبيرة بين الناس وقد أقيمت لها ورشات لصناعة السفن على ضفاف وادي أبي الرقراق في العرائش. أنظر:

- العربي الصقلي، مذكرات التراث المغربي من تثمين الدولة إلى المخاطر، ج3، منظمة الشمال، د. م. ط، 1985، ص ص: 358-263.

وشاركوهم عدة معارك جهادية. لكن بعد تدهور العلاقة بين (قراصنة) سلا (وقراصنة) الجزائر غدت مناطقهم وعلى رأسها مدينة تطوان⁽²⁶¹⁾ مركزا للغنائم وللأسرى الأتراك⁽²⁶²⁾.

وعلى إثر تدهور علاقة هذه الجماعة التي يقودها الخضر غيلان، مع المولى الرشيد، وجه غيلان أنظاره إلى الدولة العثمانية لعله يلقى القبول لديها ويتلقى الدعم منها، فأوفد إليها سفرائه، معلنا التبعية للدولة العثمانية⁽²⁶³⁾.

وبما أن غيلان لم يتلق الرد من إسطنبول، وكان وقتها في موقف ضعيف، قام بنهب بعض المناطق الغربية من المغرب، ثم فرّ إلى الجزائر وباشر العمل فيها (كقرصان)⁽²⁶⁴⁾. ولم يرجع إلى المغرب إلا في عهد المولى إسماعيل (1065-1140هـ/1654-1727)⁽²⁶⁵⁾. يعتبر المولى الرشيد المؤسس الحقيقي لدولة الأشراف العلويين، فقد عرف المغرب في عهده وحدة كاملة من شماله إلى جنوبه ومن شرقه إلى غربه. وبعد وفاته آل حكم المغرب لأخيه المولى إسماعيل⁽²⁶⁶⁾.

حكم المولى إسماعيل المغرب وعمره 26 سنة، بعد أن بويع في 15 ذي الحجة 1082هـ الموافق لـ 13 أبريل 1672م ودام حكمه زهاء خمس وخمسين سنة (55 سنة)، وخلال هذه المدة، بذل هذا الأخير جهودا كبيرة لإعادة تنظيم الجيش والقضاء على المؤامرات والتكتلات

⁽²⁶¹⁾ تقع على ضفة نهر القوس الذي ينحدر من الأطلس الكبير ويصب في المحيط، وتطوان بلغة أهل البلد القديمة تعني العين الجارية تقع في منطقة جبلية جميلة محصنة تكتنفها الحدائق، احتلها الرومان ومن بعدهم القوط الجرمانيون، ثم اتخذها المسلمون منطلقا لهجماتهم على الشواطئ المسيحية بداية من سنة 1400م، وكانت تطوان آنذاك آهلة بالسكان، لكنها دمرت من طرف أسطول قشتالة وأسر جميع سكانها تقريبا، ثم بقيت خربة قرابة التسعين سنة، حتى تسلمها المنظري الذي عبر إلى إفريقيا عقب سقوط غرناطة، فعمرها من جديد، ورمم أسوارها، ثم أنشأ بها حصنا اتخذ منطلقا لهجماته على سبتة وطنجة والقصر مع عدد من الفرسان الأندلسيين الذين قدموا معه من غرناطة. أنظر:

- كاريخال، ج2، ص ص: 222-224.

⁽²⁶²⁾ عزيز سامح، ص: 384.

⁽²⁶³⁾ نفس المرجع، ص: 384.

⁽²⁶⁴⁾ وفقا لما نقله محمد داود في كتابه تاريخ تطوان نقلا عن مصادر مغربية وأجنبية، أن الخضر غيلان كان صبورا لعائلة أولاد النفيس المعروف بتطوان، وأن أحد أبناء هذه العائلة كان حاكما عليها لمدة قصيرة (1083هـ/1672م)، وهو الذي ساعد الخضر غيلان في النزول بتطوان حين عاد من الجزائر في البحر، وأنه فتح له أبواب تطوان، فأعاد تنظيم جيوشه التي كانت تظم عددا من الأتراك الذين قدموا معه من الجزائر، واستعد بذلك لقتال المولى إسماعيل. أنظر:

- داود، مج1، ص ص: 242-243.

⁽²⁶⁵⁾ عزيز سامح، ص: 385.

⁽²⁶⁶⁾ مؤنس، ص: 233.

القبليّة ذات الضّغط السّياسيّ⁽²⁶⁷⁾، فألف جيشاً يتكوّن في غالبيّته من عنصر العبيد، إضافة إلى عناصر أخرى من القبائل العربيّة⁽²⁶⁸⁾.

استطاع السلطان إسماعيل عن طريق جيش عبيد البخاري أن ييسط نفوذه على أقاليم المغرب، وأن يضع حداً لثورات بعض الأمراء العلويين وبعض الزوايا والقبائل⁽²⁶⁹⁾، والحد من محاولات الانفصال، والاستقلال ببعض أقاليم المغرب⁽²⁷⁰⁾.

ولقد عمل المولى إسماعيل طيلة هذه الفترة على ضبط الأمن وتسهيل حركة القوافل والمسافرين، بفضل الشبكة الأمنيّة التي بثّها في مختلف أرجاء البلاد، والتي كان قوامها الحصون والأبراج والقلاع والقصبات، وكلها مجهزة برجال من الجيش النظامي أو من القبائل المستوطنة بنفس المنطقة⁽²⁷¹⁾، كما استطاع المولى إسماعيل أن يحرر الثغور المغربيّة من السيطرة الأجنبيّة⁽²⁷²⁾.

(267) إبراهيم حركات، المغرب عبر التاريخ من نشأة الدولة العلوية إلى إقرار الحماية، الجزء الثالث، ط1، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، 1985، ص: 32.

(268) يعرف هذا الجيش كذلك باسم عبيد البخاري، أنشأه السلطان إسماعيل من العبيد السود في الغالب، إضافة إلى بعض القبائل العربيّة الأخرى مثل: الودايا أحوال المولى إسماعيل وعرب المعقل، وكان الأمر المطروح عليه أساساً في البداية هو تحرير الثغور المغربيّة من الاحتلال الأجنبي، وقد عاهد أفراد هذا الجيش السلطان على حماية سنة الرسول صلى الله عليه وسلم المدونة في صحيح البخاري، لذلك عُرف باسم جيش البخاري. أنظر:

- محمد بن الطيب القادري، التقاط الدرر ومستفاد المواعظ والعبر من أخبار وأعيان المائة الحادية والثانية عشر، 1167/1164هـ، تحقيق هاشم العلوي الفاسي، ط1، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1983، ص: 334، (الهامش).

(269) بداية من السنة التي تولى فيها السلطان إسماعيل الحكم أي 1672 إلى حدود سنة 1713م، حدثت بعض المحاولات الانقلابية والانفصالية ضد السلطان قادها مجموعة من الأمراء العلويين أمثال: ابن محرز أخو السلطان ومحمد العالم وأبو النصر ابني إسماعيل، بمساعدة بعض قبائل السوس، وأهل مراكش وفاس، كما كانت محاولات أخرى لمجموعة من القبائل كغيلان في الشمال وآل النقيس التي أعانهم فيها الأتراك. أنظر:

- خير فارس، ص: 86-88.

(270) حركات، ج3، ص: 35-40.

(271) نفس المرجع، ج3، ص: 59-60.

(272) لما تولى السلطان إسماعيل حكم المغرب عام (1082هـ/1671م) كان عدد من المدن المغربيّة مثل مليلية وسبتة وطنجة وأصيلا والعرائش، والمهدية، خاضعة لنفوذ الأجانب بقواتهم الحربيّة، وقد انتهج المولى إسماعيل في سبيل تحرير هذه المدن سبيل القوة، فحرر معظمها عدا سبتة ومليلية اللتان مزالتا في يد الإسبان. أنظر:

- داود، مج1، ص: 258.

لقد عاش المغرب على عهد السلطان إسماعيل فترة طويلة من الأمن والاستقرار. لكن مع ذلك كان المولى إسماعيل طوال أيام حكمه في خوف دائم على مملكته من الأتراك - رغم تدهور أوضاعهم في الجزائر - وعلى حد قول المؤرخ حسين مؤنس: "إن الأتراك كانوا في ذلك الحين حوتا عظيما يتسع فكاكه لأي شيء". وبالرغم من اعتماد المولى إسماعيل على جيش قوي كعبيد البخاري في حماية بلاده من توغل الأتراك، كان المولى إسماعيل يدفع بقوات جيشه كي تتوغل في الأراضي الجزائرية، وحدث هذا مرات عديدة، حتى أنها وصلت إلى حدود نهر شلف، ولحرصه الشديد على غلق كل المنافذ أمام الأتراك، قام بالقضاء على دعاة الفتنة من أبناء إخوته الذين كانوا يتلقون العون من أترك الجزائر⁽²⁷³⁾.

وزادت شكوك المولى إسماعيل تجاه الأتراك عندما أدرك أن ابن أخيه أحمد محرز يلقى الدعم المادي والمعنوي من أترك الجزائر في منطقة السوس. فقد وصلته التقارير سنة (1092هـ/1681م) أكدت له أن الأتراك تبادلوا مع ابن محرز المراسلات، وقد فتحوا جبهة ضد المولى إسماعيل في شرق المغرب بغية كسر شوكتهم. أعلن ابن محرز نفسه حاكما على مراكش، وما لبث أن لحق به الخضر غيلان الذي كان قد فر إلى الجزائر، ثم دخل تطوان وتمكن من السيطرة على المناطق الغربية للمغرب وأخذ يهدد فاس⁽²⁷⁴⁾.

وحتى يتفرغ المولى إسماعيل لشؤون الأمن داخل المغرب، أسند مهمة تولي شؤون الأتراك وكذا الهجوم على تلمسان لابنه زيدان الذي كان واليا على تازا⁽²⁷⁵⁾. فقام الأخير بهجمات وغارات كثيرة على الأراضي الجزائرية ما بين (1106-1113هـ/1694-1701م) لكنه لم يستطع استثمار نجاحه، الأمر الذي أثار غضب أبيه فعزله من هذه المهمة⁽²⁷⁶⁾.

(273) مؤنس، ص: 272.

(274) التازي، مج9، ص: 13.

(275) من أقدم مدن المغرب، تقع بين فاس ووادة وفي موقع جبلي ممتاز بين الأطلس المتوسط وجبال الريف وممر استراتيجي مهم بين المغرب الشرقي وسهول فاس، اتخذها إدريس الثاني مقرا حربيا له ثم اعتنى بها عبد المؤمن بن علي وخلفاؤه فجعلوها حصنا منيعا، وفي أيام المرينيين أصبحت قاعدة حربية لغزو تلمسان، وفي عهد العلويين اتخذها المولى الرشيد عاصمة لدولته قبل الاستيلاء على فاس. أنظر:

- ابن العربي، ص: 94.

(276) عزيز سامح، ص: 437-438.

وعلى الرغم من أن المولى إسماعيل حقق انتصارات عديدة في حروبه ضد الأتراك، فإنه كاد أن يلقى حتفه على أيديهم في مواجهات أخرى، من ذلك أنه دخل تلمسان في 1113هـ/28 أبريل 1701م وتمكن من أخذها منهم، ولما سار بجيوشه إلى غاية نهر الشلف، دارت بينه وبين الأتراك معركة عنيفة كاد أن يصاب فيها ويهلك، وأسر الأتراك من قواته ثلاثة آلاف جندي (3000)⁽²⁷⁷⁾. وبدورهم قام الأتراك بمكاتبة المولى إسماعيل مطالبين إياه التوقف عند الحدود التي اتفقوا عليها مع أسلافه⁽²⁷⁸⁾. وعليه أن يثبت الحدود بين المغرب والجزائر بالرجوع إلى اتفاقية الصلح التي أبرمها أسلافه مع الأتراك باتخاذ وادي تافنة حدا فاصلا بين الدولتين⁽²⁷⁹⁾. لكن المولى إسماعيل أراد أن يوسع دائرة العداء تجاه الأتراك فاستعان في تحركاته ضدهم ببعض أعراب تونس ليشغلهم بتونس عن المغرب⁽²⁸⁰⁾. كما عقد حلفا مع باي تونس للهجوم على الأتراك في الجزائر والتضييق عليهم في وقت واحد، لكن الحلفين لم يستطيعا تنسيق الجهود فيما بينهما⁽²⁸¹⁾، فهزم الواحد تلو الآخر سنة (1103-1104هـ/1692م) واضطر المولى إسماعيل تقبل الصلح مع الجزائر

(277) اعتمد الملوك العلويين في التوسع شرق المغرب على القبائل العربية مثل بنو عامر وسقونة وذوو منيع، ودخيسة وحميان وغيرهم، لكن هذه القبائل كثيرا ما كانت تنمر وتقلب عليهم، غير أن المولى إسماعيل انتهج إستراتيجية جديدة في التعامل مع هذه القبائل من خلال تلك المصاهرة التي عقدها مع قبائل المعقل والمغافرة والودايا بزواجه بخنثة بت بكار، وهكذا أضحت القبائل العربية لاسيما الودايا من أهم العناصر المشكلة لجيش السلطان إسماعيل. أنظر:

- ابن زيدان، المنزع اللطيف، ص: 162.

(278) عزيز سامح، ص ص: 437-438.

(279) خير فارس، ص ص: 94-95.

(280) مؤنس، ص: 272.

(281) شكك عبد الهادي التازي في إمكانية التحالف الذي عقده السلطان إسماعيل مع باي تونس مراد باي فقال: "ومن الطريف أن نسمع مرة أخرى في هذه الأثناء - عن إدعاء جزائري لتواطؤ جديد بين المغرب وتونس لضرب الجزائر، حيث يهاجمها من شرقها مراد باي تونس، وهو اتفاق لا تعرفه لا المصادر التونسية كما لا تعرفه المصادر المغربية..." أنظر:

- التازي، مج9، ص: 21.

ومن محاسن الصدف وبتوفيق من الله تعالى أني وقفت على وثيقة عثمانية في قسم المخطوطات بالمكتبة الوطنية الجزائرية تحت رقم: 3205/1/53 تتحدث عن هجوم السلطان المولى إسماعيل على الأراضي الجزائرية بتحالف مع مراد باي تونس من ناحية الشرق. كما تضمنت الرسالة الكلام عن الحرب الدائرة بين الجزائر وإسبانيا، وكذا استشارة داي الجزائر العلماء في كيفية الرد على الهجومين، مع اقتراح بإرسال قوات جزائرية إلى أراضي المغرب لإعادة الأمن بها. الرسالة أشار إليها الأستاذ حمّاش في مصنفه المتعلق بالمخطوطات الموجودة بالمكتبة الوطنية الجزائرية. أنظر:

- خليفة حمّاش، كشاف وثائق تاريخ الجزائر في العهد العثماني بالمكتبتين الوطنية الجزائرية والتونسية، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية(4)، قسنطينة، 2010، ص: 10.

مرة أخرى⁽²⁸²⁾. ولكن هذه المرة بطلب من السلطان العثماني نفسه، الذي أوفد بعثة إلى المغرب، استقبلها المولى إسماعيل ورحب بها⁽²⁸³⁾، ثم أرسلها إلى إسطنبول مكرمة محملة بالهدايا⁽²⁸⁴⁾.

وعلى إثر ذلك أرسل المولى إسماعيل إلى الجزائر هيئة تتألف من مائة وعشرين شخصا فيها ابنه عبد المالك ووزيره والقاضي والمفتي وعدد من المرابطين، وطلب الصلح مع إيالة الجزائر، التي رحبت بالمبادرة ووافقت عليها بتاريخ 9 رجب 1103هـ.⁽²⁸⁵⁾ غير أن خسارة المولى إسماعيل أمام الأتراك ظلت تؤرقه رغم الصلح الموقع معهم، فلم يصبر عليها حتى عاود الهجوم على الجزائر⁽²⁸⁶⁾.

لكنه سلك هذه المرة وجهة أخرى في توسعته، فتوغل جنوبا حتى وصل منطقة عين ماضي بالأغواط، أين ترك أحد أبنائه قائما عليها. ووفق أحد أبناء إخوته كذلك في أن يضع حامية من جيش العبيد في منطقة سمجون⁽²⁸⁷⁾ في منتصف الطريق إلى عين الصفراء (1122-1125هـ/1710-1713م)⁽²⁸⁸⁾. أما الجهة الشرقية للمغرب، فقد اكتفى المولى إسماعيل فيها بحصون المراقبة التي بناها هناك⁽²⁸⁹⁾.

(282) خير فارس، ص ص: 94-95.

- للإطلاع أكثر عن فحوى هذه الرسالة يمكن الرجوع إلى الملحق رقم (1) ص ص: 373-375.

(283) جاء طلب السلطان العثماني للصلح بين المغرب والجزائر على إثر شكوى تقدمت بها الجزائر إلى الباب العالي ضد ملك المغرب المولى إسماعيل، وحسب التازي، فإن داي الجزائر أوهم الباب العالي أن الوجود التركي في الجزائر مهدد من طرف المغرب. أنظر: - التازي، ج 9، مج 1، ص: 16.

(284) عزيز سامح، ص: 442.

(285) A. de Voulx, *Tachrifat, recueil de notes historiques sur l'administration de l'ancienne régence d'Alger*, imprimerie du gouvernement, Alger, 1852, p: 9.

(286) عزيز سامح، ص: 442.

(287) وتعرف ببوسمغون مدينة صحراوية تبعد عن مركز ولاية البيض في الجنوب الغربي للجزائري بحوالي 160 كلم، سكانها من البربر، وهي مدينة سياحية وأثرية جميلة إذ تضم مجموعة من الآثار القديمة، منها قصر كبير يعود بناؤه إلى حوالي 300 سنة قبل الميلاد، وهو قصر جميل لازال قائما على حاله، وقد كانت لي زيارة إلى هذه المدينة والقصر في جوان 2011م.

(288) مؤنس، ص ص: 272-273.

(289) التازي، مج 9، ص: 14.

وفي رسالة بعث بها المولى إسماعيل إلى ملك إنجلترا "شارل الثاني" (290) بتاريخ 11 شعبان 1094هـ الموافق لـ 05 أوت 1683م (291) توضح أن السلطان العثماني ينصف العاهل المغربي، مؤكداً له أن إيالة الجزائر عند أمره ونهييه، ومعنى هذا أن العلاقات بين الباب العالي والمغرب توطدت أكثر من أي وقت مضى. وحسبما جاء في الرسالة: "فإن المولى إسماعيل أوفد بعثة إلى إسطنبول يقودها السفير عبد الملك الأيوبي لتهنئة سليمان الثاني (292) بتوليته الحكم، الأمر الذي أدخل البهجة على الخليفة العثماني الذي بدوره أرسل سفارة إلى المغرب بقيادة الحاج خليل آغا، أعرب فيها للمولى إسماعيل أن تستمر أواصر الأخوة وتبادل السفارات والرسائل بين الجانبين" (293).

حررت رسالة الخليفة العثماني باللغة التركية ومما جاء فيها: "إلى فاس حاكمي أولان إسماعيل الحسيني... ملك الفعال ملكي الخصال حارس ثغر الإسلام فارس هيجاء الاقتحام صاحب العز والمجد والسعادة ... أدام الله ذاته وأبقاه (كذا)" (294).

(290) ابن شارل الأول (1649/1600م)، خلف شارل الثاني والده على عرش إنجلترا بعد فترة الثورة الإنجليزية سنة 1660م، التي أعدمته والده. وقد كان شارل الأول متزوجاً من "هنرييت الفرنسية" التي استبدت بالحكم. أما شارل الثاني الابن فقد أثار استياء رعيته بتقربه من فرنسا، ودفاعه عن الكاثوليك. انظر:

- حروفوش، ص: 380.

(291) حسب محمد داود فإن المولى إسماعيل كتب إلى ملك فرنسا لويس الرابع عشر رسالة أخرى في شكل معاهدة بين المغرب وفرنسا تكفل بها نيابة عن الطرفين كل من الحاج محمد أتميم نيابة مع السلطان المولى إسماعيل وسفيره إلى فرنسا، والوزير الفرنسي كولبير وكذا كل من كرواسي وسنييلي باسم ملك فرنسا، وقد وقعت المعاهدة بتاريخ 20 محرم 1093هـ الموافق لـ 29 يناير 1682م. وكانت المعاهدة تشتمل على عشرين مادة معظمها يتعلق بالسلام والعلاقات التجارية بين الدولتين. وتشير المادة الخامسة منها إلى تبادل المساعدات في حالة اعتداء قراصنة البحر المتوسط على سفن الدولتين لاسيما قراصنة الجزائر وتونس وطرابلس الغرب. وهي تنص على أنه: "إذا ما كانت بواخر فرنسية راسية بإحدى موانئ المملكة المغربية أو مرافئها ووقع عليها هجوم من طرف بواخر معادية ولو كانت من الجزائر وتونس وغيرهما من موانئ الشاطئ الإفريقي، فمدافع القلاع التي هي بها تتولى حمايتها والدفاع عنها ... كما تتخذ الإجراءات نفسها من طرف الإمبراطور الفرنسي". انظر:

- داود، مج1، ص ص: 267-268.

(292) ولد عام 1052هـ/ 1642م وجلس على عرش السلطنة عام 1099هـ/ 1687م، وذلك بعد خلع السلطان محمد الرابع، وهو في سن السابعة والأربعين، شهد عصره تنحلاً صارخاً للانكشارية في سياسة حكمه، كما عرفت الدولة العثمانية في فترة حكمه حروباً طاحنة مع النمسا. توفي عام 1102هـ/ 1690م في أدرنة، ثم نقل جثمانه إلى إسطنبول أين وري التراب، عاش خمسين سنة قضى منها ثلاث سنوات في الحكم. انظر:

- آصاف، ص ص: 93-94.

(293) التازي، مج9، ص: 14.

(294) نفس المرجع، مج9، ص: 14.

من جهته أشار المؤرخ عزيز سامح في رسالة أخرى، كان المولى إسماعيل قد بعث بها إلى ملك فرنسا، إذ رأى أن المولى إسماعيل أراد أن يعقد حلفا مع ملك فرنسا، الذي كان في عداء مع أتراك الجزائر، فقد كانت قواته منشغلة بالهجوم على مدينتي الجزائر وشرشال⁽²⁹⁵⁾. فعرض المولى إسماعيل على ملك فرنسا الزواج من إحدى بنات عائلته، لكنه اضطر في الأخير للتحالف مع باي تونس⁽²⁹⁶⁾.

وبالرغم من جو التوتر هذا، لم يتأخر المولى إسماعيل في مكاتبة ملك فرنسا من أجل مساعدة الباب العالي ووقوفه معه في وجه النمسا -بحكم الصلات الجيدة التي تربطه بملك فرنسا- معلنا استعداداه للدخول في حرب ضد أنصار الإمبراطور النمساوي في إسبانيا، أملا كذلك أن يتم قبوله في الحلف العثماني الفرنسي⁽²⁹⁷⁾.

ومع فتح الأتراك مدينة وهران التي كانت بيد الإسبان، بعث المولى إسماعيل برسالة تهنئة إلى إسطنبول مع شخص ادعى أنه ابن السلطان العثماني محمد الرابع⁽²⁹⁸⁾، يرافقه سفير المولى إسماعيل، وقد قصد السلطان من هذه السفارة الاعتراف به سلطانا⁽²⁹⁹⁾، لأنه

(295) عزيز سامح ، ص: 440.

(296) يبدو أن التوتر في العلاقات الذي حصل بين المغرب وفرنسا هو الذي دفع المولى إسماعيل للتحالف مع مراد باي تونس، سنة (1106هـ / 1694م)، وقد استغل الداوي شعبان خوجة حاكم الجزائر هذا التوتر لبيع رسالة إلى ملك فرنسا لويس الرابع عشر بتاريخ 11 محرم 1106هـ الموافق لـ 01 سبتمبر 1694م يقول فيها: "إن السلطان المولى إسماعيل يتفق مع محمد باي تونس من أجل مهاجمة الجزائر..." أنظر:

- التازي، مج9، ص: 17.

(297) نفس المرجع، مج9، ص: 21.

(298) ولد عام 1018هـ / 1609م وجلس على عرش الملك عام 1022هـ / 1613م وهو في سن الرابع عشر، وبالرغم من صغر سنه كان ذو عقل ثاقب ورأي صائب، وفي اليوم الثاني من جلوسه، توجه إلى الجامع أيوب، وتقلد السيف حسب العادة، وصادف هذا اليوم أن وقعت بغداد في يد الصليبيين، ومع ذلك تحرك لنجدتها وتخليصها من أيديهم وأبقى بها قرابة العشرة آلاف من الجند، كما وقع في عهده حريق مهول أتى على القسطنطينية فأهلك نصفها. عاش تسع وعشرين سنة قضى منها سبعة عشرة سنة سلطانا. توفي سنة 1049هـ / 1639م لمرض ألزمه الفراش. أنظر:

- آصاف، ص ص: 80-85.

(299) سبق للمولى إسماعيل أن كاتب السلطان العثماني في شأن مدينة وهران منوها بجهد الأتراك فيها، ومذكرا السلطان العثماني أيضا أن وضعية وهران ليست بالشيء الكبير أمام وضعية سبتة "... إن جهاد جيراننا أهل مزغنة في دشرة وهران أمر خفيف..." وحسب التازي فإن جهود المولى إسماعيل في تحرير الثغور المغربية من يد الإسبان كان يقصد أيضا من ورائها تحرير وهران التي اتخذتها إسبانيا للثغوي بها على المغرب، غير أن الأتراك لم يفهموا قصده واتهموه بمحاولة الاستيلاء عليها، وتوضح الرسالة التي بعث بها داي الجزائر شعبان خوجة إلى ملك فرنسا والتي سبق وأن أشرنا إليها اتهام أتراك الجزائر للسلطان إسماعيل بمحاولة أخذه لوهران فقد جاء في الرسالة: ... وجدناها منقادة من بعد أجدادنا لنا ... ويقرب دار سلطان المغرب ما تزال توجد مليلية والبريجة وسبتة=

كان يعتبر في نظر الأتراك حاكما لا أكثر. ومع وصول الشخص المذكور مع السفير إلى جزيرة سقيز بتركيا، دعاهم محافظ المدينة إلى مجلسه وفهم الموضوع منهما، فأبقاهما عنده وعرض حديثهما على السلطان العثماني، فغضب الأخير غضبا شديدا وأمر بقتل الشخص المذكور، وإعادة السفير المغربي إلى فاس مباشرة⁽³⁰⁰⁾.

أثارت هذه الحادثة غضب المولى إسماعيل، فاضطر إلى مكاتبة السلطان العثماني مرة أخرى، وطلب من مبعوثه إلى السلطان العثماني أن يسلمه الرسالة شخصيا⁽³⁰¹⁾.

وفي رسالة بتاريخ (1121هـ/1709م) جاء رد السلطان العثماني على المولى إسماعيل بقوله: "لا يوجد أولاد لسلطين بني عثمان يتجولون في تلك المناطق، وأن الشخص نال جزاء كذبه، وأنه خلص ذمته من سوء الظن... وأن الشخص الذي ادعى أنه من العائلة العثمانية، هو ابن محمد الرابع من جارية له تزوجها، ولدته أثناء ذهاب السلطان للحج"⁽³⁰²⁾.

لقد كانت الفرص مواتية أمام المولى إسماعيل للتوسع جنوبا في وقت كان الأتراك منشغلين بأمور الحكم والسياسة في الجزائر، غير أنه انشغل بصراع أبناؤه على الحكم⁽³⁰³⁾.

وفي العام الذي توفي فيه المولى إسماعيل (1139هـ/1727م) حدث أن لجأت سفينة جزائرية إلى سواحل المغرب هروبا من عاصفة هوجاء أعاققت دخولها إلى موانئ الجزائر، وكانت السفينة محملة بأشياء ثمينة، فهاجمها الأهالي ونهبوا ما فيها من سلع وبضائع، فاضطرت الجزائر أن تبعث سفيرها إلى المغرب في شأن هذه السفينة من جهة وللإطلاع عن أوضاع فاس عن كثب بعد وفاة المولى إسماعيل وكذا المباركة لابنه بتولي العرش من جهة أخرى. والفكرة التي خرج بها السفير مفادها أن الحكم في المغرب غير مستقر. والمغرب مهدد بالانقسام بسبب الصراع الذي كان قائما بين أبناء المولى إسماعيل⁽³⁰⁴⁾.

=وبادس وهي بيد الكفار... وأنتم تمدون يديكم إلى مدينة بعيدة عن دياركم تقع في جوار تلمسان ألا وهي وهران تريدون أن تحوزوها بأعذار واهية...". أنظر:

- التازي، مج9، ص:20.

(300) عزيز سامح، ص: 443.

(301) نفس المرجع، ص: 444.

(302) مؤنس، ص: 272-273.

(303) عزيز سامح، ص: 496.

(304) نفس المرجع، ص: 497.

كان المولى أحمد ابن المولى إسماعيل حاكما على المغرب وقتها، فقد استقبل سفير الجزائر استقبالا لائقا، وقدم له تعويضات عن الأضرار التي لحقت بسفينة الجزائر، مع هدايا أخرى ثمينة، ومع رجوع السفير إلى الجزائر قام المولى عبد المالك ابن السلطان إسماعيل بانقلاب على أخيه المولى أحمد فأعلن حكمه على مراكش⁽³⁰⁵⁾.

وظل الوضع على هذا الحال في المغرب بعد وفاة المولى إسماعيل، واستمر حتى وفاة المولى عبد الله بن إسماعيل سنة (1171هـ/1757م)، وتركت الحدود بين الجزائر والمغرب حرة وخالية من أي هجمات من الجانبين، فقد اشتغل المغرب بأزماته الداخلية الخطيرة، في حين اهتمت الجزائر بمشاكلها السياسية وكذا صراعها مع ولاية تونس البايات الحسينيين⁽³⁰⁶⁾. فشغلها ذلك تماما عما يدور في المغرب من أحداث⁽³⁰⁷⁾.

(305) نفس المرجع، ص: 497.

(306) أسرة حكمت تونس بعد المراديين خلال القرن 18م، أول ملوكها الحسين بن علي التركي وأشهرهم حمودة باشا ومحمود باشا، اعتمدت أسرة الحسينيين في نظام حكمها على إعادة الاعتبار للتراث والتقاليد الحفصية. أنظر:

- أحمد بن أبي الضياف، إتحاف أهل الزمان بأخبار تونس وعهد الأمان، ج2، النشرة الثانية، الدار التونسية للنشر، الشركة الوطنية للنشر، الجزائر، د. ت. ط، ص ص: 103-157.

(307) عزيز سامح، ص: 497.

الفصل الأول

التقارب العثماني المغربي

يكتسي القرن الثامن عشر أهمية بالغة في تاريخ الدولة العثمانية وكذا تاريخ المغرب الأقصى، نظرا لتشابه أوضاع البلدين في مناحي شتى، لاسيما ما تعلق منها بحالة الضعف والفوضى التي نخرت أسس الدولتين. فالدولة العثمانية أصيبت بالشلل السياسي والركود الاقتصادي والثقافي والاجتماعي، الذي ساهم في انتشاره عوامل عدة مثل: انغماس السلاطين العثمانيين في حياة الفسق واللهو والترف، بحيث أضحوا يقضون أوقاتهم في الملذات والشهوات⁽³⁰⁸⁾.

وقد أدى ذلك إلى الابتعاد عن شؤون الحكم وتركها للحاشية وبطانة السوء، التي استأثرت به وسخرته خدمة لمصالحها الشخصية. بالموازاة كانت قوة الجيش الانكشاري قد تلاشت على إثر تدخل عناصر منه في شؤون الحكم، وتخليهم عن دورهم في حماية الدولة من المؤامرات والانقلابات وكذا واجبهم الجهادي ضد الدول المسيحية، بل بالعكس كانوا هم أهم مصدر للمؤامرات التي كانت تحاك ضد السلاطين العثمانيين وأبنائهم. ناهيك عن أسباب أخرى داخلية وخارجية ساهمت بطريقة أو بأخرى في تفكك الدولة العثمانية، وهنا لا بد من الإشارة إلى الصراع النمساوي والروسي على ممتلكات العثمانيين في منطقة البلقان والهزائم المتتالية التي لحقت بالدولة العثمانية ومن ثم المعاهدات المخزية التي فرضت عليها. دون أن ننسى عاملا آخر مهم، ألا وهو نهضة أوروبا والتقدم الذي أحرزته في عدة مجالات لاسيما التقدم العلمي، الذي كان بالنسبة للعثمانيين آخر اهتماماتهم - نظرا لما كنا قد أشرنا إليه من أسباب الضعف. وكان هذا التفوق قد أخل بالتوازن في القوة العسكرية بين الدول المسيحية والدولة العثمانية، فانعكس ذلك سلبا على الكثير من مؤسسات الدولة العثمانية. كما أثر على علاقات الدولة العثمانية الخارجية مع حلفائها وأعدائها وكذا إيالاتها في المشرق والمغرب باعتبار القوة العسكرية العثمانية كانت عماد الدولة المتين الذي يحفظ استقرارها وهيبته ويدر عليها منافع اقتصادية هامة بفعل الفتوحات التي كان يقوم بها الجيش الانكشاري في أوروبا وآسيا وإفريقيا⁽³⁰⁹⁾.

(308) باغي، الدولة العثمانية، ص: 94.

(309) جمعة محمد كحال، انتشار دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب خارج الجزيرة العربية، الرياض، 1981، ص ص:

استغلت الدول الأوروبية القوية وقتها كما أسلفنا الأوضاع المزرية للدولة العثمانية، وراحت تطوق العالم الإسلامي، وتقتص منه ما لم تستطع أخذه من قبل من أراضي وامتيازات⁽³¹⁰⁾. عندما كانت الدولة العثمانية والدول الإسلامية الأخرى في أوج قوتها⁽³¹¹⁾. وبالرغم من الجهود التي بذلها بعض السلاطين العثمانيين لإعادة بناء قوة الدولة، كالسلطان محمود الأول (1143-1168هـ/1730-1758م)، فإن الضعف كان قد استشرى واستفحل وعظم خطر التدخل الأوربي في شؤون الدولة العثمانية، كما عظم نفوذ الولاة العثمانيين في الكثير من الأقاليم، فأسسوا لأنفسهم إمارات مستقلة عن الدولة العثمانية تتبعها اسمياً⁽³¹²⁾.

وقد تزامن ظهور الحركات الانفصالية في الايالات العثمانية، مع ظهور حركات إصلاحية ناقمة على الدولة العثمانية ورافضة هي الأخرى للأوضاع التي آل إليها العالم الإسلامي، لاسيما ما تعلق منها بالجانب الروحي والأخلاقي، جراء انتشار مظاهر الشرك والبدع، التي حملت لواءها بعض الطرق الصوفية⁽³¹³⁾، وكانت الحركة الوهابية⁽³¹⁴⁾ أبرز وأهم الحركات الإصلاحية في هذه الفترة، فقد عملت الحركة الوهابية منذ ظهورها بالجزيرة العربية، على نشر أفكارها الإصلاحية بين المسلمين، سواء عن طريق دعائها مباشرة أو عن طريق المتأثرين بها من قريب أو بعيد، وحملت على عاتقها محاربة البدع والخرافات،

(310) كانت أكبر ضربة تلقتها الدولة العثمانية في بداية القرن 18م، هي معاهدة الصلح المهينة التي عقدتها مع النمسا وروسيا سنة 1696م والمعروفة بصلح "كارلوفيس" فقدت بموجبها الدولة العثمانية: المجر، سلوفاكيا، كرواتيا، وعدد من أراضي البلقان، كما تنازل العثمانيون عن جزيرة "مورة" للبندقية. أنظر:

- بروكلمان، ص: 522.

(311) كحال، ص ص: 26-27.

(312) شهدت الدولة العثمانية مجموعة من الإصلاحات خلال هذه الفترة، بدأت في عهد السلطان أحمد الثالث، لكن القوى المحافظة استطاعت الإطاحة به، بسبب ميله إلى البذخ وبنائه للقصور، فخلفه محمود الأول (1730-1757)، ثم جاءت إصلاحات مصطفى الثالث (1757-1773). وقد تأثر معظم هؤلاء السلاطين، بالتقدم الأوروبي وقتها. أنظر:

- نفس المرجع، ص ص: 45-47.

(313) محمد عابد الجابري، "الأصالة والتحديث بالمغرب"، مجلة الثقافة، العدد: 77، السنة: 13، وزارة الثقافة بالجزائر، سبتمبر 1983، ص: 59.

(314) تنسب هذه الحركة لمؤسسها الشيخ محمد بن عبد الوهاب (1703-1792) من بلدة العيينة من أعالي نجد، كان على قدر كبير من الورع والتقوى والعلم، تأثر بابن حنبل ومؤلفات بن تيمية واستقر ببلدة درعية الواقعة في نجد عند محمد بن سعود الذي ساندته في دعوته الإصلاحية، وفي معاداته للدولة العثمانية. أنظر:

- بروكلمان، ص ص: 552-553.

وتطهير الدين الإسلامي من الشوائب التي ألصقت به، لاسيما في مجال العقيدة، كما عملت على نشر عقيدة التوحيد الصحيحة المستمدة من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم. وسعت الحركة إلى توطيد علاقاتها مع الدول الإسلامية التي كانت ترى فيها خصما عنيدا للعثمانيين⁽³¹⁵⁾.

وقد شهد المغرب الأقصى في هذه الفترة إقبال السلاطين العلويين وفي مقدمتهم محمد بن عبد الله ومن بعده ابنه المولى سليمان⁽³¹⁶⁾ على إحياء مذهب السلف الصالح مما شجع دعاة الوهابية على التواصل مع هؤلاء السلاطين. وهو الموضوع الذي خصصنا له مبحثا معتبرا في الفصل الموالي.

عاش المغرب الأقصى إبان القرن 12هـ/18م، أوضاعا سياسية مزرية، كان لها عواقب وخيمة على مناحي الحياة المختلفة، فقد كان جيش العبيد الذي أسسه السلطان إسماعيل لحماية المغرب، قد تخطى عن وظيفته وصار يشكل بؤرة للتوتر والعصيان. والسبب في ذلك أن جيش العبيد أيام المولى إسماعيل، اتصف بالعنف والقوة والبطش، وارتكب من المظالم ما لم تتحمله العامة الأمر الذي جعله أبغض شيء لديهم وقتها، إضافة إلى افتقاره لقيادة مطاعة غير قيادة المولى إسماعيل، فلما مات هذا الأخير أصبح الجيش بدون رأس وتدهورت حالته تدهورا شديدا، مما دفع القبائل المغربية التي أخضعت سابقا عن طريقه إلى استعادة قواها من جديد فدخلت معه في مواجهات حادة⁽³¹⁷⁾. كما أن الزوايا والطرق

⁽³¹⁵⁾ كحال، ص ص: 43-44.

⁽³¹⁶⁾ ولد عام (1180هـ / 1766-1767م) ببيع له بفاس بالضريح الإدريسي يوم السبت 17 رجب عام 1206هـ الموافق لـ 1792م. عرف عنه الورع والتقوى والزهد، وكان ميالا للدفاع عن السنة النبوية الشريفة ومحاربة أهل البدع والخرافات، وقد كانت له اتصالات مع الأمير سعود في مكة في شأن الدعوة الوهابية وأفكارها. اعتمد على سياسة الانغلاق أو ما يسمى سياسة الاحتراز التي تعني الانغلاق على العالم الخارجي، فقد قطع جميع الصلات التي بين المغرب وأوروبا، وأغلق جميع المراسي ومنع العلاقات التجارية الدبلوماسية... وذلك كله خوفا من انتشار وباء الطاعون بالإضافة إلى الخوف من أوروبا حيث عاصر عهد الثورة الفرنسية وعصر الحروب التوسعية للإمبراطور الفرنسي نابليون، وفي الفترة التي قضاها سلطانا على المغرب عرفت المغرب هزات اجتماعية كانت نتيجة الإصلاحات الدينية التي أدخلها المولى سليمان على الحياة الدينية للمغاربة، توفي سنة (1238هـ / 1822م). أنظر:

- عبد الرحمن ابن زيدان، الدرر الفاخرة بمآثر الملوك العلويين بفاس الزاهرة، المكتبة الاقتصادية، الرباط، 1355هـ، ص ص: 67-78.

⁽³¹⁷⁾ مؤنس، ص ص: 292-293.

الصوفية والقبائل التي أخضعت بالقوة في وقت سابق، عادت لإثارة القلاقل، وتحريض الأمراء ضد بعضهم، فلا يمكن أن نجد أميرا ثائرا إلا واتبعه شيخ طريقة⁽³¹⁸⁾ أو قبيلة من القبائل العربية أو البربرية⁽³¹⁹⁾.

ولأن السلطان إسماعيل لم يجعل نظاما لولاية العهد ولا عين خليفة له بعد موته⁽³²⁰⁾، وكان قد قسم البلاد بين بعض أبنائه، وأدى ذلك كله إلى ضعف الدولة العلوية، فتقاتل الإخوة على الملك، ولم يكن أحد منهم قادرا على إقرار النظام وحل الأزمة السياسية والتنظيمية لشؤون البلاد، مما جرّ الولايات على المغرب مدة ثلاثين سنة (1140.1171هـ/1727.1757م)⁽³²¹⁾.

كما أحدثت هذه الأزمة حركة هجرة غير مسبقة، عرفت بها بعض القبائل المغربية العربية والبربرية على حد سواء، وبخاصة منها تلك التي تقطن الجبال، فاتجهت حركة هذه القبائل نحو الهضاب والسهول، رغم أن السلطان إسماعيل كان قد أوقفها مؤقتا في البداية⁽³²²⁾. صاحب هذه الأزمة موجة من الأوبئة والكوارث الطبيعية، فالطاعون كان الأكثر فتكا وتفشيا في الأقاليم المغربية، كما عمّ الجفاف معظم أرجاء المغرب، وكان للزلازل نصيبها هي الأخرى في تعقيد الأزمة⁽³²³⁾.

(318) هناك بعض شيوخ الطرق الصوفية من لعب دورا هاما في هذه الأزمة من أمثال الشيخ أحمد بن الحبيب من تافيلالت، لعب دور الوسيط بين مولاي عبد الله وأهل فاس، وكذلك إدريس المشاط من تادلا كان إلى جانب أحمد الذهبي بن إسماعيل كقاضي للمنطقة لكنه طرد، فانقلب وبايع المولى عبد الله بن إسماعيل، وكذلك شيخ زاوية أحنصال الذي اشتهر بعلم الرمال (السحر) كما وقف مع أحمد الذهبي ضد أخيه عبد الملك. أنظر:

- القادري، ص ص: 349-354، (الهامش).

(319) حركات، المغرب عبر التاريخ، ج3، ص ص: 85-86.

(320) ليس هناك وثيقة تدل على أن المولى إسماعيل رشح واحدا من أبنائه لولاية العهد، ولكنه استشار كاتبه أحمد اليعمدي، بشأن ترشيح أحدهم، فنصحه بأن لا يفعل لأنه لم يكن فيهم من هو مؤهل للملك. وهم على التوالي: أحمد الذهبي، عبد الله، علي الأعرج، محمد بن إسماعيل، محمد المستضيء ومحمد زين العابدين. أنظر:

- نفس المرجع، ج3، ص ص: 59-64.

(321) خير فارس، ص ص: 86-87.

(322) - Jean Brignon, Abdelaziz Amine, Brahim Boutaleb, **Histoire du Maroc**, édition librairie Nationale, Casablanca, 1967, p : 257.

(323) لوسات فالنزي، المغرب العربي قبل احتلال الجزائر، 1790-1830، ترجمة حمادي الساحلي، سيراس للنشر، تونس، 1994، ص: 28-29.

كما ساهمت الهيمنة الأيبيرية على السواحل المغربية طيلة الفترة الممتدة من (1727-1757م) في توقف نشاط الأسطول المغربي، فكانت الموانئ المغربية القلاع التي تركز فيها الاسبان بقوة⁽³²⁴⁾، فلم يعد المغرب وقتئذ يشكل أي خطر على مصالح الدول الأوربية⁽³²⁵⁾.

فلا يسع الباحث إذا وهو يمعن النظر في أحوال الدولتين في هذه الفترة، إلا أن يسأل عن سر التقارب بين الدولة العثمانية والمغرب الأقصى في القرن 18م. فبالرغم من النفور السياسي الذي كان ينتاب علاقات البلدين إلا أنه وفي هذه الفترة عرفت العلاقات المغربية العثمانية شكلا من أشكال التقارب الإسلامي، وقد شكل عهد السلطان المغربي محمد بن عبد الله، النموذج الأمثل لهذه المرحلة.

وإذا نسلط الضوء على جانب من هذه المرحلة، نحاول معرفة أسباب التقارب المغربي العثماني، ومن ثم نتائج هذا التقارب في خضم الظروف الصعبة التي كان العالم الإسلامي يمر بها ؟!

(324) وقعت مدن مغربية ساحلية، ومنها سبتة ومليلة والقصر الصغير وأصيلا وطنجة ومضيق جبل طارق تحت الغزو البرتغالي سنة 1415م، وإثر هزيمة هذه الدولة في معركة وادي المخازن سنة 1578م، ضمت البرتغال مع كل مستعمراتها إلى الإمبراطورية الاسبانية. أنظر:

- محمد بن تاووت، تاريخ مدينة سبتة، ط1، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، دار الثقافة، الدار البيضاء، 1982، ص ص: 175 - 200.

(325) فالنزي، ص: 81.

I- على الصعيد السياسي والدبلوماسي:

يعتقد ابن زيدان⁽³²⁶⁾ مؤرخ الدولة العلوية وأمثاله من مؤرخي المخزن المغربي، أن القرن الثامن عشر الميلادي وما بعده (ق19م) إلى أواخر الدولة الحسينية⁽³²⁷⁾ حافل بعلاقات الصداقة والأخوة التي جمعت ملوك المغرب العلويين بسلطين الدولة العثمانية، والمراسلات الدبلوماسية بين الدولتين ما هي في الحقيقة إلا عربون المحبة والوفاء بينهما، تضاف إليها تلك البعثات الدبلوماسية التي كانت حلقة وصل طوال القرنين المذكورين سالفاً⁽³²⁸⁾.

وتشير الكتابات المغربية المتعلقة بالموضوع، إلى أن المغرب اختار سياسة التقارب مع الدولة العثمانية بعد فترة الركود الطويلة، بدافع الروح الإسلامية التي كان يتمتع بها سلاطين المغرب، انطلاقاً من عهد السلطان محمد بن عبد الله، لاسيما وأن الدولة العثمانية رمز الخلافة الإسلامية، كانت تعاني الضعف والانحطاط، كما كانت تبحث عن السند المادي والمعنوي، الذي لم تجده إلا في المغرب الأقصى، وقد سارع هذا الأخير إلى مد يد العون للعثمانيين دون قيد أو شرط، فساندهم مادياً ومعنوياً، وتبادل معهم الوفود واستفاد من الخبراء الأتراك في الشؤون الهندسية والعسكرية وقامت بين الجانبين سفارات عديدة⁽³²⁹⁾.

وفي هذا الصدد يقول الناصري: "كان السلطان سيدي محمد بن عبد الله عالي الهمة يحب الفخر ويركب سنامه ويخاطب ملوك الترك مخاطبة الأكفاء ويخاطبونه مخاطبة السادة

(326) ابن زيدان مؤرخ وأديب مغربي من حفدة المولى إسماعيل العلوي، ولد سنة 1295هـ الموافق لسنة 1878م بقصر المحنشة بمكناس حيث ترعرع ودرس على يد كبار علماء المغرب من أمثال الطيب بن العناية بنونة المتوفى عام 1325هـ ومحمد القصري العبدري المتوفى عام 1324هـ، كما درس بالقرويين بفاس. عين نقيباً للشرفاء العلويين بمكناس وزرهون، كما عين مديراً لمساعدات الأكاديمية العسكرية بمكناس وبقي يزاول مهمته إلى حين وفاته. له عدة مؤلفات، منها: الدرر الفاخرة، إتحاف أعلام الناس، بغية المستهام في مدح خير الأنام، العلائق السياسية للدولة العلوية، زيارة تافيلالت، قراضة العقيان في تحقيق استمرار أفراد من الكهانة لآخر الزمان... وكتاب العز والصولة في جزأين، تناول فيه المؤلف الحياة الإدارية والسياسية في المغرب في العهد العلوي وطبع هذا الكتاب لأول مرة في تونس عام 1912م ثم طبع للمرة الثانية في المغرب سنة 1962م. أنظر:

- عبد الرحمن بن زيدان، الرحلة إلى الحجاز ومصر والشام، تحقيق ودراسة سليمان الفرشي، ط1، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، 1430هـ - 2009م، ص: 11. 15.

(327) نسبة إلى السلطان المغربي الحسن الأول بن محمد بن عبد الرحمان بن هشام، ولد سنة (1247هـ/1831م-1832م) وحكم المغرب الأقصى ما بين (1290 - 1311هـ/ 1873-1894). أنظر:

- ابن زيدان، الدرر الفاخرة، ص: 97-117. وكذلك: - محمد العربي معريش، المغرب الأقصى في عهد السلطان الحسن الأول 1873- 1894 / 1290-1311هـ، رسالة ماجستير، معهد التاريخ، جامعة الجزائر، ص: 56-64.

(328) ابن زيدان، العز والصولة ج1، ص: 287.

(329) حركات، المغرب عبر التاريخ، ج3، ص: 108.

ويمدهم بالأموال والهدايا حتى علا صيته عندهم وحسبوه أكثر منهم مالا ورجالا وكان يعطي عطاء من لا يخاف الفقر" (330).

وقد كان حقا يوفد السفراء إلى تركيا بالهدايا الثمينة وكان يفعل ذلك تقريبا كل سنة خصوصا عند سفر الركب النبوي إلى المشرق، وكان الأتراك يعاملونه بنفس المعاملة، فيوجهون مع كل سفير يقدم من المغرب سفيرا تركيا بهدايا للسلطان محمد ولأرياب دولته تساوي الهدايا المغربية أو تفوقها (331).

وبالرغم من كون السياسة الخارجية للمغرب في هذه الفترة تميزت بالمرونة والانفتاح من خلال السماح للدول الأجنبية بفتح السفارات والقنصليات والبعثات الأجنبية والإكثار من البعثات الدبلوماسية ويتعامل بلباقة، ويحرص على صداقة الآخرين، إلا أنه في كل الظروف كان يضع مصلحة الإسلام والمسلمين فوق كل اعتبار سواء تعلق الأمر بالمغاربة أو غيرهم (332).

1- المراسلات والسفارات بين الباب العالي والمغرب:

1.1- المراسلات:

إن الظروف العصيبة التي مر بها المغرب الأقصى عقب وفاة المولى إسماعيل، لم تمنع من استمرار الصلات بين المغرب واسطنبول، ففي عهد المولى عبد الله سلطان المغرب والسلطان محمود الأول الخليفة العثماني، تبادل الرجلان الرسائل الدبلوماسية للتعبير عن انشغالهما العميق بأوضاع بلديهما. ففي رسالة مؤرخة في رجب 1143هـ/ 1732م، كتب السلطان عبد الله إلى السلطان العثماني ما نصه: "إن جنودنا وخيراتنا وافرة... وأنتم حماة الحرمين الشريفين، أنتم بين الملوك كالتاج على الرأس، وإننا لنرجو من جنابكم حفظ ما كان

(330) محمد الفاسي، "الوزير محمد بن عثمان المكناسي"، مجلة المغرب الجديد، السنة الثانية، العدد 12، السنة الثانية، 1936، ص: 24.

(331) نفس المرجع، ص: 24.

(332) أبو عبد الله بن مسعود الطرنباطي، بلوغ أقصى المرام في شرف العلم وما يتعلق به من الأحكام، تحقيق عبد الله رمضان، ط1، الرابطة المحمدية للعلماء، منشورات مركز الدراسات والأبحاث وإحياء التراث، المملكة المغربية، 2008، ص: 60.

بين آبائنا وأجدادنا من عهد... وقد أرسلنا كتابنا هذا بصحبة خديمتنا الوفي الحاج أحمد بخاري. والرجاء تسهيل عودته بعد أن يستوفي الغرض... " (333)

وفي السياق ذاته، فبعد استيلاء اسبانيا على وهران مرة أخرى، سنة (1144هـ / 1732م) (334) كتب السلطان محمود إلى المولى عبد الله رسالة في أواسط ديسمبر 1145هـ / 1733م يخبره فيها أن المجاهدين الأتراك فشلوا في التصدي للغزاة الإسبان وأنهم في حاجة إلى دعم ومساعدة من سلطان المغرب (335).

- تنازع السيادة على العالم الإسلامي من خلال المراسلات:

لعل أول شيء يستوقف الباحث في فحوى المراسلات بين الباب العالي والمغرب الأقصى هي مقدمات هذه الرسائل التي عكست ثقافة دبلوماسية معينة تبين بصدق الصراع الخفي على ألقاب السيادة والنزاع الذي كان قائماً على زعامة العالم الإسلامي، فقد أعطى العثمانيون أهمية بالغة للألقاب ومن ثم حرصوا على مخاطبة حكام المغرب خاصة السلطان محمد بن عبد الله بلقب حاكم فاس أو "فاس حاكمي" لا أكثر، ولم يحدوا عن هذا التقليد إلا مرتين في السبعينيات من القرن الثامن عشر حين خاطب السلاطين العثمانيين السلطان محمد بن عبد الله بلقب "بادشاه" (336).

ووفقاً لما ذكره الباحث عبد الرحيم بنحادة فإن هذا اللقب لا يعدو أن يكون مجرد خطأ إداري، ولا يتجاوز مدلوله الأوراق التي كتب عليها، أو قد يكون خطأ وقع فيه الكتاب عند

(333) التازي، مج 9، ص: 23.

(334) كانت الحملة الإسبانية على مدينة وهران في 15 جوان سنة 1732م تحت قيادة الدوق "مونتيمار" الملقب بالبرنوس، نسبة إلى أصله العربي، وكانت وهران إذ ذاك تحت سلطة الباي "محمد بوشلاغم"، وبعد أن استسلمت المدينة للحملة الإسبانية رغم محاولات الباي المتكررة من أجل تحريرها، إلا أنها بقيت في الأسر إلى سنة (1206هـ / 1791م). أنظر:

- المدني، ص ص: 443-448.

(335) التازي، مج 9، ص: 23.

(336) لقب خاص بحكام إيران على وجه الخصوص، وقد استخدم أيضاً من طرف السلاطين العثمانيين كلقب تعظيم، مع ألقاب أخرى مشابهة مثل شاه علم وشاه جيهان.. أنظر:

- صابان، ص: 139.

تدوينهم لهذين الرسالتين، على أن هذين الرسالتين تشكلان الاستثناء الوحيد، حيث عاد العثمانيون بعدها إلى استعمال لقب "حاكم فاس"⁽³³⁷⁾.

فهل استعمال لقب "حاكم فاس" في مراسلات العثمانيين لسلطين المغرب كان الهدف من ورائه التقليل من شأن حكام المغرب؟ وهل أدرك هؤلاء الحكام هذا الهدف، وما كان موقفهم من ذلك؟

يلاحظ في القرن 12هـ/18م وفي عهد السلطان محمد بن عبد الله كثافة المراسلات بين المغرب والباب العالي⁽³³⁸⁾، فمعظمها حملت ألقابا ذات مدلول سياسي، كان المولى محمد بن عبد الله يدرك جيدا القصد من وراء هذا الاستعمال، لذلك أعطى لها أهمية كبيرة، فلم يكن يخاطب السلاطين العثمانيين سوى بلقب "السلطان". وحسب عبد الرحيم بن حادة فقد أعطت هذه السياسة ثمارها لاسيما عندما تزايد الضغط الأجنبي على الدولة العثمانية، إذ اضطر العثمانيون إلى استعمال لقب جديد تردد في نصوص الوثائق العثمانية الموجهة إلى المغرب في الثمانينات من القرن 18م، حيث استعمل السلطان عبد الحميد الأول⁽³³⁹⁾ الصورة البلاغية "روحان في جسد واحد"⁽³⁴⁰⁾.

غير أن الباحث عبد الحفيظ الطبايلي يشير إلى أن المراسلات بين المغرب والباب العالي بالرغم من كثافتها إلا أنها انحصرت على الغالب في موضوع واحد متعلق بالهدايا وتوطيد أواصر الصداقة والتعاون. مع حرص المخاطبين على إرسال أكثر من نسخة من

(337) عبد الرحيم بنحادة، "تنازع السيادة بين المغرب والدولة العثمانية"، من إيناون إلى استانبول، أعمال مهداة إلى عبد الرحمن المودن، تنسيق عبد الأحد السبتي - عبد الرحيم بنحادة، ط1، المطبعة الأمنية، الرباط، 2012، ص ص: 193-194.

(338) عبد الحفيظ الطبايلي، "أصول وثائق مغربية في الأرشيف العثماني، مراسلات المخزن العلوي مع الباب العالي، 1198هـ/1784م"، من إيناون إلى استانبول، أعمال مهداة إلى عبد الرحمن المودن، تنسيق عبد الأحد السبتي - عبد الرحيم بنحادة، ط1، المطبعة الأمنية، الرباط، 2012، ص: 174.

(339) عبد الحميد الأول (1725-1789)، في عهده أبرمت الدولة العثمانية سنة 1774م معاهدة "كوجوك قينارجة" مع النمسا وروسيا، وعلى أيامه تمكنت روسيا من السيطرة على البحر الأسود، والنمسا على بلغراد وبلاد الصرب، واستقل ظاهر العمر في عكا، وهزم الفرس الجيش العثماني بالقرب من كركوك سنة 1776م. أنظر:

- الصلابي، ص ص: 415-418.

(340) بنحادة، من إيناون إلى استانبول، ص: 194.

نفس المراسلة مذيلة بما يلي: "وهذه تأكيد للنسخة التي وجهناها لكم قبل هذه خوف آفات الطريق" (كذا) ⁽³⁴¹⁾.

كما يتضح من خلال هذه المراسلات أنها لم تكن صادرة من السلاطين فحسب ولكن من كبار الدولة ككل. فهناك رسائل من المغرب صدرت باسم وزير المولى محمد بن عبد الله، محمد بن أحمد الدكالي وكانت موجهة إلى الصدر الأعظم خليل باشا، وإلى قائد الأسطول العثماني حسن باشا، وحرص المخزن المغربي خاصة على توسيع دائرة التأثير داخل دواليب الدولة العثمانية من خلال تعدد مخاطبيه لتأمين بلوغ الأهداف المتوخاة من تلك المراسلات، لاسيما أن هناك أطرافاً أخرى -يقول الطبايلي- كانت تسعى لعرقلة مساعي المخزن المغربي وأهدافه لدى دواليب الإدارة المركزية بإسطنبول ونخص بالذكر أوجاق ⁽³⁴²⁾ الجزائريين الذين كانت لهم شبكة تواصل قوية داخل هذه الإدارة، فكان من الصعب على المغاربة ترجيح الكفة لصالحهم إذا ما تعلق الأمر بخلاف مغربي-جزائري. كما حرص المتخاطبون من خلال هذه الرسائل على استعمال نوع معين من الخطوط، فالديواني كان الخط الذي كتبت به الرسائل المغربية إلى الباب العالي، والمغربي كان الخط الذي كتبت به الرسائل العثمانية إلى المغرب، وهذا حتى يتحقق التواصل المطلوب ويدرك كل طرف غايته. فهذا الوزير محمد بن أحمد الدكالي يقول في رسالة للصدر الأعظم خليل باشا: "وكما نعلم سيادتكم أنكم إن أردتم أن توجهوا لنا مكاتب فوجهوها بقلم مغربي لنقرأها ونعلم ما فيها، وأما هذا المكاتب التي وجهتم لنا فلو لم يكن عندنا هنا رجل من اصطنبول ما قرأناها ولا علمنا ما فيها" (كذا) ⁽³⁴³⁾.

كما تتيح هذه المراسلات، خاصة المغربية منها، معرفة طريقة إدارة المخزن العلوي على عهد المولى محمد بن عبد الله لعلاقاته مع الباب العالي وحول مختلف القضايا والواردة بها ⁽³⁴⁴⁾.

وعليه نستعرض ما جاء في بعض من هذه المراسلات:

⁽³⁴¹⁾ الطبايلي، من إيناون إلى إستانبول، ص ص: 174-175.

⁽³⁴²⁾ جمع وجاق وتعني عسكر الأتراك، واللفظ تركي الأصل، وهي تعني كذلك كلمة الموقد وتستعمل بمعنى منزل الجند.

⁽³⁴³⁾ نفس المرجع، ص: 175.

⁽³⁴⁴⁾ نفس المرجع، ص: 174.

ففي رسالة موجهة من الملك محمد بن عبد الله إلى السلطان عبد الحميد الأول -دون تاريخ- يعبر سلطان المغرب عن الإجلال والتقدير والاحترام الكبير الذي يكنه لسلطين آل عثمان، إذ يبارك فيها ملك المغرب للسلطان العثماني تولي كرسي الخلافة، داعياً إياه للوحدة والتعاون. فالرسالة جاءت في أكثر من صفحتين مدح وثناء ودعاء للسلطان عبد الحميد، والرسالة مختصرة كسابقتها أوجزتها في هذه الفقرات، فبعد الحمدلة: "...حامي حمى بيضة الإسلام، والضارب دونها بيض الطلا وسود الهمام، (كذا) وارث كرسي الخلافة العظمى عن آبائه الكرام، أعلام الأعلام... حائز مناصبها بالفرض والتعصيب... أخينا السلطان المعظم عبد الحميد خان... سلطان الممالك العثمانية، المؤيد بالفتوحات الربانية... من خالص المحبة وكريم الوداد، المحي بحسن المقاصد لما سلف بين الآباء الكرام والأجداد، الحاث على ما دعت إليه السنة المصطفوية من ألفة وكمال الإتحاد، متضمناً لما شرح الصدور وأقر الأعين... وأبهج الإسلام وأهله ... من جلوسكم على كرسي الخلافة العظمى، وحيازتكم بمنة الله منصب الإمامة الأسمى، ارث أسلافكم الخلفاء الكرام الرفعي المقدار... فهنيئاً للدين والدنيا بكم... وإحياء مودة الأجداد العظام، وتصحيح الأنباء بتوارث محبة الآباء للأبناء، والدعاية إلى الألفة والتشابك على قهر الأعداء، وعلاج دائهم قبل الأعداء... ودعوتهم إليه من الاتحاد... فما خلت ضمائرنا بحول الله من تلك النية، والتناصر في ذات الله عندنا غاية الأمنية، والسعي في جمع كلمة الله متعين على جميع أهل التوحيد... (كذا)"⁽³⁴⁵⁾.

وعلى ما يبدو فإن مراسلات سلطان المغرب محمد بن عبد الله إلى السلطان العثماني عبد الحميد الأول لا تخرج عن طابعها الأخوي الإسلامي، إذ أننا نجد رسالة أخرى مؤرخة في أوائل شعبان 1203 هـ الموافق لـ 1788 م تتضمن الكثير من معاني الأخوة الإسلامية، ولطول الرسالة اختصرتها فيما يلي: "المقام المتوج بتاج العز والعناية والسيادة والمحلى بحلية الفضل والمجادة (كذا) البالغ في أفعال الخير حد النهاية، والكوكب الطالع في برج اليمن والسعادة، معدن السادات الأخيار، والأجلاء المجاهدين لأعداء الله الكفار، من جعلهم الله حماة للإسلام، وأنام سبحانه في ظلهم جميع الأنام، سلطان البرين وخاقان البحرين، وخديم

(345) ابن زيدان، العز والصولة، ج 1، ص ص: 288-291.

الحرمين الشريفين، السلطان بن السلطان، عبد الحميد خان، بن السلطان أحمد خان⁽³⁴⁶⁾، جعل الله أيامهم السعيدة كلها محمودة، ومآثرهم الكريمة شهيدة مشهودة، سلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته، وتحياته ورضوانه، أما بعد: فيصل حضرة أخينا المنصور بالله، صحبة خديمنا القائد محمد بن عبد الله خمسمائة أسير، وستة وثلاثون أسيراً (كذا) من الله تبارك وتعالى عليهم وأنقذهم من الأسر، والحمد لله على ذلك، الذي من الله علينا بإنقاذ إخواننا المسلمين من يد الكفرة، كما يصل حضرة أخينا العلية بالله أربعة مراكب من مراكبنا الجهادية هدية منا إليكم، ونطلب الله النصر والتمكين والفتح المبين لنا ولكم ولسائر المسلمين، وأن تكون عساكر المسلمين أعزة منصوره، وأعداء الله الكفرة أذلة مقهورة، والسلام (كذا)⁽³⁴⁷⁾.

وعلى إثر وفاة السلطان عبد الحميد سنة (1204هـ/1790م) وتولي السلطان سليم الثالث⁽³⁴⁸⁾ الحكم، بعث سلطان المغرب رسالة إلى الباب العالي يعزيهم فيها بمصابهم، وفي الوقت نفسه يهنئ السلطان الجديد بالحكم، معبراً له عن رغبته في استمرار العلاقات الأخوية بين المغرب والدولة العثمانية. الرسالة حملها القائد الحاج المكي باركاش صحبة سفير

(346) السلطان أحمد الثالث هو الابن الثاني للسلطان محمد الرابع ولد من "أمة الله كولنوش سلطان" عام (1084هـ/1674م)، عاش تسع سنوات ولياً للعهد دون أي مشاكل مع أخيه الأكبر مصطفى جلس على عرش السلطنة عام (1115هـ/1703م) وهو في سن الواحد والثلاثين، كان سلطاناً مثقفاً يميل إلى الموسيقى، وشاعراً وخطاطاً وإن لم يكن بمستوى أخيه مصطفى. ارتقى العرش بعد أحداث "أدرنة الأولى" في أغسطس 1703م بإصرار من شيخ الإسلام في جو ارتفعت فيه الأصوات حتى ضد آل عثمان. عند توليه الحكم وزع أموالاً طائلة على الانتكشارية وسلم لهم قتل المفتي "قيض الله أفندي" لمقاومته لهم والوقوف ضد أعمالهم. ولتأمين الهدوء الداخلي قام بقتل و معاقبة كل من اشترك في حادثة "أدرنة الأولى" التي اشترك فيها قادة الجيش وقاموا بالذهاب لمقر السلطان مصطفى الثاني في أدرنة للهجوم على القصر وعزله لذلك قتل من رؤسائهم عدد ليس بقليل، كما عزل الصدر الأعظم "تشانجي أحمد باشا" الذي انتخبه الثوار. وفي سنة (1143هـ/1730م)، تنازل السلطان أحمد عن كرسي الخلافة لأخيه محمود خان، توفي بعد 06 سنوات من ذلك عام (1149هـ/1736م). أنظر:

- آصاف، ص: 99-102.

(347) ابن زيدان، العز والصولة، ج1، ص: 287.

(348) سليم الثالث ابن مصطفى الثالث (1171-1222هـ/1761-1808م)، أحد سلاطين الدولة العثمانية. تولى الخلافة بعد وفاة عمه عبد الحميد الأول سنة 1203هـ وكانت المعارك الحربية ضد روسيا والنمسا مستمرة، شهد عهده حملة نابليون بونابرت على مصر، كما أعطى وقته وجهده للجهاد، وكان من أصحاب الهمة العالية والمصلحين في عصر، إذ أدخل إصلاحات جديدة على الجيش الانتكشاري، وهذا ما دفع ضباط الجيش للثورة عليه وعزله، حيث توفي مسجوناً عام (1222هـ/1808م). أنظر:

- آصاف، ص: 113-115.

تركي: "إلى عمنا المرحوم السلطان عبد الحميد خان: ... ولقد وصلتنا أربعة سفن من سفائنكم الجهادية (كذا)... وقد أجزنا سفيركم المذكور بالعودة إلى جنابكم حاملا رسالتنا... والواجب علينا من جهة الوحدة الإسلامية، الإخبار بما كان وما سيكون، والتعاضد فيما يمكن لنا ولكم في الظاهر والباطن ولا يخفى عليكم العدوان القويان وهما الروس والكروس (النمسا) (كذا)" (349).

ويتبع السلطان محمد بن عبد الله سفارة بركاش بوفادة تعزية للسلطان سليم الثالث مرة أخرى برئاسة القائد محمد بن عبد الله الزوين حاملا له رسالة من سلطان المغرب ومما جاء فيها: "الموت باب وكل الناس داخله..." كما أعرب سلطان المغرب في هذه الرسالة عن الاستعداد الكامل للمغرب في تقديم المساعدة اللازمة للدولة العثمانية (350).

وعلى ما ذهب إلى المصادر المغربية أن وفاة السلطان محمد بن عبد الله أثرت على العلاقات الخارجية مع الكثير من الدول، أما مع إسطنبول فإنها ظلت قائمة كما كانت عليه. لكننا نعتقد أن العلاقات المغربية العثمانية لم تبقى على تلك الصورة التي كانت عليها أيام السلطان محمد بن عبد الله، لأن الظروف الداخلية والخارجية المحيطة بالبلدين لعبت دورا بارزا في التأثير على العلاقات الخارجية للمغرب وإسطنبول، ثم أن سياسة المغرب في عهد السلطان محمد بن عبد الله، كان يكتنفها الغموض والتعقيد - على ما ذهب إليه المؤرخ التركي ألتز عزيز سامح- إذ لم تصل إلى مرحلة الوضوح والفهم، فأحيانا يفهم أنه يخاف من العثمانيين ويحاول التفاهم معهم، وإقامة علاقات حسنة، وأحيانا أخرى يفهم أنه يقيم معهم علاقات تأسيسا بالدولة العثمانية في علاقاتها مع الدول (351).

ولعل إحدى الرسائل التي بعث بها سلطان المغرب إلى السلطان العثماني عبد الحميد الأول بتاريخ 23 شعبان 1197 هـ الموافق لـ 22 يوليو 1783م تبرز ذلك الغموض والحذر في العلاقات بين البلدين، فقد طلب سلطان المغرب من السلطان العثماني إصدار أمر ببيع مجموعة من المصاحف كتبت بماء الذهب كان المولى عبد الله قد بعثها هدية إلى المدينة المنورة، وإنفاق ثمنها على أشرف مكة أو أن تجلد المصاحف من جديد لتجعل في متناول

(349) التازي، مج9، ص:41.

(350) نفس المرجع، ص:41.

(351) سامح، ص: 499.

القراء والطلبة. فكان رد السلطان العثماني أن بعث جوابا إلى سلطان المغرب جاء فيه: "وما رأينا إخراج المصاحف المطهرة عن خزينة المدينة المنورة وانتزاع الجواهر وابتلاعها خليقا بخليقتكم الكريمة وحقيقا بحقيقتكم الفخيمة... فإنها هدية لسلطان الأنبياء ... ولا شك أنه حي في قبره... فأخراج الهدية من الخزنة النبوية، وإن لم يكن في نفسه سيئة، ما كان دأب الملوك والأمراء الإسلامية... إن خزينته صلى الله عليه وسلم مشحونة بتحف السلاطين والأمراء الماضين وهدايا الخواقين والخلفاء (كذا) ولم يقع من أسلافنا إخراج شيء عن خزينة سيد الأنام ... وأما العطايا والإنعام لسكان بيت الله الحرام وقطآن مدينة سيد الأنام لاسيما الشرفاء الفخام (كذا)... فهو من طرفنا وطرف أسلافنا الهمام في كل سنة وعام، شامل وعام بواسطة أمنائنا ووكلائنا من وزرائنا وسائر الخدام" (352).

ومن خلال هذه الرسالة يظهر أن السلطان العثماني لم يتفهم الروح السلفية التي كان عليها سلطان المغرب على ما نقله عبد الهادي التازي (353).

ولعل التقرير السري الذي رفعه "إسماعيل أفندي"، مبعوث السلطان العثماني عبد الحميد الأول إلى المغرب بعد رجوعه منه إلى اسطنبول بتاريخ 15 ربيع الأول 1201 الموافق لـ 5 جانفي 1787، يكشف جانبا من الوجه الآخر لسياسة المغرب تجاه العثمانيين إذ جاء فيه: "... وفي أثناء إقامتي بالمغرب ورد خمسة من عربان الجزائر (يقصد شيخ بعض القبائل الجزائرية) يشتكون ما انتابهم من ظلم من الوجاقات (كذا)، فأشار عليهم (يعني سلطان المغرب) بالذهاب إلى الدولة العلية (باسطنبول)، فأجابوه بأن اسطنبول على مسافة ستة أشهر، فكيف نستطيع الذهاب، وهنا بعث بهم إلي لأسمع كلامهم، فلما استضافتهم (يقول إسماعيل أفندي) نقلوا حالات من الظلم يندى لها الجبين، واعترضني منها عارض!، والحق يقول - إسماعيل أفندي - إن ظلم العثمانيين لما تحت أيديهم من أناس وممالك (كذا) شيء يمجح العقل ويرفضه الشرع... وأن سكان الجزائر لا يرضون بما يقوم به حكامهم (العثمانيون) وإنهم يرسلون المولى محمد وبيعثون إليه خفية ويستغيثون به... ثم يضيف إسماعيل أفندي . إن أحدا من الحكام لا يتوفر على ما يملكه المولى محمد من جند وخزائن، وله من القوة والاعتدال ما ليس لغيره. ولقد استخبرت وعلمت من بعض الملاحظين أن باي

(352) التازي، مج9، ص ص: 30-31.

(353) نفس المرجع، ص: 44.

تونس وباشا طرابلس وأتباعهما من قبائل وعشائر عربان تلك البلاد يضمرون الحب خفية للمولى محمد، نكاية في عسكر الجزائر (كذا) وأن لهم معه مكاتبات ومراسلات، ولهذا فإن لم تسع الدولة العلية لدفع ظلمات هؤلاء المغاربة، مما التمسه المولى محمد، فإنه والعياذ بالله إذا استيأس الناس، أخشى أن يزحف مولى محمد على الجزائر وينهي الأمر (كذا)⁽³⁵⁴⁾.

وتجدر الملاحظة كذلك، أن السلطان محمد بن عبد الله، ظل يتملص من السماح للعثمانيين بإقامة سفارة أو قنصلية بالمغرب، معذرا لهم بأن الأخوة بين البلدين ليست بحاجة إلى من يدعمها من وجود قنصلية تركية بالمغرب⁽³⁵⁵⁾.

ثم إن تقرير السفير التركي -حسب الكتابات المغربية- يكشف عن كثير من الجوانب المبالغ فيها، كما يصور الخوف الذي يهيمن على العثمانيين، من المركز المرموق الذي كان السلطان المغربي ينعم به، ليس بالمغرب فقط، ولكن عبر أقطار الأمة الإسلامية من الجزائر وتونس وطرابلس إلى مصر والحجاز وبلاد الشام⁽³⁵⁶⁾.

مع العلم أن سلطان المغرب في إحدى مراسلاته بتاريخ 4 شوال 1198 هـ الموافق لـ 21 أوت 1784م لم يتردد في إعلان البيعة للسلطان العثماني، وهذه الرسالة في نظر الباحث عبد الحفيظ الطبايلي إضافة جديدة حول العلاقات المغربية العثمانية في هذه الفترة. غير أن هذا الموقف من سلطان المغرب يستدعي استحضار الظرفية الخاصة لعلاقات الدولتين الإسلاميتين - يقول الطبايلي - فلا المولى محمد كان في حاجة إلى إعلان بيعته للسلطان العثماني، ولا هذا الأخير كان في حاجة إلى هذه البيعة لتأكيد تفوقه على الحكام المسلمين، فقد اكتسى الأمر بعدا رمزيا بالأساس في وقت كان العالم الإسلامي في حاجة إلى التعاضد والتآزر، ومن هنا فهم سلطان المغرب الوضع وسعى إلى توحيد الجهود تجاه ما يحدث في العالم الإسلامي من تشردم، وانقلاب الموازين لصالح القوى الأوروبية⁽³⁵⁷⁾.

⁽³⁵⁴⁾ نفس المرجع، ص: 37.

⁽³⁵⁵⁾ عبد الهادي التازي، الموجز في تاريخ العلاقات الدولية للمملكة المغربية، ط1، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، المغرب، 1965، ص: 101-102.

⁽³⁵⁶⁾ التازي، مج9، ص: 37.

⁽³⁵⁷⁾ الطبايلي، من إيناون إلى إستانبول، ص: 168.

إذا فالعلاقات المغربية العثمانية في هذه الفترة، وبالرغم من أن ظاهرها التقارب إلا أن باطنها كان يكتنفه الشك والحذر بين الجانبين، ومع ذلك لم يعلن صراحة أي طرف منهما نواياه الحقيقية!

فقد ظل العثمانيون يترقبون بحذر شديد تطلعات سلاطين المغرب للخلافة⁽³⁵⁸⁾، كما أن الإدارة العثمانية في إيالاتها العربية، كانت لا تخفي شعور الامتعاض من تلك الصلات، وخاصة المالية التي كان سلطان المغرب يتبرع بها لزعماء وكبراء الأقطار العربية، فقد كان الولاة العثمانيين يرسلون بتقاريرهم إلى الباب العالي عن هذه الصلات التي كانت تكبر وتزداد تلاحما يوما بعد يوم، خاصة في بلاد المشرق، وكانت هذه التقارير تتحدث عن التقدير الكبير الذي يحظى به عاهل المغرب من المحيط إلى الفرات⁽³⁵⁹⁾.

ولهذا واجه العثمانيون محاولات المغرب في تقوية صلته بالأقطار العربية مواجهة علنية وصريحة، وأما الهدايا التي كان يرسلها إليهم السلطان محمد بن عبد الله، لم تكن من باب الاعتراف بالتبعية للعثمانيين، ولكن بهدف الحصول على بعض البحارة للتدريب وكذلك بعض الآلات والمعدات الحربية، وخاصة حين أمده العثمانيون ببعض احتياجاته سنة (1175هـ-1761م). وما اتصالاته بأشراف المشرق ومصاهرتة لشريف مكة إلا خطوات في هذا الاتجاه. فقد بحث من جهة عن الشرعية الدينية، ومن جهة أخرى، عمل على تقوية الصلة برموز الشرف الديني⁽³⁶⁰⁾. ولقد وصل السلطان المغربي إلى حد الدعاء للخليفة العثماني عبد الحميد الأول بالنصر والتأييد وأمر خطباء مساجد المغرب بأن يحذوا حذوه، حتى اعتبر ذلك إيذانا بأن الدولة واحدة وأن التضامن الإسلامي حقيقة لا تقبل الشك⁽³⁶¹⁾. ولما سأل العثمانيون سلطان المغرب عن دواعي تقربه منهم جاء الرد: "إن سلطان المغرب

(358) سامح، ص ص: 497-498.

(359) محمد علي داهش، الدولة العثمانية والمغرب، إشكالية الصراع والتحالف، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2011، ص ص: 89-90.

(360) سامح، ص ص: 497-498.

(361) كنون، ص: 18.

تصرف على نحو ما تفرضه مصالح الإسلام⁽³⁶²⁾، مؤكدا حرصه في هذه العلاقات على فكرة الجامعة الإسلامية⁽³⁶³⁾.

وحتى يثبت سلطان المغرب صدق نواياه تجاه العثمانيين أرسل إلى مالطة في طلب فك الأسرى المسلمين، وقدم في ذلك ما مقداره مائتين واثنين وسبعين ألف دورو (272 ألف)، فلم تقبلها حكومة مالطة، وردت الأموال إلى المغرب، غير أن السلطان المغربي أرسلها مرة أخرى إلى إسطنبول، وقال في رسالة وجهها للسلطان العثماني: "هذا المال كنا أخرجناه في سبيل الله بقصد فك أسراكم، وحيث جدد الكفار البيع لا يرجع إلينا، اصرفوه في الجهاد". وبعد مدة أرسل لإسطنبول مبلغا آخر من المال مقداره مائة وخمسين ألف ريال (150 ألف) وقال للسلطان العثماني: "اصرفها بنظرك إما للحرمين أو للجهاد"⁽³⁶⁴⁾.

وتظهر الوثائق العثمانية موقف الإدارة من السياسة التي انتهجها سلطان المغرب تجاه تحرير الأسرى، فانزعاجها بدا واضحا عندما خصص الباب العالي لهؤلاء الأسرى ما مقداره "خمسين قرشا لكل نفر منهم" وذلك -كما تذكر إحدى الوثائق- "حتى لا يقال أن الدولة العلية لم تكرمهم". وهنا يظهر حرج الباب العالي⁽³⁶⁵⁾.

ولأن الدولة العثمانية كانت تتوي تجنيد هؤلاء الأسرى وإشراكهم في حروبها الجهادية ضد روسيا، فإن هذه الفكرة قابلها هؤلاء الأسرى بالرفض، ولم يفكروا حتى في الانضمام إلى صفوف الجيش العثماني، الأمر الذي أدخل الشك لدى الباب العالي، فإلى جانب افتقاد هؤلاء الأسرى للحماس الديني تساءل الصدر الأعظم - تشير إحدى الوثائق - عن الأسباب التي دفعت حاكم فاس إلى إيفادهم: "إذا كان يريد أن يمد الجيش بهم، وإذا كان ذلك من أجل الثواب فلماذا لم يحتفظ بهم أو يردهم إلا بلادهم"⁽³⁶⁶⁾.

(362) التازي، التاريخ الدبلوماسي، مج9، ص: 30.

(363) محمد بن عبد السلام الضعيف، تاريخ الضعيف (تاريخ الدولة السعيدة)، تحقيق وتقديم أحمد العماري، نشر دار المآثورات، المغرب، ص: 193.

(364) أبو القاسم الزباني، الترجمانة الكبرى في أخبار المعمورة برا وبحرا 1147-1249 هـ الموافق لـ 1734-1904م، تحقيق عبد الكريم فيلاي، دار النشر للمعرفة، المغرب، 1991، ص: 132.

(365) بنحادة، من إيناون إلى إسطنبول، ص ص: 207-208.

(366) نفس المرجع، ص ص: 207-208.

إن الشك والحذر الذي اكتنف العلاقة بين المغرب والدولة العثمانية يبدو جليا في سياسة المولى يزيد⁽³⁶⁷⁾ إذ مباشرة بعد توليه عرش المغرب، بعث رسالة بتاريخ 23 ربيع الأول 1205هـ الموافق لـ 30 نوفمبر 1790م، إلى السلطان العثماني سليم الثالث، أخبره فيها أنه خلف والده السلطان محمد على رأس الدولة المغربية. غير أن الرسالة تضمنت أمرا جديدا وهو مطالبة سلطان المغرب الجديد من السلطان العثماني، إرجاع الأموال التي كان قد منحها والده السلطان محمد بن عبد الله للسلطان العثماني⁽³⁶⁸⁾. فلم يسع السلطان سليم الثالث إلى أن استجاب لطلب المولى يزيد فردها إلى المغرب.⁽³⁶⁹⁾

لقد توقف المؤرخ حسن شحاته، عند موقف المولى يزيد من الدولة العثمانية، وفي معرض حديثه عن المولى يزيد، يعتقد أن في عهد هذا الأخير يدخل الوفاق العثماني المغربي عهدا جديدا من الدعم بلغ حد التأثير على السياسة المغربية في داخل المغرب ذاته، كما ظهر هذا الأثر في السياسة الخارجية العربية (الجهادية) للدولتين، وذلك على إثر عملية حصار وهران من قبل الباي محمد الكبير (1193-1212هـ / 1779-1797م) و حصار سبتة⁽³⁷⁰⁾ من طرف المولى يزيد، إذ في وقت واحد تزامنت العمليتان، وهذا يدل على رغبة

(367) المولى يزيد بن السلطان محمد بن عبد الله، ولد عام 1180هـ، وبويع بعد وفاة والده في رجب سنة 1204هـ، توفي بالقبلة التي ولد بها عام 1206هـ ودفن بمقبرة الملوك السعديين. أنظر:

- ابن زيدان، الدرر الفاخرة، ص ص: 65-67.

(368) التازي، التاريخ الدبلوماسي، مج9، ص: 43.

(369) الزباني، الترجمانة الكبرى، ص: 133.

(370) مدينة فينيقية الأصل، استوطنها القرطاجيون، ثم غزاها الرومان والوندال، ثم دخلت تحت حكم القوطيين إلى أن فتحها العرب، بها ميناء عظيم في البحر المتوسط مقابل لجبل طارق، جل سكانها من الإسبان، والبقية من المسلمين، مع وجود أقلية يهودية وهندوسية. تبلغ مساحتها 19 كم مربع. لعبت دورا هاما في الفتوحات الإسلامية في عهد موسى بن نصير لفتح الأندلس، قامت بها إمارة بني عصمان في القرن الثاني الهجري، ثم غمارة بني العزفي في العهد المريني، ونبغ عدد من فطاحل العلماء كالقاضي عياض، والشريف الإدريسي وغيرهما. استولى عليها البرتغاليون سنة (818هـ/1415م) وهي أول مدينة إسلامية يحتلها البرتغال بالمغرب، ثم احتلها الإسبان بعد ذلك، ولا زالت بحوزتهم إلى الآن. وقد أصبحت المنطقة منذ عام 1995 تتمتع بصيغة للحكم الذاتي داخل إسبانيا بقرار البرلمان الإسباني عام 1995م. أنظر:

- ابن العربي، ص ص: 225-226.

الطرفين في توجيهه في نفس الوقت ضربة مشتركة لعدو مشترك هو إسبانيا. إلا أن هذا التوافق لم يدم طويلاً بعد وفاة المولى يزيد.⁽³⁷¹⁾

وقد صادفت السنوات الأولى لاعتلاء المولى سليمان الحكم في المغرب قيام نابليون بوناپرت بحملته الشهيرة على مصر سنة (1213هـ / 1798م)، فتوجه الباب العالي برسالة إلى السلطان سليمان، يدعو فيه إلى توحيد الجهود للتصدي لهذه الحملة، وورد في الرسالة المؤرخة في 3 ربيع الأول 1213هـ الموافق لـ 15 أوت 1798 أي بعد شهر ونصف من نزول نابليون بالإسكندرية ما نصه: "... لقد حط نابليون بوناپرت بالإسكندرية... وهو يخطط لاقتحام مكة والمدينة وبيت المقدس، ولهذا فقد أصبح واجبنا في الدين على سائر المؤمنين سواء أكانوا في الشرق أو الغرب، وسواء أكانوا عرباً أو عجماً أن يوحدوا صفوفهم لمناهضة هذا الكافر... وإن الأمل معقود عليكم أيها السيد العظيم لتدافعوا من أجل حماية حوزة الإسلام والمسلمين..."⁽³⁷²⁾.

وفي هذا السياق دائماً، وبغرض طلب الدعم لمواجهة الحملة الفرنسية بعث سليم الثالث رسالة إلى المولى سليمان بتاريخ 19 شعبان 1213هـ الموافق لـ 27 يناير 1799م يتحدث فيها عن تفاصيل الحملة الفرنسية على مصر، وما اقترفته من فضائع تجاه العلماء والأهالي، ويعلمه بأنه عين القائد أحمد باشا الجزائر⁽³⁷³⁾ لمواجهة الفرنسيين، كما أوضحت الرسالة أن العثمانيين تحالفوا بهذا الصدد مع بريطانيا، إذ طلب من العاهل المغربي المساعدة لتسهيل نقل الذخيرة والسلاح عبر جبل طارق⁽³⁷⁴⁾.

⁽³⁷¹⁾ إبراهيم حسن شحاتة، أطوار العلاقات المغربية العثمانية، قراءة في تاريخ المغرب عبر خمسة قرون (1510-1947م)، دار المعارف، الإسكندرية، (1981)، ص: 451.

⁽³⁷²⁾ التازي، التاريخ الدبلوماسي، مج9، ص: 44.

⁽³⁷³⁾ ولد أحمد باشا الجزائر في البوسنة لأسرة مسيحية عام 1735 هرب إلى القسطنطينية في مطلع شبابه وأرجع المؤرخون هروبه إلى أسباب عائلية أو بسبب جريمة قتل، وباعه تاجر رقيق للباب العالي حيث اعتنق الإسلام بإرادته، ثم جاء إلى القاهرة مع قافلة عائدة من الحج وانضم لخدمة أحد المسؤولين في البحيرة بشمال مصر وتزوج من امرأة مصرية من أصول حبشية، ترقى في مراتب الحكم في الدولة العثمانية في عهد سليم الثالث فصار والياً وصدر أعظم عثماني، صد نابليون في حصار عكا، بدأ عمله في مصر وضمنها الحجاز، ثم حكم ساحل فلسطين والشام أكثر من 30 عاماً. أنظر:

- محمد بن حسن بن عقيل موسى، المختار المصون من أعلام القرون، مختارات من تسعة عشر كتاباً، من القرن الثامن حتى القرن الثالث عشر، سلسلة التاريخ والأعلام، ط2، دار الأندلس الخضراء، جدة، د. ت. ط، ص ص: 1549-1553.

⁽³⁷⁴⁾ التازي، التاريخ الدبلوماسي، مج9، ص: 44.

وبالرغم من عدم توفر المصادر المغربية على جواب السلطان سليمان إلا أنه وعلى ما يبدو فإن المولى سليمان سلطان المغرب تجاوب مع الطلب العثماني، بالرغم من السفارات الكثيرة التي بعث بها نابليون إلى المغرب لثنيه عن تقديم العون للعثمانيين⁽³⁷⁵⁾.

2.1 - السفارات:

العلماء مهيوون أكثر من أي طبقة أخرى للقيام بالسفارة، فإن تدرجهم طوال فترات طلبهم للعلم من أستاذ لآخر يكسبهم انضباطا مفردا أمام من يتقدمهم خبرة ومركزا، وإن ممارستهم اليومية لآداب المعاملة والمخاطبات وحفظهم لأخبار الأوائل جعل منهم عنصرا مرغوبا في الاستئناس بحديثهم، ثم إن ما جبلوا عليه من حب إصلاح ذات البين، كان عاملا قويا في تكليفهم بمهمة السفارة سواء أكان ذلك في شقه السياسي أو الثقافي، وقد قال قائل منهم فيما رآه في هذه المهام:

ولا أدع السفارة بين قومي ولا أمشي بشر ما مشيت⁽³⁷⁶⁾

على أن هناك باعنا مهما كان يدعو الملوك والأمراء لترشيحهم، ذلك بحكم أنهم رجال دين يعرفون سلفا ما يجوز الإقدام عليه والبت فيه من اتفاقات ومعاهدات. وإلى جانب تلك الاعتبارات وغيرها نجد أن صراحتهم وحرصهم على عدم إخفاء الحقائق تجعل منهم قوما جديرين باعتماد أقوالهم على عكس الآخرين الذين يجنحون للمخاتلة والتملق والتصنع، وقد قال لسان الدين بن الخطيب:⁽³⁷⁷⁾ "حضرت بين يدي السلطان أبي عنان

⁽³⁷⁵⁾ نفس المرجع، ص: 44.

⁽³⁷⁶⁾ عبد الهادي التازي، في تاريخ المغرب، جامع القرويين، المسجد والجامعة بمدينة فاس، ج3، ط1، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1972، ص447.

⁽³⁷⁷⁾ أحمد بن عبد الله بن سعيد السلماني، الغرناطي الأندلسي، أبو عبد الله الشهير بلسان الدين بن الخطيب. وزير مؤرخ أديب نبيل، كان أسلافه يعرفون ببني الوزير. ولد ونشأ بغرناطة. استوزره سلطانها أبو الحجاج يوسف بن إسماعيل سنة (733هـ/ 1332م) ثم ابنه الغني بالله محمد من بعده وعظمت مكانته وشعر بسعي حاسديه في الوشاية به، فترك الأندلس خلسة إلى جبل طارق، ومنه إلى سبتة فتلمسان (سنة 773/ 1371م) وكان السلطان عبد العزيز بها، فبالغ في إكرامه، وأرسل سفيرا من لدنه إلى غرناطة بطلب أهله وولده، فجاؤوه مكرمين. واستقر بفاس القديمة. مؤلفاته تقع في نحو ستين كتاباً، منها (الإحاطة في تاريخ غرناطة)، و(الإعلام فيمن بويع قبل الاحتلال من ملوك الإسلام) في مجلدين، طبعت نبذة منه، و(اللمحة البدرية في الدولة النصرانية) أنظر:

- بن عقيل موسى، ص: 194 - 196.

فارس⁽³⁷⁸⁾ في بعض وفادتي عليه لغرض الرسالة وجرى ذكر بعض أعدائه فقلت، ما اعتقد في إطرء ذلك العدو وما عرفته من فضله فأنكر علي بعض الحاضرين ممن لا يخطب إلا في حبل السلطان، فصرفت وجهي وقلت، أيدكم الله، تحقير عدو السلطان بين يديه ليس من السياسة في شيء بل غير ذلك أحق وأولى، فإذا كان السلطان قد غلب عدوه، كان قد غلب غير حقير، وهو الأولى بفخره وجلالة قدره وإن غلبه العدو لم يغلبه حقير، فيكون أشد للحسرة وألد للفضيحة. فوافق رحمه الله على ذلك، واستحسنه، وشكر عليه، وخجل المعارض⁽³⁷⁹⁾.

- سفراء مغاربة في إسطنبول:

لقد عرف التاريخ عددا مهما من العلماء الذين قاموا بهذه المهمة الشريفة، وكانوا مثلا يحتذى به في علمهم وكفاءتهم وموهبتهم، نذكر منهم: ابن الوزان والجزولي⁽³⁸⁰⁾ وابن القاضي⁽³⁸¹⁾ إلى غير ذلك من السفراء ممن يتعذر ذكره في هذا المقام⁽³⁸²⁾.

على أننا في هذا الفصل، سنتناول أشهر السفراء المغاربة إلى الباب العالي في الفترة التي نحن بصدد دراستها، ونقصد هنا سفارة أبي القاسم الزياني التي جمعها في كتابه

(378) أبو عنان فارس بن علي (ولد بفاس سنة 1329) هو حاكم مريني. وقد خلف والده أبو الحسن علي بن عثمان كسلطان للمغرب سنة 1348م. جمع أبو عنان من الصفات ما جعل منه شخصية قوية ومحبوبة بين قومه وعشيرته، فكان فارسا شهما شجاعا، عارفا بركض الخيل، حسن الثقافة، عارفا بالمنطق، وأصول الدين، فقيها يناظر العلماء، له حظ وافر من علمي العربية والحساب. كانت قضايا التوسع لاسترداد النفوذ المريني في المغرب الأوسط وإفريقية هي أكبر ما ميز عهد أبي عنان المريني. مات أبو عنان خنقا من قبل وزيره سنة 1358م. أنظر:

- عيسى الحرير، تاريخ المغرب والأندلس في العصر المريني، (610-869هـ/1213-1465م)، ط1، دار القلم للنشر والتوزيع، الكويت، 1985م، ص ص: 125-126.
(379) التازي، في تاريخ المغرب، ص: 447.

(380) هو عبد الله الجزولي من جازولة إحدى قبائل السوس الكبيرة التي أنجبت شخصية دينية وفكرية مثل: عبد الله بن ياسين، تلقى الجزولي دراسته بفاس والمشرق، توفي حوالي (870 هـ / 1464م) بأفوغال بإقليم آسفي التي أسس زاويته الرئيسية بها. أنظر:

- إبراهيم حركات، السياسة والمجتمع في العصر السعدي، دار الرشد الحديثة الدار البيضاء، المغرب، 1987، ص: 332.
(381) أحمد بن القاضي ابن أبي العافية الشهير بابن القاضي يتصل نسبه بالأمير موسى ابن أبي العافية الذي استلم السلطة في المغرب أوائل القرن الرابع الهجري من يد الأدارسة بعد أن حاربهم وشردهم. ولد أحمد بن القاضي عام (960هـ/1553م) بالمغرب، وقرأ على كبار العلماء، ثم شد الرحلة إلى المشرق وهو ما يزال في العقد الثالث من العمر، فحج وجاور أهل العلم وأخذ عن أعلام مصر والحجاز، كان له اتصال بالسلطان أحمد المنصور الذهبي، الذي جمعه وإياه الأخذ عن الشيخ أحمد المنجور وغيره. وقد كلف ابن القاضي بمهمة ثقافية وسياسية يؤديها إلى المشرق العربي، فجمع من مفاخر الدولة وفتوحها ومآثرها، ما أمل بثه في الأقطار. أنظر:

- محمد حجي، موسوعة أعلام المغرب، ج1، ط1، دار الغرب الإسلامي، 1996، ص: 11.
(382) التازي، في تاريخ المغرب، مج2، ص: 448.

"الترجمانة الكبرى"، وسفارة ابن عثمان المكناسي المسماة "إحراز المعلى والرقيب"، إذ أن كلتا السفارتين كانتا لغرض دبلوماسي وثقافي، وعليه حاولنا جاهدين ترتيب الأحداث التي تضمنتها الرحلتان وتصنيفهما وفقا للسياق الذي جاءتا فيه. وستكرر معنا رحلة الزياني على الخصوص في باقي الفصول، كلما اقتضت الحاجة إلى ذلك، باعتبارها مصدرا لا غنا عنه في هذه الدراسة، هذا بالإضافة إلى أحداث سقناها من مصادر أخرى لعلها تقي بالغرض.

كانت سفارة الزياني إلى إسطنبول سنة (1200هـ / 1785م) بأمر من السلطان محمد بن عبد الله وكانت محملة بمختلف الهدايا منها سبائك الذهب الخالص وأربعة آلاف قنطار من النحاس، فأقام الزياني في الأستانة⁽³⁸³⁾ مائة يوم في حسن الضيافة وكرم الاستقبال إلى أن قابل السلطان العثماني واشترى عددا من الكتب كان السلطان محمد قد أوصاه بها، وفي أثناء إقامته بإسطنبول التقى سفارة ابن عثمان التي كانت تنتظر موسم الحج للعام الموالي⁽³⁸⁴⁾.

ولما قابله السلطان عبد الحميد أبدى الأخير رغبته الشديدة في سلف أموال من سلطان المغرب يستعين بها في الجهاد.

وكانت تركيا إذ ذاك على أهبة إعلان الحرب على الإمبراطورين الروسية والنمساوية، فأجابه السفير المغربي بأن السلطان سيدي محمد بن عبد الله يقدم للدولة التركية في سبيل الجهاد أموالا كثيرة لا على سبيل السلف بل على سبيل العطاء المحض⁽³⁸⁵⁾.

ولننقل للقارئ ما دار بين الزياني والسلطان عبد الحميد الأول من حوار، **السلطان:**

كيف هو أخي مولاي محمد، وكيف هم أولاده، وكم عنده من الأولاد. ثم سأله عن بلاد المغرب والسودان وكم تبعد عن اسطنبول. ثم سأله عن سن السلطان محمد الذي كان في نفس سن السلطان عبد الحميد⁽³⁸⁶⁾.

الزياني: يحبك ويطلب دعاءك لأنك أمير المسلمين وخليفة سيد المرسلين، ويقول لك لولا هذا البحر الذي بينه وبينك لقدم عليك.

⁽³⁸³⁾ وتعني عتبة الباب، والمركز، والتكية الكبيرة، وهو اسم أطلق على عاصمة الدولة العثمانية اسطنبول. أنظر:

- صبان، ص: 15.

⁽³⁸⁴⁾ ابن زيدان، الإتحاف، ج3، ص: 357.

⁽³⁸⁵⁾ نفس المرجع، ص: 357.

⁽³⁸⁶⁾ الزياني، الترجمانة الكبرى، ص ص: 122-124.

السلطان: قل له إني أحبه لأنه ابن رسول الله وأطلب منه الدعاء، ومن رعيته أن ينصرنا الله على هذا العدو الذي شغلنا عن ديننا، وأراد إطفاء نور الله.

الزياني: إن المسلمين كلهم في نصرتك، وداعون لك، وانك بحول الله مؤيد عليه منصور بعون الله وقوته ظافر به وبأهل ملته، فطب نفسا وقر عينا⁽³⁸⁷⁾.

على الرغم من حسن الضيافة والاستقبال الذي لقيه الزياني في إسطنبول، إلا أن هذا الأخير يعتقد أن من الأتراك من يكونون العداوة لسلطان المغرب ورعيته وهذا على إثر ما وقع للزياني من سوء معاملة من بعض الأتراك في سفارته، وهو ما دفعه للقول:

لا تركزن لتركي وان عظمست
منه العبادة حتى طار في السحب
إن جاد يوما فكان الجود عن غلظ
وان تمرد عن أم له وأب⁽³⁸⁸⁾

وعندما عزم الزياني على الدخول إلى مراسي تركيا وكان رفقة باشادور تركي حدث معه الآتي: "ولما دخلنا جزر بر الترك استأنس هذا الباشدور، وسرح لسانه بالشتم في دولة المغرب وأهله، وهو يسمعي ذلك، فواعظته المرة بعد المرة، ونهيته فلم يرجع عن فعله، واستمر على ذلك إلى أن ألقنا البحر وأهواله إلى مرسى الشيشمة بأزمير،⁽³⁸⁹⁾ وأشرفنا على المهالك ويأسنا من الحياة، والمركب مشرف على التلف بكلنا، وهو يسب أمير المؤمنين ويدعو عليه، فقمت إليه وأخذت بلحيته وقبضه خادمي وهو يصيح، فقلت والله يا ملعون لا تقرب بذبحك قبل الموت (كذا)، وجاء الرئيس وأعوانه فرغبوني فيه وسرحوه من يدي وخلصنا من تلك الورطة، ودخلنا المرسى، وأرسينا بها، ونزل من المركب للمدينة، واجتمع بحاكمها وطلب منه أن ينزل بها..."⁽³⁹⁰⁾.

لما وقف الزياني أمام حاكم المدينة سرد عليه الترجمان ما كان من الباشدور التركي من أقوال وأفعال، فصار الترجمان يعد للوالي ذلك إلى أن وصل إلى سب السلطان محمد بن عبد الله، وسب السلطان عبد الحميد، عندها التفت الوالي إلى الباشادور وقال له: "والله يا

(387) نفس المصدر، ص: 125.

(388) نفس المصدر، ص: 129.

(389) مدينة تركية كبيرة، تقع على بحر إيجه، تأسست 300 ق.م، معروفة بآثارها الإسلامية والبيزنطية، ومن معالم أزمير حمام ديانا أديميس الروماني، سمي باسم آلهة الصيد والقمر عند الرومان. وتشتهر أزمير كذلك بالتين الأزميري من أجود أنواع التين، وكذلك عنبها المعروف بالعنب البناتي، وهو عديم البذور. أنظر:

- يحي شامي، موسوعة المدن العربية والإسلامية، ط1، دار الفكر العربي، بيروت، 1993، ص: 305.

(390) الزياني، الترجمانة الكبرى، ص: 96.

أفندي أنت لجدير بالذبح والحرق"، ثم التفت والي للزياني وقال له: "ريد منك أن تسامحه، وإلا عاقبناه نحن..." واستمر على ذلك حتى عفى الزياني عنه⁽³⁹¹⁾.

وعندما أنهى الزياني مأموريته غادر اسطنبول ومعه مبعوث تركي، كلف من قبل سلطانه بطلب السلف من المغرب، وقبل سفر الرجلين قال السلطان عبد الحميد للزياني: "إنما بعثت معك هذا الخديم صورة فقط والاعتماد في مقصودنا عليك"⁽³⁹²⁾.

لقد كان الزياني على حق فيما وعد به السلطان عبد الحميد باسم سيدي محمد بن عبد الله، لأن الحرب التركية الروسية كان بلغ صداها المغرب وأثر تأثيرا سيئا على مسامع السلطان، حتى أن الأخير أراد أن يهدي إسطنبول أربعة مراكب حربية وهدد إنجلترا بإعلان الحرب عليها إن رفضت توجيه هذه المراكب مع بحريتها، وطلب من فرنسا المساعدة في حال نشوب الحرب بينه وبين الإنجليز، على أن يبيع ما يأخذه من الإنجليز مدة الحرب بالمراسي الفرنسية...⁽³⁹³⁾.

لقد وصل جواب استلام السلطان العثماني المال المذكور من المغرب في غضون الستين يوما⁽³⁹⁴⁾، بحيث لما قدم الزياني إلى المغرب واجتمع بالسلطان محمد بن عبد الله وأبلغه مكاتيب السلطان عبد الحميد وهديته، قص الزياني على السلطان ما جرى له في سفارته هذه وما وقف عنده من معالم ثقافية وشؤون الدولة العثمانية السياسية والإدارية والحربية وغيرها، وكيف أن السلطان العثماني عبد الحميد قد طلب العون والسلف من سلطان المغرب، وبمجرد سماع السلطان المغربي الطلب قال للزياني: "لا بد لنا من إعانتهم على الجهاد"، وكان السلطان العثماني قد طلب ما مقداره مليونين من المال، فاستكثر سلطان

(391) نفس المصدر، ص ص: 96-97

(392) محمد الفاسي، "الوزير محمد ابن عثمان المكناسي"، مجلة المغرب الجديد، السنة الثانية، المغرب العدد، 13، 1936، ص: 47.

(393) حاولت فرنسا استمالة سلطان المغرب محمد بن عبد الله إلى جانبها، لأنه كان وقتها على علاقة سيئة مع إنجلترا التي كانت حكومتها تقدم الدعم العسكري لخصوم والده وتحرضهم على الثورة عليه، وقد جاء في إحدى الرسائل التي كتبها المولى محمد بن عبد الله إلى ملك إنجلترا "جورج الثالث" سنة 1756م أن تتوقف إنجلترا عن دعم المتمردين من خصوم أبيه، أمثال "محمد بن علي" باشا تطوان الذي قدمت له 700 كيس من البارود، و 70 مدفعا وعدد من المعدات الحربية، كما ذكرت الرسالة أن إنجلترا جبل طارق خلال هذه الفترة كانوا يمارسون القرصنة على السواحل المغربية، أملا في الحصول على كميات القمح الذي كان تصديره محرما في المغرب المغربي وقتها. أنظر:

- (Rd) Thomassy, *Relation de La France avec l'empire du Maroc*, Paris, S. d, p: 132.

(394) ابن زيدان، الإتحاف، ج3، ص: 357.

المغرب ذلك، فقال: "كثير..." غير أن الزياني وضع له الأمر، إذ أن مليوني تركية تعادل ستمائة ألف ريال وخمسين ألف دورو. إذ أن سكة الأتراك ربعها فضة وثلاث أرباعها نحاس، فلم يتأخر سلطان المغرب في إعداد المبلغ، ووجهه مباشرة إلى إسطنبول عبر إسبانيا ففرنسا ثم تركيا، كما لم يتأخر بعدها وصول جواب السلطان العثماني إلى المغرب عن تسلمه المال⁽³⁹⁵⁾. وقد وجه المال إلى إسطنبول مع القائد مبارك بن همدان والأمين الحاج عبد الله الشرفي، وكان سلطان المغرب قبل هذا قد سأل الزياني قائلاً: "ما يقول الناس في هذا المال الذي وجهته للجهاد، فقال الزياني: يقولون لو صرفته في الجهاد بالمغرب كان أولى، فضحك وقال: وأي جهاد في غربنا، فقال الزياني: "سبته ومليية"⁽³⁹⁶⁾ وبإداس والنكور"⁽³⁹⁷⁾.

(395) الزياني، الترجمانة الكبرى، ص: 131.

(396) بعد أن خلاص السلطان محمد بن عبد الله الجديدة من الاحتلال البرتغالي وجه نظره صوب تحرير مدينة سبتة ومليلة اللتين كانتا في يد الأسبان، حاصر المدينتين قرابة المائة يوم، ثم تراجع عن فتحهما نزولاً عند شروط معاهدة خاطئة مع الأسبان، كان كاتبه "أحمد الغزال" قد أبرمها مع الملك كارلوس الثالث عام 1181 هـ الموافق لـ 26 ماي 1767. وكان السلطان يريد حلاً سلمياً منذ البداية مع الأسبان لاسترجاع المدينتين وقد كلف حاكم تطوان محمد بن عمر الوقاش سنة (1181 هـ - 1767 م) لمباشرة العمل الدبلوماسي مع حاكم سبتة الأسباني. وكمحاوله لاستمالة ملك إسبانيا أطلق السلطان سراح بعض الأسرى الأسبان، مما أدخل السرور على الملك، وفي الوقت نفسه أوفد السلطان كاتبه أحمد الغزال في سفارة إلى إسبانيا كللت بعقد هدنة وصلاح بين الجانبين. إلا أن ما وقع من تزوير في بنود المعاهدة من الجانب الأسباني، كان سبباً في عزوف السلطان عن استرجاع المدينتين، ومفاد ذلك أن السلطان محمد بن عبد الله، لما هم باسترجاع المدينتين عسكرياً كتب إليه ملك إسبانيا كارلوس الثالث، يذكره بمعاهدة الهدنة والصلاح التي أبرمت بينهما، ويقول له: "هذا خط كاتبك الغزال الذي كان واسطة بيني وبينك في عقد الصلح لا يزال تحت يدي. فأجابه السلطان قائلاً: "إنما عقدت معك المعاهدة في البحر، أما المدن التي في أياالتنا فلا معاهدة فيها، ولو كانت فيها معاهدة، لخرجتم إلينا ولدخلنا إليكم، فكيف إدعاء المعاهدة مع هذه المداينة؟ (كذا). "إثر ذلك بعث ملك إسبانيا إلى السلطان محمد بن عبد الله، بنص المعاهدة، وإذا بالنص يشتمل على كلمتي "البر والبحر". وإزاء هذا الوضوح لم يسع السلطان محمد بن عبد الله إلا أن يفك الحصار عن المدينتين ويرجع أدرجه، وهذا الفشل العسكري والدبلوماسي أثار سخط السلطان فصب جام غضبه على كاتبه أحمد الغزال الذي اتخذ منه كبش أضحية وعزله من منصبه ومن كل وظيفة. أنظر:

- الغزال أحمد بن مهدي، نتيجة الاجتهاد في المهادنة والجهاد، تحقيق إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1984، ص: 13. وكذلك: بن تاويت، ص: 199-201.

(397) مدينة أثرية تقع على ساحل البحر المتوسط بين الحسيمة والجبهة، تبعد 40 كلم عن الحسيمة، ويقال لها بادي بادي غمارة وبادي فاس تميزا لها عن بادي الجزائر، ازدهرت بادي في القرن 17 م ونافست سبتة في نهضتها العلمية والأدبية وكانت بها مدرسة لا تزال آثارها باقية إلى اليوم، وكانت مركزاً تجارياً هاماً بالريف وتعتبر المرفأ الطبيعي لمدينة فاس. أما النكور فتقع في عرض ساحل أجدير والرواية الإسبانية تقول بان السلطان مولاي عبد الله الغالب بالله أهداها لفيليب الثاني سنة 1560 جزء على مؤازرته في الحرب ضد الأتراك. أنظر:

- ابن العربي، ص: 74.

فقال السلطان: لا فائدة في عمارة تلك القرى الثلاثة، نعم سبتة هي واسطة أرض المغرب، ولكن لا يحار بها إلا أحمق أو جاهل، لا ينفع فيها حرب ولا ينشأ عنها إلا السبة للإسلام، فالإعراض عنها أولى، وذلك المال الذي وجهناه للسلطان العثماني الذي هو بصدد الكافر وعساكره مقابلة لهم، أولى من صرفه في مغربنا وبقائه عندنا عرضة للتلغ، فوالله لا يصرف بعدنا إلا في المحرمات، نسأل الله أن لا يحرمننا من ثوابه كله⁽³⁹⁸⁾.

ومن خلال رحلته الثانية إلى إسطنبول سنة (1208هـ / 1793) على إثر القطيعة التي حدثت بينه وبين المولى اليزيد يؤكد الزياني: "أن مكانته عند الأتراك ظلت محترمة سواء أكان ذلك في الإطار الرسمي أو العام- بالرغم من النعوت التي سبق له ونعتهم بها في رحلته الأولى إذ عند دخوله إسطنبول استقر الزياني عند الآغا المهماندار⁽³⁹⁹⁾ الذي كان قد أقام عنده في الرحلة الأولى، وعلى عادته استقبله وأكرم نزله، ثم سأل الآغا عن حال المغرب بعد موت السلطان محمد بن عبد الله، وكان الآغا في مناسبة سابقة قد سأل الزياني عن سفير تركي أرسله الباب العالي إلى سلطان المغرب في شأن عدد من المراكب اليونانية كان المغرب قد احتجزها لديه⁽⁴⁰⁰⁾.

- سفراء أترك في المغرب:

في سفارة مهمة بتاريخ 05 شعبان 1199هـ الموافق لـ 13 جوان 1785م اجتمع سفير مغربي يدعى عبد الكريم العوني بمرافقه إلى المغرب السفير التركي إسماعيل أفندي على ظهر السفينة، وتذكر المصادر المغربية أن العوني سأل إسماعيل أفندي عما يحمله في حقيقته حول قضية الجزائر، فأجابه: "عندي المكاتيب لباشا الجزائر وباشا تونس، ولسلطان المغرب، السلطان كتب للأوليين أن يكونا عند أمر مولاي محمد"⁽⁴⁰¹⁾.

وحسب الكتابات المغربية فإن إيالة الجزائر لم تكن تحسب حسابا للعلاقات الودية التي كانت تربط السلطان العثماني بسلطان المغرب، فقد كانت عصابات من الجزائريين تدخل

(398) الزياني، الترجمانة الكبرى، ص: 132.

(399) الموظف المسؤول عن استقبال السفراء حين قدومهم إلى إسطنبول، وتقديم الضيافة اللازمة والإكرام، وكان يتم اختياره في الغالب من أفراد قاجي باشي (رئيس البوابين في القصر السلطاني). أنظر:

- صابان، ص: 218.

(400) الزياني، الترجمانة الكبرى، ص: 167.

(401) نفس المصدر، ص: 132.

إلى الحدود المغربية وتعيث فيها فسادا وتتهب ما قدرت عليه، حتى نفذ صبر السلطان محمد بن عبد الله وشكا أمرهم للسلطان عبد الحميد الأول⁽⁴⁰²⁾.

وفي السياق ذاته لا بأس أن نذكر ما جاء في كلام سلطان المغرب المولى سليمان حين أراد أن يخمد نار الفتنة التي نشبت بين أهل فاس على إثر محاولات أتراك الجزائر التدخل في المغرب سنة (1235هـ/1819م)، في إشارة منه إلى حدود الدولة العثمانية وحدود الدولة المغربية وسلطة كل منهما، ففي معرض حديث الزباني عن أخبار المولى سليمان في كتابه الروضة السليمانية⁽⁴⁰³⁾ ذكر مايلي: "أن أهل فاس تمردوا على قائد المدينة ونشبت الحرب بينهم، ولما علم المولى سليمان بأمرهم، توجه إلى فاس، وكتب لهم كتابا بالوعظ والعتاب: "... إلى أهل فاس: عمم الخطاب، مع أن الخوض في الفتنة إنما وقع من البعض لأن سكوت الباقيين يجوز توجيه الخطاب لهم، وإن كان لا ينسب لساكت قول... فإن العثماني بإسطنبول وأمره متمثل بتلمسان والهند واليمن وما وراءه فقط، يقول القرب من الأمير ورؤية وجهه لا دخل لهما في وجوب طاعته، ولا تتوقف على واحد منهما... (كذا)⁽⁴⁰⁴⁾".

وبالعودة إلى حادثة العوني وإسماعيل أفندي، فعلى ما يبدو أن العوني فهم الرسالة خطأ، إذ لما نزلا بطنجة أبلغ العوني والي المدينة بقدوم الباشدور التركي معه، وأنه يحمل مكاتيب لحاكم الجزائر وحاكم تونس ليكونا تحت ولاية سلطان المغرب؟ فلم يتردد والي طنجة في مكاتبة السلطان محمد بن عبد الله بأن السلطان عبد الحميد أعطاه الجزائر وتونس - على ما تذكره هذه المصادر - وأن إسماعيل أفندي يحمل المكاتيب بذلك؟

(402) الفاسي، مجلة المغرب الجديد، العدد 12، ص: 24-25.

(403) الروضة السليمانية في ملوك الدولة الإسماعيلية، ومن تقدمها من الدول الإسلامية لمؤلفه أبي القاسم الزباني، يقع الكتاب في مجلد ضخّم رتبه على ثلاثة عشر بابا، وخاتمة في تلخيص الكلام عن الدولة العلوية إلى سنة (1239هـ/1823م)، وهي نسخة مكبرة من كتاب البستان الطريف، وفيها بعض الزيادات المهمة، توجد منها نسخة بالخزانة الزيدانية بمكناس، والخزانة العامة بالرباط تحت رقم: 1275. أنظر:

- عبد السلام بن عبد القادر بن سودة المري، دليل مؤرخ المغرب الأقصى، دليل ابن سودة، ط1، مكتب البحوث والدراسات، دار الفكر، بيروت، 1997م، ص: 102.

(404) أبو القاسم الزباني، الروضة السليمانية، مخطوط، مكتبة الملك عبد العزيز، الدار البيضاء، المملكة المغربية، د.ت، ص: 263.

وعندما وصلت الرسالة إلى السلطان سر لسماع ذلك وأمر خدامه في كل مدينة يمر فيها السفير العثماني أن يلقوه بالترحيب وحسن الضيافة، وعليه أقيمت للسفير إسماعيل أفندي احتفالات في كل الأماكن التي حل بها في المغرب⁽⁴⁰⁵⁾.

ولما جاء يوم استقبال السفير من طرف سلطان المغرب وكان ذلك يوم الجمعة سنة 1200هـ الموافق لـ 15 أكتوبر 1785م بجامع السنة، أمر السلطان قاضي القضاة بقراءة كتاب الخليفة العثماني على مسامعه، فلم يكن فيه إلا الاعتذار عن أعمال أترك الجزائر- تقول المصادر المغربية- فاتهم السلطان السفير العثماني بالكذب وأمر بإرساله في الحين إلى تطوان ريثما يلحق به سفير مغربي يرجع معه إلى بلاده⁽⁴⁰⁶⁾.

وردا على ما بدر من سوء تفاهم بين المغرب وإسطنبول، أرسل السلطان العثماني مبعوثا آخر إلى المغرب لملاقاة السلطان محمد بن عبد الله في 18 ذي القعدة 1201هـ الموافق لـ 1786م حيث أقام السفير في الرباط⁽⁴⁰⁷⁾ وصاحبه في سفره هذا نحو عشرين من الأتراك، محملا معه بهدايا قيمة، وكانت ملاقة السفير لسلطان المغرب بمراكش في أول أيام عيد الأضحى، حيث خصه السلطان باستقبال مهيب، فأكرمه وأحسن ضيافته ثم أرسله إلى إسطنبول محملا بالهدايا⁽⁴⁰⁸⁾.

لقد ظل التفاهم والاحترام قائمين بين المغرب وإسطنبول بالرغم من كل الصعوبات التي كانت تتخلل العلاقة بين البلدين، إذ داوم سلاطين المغرب في الترحيب بالعثمانيين وسفرائهم

(405) التازي، التاريخ الدبلوماسي، مج9، ص:34.

(406) نفس المرجع، ص:36.

(407) تقع على ساحل المحيط الأطلسي في سهل منبسط فسيح، وعلى الضفة اليسرى لمصب نهر أبي رقراق الذي يفصلها عن مدينة سلا. تشتهر المدينة بصناعة النسيج. أسسها الموحدون في أواسط القرن الثاني عشر، فقد بنى فيها عبد المؤمن "رباط الفتح" وهي نواة مدينة الرباط بها قلعة محصنة وشملت كذلك على مسجد ودار للخلافة، ويعتبر حفيده يعقوب المنصور المؤسس الحقيقي لمدينة الرباط، فقد ذكر عدة مؤرخين أن اكتمال بناء المدينة كان على عهد أبي يوسف المنصور، بما في ذلك السور والبوابات. هاجر إليها عدد كبير من الأندلسيين في العهد السعدي بعد سقوط الأندلس، فاستوطنوا بها وبنوا فيها الدور والأسواق واشتغلوا بفلاحة البساتين كما نظموا بها حركة القرصنة. أنظر:

- ابن العربي، ص: 137-141.

(408) الضعيف، ص:193.

وكل من له صلة بهم عن حسن نية، إكبارا وتعظيما لآل عثمان، على ما ذهب إليه أكنسوس⁽⁴⁰⁹⁾.

فقد ذكر أنه ورد على حضرة السلطان عبد الرحمان بن هشام:⁽⁴¹⁰⁾ "رجل من المشرق ادعى أنه ولد السلطان العثماني مصطفى⁽⁴¹¹⁾ وأنه جاء يطلب من سلطان المغرب أن يكتب لعمه السلطان عبد المجيد⁽⁴¹²⁾ أن يقبله ويؤمنه، ويقبل شفاعته فيه، فأكرمه المولى عبد الرحمن غاية الإكرام، وأظهر فرحه به واستقبله في قصره، وأنعم عليه، وكان هذا الرجل يقصد من حين لآخر قبور الأولياء والصالحين لعله يلتمس بركاتهم، وبعد أن ضمن ما كان يهدف إليه، فر هاربا إلى جبل طارق، حيث أظهر وجهه الحقيقي، إذ تبين أنه نصراني كاهن (بطريق)، عاش في المشرق وتعلم العربية وعلومها المختلفة من صرف ونحو وبيان وعلوم الشريعة بدمشق ولغات ولهجات أخرى مختلفة، وأتقنها غاية الإتقان، ويروي صاحب الجيش أن هذا النصراني لما وصل جبل طارق توجه إلى مالطة أين كتب قصيدتان بالعربية

(409) ولد بالسوس الأقصى عام 1211هـ/ 1796م، رحل إلى فاس سنة 1229هـ/ 1813م، بقصد دراسة علم الحديث، فأدرك الشيخ التجاني، وسمع منه ولم يأخذ عنه الطريقة التجانية إلا بعد وفاة صاحبها بثمان سنوات أي سنة 1239هـ/ 1822م، وهو في سن السابعة والعشرين. له من المؤلفات الكثير، من ذلك كتاب في تاريخ الدولة العلوية بعنوان الجيش العرمم الخماسي في دولة مولانا علي السجلماسي، توفي سنة 1294هـ/ 1877م. أنظر:

- محمد الرازي كنون، المجموعة الكاملة لرسائل أبي عبد الله محمد أكنسوس (1211-1294هـ/ 1796-1877م)، د.ط، معلمة سوس، المغرب، 1997، ص: 7-9. وكذلك: - أبي عبد الله محمد أكنسوس، الجيش العرمم، ج2، مخطوط، مكتبة الملك عبد العزيز، الدار البيضاء، المملكة المغربية، 1354، ص: 57.

(410) أبو زيد عبد الرحمان بن هشام، ولد عام 1204هـ/ 1789م) ببيع له بفاس بعهد عمه السلطان سليمان عام 1238هـ/ 1822م، وتوفي بمكناسة عام 1270هـ/ 1859م). أنظر:

- ابن زيدان، الدرر الفاخرة، ص: 78-79.

(411) هو السلطان مصطفى الثالث ابن السلطان أحمد الثالث ولد سنة 1129هـ/ 1716م)، جلس على كرسي الخلافة سنة 1171هـ/ 1757م) عن عمر يناهز الاثنان والأربعون سنة، وفي عهده جلست كاترينا زوجة بطرس السادس قيصر الروس على كرسي العرش، بعد أن خلعت زوجها، شهد عهده سن الشرائع وتوطيد دعائم الدولة وفرض الأمن بمعاوضة الصدر الأعظم راغب محمد باشا، الذي تقلد عدة مناصب منها: والي مصر. توفي عام 1187هـ/ 1773م) أنظر:

- آصاف، ص: 107-110.

(412) ولد عام 1137هـ/ 1724م)، وجلس على كرسي الخلافة سنة 1187هـ/ 1773م) واخذ منذ جلوسه في تسكين الفتن الداخلية، وإعداد مهمات القتال وتقوية المعاقل والحصون، في عهده شق الإنكشارية عصا الطاعة لما عهد السلطان قيادة الجيش في إحدى المعارك ضد الروس للصدر الأعظم. أنظر:

- نفس المرجع، ص: 111.

مدح فيهما سلطان المغرب، وكذا وزيره عبد الله بن إدريس، وفي ختام القصيدتين ذكر اسمه وكان اسمه (فارس الشدياو) (كذا)⁽⁴¹³⁾.

ولعل رغبة العثمانيين في مد جسر التعاون والتواصل مع المغرب هي التي دفعت الباب العالي سنة (1257هـ / 1841م) إلى إرسال مبعوث تركي اسمه "يوسف المدني"، لإحياء الروابط بين الدولتين، فأكرمه السلطان عبد الرحمان وأرسل معه جواباً،⁽⁴¹⁴⁾ يتضمن تعزية تقدم بها سلطان المغرب إلى الخليفة عبد المجيد، عقب وفاة السلطان محمود خان، وفي الوقت نفسه تهنئة للخليفة الجديد بتولي عرش السلطنة العثمانية⁽⁴¹⁵⁾. وبعد أن بلغ الجواب، عاد يوسف المدني في السنة الموالية -أوت 1842- بجواب عن الرسالة التي حملها من لدن سلطان المغرب، أكد من خلالها الخليفة العثماني ضرورة تعزيز الروابط والتعاون والتضامن بين الدولة العثمانية والمغرب لصد الأطماع الاستعمارية⁽⁴¹⁶⁾. وأما السفير العثماني فقد أنزله سلطان المغرب دار الضيافة وبالح في إكرامه حتى رجع إلى بلده، لكنه ما لبث حتى عاد مرة أخرى إلى المغرب، فوجد نفس الترحاب والضيافة⁽⁴¹⁷⁾.

2 - أثر الأحداث الإقليمية والدولية في العلاقات بين البلدين:

مما لا شك فيه أن عوامل التفكك التي دبت في كيان الدولة العثمانية، مهدت لعوامل أخرى خارجية تضافرت معا وأدت إلى انهيار الدولة العثمانية وتدهورها. فالتوازن القديم بين الدولة العثمانية والدول الأوروبية- والذي كان في صالح الدولة العثمانية في الكثير من المرات- قد تغير لصالح الدول الأوروبية، حتى أصبح ميزان القوى بشكل نهائي للدول الأوروبية، بعد تحولها من دول إقطاعية إلى رأسمالية تجارية ثم صناعية⁽⁴¹⁸⁾.

(413) أكنسوس، ص: 57.

(414) عبد السلام بن عبد القادر بن سودة، إتحاف المطالع بوفيات أعلام القرن الثالث عشر والرابع، 1171-1400هـ/1756-1980م، تحقيق محمد حجي، ج1، ط1، دار الغرب الإسلامي، 1997، ص: 171.

(415) ابن زيدان، الإتحاف، ج5، ص ص: 181-182.

(416) بهيجة سيمو، الإصلاحات العسكرية بالمغرب 1844-1912م، سلسلة رسائل وأطروحات رقم1، اللجنة المغربية للتاريخ العسكري، الرباط، المغرب، 2000، ص: 56.

(417) ابن زيدان، الإتحاف، ج5، ص ص: 181-182.

(418) ياغي، العالم العربي، ص: 91.

وصارت الدول الأوروبية هي من تسن القوانين الدولية، وتفرض العقوبات على الدول المخالفة، سواء أكان ذلك بالمعاهدات والاتفاقيات المجحفة⁽⁴¹⁹⁾، أم كان بالحملات العسكرية الانتقامية والتأديبية، وفي كثير من الأحيان من أجل استعراض القوة وتخويف الخصوم، ومن هذا المنطلق أرغمت عددا من الدول الإسلامية لا سيما في حوض المتوسط والتي كانت تعتبر في نظر الدول الأوروبية دولا مارقة، إلى تغيير سياستها الخارجية، ونمط تجارتها⁽⁴²⁰⁾.

1.2- موقف المغرب من صراع الدولة العثمانية مع روسيا والنمسا:

كان من أشد خصوم الدولة العثمانية في هذه الفترة، روسيا والنمسا، والحقيقة أن هاتين الدولتين هما خصمان تقليديان، بحكم مجاورتهما لأراضي الدولة العثمانية التي ما فتئت تتوسع في مجاليهما من أجل نشر الإسلام منذ القرن (10هـ/16م)، هذا بالإضافة إلى سياسة المصالح والنفوذ المتضاربة بين هذه الدول للسيطرة على البوسفور والدردنيل والبحر الأسود، ثم انتقل الصراع في القرن الثامن عشر إلى المتوسط⁽⁴²¹⁾.

لقد أثر هذا الصراع على دول المتوسط، وانعكس سلبا على الايالات العثمانية، بل كرس القطيعة شبه التامة بينها وبين الباب العالي، وأدى إلى ظهور كيانات مستقلة عن الدولة العثمانية لا تتبعها إلا اسميا في الغالب، وكنا قد أشرنا إلى هذا الوضع في مطلع هذا الفصل.

لكن لعل ما يعنينا من هذا الصراع، هو هل أدرك المغرب الأقصى حقيقة مفادها أن تفكك الدولة العثمانية قد يؤدي إلى تفكك الوحدة الإسلامية، التي ناضلت وكافحت من أجلها الدولة العثمانية لقرون، وأنفقت في سبيلها المال والرجال؟ وهل حان الوقت لمد جسور

(419) وقع العثمانيون منذ معاهدة كارلوفيس سنة 1699م على أكثر من 60 معاهدة كان بعضها يتعلق بتنازلات ترابية، غير أن معاهدة كوجوك كينارجة تعتبر أقسى هذه المعاهدات، وتشكل نقطة تحول جوهري في تاريخ الدولة العثمانية، ويؤكد الدارسون إلى أن النصر الذي أحرزته روسيا سواء على ساحة المعارك أو من خلال هذه المعاهدة لا يعود إلى قوتها العسكرية وإنما بالأساس إلى حالة التردّي التي بلغتها الدولة العثمانية. أنظر:

- بنحادة، العثمانيون المؤسسات والاقتصاد، ص: 59.

(420) ياغي، العالم العربي، ص: 91.

(421) نفس المرجع، ص: 92.

التعاون والتآخي لمواجهة الوضع المتأزم بين الدولتين؟ أم أن الأمر لا يعدو أن يكون فرصة سانحة للتخلص من هذه الدولة التي طالما حاولت التدخل في كل صغيرة وكبيرة من شؤون المغرب؟

إن الحقيقة التي لا ينبغي إغفالها في هذه النقطة هي أن ضعف الدولة العثمانية وتراجع نفوذها في إيالاتها لاسيما في الجزائر، قد شغل إلى حد بعيد حكام الجزائر للاهتمام بأمور الحكم والانكشارية في الداخل، مقارنة بما كان في الماضي، عندما كان شغلهم منصبا في التوسع نحو المغرب، وإلا كيف نفسر رسم الحدود بين البلدين من خلال اتفاقية وادي تافنة في بداية العهد العلوي من جهة، ومن جهة أخرى فإن وضع المغرب الداخلي المتأزم، وتداعياته المختلفة على سياسته الداخلية والخارجية، قد جعلت المخزن في حيرة من أمره، فهل يولي اهتماما لإصلاح وضع الداخل قبل الخارج، أم العكس؟ أم يقوم بالإصلاح وقت واحد على الجبهتين الداخلية والخارجية؟ وهنا لا بد من الإشارة إلى سياسة الإصلاح التي انتهجها السلطان محمد بن عبد الله والتي ضمنها مفاهيم جديدة لم تكن معهودة لدى المخزن لاسيما ما تعلق منها بالتقارب المغربي العثماني وموقف المغرب من الدول الأوروبية المعادية للعثمانيين.

إن ما بين أيدينا من مصادر وكتابات تاريخية تبين بوضوح التقارب المغربي العثماني في جوانب عدة كنا قد سلطنا الضوء على بعض منها في هذا الفصل، وعلى الرغم مما قيل عن كون سياسة المغرب تجاه العثمانيين كان يشوبها الغموض، إلا أننا نسجل بوضوح موقف المغرب من الأحداث الإقليمية والدولية المحيطة بالبلدين.

فقد بذل المغرب جل ما لديه من جهود للحفاظ على وحدة الأمة الإسلامية بدفاعه المستمر عن الدولة العثمانية. ولعل السفارات المغربية إلى النمسا وروسيا كانت من باب التخفيف عن العثمانيين⁽⁴²²⁾: "كان المغرب يجعل نصب عينيه مصالح الإسلام والمسلمين" على حد قول السفير المغربي إلى النمسا "الطاهر الفنيش". ولقد ذهب الطاهر فنيش في الإشارة لاهتمام المغرب بمصالح الأمة الإسلامية إلى أبعد من ذلك، عندما علق على الحلف

(422) التازي، التاريخ الدبلوماسي، مج9، ص: 30.

الروسي، النمساوي⁽⁴²³⁾ قائلا: " لماذا لا نتفق نحن المسلمين في الشرق والغرب، ولماذا لا نضع ثرواتنا وأسطولنا تحت قيادة واحدة"؟!⁽⁴²⁴⁾

ولكنه اهتمم الباب العالي بشؤون المملكة المغربية، نجد أن المغرب بتاريخ 24 رجب 1197هـ الموافق لـ 1783م، يقوم بإرسال سفارة إلى النمسا ترأسها محمد بن عبد المالك، حيث تتبع الباب العالي باهتمام قائمة الهدايا التي قدمها إمبراطور النمسا لسلطان المغرب. وتبعا لذلك أرسل السلطان محمد بن عبد الله سفارة إلى الباب العالي برئاسة الطاهر فنيش، إذ أن سفارة محمد بن عبد المالك إلى النمسا قد شوشت كثيرا على الباب العالي، وأدخلت الريب والشك في نفس السلطان العثماني، وحتى يزيل سلطان المغرب قلق الباب العالي ويطمأن السلطان العثماني أوفد مبعوثه الطاهر فنيش إلى الباب العالي، غير أن الطاهر فنيش لم يستقبل مباشرة بعد وصوله على ما جرت عليه العادة ! فقد كان الأتراك في حاجة إلى تقديم تفسير لهم عن أسباب السفارة المغربية إلى النمسا التي كانت في حرب مع الدولة العثمانية. وهنا جاء جواب الطاهر فنيش للبلاط العثماني: "أن هذا التصرف يدخل ضمن نطاق الأخوة الإسلامية" والدليل على ذلك أن سفير المغرب إلى النمسا محمد بن عبد المالك عاد إلى المغرب ومعه عدد من الأسرى الأتراك الذين افتداهم سلطان المغرب من النمسا. وبهذه المناسبة أكد السفير المغربي أن بلاده على أتم الاستعداد لتقديم المزيد من العون للعثمانيين في حروبهم مع النمسا وروسيا⁽⁴²⁵⁾.

وقد جرى الحديث عن حجم المساعدات التي يمكن أن يقدمها سلطان المغرب للعثمانيين، الذي أكد في مناسبات عدة أنه مستعد للتنازل عن كل ما يملكه في سبيل العثمانيين - حسب الطاهر فنيش⁽⁴²⁶⁾.

(423) حدث هذا الحلف بين كاترينا الثانية ملكة روسيا وجوزيف الثاني ملك النمسا، لضرب مصالح الدولة العثمانية في البلقان. أنظر:

- شحاته، ص ص: 446-447.

(424) التازي، التاريخ الدبلوماسي، مج9، ص: 30.

- يطرح كلام الطاهر فنيش عن الأسطول وثروات وقوة المسلمين الكثير من الاستفهام حول القيادة التي كان يقصدها فهل هي مغربية أم عثمانية ؟

(425) نفس المرجع، ص: 30.

(426) نفس المرجع، ص: 30.

ثم واصل الطاهر فنيش سفره إلى مكة بينما رجع قريبه عبد العزيز فنيش الذي صاحبه في السفارة إلى المغرب حتى يطلع السلطان عن حيثيتها، وكذا عن الاتفاق مع الباب العالي على مساعدة العثمانيين، وهو الأمر الذي حرص السلطان على تنفيذه كاملاً⁽⁴²⁷⁾.

وعليه فقد اتخذ المغرب تدابير مهمة ضد التجارة النمساوية والروسية بمضيق جبل طارق لدعم العثمانيين، وعلى الصعيد السياسي والدبلوماسي رفض السلطان محمد بن عبد الله أن يقابل سفراء الإمبراطورة الروسية كاترينا الثانية،⁽⁴²⁸⁾ ورفض قبول هداياها لتماديها في العدوان على الدولة العثمانية⁽⁴²⁹⁾. وهدد سلطان المغرب النمسا بقطع علاقاته الدبلوماسية والتجارية بها على الرغم من كثرة المعاملات التجارية بينهما في أيام السلطان محمد بن عبد الله. وهو الأمر الذي دفع إمبراطور النمسا جوزيف الثاني⁽⁴³⁰⁾ إلى إعادة النظر في هذه العلاقات وسارع إلى إبرام معاهدة صلح وتجارة مع السلطان المغربي، وكان يقصد من ورائها أن يعامل السلطان محمد بن عبد الله النمسا المغرب بالمساواة التامة كباقي الدول الأوروبية الأخرى، وقد ساعده في ذلك سلطان المغرب⁽⁴³¹⁾.

وكيفما كان الأمر فقد جددت معاهدة الصلح والتجارة بين البلدين بتاريخ 10 رجب 1198 هـ الموافق 30 ماي 1784م، ووقع عليها بفينا عاصمة النمسا نيابة عن سلطان المغرب سفيره القائد محمد بن عبد المالك، وبالنيابة عن إمبراطور النمسا، البارون ينيش

(427) نفس المرجع، ص: 30.

(428) كاترين الثانية (1796/1729)، إمبراطورة روسيا الثانية عشر، كانت شديدة العداءة للدولة العثمانية، وهي ليست من العائلة الملكية الروسية، بل كانت زوجة لبترو حفيد بطرس الكبير فتحايلت على خلع زوجها بدعوى أنه لم يتبع وصية جده بطرس الكبير في معاداة الدولة العثمانية، وتسببت في قتل زوجها حتى تنفرد بالحكم. أنظر:

- ابراهيم بك حليم، تاريخ الدولة العثمانية العلية، ط1، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، 1988م، ص: 177-178. وكذلك:

- المحامي، ص: 329-330.

(429) داهش، ص: 91-92.

(430) جوزيف الثاني إمبراطور من 1765 إلى 1790، ابن مارية تريزة من زوجها الدوق دي لورين (فرانسوا الأول) وهو أخو الملكة ماري أنطوانيت زوجة لويس السادس عشر ملك فرنسا، التي قتلت في أحداث الثورة الفرنسية. ولد جوزيف الثاني سنة 1741م، ولم يصير ملكاً حقيقياً إلا بعد وفاة والده سنة 1780م، ألغى استعباد الفلاحين وأبطل التعذيب، وأجاز الطلاق ومنح الحرية الدينية لجميع رعاياه بالرغم من معارضة الكنيسة. أنظر:

- المحامي، ص: 363.

(431) محمد الفاسي، "الوزير ابن عثمان المكناسي"، مجلة المغرب الجديد، السنة الأولى، العدد 11، السنة الثانية، 1355هـ، ص:

(Baron Von Jenish). كما جددت هذه المعاهدة للمرة الثانية في أيام السلطان المولى سليمان في 10 فيفري 1805م⁽⁴³²⁾.

وفي إطار التعاون مع الباب العالي عقد المغرب اتفاقية صلح مع إسبانيا، كما طالب فيها الجزائر أن تنضم إلى الاتفاقية التي تقتضي سريان الصلح على سائر الولايات العثمانية- طرابلس، تونس، الجزائر، لكن الجزائر تمردت على تعليمات اسطنبول...⁽⁴³³⁾.

وقبل وفاة السلطان محمد بأيام قليلة، أرسل إلى إسبانيا يطلب منها دفع ما عليها من ديون، فقد كان للمغرب عند إسبانيا ثمن وسق الزرع ما حمولته خمسين مركبا، ولما قبض منهم السلطان المال ومقداره ثمانمائة ألف ريال، أرسل منها مائة ألف ريال إلى إسطنبول، وأشار على السلطان عبد الحميد أن يوجهها للحرمين الشريفين مع أمين الصرة⁽⁴³⁴⁾.

وفي جمادي الأولى 1201هـ الموافق لـ مارس 1787م كتب السلطان عبد الحميد الأول للسلطان محمد بن عبد الله يخبره بالاجتماع الذي جرى بين الملكة الروسية كاترينا الثانية وملك بولونيا وكذا إمبراطور النمسا، في وقت كانت الدولة العثمانية تتأهب للحرب ضد روسيا⁽⁴³⁵⁾.

وفي نفس السنة قدم إلى المغرب كاتب الديوان السلطاني العثماني عزمي أفندي في جملة من أعيان الدولة العثمانية، مصحوبا بهدايا فاخرة فيها بعض المخطوطات المتعلقة بالحديث النبوي الشريف. وعلى إثر عودته إلى إسطنبول رفع عزمي أفندي تقريره إلى السلطان عبد الحميد الأول بتاريخ 09 رجب 1202هـ/ 1787م. ومما جاء في التقرير أن سلطان المغرب سيقوم بواجبه تجاه عبور السفن الروسية بجبل طارق⁽⁴³⁶⁾.

وبالرغم من أن العلاقة بين المغرب والنمسا وروسيا كانت تسير سيرا طبيعيا من خلال تبادل الرسائل والهدايا، بعد أن انتهج السلطان سياسة الانفتاح على أوروبا، إلا أن ما طرأ على الصعيد الدولي من نشوب الحرب بين الدولة العثمانية والنمسا وروسيا سنة

⁽⁴³²⁾ نفس المرجع، العدد 11، ص: 14.

⁽⁴³³⁾ التازي، التاريخ الدبلوماسي، مج9، ص: 33.

⁽⁴³⁴⁾ الزباني، الترجمانة الكبرى، ص: 133.

⁽⁴³⁵⁾ التازي، التاريخ الدبلوماسي، ج1 مج9، ص: 39.

⁽⁴³⁶⁾ عبد الهادي التازي، "السياسة الخارجية للمملكة المغربية إزاء العثمانيين"، المجلة التاريخية المغربية، السنة 14، العدد: 47-

48، تونس، ديسمبر 1987، ص ص: 77-78.

(1203هـ/1788م)، دفع سلطان المغرب للوقوف إلى جانب العثمانيين وأصدر بيانا لكافة القناصل الأوروبية المقيمة بمملكته، ومن جملة ما جاء فيه: "... كل ما هو صلح مع السلطان العثماني، فهو صلح معنا، وكل ما هو كيرا⁽⁴³⁷⁾ (كذا) فهو كيرا معنا"⁽⁴³⁸⁾.

ومع حلول سنة (1203هـ/1789م) أرسل السلطان المغربي القائد محمد الزوين إلى إسطنبول مصحوبا بطائفة من الأسرى كان السلطان قد افتداهم من نابولي، بالإضافة إلى قوة بحرية من أربعة سفن مجمل بحارتها أربعمائة رجل متخصص في البحرية والحربية⁽⁴³⁹⁾.

أما الطاهر فنيش فقد قام مرة أخرى بجولة إلى إسطنبول صحبة عزمي أفندي محملا بقناطير من النحاس والبارود. والمراكب الحربية والكثير من الأموال، بالإضافة إلى نسخة من كتاب الفتوحات الإلهية⁽⁴⁴⁰⁾ للسلطان محمد بن عبد الله⁽⁴⁴¹⁾.

وبخصوص الحملة الفرنسية على مصر، فقد كانت للمغرب مواقف مختلفة سواء على الصعيد الرسمي أم الجماهيري، ذلك ما سنبينه بوضوح في فصل علاقات المغرب مع الإيالة المصرية.

ففي أثناء الحملة الفرنسية على مصر انظم عدد من المقاتلين المغاربة إلى إخوانهم في مصر ناهيك عن المساعدات التي قدمها المغرب لإسبانيا وبريطانيا في سبيل الوقوف في وجه الحملة الفرنسية على مصر⁽⁴⁴²⁾.

(437) لفظ إفرنجي معناه الحرب وفي الاصطلاح الحديث تعني غرامة الحرب.

(438) التازي، المجلة التاريخية المغربية، ص: 77-78.

(439) التازي، التاريخ الدبلوماسي، مج9، ص: 40.

(440) كتاب الفتوحات الإلهية في أحاديث خير البرية" ويعرف كذلك بكتاب الفتوحات الكبرى، وهو كتاب مرتب على أبواب الفقه والحديث، جمع فيه السلطان ما اتفق على رواية الأئمة الستة في الفقه والحديث: أبو حنيفة، الشافعي، ابن حنبل، والبخاري، مسلم ومالك، وفي شأن هذا الكتاب قال السلطان: "بعثني صدق النية وفرط محبتي للسنة النبوية على جمع عيون من كلام خير البرية، فسلكت مسلكا لم أسبق إليه ونسجت على هذا المنوال لم نر من نسج عليه، وسميته الفتوحات الكبرى، فجاء بحمد الله كتابا بديع التصنيف، حسن الترتيب والترصيف". وقد انتهى من كتابة هذا المصنف بضريحي سبطي رسول الله صلى الله عليه وسلم مولانا الحسن والحسين بالقاهرة في أول ذي الحجة 1200هـ، على يد خادم السلطان محمد بن عبد الله الشريف عمر بن الحاج محمد الهلالي بأمر من السلطان نفسه. أنظر:

- الخزانة الملكية، منتخبات من نواذر المخطوطات، القصر الملكي، الرباط، 1978، ص: 81 - 82. وكذلك: - ابن زيدان، إتحاف أعلام الناس، ج3، ص: 361.

(441) التازي، التاريخ الدبلوماسي، مج9، ص: 40.

(442) الجبرتي عبد الرحمن، عجائب الآثار في التراجم والأخبار، ج2، تحقيق عبد الرحمن عبد الرحيم، دار الكتب والوثائق القومية، مصر، 1998، ص: 93-252.

كما تفاعل المغاربة بشكل ملفت مع ما حدث لإخوانهم المسلمين في مصر جراء هول هذه الحملة، وفي المغرب فاضت مشاعر الأدباء المغاربة بمختلف التعابير وأسهم بعضهم بالشعر الشعبي، فعبروا عن انشغالهم العميق لما حدث في مصر من ذلك هذه الأبيات التي نظمها أبو الربيع سليمان الحوات: (443)

فيا معشر المسلمين مدوا بقوة إلى الله بالشكوى عسى يحل الوعر
ولا تغفلوا بل استعدوا بقوة وهل أخذت إلا بغفلتها مصر (444)

استمرت الاتصالات بين الباب العالي والمغرب بعد وفاة السلطان محمد، حيث نجد المولى سليمان يبعث برسالة تهنئة للسلطان مصطفى الرابع (445) بمناسبة تقلده الحكم. أما جواب الأخير لسلطان المغرب كان الاستتجاد وطلب المساعدة لتجدد الحرب بين الدولة العثمانية وروسيا بتاريخ (1222هـ/1807م) من خلال منع السفن الروسية من دخول جبل طارق، ولقد لبي السلطان مطالب إسطنبول، مع العلم أن المغرب في هذه الفترة كان أسطوله الحربي قد تعطل بسبب ضغط الدول الأوروبية. (446) وكذا بسبب سياسة الانغلاق التي طبقها المولى سليمان.

(443) سليمان بن محمد بن عبد الله الحوات الحسني العلمي الشفشاوني. ولد في مدينة شفشاون (شمالي المغرب)، وتوفي في مدينة فاس عام (1232هـ/1816). نشأ في بيت علم، أخذ مبادئ العلوم الشرعية بمدينة عن الفقيه الجباري الشفشاوني، ثم عن أبي عبد الله الساحلي، ثم لازم أبا العباس أحمد الخضر عشر سنوات درس خلالها العلوم اللغوية والشرعية وعلم الكلام والفلك والتصوف. اختلى في غرفة بأحد مساجد شفشاون متفرغاً للدرس والتأليف ومعمقاً معارفه بالقراءة عن ابن قاسم وابن عبد الملك وابن تاصبنت. طمح إلى الدراسة بفاس فرحل إليها، وأخذ عن كبار علمائها في عصره. كان ميسور الحال فتفرغ لطلب العلم وملازمة الفقهاء والأدباء والصوفية، وممارسة التأليف، وجلس للتدريس والإفتاء دون أجر. عينه السلطان سليمان نقيباً للأشراف العلميين، فأحسن السيرة. انتسب إلى الطريقة الناصرية (الصوفية)، أخذها عن شيخه الطاودي ابن سودة، شيخ الطريقة بفاس. بعد توليه نقابة الأشراف العلميين لقب بـ: «صدر الشرفاء وشريف الأدباء». أنظر:

- سليمان الحوات، ثمرة أنسي في التعريف بنفسه 1160-1231هـ/1747-1816م، تحقيق عبد الحق الحيمر، دط، مركز الدراسات والبحوث الأندلسية، شفشاون، المغرب، 1996، ص ص: 1-20.

(444) التازي، التاريخ الدبلوماسي، مج9، ص: 44.

(445) ولد عام (1193هـ/1779م) وجلس على كرسي الخلافة عام (1222هـ/1807م)، وجه جهده إلى تنظيم الجندية وتأديب الإنكشارية، غير أن الفتن في عهده عادت للظهور من جديد، وقد تزعم الباشا مصطفى البيروقدار حاكم روسنق المعارضة وإقناع بعض رجال الدولة في خلع السلطان مصطفى وإرجاع السلطان سليم الثالث إلى كرسي الخلافة، خلع من على العرش وسجن ثلاثة أشهر إلى أن قتل مسجوناً. أنظر:

- آصاف، ص: 116.

(446) مؤنس، ج2، ص: 313.

وعلى إثر تأزم العلاقة بين المغرب والنمسا، قام الباب العالي وبإيعاز من داي الجزائر بإصدار فرمانه لكافة إيالاته في شمال إفريقيا بعدم مساعدة المغرب، كان ذلك بتاريخ 15 ربيع الأول 1245هـ الموافق لـ 14 سبتمبر 1829م، بحجة أن النمسا في حالة سلم مع إسطنبول. فلم يكن هذا الموقف -حسب النازي- في مستوى تلك المواقف الجريئة من ملوك المغرب تجاه العثمانيين في أزماتهم المختلفة مع روسيا والنمسا وفرنسا⁽⁴⁴⁷⁾. ومع احتلال الجزائر سنة (1830/1246م) عبر السلطان المغربي عن مشاعر الحزن والأسى تجاه ذلك⁽⁴⁴⁸⁾.

(447) النازي، التاريخ الدبلوماسي، مج9، ص:47.

(448) نفس المرجع، ص:47.

II - على صعيد التعاون الثنائي في المجال العسكري والثقافي:

1- التعاون العسكري:

لا ينفصل التعاون المغربي العثماني في المجال العسكري عن التعاون الذي كان قائما بين الدولتين في سبيل مواجهة التحالفات الأوربية.

غير أن هذا التعاون الذي كانت السفارات أحد أهم أعمدته يبين بوضوح أن من بين أهم أسباب التقارب المغربي العثماني هي رغبة المغرب في أن يمتلك أسطولاً قويا ذي طابع عسكري ثم تجاري، وهذا ما لم تكن تسمح به الدول الأوربية لاسيما فرنسا وإنجلترا⁽⁴⁴⁹⁾. كما أن حاجة المغرب في امتلاك أسلحة ثقيلة قوية من أوروبا ومن الدولة العثمانية لاستعمالها في تحرير الثغور المغربية المحتلة كان من بين الدوافع الأساسية التي جعلت المغرب يتقرب من العثمانيين⁽⁴⁵⁰⁾.

لقد أفرزت الظروف الدولية وقتها نمطا جديدا من الجيوش ألا وهي الجيوش النظامية الحديثة⁽⁴⁵¹⁾ التي واكبت تطور الثورة الصناعية وكذا التجارة البحرية فألغت تقريبا تجارة

⁽⁴⁴⁹⁾ يذهب المؤرخ الإسباني رامون لوريديو دياز إلى أن السلطان محمد بن عبد الله حاول خلق أسطول بحري وطني قادر على رفع التحديات والمشاركة في النشاط الاقتصادي العالمي ولم تكن لهذا السلطان أية نية في الجهاد أو إعلان الحرب على المسيحيين، عكس ما ذهبت إليه كتابات بعض الإخباريين مثل الزياني والضعيف. ولعله من البديهي أن الاستيلاء على السفن الأجنبية وأسر بحارتها كان يثير ردود فعل قوية أحيانا، كما هو الشأن في ضرب الأسطول الفرنسي للعرائش عام (1179هـ-1765م)، وفي الغالب كانت المفاوضات خيرة وسيلة للوصول إلى حل مرض للأطراف. ومن أجل تجاوز المشاكل الداخلية التي كانت وراء أزمة العبيد، وجد السلطان محمد بن عبد الله نفسه في تناقض، إذ كيف يمكن الجمع بين إرادة التفتح على الخارج مع أوروبا، والتعامل معها اقتصاديا وسياسيا وفي نفس الوقت اتخاذ الجهاد البحري والذي سماه الأوربيون بالقرصنة، أداة يستعملها للضغط على الدول الأوربية؟ ولتجاوز هذا التناقض، عمل السلطان محمد بن عبد الله على تقنين القرصنة واستبدالها بأسطول تجاري، وتوظيفه لإدخال المغرب وإشراكه في التجارة العالمية. كان السلطان يريد من جهة توجيه التجارة المغربية إلى الشواطئ ومن جهة أخرى الانتقال بالبحرية المغربية من حالة القرصنة إلى وضع يشد أوروبا في نطاق تعاقدية، يعطيه مجالا ووقتا لإنشاء أسطول حربي على النمط الغربي. أنظر:

- موسى شرف، الإصلاحات في المغرب الأقصى في عهد السلطان محمد بن عبد الله، (1757-1790)، مذكرة لنيل الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة الجزائر (2)، جويلية 2010، ص ص: 46-49.

⁽⁴⁵⁰⁾ دياز رامون لوريديو، المغرب وأحلام الزعامة على الغرب الإسلامي، ترجمة مولاي أحمد الكمون، بديعة الخرازي، ط1، منشورات الزمن، النجاء الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، 2013، ص ص: 41-42.

⁽⁴⁵¹⁾ كان من مقتضيات الطموحات السياسية والعسكرية للسلطان إسماعيل خلال فترة حكمه هو إنشاء جيش كبير ساهم بقوة في بسط نفوذه على المغرب وعلى أجزاء نائية خارج ترابه، وقد بلغ تعداد هذا الجيش حوالي 150 ألف جندي، 80 ألفا منه في القلاع والقصبات و25 ألفا متمركزون بمكناس وضواحيها، أما الباقي ففي المحلات. وقد خمدت هذه =

القوافل التي كانت العصب المحرك للاقتصاد المغربي، وقد كانت الدولة العثمانية السبابة لمواكبة هذا التطور الحاصل في أوروبا محاولة منها بث روح جديدة في نظام الدولة ككل، ومن هذا الباب وجد المغرب الفرصة سانحة للتقرب من الدولة العثمانية.

1.1- الخبرات والمساعدات العسكرية:

لقد دشّن المغرب علاقته مع الدولة العثمانية في هذا المجال في عهد السلطان محمد بن عبد الله المعاصر للسلطان مصطفى الثالث⁽⁴⁵²⁾. وكانت بداية العلاقة بإرسال المغرب سفارة إلى إسطنبول سنة (1175هـ/1744م) برئاسة مفتي الديار المغربية الحاج الطاهر بناني الرباطي، وأمير ركب الحج الحاج عبد الله الخياط الفاسي، والملقب بعديل، حيث نقلت السفارة المغربية إلى إسطنبول مشاعر الأخوة الصادقة التي يكنها سلطان المغرب وشعبه إلى الباب العالي، وقدم له رسالة تهنئة ملكية وعدد من الهدايا القيمة التي استحسناها السلطان مصطفى، فبادر هو الآخر إلى إرسال بعثة من إسطنبول إلى المغرب، محملة بعدد من المدافع وأسلحة وأدوات حربية وكذا مراكب حربية⁽⁴⁵³⁾.

يظهر أن سلطان المغرب أعاد اختيار الفقيه الطاهر البناني لسفارة أخرى إلى إسطنبول، سنة (1179هـ/1765م) بعد نجاحه في السفارة الأولى وقد رافقه في هذه السفارة الأديب الطاهر بن علي بن عبد السلام السلوي من مدينة سلا،⁽⁴⁵⁴⁾ حيث توجهها بهدية من الجياد

=الطموحات العسكرية والسياسية بعده لفترة طويلة جراء الأزمة التي تسبب فيها هذا الجيش نفسه، والتي عرفت باسم أزمة جيش العبيد، مما جعل السلطان محمد بن عبد الله من بعده يستغني عن خدمات غالبية عظمى من هذا الجيش، بعد أن بات جيش العبيد مصدرا للأخطار والويلات، رغم أن السلطان استعان ببعض عناصره في بسط سلطانه على العديد من الأقاليم والقبائل. إلا أنه في نهاية المطاف تخلص السلطان من الكثير منهم، لاسيما أولئك الذين اقترن عملهم بالتهب. أنظر: - نفس الرجوع، ص: 43.

⁽⁴⁵²⁾ مصطفى الثالث حكم ما بين (1757م-1773م)، تولى الحكم وعمره 42 سنة، كان على دراية واسعة بإدارة الدولة، عاصر محمد الثالث، اشتهر بحبه لعلم الفلك، في عهده عرفت الدولة العثمانية إصلاحات تحديثية، وسفارات إلى أوروبا وضع في عهده مشروع فتح خليج لإيصال نهر دجلة بالآستانة. أنظر:

- الصلابي، ص: 411-413. (م.ك. ش، إ. ث)

⁽⁴⁵³⁾ التازي، التاريخ الدبلوماسي، مج9، ص: 25.

⁽⁴⁵⁴⁾ تقع سلا على الضفة اليمنى لنهر أبي رقراق مقابلة للرباط، يرجع تاريخ بنائها إلى عصر بني يفرن، اتسع عمرانها في عهد الموحدين، وبعد سقوط الأندلس هاجرت إليها جالية كبيرة من الأندلسيين، كما نشطت بها حركة الجهاد البحري في العصر السعدي وأوائل العصر العلوي، وهي أول مدينة تتعرض لهجوم أوربي إسباني سنة (658هـ/1259م). أنظر:

- ابن العربي، ص: 230.

والسيوف الذهبية والملابس الحريرية المغربية الصنع من فاس، فابتهج السلطان العثماني وكافئ السفارة بهدية تمثلت في مركب حربي مجهز بمختلف لوازم البحرية والحربية⁽⁴⁵⁵⁾.

كما وجه سلطان المغرب القائد علال الدراوي والقائد قدور البرنوصي والكاتب السيد محمد الحافي لافتداء الأسرى الأتراك من جزيرة مالطة، ولما فشلوا في مهمتهم، توجهوا إلى إسطنبول بأمر من سلطان المغرب، أين كلفهم بتقديم فدية الأسرى الأتراك للسلطان العثماني عبد الحميد الأول والمقدرة بـ 274 ألف ريال، مع رسالة له تضمنت حال حكام الجزائر الأتراك في تعاملهم مع سلطان المغرب وما هم عليه من جور وحيف تجاه المسلمين في الجزائر، إذ كثيرا ما كان بعضهم يستجير بسلطان المغرب، خوفا من بطشهم، فكان سلطان المغرب لا يتردد في مكاتبة حكام الجزائر في شأن هؤلاء الضعفاء، غير أنهم كانوا لا يقيمون له وزنا ولا احتراما، حتى أنهم كانوا يقابلون رسل السلطان بالعقوبة الفادحة، فلما يأس منهم، كاتب السلطان عبد الحميد الأول في أمرهم⁽⁴⁵⁶⁾.

وفي 8 ربيع الأول عام 1180هـ الموافق لـ 13 أوت 1766م قام عبد الكريم رغووان سفير المغرب بوفادة إلى إسطنبول حاملا رسالة إلى الصدر الأعظم محمد أفندي، وقد عبر للسلطان محمد بن عبد الله عند عودته عن شكر وعرفان السلطان العثماني لصدق المحبة والإخلاص الذي يوليه المغرب للدولة العثمانية، لاسيما أن الرسالة كانت عبارة عن تعزية بعد الهزيمة التي أصابت الأسطول العثماني في مواجهة الروس، كما أن السلطان العثماني عبر عن سروره العميق إثر تصدي المغرب لطائفة دوبروونيك⁽⁴⁵⁷⁾.

(455) ابن زيدان، الإتحاف، ج3، ص: 350.

(456) نفس المرجع، ص: 352.

(457) جمهورية دوبروونيك هي جزء من البوسنة والهرسك وكانت آنذاك محمية للباب العالي وتوجد في دار بها المخطوطات والوثائق التي يرجع تاريخها إلى أواخر القرن الثاني عشر وبداية الثالث عشر بها (27) وثيقة تدور مواضيعها حول العلائق التجارية مع المغرب منها عشرة مراسيم وأوامر سلطانية مع رسالة من حاكمها إلى المولى يزيد، نشرت هذه الوثائق عام 1960 بيوغوسلافيا بإشراف المعهد الشرقي (سيراو) وباسم الوثائق العربية. أنظر:

- عبد العزيز بنعبد الله، "الرحالة العرب والمسلمون من المغرب وإليه"، الرحلات السفارية، ندوة الرباط الأولى، وحدة العلم وال عمران بالمغرب، الرابطة المحمدية للعلماء، 2003. وكذلك: - التازي، التاريخ الدبلوماسي، مج9، ص: 26.

غير أنه لا يمكن إخفاء مشاعر الحسرة والأسى التي كان السلطان محمد بن عبد الله يشعر بها، فقد شكلت هزيمة الأتراك أمام روسيا عائقا أمام تقدم مخططات التعاون والمساعدة العسكرية التي كان السلطان ينتظرها من الباب العالي من أجل تحرير الثغور المحتلة⁽⁴⁵⁸⁾.

وينقل لنا الناصري في الاستقصاء أخبار هذه الوفادة مع اختلاف في تاريخ خروجها من المغرب. فقد كانت بتاريخ (1184هـ/1770م)، وعند رجوعها من اسطنبول عادت محملة بالهدايا، وقد أنهت مهمتها على أحسن وجه ومن جملة الهدايا التي حملها الوفد إلى المغرب: مركب مجهز بالمدافع والمهاريس النحاسية، وإقامة المراكب القرصانية من صوار ومخاطيف وقلوع وغير ذلك من آلات البحر، وفيها ثلاثون من مهرة المعلمين الذين لهم معرفة بالبحر والشؤون الحربية وصناعة السفن⁽⁴⁵⁹⁾.

كان السلطان محمد بن عبد الله حريصا على إنشاء مصانع للسلاح وورشات لإصلاح السفن، لذلك اعتمد على الأتراك في تأهيل القوة الحربية للمغرب⁽⁴⁶⁰⁾.

نزلت البعثة التركية بالعرائش، وكان أبو القاسم الزياني وقتها واليا عليها، فوصله أمر سلطان المغرب بتوجيه البعثة التركية إلى فاس، إلى أن يقابلهم السلطان محمد بن عبد الله، فلما قابلهم دخل معهم في مفاوضات من أجل إقناعهم بالموث في المغرب، حتى يشتغلوا على تطوير دار صناعة السفن التي كانت بسلا، والتي أنشأها فيما مضى الموحدون ومن بعدهم بنو مرين من أجل صناعة السفن الجهادية. وكان شرطهم أن طلبوا من السلطان أن يصنع لهم دار سفن وفق مخطط كانوا هم من وضعه، لكن السلطان رأى في ذلك مضيعة للوقت، لأن حسبه أن دار السفن التي طالبت بها البعثة لا تتم إلا في عشر سنوات أو أكثر، وأنها تتطلب من المال ما يفوق ما عنده، فلذلك أعرض عن الأمر، ثم قام السلطان بتوزيع رجال هذه البعثة حسب اختصاصاتهم، في ربوع المغرب، فأصحاب القنابل وجههم إلى تطوان وأصحاب صناعة السفن بعث بهم إلى سلا، ومعلمي الرماية إلى الرباط، أما أصحاب

⁽⁴⁵⁸⁾ دياز، ص: 39.

⁽⁴⁵⁹⁾ الناصري، ج 3، ص ص: 261-262.

⁽⁴⁶⁰⁾ حسن محمد الحجوي، العقل والنقل في الفكر الإصلاحية المغربي (1757 / 1912)، ط1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، د.ت.طن ص: 38.

المدافع والمهارس فبعث بهم إلى فاس⁽⁴⁶¹⁾. وكان للبعثة الفضل في تأسيس مصانع لتزويد النحاس وصناعة القنابل ومصانع أخرى للأسلحة، كالبنادق والأسلحة البيضاء مثل الخناجر والرماح⁽⁴⁶²⁾، ولقد استفاد منهم المغاربة كثيرا مما لم تكن عندهم من هذه الصنائع⁽⁴⁶³⁾. وقد تخرج على يديهم نخبة كبيرة من أبناء المغرب في مختلف التخصصات المذكورة، توارثوها فيما بعد إلى أن اندثرت ولم يبق منها إلا الاسم⁽⁴⁶⁴⁾.

حرص المغرب على إبقاء التعاون قائما مع الباب العالي، فأرسل السلطان محمد بن عبد الله إلى الدولة العثمانية مع سفيريه القائد مبارك بن هنامد والأمين الحاج عبد الله الشيرابي ستمائة ألف ريال، ومع القائد الطاهر فنيش أربعة آلاف برميل من البارود في كل واحد منها قنطار، بالإضافة إلى أربعة مراكب قرصانية أخرى، إن دل على شيء فإنما يدل على قوة الأسطول البحري المغربي وامتلاكه للترسانة البحرية⁽⁴⁶⁵⁾.

وعلى إثر هذه الزيارة تم اعتماد السفيرين المذكورين لدى إسطنبول بصورة رسمية، ويؤكد الزياني في الترجمانة هذا الكلام عندما ذكر أن إسطنبول اعتمدت لديها سفيرين مغربيين هما مبارك بن هنامد والحاج عبد الله الشيربي في عهد السلطان عبد الحميد أي حوالي (1190هـ / 1777م)⁽⁴⁶⁶⁾.

تواصلت المساعدات الحربية بين البلدين، فأهدى المغرب للباب العالي ثلاث سفن جهادية بإقامتها واثنى عشرة ألف قنطار من البارود الأوربي وأربعة آلاف قنطار من ملح البارود المغربي الصنع، وعشرون مدفعا من المدافع النحاسية الكبيرة، واثنى عشرة ألف قنطار من النحاس، بالإضافة إلى ثلاثمائة ألف دينار وخمسة عشرة وصيفة من قصر

(461) الناصري، ج3، ص ص: 261-262.

(462) عبد العزيز بن عبد الله، الجيش المغربي عبر العصور، سلسلة قسم الدراسات الدبلوماسية والقنصلية، وزارة العدل، الرباط، 1986، ص ص: 80-83.

(463) الحجوي، ص: 38.

(464) الناصري، ج3، ص ص: 261-262.

(465) التازي، التاريخ الدبلوماسي، مج9، ص: 28.

(466) الزياني، لترجمانة ص: 132.

الملك كلهن ماهرات في الطبخ، ومصحفا كريما محلى بالذهب، مرصعا بالألماس يساوي مائة ألف دينار، والكثير من الهدايا الثمينة⁽⁴⁶⁷⁾.

ويذكر المؤرخون أن المغرب كان على أهبة الاستعداد لإرسال عدد كبير من القوات الحربية إلى إسطنبول في سبيل الوقوف إلى جانب الأتراك في مواجهة الزحف الروسي النمساوي على الأراضي العثمانية، وعليه فإن جملة استعدادات المغرب الحربية وقتئذ بلغت ستين ألف شخص مجند، وكانت المراكب الحربية المعدة للسفر إلى إسطنبول راسية لا تنتظر إلا الإشارة⁽⁴⁶⁸⁾. غير أن بعضا من المؤرخين من أمثال الإسباني رامون لوريدو دياز شككوا في صحة الأخبار التي مفادها أن العاهل المغربي محمد بن عبد الله جهز أربعين ألف رجل لإسطنبول⁽⁴⁶⁹⁾. والغاية من هذه الأخبار -حسب لوريدو دياز- هي رغبة السلطان العلوي في إثبات حضوره المعنوي لدى الخليفة العثماني بهدف دعمه ورفع الروح القتالية لجنوده، ومن غير المعقول أن يمتلك العاهل المغربي كل هذه الترسانة الحربية، وفي المقابل يكون عاجزا عن توفير مركبين لنقل موكب من الشخصيات المغربية إلى إسطنبول لإثبات حضوره المعنوي على الأقل لدى الخليفة العثماني، لأنه بالمقابل لجأ إلى فرنسا وطلب من ملكها أكثر من مرة سفينة أو اثنتين لنقل بعثاته الدبلوماسية إلى الباب العالي، وأما فرنسا كانت في كل مرة تتعذر باستحالة مرور السفن الفرنسية في شرق المتوسط، وذلك بسبب الحرب العثمانية-الروسية⁽⁴⁷⁰⁾.

ومهما يكن من الأمر فإن القوة الحربية للمغرب وقتئذ كان لها القدرة على المشاركة في الأعمال العسكرية إلى جانب العثمانيين، لاسيما وأن الأرقام التي ذكرها عدد من المؤرخين ممن عاصر السلطان محمد بن عبد الله تؤكد ذلك⁽⁴⁷¹⁾.

⁽⁴⁶⁷⁾ ابن زيدان، الإتحاف، ج3، ص ص: 358-359.

⁽⁴⁶⁸⁾ الفاسي، مجلة المغرب الجديد، العدد13، ص:47.

⁽⁴⁶⁹⁾ التازي، التاريخ الدبلوماسي، مج9، ص:40.

⁽⁴⁷⁰⁾ دياز، ص ص: 41-42.

⁽⁴⁷¹⁾ يقول الضعيف في وصفه للقوة البحرية للمغرب في عهد السلطان محمد بن عبد الله: "وتكاثرت سفنه من أهل سلا والرباط... وأقبلت عليه الأيام. ولقد وقف له السعد في البر والبحر... ففي هذه السنة أمر بإنشاء سفينة كبيرة من طابقين وأنفق فيها مالا كثيرا". وأضاف قائلا: "... وأعظم من هذا كله ما فيه الوجهة للجهاد وجمع آلاته وجميع ما يحتاج إليه من عدة وعدد وقد جمع من ذلك ما لم يتفق لأحد ممن تقدمه، وسخر الله له السفن من أهل سلا والرباط وغيرهما. ويؤكد الزياني ما جاء في قول الضعيف بقوله: "وفي ميدان البحر بعد ما أنشأ أهل سلا والرباط سفينتهم الكبرى ذات طابقين =

ومع هذا كله لم يتخل السلطان عن واجبه في الوقوف إلى جانب الباب العالي ومساعدته على الأقل معنويا، فقد استمر في استقصاء الأخبار الصحيحة عن الحرب من بلاط باريس، ثم تحول نحو إسبانيا عن طريق سفرائه هناك. وبالرغم من صعوبة الظروف الدولية وقتها، فقد تمكن من إيصال بعض الأغراض الثمينة إلى باي تونس علي باشا ليرسلها بدوره إلى الخليفة العثماني. غير أن الخليفة العثماني لم يرد على هذه المبادرة اللطيفة، الأمر الذي تضايق له العاهل المغربي كثيرا، فصاح قائلاً: "أنا ملك مملكة كبيرة، وسليل مباشر للرسول، ويحق لي الحصول على جواب، إن لم يكن لمكانة مملكتنا، فعلى الأقل احتراماً لنسبنا." ويبدو أن الباب العالي انتبه لهذا الخطأ، إذ بعد سنوات من ذلك اعتذر لسلطان المغرب عن هذا السلوك غير اللائق (472).

وفي إطار التضامن مع الباب العالي دائماً أرسل السلطان محمد بن عبد الله إلى أحد قواده (الحاج المكي) أمراً يطلب فيه منه أن يتهيأ ليذهب بعدد من السفن هدية للسلطان عبد الحميد الأول، وأن يقف على السفن بالعرائش، هذا وقدم ملك المغرب للسلطان العثماني نحو أربعة آلاف قنطار من البارود (473).

ثم إن السلطان سيدي محمد بن عبد الله اتخذ تدابير مهمة ضد التجارة الروسية والنمساوية بالبلاد المغربية، ورفض أن يقابل سفراء كاترينا الثانية إمبراطورة روسيا مع الهدايا التي كانوا يحملونها له، ولكن الأتراك انتصروا انتصاراً بحرياً كبيراً على الأسطول الروسي سنة (1203هـ/1788م)، فلم يبعث السلطان المغربي الثلاثمائة ألف ريال التي كان قد أعلن

=سنة (1174هـ/1761م) والمسماة (بالمعونة) التي أنفق فيها أربعين قنطاراً من الذهب، نظم السلطان القطع الحربية كما يلي: بواخر كبيرة عددها عشرون (20)، جندها (1430)، مدافعها (232)، بواخر مساعدة عددها (30)، ويقدر رؤساء البواخر (60) رئيساً أما احتياطي الجند من البحرية فـ (400) من الفلايين (يقصد إقليم تافيلالت) و(600) من آيت عطا ما مجموعه (2490). وكانت أقوى حاميات البحرية فرقة سلا والرباط، التي قامت بعمليات كبيرة في بناء السفن وترميمها، كما كادت تستأثران في هذه الحقبة بعمليات الجهاد البحري، التي كان السلطان يشجعها ويكافئ المجاهدين عليها، كلما غنموا أو أسروا، كما فعل سنة (1174هـ - 1758م) مع السلاويين (أهل سلا). للمزيد عن الموضوع. أنظر:

- شرف، ص ص: 40-50.

(472) دياز، ص ص: 42-43.

(473) الضعيف، ص: 187.

عنها سابقا عندما ذكر أنه يريد توجيهها للدولة التركية واكتفى بإرسال خمسين ألف ريال بواسطة القنصل الفرنسي بسلا وحكومته⁽⁴⁷⁴⁾.

وفي أواخر شعبان من السنة (1200هـ/1785م) أرسل السلطان محمد بن عبد الله صهره القائد محمد الزوين إلى إسطنبول بهدية، توثيقا للصلة وأواصر الأخوة بين الجانبين، كما بعث معه وفدا مغربيا من أجل التجارة في تركيا⁽⁴⁷⁵⁾.

أقام الوفد المغربي في إسطنبول مدة قاربت الأربع سنوات وخلالها كان السلطان عبد الحميد قد توفي، فخلفه ابن عمه السلطان سليم، وما لبث بعدها أن توفي السلطان محمد بن عبد الله (1204هـ/1790م) وكان خبر وفاته قد وصل إلى إسطنبول بعد عشرين يوما من ذلك، غير أن الوفد المغربي كان في طريقه إلى المغرب محملا بالهدايا السلطانية، كان السلطان العثماني سليم قد أهداها لسلطان المغرب. كما عاد الوفد المغربي محملا بالبضائع والسلع المختلفة والجواري كان قد اشتراها في سفارته من اسطنبول⁽⁴⁷⁶⁾.

ترك القائد محمد الزوين وراءه في اسطنبول أحد رفقاءه في الوفد وهو الحاج المكي بركاش⁽⁴⁷⁷⁾. على رأس أربعة سفن حربية على متنها أربعمئة رجل مابين رؤساء وبحارة وطبجية (أصحاب المدافع) وكان من جملة رؤساء تلك السفن الرئيس على الصابونجي، وقدور شايب عينو الرباطي، والرئيس محمد العنقي الرباطي التركي الأصل⁽⁴⁷⁸⁾.

كان السلطان محمد بن عبد الله قد بعث هذا الوفد في مهمة عسكرية لأجل مساندة القوات العثمانية في حربها ضد روسيا والنمسا، وكان رجوع الوفد إلى المغرب في عهد المولى اليزيد بن السلطان محمد بن عبد الله. والجدير بالذكر أن المولى اليزيد كان قد تمرد على والده السلطان محمد بن عبد الله مع عدد من جيش العبيد لكنه فشل في ذلك وفر إلى الجزائر أين لقي الدعم والمساندة من حكامها الأتراك، لكن العلاقة الجيدة لسلطان المغرب مع الباب العالي، حالت دون تمكين أتراك الجزائر من تقديم الدعم للمولى اليزيد، فبقي

(474) الفاسي، مجلة المغرب الجديد، العدد 13، ص: 48.

(475) الضعيف، ص: 195.

(476) نفس المصدر، ص: 215.

(477) نفس المصدر، ص: 215.

(478) ابن زيدان، الإتحاف، ج3، ص ص: 357-358.

الأخير فارا لاجئا في المشرق، ولم يدخل المغرب إلا بعد وفاة السلطان محمد⁽⁴⁷⁹⁾. ولما كان المولى اليزيد لاجئا في المشرق كان يعترض سبيل القوافل المغربية الوافدة إلى الحجاز، فيستولي على ما فيها من الأموال، لاسيما تلك التي كان سلطان المغرب يبعثها مع ركب الحجاج، ولأن السلطان كان حريصا على سلامة هذه الأموال فإنه كان يستعين بالمراكب العثمانية في السفر إلى الحجاز بعد تغيير مسار الركب، فتضطر الرحلات المرور إلى إسطنبول عبر البحر ومن ثم إلى الحجاز في حماية ركب السلطان العثماني في موسم الحج⁽⁴⁸⁰⁾.

2- التعاون الثقافي (البعثات العلمية والتبادل الثقافي والمعرفي):

1.2- الامتداد الثقافي:

لقد ظل الجانب الثقافي والعلمي تقليدا قويا في نفوس المغاربة خلال العصر الحديث، على الرغم من بعض وهن أصاب العلم في المشرق الإسلامي في ظل الحكم العثماني، وتذكر كتب التراجم المشرقية والمغربية أن تدفق طالبي العلم من المغاربة على بلاد المشرق وتركيا لم ينقطع طيلة الفترة الحديثة، فالدراسة والتدريس في (رواق المغاربة) بالجامع الأزهر وفي (الزاوية المالكية) بالجامع الأموي والتعبد فيه، والالتفاف حول خيرة العلماء المشاركة، كان حلما يدغدغ المغاربة من العلماء، والمتلهفين على العلم. ويضاف إلى ذلك أن بلاد المشرق الإسلامي غدت في العصر الحديث طريقا لهؤلاء المغاربة الوافدين توصلهم إلى بلاد الدولة العثمانية في آسيا الصغرى وأوربا، التي اشتهرت هي الأخرى، آنذاك بمدارسها التي أنشأها سلاطين بني عثمان، لاسيما في بورصة⁽⁴⁸¹⁾ وإسطنبول⁽⁴⁸²⁾.

⁽⁴⁷⁹⁾ الضعيف، ص: 218

⁽⁴⁸⁰⁾ الناصري، ج 3، ص: 179

⁽⁴⁸¹⁾ بورصة أو بروسة مدينة تركية. تأسست سنة 500 ق.م. عاشت عهود الرومان والبيزنطيين والسلاجقة، وهي تقع في الأناضول على بحر مرمرة. بين مدينتي اسطنبول وأنقرة. كانت بورصة عاصمة الدولة العثمانية بين 1326 إلى 1453م، وفي فترة العثمانيين كان يطلق عليها (خداوندكار) وتعني هدية الله، تكثر بها الحدائق العامة والمتنزهات، وتنتشر فيها أضرحة السلاطين العثمانيين الأوائل، وفيها العديد من مباني العهد العثماني التي تشكل معالم رئيسية للمدينة، وبها أيضا قلعة طوبخانة التي يرجع بنائها إلى 2000 سنة. أنظر:

- شامي، موسوعة المدن، ص: 308.

⁽⁴⁸²⁾ ليلي الصباغ، "الوجود العثماني في المشرق المتوسط في العصر الحديث"، مجلة التاريخ المغربية، العدد: 7-8، تونس، جانفي 1977، ص: 83.

لقد عرف الوافدون المغاربة على البلاد العثمانية بالمشرق بالأمانة، وصار لهم فيها ذكر، فتسلموا الكثير من الأعمال التي تستوجب تلك الصفة، ولا سيما التعليم والتأديب في العصر الحديث⁽⁴⁸³⁾.

وكان المشاركة من جانبهم معجبين بإخوانهم المغاربة، الوافدين عليهم طلبة علم وعلماء، فهم يرونهم يقطعون الفيافي، وينتقلون بين القاهرة ودمشق، ومكة والمدينة، وطرابلس⁽⁴⁸⁴⁾ والقدس وحلب⁽⁴⁸⁵⁾، واسطنبول وبورصة، لينالوا علما أو يلتقوا بعالم⁽⁴⁸⁶⁾. غير عابئين بأمر الدنيا ومشقاتها، فأكبروا فيهم تلك الهمة وفتحوا صدورهم لهم، ولعلمهم سلموهم تأديب أطفالهم، والإشراف على خزائن الكتب والتدريس والوعظ في المدارس والمساجد، وأعطوا الإفتاء على المذهب المالكي، بل الحنفي أيضا وأسندت إلى بعضهم نيابة القضاء، ونظارتها، ومهام دينية أخرى⁽⁴⁸⁷⁾.

(483) الصباغ، *المجلة التاريخ المغاربية*، ص: 83.

(484) يرتبط الاسم تاريخيا بأول اتحاد من نوعه في العالم في العهد الفينيقي، أقيم على أرضها، من خلال ثلاثة مدن فينيقية: (صور، صيدا، أرواد). أطلق عليها اسم الشام تميزا لها عن طرابلس الغرب. وطرابلس اليوم هي مدينة لبنانية عاصمة محافظة الشمال وتكنى بالفيحاء، ثاني أكبر مدن لبنان بعد بيروت، تبعد طرابلس 83 كيلومتر عن ساحل البحر المتوسط. وعرفت منذ القدم بموقعها الجغرافي المميز لأنها صلة الوصل ما بين الشاطئ الشرقي للبحر الأبيض المتوسط والداخل السوري والعربي. أنظر:

- شامي، *موسوعة المدن*، ص: 128.

(485) أكبر مدينة في سوريا، وهي عاصمة محافظة حلب، تبعد حوالي 350 كلم عن دمشق و 40 كلم عن الحدود السورية التركية. وهي مدينة قديمة جدا، قيل أن اسمها مأخوذ من الحليب، وأن إبراهيم عليه السلام كان يحلب بها أغنامه كل يوم جمعة ويتصدق به، فيقول الفقراء: "حلب، حلب" ومنه جاءت التسمية، وقيل أن حلب هو اسم أحد العمالق الذي بنى مدينة باسمه. كانت حلب عاصمة لمملكة يمحاض الأمورية وتعاقبت عليها بعد ذلك حضارات عدة مثل الحثية والآرامية والآشورية والفارسية والهيلينية والرومانية والبيزنطية والإسلامية. وفي العصر العباسي برزت حلب كعاصمة للدولة الحمدانية. كما بقيت حلب لقرون إحدى أكبر المدن السورية وثالث أهم مدينة في الدولة العثمانية بعد اسطنبول والقاهرة. أنظر: - نفس المرجع، ص: 51-53.

(486) الصباغ، *المجلة التاريخ المغاربية*، ص: 85.

(487) نفس المرجع، ص: 86.

كما استمتع المشاركة بشغف إلى دروس علمائهم من المغاربة، وقد وصف المرادي⁽⁴⁸⁸⁾ العالم محمد بن محمد الحسيني المغربي الشهير بالبليدي (ت 1167هـ / 1753) أنه كان يحضر درسه عن (تفسير البيضاوي)⁽⁴⁸⁹⁾ في جامع الأزهر أكثر من مائتي مدرس ومعيد. وكذا محمد بن الطيب الفاسي الشهير بابن الطيب⁽⁴⁹⁰⁾ من العاملين في ميدان اللغة العربية، والمتصوف محمد المزطاري (ت 1107هـ / 1695) شيخ الطائفة الشاذلية⁽⁴⁹¹⁾ بدمشق. وغيرهم.⁽⁴⁹²⁾

⁽⁴⁸⁸⁾ ولد بدمشق في عام (1173هـ/1759م)، وتوفي في حلب سنة 1206هـ/1791م مفتي الشام ونقيب أشرافها، وهو مؤرخ من بيت علم وشرف، تتلمذ على يد الشيخ سليمان المصري، ودرس العلوم والآداب واللغة التركية، والإنشاء، حتى بلغ درجة كبيرة من العلم والفضل، وكان يمتاز بخلق حسن. تولى عدداً من المهام منها: نظارة الجامع الأموي عام (1191هـ/1777م) ومفتي دمشق، ثم آل إليه أمر الإفتاء على المذهب الحنفي بعد وفاة والده في سنة 1192هـ. وكان وقتها في زيارة إلى الباب العالي. ونال نقابة الأشراف عام (1200هـ/1785م) كان مغرمًا بجمع الآثار والتراجم على طريقة المؤرخين، لذا كانت تجري بينه وبين عدد كبير من الفضلاء والعلماء من مختلف الأقطار مكاتباتٌ يجمع فيها كثيراً مما يتصل بتراجم الأعلام في شتى الديار والمدن. أنظر:

- خير الدين الزركلي، الأعلام، ج 5، ط 15، دار العلم للملايين، 2002، ص: 118.

⁽⁴⁸⁹⁾ وضعه القاضي عبد الله بن عمر البيضاوي، مفسر، علامة. ولد في المدينة البيضاء (بفارس - قرب شيراز) وولي قضاء شيراز مدة. وصرف عن القضاء، فرحل إلى تبريز فتوفي فيها سنة (685هـ/1286م). تفسير البيضاوي هو الاسم الشائع للتفسير المسمى بـ «أنوار التنزيل وأسرار التأويل». هو كتاب عظيم الشأن غني عن البيان لخص فيه من الكشاف ما يتعلق بالإعراب والمعاني والبيان القرآني، ومناهج الوصول إلى علم الأصول، ولب اللباب في علم الإعراب. أنظر:

- نفس الرجوع، ج 4، ص: 110.

⁽⁴⁹⁰⁾ ابن محمد بن محمد بن موسى الشرفي الفاسي المالكي الشهير بابن الطيب نزيل المدينة المنورة، الشيخ الإمام والمحدث. ولد بفاس سنة (1110هـ/1698م) وأخذ عن جملة من العلماء منهم والده ومحمد بن محمد المسناوي، ومحمد بن عبد القادر الفاسي ومحمد بن عبد الرحمن بن عبد القادر الفاسي ومحمد بن عبد السلام البناي وغيرهم، وأجاز له من الشيوخ ما يزيد على مائة وثمانين. وبرع حتى صار إمام أهل اللغة والعربية في وقته وعالماً متضلعا في كثير من العلوم. درس بالحرَم النبوي الشريف، وانتفع به الطلبة ورحل إلى إسطنبول، كما أخذ عنه في الشام ومصر خلق كثير وحصل بينه وبينهم مباحث في فنون من العلم، وله تأليف حسنة منها حاشية على القاموس، وشرح على كفاية المتحفظ وحاشية على الاقتراح وشرح كافية ابن مالك، وشرح شواهد الكشاف، جمع رحلاته في كتاب وهي تزيد على ثلاثمائة، وله الكثير من المصنفات ما يتعدى الخمسين مصنفاً. توفي بالمدينة المنورة سنة (1170هـ/1756م). أنظر:

- المرادي، ص ص: 803-805.

⁽⁴⁹¹⁾ الطريقة الشاذلية، طريقة صوفية تنسب إلى أبي الحسن الشاذلي المغربي الأصل، ولد الأخير سنة (593هـ/1196م)، بغمارة بضواحي سبتة بالمغرب الأقصى، نسبته أتباع طريقته إلى الأدارسة العلويين فلقبوه، تفقه وتصوف في تونس، وسكن مدينة (شاذلة) ونسب إليها، من آثاره: عمدة المسالك على مذهب الإمام مالك، ومختصره في العبادات، والرسالة الحوزية... توفي بصعيد مصر سنة (656هـ/1258م). أنظر:

- أبو عمران، ص ص: 299-300.

⁽⁴⁹²⁾ الصباغ، المجلة التاريخ المغاربة، ص ص: 86-90.

وفي السياق ذاته كانت إسطنبول تعيش على وقع إصلاحات. ظهرت فيها البصمة الأوربية بشكل لا يترك مجالا للشك، ذلك أن الدولة العثمانية خطت خطوات هامة نحو تحديث مؤسساتها، العسكرية والسياسية والاقتصادية. ولقد كانت فرنسا أول الدول الأوربية التي أوفدت إلى الباب العالي عام (1199هـ/ 1784م) بعثة موسعة من الخبراء والضباط والرسامين والطبوغرافين⁽⁴⁹³⁾. فضلا عن ذلك كانت اسطنبول عاصمة للعالم الإسلامي، وقد سعت قبل هذا وابتداء من سنة (1139هـ/ 1726م) لإدخال المطبعة بالحروف العربية، وهذا ما جعل زوارها وعلى الخصوص المغاربة مندهشين لوفرة الكتب والمكتبات والمساجد التي تعج بالكتب النفيسة النادرة والمخطوطات والعلماء⁽⁴⁹⁴⁾.

ومع مرور السنين تعددت زيارات المغاربة الذين كانوا في الغالب علماء وكتاب البلاط الملكي للقيام بمهمة سياسية لدى عاصمة الإمبراطورية العثمانية، وكانوا دوما محملين بهدايا سنوية إلى السلطان العثماني، هذا الأخير بدوره كان ينتهز الفرصة ليقوم بإرسال هدايا ثمينة إلى سلطان المغرب، لذا فإن عددا كبيرا من زيارات المغاربة إلى إسطنبول وإقامتهم بها قد جاء ذكره في رحلاتهم ورسائلهم وكتبهم، وهي الرحلات التي يبدو أنها كانت أكثر عدد من تلك التي قام بها التونسيون والجزائريون⁽⁴⁹⁵⁾.

فقد أقام علي بن ميمون المغربي الأندلسي⁽⁴⁹⁶⁾ ببورصة في أواخر القرن 16م، وقد زار الحسين بن القاسم الدرعي، أحد قضاة سلا تركيا والأناضول أثناء أدائه فريضة الحج،

(493) خالد زيادة، اكتشاف التقدم الأوروبي، دراسة في المؤتمرات الأوربية على العثمانيين في القرن 18م، ط1، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، د. ت. ط، ص ص: 47-49.

(494) عبد الجليل التميمي، "تاريخ العلاقات الثقافية بين إسطنبول والمغرب الأقصى خلال العصر الحديث"، المجلة التاريخية المغربية، السنة 13، العدد: 43-44، تونس، نوفمبر 1986، ص: 103.

(495) نفس الرجوع، ص: 97.

(496) ابن ميمون المغربي (854- 917هـ/ 1450-1511م) علي بن ميمون بن أبي بكر بن يوسف الهاشمي الحسني الإدريسي، من العلماء المجاهدين. ولد في غمارة (من أعمال فاس " وأقام بفاس، وتولى القضاء بمدينة شفشاون ثم عكف على غزو الإفرنج في السواحل، فاجتمع له عدد كبير من المجاهدين. رحل إلى المشرق فتوفي في مجدل معوش (من قرى لبنان). وكان شديد الإنكار للبدع والخرافات على علماء عصره ولا سيما المتصوفة، مع أنه كان من كبار المتصوفة، وإنما كان يدعوهم إلى التزام السنة والتقيد بروح الدين . وله مؤلفات، منها " غربة الإسلام في مصر والشام وما والاها من بلاد الروم والاعجام"، " تنزيه الصديق عن صفات الزنديق " دفاعا عن ابن عربي، ويضع عشرة رسالة، منها رسالة الإخوان من أهل الفقه والقرآن"، "الرسالة الميمونية في توحيد الأجرومية...". أنظر:

- الزركلي، ج5، ص: 27.

ومحمد الغراري أحد علماء سوس زار هو الآخر الأناضول، أما محمد بن علي الفشتالي⁽⁴⁹⁷⁾ أحد كبار الكتاب ومن الشعراء المتميزين وكاتب في بلاط السلطان أحمد المنصور السعدي، قد أدى أكثر من مهمة لدى الباب العالي، كذلك قام القائد أبو العباس بن يحيى الهوزلي⁽⁴⁹⁸⁾ بمهمة لدى الباب العالي⁽⁴⁹⁹⁾.

غير أنه ابتداء من سنة (990هـ/1582م) أصبح توجه المبعوثين المغاربة إلى إسطنبول يتم بطريقة منتظمة وكل سنة تقريباً⁽⁵⁰⁰⁾.

لعل الملفت للانتباه هو أن الدراسات التي تناولت الحياة الأدبية في الولايات العربية، قد أكدت أن الإدارة العثمانية لم تقف حائلاً البتة أمام تنقل الأشخاص والأفكار والكتب والمخطوطات، من وإليها⁽⁵⁰¹⁾. وقد كان يصل إلى علم المغاربة أنباء رجال العلم وشيوخ التيارات الفكرية والكتب الجديدة التي كانت إسطنبول تزخر بها، بحيث استطاعت عاصمة الدولة العثمانية أن تجلب إليها اهتمام وتطلع زائريها دون استثناء⁽⁵⁰²⁾، ثم إن معظم الوافدين من العلماء المغاربة إلى البلاد العثمانية في المشرق كانوا على المذهب المالكي، إلا أن قلة منهم اعتنقت المذهب الشافعي أو الحنفي، وقد يكون ذلك نتيجة الاحتكاك الفكري بالعلماء

⁽⁴⁹⁷⁾ عبد العزيز بن محمد بن إبراهيم الفشتالي ولد عام (956هـ/1549م) حسب ما ذكر المقري، نشأ الفشتالي في قبيلة فشتالة بنواحي فاس حيث درس بها على يد العالم أبي العباس أحمد بن علي المنجور، وأبي العباس أحمد الزموري وغيرهم. كانت له اتصالات بالسلطان السعدي أحمد المنصور منذ عام (989هـ/1581م) بتانسيقت، وفي مراكش بدأ أعماله في ديوان الإنشاء. لم يصبح الفشتالي من جلساء المنصور وخاصته إلا في عام (993هـ/1585م). انظر: - الفشتالي، ص: 2-4.

⁽⁴⁹⁸⁾ أحمد بن يحيى الهوزلي رحل إلى القسطنطينية العظمى سفيراً للسلطان السعدي أحمد المنصور فلقى الوفد أسطول الوزير العلي في البحر قاصداً المغرب لمنازلة المنصور بعد إهماله للوفد التركي الذي بعثه السلطان العثماني من أجل التهئة بانتصار معركة وادي المخازن، وقد اقنع الهوزلي علي ففعل راجعاً إلى إسطنبول وتوجه معه الهوزلي حاملاً رسالة المنصور، فحسن موقع خطابه من السلطان العثماني وقبل العذر وتقبل الهدية. كما بعث رسلاً إلى المنصور فأكرم وفادتهم. انظر:

- عبد العزيز بن عبد الله، "الوزارة والوزراء عبر التاريخ، نموذج للوزراء وكتاب الدولة عبر المغرب الأقصى"، دعوة الحق، ع 271، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، أكتوبر 1988، ص: 6. (المجلة الإلكترونية)

⁽⁴⁹⁹⁾ التميمي، المجلة التاريخية المغربية، ص: 97.

⁽⁵⁰⁰⁾ نفس المرجع، ص: 97.

⁽⁵⁰¹⁾ نفس المرجع، ص: 104.

⁽⁵⁰²⁾ نفس المرجع، ص: 96.

في المشرق الإسلامي، وتحت تأثير الوسط الاجتماعي، وقد يكون التحنف قد جرى طمعا في المناصب القضائية العليا في الدولة العثمانية، المقصورة على أتباع المذهب الحنفي الرسمي للدولة العثمانية. (503) وهذا ما نقله التمعروتي (504) حين قال: "لقينا في هذه المدينة من فيها من الفقهاء والعلماء وأكثرهم حنفيون وبعض من وردها من فقهاء مصر الشافعيون... وفقهاؤهم يدرسون فقههم والتفسير والنحو... والبيان والبديع وعلم الكلام وغيرها... والكتب بهذه المدينة لا تعد ولا تحصى ولا نهاية لها والخزائن والأسواق مملوءة بها، جلب إليها كتب من كل بلد، جلبنا منها ما يسره الله سبحانه من كتب مفيدة... (505).

ولإبراز أهمية التبادل الثقافي بين إسطنبول وفاس خلال القرن (12هـ/18م) لا بأس أن نقف عند بعض الأحداث المتعلقة بالموضوع ونقصد هنا رسالة السلطان العثماني مصطفى الثالث إلى السلطان محمد بن عبد الله في علم النجوم، ثم الأبعاد الثقافية لرحلة الزباني ورحلة ابن عثمان المكناسي إلى الباب العالي.

ليس من الغريب أن نجد السلطان العثماني مصطفى الثالث يطلب مساعدة المغرب والاستفادة من خبراته في علم الفلك. فلقد أرسل السلطان العثماني مصطفى الثالث لسلطان المغرب محمد بن عبد الله يطلب منه بإلحاح إيفاد عالم فلك مغربي إلى إسطنبول: "لما سمعنا أن حوزتكم تحتوي جمعا من حذقة أهل النجوم ومهرتها، طلبنا راسخا منهم في صناعتها. ثم جاء سفيركم ولم يستصحب منهم أحد(كذا) وعرفنا من أخباره أن الأمر قد التبس عندكم لعدم الاطلاع على حقيقة الحال، فقبلنا العذر وأكدنا الطلب... فالمطلوب من جنابكم الملكي أن تأمروا بانتخاب ماهر في فنون النجوم عالم بمبادئه ومقاصده." على أن يستفيد المغرب هو الآخر من الكفاءات العلمية العثمانية. إذ ختم السلطان العثماني رسالته

(503) الصباغ، المجلة التاريخ المغاربية، ص: 90.

(504) عبد الله بن محمد بن مسعود الدرعي التمعروتي، (980هـ/1572) فقيه مالكي، من أهل تمكروت من درعة، من صحراء المغرب. له عدة كتب منها "شرح مختصر خليل" في أربع مجلدات، وشروح للألفية والاجرومية واللامية والأفعال، وكتاب "الروض الياض" في الترغيب بالزواج. أنظر:

- الزركلي، ج4، ص: 128.

(505) التميمي، المجلة التاريخية المغربية، ص: 98.

هذه بالقول: "أرسلنا جمعا من عمال المدافع والأدوات مع بعض اللوازم والنموذجات (كذا)"⁽⁵⁰⁶⁾.

إن الجديد في هذه الرسالة يترجم بأمانة عن التبادل الثقافي بين البلدين، ويعد دليلا قاطعا لأهمية وثراء هذا التبادل بين فاس واسطنبول في منتصف القرن 18م. ويعتبر المغرب الأقصى من الدول المفتوحة على كل التأثيرات الشرقية، ومن جهة أخرى قربه من الأندلس، قد شجع على إقامة علاقات متنوعة وخاصة منها الثقافية، ولذلك أقام العديد من العلماء البارزين في أرضه، وهم الذين عملوا على إثراء الحياة الفكرية⁽⁵⁰⁷⁾.

ليس غريبا إذا أن يحتل علم التنجيم بالمغرب الأقصى أهمية خاصة لدى الحكام والعامة من الناس، على أن الأبحاث في هذا المجال تؤكد أن علم التنجيم قد تطور بإدخال عدة أدوات واختراعات جديدة أثناء العصر الحديث⁽⁵⁰⁸⁾.

لقد كان السلطان العثماني معجبا بعلم التنجيم إذ خصه بعناية بالغة، بالإضافة إلى ذلك عرف عن هذا السلطان حسا وذوقا أدبيا وشاعرية مرهفة واهتماما بتاريخ الدولة العثمانية، ونتيجة لذلك قام بتشجيع وترجمة عدد كبير من المؤلفات حول علم التنجيم والحساب والمنطق، وحتى يؤكد السلطان العثماني أهمية هذا العلم في رسالته للسلطان المغربي محمد بن عبد الله كتب قائلا: "... واعتبار أهل النجوم لاستخراج الأوقات السعيدة في مباشرة الأمور العظام ومناولة الخطوب الجسام..."⁽⁵⁰⁹⁾.

⁽⁵⁰⁶⁾ نفس المرجع، ص: 100.

⁽⁵⁰⁷⁾ نفس المرجع، ص: 100.

⁽⁵⁰⁸⁾ من التقنيات التي أضيفت لعلم الفلك في القرن 18م في المغرب، تقنيات أوربية حديثة اقتناها سفراء السلطان محمد بن عبد الله من بريطانيا وإسبانيا وفرنسا بأمر منه، فإلى جانب الإسطرلاب الذي كان يستخدمه بالقرويين، اقتنى كرتين أرضيتين صنعتا له خصيصا في إسبانيا على يد المهندس الخاص بالملك كارلوس الثالث حوالي (1183هـ/1769م)، إضافة إلى ساعة لندنية كبيرة قدمت له هدية من بريطانيا. فأوقف السلطان هذه التجهيزات على جامع القرويين ليستفاد منها، ولمواكبة السير الحضاري في أوربا. وقد خص السلطان محمد بن عبد الله العلماء الذين يقرؤون الإسطرلاب وعلم الحساب بعناية خاصة، لما في ذلك من الفائدة العظيمة والمنفعة الكبيرة لأوقات الصلاة والميراث. أنظر:

- شرف، ص: 125.

⁽⁵⁰⁹⁾ التميمي، المجلة التاريخية المغربية، ص: 103.

لم يكن تواجد المغاربة في بلاد المشرق لأسباب ثقافية فحسب ولكن الجوانب التجارية كانت هي الأخرى لها تأثير على تنقلاتهم ولا بأس هنا من التطرق إلى دور المغاربة في المجال التجاري في المشرق، بالرغم من كون هذا الموضوع يتطلب بحثاً منفردة وفي أحقاب زمنية متفرقة وقصيرة من العصر الحديث، لتغيرها السريع بتغير الظروف المحيطة، ويمكن الجزم أن بعض الوافدين من المغرب إلى المشرق، كان يعمل في مجال التجارة، وقد ينتقل من بلد إلى آخر حتى يستقر أخيراً في واحدة منها⁽⁵¹⁰⁾.

ويبدو كذلك من خلال المصادر أن بعض العلماء المغاربة في المشرق الإسلامي، اشتغلوا من اللحظة التي نزلوا فيها بهذه البلاد في مجال التجارة⁽⁵¹¹⁾.

غير أن التماس المغاربة للرزق في بلاد المشرق الإسلامي عبر التجارة لم يمنع من خروج بعضهم فقراء، نظراً للمجاعات التي كانت تفتك ببلاد المشرق. ونظراً للظروف التي كانت تحيط بالعالم الإسلامي من الصراعات والضغوط السياسية والعسكرية التي أثرت بصورة كبيرة على الحياة الاقتصادية بوجه عام في المشرق والمغرب الإسلامي، لاسيما مع تدهور وضعية النشاط البحري الإسلامي الذي عجز عن توفير فرص عمل للمغاربة، لاسيما في القرن (12هـ/ 18م).⁽⁵¹²⁾

وقد كشفت دفاتر المحاكم الشرعية بمدينة بورصة في أواخر القرن الخامس عشر عن وجود عدد كبير من التجار والزوار المغاربة الذين استقروا بها وقاموا بأنشطة تجارية واقتصادية ذات بال على أن هذا التبادل العثماني المغربي قد أصبح سهلاً نتيجة هيمنة إنجلترا وهولاندا على الخطوط البحرية، ثم ألم يكن ميناء طنجة مركزاً تجارياً عالمياً في اتجاه أزمير واسطنبول؟⁽⁵¹³⁾

⁽⁵¹⁰⁾ الصباغ، المجلة التاريخية المغربية، ص: 92.

⁽⁵¹¹⁾ نفس المرجع، ص: 92.

⁽⁵¹²⁾ نفس المرجع، ص: 92.

⁽⁵¹³⁾ التميمي، المجلة التاريخية المغربية، ص: 97.

ولا بد من الإشارة هنا إلى أن من بين الأعمال الكبرى التي برز فيها الوجود المغربي واضحاً وفعالاً (العمل العسكري)، أو الارتزاق عن طريق الجندية، فالمصادر المعاصرة للقرن (12هـ/ 18م) تشير بوضوح إلى وجود فرق خاصة عاملة تحت أمر الولاة المحليين في مصر وبلاد الشام، أو لدى بعض الباشاوات عندما سمحت الدولة العثمانية بإنشاء مثل هذه الفرق، كي يستفاد منها في حالة حرب مع عدو خارجي وفي حفظ الأمن والنظام، بعد فساد نظام الجيش الانكشاري وتمرد أفرادهِ⁽⁵¹⁴⁾.

2.2- نماذج من الرحلات المغربية إلى إسطنبول في القرن 12هـ/ 18م:

تشكل الرحلة المغربية إلى المشرق العثماني خلال الفترة الحديثة ظاهرة أدبية وتاريخية بالغة الأهمية، ذلك أن تدوين الرحالة لرحلته مكنا من معرفة معلومات قيمة عن أوضاع المجتمعات في المشرق الإسلامي، قد لا نجدها في كتب التاريخ المعاصر، سواء من حيث الوصف الدقيق للحياة العامة والمدن والقرى، أو من خلال تدوينها للعلاقات الاجتماعية والعادات والتقاليد، والأنشطة الثقافية والعلمية وغيرها⁽⁵¹⁵⁾. وضمن هذا الإطار تأتي رحلة ابن عثمان المكناسي وأبو القاسم الزياني.

- رحلة ابن عثمان المكناسي:

يعتبر ابن عثمان من الوجوه البارزة في الحياة الأدبية وفي التاريخ الدبلوماسي للمغرب وخاصة فيما يتصل بالعلاقات مع المملكة الإسبانية، والإمبراطورية العثمانية. لم يلبث ابن عثمان أن أصبح سفيرا للسلطان سيدي محمد بن عبد الله، في أعقاب ما نسميه تصريح مكناس لعام (1191هـ/ 1779م) الذي دعى فيه العاهل المغربي سائر الدول إلى القضاء على الرق بصفة نهائية. ولقد اتبع هذا التصريح بحملة دبلوماسية مغربية مكثفة، كانت تهدف إلى تبليغ هذا القرار للأمم الأخرى من جهة وإعطاء المثل والقُدوة من جهة ثانية، وهكذا دشنت حركة دبلوماسية واسعة لهذا الغرض، فذهب الطاهر فنيش إلى فرنسا

⁽⁵¹⁴⁾ الصباغ، المجلة التاريخ المغاربية، ص ص: 94-96.

⁽⁵¹⁵⁾ مصطفى الغاشي، الرحلة المغربية والمشرق العثماني، محاولة في بناء الصورة، ط1، مؤسسة الانتشار العربي،

بيروت، 2015، ص ص: 149-150.

وعين محمد بن عثمان سنة (1193هـ/1779م) سفيرا لدى ملك اسبانيا كارلوس الثالث،⁽⁵¹⁶⁾ وقد كانت سفارته تلك هي موضوع تأليفه (الإكسير في فكاك الأسير). وبعد عودته من إسبانيا عين وزيرا لدى السلطان محمد بن عبد الله، وما لبث أن عين سفيرا مرة أخرى إلى مالطة ونابولي، وهي السفارة التي خصص لها كتابه (البدر السافر في افتكاك الأسرى من يد العدو الكافر)⁽⁵¹⁷⁾.

وبعد هذين المهمتين راح ابن عثمان في سفارة من نوع آخر، وبهذه المناسبة أتيح له أن يؤدي مناسك الحج، ويؤلف كتابه (إحراز المعلى والرقيب...) ويتعلق الأمر برحلته إلى إسطنبول، في رجب 1201هـ الموافق لشهر ماي 1787م⁽⁵¹⁸⁾.

استمر ابن عثمان يعمل في البلاط الملكي بعد وفاة الملك محمد بن عبد الله عام (1204هـ/1790) وتتصيب ولده المولى اليزيد، حيث عمل سفيرا لهذا السلطان الذي أرسله إلى ملك إسبانيا كارلوس الرابع (1748-1819م)، وبعد وفاة السلطان المولى اليزيد عمل ابن عثمان في بلاط السلطان سليمان. وفي هذه الفترة أصبح ابن عثمان وزيرا للخارجية بكل ما تحمله هذه المهمة من معنى، وهنا برز ذكره أكثر على الصعيد الخارجي، وقد أدركه أجله في أحداث الطاعون الذي ضرب البلاد شهر محرم 1214هـ الموافق يوليو 1800م⁽⁵¹⁹⁾.

لقد قدم محمد الفاسي، الأستاذ بمعهد الدروس العليا بالرباط بحثا مستقيضا عن حياة هذه الشخصية المغربية الكبيرة، معتمدا على ما نقله معاصري ابن عثمان من الأوربيين والمغاربة على حد سواء، و قدم هذا البحث لنيل شهادة دبلوم الدراسة العليا بباريس سنة

⁽⁵¹⁶⁾ ابن الملك فليب الخامس، تولى حكم الإمبراطورية الإسبانية بعد وفاة أخيه الأكبر فرديناند، كان قبل ذلك أميرا على مدينة نابلي، له من الأبناء خمسة هم: كارلوس، فرديناند، كابردي، طوني، ومارية طوريس (أي الثالثة). أنظر: - ابن عثمان المكناسي، الإكسير في فكاك الأسير، سلسلة الرحلات السفيرية، المركز الجامعي للبحث العلمي، المغرب، 1965، ص: 94-95.

⁽⁵¹⁷⁾ عبد الهادي التازي، القدس والخليل في الرحلات المغربية، رحلة ابن عثمان نموذجا، منشورات المنظمة الإسلامية للعلوم والثقافة - اسيسكو، السعودية، 1997. ص ص: 25-26.

⁽⁵¹⁸⁾ نفس المرجع، ص: 26.

⁽⁵¹⁹⁾ نفس المرجع، ص: 27.

1931م، حيث قام بتصحيح والتعليق على رحلة المترجم المسماة إحرار المعالي والرقيب⁽⁵²⁰⁾.

لم يترجم أحد من المؤرخين للوزير ابن عثمان المكناسي ترجمة وافية، وأول من خصه بهذا العمل من المغاربة عبد الرحمن بن زيدان مؤرخ الدولة العلوية في كتابه إتحاف أعلام الناس بجمال حاضرة مكناس، ولكن ابن زيدان لم يشر إلى تاريخ وفاته ولم يتعرض بالتفصيل للمناصب التي شغلها ابن عثمان في أيام السلطان محمد بن عبد الله والسلطان سليمان، أما من سبقه من المؤرخين من الزياني إلى الناصري فإنهم لا يزيّدون على التلميح إلى الوزير ابن عثمان بمناسبة سفارته إلى اسطنبول والمعاهدة التي عقدها المغرب مع إسبانيا سنة (1213هـ/1799م)⁽⁵²¹⁾ وبمناسبة وفاته⁽⁵²²⁾.

وسنحاول في هذا المبحث إظهار بعض ما خفي من الجوانب المختلفة لسفارته إلى تركيا، لاسيما ما تعلق منها بالحياة الثقافية، معتمدين على ما لدينا من مصادر.

تعتبر رحلة ابن عثمان المعروف بتحريره الحقيقة والمصادقية والتي قام بها في رعاية الدولة العثمانية التي حكمت المنطقة وتعرف دروبها وزواياها من بين الرحلات الهامة في تاريخ العلاقات بين المشرق والمغرب لأسباب عدة، منها:

أولاً: أنها تصادف تاريخاً هاماً (1202هـ/1788م) يعتبر مؤشراً لما كان ينتظر المنطقة من تحولات أدت في النهاية إلى استعارة التنافس بين الجهات ذات المصلحة في الأماكن المقدسة.

ثانياً: اشتملت الرحلة على بعض المعلومات التي خلت منها الرحلات السابقة، كالمخطوطات النادرة والتأليف الهامة، بالإضافة إلى معلومات عن بعض القادة العثمانيين الذين لم يعودوا منضبطين إزاء رؤسائهم.

(520) الفاسي، مجلة المغرب الجديد، ع11، ص: 12.

(521) تعرف كذلك باتفاقية مكناسة الزيتون يوم 22 رمضان 1213هـ الموافق لـ 1 مارس 1799م، كتبها عن الطرف المغربي الكاتب محمد بن عثمان المكناسي، وعن الطرف الإسباني خوان سلمون، و قد احتوت على ثمانية وثلاثين بنداً تضمنت المصالح المشتركة للطرفين. أنظر:

- التازي، التاريخ الدبلوماسي، مج9، ص: 129.

(522) الفاسي، مجلة المغرب الجديد، ع11، ص: 12.

ثالثاً: رحلة ابن عثمان تفسح المجال لمعرفة الحركة السكانية والخريطة الدينية للمنطقة أي إنها تعطي فكرة عن نسبة الوجود الإسلامي والمسيحي واليهودي في تلك البقاع الإسلامية⁽⁵²³⁾.

وأخيراً فإن الرحلة تكشف عن جانب التدرج الذي عاشته مدينة القدس والخليل⁽⁵²⁴⁾ أي إننا بعد أن قرأنا عن المدينتين في إفادة أبي بكر ابن العربي⁽⁵²⁵⁾ على عهد المرابطين، وإفادة الشريف الإدريسي⁽⁵²⁶⁾ على عهد الموحدين وشهادات ابن بطوطة⁽⁵²⁷⁾ على عهد بني

(523) التازي، القدس والخليل، ص: 28.

(524) من أشهر مدن الضفة الغربية لنهر الأردن، تقع إلى الجهة الجنوبية من القدس على جبال الخليل التي تشتهر بالكروم وأشجار الزيتون، والخليل مدينة مقدسة. سميت (الخليل) نسبة إلى خليل الرحمن النبي إبراهيم عليه السلام المدفون بها، وهي تعرف كذلك باسم (حبرون). ويعود تاريخ المدينة إلى 3500 سنة قبل الميلاد. أنظر: - شامي، موسوعة المدن، ص: 97.

(525) عاش أبو بكر محمد بن العربي في عصر الطوائف بالأندلس، وتكون على يد والده، ثم خاله الحسن الهوزني المناصر ليوسف بن تاشفين، ولما انتصر المرابطون على بني عباد رحل ابن العربي إلى المشرق للحج مع والده سنة (485هـ/1092م)، وقد التقى في رحلته بالعلماء والفقهاء، واتصل بأصحاب العقائد الباطنية وناظرهم، وكان له لقاء مع أبي حامد الغزالي، فوصفه الغزالي بالذكاء ووزارة العلم، لابن العربي تصانيف عديدة في علوم القرآن والحديث والفقه والزهد، وعلم الكلام والجدل... توفي بمغيلة بالمغرب سنة (543هـ/1148م). أنظر:

- أبو عمران، ص ص: 354-357.

(526) ولد محمد بن عبد الله بن إدريس سنة 493هـ، ونشأ محباً للعلم يحب الطبيعة، ذهب الإدريسي في طفولته إلى الكُتّاب ليحفظ القرآن ويتعلم اللغة والفقه، ولكنه لم ينتظر حتى يكمل دراسته، بل خرج للرحلة، ومشاهدة مظاهر الطبيعة في البلاد، فأكمل دراسته، وتعلمه خلال رحلاته ومشاهداته، وقد دفعته نفسه التواقة إلى القيام برحلة كبيرة تغطي أرجاء العالم الإسلامي. اتصل الإدريسي بروجر الثاني ملك صقلية التي كانت وقتها مزدهرة بالثقافة الإسلامية، فطلب من الإدريسي أن يرسم له خريطة للعالم. جمع الإدريسي كل ما وصل إليه في رحلته وبحوثه في كتاب سماه (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) وقد احتوى الكتاب على كثير من المعلومات الخاصة بغرب أوروبا، وقد اشتهر هذا الكتاب بين علماء الشرق والغرب وخاصة المشتغلين بالجغرافيا، واستغرق إخراج هذا الكتاب خمسة عشر عاماً. وبعد الانتهاء من تأليفه، أهده إلى صديقه الملك روجر سنة 1154م الذي أعجب به. توفي الإدريسي سنة (560هـ/1258م) على رأي أكثر المؤرخين وهو بعيد وغريب عن بلده يسعى للعلم. أنظر:

- نفس المرجع، ص ص: 34-36.

(527) أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن إبراهيم بن محمد بن يوسف اللواتي الطنجي، الشهير بابن بطوطة. وُلد في مدينة طنجة عام (703هـ/1304م)، ويُنسب إلى قبيلة لواتة البربرية، التي انتشرت بطونها على طول سواحل إفريقية حتى مصر، وينحدر من أسرة راقية، أُتيح لكثير من أبنائها الوصول إلى منصب القضاء والنبوغ في العلوم الشرعية. في طنجة درس ابن بطوطة العلوم الشرعية وفقاً للمذهب المالكي السائد في أقطار المغرب، ولكن يبدو أنه لم يَتِمَّ دراسته؛ لأن سنَّ الحادية والعشرين التي خرج فيها للرحلة تدلُّ على أنه لم ينتظر حتى يستكمل دراسة الفقه؛ لأن الدراسة في ذلك =

ميرن وإشارات المقرّي⁽⁵²⁸⁾ على عهد السعديين، والعياشي⁽⁵²⁹⁾ في العهد الأول لدولة العلويين... ها نحن نعيش مع شاهد عيان في الفترة الوسطى للعلويين في هذه الرحلة الموسومة بـ: "إحراز المعلى والرقيب، في حج بيت الله الحرام وزيارة القدس الشريف والخليل والتبرك بقبر الحبيب"⁽⁵³⁰⁾.

كثيرا ما كان أصحاب الرحلات يتلقون فيها مشقات السفر، وسواء كان ذلك بسبب قساوة الظروف المناخية وأهوال البحر فكانت السفارة تتأخر عن موعد انطلاقها بأيام، أو حتى من الأمراض والمصائب التي كانت تلحق بهم أو بسبب الجفاء الذي كان يعانيه الرحالة من بعض مرافقيهم في الرحلة - من ذلك ما ذكره الزباني في رحلته - وابن عثمان نفسه يذكر بعض الأحداث والعراقيل التي اعترضت رحلته إلى إسطنبول⁽⁵³¹⁾.

=الوقت كانت تطول فلا يفرغ الشاب من دراسته إلا في حدود الثلاثين، والواضح أن رغبته في السفر والتجوال أعجلته عن إتمام الدراسة. كان الدافع وراء خروج ابن بطوطة لرحلاته أولاً أداء فريضة الحج، إضافة إلى رغبته في رؤية أحوال الناس في مختلف الأقطار، وشوقه إلى المعرفة، ولعله بالتنقل والمغامرة والتجربة، ومعرفة أحوال الدنيا من حوله. فصار من أعظم الرحالة المسلمين وأوسعهم شهرة، حتى سُمّي بشيخ الرحالين لكثرة طوافه في الآفاق، فقد أمضى ثماني وعشرين عاماً من حياته في أسفار متصلة ورحلات متعاقبة، فكان أوفر الرحالين نشاطاً واستيعاباً للأخبار، وأشهرهم عناية بالحديث عن الحالة الاجتماعية في البلاد التي تجول فيها، كما كان من المغامرين الذين دفعهم حب الاستطلاع إلى ركوب الكثير من الصعاب. أنظر:

- أبو عمران، ص: 83-85.

(528) أحمد بن محمد التلمساني المقرّي، الملقب بشهاب الدين المقرّي، نسبة إلى مقرّة التي تقع بين مدينتي المسيلة وبريكة، هاجرت أسرته إلى تلمسان حيث ولد هناك وترى وكبر، سافر إلى مصر وهناك توفي سنة (1041هـ/1631م) له العديد من المؤلفات منها: كتاب "نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب"، وهو كتاب جمع فيه تاريخ المغرب والأندلس وكلام مستفيض عن تلمسان وعلمائها. أنظر:

- نفس المرجع، ص: 507-512.

(529) أبو سالم عبد الله محمد بن أبي بكر العياشي، نسبة إلى آل عياش قبيلة من البربر من أحواز سجلماسة، ولد سنة (1030هـ/1620م) توفي يوم الجمعة 18 ذي القعدة 1090هـ الموافق لـ 1679م، وهو عالم مغربي جليل، له رحلة مسماة بماء الموائد، جامعة من المسائل العلمية المتنوعة. أنظر:

- حجي، موسوعة أعلام المغرب، ج4، ص: 1622.

(530) التازي، القدس والخليل، ص: 28.

(531) محمد بن عبد الوهاب بن عثمان المكناسي، رحلة المكناسي، إحراز المعلى والرقيب في حج بيت الله الحرام وزيارة القدس الشريف والتبرك بقبر الحبيب 1785م، المملكة المغربية، ص: 12.

يقول ابن عثمان عن رحلته: "أمرنا أدام الله علاه (أي السلطان محمد بن عبد الله). بالتوجه إلى القسطنطينية العظمى والحضرة الفخمة. حتى نتلاقى مع سلطانها الأعظم الخاقان المعظم، خديم الحرمين الشريفين والقدس الشريف أول القبلتين، السلطان عبد الحميد خان..."(532).

ويعتقد الباحث مصطفى الغاشي أن ابن عثمان لم يفصح عن طبيعة سفارته إلى الباب العالي، هل كانت ذات طابع سياسي دبلوماسي أم ديني أم للمجاملة فقط؟ كما أن الرحلة لم تكن مستعجلة، ذلك أن ابن عثمان أخذ كل وقته للسفر إلى إسطنبول ومنها إلى بيت المقدس، ومن خلال العنوان الذي اختاره ابن عثمان لرحلته: "إحراز المعلى والرقيب، في حج بيت الله الحرام وزيارة القدس الشريف والخليل والتبرك بقبر الحبيب"، فيبدو أنه لا تطرح مضمونا سياسيا أو دبلوماسيا بقدر ما تطرح مضمونا دينيا وروحيا، وهذا ربما يزيد في الاعتقاد بأن ابن عثمان لم يكن مكلفا بمهمة سياسية ذات موضوع محدد، وإنما للمجاملة فقط(533). ومع هذا كله فإن سفارة ابن عثمان إلى إسطنبول لا تخلو في مضمونها من المظاهر الثقافية.

لما حل ابن عثمان والوفد المرافق له بإسطنبول بعث لهم السلطان العثماني لما علم بخبر وصولهم والغاية من زيارتهم، وعلى سبيل الإهداء قدم لهم أواني من الزجاج مملوءة بأنواع مختلفة من الحلوة والأشربة مع أنواع مختلفة من الفواكه من إجااص وتفاح وبطيخ وغير ذلك.(534)

وبعد أن هيأت لهم دار الضيافة وفي اليوم الموالي استقبل الوفد المغربي من طرف أعيان الدولة، وألبسوا من الثياب الفاخرة من القفاطين ثم سير بهم إلى الكاهية ومنها إلى

(532) نفس المصدر، ص: 13.

(533) الغاشي، ص ص: 251-252.

(534) نفس المصدر، ص: 13.

الدفتري دار⁽⁵³⁵⁾. وخلال استضافته دخل ابن عثمان في مفاوضات على حد قوله مع كل واحد منهما: "وتفاوضنا في حديث مناسب ثم انصرفنا عنهم إلى دار نزولنا"⁽⁵³⁶⁾.

قدم ابن عثمان المكاتب للوزير (الدفتري دار) لأن ذلك حسب ابن عثمان من تقاليدهم الدبلوماسية، لأن المكاتب عندهم تدفع أولاً للوزير قبل ملاقاته السلطان، حتى ينقلونها من العربية إلى التركية ليفهم مرادها، وليكون السلطان على بصيرة بما تتضمنه، وهذه العادة حسب ابن عثمان قريبة من عادة النصاري في القوانين الأعجمية⁽⁵³⁷⁾.

وبعد أن قضى ابن عثمان ثلاثة وعشرون يوماً بإسطنبول، استدعي في السابع والعشرين من شهر شوال (28 أوت 1786) للملاقات الرسمية مع السلطان عبد الحميد خان، وكان عمر السلطان العثماني آنذاك ست وستون سنة، وكانت شؤون الدولة كلها تدار بيد الوزير الأعظم، وأما السلطان فلا يباشر شيئاً من الأمور - على حد قول ابن عثمان⁽⁵³⁸⁾.

وقبل المثل بين يديه أولم له الوزير وليمة فخمة حضرها أعيان الدولة التركية وأعضاء السفارة المغربية الآخرين وفي رحلة ابن عثمان وصف دقيق لهذه الحفلة وما يتبعها، وقد ذكر أن الملاقاة "على هذه الكيفية والاحتفال والعجلة لم تتفق لأحد كما أخبرنا بذلك أهل الديوان، وإنما ملاقاتة الوفد عندهم يرصدون بها الأعياد أو عرض العسكر لقبض الراتب"، وقد نسب الزياني لنفسه مثل هذه الخصوصية في رحلته التي سيأتي الكلام عنها، ولكن رحلة الزياني ظهرت بعد رحلة ابن عثمان بثلاثين سنة وكان الزياني قد اطلع عليها بعد أن كلفه السلطان المولى سليمان بنقل أغراض ومخلفات ابن عثمان الأدبية والثقافية من مراكش إلى مكناس بعد وفاته⁽⁵³⁹⁾.

(535) أي ممسك الدفتري، وهي تتكون من كلمتين: دفتري ودار، بمعنى القابض على الدفتري، وهو أكبر منصب للشؤون المالية في الدولة العثمانية، يقابله في الوقت الراهن وزير المالية. أنظر:

- صابان، ص: 112-113.

(536) المكناسي، إحراز المعلى والرقيب، ص: 13.

(537) نفس المصدر، ص: 14.

(538) نفس المصدر، ص: 17.

(539) الفاسي، مجلة المغرب الجديد، ع13، ص: 46.

أقام ابن عثمان باسطنبول بعد هذه المقابلة مدة طويلة ويزعم الزياتي ومن نقل عنه أن سبب هذا المقام الطويل هو أن السفارة وجدت أمين الصرة غادر الديار التركية مع الراكب العثماني فاضطرت للانتظار السنة المقبلة للتوجه إلى مكة - من الممكن أن يكون هذا هو سبب التأخر - ولا مانع أن نعتقد أيضا أن السلطان محمد بن عبد الله لما بعث ابن عثمان إلى المشرق، كان يعلم أن الراكب العثماني يغادر اسطنبول قبل موسم الحج بنحو الخمسة أشهر، وكذلك ابن عثمان لاشك أنه كان على علم بذلك، لإطلاعه الكبير على العلاقات المتينة بين المشرق والمغرب⁽⁵⁴⁰⁾.

فيمكننا أن نعتقد إذا أن السفارة قد مكثت بتركيا نحو السنة بأمر من السلطان محمد بن عبد الله، خصوصا وأن ابن عثمان لا يتعرض في رحلته هذه لهذا المقام الاضطرابي، ويرى مكوثه بالديار التركية شيئا طبيعيا متوقعا ولم يكن للأسباب التي ذكرها الزياتي في رحلته. قضى ابن عثمان هذه المدة بالعاصمة التركية في زيارة مشاهدها وآثارها كالمساجد والبساتين وخزائن الكتب ودار ضرب السكة إلى غير ذلك، وحضر أثناء هذه الإقامة احتفالات زفاف ابنة السلطان مصطفى الثالث أخو السلطان عبد الحميد، زفت لأحد كبراء الدولة التركية، وقد وصف ابن عثمان هذه الاحتفالات بالتفصيل، وحضر أيضا احتفالات المولد النبوي بمسجد السلطان أحمد⁽⁵⁴¹⁾.

يقول ابن عثمان في وصف مدينة اسطنبول أنها مدينة عظيمة، عدد السفن الوافدة إليها يفوق الثمانين ألفا، ترد عليها كأنها قوافل وبها من الأسواق والسلع ما لا يمكن وصفه: "ومن حضارة هذه المدينة وحسن ترتيبها أن سوق كل نوع من السلع والحرف منعزل عن غيره، ولا يتعاطون أهلهم إلا تلك الحرفة (كذا)... وحتى الحشرات لها سوق معلوم يتوقف عليها أهل الطب... ولا يمكن أن تسأل عن شيء غريب إلا وتجد منه سوقا"⁽⁵⁴²⁾.

⁽⁵⁴⁰⁾ نفس المرجع، ص: 46.

⁽⁵⁴¹⁾ نفس المرجع، ص: 47.

⁽⁵⁴²⁾ المكناسي، إحرار المعلى والرقيب، ص: 22.

والملاحظ في حديث ابن عثمان عن مدينة اسطنبول أنه لا يستحضر أي نموذج آخر سواء من المدن المغربية أو الأوربية، وهو ما يعني أن هذه المدينة، حسب ابن عثمان، لا يمكن مقارنتها بأي مدينة حضارية أخرى، ولعل ذلك ما دفعه إلى الاهتمام بكل تفاصيله. بل إنه سعى جاهدا لتحديد مساحتها من خلال القيام بقياسات في محاولة للإلمام بالرقعة الجغرافية التي تحتلها اسطنبول⁽⁵⁴³⁾.

وفي معرض حديثه عن نظام التعليم في إسطنبول أورد ابن عثمان ملاحظات هامة عن تراجع نوعية التعليم في هذه المدينة، في إشارة منه إلى الفساد الذي نخر نظام التعليم في السلطنة العثمانية أواخر القرن 18.⁽⁵⁴⁴⁾ إلا أن هذا لم يمنع ابن عثمان من الاحتكاك بأهل العلم والاجتماع بهم أحيانا.

فقد اجتمع ببعض علماء اسطنبول وتبادل معهم الحديث في الكثير من القضايا العلمية، ونخص بالذكر "مصطفى الصدي" أحد قضاة إسطنبول، إذ قال ابن عثمان: "وكان بيني وبينه معرفة واتصال وقامت بينهما مراسلات شعرية..." وكان ابن عثمان قد مدحه حين قال فيه:

يا واحد الناس في علم وفي شرف	وأفضل القوم في ذات وفي سلف
وتحفة ظهرت ما إن يعادلها	شيء نفاستها أربت عن التحف
وبحر علم طما فما تنقصه	الوراد كلا ولا اغتراف مغترف
ومعدنا لنفيس الدر من أجل ذا	سميت يا ذا المعالي مصطفى الصدي ⁽⁵⁴⁵⁾ .

كما سمحت الفرصة لابن عثمان التعرف على مدارس إسطنبول ومراتبها والقضاء وشؤونها. وقد ذكر ذلك مفصلا في رحلته، لكن ارتأينا أن ننقل ما جاء عند الزباني في الترجمانة، حتى لا نقع في التكرار والإطناب، إذ أن وصفهما لهذا الجانب كان متشابهما في الغالب⁽⁵⁴⁶⁾.

(543) الغاشي، ص: 594.

(544) نفس المرجع، ص ص: 593-595.

(545) المكتاسي، إحرار المعلى والرقيب، ص: 41.

(546) نفس المصدر، ص ص: 37-40.

لما كان ابن عثمان مقيماً في إسطنبول ورد على الحضرة التركية أبو القاسم الزياتي موفداً من قبل السلطان محمد بن عبد الله، يرافقه السفير التركي إسماعيل أفندي، حاملاً للسلطان العثماني هدايا ومكاتب في الشؤون المتعلقة بالدولتين، ولما وصل المركب المقل للزياتي، وجد في انتظاره أعضاء السفارة السابقة⁽⁵⁴⁷⁾.

وأثناء مكوثه بإسطنبول أخذت الدولة العثمانية تتأهب للحرب ضد الروس والنمسا، ولما عزم ابن عثمان التوجه إلى البقاع المقدسة، طلب منه السلطان وأعيان الدولة العثمانية الدعاء هناك، ثم هيأت له قافلة، حملت الأثقال والمتاع والهدايا⁽⁵⁴⁸⁾.

قال ابن عثمان: "وكان السلطان قد مهد الله له الأوطان وقد عين لنا الخيام والبهايم لحمل أثاثنا وأثقالنا والمحامل لركوبنا وجميع الأسباب أدام الله معروفه... والكل من بركة سيدنا أمير المؤمنين مرسلنا وسيدنا، فإنما فعل معنا ذلك مراعاة لأجله واعتباراً لإحسانه أيده له معه بقوله وفعله (كذا)..."⁽⁵⁴⁹⁾.

- رحلة أبي القاسم الزياتي:

كانت رحلة الزياتي إلى إسطنبول في 20 رجب سنة 1200هـ/1785م، حيث نزل في دار ضيافة خاصة، وتوافد عليهم أعيان الدولة وكبرائها بالهدايا، وبعد مضي خمسة أيام استدعاهم الصدر الأعظم لملاقاته في داره، أين أكرمهم وأحسن ضيافتهم وبعد السؤال عن حالهم وعن ظروف السفر، قدمت إليهم ثياب فاخرة تسمى (الأكراك)، ثم انصرفوا من حضرة الصدر الأعظم، بعدما قدموا له الرسائل السلطانية حتى تترجم وتفهم ليتم تقديمها للسلطان على ما جرت عليه العادة، ثم ساروا بعد ذلك إلى خليفة الوزير الأعظم المسمى بالكاهية، فعاملهم بما عاملهم رئيسه⁽⁵⁵⁰⁾، وكان الكاهية من أصل عربي شريف - حسب الزياتي - وكان مؤرخاً فاضلاً يحسن اللسان العربي، إذ كان يستضيفه كل ليلة خميس في بيته⁽⁵⁵¹⁾،

(547) الفاسي، مجلة المغرب الجديد، ع13، ص:47.

(548) المكناسي، إحرار المعلى والرقيب، ص: 73.

(549) نفس المصدر، ص: 73.

(550) ابن زيدان، الإتحاف، ج3، ص: 354 .

(551) الزياتي، الترجمانة الكبرى، ص:99.

ثم استدعي الزياني ومن معه إلى الدفتر دار ففعل ذلك معهم، ثم رجعوا إلى محل إقامتهم. وما لبثوا طويلا حتى بعث إليهم، يعلمهم عن وقت مقابلة السلطان، وفي 27 من شوال 1200 هـ توجهوا لمقابلة السلطان يتقدمهم الصدر الأعظم وفقا لمراسيم الاستقبال⁽⁵⁵²⁾.

وعلى إثر ذلك قام الآغا الذي نزل عنده الزياني ضيفا بالتوجه مع الزياني للوقوف على جميع الأماكن المهمة والمعتبرة في إسطنبول كبيت المال ودار ضرب السكة، ودار الصنعة المخصصة للمدافع والمهاريس، ودار القز التي يصنع فيها الديباج والطرز والألوية والستور وكذا دار الزجاج والبلور، والطرسانة التي تصنع فيها المراكب الجهادية وتجهز، ومراسي مراكب السلطان، ودار الهندسة، التي يدرس فيها طلبة الهندسة والحساب والتنجيم، ودار الكاغيد، التي تصنع فيها أنواع مختلفة من الورق، ودار العدة التي يصنع بها آلات الحرب، ودار النيشان التي يتعلمون فيها الرماية من المدافع والمهاريس، وكان الزياني يتلقى شروحات مفصلة عن كل صنعة يدخل دارها، ويدون كل ما سمعه عنها⁽⁵⁵³⁾.

وأثناء تواجده بإسطنبول توجه الزياني لزيارة مجموعة من المساجد وكان مسجد الملوك العشرة بإسطنبول أول ما زاره، وكل مسجد زاره إلا واطلع على خزانة كتبه، ومسجد الملوك العشرة -حسب الزياني- دار عظيمة في شكل مدرسة مجهزة بالكثير من المقاعد وبعدد لا يحصى من الطلبة⁽⁵⁵⁴⁾.

ومسجد السليمانية الذي زاره الزياني هو الآخر، اطلع على خزانة كتبه وتفقد فهارسها، ومنها فهرسة السلطان سليمان القانوني، مكتوبة في أوراق من فضة على شكل صفائح (أوراق القزدير) كتابتها باللغة التركية منحوتة في الفضة، مطعمة بحروف من ذهب. ولقد صارت هذه الفهرسة أصلا معتبرا عند ملوك الأتراك تنقل إلى دار السلطنة عند الضرورة، فتوضع بين يدي السلطان وشيخ الإسلام⁽⁵⁵⁵⁾ والقضاة والعلماء والوزراء والأمراء، يتبركون

(552) ابن زيدان، الإتحاف، ج3، ص: 354.

(553) الزياني، الترجمانة الكبرى، ص ص: 99-100.

(554) نفس المصدر، ص ص: 99-100.

(555) أعلى منصب ديني في الدولة العثمانية. كان مسؤولا عن تعيين القضاة وعزلهم والإشراف على التدريس و المدارس وإصدار الفتاوى الشرعية، وقد استخدم هذا اللقب في نهاية القرن السابع عشر الميلادي بعد أن كان يسمى مفتيا. بدأ ترشيح شيخ الإسلام لمجلس الوكلاء منذ القرن التاسع عشر الميلادي، واستمر إلى نهاية الدولة العثمانية. أنظر: - صابان، ص: 142.

بها، ثم يكتب شيخ الإسلام بعد ذلك البيعة للسلطان، حيث فيها يرفع نسبه إلى السلطان سليمان القانوني، كما يدون فيها أشياخه الذين أخذ عنهم العلم، ثم تمهر بخواتيم، وقد اطلع الزياني على كتاب "تأليف الروح" لكمال الدين باشا (ت 1200هـ/1785م) وهو كتاب يتناول سيرة ملوك آل عثمان وتاريخ دولتهم حتى عهد السلطان عبد الحميد الأول⁽⁵⁵⁶⁾.

وأثناء استقبال الزياني مرة أخرى من طرف الصدر الأعظم كمال الدين باشا، كان برفقته ابن عثمان المكناسي وقد تبادل الرجلان الحديث وأطلع الزياني الصدر الأعظم على ما ألفه في تاريخ الدولة العلوية وتاريخ اسطنبول وكذا عن كتابه "الترجمان المغرب"⁽⁵⁵⁷⁾ ما وفيه من أخبار عن دولة المغرب، كما أشار الزياني إلى ابن عثمان وكيف تحامل عليه لما علم منه ذلك، ثم ما دار بينهما من أخذ وجذب.

لم يجد كمال الدين باشا من بد سوى الثناء والمدح على الزياني ودولة المغرب بكلام طويل عريض⁽⁵⁵⁸⁾.

وحسب الزياني فإن كمال الدين باشا أخذ عن الزياني ما سمعه من تاريخ بلاد المغرب، فأضافه إلى كتابه، كما أن الزياني أخذ عنه من الأخبار، أضافها في الترجمان المغرب⁽⁵⁵⁹⁾. يبدو أن مهمة ابن عثمان ومهمة الزياني في إسطنبول كانت أكثر من مجرد سفارة، بل تعدت ذلك لتكون بروتوكول تعاون وتبادل ثقافي بين المغرب والدولة العثمانية، فقد سنحت لهما الفرصة بعد إطلاعهما على خزائن الكتب، الوقوف على نظام التدريس في المدارس التركية⁽⁵⁶⁰⁾.

(556) الزياني، الترجمانة الكبرى، ص:103.

(557) الترجمان المغرب في أخبار دول المشرق والمغرب، يقع في مجلد ضخيم، فرغ من تأليفه سنة (1228هـ/ 1813م)، يوجد بالخزانة البدرافية بفاس، وبالخزانة العامة تحت عدد 658، طبعت أجزاء منه باسم: "الخبر عن أول دولة من دول الأشراف العلويين من أولاد مولانا محمد الشريف". والقسم الخاص بتاريخ الدولة العلوية. أنظر:

- ابن سودة، دليل مؤرخي المغرب الأقصى، ص:96.

(558) الزياني، الترجمانة الكبرى، ص:103.

(559) نفس المصدر، ص ص:109-110.

(560) اصطلاح على تسمية المدارس الشرعية في الدولة العثمانية واسطنبول، وكان المتخرج فيها يسمى ملازما، يسجل في دفتر وينتظر إلى أن يعين في وظيفة، وكان أمامه ثلاث خيارات: القضاء، والتدريس أو وظيفة إدارية. وكانت الدراسة في الدولة العثمانية مجانية ويتم توفير إعاشة الطالب كاملا من لدن الدولة، وقد انتشر صيت مدارس الفاتح ومدارس السليمانية كثيرا. والمدرسة في الدولة العثمانية ذات مدلول معين ومحدود، يقصد بها المدارس الدينية، سواء كانت =

وكان السلطان محمد بن عبد الله قد علق آمالا كبيرة على السفارة المغربية إلى إسطنبول، خاصة سفارة الزياني التي جاءت في ظروف شهد فيها المغرب والدولة العثمانية محاولات للتقارب والتعاون⁽⁵⁶¹⁾، مع العلم أن كلا من الدولتين انتهجتا في هذه المرحلة جملة من الإصلاحات المختلفة لمواكبة التطور العلمي والتقني الحاصل في أوروبا، وكانت الدولة العثمانية السبّاقة للإصلاحات، ويبدو أن تواجد ابن عثمان والزياني في إسطنبول كان من باب الوقوف على هذه الإصلاحات. وإليك ما ذكره الزياني عن نظام القضاء والتعليم في إسطنبول:

أ- ترتيب القضاة:

- 1 - شيخ الإسلام: وهو مفتي السلطنة العثمانية وهو بمنزلة الوزير الأعظم، لا يوليه ولا يعزله إلا السلطان متى شاء، يتقاضى في كل شهر ألفان وسبعمئة قرش⁽⁵⁶²⁾.
- 2- قاضي عسكر الروميلي⁽⁵⁶³⁾: أي قاضي قضاة بلاد الروم كلها، يتقاضى ألفي قرش كل شهر.
- 3- قاضي عسكر الأناضول: وهو قاضي قضاة بلاد العرب كلها، يتقاضى في كل شهر ألف وخمسمئة قرش.
- 4- قاضي مدينة اسطنبول: له في كل شهر ألف قرش.
- 5- قاضي الحرمين، مكة والمدينة: له في كل شهر خمسمئة قرش⁽⁵⁶⁴⁾.

=للمراحل الدراسية والأولى والثانية أو العالية (الجامعة وما بعدها) . وللدلالة على مرحلة معينة يضاف إليها ذكر تلك المرحلة. فيقال المدارس الرشدية ويقصد بها الإعدادية. أنظر:

- صابان، ص: 206.

⁽⁵⁶¹⁾ الغاشي، ص: 241.

⁽⁵⁶²⁾ الاسم الذي أطلق على المسكوكات الأجنبية المستعملة أو المتداولة في الدولة العثمانية بوجه عام. فإذا كانت ذهباً أطلق عليها القرش الأحمر، وإذا كانت الكلمة مجردة من الإضافة قصدت بها السكة الفضية. ولها أنواع:

- القرش الأسود: ويطلق على العملة الألمانية والإسبانية.

- القرش الأسدي: عملة هولندية وتساوي ثلث الذهب العثماني.

- قرش سوليا: وهي العملة الفضية للويس الحادي عشر. أنظر:

- صابان، ص: 178.

⁽⁵⁶³⁾ اسم أطلق على أراضي الدولة العثمانية الواقعة في أوروبا، وانتقل هذا الاسم إلى اللغة العربية باسم الروملي. أنظر:

- نفس المرجع، ص: 127.

⁽⁵⁶⁴⁾ الزياني، الترجمانة الكبرى، ص: 111.

- 6- قاضي بورصة ودمشق ومصر: له في كل شهر أربعمئة قرش.
- 7- قاضي الاسكدار،⁽⁵⁶⁵⁾ وسلطان أيوب⁽⁵⁶⁶⁾ والقدس الشريف، وحلب وغيرها من المدن الشام وتركيا⁽⁵⁶⁷⁾.

ب- المدرسون:

- أكبرهم رتبة معلمو مدرسة السليمانية،⁽⁵⁶⁸⁾ هذه الأخيرة تظم خمس مدارس، ويتقاضى معلموها في كل شهر خمس وخمسين قرشا من مداخيل أوقافها⁽⁵⁶⁹⁾.
- معلمو ملحقة السليمانية: وفيها خمس وأربعون مدرسة، يتقاضى كل واحد منهم خمسون قرشا من أوقافها.
- مدرسو حركة التمثل: ضمن خمسة وثلاثين مدرسة، يتقاضى كل واحد منهم خمس وأربعون قرشا.
- مدرسو رتبة التمثيل: ضمن ثلاثين مدرسة، لهم في كل شهر من الوقف خمسة وثلاثون قرشا.
- مدرسو رتبة الصحن⁽⁵⁷⁰⁾ ضمن ثمانية مدارس بناها السلطان محمد الفاتح⁽⁵⁷¹⁾ لما فتح إسطنبول، يتقاضى الواحد منهم كل شهر ثلاثون قرشا⁽⁵⁷²⁾.

(565) اسكدار هي الضفة الشرقية من اسطنبول. أنظر:

- المحامي، ص: 340.

(566) نسبة إلى مسجد السلطان أيوب في اسطنبول وهو بجوار ضريح الصحابي الجليل أبي أيوب الأنصار.

(567) الزباني، الترجمانة الكبرى، ص: 111.

(568) من ضمن هذه المدارس كلية السليمانية التي بناها السلطان سليمان القانوني في الفترة من 1549 إلى 1556م وهي تتكون من المسجد الجامع، ودار الحديث ودار الشفاء والإمارة ومدرسة (كلية) الطب، والحمام والمكتب... الخ. وكان يتم فيها تدريس مواد العلوم البحتة مثل الرياضيات وعلم الفلك، والفيزياء والكيمياء. وكانت بمثابة العلوم في الوقت الراهن. وكان المتخرج من كلية الطب يتخرج طبيبا عاما وطبيباً للعيون. أنظر:

- صابان، ص: 192.

(569) الزباني، الترجمانة الكبرى، ص: 111.

(570) سميت بالصحن الثمانية أو المدارس الثمانية نسبة إلى صحنها الواقعة في شمال مسجد الفاتح وجنوبه (أربعة في الشمال وأربعة في الجنوب)، تضم مختلف الفنون والعلوم، وهي بالمفهوم المعاصر بمثابة جامعة. أنظر:

- أحمد آق كوندوز، سعيد أوزتوك، الدولة العثمانية المجهولة، وقف البحوث العثمانية، إسطنبول، 2008، ص: 627-628.

(571) وهو السلطان مراد الثاني، ولد في مدينة أدرنة عام (833هـ/ 1429م) تولى العرش العثماني عام (855هـ/ 1451م)، وحال جلوسه على العرش وضع نصب عينيه تنفيذ وصية والده القاضية بفتح القسطنطينية، وقد تحققت هذه=

- مدرسو ملحقة الصحن ضمن ثمانين مدرسة، يتقاضى الواحد منهم عشرون قرشا شهريا.
- مدرسو حركة الداخل ضمن ستين مدرسة، يتقاضى الواحد منهم عشرة قروش كل شهر.

- مدرسو حركة الخارج⁽⁵⁷³⁾ ضمن خمسين مدرسة، يتقاضى الواحد منهم في الشهر عشرة قروش⁽⁵⁷⁴⁾.

إن هذا الترتيب في المدارس وكذا المدرسين لا يتم لأحد من طلاب العلم في إسطنبول حتى يلزم القراءة والكتابة بهذه المدارس كلها، من أدناها إلى أعلاها، يقطعها الطالب في سبعة أعوام، ثم يخضع الطالب إلى امتحان التميز.

وبعد اختيار الناجحين حسب الترتيب الأول فما يليه، يحال الناجحون بإجازاتهم إلى شيخ الإسلام الذي بدوره يمنحهم الموافقة للتدريس في المدارس الصغرى. وفي عام يترقى الناجحون في التدريس من مدرسة صغيرة إلى الأكبر منها إلى أكبر مدرسة وهي مدرسة السليمانية، وعندها يسرح لهم شيخ الإسلام تولي القضاء أو الحجابة أو التتجيم. أما الراسبون في الامتحان فيعودون للدراسة حتى يتم اختبارهم مرة أخرى في سنة جديدة⁽⁵⁷⁵⁾.

لقد عبر الزباني عن سروره العميق بثناء الحياة الفكرية والثقافية في إسطنبول ولدى رجوعه إلى المغرب، اقتنى مجموعة من الكتب كان السلطان محمد بن عبد الله قد أوصاه بها، بالإضافة إلى ذلك أهداه البلاط العثماني مجموعة من الكتب الأخرى النادرة.⁽⁵⁷⁶⁾ قال الزباني: "ولما قضيت الغرض واشتريت الكتب التي أوصاني بشرائها أمير المؤمنين، وهو

=الوصية على يد محمد الفاتح في 01 أبريل 1453م، حكم محمد الفاتح واحد وثلاثين سنة، وعاش ثلاثة وخمسين سنة، وخلال مدة حكمه فتح مملكتين أوريبيتين، واستولى على أكثر من مائتي مدينة، وبنى عدة جوامع ومدارس. أنظر:
- آصاف، ص: 48-52.

(572) الزباني، الترجمانة الكبرى، ص: 112.

(573) وهي أول مراحل التعليم (الشرعي) في الدولة العثمانية، وكانت تتكون من قسمين: ابتدائية الخارج وحركة الداخل. أنظر: - صابان، ص: 206.

(574) الزباني، الترجمانة الكبرى، ص: 112.

(575) نفس المصدر، ص: 112-113.

(576) نفس المصدر، ص: 126-127.

مسند أبي حنيفة النعمان⁽⁵⁷⁷⁾، ومسند الإمام الشافعي⁽⁵⁷⁸⁾، ومسند الإمام أحمد،⁽⁵⁷⁹⁾ والطريقة المحمدية المختصرة، اقتصر فيها على ما هو مشهور بين أعلام الأمة. " كما قدم الوزير الأعظم للزياني اختصار كتاب المواهب الأربع في السفر، وتأليف الدرر المتداول في اسطنبول في الفقه الحنفي، كخليل⁽⁵⁸⁰⁾ عند المالكية، وكذا شرحه المسمى بالغرر على الدرر⁽⁵⁸¹⁾ .

⁽⁵⁷⁷⁾ النعمان بن ثابت: صاحب المذهب الحنفي (80هـ-150هـ/699م-799م) ولد بالكوفة، فقيه ومحدث ولغوي بارع، درس الفقه على يد شيخه حماد بن أبي سليمان. أنظر :

- الياضي أبو محمد عبد الله بن أسعد بن علي، مرآة الجنان وعبرة اليقظان بحوادث الزمان، د. م. ط، د. ت. ط، ص: 143.

⁽⁵⁷⁸⁾ محمد بن إدريس: صاحب المذهب الشافعي (150 هـ-204 هـ / 767م-820م) مجدد الإسلام في القرن 2هـ كما لقبه بذلك أحمد بن حنبل وهو أحد أئمة أهل السنة ومؤسس علم أصول الفقه وأول من وضع كتاب لأصول الفقه سماه الرسالة. أنظر :

- الإمام الشافعي، الرسالة، تحقيق ونشر أحمد محمد شاكر، د. م. ط، د. ت. ط، ص: 5-15، (المكتبة الشاملة، إص.ث).

⁽⁵⁷⁹⁾ أحمد بن حنبل: ولد ببغداد سنة (164هـ - 780م)، محدث وفقه كان إماماً في كليهما، توفي وعمره 77 سنة وهو إمام أهل السنة والجماعة، صاحب المذهب الحنبلي (ت241هـ/855م).

أنظر : - أحمد بن صالح الشامي، فقه العبادات الحنبلي، د. م. ط، 1405هـ/1985م، ص: 11-29، (المكتبة الشاملة، إص.ث).

⁽⁵⁸⁰⁾ خليل بن إسحاق الجندي (ت 776 هـ/1374م)، فقيه مالكي مصري، من كبار العلماء في علوم الفقه، له كتاب المختصر، أكثر كتب الفقه تداولاً بين المالكية. أنظر :

- حرفوش، ص: 273.

⁽⁵⁸¹⁾ الزياني، الترجمانة الكبرى، ص ص: 125-126.

الفصل الثاني

علاقات المغرب مع إيلات المشرق

I - علاقات المغرب مع الحجاز:

1 - صلات حكام المغرب العلويين بحكام الحجاز:

1.1- مع أمراء الحجاز أشراف مكة والمدينة:

إن الصلات بين أشراف الحجاز وأمراء الأسرة العلوية الحاكمة في المغرب قديمة، إذ تمتد إلى المولى محمد ابن الشريف (محمد الأول)، فقد كانت له معهم مراسلات عديدة بحكم صلة القرابة للبيت النبوي وكذا في أعقاب الخلافات التي كانت تنشأ من حين لآخر بين أشراف مكة وأشراف المدينة والتي كان الولاة الأتراك يغذونها ويستفيدون منها⁽⁵⁸²⁾ لإحكام قبضتهم على الحجاز، ومن بين هذه المراسلات، رسالة بعث بها المولى محمد الشريف إلى الحجاز لإصلاح ذات البين بين بني عمه من أشراف مكة والمدينة، بل ولترهيبهم أيضا إن هم لم يمتثلوا لنصحه. وهذا إن دل على شيء، فإنما يدل على امتداد نفوذ المولى محمد إلى تلك الجهات على ما ذهب إليه ابن زيدان والتازي وغيرهما من مؤرخي المخزن المغربي⁽⁵⁸³⁾.

ومما جاء في الرسالة: "...الحسنة في نفسها حسنة وهي من بيت النبوة أحسن، والسيئة في نفسها سيئة وهي من بيت النبوة أشين... وأقسم بالله العظيم ونسب النبي الكريم وبالزمزم والحطيم إن لم تنتهوا عند حدكم لأغمدن فيكم سيف جدكم (كذا)⁽⁵⁸⁴⁾.

هذا وقد امتد جسر العلاقات بين أشراف الحجاز وحكام المغرب لأيام المولى إسماعيل، الذي سار على خطى أخيه المولى محمد في علاقته معهم، إذ نجد في رسالة منه سنة

⁽⁵⁸²⁾ كان الصراع على أشده حول منصب الشرافة في مكة، بين الأسرة الموسوية (بني موسى) والأسرة السليمانية (بني سليمان) والأسرة الهاشمية، والأسرة الإدريسية، خاصة خلال القرن 13م، وبداية من القرن 15م ظفرت الأسرة الإدريسية بمنصب الشرافة عن طريق أحد أفرادها يدعى بركات بن حسن واستمر حكم آل بركات إلى النصف الثاني من القرن 18م أين ظهرت منافسة شديدة لهم من طرف بني زيد فرع من بني هاشم هؤلاء الأواخر انتقل لهم منصب الشرافة بداية من النصف الثاني من القرن 18م، وفي خضم هذه النزاعات كان السلاطين العثمانيون يتدخلون في بعض الأحيان لعزل من يريدون عزله من الأشراف عن طريق باشا الشام. فكان الأخير ينتهز الفرصة التي يبقى فيها الحجاج في مكة فيقوم عزل الشريف المطلوب عزله ويولي غيره من نفس الأسرة، كما كان أشراف مكة يلقون الدعم من طرف حكام مصر والشام واليمن، واستمرت المنازعات على منصب الشرافة على أشدها حتى نزلت الجيوش المصرية الحجاز في مطلع القرن 19م. أنظر:

- السيد رجب حراز، الدولة العثمانية وشبه جزيرة العرب، 1840-1909م، د.ط، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، 1970، ص: 104.

⁽⁵⁸³⁾ التازي، التاريخ الدبلوماسي، مج 9، ص: 54.

⁽⁵⁸⁴⁾ نفس المرجع، ص: 54.

(1104هـ/1692م) موجهة إلى الشريف سعد بن زيد أمير مكة⁽⁵⁸⁵⁾، يحثه فيها على صلة الرحم وإصلاح ذات البين وكذا ينوه فيها ويشيد بأهمية الخلافة ومكانتها في آل البيت. وقد أورد المؤرخ عبد الرحمن ابن زيدان نص الرسالة في كتابه العز والصولة، في أكثر من ثماني صفحات، ولا بأس هنا أن نذكر بعض ما جاء فيها مختصراً، فبعد التحية: "... اعلم أدام الله إعزازك... إن لحمه النسب بيننا لا تخفى عليك وإن كنا في صدر هذا الكتاب المبارك نشير بطرق من منبعها وعصرها إليك، فقد جمعنا في النسب المتصل الواصل، سيدنا عبد الله الكامل، وأولاده الأشقاء (كذا) هم أولاد زمعة الأسدية⁽⁵⁸⁶⁾، جدنا الذي تفرعنا منه وهو ذو النفس الزكية⁽⁵⁸⁷⁾، وموسى الجون وأنتم ذريته وأخوهما إبراهيم⁽⁵⁸⁸⁾ ولا تخفى عنكم حقيقته، فنحن والحمد لله إخوة لأم وأب، وقد أوجب الله تعالى على المسلمين أموراً وأمرهم بالعمل بها وامتنال أمره فيها، ونهاهم عن أمور ونهاهم باجتنابها، وعدم ارتكابها... ولو كنا بالقرب منكم لاستعنا بالله تعالى فيما نشد به أزركم، ونعصد به أمركم، ولكن حيث شطت الدار، وبعد المزار، فنية المرء أبلغ من عمله، والله يبلغ كل واحد سؤله وأمله، وقد تتوب الأقدام عندما تعذر الأقدام، هذا والنصيحة المحضة واجبة بين المسلمين... الخلافة قدرها عند الله عظيم، وثوابها عند الله جسيم، وهي وراثثة النبوة⁽⁵⁸⁹⁾... ولاسيما إذا كانت

(585) سعد بن زيد بن محسن، ولد في مكة عام (1052هـ/1642م) تولى إمارة مكة سنة (1088هـ/1677م)، عزل منها سنة (1106هـ/1694م) وولي مكانه الشريف عبد الله بن هاشم، فجمع سعد جموعاً وقاتل عبد الله وظفر به في نفس السنة، واستقر في الإمارة، ثم لم يلبث حتى تنازل عنها لابنه سعيد، مات مقتولاً بعد خمس عشرة سنة قضاها في الحكم. أنظر:

- الزركلي، ج3، ص: 85.

(586) هذه النسبة إلى أسد وهم عدة قبائل، منهم أسد بن عبد العزي بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤيين غالب بن قريش، وإلى أسد بن خزيمه بن مدركة بن الياس بن مضر، وأسد بن ربيعة بن نزار... وزمعة قبيلة من قريش. أنظر:

- ابن منصور التميمي السمعاني، الأنساب، ج1، ط1، تقديم وتعليق عبد الله عمر البارودي، مركز الخدمات والأبحاث الثقافية، دار الجنان، بيروت، 1988م، ص: 138.

(587) هو محمد بن عبد الله بن الحسن بن علي رضي الله عنهم الملقب بالنفس الزكية، عرف بمعارضته لبني العباس منذ سنة (132هـ/749م) على إثر توليهم الخلافة بدل من العلويين من آل البيت، وأعلن ثورته بصورة علنية في عهد أبي جعفر المنصور سنة (140هـ/757م) في الحجاز، استشهد سنة (145هـ/763).

(588) هو إبراهيم بن عبد الله بن الحسن بن علي رضي الله عنهم أخو النفس الزكية، خرج مع أخيه في ثورته على أبي جعفر المنصور وبايعه أكثر من أربعة آلاف مقاتل. كانت بينه وبين أبي جعفر المنصور وقائع هائلة وممن أزره في ثورته الإمام أبو حنيفة النعمان، استشهد مع أخيه النفس الزكية سنة (145هـ/763). أنظر:

- الزركلي، ج1، ص: 48.

(589) ابن زيدان، العز والصولة، ج1، ص ص: 279-287.

الخلافة في بيت من قريش... وأنت والحمد لله من أعلى قريش نسبا وحسبا، فالحمد لله على تلك النعمة التي ألبسك الله جلبابها وفتح عليك بابها... وإن كنت والحمد لله من بيت العدل، فقد ندب الله تعالى التذكرة... وإذا صدرت التذكرة ووقعت الموعظة من أهل بيت واحد، كانت أوقع في النفوس... وقد كنت قبل هذا في ولاية تلك الأماكن الشريفة، وسعدت بك وأبيك من قبلك تلكم الأقطار كلها، إذ داركم دار الإمارة، والمملكة والبركة يعرفها الناس القرباء والبعداء بأسرهم (كذا)، ويفدونها بأموالهم وأنفسهم، ثم كان من قدر الله ما كان، فأقمت سنين عديدة في غير أرضك ووطنك، وأصبحت بها رقا لأهلك وأولادك وسكنك، فليعتبر ابن عمنا بما فات عليه، وليتذكر قول الله تعالى: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ﴾⁽⁵⁹⁰⁾، والله ما أنجزنا إليك هذه الرسالة إلا حيث علمنا وتحققنا أنها تتفعك وتقع منك إن شاء الله كل موقع... ولو كان غيرك، ما كانت تطيب أنفسنا لمخاطبته بمثل هذا الخطاب، ووالله إلا كان ذلك الرجل ابن عمنا أحمد بن غالب هنالك وإن كنتم متساويين في النسبة الشريفة، فلم تسكن له أنفسنا، ولا طابت بولايته خواطرنا، وإن كان هذا يعرف حقنا ولا يجهل قدرنا، ودائما كان يكاتبنا ويواصلنا، ويعمل الخير مع أبناء عمنا، ولقد كان ابن عمنا مولاي هاشم رحمه الله أيام قدومه للحجاز تعارف معه واصطحبا، وعمل معه خيرا كثيرا، ولما أن جاء من هناك أعاد علينا جميع ما عمله معه من الخير، ومع ذلك فلم نجبه عن كتبه إلا بمجرد السلام والمواصلة، وقط ما خطبناه بنصيحة، ولا أردنا معه كلاما ما هو زائد على السلام، الواجب رده بين الأنام، وأما أنت فوالله إلا كانت نفوسنا تميل إليك وتأنس بك، وعندما بلغ وفد الحاج، أول ما سألنا شيخ الركب الشيخ الحسيني عنك، فبشرنا برجوعك لبلدك ووطنك، وأخبرنا بعودتك لذلك الحرم الشريف، وولاية عملك، وفرحنا لذلك فرحا كثيرا (كذا)... ففكرنا في قدوم الحج لتلك البلاد، فرأيناه بطيء علينا (كذا)، وألقى الله في خلدنا هذا الكلام، وكتبنا به إليك، ووالله ثم والله ما شرعنا في كتبه لك إلا في اليوم الثالث من قدوم الحاج، واخترنا للسفارة هذا الرجل الذي يرد عليك به إن شاء الله (كذا) ... ووصيفنا الحاج أحمد لما عهدنا فيه من الفائدة والنجدة والصبر، وقد كان من قبل هذا في البلاد المشرقية، وجال في تلكم الأقطار، وتردد ما بين حواضرها وبواديها سفيرا أو ساعيا بين تجارها وأعيانها نحو من ثمانية عشرة سنة...

(590) سورة الحشر، الآية: 2.

وهو واحد من الملازمين لأعتاب دارنا العلية بها، فاخترناه لهذه المسألة من هذه الحثيثة⁽⁵⁹¹⁾.

كما كان لرحلات الحج الرسمية التي كان يبعث بها المخزن المغربي إلى الحجاز الأثر البالغ في توطيد العلاقات السياسية وكذا أوامر الأخوة بين أشرف المغرب الأمراء العلويين وأشرف مكة والمدينة.

وعليه فقد دأب الملوك العلويين على الاهتمام بركب الحج المغربي، وتزويده بالصلوات والإعانات المادية، يقدمها للفقراء والمحتاجين إذا حط الرحال بمكة، وحتى يتسم الركب بالصبغة الرسمية كان حكام المغرب يدعمونه بشخصيات لها من المكانة والحظوة عند المخزن، مثل أمير الركب ويكون من علية القوم، والقاضي، ثم حامية للحراسة وأعيان البلد. وتسهيلا لمأمورية الركب فإنه كان يتجهز بما هو ضروري من المؤن والعتاد الحربي، بل إن المولى الرشيد مثلا أمر بحفر آبار في طريق الحجيج سميت بآبار السلطان، كانت تسقى منها قوافل الحجاج على طول الطريق المؤدية إلى الحجاز⁽⁵⁹²⁾.

وتجدر الإشارة إلى أن ركب الحج المغربي بقدر ما كان يكتسي طابعا دينيا، كان له طابع تجاري كذلك، فهو مناسبة للحجاج والتجار المغاربة لترويج سلعهم وبيعها في طريقهم إلى الحجاز، خاصة إذا علمنا أن عدد الحجاج في الركب أحيانا يعد بالآلاف⁽⁵⁹³⁾.

إن أول ما نستأهل به الكلام في هذا الموضوع، الرحلة التي قامت بها السيدة خاتمة بنت بكار المغاربة⁽⁵⁹⁴⁾ زوجة المولى إسماعيل ملك المغرب إلى الحجاز، رفقة حفيدها الأمير محمد بن عبد الله في جمادي الثانية سنة (1134هـ/ 1721م) لأداء فريضة الحج⁽⁵⁹⁵⁾.

(591) ابن زيدان، العز والصولة، ج1، ص : 279-287.

(592) بوشتي بوعسرية، من مصادر تاريخ العلاقات بين المغرب وشبه الجزيرة العربية، رحلات المغاربة إلى الحرمين الشريفين (ق12-14هـ/ 18-20م)، ط1، إعداد محمد ياسر الهلالي، الجمعية المغربية للبحث التاريخي، المطبعة الأمنية، الرباط، ص: 15.

(593) نفس المرجع، ص: 19.

(594) كبيرة سيدات القصر الإسماعيلي وزوجة مولى إسماعيل المثقفة، تزوجها أثناء قيامه برحلة تمهيدية عبر صحراء المغرب، عام (1089هـ/ 1678م)، لعبت دورا كبيرا على المستوى السياسي والاجتماعي في عهد زوجها وخلال أزمة العبيد، بحيث مهدت الملك لابنها عبد الله. أنظر:

- القادري، ص: 355، (الهامش).

(595) الضعيف، ص: 115.

ونظرا لصلة القرابة التي تجمع حكام المغرب العلويين بأمرأ مكة الأشرف، فقد خرج أمير بلدة الينبوع الشريف عبد المعين مع وفد له لاستقبال الحج المغربي الذي كانت به الأميرة، معلنين فرحتهم بألعاب البارود، فأحاطوا الركب بالحفاوة والعناية. كما اعتنت الأميرة بدورها بوفد الينبوع بالعطايا والهدايا الفاخرة، فضلا عن الأموال والثياب الرفيعة⁽⁵⁹⁶⁾.

وفي أثناء إقامتها في الحجاز أنفقت الأميرة أموالا كثيرة على الأشرف والفقراء والمحتاجين،⁽⁵⁹⁷⁾ حتى أنها حبست دارا بمكة وجعلتها للقراء وحفظ القرآن والحديث، وكانت قد اشترتها من أبناء العلامة الشيخ عبد الله بن سالم البصري بثمان يقرب ألف مثقال، وانتدبت للتدريس بهذه الدار جماعة من القراء، كما انتدبت لتدريس صحيح البخاري أحد شيوخ مكة المعروف باسم محمد الاسكندراني الضرير، وعينت الأميرة التاجر الحاج قصارة الفاسي أحد التجار المجاورين للحرم المكي للإشراف على التصرف في مداخل الدار⁽⁵⁹⁸⁾.

غير أن الحصول على هذه الدار لم يكن بالأمر السهل على ما ذكره الإسحاق⁽⁵⁹⁹⁾ أحد العلماء ووزراء السلطان عبد الله بن المولى إسماعيل، المرافقين للأميرة خنثة بنت بكار، فقد أشرف بنفسه على عقد البيع، الذي كان الحصول عليه بشق الأنفس نظرا لجور القاضي القادم من اسطنبول، ويبدو أن المشكل كان سياسيا قبل أن يكون فقها - على حد تعبير الإسحاق: "ولما ذهبنا للقاضي برسم كتب عقد الشراء، واستظهرت بمرسوم التوكيل من قبل السيدة على الشراء ودفع الثمن، واستظهر النائب عن البائع كذلك بالتوكيل، قال القاضي: لا يمكن أن يعقد البيع بين وكيلين، ولابد أن يباشر العقد أحد المتابعين بنفسه... فقلت له: أما السيدة فلا سبيل لكم إليها... وعند ذلك وجه القاضي عدلين فسمعا من البائع، لأنه كان

(596) بوعسرية، ص: 33.

(597) الضعيف، ص: 115.

(598) عبد الهادي التازي، رحلة الرحلات مكة في مائة رحلة مغربية ورحلة، ج1، د.ط، مراجعة عباس صالح طاشكندى، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، مكة عاصمة الثقافة الإسلامية، 2005، ص: 305.

(599) الإسحاق محمد بن عبد القادر المدعو الجليلي الشرقي الإسحاق، له رحلة قام بها عام (1134هـ/1730م)، تقع في مجلدين، يوجد الأول بخزانة القرويين تحت رقم: (حق. ج. ل 80-383) حبسها المولى عبد الله والمجلد الثاني بالمكتبة الزيدانية بالقصر الملكي. ينتسب الإسحاق إلى قبيلة آيت إسحاق التي استقرت بمنطقة ملوية. توفي الإسحاق سنة (1150هـ/1737م). أنظر:

- عبد العزيز بن عبد الله، الموسوعة المغربية للأعلام البشرية والحضارية، ج4، د.ط، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، 1981، ص: 37.

بحال مرض ألزمه الفراش... ولما تم العقد ولم يبق إلا كتب الوثيقة قال القاضي: لابد من مائة ريال على هذا العقد... وبمشقة اتفقنا على أداء خمسة وعشرين ريالاً دفعناها لهم، فلما قبضوها قالوا: هذا حق عقد البيع، ونعمل مجلساً آخر لكتب عقد التحبيس (كذا)...⁽⁶⁰⁰⁾.

وفي سنة (1155هـ / 1742م) بعث ملك المغرب المولى عبد الله بن إسماعيل إلى الحرمين الشريفين هدية نفيسة فيها ثلاثة وعشرون مصحفاً ما بين كبير وصغير محلاة بالذهب ومرصعة بالجواهر، من جملتها مصحف كبير يعرف بالعقباني ومصحف آخر يعرف بالعثماني⁽⁶⁰¹⁾.

وعلى إثر الكارثة التي ألمت ببركب الحجاج المغربي عام (1168هـ / 1755م) بعد تحطم سفينتهم في عرض البحر عند رجوعها من الحجاز، ووفاة العديد من الحجاج من أهل فاس وغيرهم - ما يربو عن أربعمئة شخص من بينهم القائد أحمد الوليتي الرباطي، وشريفيين من أشرف العراق المقيمين بفاس - ولم ينج من ركابها إلا عدد قليل⁽⁶⁰²⁾. وعلى إثر هذه الفاجعة أرسل أمير مكة وفادة إلى المغرب للتعزية، وكان في استقبالها السلطان عبد الله بن إسماعيل⁽⁶⁰³⁾.

أما عهد السلطان محمد بن عبد الله فقد عرفت العلاقات المغربية الحجازية قفزة نوعية، إذ في عام (1182هـ / 1768م) وجه السلطان محمد بن عبد الله ولديه المولى علي والمولى عبد السلام على رأس ركب الحج، ورافق الركب موكب عرس زفت فيه ابنتا السلطان محمد الأميرتين "لالة لبابة" إلى شريف مكة الأمير سرور، وأختها الصغرى "لالة حبيبة" لنجل

⁽⁶⁰⁰⁾ نفس المرجع، ص: 306.

⁽⁶⁰¹⁾ نسبة للصحابي الجليل، رابع الخلفاء الراشدين عثمان بن عفان رضي الله عنه. ولقد توارث المصحف ملوك المغرب والأندلس، إذ كان عند بني أمية بالأندلس، ثم انتقل إلى المغرب إلى يد عبد المؤمن بن علي مؤسس دولة الموحدين. وأما المصحف العقباني فهو مصحف عقبة بن نافع الفهري الصحابي المشهور فاتح بلاد المغرب، كان قد نسخه بالقيروان بتونس من المصحف العثماني على ما قيل، وبقي متداولاً بين أهل المغرب، إلى أن وقع بيد الأشراف السعديين، فأخذ فيه أحمد المنصور العهد لولده الشيخ ولما وصل إلى السلطان عبد الله، قدمه هدية إلى الحرم الشريف. أنظر:

- الوفراني، ص: 173 - 183. وكذلك: - محمد بن محمد بن مصطفى المشرفي، **الحلل البهية في ملوك الدولة العلوية وعد بعض مفاخرها غير المتناهية**، دراسة وتحقيق إدريس بوهليلة، ج2، ط1، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، 2005، ص: 9.

⁽⁶⁰²⁾ ابن زيدان، **الإتحاف**، ج4، ص: 522.

⁽⁶⁰³⁾ التازي، **التاريخ الدبلوماسي**، مج 9، ص: 55.

الشريف سرور⁽⁶⁰⁴⁾. وحملّ جهازهما بما يزيد عن ألف دينار ذهبية، وكذا الجواهر والأحجار الكريمة، كما وجه السلطان مع الركب جملة من الهدايا إلى الحرمين الشريفين، وللأشراف والعلماء، من أهل الحجاز واليمن، ووجه مع الركب من أعيان أهل المغرب وأولاد الأمراء وشيوخ القبائل، وجملة من الخدم وكذا عدد من الخيول المسومة ومن السلاح ما تحدث به الناس في المشرق دهرا، وكان يوم دخولهم لمكة مهرجانا عظيما حضره أهل الموسم من حجاج البلاد الإسلامية⁽⁶⁰⁵⁾.

كان رجوع الركب من الحج عام (1198هـ/1783م) وهي السنة نفسها التي أوفد فيها السلطان محمد بن عبد الله ابن عمه عبد الملك بن إدريس مع كاتيين هما ابن عثمان المكناسي وعمر الوزير وأمير الركب ابن يحيى بهدية عظيمة لأهل الحرمين الشريفين والحجاز واليمن، وكتب سلطان المغرب إلى السلطان العثماني عبد الحميد الأول أن يوجههم مع أمير صرته المتوجه إلى الحرمين الشريفين خوفا من أن يعترض ولده اليزيد طريقهم في البر فينهب أموال الركب، لذلك اختار الوفد التوجه إلى إسطنبول على ظهر سفينة إسبانية، ومنها إلى الحجاز⁽⁶⁰⁶⁾.

وكان اليزيد قد تمرد على والده السلطان محمد وفر إلى مصر، ولما عجز اليزيد عن الوصول إلى ركب الحج المغربي، اتصل بهم في مكة بعد أن كانوا فرقوا ما حملوه من أموال وهدايا على أهل مكة والمدينة، وبقيت بحوزتهم أموال أهل اليمن ومصر والعراق والشام، فجاءهم اليزيد عن حين غفلة ودخل دار ابن يحيى الذي عنده المال فنهب ما قدر عليه وخرج، فتوجه عبد الملك وأصحابه إلى والي مكة وأخبروه بالقصة، فوجه أعوانه إلى اليزيد حتى ألقوا عليه القبض وأحضره إلى والي، حيث أرغمه على رد المال فرد منه البعض، أما ما بقي منه فأنكره، ولما بلغ سلطان المغرب أمر ولده اليزيد، غضب عليه وتبرأ منه، ومنعه من دخول المغرب حتى لا تجتمع عليه القبائل ويثير الفتنة⁽⁶⁰⁷⁾. ثم وجه السلطان

(604) عبد الهادي التازي، أمير مغربي في طرابلس 1143هـ-1731م، مطبعة فضالة، المغرب، د. ت. ط.، ص: 19.

(605) أبو القاسم الزباني، الترجمان المغرب عن دول المشرق والمغرب، د. ط.، المطبعة الجمهورية، باريس، 1884، ص: 78.

(606) نفس المصدر، ص: 84.

(607) سبق للمولى اليزيد أن تحالف مع عدد من القبائل المغربية وكذا عناصر من جيش العبيد، فقام بالثورة معهم والخروج عن طاعة السلطان محمد بن عبد الله، ومبايعتهم لليزيد سنة (1189هـ-1775م). فقام السلطان محمد=

كتابا إلى الشريف سرور أمير مكة يعاتبه على إهماله أمر اليزيد وعدم إلحاق به العقوبة اللازمة، كما وجه كتابا آخر للسلطان العثماني عبد الحميد يخبره بحال ولده اليزيد وما هو عليه من العقوق وأوصاه أن لا يقبله في اسطنبول إن هو حل بها، ومكث اليزيد بالمشرق ثلاثة أعوام ولما قدم إلى المغرب سنة (1203هـ/1788م) توجه إلى ضريح مولاي عبد السلام بن مشيش⁽⁶⁰⁸⁾ ولم يقدر على مواجهة والده⁽⁶⁰⁹⁾.

وعلى إثر فراره إلى ضريح الولي عبد السلام بن مشيش بعث إليه السلطان أخاه المولى عبد السلام ليخرجه بالأمان ولما رفض سخط عليه، ثم أعلن ذلك أمام الملأ وأشهد العلماء أنه تبرأ منه لما اقترفه من أمور شنيعة في حق ركب الحج فكتبوا له ذلك بما نصه: "الحمد لله وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما وبعد: فإن مولانا أمير المؤمنين المجاهد في سبيل رب العالمين أمدّه الله بتوفيقه ومنحه كرامة سلسبيله ورحيقه، تبرأ من عهدة تولية أحد مرتبة من مراتب الدين، وأنه لا يجبر أحد على كراهة، ولو كان بيده كتاب أمره، وأن العمل ما اتفقت عليه أفاضل الجماعة المسلمين وخيارهم في محلة التولية، وأنه التزم هذا الأمر التزاما أذاعه وأفاضه وألزم على نفسه العمل بمقتضاه وصدر منه الأمر الشريف هروبا بنفسه لساحل السلامة... ذي القعدة الحرام من عام ثلاثة ومائتين وألف"⁽⁶¹⁰⁾.

=بنقلهم إلى مكناس، ثم فرقهم في البوادي ولم يرجعوا إلى فاس إلا في عهد المولى يزيّد (1205-1207هـ/1790-1792م). أنظر:

- دلندة الأرقش، عبد الحميد الأرقش، جمال بن طاهر، المغرب العربي من خلال المصادر، المركز الجامعي، د. م. ط، 2003، ص ص: 144-145.

⁽⁶⁰⁸⁾ هو عبد السلام بن مشيش بن أبي بكر بن علي الإدريسي الحسيني، ينتهي نسبه إلى المولى إدريس مؤسس الدولة الإدريسية، ولد بجبل بني عروس شمال المغرب الأقصى، جنوب غربي مدينة تطوان، بالمكان المعروف بجبل العلم، وما زال مقامه مزارا إلى اليوم. تعلم القرآن في صغره ثم جال المغرب الأقصى طالبا للعلم، وبعدها سافر إلى القاهرة ومنها إلى مكة ودرس على يد مشايخها، ثم رحل إلى بغداد وفي طريق عودته تعرف على الشيخ الولي الصالح أبي مدين الغوث ببجاية، فتنلمذ على يديه وأخذ عنه التصوف، ويمتاز تصوفه بالاعتدال القائم على حسن العمل لا على الكلام في المغيبات، استشهد في جهاد أحد المشعوذين السحرة المعروف بأبي الطواجين الكتامي سنة (625هـ/1228م). من آثاره كتاب: إعانة الراغبين في الصلاة والسلام على سيد المرسلين المعروف بـ(صلوات ابن مشيش)... أنظر:

- أبو عمران، ص ص: 500-501.

⁽⁶⁰⁹⁾ الزيان، الترجمان المغرب، ص ص: 84-85.

⁽⁶¹⁰⁾ الضعيف، ص: 197.

وكان السلطان محمد بن عبد الله قبل رجوع اليزيد إلى المغرب قد عهد إلى ابنه عبد السلام بتسديد الأموال المخصصة للحرمين الشريفين وقدرها ألف سبيكة ذهبية موزعة على الأشراف والمحتاجين باستثناء الرافضة⁽⁶¹¹⁾ الذين يكرهون الشيخين ويسبون الصحابة: "إن هؤلاء لا يأخذون ولو درهما واحدا، ومن حباهم بشيء من المال فالله حسيبه"⁽⁶¹²⁾.

إن ركب الحج المغربي الرسمي كان في كل الأحوال يلقي المشقة والمعاناة سواء في تركيبته أو في الظروف المحيطة به لا سيما الأوبئة والأمراض الفتاكة التي كانت تعصف برحلة الحج ذهابا وإيابا، فأهلكت من الحجاج أمراء ورعية خلق كثير، إذ حدث أن ألغيت رحلات الحج بسبب الفوضى والاضطرابات، مثلما حدث سنة (1158هـ/1745م) ثم سنة (1159هـ/1746م) حين اعترض خليل بك بقطاش الحاكم المملوكي لمصر طريق الحج وصادر أموال التجار المغاربة المرافقين للركب الرسمي، الأمر الذي دفع المولى عبد الله سلطان المغرب للاحتجاج بقوة لدى حاكم مصر في رسالة وجهها له ينقم فيها عليه ويطلب منه توضيحات فيما حدث: "كيف يا أمة محمد صلى الله عليه وسلم يهان ويضام حجاج بيت الله الحرام وزائرو نبينا عليه الصلاة والسلام (كذا)"⁽⁶¹³⁾. أو مثلما حدث سنة (1212هـ/1797م) عندما طلب السلطان سليمان من أهل فاس وشرفاء وزان أن يتأهبوا لأداء فريضة الحج وعين السلطان الشيخ الحاج الطاهر بادو ليكون على قائدا لركب الحج وكان شيخ الركب من مكناس، وكان محتسبا ينفق على دار السلطان بمكناس، فلما سمع به أهل فاس اغتاطوا وقالوا: "إن شيخ الركب لا يكون إلا من فاس"، ولما سمع السلطان بأمرهم بعث لشيخ الركب فرقة من الجند لترافقه نكاية في أهل فاس، ذلك أن شيخ الركب السابق وهو قدور صفيرة الفاسي، كان قد شدد على الركب في الطلوع وفي الرجوع في موسم الحج

⁽⁶¹¹⁾ من الفرق الشيعية التي ظهرت في عهد علي بن أبي طالب رضي الله عنه وتكلموا بالرفض ببيعة من يذكر أبو بكر وعمر رضي الله عنهما بالخير والفضل في الإسلام، ولم تصر لهم قوة إلا بعد موت علي ولم يظهر اسم الرفض حقيقة إلا بعد خروجهم عن زيد بن علي بن الحسين رضي الله عنه، بعد أن طلبوا رأيه في أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، فلما ذكرهما بخير رفضوا البيعة له وتسموا بالرافضة. أنظر:

- عبد المحسن الرافعي، **مجموع مؤلفات الرافضة**، د. م. ط، غزة، 1425هـ، ص: 14، (المكتبة الشاملة، إص.ث).

⁽⁶¹²⁾ التازي، **التاريخ الدبلوماسي**، ج9، ص: 56.

⁽⁶¹³⁾ يونان لبيب رزق، محمد مزين، **العلاقات المغربية المصرية منذ مطلع العصور الحديثة حتى عام 1912**، د.ط، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، 1982، ص ص: 52-53.

السابق، وأكل مال الحجاج، وورث من مات منهم وجمع مالا يحصى من أموال الحجاج، ولما تمادى أهل فاس في غيهم كتب إليهم السلطان سليمان على أن لا يخرج منهم أحد لأداء فريضة الحج، وقال لهم: "يا أهل فاس أمرتكم بالحج فأبيتم، وطلبت منكم الزكاة فامتنعتم، ولا أردتم إلا بر النصارى، فأنا أترككم لبر النصارى لكي تعودوا من جملتهم، من أجل حب الدنيا (كذا)"⁽⁶¹⁴⁾.

وتبدو السنوات الأخيرة من عهد المولى سليمان ومن بعده المولى عبد الرحمان بن هشام السنوات الأكثر قساوة على ركب الحج المغربي الرسمي وعلى المخزن، بعد تلك التي شهدتها المغرب أيام أزمة العبيد.

ففي سنة (1232هـ/ 1816م) تعرض ركب الحج الذي أرسله المولى سليمان رفقة ولديه المولى علي والمولى عمر في طريق عودته إلى الديار.⁽⁶¹⁵⁾ إلى موجة وباء فتاك اجتاح المغرب، مما دفع بالسلطان سليمان للاستعانة بمراكب الانجليز لنقل الحجاج، إلى ميناء طنجة⁽⁶¹⁶⁾.

كما حدث أن تعرض ركب الحج المغربي في عهد السلطان عبد الرحمن بن هشام سنة (1274هـ/ 1857م) إلى فاجعة مؤلمة، وعلى ما ذكره الناصري في الاستقصاء: "فقد تكون الركب من أولاده السلطان المولى علي والمولى إبراهيم والمولى عبد الله جعفر وابن عمهم المولى أبو بكر بن عبد الواحد بن محمد بن عبد الله، وبالغ السلطان في حسن تجهيزهم بما لم يتقدم مثله لإخوتهم الذين حجوا قبلهم، لا من حيث الأموال ولا من حيث الرجال، أو من حيث الأدوات والمراكب الفارهة والمرافق العديدة وبعث معهم من الأموال شيئا كثيرا لأشراف الحرمين ولكبار الفقهاء بالحرمين الشريفين، كما وجه معهم كبار التجار والأمناء العارفين بعوائد البلاد والأقاليم والأمم، مثل الحاج محمد بن الحاج أحمد الرزيني التطاواني، والحاج محمد بن جنان البارودي التلمساني وبعث معهم قاضي مكناسة الفقيه العلامة السيد المهدي بن الطالب بن سودة المري الفاسي، وأخاه العلامة السيد أحمد بن سودة..."⁽⁶¹⁷⁾.

⁽⁶¹⁴⁾ الضعيف، ص: 305.

⁽⁶¹⁵⁾ الزباني، الروضة السليمانية، ص: 259.

⁽⁶¹⁶⁾ نفس المصدر، ص: 252.

⁽⁶¹⁷⁾ الناصري، ج3، ص ص: 319-323.

"وبعدما أدى الركب فريضة الحج، صادف في مكة وباءا قاتلا مات منه خلق كثير من الناس والحجاج ومنهم الحجاج المغاربة، ومات من أولاد السلطان المولى إبراهيم بمكة والمولى جعفر بالمدينة، أما من بقي من أولاد السلطان فقد نال منهما التعب ومشقة السفر وكاد أن يصيبهم ما أصاب أخويهما الأولين لولا لطف الله، ولأنهما انفردا عن الركب بين المدينة وينبع، تعرضا لمضايقة الأعراب وقد نجيا بأعجوبة"⁽⁶¹⁸⁾.

2- الوهابية في المغرب بين الاعتقاد والتطبيق:

1.2 - السياسة الدينية للسلطان محمد بن عبد الله:

منذ احتكاك سلطان المغرب محمد بن عبد الله بأرض الحجاز على إثر رحلة الحج التي قام بها مع جدته خنثة بنت بكار وهو مهتم بكل ما يجري في المشرق العربي من أحداث، فهو من جهة مهتم بالتوتر الحاصل بين الدولة العثمانية وخصومها، ومن جهة أخرى كان يوطد صلاته بأمرأ البقاع المقدسة. ومما شغله كثيرا تلك الأفكار الإصلاحية التي حملت لواءها الحركة الوهابية⁽⁶¹⁹⁾، ومما زاد تعلق السلطان بها، الأخبار التي كان ينقلها الحجاج إلى المغرب، فكانت معظم قوافل الحج، تعج بالعلماء والفقهاء،⁽⁶²⁰⁾ الذين لا شك في صحة أخبارهم وصدق أقوالهم⁽⁶²¹⁾. وهكذا دخلت الوهابية حياة السلطان محمد بن عبد الله، فاتخذها وسيلة لدعوته الإصلاحية وطريقا لمشروعه النهضوي التحديثي بالمغرب⁽⁶²²⁾.

⁽⁶¹⁸⁾ نفس المصدر، ص: 323.

⁽⁶¹⁹⁾ إبراهيم حركات، التيارات السياسية والفكرية بالمغرب، خلال قرنيين ونصف قبل الحماية، ط1، الدار البيضاء، 1984، ص: 81.

⁽⁶²⁰⁾ أوردت بعض الدراسات أن السلطان محمد بن عبد الله، قام بعد زفاف ابنته ببضع سنين بزيارة الحجاز مع أولاده، وإن كانوا لم يحددوا سنة السفر بالضبط. فإن صح ذلك فمعناه أن السلطان ترك العرش شاغرا، وفتح باب التمرد والعصيان من جديد أمام خصومه، ولاسيما ولده اليزيد، وهذا لا يصح إن كانت معظم المصادر تؤكد على أن سفراء السلطان وبعض علماء المغرب، هم من كانوا يزودون السلطان بالأخبار عن أحوال المشرق الإسلامي، ومنها ما يخص الدعوة الوهابية من أمثال الزباني وعبد الكريم رغووان وغيرهم. أنظر:

- سامح، ص: 499.

⁽⁶²¹⁾ شارل أندري جوليان، تاريخ إفريقيا الشمالية، تونس، الجزائر، المغرب الأقصى، من البدء إلى الفتح الإسلامي، تعريب محمد مزالي، البشير بن سلامة، النشرة الثالثة، الدار التونسية للنشر، الشركة الوطنية الجزائرية، الجزائر، 1978، ص: 311.

⁽⁶²²⁾ الجابري، الثقافة، ص: 59.

فمنذ مطلع النصف الثاني من القرن الثامن عشر ظهرت تعاليم الوهابية في التيار الديني "السلفي" الذي عرف به السلطان محمد بن عبد الله⁽⁶²³⁾.

إن تبني المغرب للوهابية في هذه الفترة لا يقتصر على كونها دعوة ذات طابع إصلاحية فحسب، ولكن من جانب سياسي كذلك باعتبارها ثورة ضد الخلافة العثمانية، الشيء الذي جعل منها سلاحا إيديولوجيا ملائما في نظر المخزن، يقاوم بها خصومه في الداخل الذين كانوا أساسا من شيوخ الطرق والزوايا⁽⁶²⁴⁾، وأحد خصومه في الخارج وهم الأتراك العثمانيون في الجزائر على ما ذهب إليه الجابري⁽⁶²⁵⁾.

غير أن المؤرخين المعاصرين للسلطان أمثال الزياتي والناصري وغيرهم لا يعتبرون السلطان محمد بن عبد الله وهابيا، فقد كان في نظرهم عالما مجتهدا، مهتما بعلم الحديث ودراساته وشروحه، وأسانيده، إلى جانب إصلاحاته القضائية والعلمية ومناهجه التعليمية ثم الاقتصادية والاجتماعية المستمدة من المذهب الحنبلي. وقد قادته أفكاره إلى الأفكار نفسها التي ظهرت في مذهب الشيخ محمد بن عبد الوهاب السلفي⁽⁶²⁶⁾.

ومن المعلوم أن الدعوة الوهابية قامت على عدد من الأصول والتي منها:

⁽⁶²³⁾ نفس المرجع، ص: 60.

⁽⁶²⁴⁾ إن الاعتبار الذي أولى لأصحاب الزوايا والطرق في المغرب خلال القرن (12هـ/18م) مكنهم من تبوء المقام الأول في الدولة العلوية. ولاسيما خلال الأزمنة، فكان شيوخ الزوايا ورجال الطريقة أشخاصا موفقين بين الجماعات ومسددين بين الأفراد، يقومون بدور الحكام بين القبائل والعشائر، ويوفرون المكان والضمانة الأخلاقية التي تمكن القبائل المتنازعة من حل مشكلاتها بالاجتماع قرب الزوايا عند ضريح الجد المؤسس، فهذا الضريح وما جاوره حرم لا يجوز التنازع فيه. وبعبارة أخرى فإنهم يشكلون حجر الزاوية لنظام الأعراف المحلية ولنظام التحكيم لدى قبائل العوام. ومكنهم ذلك من احتلال مكانة هامة في المجتمع المغربي، مما جعل أمراء الدولة العلوية يلجئون إليهم كوسطاء كلما أرادوا أن يفكوا نزاعاتهم سلميا مع خصومهم، وأحيانا كان الأمراء يتخذون من الزوايا ملاذا يعتصمون به، فيجدون فيها التعزية المعنوية والتغذية المادية، وغالبا ما يحدث ذلك خلال الأزمات. أنظر:

- يحيى ابن سليمان، نحن المغاربة، مشاكل النمو بين التقليد والتجديد، ط1، دار الغرب الإسلامي، الدار البيضاء، 1985، ص: 186. وكذلك:

- جاك بيري، عبد الله العروي وآخرون، الأنثروبولوجيا والتاريخ حالة المغرب العربي، ترجمة عبد الأحد السبتي، ط2، دار توبقال للنشر، المغرب، 2007، ص: 50

⁽⁶²⁵⁾ الجابري، الثقافة، ص: 60.

⁽⁶²⁶⁾ الزياتي، الترجمانة الكبرى، ص: 13.

- اعتقاد العقيدة السلفية وتجنب العقائد المخالفة لها، ومن بينها الأشعرية⁽⁶²⁷⁾.
- محاربة البدع المحدثّة في الدين، ووجوب اتباع السنة.
- عدم جواز تعظيم القبور والأضرحة وما يقام عندها من بدع محدثة كالطقوس والحفلات⁽⁶²⁸⁾.

ويعتقد الأستاذ مصطفى باحو أن عددا من علماء المغرب قالوا بمضمون هذه الأصول قبل ظهور المذهب الوهابي، ولذلك فإن المجزوم به والمقطوع به بطلان ادعاء من زعم أن عقائد المذهب الوهابي طارئة على المغرب⁽⁶²⁹⁾.

أما الأستاذ أحمد العمراني في كتابه الحركة الفقهية فيرى: "أن محمد بن عبد الله هو أول ملك علوي بل مغربي بعد سقوط دولة الموحدين دعا إلى العودة للعقيدة السلفية التي اعتنقها المغاربة منذ الفتح الإسلامي إلى نهاية عصر المرابطين، مخالفا الاتجاه العقائدي الذي ركز عليه الموحدون وهو العقيدة الأشعرية⁽⁶³⁰⁾.

ومهما يكن من أمر فإن الدعوة السلفية وجدت جذورها بالمغرب خلال القرن (12هـ/18م) على يد السلطان محمد بن عبد الله العلوي، بعد أن أصبحت الزوايا ذات قوة سياسية ومادية واستقطبت الكثير من الأتباع⁽⁶³¹⁾.

وتفيد النصوص والكتابات التاريخية أن السلطان محمد بن عبد الله اتبع منذ بداية حكمه سياسة معادية لأصحاب الزوايا والطرق الصوفية ومنعها من أن تستعيد نفوذها الواسع، تأسيسا في ذلك بجده إسماعيل وبالسُلطان السعدي المنصور الذهبي، بل ذهب أبعد من ذلك على

⁽⁶²⁷⁾ تنسب هذه الفرقة لمؤسسها أبي الحسن الأشعري (ت 324هـ/935م) الذي كان على اعتقاد المعتزلة قرابة الأربعين عاما، ثم تخلى عنهم واعتنق مذهب أهل السنة، وأعلن انتسابه إلى الإمام ابن حنبل، غير أن الحنابلة رفضوه بحجة أنه ما يزال على مذهب المعتزلة. وفي عهد نظام الملك (ت 485هـ/1092م) تغير حال الأشاعرة وعلا شأنهم واعتنق مذهبهم معظم الشافعية، لكنها وجدت مقاومة شديدة من الحنابلة، واعترض الحنابلة على الشافعية الأشاعرة قراءتهم القنوت في الصبح وترجييعهم في الأذان والجهر بالبسملة في الصلاة... ثم ما لبثت أن كفرت فرقة أخرى. أنظر:

- خالد كبير علال، صفحات من تاريخ أهل السنة والجماعة ببغداد، (200-500هـ/815-1106م)، د.ط، دار هومة، الجزائر، د.ت، ص ص: 108-115.

⁽⁶²⁸⁾ مصطفى باحو، علماء المغرب ومقاومتهم للبدع، ط1، جريدة السبيل، المغرب، 2007، ص: 157.

⁽⁶²⁹⁾ نفس المرجع، ص: 157.

⁽⁶³⁰⁾ نفس المرجع، ص: 149.

⁽⁶³¹⁾ حركات، التيارات السياسية والفكرية، ص ص: 67-68.

مستوى العقيدة، فقد عارض بحزم ما كان يدعيه المرابطون من اتصال مباشر بعالم الغيب، ووجد سندا قويا في الدعوة الوهابية التي ظهرت آنذاك في الحجاز⁽⁶³²⁾. تأسيسا بها فيما أنجزته وما اتخذته من إجراءات عملية ميدانية خلال الفترة الممتدة من النصف الثاني من القرن الثامن عشر⁽⁶³³⁾.

وعليه فقد حذر السلطان أصحاب الطرق والزوايا والمرابطين وخيرهم بين ما هم عليه من انحراف وما جاء به من الفكر السلفي الإصلاحي⁽⁶³⁴⁾. وكان يخاطبهم بالقول: "إني مالكي المذهب حنبلي العقيدة"⁽⁶³⁵⁾، أو وهابي العقيدة على ما ذهب إليه جوليان⁽⁶³⁶⁾: "وأنا في نفسي أتبع الأئمة الأربعة في أبواب العبادة، ولا نفرق بين واحد منهم فيها... وأما في غير أبواب العبادة، كالنكاح والطلاق والبيوع، والحبس والهبة والعق وغير ذلك فلا أتبع إلا مذهب مالك رحمه الله، لأنني مالكي المذهب حنبلي الاعتقاد، مع أنني أؤمن بأن الإمام أحمد على اعتقاد الأئمة الثلاثة، وأنهم كلهم على هدى من ربهم"⁽⁶³⁷⁾.

كما عرف عن السلطان محمد بن عبد الله معارضته للمذهب الأشعري، ووفقا لما ذهب إليه أكنسوس المؤرخ المغربي: "كان السلطان سيدي محمد بن عبد الله رحمه الله، ينهى عن قراءة كتب التوحيد المؤسسة على القواعد الكلامية المحررة على مذهب الأشعرية رضي الله عنهم وكان يحض الناس على مذهب السلف من الاكتفاء بالاعتقاد المأخوذ من ظواهر

(632) عبد الله العروي، مجمل تاريخ المغرب، ط1، المركز الثقافي، الدار البيضاء، المغرب، 2007، ص: 505.

(633) قام أصحاب الدعوة السلفية وعلى رأسهم شيخ الدعوة محمد بن عبد الوهاب بهدم القبة المقامة على قبر زيد بن الخطاب بالعراق، ثم تلى ذلك هدم الكثير من قباب الصحابة والتابعين ووصلوا إلى غاية قبر الرسول عليه الصلاة والسلام وإلى الكعبة، فحاولوا بين الناس وبين التمسح بها والتماس البركة منها. أنظر:

- صالح بن عبد الله بن عبد الرحمان العبود، عقيدة الشيخ محمد بن عبد الوهاب السلفية وأثرها في العالم الإسلامي، مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي، المدينة المنورة، د.ت، ص ص: 490-491.

(634) هكذا نجد السلطان يتخلص من محمد العربي الخميسي المعروف بأبي الصخور، الذي كان له صيت وشهرة بين القبائل الجبلية، وكان يظهر التنسك والعبادة، ويزعم أنه يستخدم الجن، فكان للعامة فيه اعتقاد كبير، حتى أنه كان يقول للناس أن السلطان محمد بن عبد الله لا تطول مدته، فأخذه السلطان عن حين غفلة وقتله، وبعث برأسه إلى فاس. أنظر:

- الناصري، ج4، ص: 94.

(635) -Georges Drague, Esquisse d'histoire religieuse du Maroc, confréries et zaouias,

Paris, 1951, p : 85.

(636) جوليان، ص: 311.

(637) باحو، ص ص: 145-147.

الآيات والأحاديث الصحيحة بلا تأويل كما ذهب إليه جماعة من الأئمة المجتهدين كالإمام أحمد... ومجالسه ومحاضراته كلها تدور على هذا المركز... " (638).

وكان السلطان كذلك ينهى عن تعاطي مناهج التعليم الزائفة والمتحجرة، التي كان يشغل عليها بعض المرابطين المنحرفين، الذين بسببهم حصل الجمود والتخلف في المغرب، فقد كان السلطان يرى أن دعاوى الوحي والتصرف في الكون، الجارية على السنة وأقلام أرباب الزوايا، أمور هادمة للشريعة، ومعطلة للتعليم (639).

وليس من الغريب أن يصدر السلطان محمد بن عبد الله في هذا الشأن منشورا ملكيا، يحدد فيه المواد التي يجب الاقتصار على تدريسها في المدارس والمساجد وفي القرويين (640)، والمراجع التي يجب الاعتماد عليها، دون غيرها من الكتب، في الفقه والنحو والأدب، والسيرة والحديث والتفسير، والاعتماد على مذهب السلف، من الاكتفاء بالاعتقاد المأخوذ من ظاهر الكتاب بلا تأويل (641) ومما ورد في هذا المنشور ما يلي: "ومن أراد أن يخوض في علم الكلام والمنطق، وكتب غلاة الصوفية وكتب القصص، فليتعاط ذلك في داره، مع أصحابه، الذين لا يدرون بأنهم يدرون، ومن تعاطى ما ذكرناه في المساجد ونالته عقوبة، فلا يلومن إلا نفسه، وهؤلاء الطلبة الذين يتعاطون العلوم التي نهينا عن قراءتها، ما مرادهم بتعاطيها إلا الظهور والرياء والسمعة، وأن يضلوا طلبة البادية، فإنهم يأتون من بلدهم بنية خالصة، في التفقه في الدين وحديث الرسول صلى الله عليه وسلم، فحين يسمعونهم يدرسون هذه العلوم التي نهينا عنها، يظنون أنهم يحصلون بذلك على فائدة، فيتركون مجالس

(638) أكنسوس، ص: 108.

(639) العروي، ص: 505.

(640) من أقدم معاهد الدنيا وقريع الأزهر في نشاطه العلمي، لم يبينه ملك أو حكومة، ولكن امرأة مسلمة تدعى "فاطمة بنت محمد الفهري" هي من بنته بمالها الخاص سنة 245 هـ. وفي عهد المرينيين، اهتم به السلطان "أبو عنان فارس"، فزاد في جمال عمارته ورونقه، ومع مرور السنين ظهر منه العلماء، لا سيما في المذهب المالكي فكان حلقة وصل بين الشرق والغرب والأندلس. أنظر :

- محمد رجب البيومي، مجالس العلم في حرم المسجد، المؤسسة العربية الحديثة للنشر، القاهرة، 1988، ص: 152-154.

(641) الجابري، الثقافة، ص: 59.

التفقه في الدين، واستماع حديث الرسول صلى الله عليه وسلم، وإصلاح ألسنتهم بالعربية فيكون ذلك سببا في ضلالهم⁽⁶⁴²⁾.

ولم يقتصر المولى محمد بن عبد الله على إعلان رأيه هذا فحسب، بل نشره في الأمة المغربية، محاولا بذلك إصلاح عقيدتها بإرجاعها إلى العقيدة السلفية، بالنهي عن قراءة كتب التوحيد المؤسسة على مذهب الأشعري. وكان يحض الناس على مذهب السلف من الاكتفاء بالاعتقاد المأخوذ من ظاهر الكتاب والسنة بلا تأويل، ولذلك افتتح جميع مؤلفاته الحديثية والفقهية بعقيدة الشيخ ابن زيد القيرواني⁽⁶⁴³⁾ كمثال للعقيدة السلفية التي رضيها واستمسك بها⁽⁶⁴⁴⁾.

وأكد السلطان هذا الكلام في ترجمة كتابه الجامع الصحيح الأسانيد المستخرج من ستة مسانيد مبررا اختياره لهذا المذهب: "المالكي مذهبنا الحنبلي اعتقادا والأئمة رضي الله عنهم اعتقادهم واحد، فأردت أن أشرح قولي المالكي مذهبنا الحنبلي اعتقادا. وأبين المقصود بذلك والمراد، لئلا يفهمه بعض الناس على غير وجهه. وذلك أن الإمام أحمد، ثبت الله المسلمين بثبوتيه، سد طريق الخوض في علم الكلام، وقال: "لا يفلح صاحب الكلام أبدا، ولا ترى أحد ينظر في علم الكلام إلا وفي قلبه مرض، وهجر الإمام أبا عبد الله الحارث بن أسد

(642) نفس المرجع، ع77، ص: 59-60.

(643) ابن محمد بن عبد الله بن زيد القيرواني، متوفى سنة 386 هـ له رسالة في فروع الفقه المالكي، اعتنى بها فقهاء المالكية غاية العناية ولها عدة شروح، قال عنها صاحبها مايلى: "قد أتينا على ما شرطنا في كتابنا هذا ما ينفع به إن شاء الله من رغب في تعليم ذلك من الصغار ومن احتاج إليه من الكبار، وفيه ما يؤدي الجاهل إلى علم ما يعتقده من دينه ويعمل به من فرائضه ويفهم كثيرا من أصول الفقه وفنونه ومن السنن والרגائب والآداب". أنظر:

- ابن أبي زيد القيرواني، الرسالة، تحقيق صالح عبد السميع الآبي الأزهرى، المكتبة الثقافية، بيروت، د. ت. ط، ص: 723، (المكتبة الشاملة، إص.ث).

(644) من ذلك ما تضمنه كتاب مواهب المنان من نصائح قيمة قدمها السلطان محمد بن عبد الله للفرد المغربي، سواء تعلق الأمر بالطلبة أو معلمهم أو حتى أوليائهم، ليسهل بذلك تحقيق الأهداف المرجوة من هذا الإصلاح: تعلم قواعد الإسلام، من طهارة وزكاة وصيام وحج في سن مبكرة حتى يألف الطلبة الدين قبل البلوغ على حد قوله. وجرى الاعتماد على أسلوب التدرج في التعليم، بدءا بالفاتحة ثم حزب سبح الله، فإن صعب ذلك، فعلى المعلم أن يلقن الطالب الربع الأخير من الحزب ويعد ذلك يعلمه عقيدة "ابن أبي زيد. أنظر:

- قدوري، ص: 373.

المحاسبي البصري⁽⁶⁴⁵⁾، وكان ممن اجتمع له علم الظاهر والباطن، وذلك لتصنيفه كتابا في الرد على المبتدعة، وقال له: "ويحك أأست تحكي بدعتهم؟ أأست تحمل الناس بتصنيفك على مطالعة كلام أهل البدعة، فيدعوهم ذلك إلى الرأي والبحث. فاخترى المحاسبي، فلما مات لم يصل عليه إلا أربعة. وإلى ذلك ذهب الشافعي ومالك وسفيان الثوري⁽⁶⁴⁶⁾ وأهل الحديث قاطبة، حتى قال الشافعي رضي الله عنه: "لأن يلقى الله العبد بكل ذنب ما خلا الشرك بالله خير له من أن يلقاه بشيء من الكلام." فلزم الناس السكوت عن الخوض في علم الكلام إلى أن نبغ الإمام الأشعري فاشتغل يرد على المعتزلة⁽⁶⁴⁷⁾ أقوالهم الفاسدة وآراءهم، ويجيب عن آرائهم الواهية. فاتبعه المالكية على ذلك وسموه ناصر السنة، وهو ومن اتبعه على صواب، موافقين في اعتقادهم للسنة والكتاب لا في الخوض مع الخائضين، والتصدي لذكر شبه المبطلين وتخليدها في الأوراق إلى يوم الدين. وأما الحنابلة فأنكروا ذلك عليه وفوقوا سهام الانتقاد إليه، وقالوا له كان ينبغي لك أن تسكت كما سكت الأئمة قبلك من السلف الصالح المهتدين الذين يرون أن الخوض في علم الكلام من البدع المحدثه في الدين، أما لك فيهم أسوة؟ أفلا وسعك ما وسعهم من السكوت على تلك الهفوة؟"⁽⁶⁴⁸⁾

كما يبرر السلطان تمسكه بمذهب ابن حنبل قائلا:

(645) من أكابر الصوفية في بغداد، كان عالما بالأصول والمعاملات، وله تصانيف في الزهد والرد على المعتزلة وغيرهم. ولد ونشأ بالبصرة، ومات ببغداد. وهو أستاذ أكثر البغداديين في عصره. من كتبه "آداب النفوس، وشرح المعرفة، ومسائل في أعمال القلوب والجوارح... توفي سنة (243هـ/857م). أنظر:

- الزركلي، ج2، ص: 153.

(646) سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري، من بني ثور بن عبد مناة، من مضر، من كبار المحدثين، سيد أهل زمانه في علوم الدين والنقوى، ولد ونشأ بالكوفة، عانى المشقة من أبي جعفر المنصور، خرج من الكوفة سنة (144هـ/761م) فسكن مكة والمدينة. ثم طلبه المهدي، فتوارى وانتقل إلى البصرة فمات فيها مستخفا. له من الكتب "الجامع الكبير - والجامع الصغير في الحديث، وكتاب في الفرائض، توفي سنة (161هـ/778م). أنظر:

- نفس المرجع، ج3، ص: 104.

(647) فرقة كلامية إسلامية ظهرت في أواخر القرن الأول الهجري/ السابع الميلادي، أي في نهايات العصر الأموي وبلغت مجدها في العصر العباسي الأول لا سيما في عهد المأمون الذي اعتنق مذهبهم ودافع عن فكرتهم في خلق القرآن التي أحدثت فتنة عظيمة بين المسلمين وعانى منها علماء أهل السنة والجماعة كثيرا. تنسب هذه الفرقة إلى واصل بن عطاء تلميذ الحسن البصري الذي اعتزله في إحدى حلقات المناظرة في البصرة. من مبادئ المعتزلة المنزلة بين المنزلتين وهي ترى أن مرتكب الكبيرة ليس بمؤمن ولا بكافر، فاتخذوا موقفا وسطا بين اعتقاد الخوارج والمرجئة. أنظر:

- علي أحمد، تاريخ الفكر العربي الإسلامي، د.ط، منشورات جامعة حلب، مطبعة الروض، سوريا، 1997، ص: 69-71.

(648) باحو، ص: 145-147.

طريق الحنابلة في الاعتقاد سهلة المرام منزهة عن التخييلات والأوهام⁽⁶⁴⁹⁾
 موافقة لاعتقاد الأئمة كما سبق مع الصالح من الأنام.
 أعاشنا الله على ملتهم ما عاشوا عليه، وأمانتنا على ما ماتوا عليه بجاء النبي وآله
 وصحبه⁽⁶⁵⁰⁾.

وعلى ضوء هذا التصور المذهبي أخذ السلطان يحض الناس على التمسك بمذهب
 السلف الصالح المتمثل في مذهب الإمام مالك، والاقتصار على العقيدة المأخوذة من
 الكتاب والسنة بلا تأويل، وذلك على طريقة الإمام أحمد بن حنبل التي ترفض الخوض في
 علم الكلام باعتباره من البدع المحدثه في الدين⁽⁶⁵¹⁾.
 وفي السياق ذاته يقول الأستاذ عبد الله كنون:

"فأراد السلطان سيدي محمد بن عبد الله أن يمثل دور يعقوب المنصور الموحدي⁽⁶⁵²⁾
 في القضاء على علم الفروع، وعلم الكلام معا، والعناية بنشر كتب السنة وتعويضها من
 كتب الفقه... إلا أنه لم يشتط في ذلك اشتطاط يعقوب المنصور الموحدي، فلم يحرق الكتب
 التي أمر بنبذها، ولم يحرم النظر في كتب الخلاف عموما، وإنما أمر بالرجوع إلى أمهات
 الكتب التي منها الاستمداد، وعليها الاعتماد مع عدم الاقتصار عليها والإعراض عن كتاب
 الله وسنة رسول الله اللذين هما المرجع الأول والأخير لأحكام الشريعة"⁽⁶⁵³⁾.

⁽⁶⁴⁹⁾ الطرنباطي، ص: 62.

⁽⁶⁵⁰⁾ باحو، ص ص: 147-148.

⁽⁶⁵¹⁾ الطرنباطي، ص ص: 62-63.

⁽⁶⁵²⁾ أبو يعقوب يوسف المنصور ثالث سلاطين الموحدين، كان له اتصالات مع السلطان صلاح الدين الأيوبي، الذي طلب منه
 العون والمدد لمواجهة الخطر الصليبي في مصر وبلاد الشام، ولكن لدوافع نفسية وحزازات سياسية رفض السلطان الموحدي مد يد
 المساعدة. انتصر أبو يعقوب يوسف على ملك قشتالة ألفونسو الثامن في موقعة الأرك (نسبة لحصن الأرك بين قشتالة والأندلس)،
 سنة 591هـ-1195م، حاول تفكيك الحلف الثلاثي بين بني غانية والقبائل العربية أتباع فرقوش في معركة عنيفة سنة 582هـ-1168م
 حيث جعل مدينة تونس مقرا لقيادته، توفي سنة 595 هـ-1199م. أنظر:

- الصلابي، ص ص: 142-159.

⁽⁶⁵³⁾ الطرنباطي، ص ص: 62-63.

3- الوهابية بصورة علنية في المغرب:

شهد عهد المولى سليمان سلطان المغرب اختلافا كبيرا عن عهد والده السلطان محمد، من حيث الانغلاق السياسي على الخارج في خطوة احترازية من التدخل الأجنبي الأوربي في الشؤون الداخلية للمغرب، ولم يكن يهتم كثيرا بشؤون السياسة بقدر ما كان يهتم بالأمور الدينية، وحتى هذه الأخيرة خالف فيها والده لا سيما السنوات الأولى من عهد السلطان. وعلى ما ذهب إليه الطرنباطي (ت1214هـ/1799م) أحد العلماء المعاصرين لحكم المولى سليمان في سنواته الأولى وواحد من العلماء الذين حضروا بيعة السلطان: "لم تكن سياسته الإصلاحية تسير على نفس الخط الذي انتهجه والده محمد بن عبد الله، بل سلك منهجا وتوجها آخر مخالفا لمنهجه ومذهبه. فقد تميز عهده في بداياته على مستوى الشريعة بالعمل على تشجيع الفروع، ودراسة المختصرات. بالإضافة إلى ذلك كان السلطان يحض الناس على الرجوع إلى المذهب المالكي والعقيدة الأشعرية، وبذلك تراجع التأليف في علم الحديث عما كان عليه سابقا، وما يؤكد هذا التوجه الفقهي للمولى سليمان ما نقله سليمان الحوات في الروضة المقصودة: "وكان أكثر إقراءه لمختصر خليل... لأن الفقه هو المقصود اليوم على الإطلاق، والعاقل يلبس لكل عصر ثوبه (كذا)"⁽⁶⁵⁴⁾.

كما فتح الباب للاشتغال بعلم الكلام وقراءة الكتب المتعلقة به، وكان السلطان لا يعترف بالعالم إلا إذا كان متضلعا في هذا العلم وغيره من علوم الرأي.

أما التصوف فقد حضي هو الآخر باهتمام كبير من لدن السلطان بعد أن كاد هذا العلم يطمس ويختفي. وعليه فقد أمر المولى سليمان بإحياء كتب التصوف وجعلها متداولة بين الناس، ومن أبرز هذه الكتب، كتاب الإحياء للغزالي⁽⁶⁵⁵⁾، والذي صار في عهد يقرأ على مر الأيام والليالي. بالإضافة إلى ذلك انتعشت في عهده الكثير من الزوايا، كالزوايا

⁽⁶⁵⁴⁾ نفس المصدر، ص: 74.

⁽⁶⁵⁵⁾ الغزالي أبو حامد محمد (ت505هـ/1111م)، متكلم، لقب بحجة الإسلام، ولد بالقرب من طوس (خرسان) نشأ نشأة صوفية، ثم انصرف إلى دراسة الفقه وعلم الكلام والفلسفة، عَلم بالمدرسة النظامية ببغداد، له كتاب "تهافت الفلاسفة" وفيه بدع الفلاسفة وكفرهم. مر بمرحلة من الشك قادتته إلى الصوفية، فترك التدريس واتبع الطريق الصوفية. له: "كتاب إحياء علوم الدين"، من أجمل الكتب في الوعظ، غايته إحياء وإنماء الناحية الروحية في الفرائض الشرعية. أنظر:

- اليافعي، ص ص: 480-481.

الناصرية⁽⁶⁵⁶⁾ والزاوية الوزانية⁽⁶⁵⁷⁾. وكان لزاما على هذه الزوايا أن تتجنب سلوكها العدائي تجاه المخزن⁽⁶⁵⁸⁾.

إن السؤال الذي ينبغي طرحه على ضوء هذا العرض، لماذا تغيرت سياسة السلطان سليمان في شطرها الديني خاصة وفي العلاقة مع الحجاز بالتحديد؟ هل هذا راجع للرسالة التي وصلت سلطان المغرب من حاكم الحجاز ابن سعود، وما تضمنته من أفكار إصلاحية جديدة حملتها الدعوة الوهابية؟⁽⁶⁵⁹⁾

لعل المتتبع لتطور العلاقات بين الحجاز والمغرب في هذه الفترة يشد انتباهه كذلك غياب عامل التضامن مع حكام مكة والمدينة الأشراف، على إثر قيام حكم آل سعود مكانه، هذا العامل الذي ما فتئ حكام المغرب الأشراف العلويين يبدونه في مراسلاتهم لأشراف مكة والمدينة حريصين بذلك على استقرار مكانتهم كحكام للحجاز، ورأينا ذلك من خلال توطيد أواصر الأخوة عن طريق المصاهرة التي تمت بين سرور شريف مكة، وسلطان المغرب محمد بن عبد الله، وكذا من خلال ركب الحج المغربي الرسمي الذي لم يكن يخلو من الهدايا الثمينة والعطايا التي كان يحملها أمراء المغرب العلويين لأشراف الحجاز، رغم المخاطر والصعاب التي كانت تعترض الركب.

⁽⁶⁵⁶⁾ تأسست الزاوية الناصرية سنة 1650م من طرف محمد بن ناصر الدرعي، شيخ زاوية تامغروت، توفي سنة 1669م، وهي على الطريقة الشاذلية الجازولية، ما بين (1690-1790م) شكلت الناصرية أكبر طريقة دينية في المغرب. أنظر:

- Institut des Hautes études marocaines, **Introduction à la connaissance du Maroc, regards sur l'islam au Maroc**, Imprimerie Reunies, Casablanca, 1942, P : 239.

⁽⁶⁵⁷⁾ اختار مؤسس هذه الزاوية موقعا يتوسط مجموعة من القبائل الجبلية هي بني مشارة، ومصمودة وغزاوة وقد لعبت دور الوسيط بين القبائل، وبذلك أقامت علاقة تبادل خدمات مع المخزن. وتنسب هذه الزاوية إلى الشريف الإدريسي ولقد ربطت أصولها مع الشيخ عبد السلام بن مشيش (525هـ/1228م). أنظر:

- عبد الأحد السبتي، حليلة فرحات، **المجتمع الحضري والسلطة بالمغرب من القرن 15 إلى القرن 18م**، ط1، دار توبقال، المغرب، 2007، ص ص: 52-56.

⁽⁶⁵⁸⁾ **الطرباطي**، ص ص: 75-76.

⁽⁶⁵⁹⁾ من المؤرخين المغاربة من يعتبر أن الحجاج العائدين من الحجاز سنة (1218هـ/1803) كانوا أول من نقل أخبار الدعوة الوهابية إلى المغرب، وكانت الأخبار تحكي الشدائد والمحن التي قاسى منها الركب المغربي أثناء إقامته بالحرمين الشريفين، وهذه الأخبار امتزجت بالدعاية المناوئة للوهابيين التي كلفت إلى حد كبير موقف المغاربة من الدعوة الوهابية. أنظر: - **الطرباطي**، ص: 78.

فما هو إذا موقف المولى سليمان سلطان المغرب من إطاحة الأمير سعود زعيم الحركة الوهابية في الحجاز بحكم أشرف مكة والمدينة؟ وأين هو ذلك التضامن الذي كان قائما قبل هذه الأحداث؟ ألم يكن من الأجدر أن يبادر السلطان إلى تقديم السند المادي والمعنوي في مثل هذه الموافق؟ أم هل وجد الفرصة للتحالف مع قوة جديدة معادية للأتراك في الجزيرة العربية؟ مع العلم أن والده السلطان محمد بن عبد الله رغم تأثره بتعاليم الدعوة الوهابية، كان يرى أن مصلحة المغرب تكمن في ربط علاقات جيدة مع الدولة العثمانية وهذا ما بدا جليا في سياسة المغرب الخارجية في عهد السلطان محمد، بالرغم من أن الدعوة الوهابية كانت معادية للعثمانيين⁽⁶⁶⁰⁾.

ألا نعتقد أن المراسلات التي تمت بين المولى سليمان سلطان المغرب والأمير سعود بقدر ما تضمنت خطابا دينيا يدعو للعودة إلى كتاب الله وإحياء سنة نبيه صلى الله عليه وسلم، تضمنت كذلك خطابا سياسيا يدعو إلى التحالف ضد الأتراك، إذ وجدنا بعدها السلطان سليمان يوفد بعثة رسمية إلى الحجاز ترأسها نجله المولى إبراهيم في محاولة للوقوف على حقيقة الوضع في الحجاز وكذا المباركة للأمير سعود كحاكم جديد للحجاز، ألا تعد هذه المبادرة في عرف الدبلوماسية من باب الاعتراف بالسلطة الجديدة للحجاز؟ ألا نعتقد أن قضاء الأتراك بقيادة محمد علي باشا وأتباعه على الحركة الوهابية بالحجاز في البداية، وكذا وفاة السلطان سليمان قطع الطريق أمام الأمير سعود وحكام المغرب لتطوير العلاقات السياسية فيما بينهما؟

لقد تضاربت آراء المؤرخين المغاربة وغيرهم واختلفت حول حقيقة المراسلات التي تمت بين سلطان المغرب المولى سليمان وأمير الحجاز عبد الله بن سعود، وكذا عن حقيقة تجاوب سلطان المغرب وتعامله مع الدعوة الجديدة، ثم عن سبب مراسلة الأمير سعود لسلطان المغرب.

وهنا لا يسعنا إلا أن نستعرض مختلف الآراء لمؤرخين معاصرين للأحداث أو للمؤرخين المتأخرين، حتى نميط اللثام عن حقيقة المراسلات وأبعادها المختلفة ونجيب ولو باختصار عن التساؤلات المطروحة.

(660) باحو، ص ص: 165-166.

1.3- رسالة ابن سعود إلى المولى سليمان:

إن أول اتصال مباشر وواضح بين أصحاب الدعوة الوهابية السياسيين وبين المخزن المغربي كان في عهد المولى سليمان (661).

فقد تلقى سلطان المغرب المولى سليمان رسالة من الإمام عبد الله بن سعود أحد أئمة الدعوة السلفية التي بدأها الشيخ محمد بن عبد الوهاب في الجزيرة العربية في القرن (12هـ/18م) وأيدها آل سعود أمراء البريدة والرياض ونجد، وقد أتننا المراجع المغربية بنصها، وهو من النصوص القليلة الباقية عن الدعوة السلفية في دورها الأول (662).

ويجمع المؤرخون على أن الوهابية كانت بصورة علنية إيديولوجية الدولة المخزنية في عهد السلطان سليمان ابن السلطان محمد الذي رحب رسميا بالوهابية وطبق تعاليمها وراسل القائم بها في الحجاز آنذاك الأمير عبد الله بن سعود (663)، وكان هذا الأخير قد بعث رسالة إلى السلطان سليمان يشرح فيها الدعوة الوهابية ويدعو إليها، فلقبت الرسالة اهتماما كبيرا لدى السلطان والفقهاء بفاس وكلف السلطان جماعة منهم بكتابة رسالة جوابية حملها إلى صاحب الحجاز المولى إبراهيم ابن السلطان سليمان مع وفد من العلماء في موسم الحج (1226هـ/1811م)، وقد عاد الوفد معجبا بابن سعود وسلوكه الديني وتطبيقه للسنة النبوية، فتعززت بذلك الدعوة للأفكار الوهابية بالمغرب، أي لمبادئها السلفية (664).

يذهب الناصري إلى أن وصول كتاب عبد الله بن سعود الوهابي من الجزيرة العربية إلى فاس، جاء عن طريق تونس إذ بعث مفتيها نسخة منه إلى علماء فاس، وهي الرسائل نفسها بعث بها الأمير سعود إلى العراق والشام ومصر، يدعو فيها الناس إلى إتباع مذهبه، والتمسك بدعوته (665).

(661) نفس المرجع، ص: 147-148.

(662) مؤنس، ج2، ص: 315.

(663) لم يكن اعتناق المولى سليمان لمبادئ الوهابية إلا رغبة منه في تحقيق مجموعة من الأهداف السياسية، من ذلك، الحد من تأثير الزوايا والطرق الصوفية وإضعافها، كما كان يسعى في الاحتواء بها من المشاكل التي يمكن أن تثار مع العثمانيين بصفة عامة وأتراك الجزائر بصفة خاصة. أنظر:

- سيمو، ص: 54.

(664) الجابري، الثقافة، ص: 60.

(665) الناصري، ج3، ص: 225-226.

ولا يختلف الزياني مع ما جاء به الناصري في الاستقصاء غير أن الزياني بدا ناقما على ابن سعود ودعوته. وعن الرسالة التي بعثها الأخير إلى فاس أورد الزياني ما نصه: "في عام (1226هـ/1811م) ورد كتاب من تونس لفاس وجهه المبتدع الوهابي القائم على جزيرة العرب بمذهب الطائفة الوهابية من طوائف أهل البدع لما ملك الحجاز وغلب على أهل الحرمين الشريفين، ومنع الناس من الحج والزيارة، كتب كتبه إلى الآفاق كالعراق ومصر والشام وإفريقية يدعوهم إلى اتباع مذهبه الخسيس. ولما بلغ كتابه لتونس وجه مفتيها نسخة منه لعلماء فاس، لينظر ما عندهم في الجواب"⁽⁶⁶⁶⁾.

وينفرد التازي برواية أخرى عن الموضوع، إذ يعتقد أن رسالة ابن سعود إلى السلطان سليمان نقلتها سفارة حجازية من نجد إلى المغرب الأقصى خصيصاً، وذلك بإيعاز من والده الإمام سعود، ومما جا فيها أنه: "أبطل الدعاء للسلطان العثماني في خطب الجمعة منذ (1223هـ/1808م)، وتم تحرير معظم الجزيرة العربية، كما شرحت الرسالة مبادئ الدولة الجديدة التي تركز على دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب والتي أقلق وجود التركي بالمنطقة"، وربما كان اختيار المغرب وتخصيصه بهذه الوفادة كونه لم يخضع للنفوذ التركي -على حد تعبير التازي- وكون أمراء المغرب كانت لهم صلة قرابة ومصاهرة مع أمراء الحجاز⁽⁶⁶⁷⁾.

أما عن سبب رسالة الأمير سعود إلى المولى سليمان سلطان المغرب فيقول محمد تقي الدين الهلالي في تعليقه على هذه الرسالة: "أن الملك السعودي عبد الله بن سعود ملك الدولة السعودية المشتملة على نجد والحجاز، لما فتح الله له الحجاز وتوطدت دولته، كتب إلى جميع ملوك المسلمين وأمرائهم يشرح لهم دعوة الدولة السعودية وعقيدتها المطابقة للكتاب والسنة، وينفي عنها ما نسب إليه فقهاء السوء في جميع البلدان من أنها تكفر المسلمين، ولا تعظم النبي صلى الله عليه وسلم كما ينبغي لكل مسلم حنيف أن يفعله. وقد أغرى رجال الدولة العثمانية فقهاء السوء في جميع البلاد الإسلامية التي يشملها حكمهم، وطعنوا في الدولة العربية السعودية، لأنها طهرت الحرمين الشريفين من الشرك والعقائد الفاسدة ومنعتهم من التسلط عليهما وعلى ما جاورهما من البلاد كنجد والعراق، ومن جملة الملوك الذين كتب

⁽⁶⁶⁶⁾ الزياني، الروضة السليمانية، ص ص: 249-250.

⁽⁶⁶⁷⁾ التازي، التاريخ الدبلوماسي، مج 9، ص: 56.

إليهم ملك الدولة السعودية عبد الله بن سعود ملك المغرب المولى سليمان بن محمد بن عبد الله العلوي من آل بيت النبي صلى الله عليه وسلم⁽⁶⁶⁸⁾.

وردا على رسالة ابن سعود اجتمع المولى سليمان بكبار علماء المغرب لدراسة فحواها، وقد عهد للشيخ حمدون بن الحاج (ت: 1232هـ/1816م) بالإجابة عليها برسالة حملتها في نفس السنة إلى الحجاز بعثة مغربية هامة يقودها الأمير المولى إبراهيم بن السلطان سليمان، حيث جرت هناك مناظرة بين المغاربة والوهابيين حول الدعوة الجديدة ومبادئها⁽⁶⁶⁹⁾.

ويذكر صاحب الابتسام أن سبب إيفاد السلطان سليمان بعثة مغربية للأمير سعود في الحجاز مع رسالة جوابية تكلف بقراءتها الشيخ حمدون، مرده أن المولى سليمان سلطان المغرب رحمه الله، لما أراد أن يوجه ابنه المولى إبراهيم لأداء فريضة الحج، ظهر له أن يوجه معه كتابا يستعطف فيه الأمير سعود أمير مكة، لأنه خاف أن يمنع ولده من الوقوف بعرفة كما فعل مع الكثير من الناس، فكتب له السلطان سليمان كتابا وفيه قصيدة يمدحه فيها، وكانت القصيدة للشيخ حمدون المذكور⁽⁶⁷⁰⁾.

غير أن محمد تقي الدين الهلالي يرى أن سبب إيفاد السلطان سليمان الوفد المغربي إلى الحجاز والمبالغة في الاهتمام به، ولم يستطع غيره من الأمراء والرؤساء أن يبعثوا وفودا إلى الحرمين الشريفين للاجتماع بالملك السعودي ومعرفة ما يدعو إليه: "لأنهم لم يكونوا مستقلين أحرار أقوياء كما كان ملوك المغرب، لأن الدولة العثمانية كانت مستولية على بلاد العرب ومصر وبلدان الشمال الإفريقي كلها إلا المغرب الأقصى فإنها لم تستطع أن تستولي عليه، مع استيلائها على الجزائر المجاورة له"⁽⁶⁷¹⁾.

وينفرد الزباني برواية أخرى عن الرسالة الجوابية التي حملها الشيخ حمدون بن الحاج إلى الحجاز، إذ يعتقد أن رسالة التي بعث بها مفتي تونس إلى فاس، لم يطلع عليها إلا الشيخ حمدون، الذي أجاب عنها الأمير سعود دون علم سلطان المغرب المولى سليمان، إذ

⁽⁶⁶⁸⁾ محمد تقي الدين الهلالي، خطبة السلطان المقدس مولانا سليمان العلوي رحمه الله في الانتصار للسنة، ومحاربة بدع الطوائف الضالة، د.ط، مكتبة ومطبعة الساحل، الرباط، د.ت، ص: 6.

⁽⁶⁶⁹⁾ التازي، التاريخ الدبلوماسي، مج 9، ص: 56.

⁽⁶⁷⁰⁾ أبي العلاء إدريس، مخطوط الابتسام في دولة بني هشام وديوان العبر في أعيان القرن الثالث عشر، مخطوط، مكتبة الملك عبد العزيز، الدار البيضاء، المملكة المغربية، ص: 50-52.

⁽⁶⁷¹⁾ الهلالي، ص: 6.

قال: "...وقصدوا الجواب عند الفقيه الأديب السيد حمدون بن الحاج ولم يعلم به غيره، فكتب جوابه ومدحه بقصيدة ميمية (كذا)"⁽⁶⁷²⁾. ومما جاء فيها:

سعود بعد سلام الله شاعك من	غرب يسير لشرق ضائع النسم
هذا كتاب إليك ومحب أسمى	إذ ما تأتي له الإتيان بالقـرم
مخاطبا لكم باللسان من قلم	إذ ما تسنى له تخاطب بفـم
وإنه من سليمان وإنه بسم	الله لا زلت لاسم الله إلى سـم
اعلم وقيت الرد ولا زلت برد هدى	لبوسا إلى رد أمر السنا الغـم
أن قمت فينا بأمر لم يقم أحد	به فجوزيت بالخيرات ذو نـم
بقطع أهل الحراب بالحجاز بأن	يقتلوا ويصلبوا بلا وهـم
وأن تقطع أيديهم وأرجلهم	من الخلاف أو أن ينفوا من أرضهم
حتى جرى الماء في عود الحجاز لأن	طلعت سعد سعود غير ملتـم
لا شيء يمنع من حج ومعتمر	وزورة تكمل المأمول من حزم
إذ غدى درب الحجاز اليوم سالكة	أهني وآمن من لحامة الحرم
قد لاح فيه سعود ماحيا بدعا	قد أحدثتها ملوك العرب والعجم (كذا) ⁽⁶⁷³⁾ .

ويضيف الزباني: "واستمر عبد الله على هذا الأسلوب وتحمل ما أثقل كاهله الذنوب، والله لو علم أمير المؤمنين ما اقترفه وجلبه لكان في الحين عجل به وصلبه، وإن خفت عقوبته سبه وضربه، وإلى السجن جره وغربه، فكيف يمدح المبتدع الضال ويشكر (كذا)، بل يسب ويلعن ويهجو، أم كيف يتقرب إلى من يخيف أهل الحرمين الشريفين ويمنع الحج أهل المشرقين والمغربيين، ويمنع زيارة الأنبياء والتوسل بهم إلى رب السموات، وينهى عن قراءة تنبيه الأنام ودليل الخيرات، ويمنع الدعاء عند مقامات الأولياء أهل الكرامات. فلا يحل لمسلم أن يمتدحه ويصطفه (كذا)، بل يجب أن يقاطعه ويجافيه (كذا). وبعد أن وجه الكتاب مع الحاج بهذا المدح في الجواب، ورد من تونس جواب ذوي النهى والألباب، نسخة من كتاب

⁽⁶⁷²⁾ الزباني، الروضة السليمانية، ص: 249.

⁽⁶⁷³⁾ نفس المصدر، ص: 250.

الوهابي الداعي لمذهبه، وجواب علمائهم بلعنه وقطع سببه. ولما سمع ذلك حمدون بن الحاج ندم على ما فرط منه وعلم أنه عن الصواب عاج (كذا) (674).

غير أن أكنسوس يذكر: "أن تصدي الشيخ أبي الفيض حمدون لذلك الجواب كان بأمر السلطان وعلى لسانه، وذهب بجوابه ولده إبراهيم حين سافر للحج، وهذا يقضي أن كتاب ابن سعود ورد على السلطان سليمان بالقصد الأول (أي عن طريق وفادة حجازية) لا أن نسخة منه وردت بواسطة علماء تونس والله تعالى أعلم" (675).

ونص الرد المغربي للسلطان سليمان على رسالة ابن سعود ذكره حمدون بن الحاج في ديوانه النوافح الغالية. وكما نقلنا عن الزباني أنفا، هو عبارة عن قصيدة تتكون من (199) بيتا، تتخللها فقرات من النثر.

ومن أهم مضامين الرد كما يلي:

- استهلها بذكر بعض بقاع الحرمين وفضلها وشوقه لرؤيتها.
- الثناء على الأمير سعود وعلى محاربته للبدع والمفسدين.
- الثناء على الأعمال الجليلة التي قام بها العاهل السعودي ومنها رد البدع وإحياء السنن (676).

ثم شرع في نقاش طويل حول الأمور المنسوبة للدعوة منها:

- تكفير الجاهل الذين يغفلون في بعض الأنبياء والصالحين، ونص على أنه لا يجوز تكفيرهم، لأن السلف الصالح لم يكفروا من هم أشد بدعة منهم.
- ومنها مسألة الاستغاثة بالنبي وبناء الأضرحة على الأولياء، وهذه المسألة خالف فيها علماء الدعوة الوهابية، فجوز بناء الأضرحة لأنها تذكر بأحوال الصالحين، وفي هدمها طمس لمعالمهم وآثارهم (677).

(674) الزباني، الروضة السليمانية، ص: 250.

(675) الناصري، ج3، ص ص: 223-224.

(676) باحو، ص ص: 165-166.

(677) يعتقد بعض المؤرخين المغاربة أن علاقة المخزن المغربي في العهد العلوي مع الزوايا لاسيما عهد محمد الثالث ومن بعده ولده المولى سليمان ماهي إلا سياسة من المخزن لاستمالاته للرعية، وكسب للمؤيدين والأنصار المتأثرين كثيرا بالبركة التي تمنحها الزوايا عن طريق شيوخها الأحياء منهم والأموات، نظرا لما لهؤلاء الأواخر من سلطة روحية مهمة على عقول الناس وقلوبهم، وقد استغل السلطان محمد بن عبد الله مثلا تجنيل العامة للأولياء، ليوظفه لصالحه في=

ولعمري أن هذه حجة داحضة، عارية عن الحقيقة، فلم يثبت ذلك لا في القرآن ولا في السنة النبوية الشريفة ولا في عهد الصحابة⁽⁶⁷⁸⁾.

ثم عاد ليؤكد أن هذا منه محض النصيحة التي أمر الرسول بها. ثم نص على أن اعتقاد أحمد بن حنبل من إبقاء للصفات على ظواهرها دون تأويل، مخالفاً بذلك لمذهب الأشاعرة القائم على التأويل والتشبيه، وأن مذهب ابن حنبل مذهب والده المولى محمد بن عبد الله. ثم ذكر شبهات تثار حول الدعوة واستبعد صحتها، ككونهم يأمر من دان بدينهم، سب والديه وقطع رحمه، ونحو ذلك.⁽⁶⁷⁹⁾ ثم ذكر أنه لما تبين له الحق من جميع ذلك أرسل وفداً وفيه نجله وقلدة كبده المولى إبراهيم إلى الأمير سعود⁽⁶⁸⁰⁾.

وعموماً فالرسالة كلها أدب واحترام ونقاش بالتي هي أحسن، وحتى المسائل التي خالف فيها السلطان سليمان الأمير سعود اعترف له فيها برأيه وفضله، فنصح له بآداب النصيح ولم يسلك مسالك المخالفين للشيخ محمد بن عبد الوهاب، الذين ملؤوا ردودهم عليه سبا وشتماً⁽⁶⁸¹⁾.

=الكثير من المناسبات، بالرغم من إنكار الدين الإسلامي الغلو في تقديس قبور الصالحين والتبرك بهم، استناداً لحديثه صلى الله عليه وسلم الذي رواه مسلم: "إني أبرأ إلى الله أن يكون لي منكم خليل فإن الله قد اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً ولو كنت متخذاً من أمتي خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أوليائهم مساجد ألا فلا تتخذوا القبور مساجد فإني أنهاكم عن ذلك." أنظر:

- السبتي، ص: 58.

⁽⁶⁷⁸⁾ جاء في حديث الغلو في قبور الصالحين، أن الغلو يصيرها أوثاناً تعبد من دون الله، والغلو مجاوزة الحد مدحا أو ذماً، والمراد هنا مدحا، وإن كان السلف الصالح ومن كان على نهجهم يرى أن القبور لها حق على الناس من وجهتين: أ - ألا نفرط فيما يجب لها من الاحترام، فلا تجوز إهانتها ولا الجلوس عليها وما أشبه ذلك، ب - ألا نغلو فيها فنجاوز الحد، وجاء في صحيح مسلم عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قوله لأبي الهياج الأسدي: "ألا أبعثك على ما بعثني به رسول الله عليه الصلاة والسلام؟ أن لا تدع تمثالا إلا طمسته ولا قبراً مشرفاً إلا سويته". وفي رواية ولا صورة إلا طمستها. أنظر:

- محمد بن صالح العثيمين، القول المفيد على كتاب التوحيد، م1، ط1، دار ابن الجوزي، الحجاز، 1421هـ، ص: 419.
⁽⁶⁷⁹⁾ هذا يفيد أن اهتمام السلطان بالدعوة الوهابية وأخبارها لم يكن وليد اللحظة التي بعث فيها الأمير سعود الرسالة إلى السلطان سليمان وإنما سبق ذلك بكثير لاسيما وأن أفكار الدعوة الوهابية تبناها السلطان محمد بن عبد الله سابقاً.

⁽⁶⁸⁰⁾ باحو، ص ص: 166-168.

⁽⁶⁸¹⁾ نفس المرجع، ص: 168.

من ذلك ما أقدم عليه الزياني وبعض شيوخ الصوفية الذين أحسوا بخطورة تأثير مبادئ الوهابية داخل المجتمع المغربي ومناهضتها لهم، ومن ثم تجند هؤلاء الشيوخ لتسفيه كل من دعا إلى تبني أفكار الدعوة الجديدة، وإقصائهم من كل صداقية، باعتبارهم يعترضون على مفاهيم البركة والشرف التي يزعم أصحاب الطرق أنهم أهل لها، وبالتالي انتزعت منهم الوهابية قوة التوسط بين الفرد والله على حد زعمهم. كما أنهم أحسوا بضياغ امتيازاتهم المادية والمعنوية وتقلص نفوذهم، ومكانتهم الاجتماعية. وتقاديا لكل هذا، كانت لهم ردود فعل قوية تستهدف بالدرجة الأولى القضاء على أفكار الوهابية في المغرب في مهدها، من ذلك التمرد الذي قاده الشيخ أبي بكر مهاوش سنة (1236هـ/ 1820م)⁽⁶⁸²⁾.

وعلى خطى أصحاب الزوايا والطرق الصوفية في المغرب وقف بعض العلماء في القرويين موقفا معارضا لأفكار دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، فهذا الشيخ محمد بن جعفر بن الكتاني كان يعتبر أن الوهابية حركة هدامة، غايتها إرجاع فكر العقيدة الإسلامية إلى الوراء، وأنها تسعى إلى عدم مزج التصوف بالفقه، واستشهد في ذلك بما ورد في جواب الشيخ الطيب بن كيران في رده على رسالة ابن سعود بمواقفه المعارضة سنة (1226هـ/ 1811م) حين وصف الوهابيين بالمارقين⁽⁶⁸³⁾.

كما كان لبعض علماء تونس وكذا بعض العلماء في مصر، ردود فعل معارضة للقبول الذي لاقته رسالة الأمير سعود عند بعض علماء المغرب -على رأي صاحب الابتسام- فهناك من عارضهم بشدة لاسيما علماء مصر المالكية، ونخص بالذكر الشيخ الملي الذي كان لا يتحاشى أحد في السب، وقد رد على الشيخ حمدون في رسالة طويلة فيها نحو الكراسة أو أكثر: "قلما سمع الشيخ الملي بذلك وكان ممن يكفر الوهابية، قال للشيخ حمدون: "ما بالك تمدح رجلا كافرا، وما بالك تقتبس من كتاب الله عز وجل وتشبه سليمان الملك بسليمان النبي"، إذ جاء في رسالة الشيخ حمدون لابن سعود عبارة: إنه من سليمان وأنه باسم الله الرحمن الرحيم..."⁽⁶⁸⁴⁾.

(682) قاد انتفاضة مع البربر الذين كانوا يعتقدون فيه البركة والولاية ضد المخزن فألحقوا بقواته هزيمة نكراء، قتل فيها الأمير المولى إبراهيم. أنظر:

- سيمو، ص: 54.

(683) نفس المرجع، ص: 54.

(684) أبي العلاء، ص ص: 50 - 52.

وعلى إثر زيارة صاحب الابتسام مصر في طريقه إلى مكة، التقى بالشيخ الملي في القاهرة، فسأله الشيخ الملي عن أشياخه في فاس، فقال له: "الشيخ حمدون بن الحاج -قال صاحب الابتسام- فلما ذكرته له سب وقبح حتى استحييت من ذلك وتألّمت في باطني، ولا رضيت أن أسمع في شيخي ما أكره، قال: إنه جعل كيت وكيت وما علم أن سبب خراب الأندلس وتدمير دولتها هو الاقتباس من كتاب الله، فإن الاقتباس من كتاب الله لا يجوز شرعا، وما كان ينبغي لابن الحاج أن يمدح رجلا أفى العلماء بكفره". ويضيف صاحب الابتسام أنه وقف على رسالة للشيخ الملي رد فيها على ابن سعود، إذ كان ابن سعود يقول لعلماء مصر: "ما لكم تتازعون في مسائل العلم وتزعمون أنكم مثلي وقد سلم لي أشياخكم الذين أخذتم عنهم العلم" (685).

ونقلا عن صاحب الابتسام دائما وعلى إثر الزيارة التي قادتته إلى البقاع المقدسة سنة (1225هـ/1810م) أي قبل سنة من الرسالة التي وصلت المغرب من الأمير سعود وقبل أن يبعث المولى سليمان وفادة مغربية إلى الحجاز أن: "ابن سعود لما ثار بأرض الحجاز وتبعته أعرابها، استولى على الحرمين وما والاها من أرض تهامة ودعا الناس إلى عقيدته وقاتل الناس عليها وعقيدته والله أعلم مذهب الظاهرية، وذكر لنا أنه كان على مذهب ابن حزم صاحب كتاب النحل، وكان يضرب الناس إذا رآهم يقرؤون دليل الخيرات، وما في معناه مما فيه الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم (كذا) ويضربهم إذا رآهم يطوفون ويدعون بالدعوات التي يدعو بها الطائف بالبيت ويضربهم إذا رآهم واقفين تجاه الحجرة الشريفة، وينهاهم عن التوسل بأولياء الله، ودخل للحجرة الشريفة فأخرج ما كان فيها من دخائر الملوك وأزال قناديل الذهب والبسط التي كانت تفرش في الحرم لمدة (كذا) وهدم قباب البقيع كلها، ونهى الناس عن شرب الدخان...وأكل الحشيشة (كذا)...وشرب الخمر...وعن تزيين المساجد وكان أصحابه في غاية التقشف في أكلهم ولباسهم، أعراب لم يتغير حالهم عن عادة البادية، وكان يتبعه من عرب الحجاز كالجراد المنتشر لا يراعون بعضهم بعضا... وكان يقول الدعاء لغير الله شر وكفر وهذه القباب والطرائز على الأولياء أنها بدعة، وكنا نسمع الناس يخبرون عنه أنه يقول: "لما قتل حمزة عم النبي صلى الله عليه وسلم هل جعل عليه قبة وهل كان شيء مما تفعلونه في مساجدكم في زمانه عليه السلام،

(685) نفس المصدر، ص: 52.

والوهابية كلهم على مذهب أحمد ابن حنبل رضي الله عنه، وكانوا أشد الناس بغضا للأتراك، مهما رأوا أو سمعوا بأمر بادروا لإهلاكه وتعذيبه (كذا) وكان رئيسهم الأمير سعود الوهابي يقسم بالإيمان ليعلقن سيفه بالسرايا ويرد دار الملك باسطنبول (كذا)»⁽⁶⁸⁶⁾.

وأضاف قائلاً: "لما قضينا مناسك الحج في مكة، سرنا إلى المدينة المنورة ولما أردنا دخولها مع الرفقة منعنا من ذلك ووجدنا الحرس على أبوابها، وكان هؤلاء لا يسمحون للإباضية⁽⁶⁸⁷⁾ بالدخول كذلك، حتى لا يزور أحد قبر النبي صلى الله عليه وسلم، ويمنعهم من السؤال عن أمور عند قبره: "...علموا أن الحجاج الإباضية لا يأتون المدينة لأجل زيارة قبر النبي، فتواصوا على أن لا يدعوا أحدا يفعل ذلك (كذا) فاختلسنا الدخول فدخلنا، فزنا والله الحمد وجعلنا نطوف في أسواق المدينة..."⁽⁶⁸⁸⁾.

ويعتقد الأستاذ مصطفى باحو أن ابن سعود توصل بنشر هذا المذهب لأمنية في نفسه وهي الاستقلال، والتملص من سيادة الأتراك، والنفس العربية ذات شمم فقد بدأ أولاً بنشر المذهب، فجر وراءه قبائل نجد وأكثرية عظيمة من سيوف العرب، إذ العرب لا تقوم لهم دولة إلا على دعوة دينية، ولما رأى الأتراك ذلك وقفوا على قصده، فنشروا الدعاية ضده في العالم الإسلامي قاطبة وشنع علماؤهم عليه بالمروق من الدين، وهدم مؤسساته، واستخفافهم بما هو

(686) نفس المصدر، ص ص: 26-27.

(687) فرقة من الخوارج تنسب إلى صاحبها عبد الله بن أباض الذي كان من أتباع نافع بن الأزرق صاحب فرقة الأزارقة، ثم انفصل عنه، تتصف الإباضية بالاعتدال عكس الأزارقة التي عرفت بالتطرف، ولقد وصفت الإباضية نفسها بأنها اقرب الفرق الخارجية للسنة وأهلها، انتشرت الإباضية في شمال إفريقيا وعمان. ويعتقد علماء الدعوة السلفية أن الإباضية هي المعنية بلقب الوهابية والوهبية هذه الفرقة تنسب إلى عبد الوهاب بن رستم وقد ظهرت في شمال إفريقيا، غير أن المغاربة رفضوها جملة وتفصيلاً لتمسكهم بمذهب السلف، وقد ألبس الخصوم من الأتراك والمستشرقين وغيرهم هذا اللقب للدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب السلفية للتقليل من قدرها ومن الصحو الإسلامية التي أحدثتها، وكذا إثارة الشبهات حولها، لا سيما بعد ما صار لديها الكثير من الأتباع في العالم الإسلامي. والوهابية الرستمية تخالف معتقد أهل السنة والجماعة الذي دعى إليه الشيخ محمد بن عبد الوهاب، ولم يظهر اسم الوهابية إلا مع الحملات التركية المصرية بقيادة إبراهيم باشا على نجد، وبعد وفاة الشيخ محمد بن عبد الوهاب بأكثر من عشرين سنة، بدليل أن أحد المعاصرين للشيخ محمد من الأوربيين يسمى (ني بور) لم يستعمل اصطلاح الوهابية أصلاً، بل كانت دعوة الشيخ محمد تعرف بدين جديد (New Religion) مع أنه يعبر عن مذهب الشيخ محمد بن عبد الوهاب الجديد بالمحمدية. وأن أول ذكر للوهابية جاء عند (برك هارت) الذي جاء الحجاز بعد استيلاء محمد علي عليه سنة (1229هـ/1813م) مثلما أورده الجبرتي في تاريخه. ويتضح من خلال كلام صاحب مخطوط الابتسام أن رفض أصحاب دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب لفرقة الإباضية في الحرم مكي لإبعاد الشبهات التي ألصقت بالدعوة السلفية وحتى لا ينسب العامة تصرفات الإباضية لدعوة الشيخ محمد السلفية والله اعلم. أنظر:

- محمد بن سعيد الشويعر، تصحيح خطأ تاريخي حول الوهابية، ط3، وزارة التعليم العالي، السعودية، 1419هـ، ص ص: 85-99. (688) أبي العلاء، ص: 28.

معظم بالإجماع كالأضرحة، وشايهم جمهور العلماء في تركيا والشام والعراق ومصر وتونس وغيرها وانتدبوا للرد عليه بأقلامهم، وخالفهم المولى سليمان سلطان المغرب فارتضى مبادئه إلا ما كان من تكفير من يتوسل واستحلال دمه، فلا أظنه يقول بذلك حتى مدحه شاعره وأستاذه الشيخ حمدون، وتوجهت القصيدة مع نجل السلطان المولى إبراهيم إلى الحجاز⁽⁶⁸⁹⁾.

إذا فالمسألة سياسية لا دينية، -حسب الأستاذ باحو- لأن أهل الدين في الحقيقة متفقون، غير أن السياسة نشرت جلبابها، وأرسلت ضبابها، وساعدت الأقلام بفصاحتها، ولعبت السياسة دورها على مسرح أفكار ذهب رشدها، فسالت الدماء باسم الدين على غير خلاف ديني، وإنما هو سياسي⁽⁶⁹⁰⁾.

2.3- موقف المولى سليمان من الدعوة الوهابية:

- الوفاة المغربية إلى ابن سعود:

لعل ما نقلته الوفاة المغربية عن حقيقة أخبار دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب على إثر زيارتها إلى الحجاز، والإجراءات العملية التي اتخذها المولى سليمان ميدانيا، خير دليل على أن الدعوة الوهابية صارت إيديولوجية المخزن المغربي في هذه الفترة.

وعن الوفاة المغربية إلى الحجاز يقول الناصري: "في سنة (1226هـ/1811م) وجه السلطان سليمان ولده المولى إبراهيم إلى الحجاز لأداء فريضة الحج مع الركب النبوي الذي جرت العادة بخروجه من فاس على هيئة بدیعة من الاحتفال وإبراز الأخبية لظاهر البلد وقرع الطبول وإظهار الزينة، وكانت الملوك تعنى بذلك وتختار له أصناف الناس من العلماء والأعيان والتجار والقاضي وشيخ الركب وغير ذلك مما يضاهاى ركب مصر والشام وغيرهما، فوجه السلطان ولده المذكور في جماعة من علماء المغرب وأعيانه، مثل الفقيه العلامة القاضي أبي الفضل العباس بن كيران، والفقيه الشريف المولى الأمين بن جعفر الحسيني الرتبي والفقيه العلامة الشهير أبي عبد الله محمد العربي الساحلي وغيرهم من علماء المغرب وشيوخه، فوصلوا إلى الحجاز وقضوا المناسك وزاروا الروضة الشريفة على

⁽⁶⁸⁹⁾ باحو، ص ص: 168-169.

⁽⁶⁹⁰⁾ نفس المرجع، ص: 169.

حين تعذر ذلك وعدم استيفائه على ما ينبغي، لاشتداد شوكة الوهابيين بالحجاز يومئذ ومضايقتهم لحجاج الآفاق في أمر حجهم وزياراتهم إلا على مقتضى مذهبهم⁽⁶⁹¹⁾.

ونقل الناصري عن أكنسوس قوله: "كان المولى إبراهيم قد ذهب إلى الحج واصطحب معه جواب السلطان، فكان سببا لتسهيل الأمر عليهم وعلى كل من تعلق بهم من الحجاج شرقا وغربا، حتى قضوا مناسكهم وزيارتهم على الأمن والأمان والبر والإحسان"⁽⁶⁹²⁾.

وقال أكنسوس: "حدثنا جماعة وافرة ممن حج مع المولى إبراهيم في تلك السنة أنهم ما رأوا من ذلك السلطان-يعني ابن سعود- ما يخالف ما عرفوه من ظاهر الشريعة وإنما شاهدوا منه ومن أتباعه غاية الاستقامة والقيام بشعائر الإسلام من صلاة وطهارة وصيام، ونهي عن المنكر وتتنقية الحرمين الشريفين من القاذورات والآثام التي كانت تفعل بهما جهارا من غير نكير، وذكروا أن حاله كحال آحاد الناس لا يتميز عن غيره بزي ولا مركوب ولا لباس، وأنه لما اجتمع بالشريف المولى إبراهيم أظهر له التعظيم الواجب لأهل البيت الكريم، وجلس معه كجلوس أحد أصحابه وحاشيته، وكان الذي تولى الكلام معه الفقيه القاضي أبو إسحاق إبراهيم الزداعي، فكان من جملة ما قال ابن سعود لهم: "إن الناس يزعمون أننا مخالفون للسنة المحمدية، فأى شيء رأيتونا خالفنا من السنة وأى شيء سمعتموه عنا قبل اجتماعكم بنا، فقال له القاضي: بلغنا أنكم تقولون بالاستواء الذاتي المستلزم لجسمية المستوى، فقال لهم: معاذ الله، إنما نقول كما قال مالك: الاستواء معلوم والكيف مجهول والسؤال عنه بدعة، فهل في هذا مخالفة، فقالوا: لا وبمثل هذا نقول نحن أيضا، ثم قال له القاضي: وبلغنا عنكم أيضا أنكم تقولون بعدم حياة النبي وحياة إخوانه من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في قبورهم، فلما سمع ذكر النبي رفع صوته بالصلاة عليه وقال: معاذ الله إنما نقول إنه حي في قبره وكذا غيره من الأنبياء حياة فوق حياة الشهداء، ثم قال له القاضي: وبلغنا أنكم تمنعون من زيارة سائر الأموات مع ثبوتها في الصحاح التي لا يمكن إنكارها فقال: معاذ الله أن ننكر ما ثبت في شرعنا وهل منعناكم أنتم لما عرفنا أنكم تعرفون كيفيتها وآدابها، وإنما نمنع منها العامة الذين يشركون العبودية بالألوهية، ويطلبون من الأموات أن تقضى لهم أغراضهم

(691) الناصري، ج3، ص ص: 225-226.

(692) نفس المصدر، ص: 226.

التي لا تقضيها إلا الربوبية وإنما سبيل زيارة الاعتبار بحال الموتى وتذكر مصير الزائر إلى ما صار إليه المزور، ثم يدعو له بالمغفرة ويستشفع به إلى الله تعالى ويسأل الله تعالى المنفرد بالإعطاء والمنع بجاه ذلك الميت إن كان ممن يليق أن يتشفع به، هذا قول إمامنا ابن حنبل رضي الله عنه ولما كان العوام في غاية البعد عن إدراك هذا المعنى، منعناهم سدا للذريعة فأبي مخالفة للسنة في هذا القدر". ثم قال صاحب الجيش: "هذا ما حدث به أولئك المذكورون سمعنا ذلك من بعضهم جماعة ثم سألنا الباقي أفرادا فاتفق خبرهم على ذلك" (693).

-إجراءات عملية بعد الوفاة:

لقد أظهر المولى سليمان ملك المغرب تعاطفه وتأييده للدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب حين أنشأ خطبة جليلة مباركة أمر فيها أئمة المساجد في المغرب أن يخطبوا بها على الناس، لتتویر العقول وإعلان براءة الدولة وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم" (694).

فقد تكلم المولى سليمان في هذه الخطبة عن حال مفتقرة الوقت وحذر فيها من الخروج عن السنة والغلو في البدعة، وبين فيها بعض آداب زيارة الأولياء، وحذر من غلو العوام في ذلك، وأغلظ فيها مبالغة في النصح للمسلمين، وحذر فيها من اتباع أهل البدع وأنكر عليهم الاجتماع في المواسم بالإنشاد والرقص ووعدهم بالعقوبة إن لم ينتهوا" (695).

وفي السنة نفسها التي أنشأ فيها هذه الخطبة أبطل فيها بدعة المواسم (696). إذ أن ظاهرة المواسم لم يعرفها المغرب إلا في العصور المتأخرة، مع كثرة بناء الأضرحة وانتشار الطرق الصوفية، ولما جاء عهد السلطان العلوي المولى سليمان رحمه الله عاين ما كان يحدث فيها من انحراف وبدع وفسوق وفجور فكان له موقف جريء حيالها، لم يعرف في تاريخ المغرب له نظير، فأصدر مرسوما أبطل فيه المواسم ومنع من إقامتها (697).

(693) نفس المصدر، ص: 225-226.

(694) الهلالي، ص: 6.

(695) نفس المرجع، ص: 7.

(696) الناصري، ج3، ص: 227.

(697) باحو، ص: 115.

ولقيمة وأهمية هذه الخطبة، أثنى عليها الكثير من العلماء والفقهاء والمؤرخين، مقدرين أهميتها وقدرها، فهذا الفقيه المغربي السيد الحبيب الرشيدى لما سمعها مدحها ومدح صاحبها بقصيدة غراء اشتملت على أربعين بيتاً منها:

ياحسنها من خطبة أحيا بها ما مات من سنن الشيوخ المجد
ومنها أيضاً:

فيها دعا لله قوما أعلنوا	بالشطح والتصفيق والفعل الردي
جعلوا مواسم ما لها في	سنة أصل بأضرحة الفحول الزهد
رفضوا علوم الشرع إيغالا	كما جلسوا تتقيص الشيوخ بمرصد
فهموا على دين النبي	أضر من متبوعهم والكل عاد معتد
حتى رماهم ربنا بثواقب	من عدل سيدنا الهمام الأوحـد ⁽⁶⁹⁸⁾

وهذا أبو القاسم الزياني يقول في ترجمانته عن خطبة المولى سليمان: "الخطبة التي لم يسمع مثلها فيما مضى من العصور، ولا ذكرها ملك ولا عالم مشهور، فهي سادس خطب الخلفاء الأربع اللواتي انتفع الناس بها، أجمع مع خطبة الإبريز التي أملاها عمر بن عبد العزيز⁽⁶⁹⁹⁾، فمن سمع هذه الخطبة وتأملها علم علم اليقين وتحقق أنها برزت من قلب خالص عارف بما أعد الله في الآخرة للمتقين، وأن ذلك من المواهب الربانية وفوق المواهب الدنية وأن أمير المؤمنين ممن يقال فيه ويكون القائل قصر عما فيه الإمام الذي ضاهت أسرار كلامه كلام الأحياء وهي قوت القلوب إلى الأموات والأحياء (كذا)".⁽⁷⁰⁰⁾

(698) الهلالي، ص: 7.

(699) عمر بن عبد العزيز بن مروان الحكم الأموي القرشي، أبو حفص: الخليفة الصالح، والملك العادل، لقب بخامس الخلفاء الراشدين تشبهاً له بهم، من ملوك دولة بني أمية، ولد ونشأ بالمدينة، استوزره سليمان بن عبد الملك بالشام، وولي الخلافة بعهد من سليمان سنة (99هـ/ 718م) وبويع بها في مسجد دمشق دامت خلافته السنتين والنصف، مات مسموماً سنة (101هـ/ 720م). أنظر:

- الزركلي، ج 5، ص: 50.

(700) الهلالي، ص: 8.

وممن انتصر للمرسوم وأيده من علماء المغرب: العلامة المؤرخ أحمد الناصري: حيث قال في الاستقصاء:.... وقد تكلم الشاطبي⁽⁷⁰¹⁾ وغيره من العلماء فيما يقرب من هذا، وذكر أن الغلو في التعظيم أصل من أصول الضلال، ولو لم يكن في ذلك إلا قضية الشيعة لكان كافيا، فالحاصل أن خير الأمور الوسط، ومن هنا أيضا كان المولى سليمان رحمه الله قد أبطل بدعة المواسم بالمغرب، وهي لعمرى جديرة بالإبطال، فسقى الله ثراه وجعل في العليين مثواه⁽⁷⁰²⁾.

ولا بأس هنا أن ننقل للقارئ بعضا مما جاء في خطبة المولى سليمان:
الحمد لله الذي تعبدنا بالسمع والطاعة، وأمرنا بالمحافظة على السنة والجماعة، وحفظ
ملة نبيه الكريم، وصفيه الرءوف الرحيم، من الإضاعة إلى قيام الساعة، وجعل التأسي به
أنفع الوسائل النافعة... أما بعد:

أيها الناس، شرح الله لقبول النصيحة صدوركم، وأصلح بعنايته أموركم...﴿يأيها الذين
أمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم﴾⁽⁷⁰³⁾، سيما فيما أمر الله به ورسوله،
أو هو محرم بالكتاب والسنة النبوية، وإجماع الأمة المحمدية. ﴿الذين إن مكناهم في الأرض
أقاموا الصلاة وأتوا الزكاة، وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر﴾⁽⁷⁰⁴⁾ ولهذا نرثي لغفلتكم،
أو عدم إحساسكم، ونغار من استيلاء الشيطان بالبدع على أنواعكم وأجناسكم. فآلقوا لأمر
الله آذانكم، وأيقظوا من نوم الغفلة أجفانكم، وطهروا من دنس البدع إيمانكم، وأخلصوا الله
إسراركم وإعلانكم، واعلموا أن الله أوضح لكم طرق السنة لتسلكوها... فاسمعوا قوله في ذلك
وأطيعوا، واعرفوا فضله عليكم وعوه. واتركوا عنكم بدع المواسم التي أنتم بها متلبسون،
والبدع التي يزينها أهل الأهواء ويلبسون، وافترقوا أوزعا، وانتزعوا الأديان والأموال انتزعا،
فيما هو حرام كتابا وسنة وإجماعا، وتسموا فقراء، وأحدثوا في دين الله ما استوجبوا به
سقرا... وكل ذلك بدعة شنيعة، وفعلة فظيعة، وسبة وضيعة، وسنة مخالفة لأحكام الشريعة،

(701) إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي المشهور بالشاطبي، أصولي حافظ، من أهل غرناطة، كان من أئمة المالكية من كتبه: "الموافقات في أصول الفقه، في أربع مجلدات، وكتاب المجالس (شرح به كتاب البيوع من صحيح البخاري)، والإفادات والإنشادات، توفي سنة (790هـ/ 1388م). أنظر:

- الزركلي، ج1، ص: 75.

(702) باحو، ص: 121.

(703) سورة النساء، الآية: 59.

(704) سورة الحج، الآية: 41.

وتلبس وضلال، وتدلّس شيطاني وخبال زينه الشيطان لأوليائه فوقتوا له أوقاتا، وانفقوا في سبيل الطاغوت في ذلك دراهم وأقواتا، وتصدى له أهل البدع من (عيساوة) و(جلالة) وغيرهم من ذوي البدع والضلالة، والحماقة والجهالة، وصاروا يتربّون للهوهم الساعات، وتتزاحم على حبال الشيطان وعصيه منهم الجماعات، وكل ذلك حرام ممنوع، والإنفاق فيه إنفاق في غير مشروع⁽⁷⁰⁵⁾. فأنشدكم الله عباد الله: هل فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمه سيد الشهداء موسما؟ وهل فعل سيد الأمة أبو بكر لسيد الأرسال - صلى الله عليه وسلم - وعلى جميع الصحابة والآل - موسما؟ وهل تصدى لذلك أحد من التابعين - رضي الله عنهم أجمعين -؟ ثم أنشدكم الله: هل زخرفت على عهد رسول الله المساجد؟ أو زوّقت أضرحة الصحابة والتابعين الأماجد؟ كأني بكم تقولون في نحو هذه المواسم المذكورة وفي زخرفة أضرحة الصالحين، وغير ذلك من أنواع الابتداع حسبنا الاقتداء والإتباع: ﴿إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون﴾⁽⁷⁰⁶⁾ وهذه المقالة قالها الجاحدون، هيهات هيهات لما توعدون... وبالضرورة إنه لن يأتي آخر هذه الأمة بأهدى مما كان عليه أولها، فقد قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وعقد الدين قد سجّل، ووعد الله بإكماله قد عجل...⁽⁷⁰⁷⁾ ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾⁽⁷⁰⁸⁾ فليس في دين الله ولا فيما شرع نبي الله أن يقترب بغناء ولا شطح، والذكر الذي أمر الله به وحث عليه ومدح الذاكرين به هو الوجه الذي كان يفعله صلى الله عليه وسلم، ولم يكن عن طريق الجمع ورفع الأصوات على لسان واحد، فهذه طريق الخلف، فمن قال بغير طريقهم فلا يستمع، ومن سلك غير سبيلهم فلا يتبع، ﴿ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا﴾⁽⁷⁰⁹⁾... فما لكم يا عباد الله ولهذه البدع؟ أأما مكر الله؟ أم تلبس على عباد الله؟ أم مناظرة لمن النواصي بيده؟ أم غرورا لمن الرجوع بعد إليه؟ فتوبوا واعتبروا، وغيروا المناكر واستغفروا...

⁽⁷⁰⁵⁾ محمد تقي الدين الحسيني الهلالي، الانتصار للسنة ومحاربة البدع والطوائف الضالة، خطبة للسلطان المولى سليمان العلوي،

ط1، دار التوحيد، فاس 2008، ص ص: 19-25.

⁽⁷⁰⁶⁾ سورة الزخرف، الآية: 23.

⁽⁷⁰⁷⁾ نفس المرجع، ص: 25.

⁽⁷⁰⁸⁾ سورة المائدة، الآية: 3.

⁽⁷⁰⁹⁾ سورة النساء، الآية: 115.

أفزيّن لكم الشيطان وكتاب الله بأيديكم؟ أم كيف يضلّكم وسنة نبيكم تتاديكم؟ فتوبوا إلى رب الأرباب... ولا تقرب على مالك النواصي بالبدع والمعاصي، بل بما يتقرب به الأولياء والصالحون، والأتقياء المفلحون: أكل الحلال، وقيام الليالي، ومجاهدة النفس في حفظ الأحوال، بالأقوال والأفعال، البطن وما حوى، والرأس وما وعى، وآيات تتلى، وسلوك الطريقة المثلى، وحج وجهاد، ورعاية السنة في المواسم والأعياد، ونصيحة تهتدى، وأمانة تؤدى، وخلق على خلق القرآن يحدى... فيجب على من ولاه الله من أمر المسلمين شيئاً من السلطان والخلق أن يمنعوا هؤلاء الطوائف من الحضور في المساجد وغيرها، ولا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يحضر معهم أو يعينهم على الباطل، فإياكم ثم إياكم والبدع، فإنها تترك مراسم الدين خالية خاوية، والسكوت عن المناكر يحيل رياض الشرائع ذابلة ذاوية. فمن المنقول عن الملل، والمشهور في الأواخر والأول: أن المناكر والبدع إذا فشت في قوم أحاط بهم سوء كسبهم، وأظلم ما بينهم وبين ربهم، وانقطعت عنهم الرحمات، ووقت فيهم المثلات، وشحت السماء، وحلت النقماء، وغيض الماء، واستولت الأعداء، وانتشر الداء... عن العرياض بن سارية⁽⁷¹⁰⁾ رضي الله عنه قال: "وعظنا رسول الله صلى الله عليه وسلم موعظة ذرفت منها العيون، ووجلت منها القلوب، فقام إليه رجل: يا رسول الله، كأن هذه موعظة مودع فما تعهد إلينا - أو قال: أوصنا - فقال: "أوصيكم ونفسي بتقوى الله، والسمع والطاعة لمن ولى الله عليكم، ولو كان عبداً حبشياً، فإنه من يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة"⁽⁷¹¹⁾. "وها نحن أرشدناكم وأنذرناكم وحذرناكم، فمن ذهب بعد لهذه المواسم، أو أحدث بدعة في شريعة نبيه أبي القاسم، فقد سعى في هلاك نفسه، وجر الويال عليه وعلى أبناء جنسه، وتله الشيطان للجبين، وخسر الدنيا والآخرة، ذلك هو الخسران المبين."⁽⁷¹²⁾ ﴿فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم﴾⁽⁷¹³⁾.

(710) عرياض بن سارية السلمي أبو نجيح توفي سنة (75هـ/ 694م) بدمشق. أنظر:

- شمس الدين أبو عبد الله محمد الذهبي، تجريد أسماء الصحابة، ج1، دط، دار المعرفة، بيروت، دت، ص: 37

(711) أخرجه أبو داود والترمذي، وابن ماجه وصححه الألباني في الصحيح الجامع.

(712) الهاللي، الانتصار للسنة، ص: 25-32.

(713) سورة النور، الآية: 63.

II-علاقات المغرب مع إيالة مصر:

صلات مصر بالمغرب، صلات عريقة وقديمة ضاربة بجذورها في أعماق التاريخ، وازدادت هذه الصلات وثوقا ورسوخا بعد الفتح الإسلامي للمغرب والأندلس، وخلال ازدهار الحضارة المغربية في عصورها الذهبية، وخلال فترة الحكم الإسلامي الزاهر للأندلس، كان أئمة الفقه والأدب والعلم والتاريخ والتصوف، ينتقلون بين مصر والمغرب، من غير أن يجدوا في بعد المسافة حدودا تفصل بينهم وبين الزيارة والارتحال، إما لتلقي العلوم والمعارف، وإما للإقامة والاستقرار، وإما للاتصال بأقطاب التصوف والأدب والفلسفة والعلوم، والأخذ عنهم بحظوظ موفورة من ذلك كله⁽⁷¹⁴⁾.

كما كان لرجال السياسية وملوك المغرب ومصر نصيبهم هم كذلك في العلاقات بين البلدين⁽⁷¹⁵⁾ ويمكن أن نلمس الصلات المختلفة المتبادلة بين مصر والمغرب في مظاهر عدة، لاسيما في وجه الأخطار التي كانت تهدد مصر تارة والمغرب تارة أخرى، فيهب من رجالهما أول ما يهب قادة الفكر وأقطاب التصوف والعلماء ورواد السياسة والقيادة والحكم إلى المساعدة والمؤازرة والمساندة. وهكذا كان لا يقع في مصر أو في المغرب حدث من الأحداث، إلا وتتردد أصدائه في الأصقاع والأرجاء. وهذا من منطلق الهوية المنسجمة، المستمدة من مبادئ الإسلام الداعية إلى الإخاء والتآزر والتضامن⁽⁷¹⁶⁾.

(714) أحمد تسوكي، "العرش المغربي في شعر المشرق، مشاهد ولمحات من أمجاد وبطولات"، دعوة الحق، ع1، س23، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، 1982، ص: 90.

(715) عبد العزيز بنعبد الله، "مصر والمغرب الأقصى عبر التاريخ"، دعوة الحق ع3، س24، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، المغرب، ماي/يونيو، 1983، ص: 16.

(716) تسوكي، دعوة الحق، س23، ص: 90 .

1- العلاقات السياسية والدبلوماسية:

1.1 المراسلات والسفارات:

إذا كان الاتصال بين حكام المغرب ومصر قد توقف ردحا من الزمن في عهد السعديين، في القرن العاشر الهجري، السادس عشر الميلادي، لأن السعديين كانوا منشغلين بصد الغزو البرتغالي على سواحل المغرب⁽⁷¹⁷⁾، فإن العهد العلوي شهد طفرة في تاريخ العلاقات بين البلدين بداية بعهد المولى إسماعيل (1117هـ/ 1744م)، الذي يحتفظ له الأرشيف المصري برسالة وجهها إلى مصر من أجل شراء الممالك ليكونوا ضمن تعداد جيشه. كما تحتفظ دار الكتب بالقاهرة بمصحف برسم المولى علي ابن السلطان محمد بن عبد الله كتب بخط رائع سنة (1182هـ/ 1768م)⁽⁷¹⁸⁾ هذا الأخير الذي ربطته علاقات وطيدة بعلماء الأزهر الشريف⁽⁷¹⁹⁾. ومن بعده المولى سليمان الذي كان مهتما بجلب الصناعات الماهرة من مصر وتوظيفهم في مشاريع مختلفة⁽⁷²⁰⁾. كما كان شاهدا على وقائع الحملة الفرنسية على مصر وما ترتب عنها من أحداث⁽⁷²¹⁾.

ولعل استقرار الأوضاع السياسية في القاهرة منذ سنة (1219هـ/ 1805م) أدى إلى بروز ظاهرة هامة في العلاقات المغربية المصرية، خاصة فيما يتعلق بركب الحج المغربي، فقد بدأ سلاطين المغرب في اتصال بحكام مصر، وصاروا يرسلون أبنائهم لقيادة ركب الحج المغربي، وقد جرت العادة عند وصول ركب الحج إلى القاهرة، أن ينضم إلى الركب المصري للتوجه إلى

(717) بنعبد الله، دعوة الحق ع3، ص24، ص: 16.

(718) التازي، التاريخ الدبلوماسي، مج1، ص: 53.

(719) أنشئ الجامع الأزهر في العهد الفاطمي على يد "جوهري الصقلي" بأمر من المعز لدين الله الفاطمي ليكون رمز التوجيه الديني والسياسي للدولة الجديدة في مصر ومنازة لمذهب الفاطميين. اشتق اسم الأزهر من اسم السيدة فاطمة الزهراء رضي الله عنها ابنة الرسول صلى الله عليه وسلم، ليكون واضح الدلالة في انتمائه إلى دوحة الرسول صلى الله عليه وسلم. عطل الأزهر في العهد الأيوبي، واستعاد إشعاعه في عهد السلطان المملوكي "الظاهر بيبرس"، فحمل لواء الثقافة الإسلامية حين سقطت بغداد في يد التتار، وضاعت الأندلس في الغرب، فصار قبلة للعلماء شرقا وغربا. أنظر:

- البيومي، ص: 171-174.

(720) حدث أن طلب المولى سليمان من بعض العمال النصاري أن يبنوا جسر (قنطرة) وادي أم الربيع، ووفر لهم كل ما يلزم من عتاد وعدة، غير أنهم لم ينجزوها على الوجه المقبول لأنهم لم يكنوا أهل اختصاص، فبعث السلطان إلى مصر، فجاءه صناع مهرة من القاهرة. فساهموا في إنجازها. أنظر:

- أكنسوس، ص: 155-156.

(721) ابن زيدان، الإتحاف، ج5، ص: 180.

الحجاز. وقد تكرر إرسال سلاطين المغرب لأبنائهم الأمراء على رأس ركب الحج المغربي ثلاث مرات في أقل من نصف قرن، وكان قدومهم من المغرب إلى الإسكندرية بحرا على متن سفن حربية بريطانية، بصحبة كل واحد منهم حاشية كبيرة. وأول هؤلاء الأمراء الوافدين إلى مصر كان المولى إبراهيم بن السلطان سليمان في ذي القعدة 1226هـ/1811م. وقد أبدت السلطات المصرية وعلى رأسها محمد علي باشا اهتماما بالغا بركب الحج الفاسي وأميره وفقا لما نقلته المصادر: "اعتنى الباشا بشأنه وأرسل كتحدا بك لملاقاته ... وأعدوا له منزلا... وتقيد بخدمته الرئيس حسن المحروقي وحواشيهم لطبخه وكلف طعامه (كذا)... طلع إلى القلعة وقابل الباشا، ونزل إلى المنزل الذي أعده له وأمامه قواسة (أصحاب الأقواس) أتراك وطرادون وأشخاص أتراك يضربون على طبلات وأمامه جميع المغاربة مشاة ويأمرون الناس الجالسين بالحوانيت بالقيام له على أقدامهم، فأقام خمسة أيام حتى قضى أشغاله وفي تلك المدة تغدو إليه وتروح رسل الباشا، وأرسل له هدية وذخيرة من كل صنف (كذا)"⁽⁷²²⁾.

ولأن مصر كانت تعيش على وقع نهضة حديثة في عهد محمد علي باشا، فهناك من سلاطين المغرب من كان لهم اهتمامات بمظاهرها، وقد قامت بينهم وبين ولاية مصر مراسلات مختلفة. فهذا السلطان عبد الرحمن بن هشام مثلا جمعتة علاقات صداقة متينة مع عباس باشا الأول حاكم مصر⁽⁷²³⁾، وقد راسل الأخير سنة (1265هـ/1848م) عن طريق ولديه سليمان والرشيد حينما ذهبا إلى الحجاز لأداء فريضة الحج وأصبحهما هدية نفيسة، قال عنها المؤرخون: "إنها كانت تشتمل على خيل وسرج مذهبة وبغال فارهة، وتحف من طرائف بلاد المغرب، فكانا في ضيافته من يوم حلولهما في ثغر الإسكندرية إلى أن رجعا إليه

⁽⁷²²⁾ يونان رزق، ص ص: 60-61.

⁽⁷²³⁾ عباس باشا ابن طوسون بن محمد علي (1228-1270هـ/1813-1854م)، ثالث الولاية من أسرة محمد علي بمصر، ولد بجدة ونشأ بمصر، وتولى الحكم بعد وفاة عمه إبراهيم باشا أواخر سنة (1264هـ/1847م)، كان شديد الكره للأوربيين، أنجد الأتراك العثمانيين في حربهم ضد الروس في القرن بخمسة آلاف مقاتل. في عهده أنشئت المدرسة الحربية في العباسية بالقاهرة، ومع ذلك يؤخذ عمه أنه أغلق الكثير من المدارس والمعاهد، وأهمل المصانع وآلات دار الصناعة، حتى عرضت السفن الحربية وأسلحتها للبيع، واستمر إلى أن قتل بقصره في "بنها"، عن طريق مملوكين من الآستانة أرسلتهما إليه عمته "نازلي" بنت محمد باشا، لخلاف بينهما على الميراث. أنظر:

- الزركلي، ج3، ص: 261.

مغربين، وقام بكل ما يحتاجان إليه من زاد ومركوب حتى وصلا لمكة، ومن مكة إلى الإسكندرية⁽⁷²⁴⁾.

كما كانت بين عبد الرحمن بن هشام وبين محمد علي باشا والي مصر جد عباس باشا المذكور اتصالات وصداقة متينة، بالإضافة إلى الصداقة التي جمعتها بالمشير محمد باشا، فقد كانت بينهما اتصالات ومكاتبات ودية. هذا ما أطلعنا عليه المراسلات التي كانت بين الجانبين. ويحتفظ مستودع الأوراق الرسمية بالدار العلية بالرباط برسالة بعث بها أمير مصر محمد علي باشا إلى السلطان عبد الرحمن بن هشام ملخص ما جاء فيها: أن سلطان المغرب عبد الرحمن بن هشام أرسل إلى حاكم مصر محمد علي باشا بضاعة فيها مواشي وأغنام مع سفيره الحاج عبد السلام، هذا الأخير وصل مصر والتقى حاكمها وقدم له البضاعة، وبدوره أرسل محمد علي باشا مع السفير المغربي عددا من المكاتيب وهدايا للسلطان عبد الرحمن بالإضافة إلى معلمين لتدريب الجيش المغربي كان السلطان قد طلبهم في وقت سابق⁽⁷²⁵⁾. ومع أن الرسالة صيغت بأسلوب ركيك ومفردات غير مفهومة في الغالب نحاول هنا نقل جزء منها للإفادة لا أكثر⁽⁷²⁶⁾. فبعد الحمدلة والصلاة على النبي عليه الصلاة والسلام، ذكرت الرسالة:

"بعد تقبيل البساط بين يدي أمير المؤمنين... دام لنا وللمسلمين، وبعد: يكون في كريم علم مولانا أن الحاج عبد السلام اقلعي الذي كنا وجهنا بالغنم للباشا محمد علي، فقد وصل مصر وتلقى بالباشا ودفع له الغنم وفرح بها الباشا غاية حتى قبل واحد (كذا) من أولادها، وسأله عن مولانا وعن أمر المغرب وقال له هل عند مولانا نظام (كذا) قال له نعم له المعلمين... مسلمون. قال للكاتب أعطيه كتوب النظام... فأعطاه كتب 35 ومنهم طيب جيد غاية وهذا الحاج عبد السلام يفهم في أمر النظام، نطلب من مولانا يعرفنا هل نبعث

(724) ابن زيدان، الإتحاف، ج5، ص ص: 180-181.

(725) تشير الكتابات التاريخية المغربية إلى أن السلطان عبد الرحمن بن هشام، تلقى من مصر كتابين يتضمنان جملة من القوانين عن تدريب وتطوير الجيش سنة 1848م أي بعد معركة إيسلي بأربع سنوات، واحد بعنوان "القوانين الداخلية المتعلقة بمشاة العسكر الجهادية" والآخر "تعليم النفر والبلق". وقد ترجم الكتابان من التركية إلى العربية وطبعا بمصر، الأول سنة 1251هـ/1835م والثاني سنة 1258هـ/1843م. أنظر:

- سيمو، ص: 58.

(726) نفس المرجع، ص ص: 180-181.

الكتوب أو نبعت معهما الحاج عبد السلام. والباشا أعطى للحاج عبد السلام سيفاً جيداً وكسوة ملف، ومائة ريال (كذا). وأما أمر الفرنسيين ما تحقق عندنا، بل إن فرنسا لا زالت قائماً وسلطانهم هرب هو وزوجته، ولم يتحقق أين هو وزوج من أولاده وصل للنضرة،⁽⁷²⁷⁾ (كذا) وأولاده كان في الجزائر هرب، ووصل إسبانيا ومنها ذهب للنضرة... ووصل للنضرة بأولاده وفي فرنسا اتفق أن لا يعمل سلطان، وإنما يعمل مثل المركان يحكمون أربعون (كذا) وقد نهب دار السلطان والوزير، والله يقوي شرهم. ويصل مولانا موسطرت كرية جيدة (كذا)، عددها 200 نطلب من مولانا يأخذها منا مثل قبلها سوم 150 للماه (كذا) وثمنها يقطع بدمية شريكنا بهلال في سوبر وربنا يدوم لنا وللمسلمين وجود مولانا نصره الله والسلام (كذا). 10 من ربيع الثاني عام 1264هـ. عبد ربه الخديم محمد الرزيني، صح من أصلها وقوبلت عليه فائلته حرفاً وحرفاً ولحناً وتحريفاً وركاكة (كذا)⁽⁷²⁸⁾.

استمرت العلاقات بين المولى عبد الرحمن بن هشام وحكام مصر بعد هذه الوفادة من خلال إيفاد بعثة أخرى في ركب الحج الرسمي سنة 1858م فيها ثلاثة من أبناء السلطان إلى سعيد باشا الذي خلف عباس، غير أن سوء الحظ لازم البعثة التي توفي فيها اثنين من أبنائه بمكة والمدينة⁽⁷²⁹⁾.

2- موقف المغرب من الحملة الفرنسية على مصر:

1.2- الموقف الرسمي المغربي:

أوفدت فرنسا نابليون بونابرت - لأسباب تتعلق بصراعها التقليدي مع إنجلترا - على رأس حملة عسكرية إلى مصر سنة 1798م، لقطع طريق الهند عن هذه الدولة. وأسفرت الحملة عن احتلال هذه الولاية العثمانية لمدة ناهزت ثلاث سنوات. وأمام عجز الدولة العثمانية عن استخلاص مصر من قبضة الفرنسيين بمفردها، اضطرت إلى الاستجداء بروسيا وإنجلترا. وفي الإطار نفسه، وجه سليم الثالث، إلى سلطان المغرب المولى سليمان نداءات متكررة⁽⁷³⁰⁾ يخبره بهجوم الفرنسيين على مصر بغية وما اقتترفه المحتلون من فظائع في حق

(727) المقصود مدينة لندن

(728) ابن زيدان، الإتحاف، ج5، ص ص: 180-181.

(729) يونان رزق، ص: 61.

(730) لقد تم اتصال السلطان العثماني سليم الثالث بالسلطان المغربي المولى سليمان من ثلاث جهات: الأولى عن طريق داي الجزائر مصطفى باشا الذي بعث برسالة رسمية انطلاقاً من باي معسكر في 22 رجب 1213هـ الموافق =

العلماء والنساء والصبيان، ويعلمه بأنه عين القائد أحمد باشا الجزائر لمقاومة الفرنسيين، ويذكر له أنه تحالف بهذا الصدد مع الانجليز، وهو يطلب من المولى سليمان المساعدة في تسهيل نقل الذخائر عبر مضيق جبل طارق لإيصالها للديار المصرية ويدعوه فيها إلى قطع علاقاته بفرنسا وإعلان الحرب ضدها وتسيير جيش من لدنه نحو مصر. وهذه النداءات عبارة عن رسالة وجهها الخليفة العثماني سليم الثالث للمولى سليمان بتاريخ 19 شعبان سنة 1213 الموافق لـ 26 يناير سنة 1799م⁽⁷³¹⁾.

وملخص الرسالة بعد البسملة والتحية:

أما بعد: "... كنا أرسلنا لطرفك العزيز سائلا الملك العزيز نميقة أنيقة، تنبئ عن أحوال الطائفة الفرنساوية دمرهم الله تعالى بجاه محمد خير البرية، بأنهم هم الطائفة الخائنون والشرذمة الملعونون ذوو مكر وفساد (كذا)... لأن الذي ارتكبه من الغدر والخيانة بأهل الإسلام ما ارتكبه أحد من عهد آدم عليه السلام. حيث أنه قاتلهم الله هجموا بغته... على القاهرة، وما حولها. فصار لأمة محمد من الغدر والضرر وتشنت الحال ونهب الأموال، ما لا يوصف بقلم ولا يحصى برقم (كذا)... فوالله هذه حادثة عظيمة وخطب جسيم لا يرضى به الله ولا رسوله ولا نحن ولا أحد من المؤمنين، "بل تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض..."⁽⁷³²⁾ ونحن رغم هذا الخطب وأثر هذا الكرب توكلنا على الله، وفوضنا أمرنا إلى الله، فنشرنا وأمرنا العليا إلى تلك الأقطار وما في السواحل من المدن والأمصار بل إلى كل من في حوزة تصرفنا وداخل في دائرة ملكنا بأن يأخذوا حذرهم وأسلحتهم وعتادهم...

= أواخر ديسمبر 1798م يخبر فيها المخزن المغربي بالإجراءات التي اتخذها الخليفة العثماني تجاه فرنسا وإعلان الحرب ضدها، وإرساله لقوات من أجل تحرير مصر. أما الثانية فهي رسالة مباشرة من الخليفة العثماني للمولى سليمان فحواها مبين في النص بتاريخ 19 شعبان 1213هـ الموافق لأواخر ديسمبر 1798م. وهي مراسلة جاءت لتعزيز الروابط بين الدولة العثمانية والمغرب وتحيط المغرب بالمستجدات الحاصلة في مصر والبحر المتوسط. أما الوجهة الثالثة فقد بعث الخليفة العثماني بمندوب له إلى المغرب في شهر يونيو 1799م ليطلع المولى سليمان على مستجدات الحملة الفرنسية على مصر ويحثه من جديد على النهوض لمحاربة فرنسا. أنظر:

- عبد الحفيظ حمان، **المغرب والثورة الفرنسية**، د.ط، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، 2002، ص ص: 85-89.

⁽⁷³¹⁾ محمد الفاسي، "مشاركة المغرب في الجهاد المصري للحملة الفرنسية"، **دعوة الحق**، ع4-5، ص16، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، المغرب، ص: 61. وكذلك: - حمان، ص ص: 88-90.

⁽⁷³²⁾ **سورة مريم**، الآية: 90.

ويحتشدوا لإعلاء كلمة الله، يتجمعوا لمحافظة دين محمد بن عبد الله. وعينا قائدا عسكريا للتوجه إلى تلك الديار مع عسكر جرار لقمع أولئك الفجار... ولكن نخبنا أخانا في الله لا زال في حماية جده رسول الله أننا رأينا طائفة من الانكليزيين لهم معنا محبة قديمة ومودة مستديمة وصداقة كاملة واضحة، وغيره ثابتة راسخة وهم قوم... أولو باس وقوة مغرزة في قلوبهم قديما عداوة طائفة الفرنساويين (كذا)... فبناء على هذا اتفقنا واتخذنا مع طائفة الانكليزيين في هذه القضية بعهود ومواثيق قوية على إعلان الحرب مع الفرنسيين الخونة، ومعاضدة بعضنا لبعض في قمع تلك الطائفة الملعونة، إلى أن نطهر بعون الله تعالى الديار المصرية من لوثهم، ونخلص أمة محمد عليه السلام من شرورهم وخبثهم، فبعدما صار اتفاقنا هذا معلوما لديكم نؤمل من أخوتكم الصميمة ونخوتكم الهاشمية أن تعامل طائفة الانكليزيين بمعاملة الأصدقاء، فلا تمانعونهم في نقلهم الذخائر إلى جبلترة (كذا)،⁽⁷³³⁾ الكائنة تحت تصرفهم بل مهما ساعدتموهم في نقل الذخائر لحظنا الوافر، لأن النفع العائد عليهم هو عائد علينا وأيضا هم راغبون في التجارة في نواحيكم ودياركم بأخذ بعض بضائعكم لديارهم وجلب بعض بضائعهم لدياركم ولا يخفى أن في هذا نفع يعم الطرفين وريح يشمل الفريقين فالمأمول أن تساعدوهم في مطلوبهم وتوافقوهم في مرغوبهم... وأما طائفة الفرنسيين عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، فالواجب على صلابتكم الدينية وغيرتكم الإسلامية أن لا تسامحوا في نقل الذخائر إليهم وإلى من يعاونهم ويسلك في مسالكهم القبيحة... بل تقطع طرفهم ودابرهم وتتهب مهماتهم وأدواتهم وذخائرهم وتعاملوهم بما يوجب ضعف حالهم وتشتت بالهم، ويورث قوة أهل الإسلام... والحاصل أملنا من طلعة ذاك السنية وشيمك الفاروقية أن تكون معنا على قلب واحد بعضنا لبعض معاضد، فشر عن ساعد الجد والاجتهاد إعانة لدين الله ولشريعة محمد خير العباد، فنرفع هذه البلية عن دين خير البرية عليه أفضل الصلاة وأكمل التحية (كذا)⁽⁷³⁴⁾.

انطلاقا مما جاء في الرسالة يبقى السؤال مطروحا حول سياسة المغرب في مثل هذه الظروف العصيبة التي عاشتها الأمة الإسلامية، والمتمثلة أولا في استيلاء فرنسا على مصر، الأرض الإسلامية التي كانت عبر التاريخ معبرا للحجاج المغاربة، ومقصدا للتجار

(733) المقصود جبل طارق.

(734) الفاسي، دعوة الحق، ع4-5، س16، ص: 65.

والعلماء من المغرب. وثانيا ما كان للمغرب من علاقات وطيدة في هذه الفترة مع الدولة العثمانية. فبموجب الشرع والأخوة الإسلامية تحتم عليهما إنقاذ مصر من يد مغتصبها⁽⁷³⁵⁾. من المؤسف أن لا نجد جوابا للمولى سليمان عن كتاب الخليفة العثماني ولا تعرض المؤرخون لهذا الحادث التاريخي، في حدود علمنا⁽⁷³⁶⁾.

ومهما يكن الأمر، وجد السلطان سليمان نفسه أمام هذه الخيارات، ملزما بتحديد موقفه من جهة، وتحديد الأسس التي سيبنى عليها علاقات المغرب الدولية مع القوى الفاعلة في الساحة (فرنسا، إنجلترا، والدولة العثمانية) من جهة أخرى⁽⁷³⁷⁾.

فهل استجاب المغرب لصرخات النجدة التي أطلقها المسلمون في مصر ولرسالة السلطان العثماني؟ وهل خضع المغرب للضغوطات التي مارستها عليه فرنسا أو حتى الإغراءات التي عرضتها عليه؟ وهل تخلى المغرب عن مصالحه الشخصية مقابل المصالح الإسلامية؟

لقد أدى تفوق فرنسا في حروبها الأوربية⁽⁷³⁸⁾ لاسيما في برلين وفيينا إلى زيادة سمعة حاكمها نابليون بوناپرت مما جعل المولى سليمان يراجع حساباته، وكان عليه أن يبدي الاحترام والإعجاب بنابليون، فأرسل بعثة مغربية إلى فرنسا استقبلها نابليون في سانت كلود،⁽⁷³⁹⁾ ولقبه السفير المغربي (بسلطان السلاطين). وبالرغم من هذه المجاملة إلا أن

(735) حمان، ص: 90.

(736) الفاسي، دعوة الحق، ع4-5، س16، ص: 61.

(737) حمان، ص: 90.

(738) من الوهلة الأولى التي نجحت الثورة الفرنسية في الإطاحة بعرش أسرة البربون المالكة في فرنسا، وقيام نظام جمهوري، وجه أصحاب الثورة أنظارهم نحو العروش الأوربية الأخرى للإطاحة بها، حاملين شعار القضاء على الأنظمة الملكية الرجعية وتأييد كل أمة تطالب بحريتها، ومن الطبيعي كذلك أن تثير مبادئ الثورة الفرنسية (الحرية، المساواة، الأخوة) المخاوف لدى الدول الأوربية الملكية، لذلك وقفت الأنظمة الملكية الأوربية (إنجلترا، النمسا، بروسيا، إسبانيا، سردينيا، نابولي، هولندا، البرتغال) في جبهه هذه المبادئ وشكلت حلفا عسكريا، غزت به فرنسا، منذ سنة 1792، غير أن جيش فرنسا الجمهوري وقتها قام بدحرها وتشتيتها، بل زحفت عليها في عقر دارها لاسيما النمسا التي أصبحت العدو الرئيسي لفرنسا منذ 1796م ومع اعتلاء نابليون الحكم في فرنسا سنة 1799م، ونظرا لطموحاته في بناء إمبراطورية أوربية، راحت جيوشه تجتاح كل من هولندا وسويسرا ومملكة هانوفر سنة 1802، وهي السنة التي توج فيها إمبراطورا. أنظر: - ممدوح نصار، أحمد وهبان، التاريخ الدبلوماسي، العلاقات السياسية بين القوى الكبرى 1815-1991، د.ط، قسم العلوم السياسية، كلية التجارة، الإسكندرية، د.ت، ص ص: 25-27.

(739) قصر القديس كلو (Château de Saint-Cloud) الواقع غرب باريس.

المولى سليمان سلطان المغرب، كان متأثراً بقوة الأسطول البريطاني⁽⁷⁴⁰⁾، أكثر من تأثره بالجيش الفرنسي الملقب بالجيش العظيم⁽⁷⁴¹⁾.

لقد بدى موقف السلطان مما يجرى من الأحداث مضطرباً فلا هو انحاز إلى فرنسا كلياً ولا هو استغنى عن خدمات بريطانيا أو حتى لزم الحياد في ذلك.

فلا تفتأ التقارير الفرنسية والرسائل التي كان يبعث بها قناصل فرنسا من المغرب إلى حكومة بلادهم وعلى رأسهم القنصل "كبيط" تطلعون عن المجهودات التي بذلتها إنجلترا من أجل دفع السلطان سليمان للوقوف في صفها ضد فرنسا⁽⁷⁴²⁾ وحليفها إسبانيا: "إن الإنجليز

⁽⁷⁴⁰⁾ إن الانتصارات البحرية التي حققها الأسطول الملكي البريطاني، أثارت إعجاب سلاطين المغرب، وذلك منذ الهزيمة التي ألحقها هذا الأسطول بالأسطول البحري الإسباني سنة 1588م، ومن حينها وبريطانيا تلقب بسيدة البحار، وتوالت انتصارات هذا الأسطول خاصة بالقرب من جبل طارق حين افتكته بريطانيا من الأسطول الإسباني، وهذا جلب اهتمام سلاطين المغرب لإصلاح سفن المغرب بورشات السفن البريطانية بهذا المضيق بموجب اتفاقيات بين المغرب وبريطانيا، تقضي من المغرب تموين الحامية البريطانية هناك، والسماح للسفن البريطانية التزود بالمؤن من موانئ المغرب. غير أن هذه الاتفاقيات كانت تخلق أعباء بريطانيا من الدول الأوروبية كإسبانيا وفرنسا، ومع قيام الحروب النابليونية، تخوف المغرب من توجيه فرنسا وإسبانيا لحملة مشتركة وإنزالها بشواطئ المغرب، وكان على المغرب أن يحمي نفسه من أي غزو أجنبي، فقرر السلطان سليمان إبقاء علاقات المغرب مع بريطانيا حسنة بالرغم من الضغوطات التي وصلته من نابليون بونابرت. ووجد المولى سليمان في الأسطول البريطاني الدرع الحامي للمغرب في مثل هذه الظروف، لاسيما بعد الهزيمة التي ألحقها هذا الأسطول بنظيره الفرنسي والإسباني في معركة الطرف الأغر في أكتوبر 1805م أمام السواحل الإسبانية عند رأس الطرف الأغر بين قادش وجبل طارق. أنظر:

- ب.ج. روجرز، العلاقات الإنجليزية- المغربية حتى عام 1900، ترجمة يونان لبيب رزق، ط1، دار الثقافة، الدار البيضاء، 1981، ص ص: 159-174.

⁽⁷⁴¹⁾ خير فارس، ص: 127.

⁽⁷⁴²⁾ كانت السياسة التوسعية الفرنسية في حوض المتوسط سبباً مباشراً في تحقيق التقارب بين المغرب وإنجلترا، وقد تلقت إنجلترا وعوداً من المولى سليمان عبر وزيره محمد السلوي المكلف بالعلاقات الخارجية، بإمكانية السماح لها باستعمال مرسى القصر الصغير، مقابل حصول المغرب على مراكب حربية، مع حفاظ إنجلترا بعلاقاتها التجارية مع المخزن حتى نهاية سنة 1814م دون أن تعترضها منافسة حقيقية من بقية الدول الأوروبية، خاصة وأن إنجلترا كانت في حاجة ملحة لضمان تزويد جيوشها في جبل طارق وحوض المتوسط خلال فترة الحرب مع فرنسا وحلفائها، وهو ما تم فعلاً سنة 1801م بموجب الاتفاقية المبرمة بين المولى سليمان وملك إنجلترا جورج الثالث. أنظر:

- خالد بن صغير، المغرب وبريطانيا العظمى في القرن التاسع عشر (1856-1886م)، ط2، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1997، ص: 47.

والإسبان يشتغلون بحماس متواصل لجر المولى سليمان إلى صفهم وإعلان الحرب علينا وعلى إسبانيا، ولا يدخرون مجهوداً لإنجاح مساعيهم»⁽⁷⁴³⁾.

بيد أن القنصل الفرنسي "كبيط" يطمأن حكومته في الأخير، بأن المولى سليمان لا يستجيب لهذه المطالب لأنه يريد المحافظة على العلاقات الحسنة التي تجمعها بفرنسا ولا يريد قطعها. وقد تلقى القنصل الفرنسي الرد الرسمي من السلطان حول موقف المغرب مما يدور من أحداث في الساحة الدولية، فقد جاء في رسالة بعث بها المولى سليمان إلى القنصل كبيط: "بسم الله الرحمن الرحيم ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. إلى قنصو الفرنسيين بثغر طنجة أما بعد:

وصلنا كتابك تذكر فيه أن الديوان الفرنسي كتب إليك يأذن لك في مكاتبتنا وإعلامنا بأنهم معنا على العهد والصحة ويذكرون لك اعتناؤهم برعيتنا وبمن هم مضافين إلينا، فسرنا اعتناؤهم هذا، فهو أقوى دليل على ثباتهم على العهد والصحة الموروثة عن الأسلاف محافظين عليها إن شاء الله، والسلام. في حادي وعشرين رمضان 1213 هـ (كذا)"⁽⁷⁴⁴⁾.

كل هذه الرسائل الرسمية جعلت القنصل الفرنسي "كبيط" يتأكد من الموقف المغربي ويحكم على أن العلاقات الفرنسية المغربية جيدة، رغم الظروف الصعبة التي خلقتها الحملة الفرنسية على مصر، وأن مساعي أعداء الثورة لا تزعزعها، مما جعله في الأخير يبعث برسالة إلى حكومة بلاده بتاريخ 22 مارس 1799م كتأكيد على هذه النتائج التي توصل إليها من خلال اتصالاته بالمخزن: "إن السلطان ارتأى أن يكون رده على الاستقامة والصدق التي طبعت علاقة أمتنا الفرنسية والمغرب بالمحافظة على الصداقة والعلاقات القديمة التي تجمع المغرب بفرنسا..."⁽⁷⁴⁵⁾.

أما فيما يتعلق بمراسلات الباب العالي بالمغرب يؤكد القنصل الفرنسي في رسالته، أنه تلقى من الوزير المغربي محمد بن عثمان المكناسي رسالة يؤكد له فيها باسم السلطان، أن جميع المحاولات والبعثات العثمانية وغيرها، لن يكون لها تأثير على قرارات السلطان، لأن

⁽⁷⁴³⁾ حمان، ص ص: 120.

⁽⁷⁴⁴⁾ نفس المرجع، ص ص: 121.

⁽⁷⁴⁵⁾ نفس المرجع، ص ص: 122.

هذا الأخير: "ليس من عادته أن يستسلم للطلبات التي تملئها المصلحة الشخصية دون أي مبرر شرعي وتجعله يتراجع عن قرارات سبق له اتخاذها بكل حكمة وعدالة (كذا)"⁽⁷⁴⁶⁾. وبالمقابل تطلعنا كتابات أخرى على أن المغرب كان يعمل على تمويل القوات البريطانية في جبل طارق. ورفض أن يتوقف عن التمويل رغم محاولات فرنسا المتكررة لثنائه عن ذلك. ورغم الحصار الذي ضربته فرنسا فيما بعد على جبل طارق والذي تسبب في خسائر تجارية كبيرة للتجار المغاربة، إلا أن السلطان سليمان ظل متمسكا بموقفه من إبقاء علاقاته الجيدة مع إنجلترا، وهذا تحت طائل التهديدات التي أصدرها نابليون بإمكانية احتلال المغرب إذا استمر السلطان في موقفه. ولقد حاولت بريطانيا بدورها كسب ود المغرب لضمان استمرار تمويل حاميتها بجبل طارق، فلم يكن من السهل لبريطانيا الوقوف في وجه فرنسا بهذه المنطقة الإستراتيجية دون الحصول على الدعم والمؤونة من المغرب⁽⁷⁴⁷⁾.

وحرصا على استمرار جودة العلاقات مع المغرب أوفدت بريطانيا قنصلها إلى المغرب سنة (1211هـ/1796م) وزودته بتعليمة تأمره فيها بالحفاظ على العلاقات الجيدة مع المغرب في هذه الفترة: "لا تهمل أي وسيلة في إمكانك استخدامها للحفاظ على حسن التفاهم القائم بين جلالة الملك وإمبراطور المغرب وإنمائته". وقد نجح القنصل البريطاني في هذه المهمة على أحسن وجه وتمكن من عقد اتفاقية سلام وتجارة جديدة سنة (1215هـ/1801م)⁽⁷⁴⁸⁾.

وتعبيرا منها عن حسن نيتها في التعامل مع المغرب عملت بريطانيا على ضمان الحماية لسفن الحج المغربية التي كانت تدخل وتخرج من الإسكندرية على ما ذكره الضعيف⁽⁷⁴⁹⁾، فقد حدث أن خرجت السفن المغربية من مصر متوجهة إلى المغرب رفقة الأسطول

⁽⁷⁴⁶⁾ نفس المرجع، ص: 122.

⁽⁷⁴⁷⁾ خير فارس، ص: 128.

⁽⁷⁴⁸⁾ نفس المرجع، ص: 128.

⁽⁷⁴⁹⁾ يعتقد المؤرخون أنه طيلة فترة احتلال فرنسا لمصر تكفل الجهاز القنصلي الفرنسي في المغرب بقيادة كل من القنصل "كبيط" المكلف بالشمال المغربي والقنصل "بروسوني" المكلف بالجنوب المغربي بتزويد السلطان سليمان بمعلومات حول الحاج المغاربة الذين يمرون عن طريق مصر من البر أو من البحر. وفي هذا الصدد يقول القنصل كبيط: "منذ فترة طمأنت السلطان على مرور الحاج المغاربة القاصدين مكة عن طريق الإسكندرية أو القاهرة، وقد وضع السلطان ثقته=

الحربي الإنجليزي وكانت السفن المغربية تحت إمرة المولى إبراهيم ابن السلطان سليمان، غير أن المولى إبراهيم رفض العودة في السفن المغربية وأصر على ركوب السفن الإنجليزية فأبى قائد الأسطول الإنجليزي، وهدد المولى إبراهيم قائد الأسطول بإبلاغ سلطان المغرب بما حدث، وكانت حجة القائد الإنجليزي الخوف على الأمير المغربي من الغارات التي يمكن أن تقوم بها السفن الفرنسية المعادية، خاصة إذا علم الفرنسيون بوجود الأمير المغربي على ظهرها، لأن علاقات المغرب بفرنسا وقتها كانت غير مستقرة. ركب الأمير مع عدد من أصحابه المغاربة مثل محمد بن إبراهيم الزداغي، والجيلاني بن أحمد السكري سفن الإنجليز، وأحاطهم الإنجليز بنحو العشرين سفينة سارت بهم في البحر نحو المغرب، حتى دخلت طنجة في 10 رمضان عام 1227هـ/1812م. أما السفن المغربية التي خرجت من الإسكندرية، ولأنها بقيت في البحر حتى عاد إليها الأسطول الإنجليزي، فقد تفرقت، عدد منها دخل طرابلس الغرب بقيادة الرايس المعطي فلوريش، يوم 29 شعبان، ومعه مسلمة⁽⁷⁵⁰⁾ أخو السلطان سليمان الذي سنأتي على ذكره لاحقاً، إذ كان وقتئذ بالإسكندرية. وفي اليوم الموالي خرجت سفينة الأمير مسلمة من طرابلس ودخلت تونس، أما السفن الأخرى التي كانت تحت قيادة الرايس المزميري، فإنها انتقلت من طرابلس إلى جبل طارق ومن ثم دخلت المغرب، أما الرايس فلوريش فانتقل هو الآخر إلى تونس وبقي بها 19 يوماً، وما لبث أن خرج بالحجاج إلى أن دخل العرائش في 29 شوال من نفس السنة⁽⁷⁵¹⁾.

=في هذه الأخبار نظراً لأنه لمس صدقي في الكثير من المناسبات. من جهة أخرى نقلت الدعاية الفرنسية للمسلمين أن سياسة نابليون تجاه الحجاج بوجه عام، مبنية على التودد وتوفير الحماية لقوافل الحج للبرهنة للرأي العام الإسلامي عن مدى احترامه لشعائر الدين الإسلامي، لذلك راسل الخليفة العثماني وكذا شريف مكة يطمئنهم بأن قوافل الحجاج إلى مكة والمدينة لن تجد أمامها أية عقبة، وأن جيش الحملة سيوفر لها كل الأمن، وبإمكانها إتباع الطريق العادي المار بالقاهرة كما كانت من قبل". أنظر:

- حمان، ص: 43 وص: 91.

⁽⁷⁵⁰⁾ مسلمة بن السلطان محمد بن عبد الله، بويغ له بالخلافة بعد وفاة والده في كل من وزان وتطوان وطنجة والعرائش والقصر الكبير، واعترفت به قبائل الجبل وبني حسن وقبائل الريف وغمارة، ولم يتم له الأمر، فرحل إلى الحج ثم إلى تونس وفيها توفي سنة 1250هـ. أنظر:

- حجي، موسوعة أعلام المغرب، ج7، ص: 2543.

⁽⁷⁵¹⁾ الضعيف، ص: 373.

لقد تركت مبادرة حماية السفن الإنجليزية لركب الحج المغربي في نفس المولى سليمان أثرا عميقا، لاسيما الرعاية التي حضي بها ولده المولى إبراهيم، وعبر المولى سليمان عن امتنانه بشكل عملي، عندما سمح بتصدير ألف ثور من المغرب إلى القوات البريطانية بجبل طارق، كرد للجميل وإدخال البهجة والسرور لدى البريطانيين. أما ابنه الأمير فقد كتب لملك بريطانيا جورج الثالث خطابا يثني فيه على مزايا قائد السفن الحربية البريطانية المدعو "باجوت" الذي رافقه من الإسكندرية إلى المغرب، داعيا الملك إلى ترقية هذا القائد⁽⁷⁵²⁾.

أما فرنسا فقد حاولت هي الأخرى عن طريق جوزيف بوناپرت⁽⁷⁵³⁾ الذي عينه أخوه نابليون حاكما على إسبانيا استدراج سلطان المغرب للاعتراف به ملكا على إسبانيا مقابل حصول المغرب على سبتة ومليلية اللتين كانتا تحت الحكم الإسباني، لكن المولى سليمان رفض العرض⁽⁷⁵⁴⁾.

لقد اتبع المولى سليمان منذ بداية عهده كحاكم للمغرب سياسة العزلة وعدم التفتح على أوروبا ورفض كل ما هو أجنبي على أرض المغرب كسياسة وقائية لتجنيب المغرب السيطرة الأجنبية على أسواقه، خاصة وأن أوروبا كانت تعيش مرحلة تجارية بحرية مزدهرة وبالتالي عكس المعادلة التي خطها والده محمد بن عبد الله حين فتح موانئ المغرب الأقصى أمام التجار الأجانب في محاولة منه للتفتح على التجارة البحرية العالمية التي كان مسرحها حوض المتوسط والمحيط الأطلسي. وعليه فقد تخلص من أسطول المغرب البحري وقدم لكل من الجزائر وليبيا قطعا من هذا الأسطول عام (1233هـ/1818م)⁽⁷⁵⁵⁾. وفي ظل هذه الظروف عجز المولى سليمان عن تلبية مطالب السلطان العثماني، كما تعذر المولى

⁽⁷⁵²⁾ روجرز، ص: 179.

⁽⁷⁵³⁾ ولد في كورني سنة 1768م، وتوفي سنة 1844 بفلورنسة- بكر عائلة بوناپرت- عين ملكا على نابولي ما بين (1806-1808م) وعلى إسبانيا ما بين (1808-1813م)، وتزوج من "جوليت كلاري" في 18 أوت 1794م، وأنجبت له ابنتين (زينايد وشارلوت). أنظر:

- يوسف البستاني، نابليون الأول أو النسر الأعظم، ط2، مطبعة الهلال، مصر، 1924، ص: 165.

⁽⁷⁵⁴⁾ خير فارس، ص: 128.

⁽⁷⁵⁵⁾ محمد المنوني، " ثلاث رسائل من المغرب إلى ليبيا، " دعوة الحق، ع10، ص25، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، 1984، ص: 81.

سليمان بأسباب أخرى رآها أيضا عائقا في تلبية مطالب السلطان العثماني؛ منها: "كثرة المشاغل وبعد المسافة وإتباع أهل نواحي طرابلس وتونس والجزائر... أصحاب العقول الضعيفة والأوهام"⁽⁷⁵⁶⁾.

ومع هذا يسجل الضعيف للمولى سليمان بعض مواقف تنم عن حسن النية والرغبة في المساعدة لولا ما لقيه السلطان من عوائق وصعوبات:

"ففي ربيع الثاني من سنة (1213هـ/1798م) خرجت السفن المغربية من العرائش للإسكندرية، منهم: سفينة الرايس معطي والرايس الجيلالي المزميز والرايس ولعلو السلاوي (كذا)، وقد تبرأ هذا الأخير من سفينته بدعوى قدمها فقال: "إنها راشية" ويتسرب إليها الماء، فقام رجل من أهل سلا يقال له محمد بآردا السلاوي وقال له: أنا أمشي بها للإسكندرية وأردها، فلما رآها وكان على مقربة منها، هرب عنها مع البحرية وتركوها، فبعث السلطان قائد سلا للقبض عليهم ففروا وتفرقوا في بلاد المغرب، فغضب السلطان سليمان من أهل سلا وألزمهم غرامة السفينة، وأما البحارة من أهل سلا فأمر السلطان بالقبض عليهم واحدا تلو الآخر وأوثقوا بالحبال وجيء بهم إلى السلطان، ووضعوا في وسط الماء (مرجة) فمات معظمهم، أما أهل الرباط فقد وجدوا الثناء من السلطان لما وجد فيهم من مثابرة وحب الجهاد (كذا)"⁽⁷⁵⁷⁾.

2.2- موقف المغاربة في مصر والمغرب من الحملة:

لما بلغ خبر نزول الجيوش الفرنسية أرض الكنانة تأثر المغاربة لذلك أيما تأثر وقصد الكثير من المجاهدين الديار المصرية للمشاركة في الجهاد ونصرة إخوانهم، وإن كانت كتب التاريخ لا تعطينا تفاصيل كثيرة عن هذه المشاركة، إلا أن المصادر التي تناولت أخبار هذه الحملة، تجمع على هيمنة أهل المغرب الأقصى على حركة الجهاد والمقاومة في مختلف ربوع الأقاليم المصرية⁽⁷⁵⁸⁾.

⁽⁷⁵⁶⁾ محمد بلعربي حواش، "قيم التضامن بين الشعوب الإسلامية الخطاب النظري والواقع التاريخي مقارنة تاريخية حالة المغرب"، مجلة الإحياء، العدد، 34-35، الرابطة المحمدية للعلماء، المغرب، 2011، ص: 8.

⁽⁷⁵⁷⁾ الضعيف، ص: 372.

⁽⁷⁵⁸⁾ بنعبد الله، دعوة الحق ع3، س24، ص ص: 17-33.

فقد هب ابن الأحرش الدرعاوي⁽⁷⁵⁹⁾ للجهاد في مصر وجمع إليه أناسا من المغاربة ثم انضم إلى الجيش المصري ضد جيش نابليون، وصار يقاتل الفرنسيين بالقاهرة؛ بما قدر عليه، وقويت شوكته، وأصبح له صيت بمصر إلى أن فتحها الله ورجعت للمسلمين⁽⁷⁶⁰⁾.

كما خاض الشيخ محمد المغربي السباعي المعروف بالجيلاني الفقيه الصوفي سنة (1212هـ/1797م) غمار الجهاد، هو وابن أخته الحسن وأخوه الطاهر، سلسلة معارك ضد جيش الحملة بإقليم الصعيد وكان على رأس بضعة آلاف من المجاهدين من أهل الحجاز والمغرب، وانفردوا بتكبيد الفرنسيين هزائم كبيرة⁽⁷⁶¹⁾.

وعن جهاد هذا الرجل يقول الجبرتي⁽⁷⁶²⁾: "لما وصل إلى الحجاز خبر احتلال الفرنسيين لمصر، انزعج أهل الحجاز لهذا النبأ المفجع، واجتمعوا بالحرم المكي يدعون على الفرنسيين، ويتباحثون في الأمر الجلل، وقام شيخ مغربي يقال له الشيخ الجيلاني، يخطب في الناس ويحمسهم، ويدعوهم إلى نصرته الحق الذي داسه الفرنسيون بأقدامهم، ويحرضهم على الجهاد لتحرير مصر، فاستجاب له جماعة كبيرة من الناس، وعاهدوا الله على محاربة الفرنسيين بأموالهم وأرواحهم، وخرج من مكة نحو من ستمائة مجاهد، حتى إذا وصلوا إلى ينبع انضم إليهم عدد من أهلها ومن غيرهم، ثم ركبوا البحر إلى القصير، ثم توغلوا في الصعيد، وهناك انضم إليهم جماعة من قبيلة هواة البربرية ومن أهل الصعيد، وبعض الأتراك والمغاربة والغز المماليك⁽⁷⁶³⁾ وعلى رأسهم أمراء المماليك، وأخذت المعركة تدور بين المجاهدين والفرنسيين، وطال أمد القتال، فنقد صبر الغز فتركوا المحاربة، ثم تبعتهم هواة ومن اجتمع عليهم من أهل القرى، ثم لحقهم الأتراك والمماليك وأمرؤهم، ولكن الحجازيين لم يهنوا ولم يضعفوا، وإنما ثبتوا وظلوا يقاتلون الفرنسيين، وأنشبو معهم عدة معارك (كذا)، وظل

⁽⁷⁵⁹⁾ هو ابن الأحرش الدراوي صاحب الثورة الدراوية في قسنطينة ضد السلطات العثمانية سنة (1218هـ/1802م). أنظر: - محمد بن عبد القادر بن محي الدين الجزائري، تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر، السيرة السيفية، ج1، د.ط، المطبعة التجارية، عزوزي وجاويش، الإسكندرية، 1903، ص: 77.

⁽⁷⁶⁰⁾ بن عبد الله، دعوة الحق ع3، س24، ص ص: 17-33.

⁽⁷⁶¹⁾ نفس المرجع، ص ص: 17-33.

⁽⁷⁶²⁾ عبد الرحمن الجبرتي مؤرخ مصري ولد في القاهرة، حيث تربى ودرس، علم في الأزهر، له كتاب عجائب الآثار في التراجم والأخبار، جمع فيه تاريخ مصر ما بين 1690 و1861م. أنظر:

- حروفش، ص: 208.

⁽⁷⁶³⁾ اختصارا لكلمة المماليك الغزاة.

الشيخ الجيلاني يقاتل الفرنسيين بأصحابه الحجازيين حتى توفي في شهر مايو سنة (1213هـ / 1799م)، وكان الشيخ الجيلاني، ومحاربه الفرنسيين في الصعيد، أحد الأسباب التي أرغمت نابليون على رفع الحصار عن عكا، ورجوعه إلى مصر، كما صرح نابليون نفسه بذلك⁽⁷⁶⁴⁾.

فقد جاء في رسالة بعث بها نابليون بوناپرت من عكا الشام إلى محفل الديوان الفرنسي بمصر بتاريخ 11 ذي الحجة 1213هـ / 16 ماي 1799م يخبره فيها عن هزيمة أحمد باشا الجزائر وإصابته بجروح ويخبره عن أسباب قدومه من الشام إلى مصر: "من بوناپرت ساري عسكر أمير الجيوش الفرنسية إلى محفل ديوان مصر، نخبركم عن سفره من بر الشام إلى مصر، فإني بغاية العجلة بحضوري لطرفكم نساfer بعد ثلاثة أيام... ونصل عندكم بعد خمسة عشر يوما (كذا)...". وبعد أن استطرد نابليون في الحديث عن أسباب قدومه إلى مصر ذكر أنه سمع بخبر رجل يدعى محمد المغربي ادعى أنه أحد سلاطين المغرب وقد صار له جيش كبير متوجه به إلى مصر: "بلغنا توجه أهل الحجاز صحبة الجيلاني لناحية الصعيد... المغربي الذي صار له جيش كبير وادعى أنه من سلاطين المغرب"⁽⁷⁶⁵⁾.

ومما يدل على أن بوناپرت كان قلقا من جيش المتطوعين المغاربة والحجازيين تحت قيادة العالم المغربي الشيخ الجيلاني رسالة أخرى بعث بها نابليون لنائبه على مصر الجنرال "دوجوا"، والمؤرخة في 19 يونيو 1799م يقول فيها: "إلى الجنرال دوجوا: أيها المواطن الجنرال، قم بإعدام المغاربة والحجازيين وغيرهم الذين جاؤوا من مصر العليا وحملوا السلاح ضدنا، قم بإعدام المغربيين عبد الله وأحمد اللذين حرصا الأتراك على الثورة ضدنا، أما الشخص الذي جاء من مصر العليا ويتباهى بأنه قدم الخدمة وأعان خمسة عشر باشا فاسجنه بالقلعة ليقوم بالأعمال الشاقة"⁽⁷⁶⁶⁾.

(764) عبد القادر طليمات، "حملة نابليون على مصر ونداءات الجهاد العثمانية إلى مولاي سليمان"، مجلة حضارة الإسلام،

المجلد 1، العدد 7، مصر، كانون الثاني 1961، ص ص: 88-94. وكذلك - الجبرتي، ج3، ص: 75.

(765) الجبرتي، ج3، ص: 115.

(766) حمان، ص: 108.

"أطلب من القبطان عمر معلومات حول المغاربة المنضوين تحت سريته والذين توقفوا عن القتال، وقم بإعدام الذين تصرفوا من غير انضباط، بونابرت" (767).

لقد تناقل أخبار هذا المجاهد المغربي مؤرخون آخرون معاصرين للحدث، منهم مؤرخ يماني يدعى عبد الله جحاف، فقد قال عنه: "قام في البلدة الحرام بوظيفة الدعاء إلى سناء الإسلام محمد المغربي الجبلاني الهاشمي لما وردت الأعلام بما صنعه الكفار اللئام من الهجوم على ساحات مصر. وتصدر بالحرم الشريف، فالتفت عليه الخلائق، واستمعوا إلى إرشاده إلى أنصع الطرائق، وفعل دعاؤه في القلوب ما فعل، وتسامع الناس بأخباره، فوردوا عليه وبذلوا نفوسهم وأموالهم بين يديه... إلى أن قال: "فسار بهم حتى إذا حاذى مدينة أبود (بمصر)... كتب إلى النصارى كتابا يدعوهم إلى الإيمان بالله ورسوله، فإن أطاعوا وإلا هو مقاتلهم، فأجابوا إلى القتال..." (768).

وفي شهر أفريل من سنة 1799م، ظهر في دمنهور⁽⁷⁶⁹⁾ رجل من أبناء المغرب، وهو الآخر أخذ يدعو الناس إلى جهاد الفرنسيين، وقد ادعى المهدوية⁽⁷⁷⁰⁾ ليجلبهم إليه، فالتفت عليه جماعة من أهل دمنهور، وأخذ في الوقت نفسه يكاتب أهل البلاد ويدعوهم إلى الجهاد، فاجتمع عليه أهل البحيرة وغيرهم، وحضروا إلى دمنهور وقاتلوا من بها من الفرنسيين. واستمر المجاهد المغربي أياماً كثيرة يحاربهم، وكلما حاصروه ليقبضوا عليه يفر منهم، فتارة يذهب إلى ناحية الشرق، وتارة إلى ناحية الغرب، يبيت الدعوة للقتال، ثم يعود إلى دمنهور يستأنف الحرب مع من اجتمع عليه من الناس، فأرسل الفرنسيون حملة من القاهرة إلى دمنهور للقضاء على هذا المغربي، ولنجدة من كان بها من الفرنسيين، غير أن الحملة

(767) نفس المرجع، ص: 108.

(768) حواش، "مجلة الإحياء، ع 34-35، ص: 8.

(769) تقع شمال مصر، وهي عاصمة لمحافظة البحيرة، غرب دلتا النيل، تبعد عن الإسكندرية 60 كلم، وتعرف باسم هرموبوليس القديمة ومدينة النور، ومدينة النصر، ومدينة البحيرة. أنظر:

- شامي، موسوعة المدن، ص: 199.

(770) أي ادعى أنه المهدي المنتظر، والمهدوية طريقة صوفية شيعية، يدعي أصحابها أنهم أتباع المهدي المنتظر الفاطمي، الذي يخرج في آخر الزمان. أنظر:

- سيمو، ص: 31، (الهامش).

فشلت في القبض عليه، واستمر هو في قتال الفرنسيين بدمهور حتى اندلعت بالقاهرة ثورة أخرى، فترك دمنهور واتجه إلى القاهرة، ليقاسم أهلها الجهاد⁽⁷⁷¹⁾.

ومن الأمثلة عن وقوف المغاربة إلى جانب إخوانهم المصريين في هذه المحنة ما قام به الحجاج المغاربة، والمغاربة المجاورين للأزهر، ففي الوقت الذي اندلعت فيه شرارة الثورة، وبدأ الفرنسيون يضربون الثوار بالمدافع، فزع أمراء مصر وأثريائها، وعزموا على الهروب من القاهرة، فراراً بأنفسهم ونجاة بأرواحهم، وجمعوا من أموالهم ما استطاعوا حمله من غالي المتاع، وتبعهم في ذلك ضعاف القلوب من الناس. غير أن المغاربة المجاورين للأزهر المقيمين بحي الفحامين قاموا للذود عن البلاد وجعلوا من حيهم قاعدة حربية، حصنها بالمباريس وآلات القتال، وأخذوا يشنون منها الحرب على الفرنسيين⁽⁷⁷²⁾. ولما كان الناس في حاجة إلى الدعم بدأت الناس تتطوع، ومنهم من عمل على تجهيز جماعة المغاربة بالسلاح والأكل، وبذلت جميع الناس ما في وسعها من أجل تجهيز المتطوعين للجهاد⁽⁷⁷³⁾.

ويذكر الجبرتي أن الفرنسيين لما استولوا على كوم أبي الريش بالقاهرة في 23 شوال 1214هـ/19 مارس 1800م، وانهزمت القوات العثمانية، قام المغاربة بمحاولة الهجوم على الفرنسيين، وطالبوا من أهل الحسينية⁽⁷⁷⁴⁾ بمؤازرتهم، غير أن أهل الحسينية تقدموا إلى قائد الأتراك المدعو عثمان كتحدا، فاستأذنه في موافقة المغاربة أو منعهم، فأمرهم بمنعهم وكفهم عن القتال، بدعوى الصلح القائم بين الفرنسيين والأتراك، غير أن المغاربة وعلى رأسهم رجل يدعى أحمد المحروقي، أخذ ينادي في الناس بأنه لا صلح مع الفرنسيين، وأن على الناس لزوم المباريس، فمنع من ذلك، وهاجم العسكر الناس ففترق الجمع⁽⁷⁷⁵⁾.

ولشدة خوف الفرنسيين من المغاربة استعمل الفرنسيون ما لديهم من وسائل لثيهم عن المشاركة في الجهاد، فقد منعوا الحجاج من ورود مصر يقول الجبرتي: "في ذي القعدة 1213هـ الموافق لـ 11 أبريل 1799م، وردت أخبار لدى الفرنسيين أن الحجاج المغاربة وردوا إلى مصر بنية قتال الفرنسيين، وتناقلت الأخبار بأنهم عشرون ألفاً مدججين بالأسلحة

(771) طليعات، مجلة حضارة الإسلام، مج 1، ع 7، ص ص: 88-94.

(772) الجبرتي، ج3، ص: 13.

(773) نفس المصدر، ص: 8.

(774) نسبة إلى مسجد الإمام الحسين رضي الله عنه سبط النبي عليه الصلاة والسلام.

(775) نفس المصدر، ص: 170.

والخيول، فبلغت أخبارهم الفرنسيين الذين بعثوا في أثرهم ومعرفة أخبارهم ولما وقفوا على قائد الركب سألوه وناقشوه. قال لهم: "إنا لم نأت إلا بقصد الحج"، ف قيل له: "ولأي شيء تشترون الأسلحة والخيول"، فقال: "نعم لنا في ذلك ضرورة"، ف قيل له: "إنه نقل عنكم أنكم تريدون محاربة فرنسا وتقولون الجهاد أفضل من الحج"، فقال: "هذا كلام لا أصل له"، ف قيل له: "إن الناقل لذلك رجل منكم"، فقال: "إن هذا رجل حرامي أمسكناه بالسرقة وضربناه، فحمله الحقد على ذلك، وإن هذه البلاد ليست لنا، ولا لسلطاننا حتى نقاتل عليها، ولا يصح أن نقاتلكم بهذه الشذمة القليلة، وليس معنا إلا نصف قنطار بارود، ثم اتفق الفرنسيون مع قائد الركب أن يبقى رهينة عندهم وأن يجمعوا سلاحهم حتى يسافروا وبعد يومين يطلقون سراحه، فأجابهم إلى ذلك، وأهدوا له هدية" (776).

كما قام الفرنسيون بكسر محلات التجار المغاربة ونهب متاعهم. (777) واستعملوا عددا من الأسرى المغاربة ممن قدموا معهم من جزيرة مالطة كجواسيس لإتقانهم لغة القوم. (778). وقد أثمرت مساعي الفرنسيين في القبض على شيخ رواق المغاربة أبي القاسم المغربي، بتاريخ 24 ذي الحجة 1215هـ/8 ماي 1801م والزج به في السجن، والسبب في ذلك أنه كان يتكلم في المجالس: "ويقول أنا شيخ المغاربة وأحكم عليهم" ويتباهى بهذا القول، وخوفا من إثارته للمغاربة وتحريضهم قبض عليه وحبس (779).

(776) في الأيام الأولى لنزول الحملة الفرنسية مصر نجد تقارير القناصل الفرنسيين وكذا الجنرالات العسكريين والإجراءات والتدابير الأمنية التي اتخذوها في الحملة أنهم لم يكونوا مرتاحين من عبور قوافل الحجاج المغاربة وتواجدتهم بالقاهرة، خاصة أنه ما بين سنة 1798 و1800م حضر جمع غفير من حجاج المغرب إلى القاهرة على ما نقله الجبرتي في حواريته سنة (1217هـ/1801م). أنظر:

- حمان، ص: 97-98. وكذلك: الجبرتي، ج3، ص: 93-94.

(777) لقد شكل التجار المغاربة جالية كبيرة وقوية في مصر خاصة القاهرة، وكانت ارتباطاتهم بالطوائف الأخرى في المجتمع المصري قوية من ذلك مصاهراتهم لأسر المماليك واندماجهم فيها، كما اشتغلوا بتجارة القماش والمرجان، واشتغلوا بالحرف كالحياكة والدلالة والحلاقة وتطريز الحرير مثل الحاج محمد بن المرحوم الحاج أحمد المغربي الحريري. وبذلك كان للتجار والحرفيين المغاربة تنظيمهم القوي في كل حي من أحياء القاهرة ويترأس كل جماعة منهم شيخ ووكيل له يتحدث باسمهم ويدافع عن حقوقهم لدى سلطات القاهرة.

أنظر: - الجبرتي، ج3، ص: 49. وكذلك: - حمان، ص: 102.

(778) الجبرتي، ج3، ص: 4 وص: 49.

(779) نفس المصدر، ص: 257.

كما أثمرت مساعيهم في استمالة عدد لا بأس به من المغاربة ليكونوا ضمن تعداد الجيش الفرنسي فرتبهم أفواجا، ودربوهم على طريقة حربهم ونظمهم وألفاظهم العسكرية⁽⁷⁸⁰⁾. يقول الجبرتي: "في 18 جمادي الأولى 1213هـ الموافق لـ 28 أكتوبر 1798م، توسط رجل يدعى عمر القلقجي⁽⁷⁸¹⁾ وكان من وجهاء القوم للمغاربة_ الفحامين لدى صاري عسكر الفرنسي، وجمع منهم ومن غيرهم عدة وافرة، ثم عرضهم على صاري عسكر، فاختر منهم الشباب وأولي القوة، وأعطاهم سلاحا وآلات الحرب، ورتبهم عسكرا ورئيسهم عمر القلقجي المذكور، وتقدم المغاربة الصفوف وأمامهم الطبل الشامي على عادة عسكر المغاربة، وتوجه إلى جهة البحر، وحدث أن هاجم بعض أهالي مصر على مركبين فرنسيين وقتلوا من فيهم من العسكر الفرنسي، فتوجه إليهم العسكر المغربي وطاردهم وأخمدوا الفتنة ودخلوا قرية عسما⁽⁷⁸²⁾، وقتلوا كبير العرب بها المسمى ابن شعير، ونهبوا داره ومتاعه ومن ماله وبهائمه الشيء الكثير، وأحضروا أولاده وإخوته وقتلوهم، ولم يتركوا سوى ولدا صغيرا جعلوه شيخا عوضا عن أبيهم، كما سكن العسكر المغربي بدار عند باب السعادة"⁽⁷⁸³⁾.

ولما أحكم الفرنسيون سيطرتهم على مصر، صاروا يغرمون من لا يمثل لأوامرهم، وسلطوا عقوباتهم على المغاربة بوجه خاص وأرغموهم على فعل المنكرات والمحرمات في مظاهر مخزية. من ذلك ما أورده الجبرتي في تاريخه حين تحدث عن مظاهر الاحتفال التي تقام عند المشهد الحسيني قائلا: "في يوم الخميس 6 رجب 1213هـ الموافق لـ 13 جانفي 1799م، طلب القبطان الفرنسي الساكن بالمشهد الحسيني من أهل تلك المنطقة المجاورة

(780) من بين المهام التي أوكلت للمغاربة في مصر مهام عسكرية، ذلك أنه منذ العصر العثماني كون المغاربة فرقة كبيرة من الجند غير النظاميين جنبا إلى جنب مع قواد الجيش العثماني وهذا يدخل في إطار سياسة الدولة العثمانية التي سمحت لعدد من الفئات الإسلامية بتكوين فرق من خارج الجيش تعتمد على أساس عرقي، وشكلت الفرقة المغربية التي كان يطلق عليها اسم الفرقة الفاسية، إحدى هذه الفرق، فلا غرابة إذا أن يعمل الفرنسيون على استدراج المغاربة ليكونوا ضمن تعداد الجيش الفرنسي غير النظامي لمعرفتهم المسبقة بشؤون الحرب. أنظر:

- حمان، ص: 103. وكذلك: - الجبرتي، ج3، ص: 46.

(781) ورد اسمه في رسالة نابليون لئنائه القائد "دجوا" على مصر.

(782) وهي قرية قديمة بمحافظة المنوفية. أنظر:

- الجبرتي، ج3، ص: 46.

(783) نسبة إلى سعادة بن حيان غلام المعز لدين الله الفاطمي. أنظر:

- نفس المصدر، ج3، ص: 46.

للمشهد بإحياء هذه المناسبة، من خلال التحضير لها في المساجد وفتح الحوانيت والأسواق وغيرها، ومن يرفض يتعرض للعقوبات مقابل غرامة مالية من 10 فرنكات فرنسية. والحقيقة أن هذه بدعة - يقول الجبرتي- وليست من الدين في شيء، وإنما تنسب للسيد بدوي بن فتيح⁽⁷⁸⁴⁾ حينما مرض ونذر بإقامة هذا أمام المشهد الحسيني وكان وقتها متأثراً بالإفراج واعتراه حبه، فلما أفاق من مرضه راح يفي بنذره من خلال إيقاد المصابيح والقناديل بالمشهد والجامع، وانتخب لذلك فقهاء يقرؤون القرآن في المدرسة نهاراً، وآخرون يقرؤون دلائل الخيرات للجزولي ليلاً. غير أن الأمر لم يبق على حاله بل زاد عليه أهل البدع الكثير من غيهم وضلالهم، فالمغاربة من فرقة العيسوية⁽⁷⁸⁵⁾ مثلاً، كانوا يتحلّقون في المسجد ويرددون الجلالة ويحرفونها، وينشدون من القصائد والمآلات، أو أبيات للبوصيري⁽⁷⁸⁶⁾، ويجاوبهم الآخرون المتحلّقون بجانبهم بصيغة الصلاة على النبي عليه الصلاة والسلام... -يقول الجبرتي- وكانوا يجلسون أمام بعضهم ويقولون كلاماً بلغتهم بنغم وطريقة مشوا عليها، وبين أيديهم الطبول والدفوف يضربون عليها على قدر النغم، أكتافهم على بعضها البعض، لا يخرج واحد عن الآخر، ويلتوون وينتصبون ويرتفعون وينخفضون ويضربون الأرض بأرجلهم، كل ذلك مع الحركة العنيفة والقوة الزائدة، بحيث لا يقوم هذا المقام إلا من عرف بالقوة، وهذه الحركات والإيقاعات تتماشى وضرب الدفوف، فيقع في المسجد دوي عظيم وضجيج من هؤلاء وغيرهم من جماعة الفقراء، وما ينظم إليهم من العوام، فيكثر في

(784) أحمد بن علي بن إبراهيم الحسيني، أبو العباس البدوي، متصوف من المغرب الأقصى، صاحب الشهرة في الديار المصرية، ولد بفاس سنة (596هـ/1200م)، طاف البلاد العربية فزار سوريا والعراق سنة (634هـ/1236م)، واستقر في مكة والمدينة مدة، ثم دخل مصر في عهد السلطان المملوكي الظاهر بيبرس، الذي استقبله وجنده عند دخوله مصر، فأنزله في دار الضيافة، وعظم شأنه في البلاد المصرية، فانتسب إلى طريفته جمهور كبير من بينهم السلطان الظاهر بيبرس، توفي سنة (675هـ / 1276م) ودفن في طنطا بمصر حيث تقام في كل عام سوق عظيمة يفد إليها الناس من جميع أنحاء القطر المصري احتفاء بمولده. أنظر:

- الزركلي، ج1، ص: 175.

(785) تنسب العيسوية إلى الشيخ سيدي محمد بن عيسى من أهل المغرب.

(786) محمد بن سعيد بن حماد بن عبد الله الصنهاجي البوصيري المصري، شرف الدين أبو عبد الله (608-696هـ/1212-1296م)، شاعر، حسن الديباجة، مليح المعاني، نسبة إلى بصير من أعمال بني سويف في مصر، موطن أمه، وأصله من المغرب من قلعة حماد، كانوا يعرفون من قبل ببني حبنون، كان مولده في بهشيم من أعمال البهنساوية، ووفاته بالإسكندرية، له ديوان شعر طويل، وأشهر شعر له هو البردة، ومطلعها: "أمن تذكر جيران بذي سلم". أنظر:- الزركلي، ج6، ص: 139.

المسجد الهذيان وكثرة اللغط والفسوق والمرج من ضحك والتلفت إلى حسان الغلمان الذين يحضرون للتفرج والسعي خلفهم والافتتان بهم، والمأكولات والقاذورات إلى ما هنالك، فيصير المسجد مشابهاً للأسواق الممتهنة، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم⁽⁷⁸⁷⁾.

وبينما كان المجاهدون من المغاربة يخوضون المعارك ضد الجيوش الفرنسية بمصر تضامناً مع أهل هذا البلد الشقيق، كان العلماء والفقهاء والأئمة والخطباء وشيوخ الزوايا ورجالات التصوف والشعراء بالمغرب يلقون الخطب وينظمون القصائد الشعرية لتحريض الناس على الاستعداد للجهاد، وأخذ العبرة مما حدث بمصر خشية أن يتكرر ما حدث بالأمس القريب بالأندلس. وممن امتاز من المغاربة في هذا الصدد، الكاتب المخزني محمد الرهوني⁽⁷⁸⁸⁾ بخطبه المنبرية، وسليمان الحوات بقصائده الشعرية، ومحمد ولد أرزين بن علي الشريف وغيرهم⁽⁷⁸⁹⁾.

فابن علي الشريف مثلاً، الذي عاصر أربعة سلاطين علويين (المولى عبد الله والمولى محمد ابن عبد الله والمولى اليزيد وأخيراً المولى سليمان)، كانت وفاته رحمه الله عن ثمانين سنة (1237هـ/1822م)، وهي سنة وفاة السلطان سليمان. له قصيدة يدعو فيها سلطان المغرب والمغاربة إلى واجب الجهاد ضد الفرنسيين المغتصبين لأرض الكنانة، يذكرهم فيها أن الموت في سبيل الله خير مية وفيها كل خير. وأن المسلمين ما فازوا في كل أزمانهم إلا بفضل الجهاد⁽⁷⁹⁰⁾.

كما تتضمن قصيدة ابن علي الشريف أيضاً عرضاً وجيزاً لتاريخ مصر إلى أيام فتحها على يد الصحابي عمرو بن العاص زمن الخليفة الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنهما، وأن الفتح كان فآل خير عليها وعلى العالم الإسلامي، وتبحر بعد ذلك في ذكر

⁽⁷⁸⁷⁾ الجبرتي، ج3، ص: 67.

⁽⁷⁸⁸⁾ هو محمد بن أحمد بن محمد بن الولي الصالح يوسف بن علي الحاج المدعو بروكشة الرهوني، قبره مزار بقبيلة الرهونة إحدى قبائل جبل الزبيب، ولد سنة 1159هـ، صاحب الحاشية الكبرى على شرح الزرقاني، وله كذلك حاشية على شرح الشيخ ميارة على المرشد الكبير، والمنهج الواضح المرعي في أن نسب سادتنا الشرفاء قطعي... توفي سنة (1230هـ/1815م) ودفن بمدينة وزان. أنظر:

- محمد حجي، موسوعة أعلام المغرب (1171-1300هـ)، ج7، د.ط، دار الغرب الإسلامي، المغرب، د.ت، ص: 2493.

⁽⁷⁸⁹⁾ الفاسي، دعوة الحق، ع4-5، س16، ص ص: 57-58.

⁽⁷⁹⁰⁾ نفس المرجع، ص ص: 60-61.

فضائل مصر وأنه ما رأى ما يشابهها إلا أرض مكة والمدينة والقدس والشام. وقال عنها: "مصر أم المشرق، مصر أم المغرب"، فجعلها قطرا من بلاد المغرب. كما أنها من ضمن بلاد المشرق، وأنها غنية وفيها من الذهب ما يكفي لحاجات المدن والبوادي، ويشير في قصيدته إلى أن النصارى عادوا لعداوتهم القديمة ولكن حياتهم "خسارة". وكيف أن الفرنسيين هجموا عليها من البحر في سفنهم فعاثوا فيها فسادا، فبكى المسلمون على هذه الكارثة بكاء الدم⁽⁷⁹¹⁾.

ثم كيف تحرك الأتراك والمغاربة لنصرتها. إذ قال: "إن عددا كبيرا من المغاربة أقدموا على مساندة إخوانهم مضحين بحياتهم: "وأتي أشغال من خاطر من أوطان المغرب للحرب والسقارة". ثم أخذ يصف شجاعتهم ومعداتهم الحربية وأنهم انتصروا على النصارى وأرغموهم على الفرار. وفي ختام القصيدة تعرض ابن علي الشريف بإيجاز للنتائج الاقتصادية التي تترتبت عن استرجاع مصر من يد الفرنسيين. فقد ذكر أن التجارة انتعشت وازدهرت: "والبيع والشراء يتحرك وتجدد به الأيام" وأن حرية التنقل والسفر رجعت إلى ما كانت عليه من قبل، فيمكن لمن أراد الحج وزيارة أضرحة أسباط النبي عليه السلام وقبر الرسول نفسه البعيد، أن يقوم بهذه الرحلات سالما مطمئن البال، دون خوف أو عناء، وختم على عادة شعراء الملحنين بالصلاة على الرسول الكريم وبالسلام على أصحاب الأخيار رضوان الله عليهم. ومما لا شك فيه وكما يستنتج من قصيدة الشيخ ابن علي أن المغاربة شاركوا مشاركة فعالة في هذه الحرب وأن المولى سليمان لم يكتف بتسهيل نقل السلاح والذخائر الحربية إلى المشرق ولكنه ساعد على الإعانة المباشرة بإرسال المتطوعين للالتحاق بميدان الشرف في مصر⁽⁷⁹²⁾.

(791) نفس المرجع، ص ص: 60-61.

(792) نفس المرجع، ص ص: 60-61.

3- التواصل الثقافي والعلمي بين القرويين والأزهر:

إن المظهر البارز في العلاقات بين مصر والمغرب يتجلى أكثر وبوضوح في ارتحال علماء المغرب وطلابه إلى الديار المصرية لتلقي العلم ولقاء العلماء أو للتدريس في معاهدها⁽⁷⁹³⁾.

فقد استقطبت مصر عبر التاريخ رجالات من جهاذة الفكر في المغرب الأقصى منذ أعرق العصور الإسلامية، منهم من استقر نهائياً ببلاد الكنانة، ومنهم من اغتتم فرصة الحج لينهل من ينابيع جامعة الأزهر⁽⁷⁹⁴⁾.

1.3- الأزهر في خطة السلطان محمد بن عبد الله الإصلاحية:

لأهمية الأزهر في حياة المغاربة فإن الملوك العلويين لم يتوانوا في تبجيل علمائه وتعظيمهم وإكرامهم بالهدايا والعطايا أو طلب الاستشارة منهم في مسائل علمية وسياسية لا سيما ما تعلق منها بالإصلاحات المخزنية أو حتى إفاد البعثات العلمية إليه.

فهذا السلطان محمد بن عبد الله، لما كان منشغلاً بإصلاح أحوال المغرب بعد أزمة العبيد، رأى من المناسب إشراك علماء الأزهر في خطته الإصلاحية في المغرب، بعدما نال علماء المغرب نصيبهم في الإصلاحات. محاولاً بذلك إعطاء مشروعه النهضة في المغرب صبغة عربية وإسلامية، فقد كان علماء الأزهر بالنسبة للسلطان المرجع الأصلي في كثير من مذاهب الحديث النبوي وكذلك فيما يتعلق بأحكام ومسائل الفقه المالكي، التي كان المغرب على مذهبها⁽⁷⁹⁵⁾ ولشدة اقتناع السلطان محمد بن عبد الله بمشروع برنامجه الإصلاحية، بعث بنسخ منه إلى علماء مصر والحجاز مع ولده الأمير عبد السلام، يطلب من علماء الأزهر إعمال النظر فيها. فما ظهر لهم أنه الصواب أقره بخطوطهم، وما كان غير ذلك نبهوا عليه ليرجع عنه إن ظهر له أنه الحق⁽⁷⁹⁶⁾.

ونص ما جاء في صفحات إحدى هذه النسخ بعد الحمدلة: "إلى السادات الفقهاء بمصر عموماً وخصوصاً، السلام عليكم... أما بعد: فاعلموا رعاكم الله أننا وجهنا مع ولدنا الأَرْضِي

(793) محمد العربي الخطابي، "مصر والمغرب خواطر وذكريات"، دعوة الحق، ع7 س 24، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، 1404/ديسمبر 1983، ص: 16.

(794) بن عبد الله، دعوة الحق، ع3، س24، ص ص 17-33.

(795) الخزائن الملكية، منتخبات من نواذر المخطوطات، ص: 28-30.

(796) التازي، في تاريخ المغرب، ج3، ص: 724.

سيدي عبد السلام أصلحه الله، هدية للسادات الأشراف، مبينة في هذا الدفتر، فانه يتقبلها. كما نريد منكم مسائل أخرى مؤكدة في هذا الدفتر... فقد أمرنا قضاة المغرب أن يحكموا بها، فما كان منها صواب أثبتوه واكتبوا عليه بخطوط أيديكم وما كان منها الخطأ فاكتبوا عليه أيضا بخطوط أيديكم في الدفتر المذكور لنرجع عنه ووجهوا لنا الكناش... وعليه خطوط أيديكم، كما يصلكم أيضا تأليفا سميناه اختصار الخطاب (كذا)⁽⁷⁹⁷⁾، نريد منكم أن تطالعوه، فانه يوفقنا وإياكم بمنه آمين يا رب العالمين ولا حول ولا قوة إلا بالله (كذا)⁽⁷⁹⁸⁾.

وحتى يضمن السلطان تأييد علماء الأزهر لسياسته الإصلاحية، كان في كل سنة يرتب الهدايا والهبات المالية، تشجيعا لهم على ما أنجزوه من أعمال علمية، ولا سيما العلماء الكبار منهم، فلقد كان السلطان محمد بن عبد الله يرسل الهدايا والمعونات المالية إلى مصر بشكل منتظم كل عام مع ركب الحجاج المغاربة، وكانت توزع عادة أمام الباشا العثماني (حاكم الإيالة) وأمام أحد أبناء سلطان المغرب الذين يكونون على رأس ركب الحج، كالبعثة التي قادها المولى عبد السلام نجل سلطان المغرب عام (1204 هـ/1789م) والتي خصها السلطان محمد بن عبد الله بهدايا قيمة، عبارة عن ألف سبيكة ذهبية، وزعت على أشخاص معينين في مصر والحجاز. وكان ممن وزعت عليهم في مصر، فقهاء الإسكندرية ومدرسيها وسائر طلبتها، وطلبة القرآن والعلم، وخصص أقل من نصف هذه الهدية للفقهاء والمدرسين بالأزهر والباقي للطلبة على شكل منح دراسية.⁽⁷⁹⁹⁾

وسجل الجبرتي في كتابه عجائب الآثار في حوادث سنة (1200 هـ/1785م) وصول ما أسماه: "صدقات من مولاي محمد صاحب المغرب، فرقت على فقراء الأزهر وخدمة الأضرحة والمشايخ والمفتين والعلماء مثل الشيخ الدردير⁽⁸⁰⁰⁾. والشيخ البكري⁽⁸⁰¹⁾ والأشراف

⁽⁷⁹⁷⁾ يحيى بن محمد الخطاب، فقيه مالكي (ت 995 هـ/1587م)، من علماء الهيئة في البلاد العربية، له كتاب "وسيلة الطلاب لمعرفة أعمال الليل والنهار بطريقة الحساب". أنظر:

- حروفش، ص: 293.

⁽⁷⁹⁸⁾ ابن زيدان، إتحاف أعلام الناس، ج3، ص: 215.

⁽⁷⁹⁹⁾ يونان رزق، ص: 155.

⁽⁸⁰⁰⁾ الدردير أحمد بن محمد بن أحمد بن أبي حامد العدوي المالكي، من بني عدي، ولد سنة 1127 هـ، درس بالأزهر وتلمذ على يد عدد من العلماء مثل الشيخ الصعيدي ومحمد الدقري، أسس زاوية له من بعض الأموال التي كانت تصله من سلطان المغرب محمد بن عبد الله في كل سنة، وفي سنة 1198 هـ أرسل له السلطان محمد بن عبد الله مبلغا من المال، وحدث في تلك السنة أن تخلف أحد أبناء السلطان بعد الحج وأقام بمصر مدة، حتى نفذ ما عنده من النفقة =

الحسينيين بمصر الذين هم من آل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان توزيع هدايا السلطان على العلماء يتم بموجب قائمة ومكاتبة.⁽⁸⁰²⁾

وفي الوقت نفسه لعب السلطان محمد بن عبد الله دور الوصي على الإصلاح والمرشد لعلماء المشرق الإسلامي، يذكرهم بما يجب القيام به، والعلوم التي عليهم الاعتناء بها، دون أن يتردد في انتقاد بعضهم وتوبيخ البعض الآخر، إذا ما خالفوا توجيهاته ونصائحه، فهو يلوم مثلاً العالم الفقيه أبو الفيض السيد محمد بن محمد المشهور باسم المرتضى الزبيدي الحسني⁽⁸⁰³⁾ سنة (1199هـ/1786م) عن شرحه لكتاب الإحياء لأبي حامد الغزالي، قائلاً: "كان ينبغي لك أن تشغل وقتك بشيء نافع غير ذلك"⁽⁸⁰⁴⁾.

ولعل السلطان بهذا التصرف أساء إلى هذا العالم، الذي كان قد اكتسب شهرة كبيرة جعلته مقصداً للكثير من المسلمين، ومحل إعجاب وتقدير، وربما محل تقديس عند بعض الحجاج المغاربة حتى صار حج أحدهم لا يعتبر كاملاً إلا إذا زار الشيخ الزبيدي وجالسه وأخذ عليه علماً أو ورداً، فقد كانت مكانة هذا الشيخ من العلماء أشبه بمكانة السيد جمال

= فلما وصلت الصلة التي أرسلها والده للشيخ الدردير أراد أن يأخذها فمنعه المكلفين بقبضها وذهبوا إلى الشيخ الدردير وذكروا له القصة فقال: "والله هذا لا يجوز وكيف وأنتا تنفكه في مال الرجل ونحن أجانب وولده يتلظى من العدم وهو أولى وأحق، أعطوه قسمي". فأعطاه ذلك، ولما بلغ هذا الخبر مسامع السلطان شكره على فعله وأثنى عليه وأرسل له في ثاني عام عشرة أمثال الصلة المتقدمة مجازة للحسنة، فقبلها الشيخ وحج منها ولما رجع من الحج بنى لنفسه زاوية حيث مات ودفن بها. أنظر:

- الجبرتي، ج2، ص: 34، (م.ك.ش، إ.ص.ث).

(801) محمد أفندي البكري، نقيب سادة الأشراف بمصر، توفي ليلة الجمعة 18 ربيع الثاني 1208هـ بالأزكية وصلي عليه بالأزهر في مشهد حافل، دفن بجوار الإمام الشافعي. أنظر:

- نفس المصدر، ج2، ص: 162.

(802) يونان رزق، ص: 154-155.

(803) الزبيدي (1732م/1790م) عالم لغوي، محدث، أصله من اليمن. عاش وتوفي في القاهرة، له عدة مؤلفات منها شرحه المطول لإحياء علوم الدين، الذي شاع استعماله في الهند والسودان، وكتاب "تاج العروس" وهو شرح لجواهر القاموس للفيروز آبادي. أنظر:

- حروفوش، ص: 320.

(804) يونان رزق، ص: 155-156.

الدين الأفغاني⁽⁸⁰⁵⁾ في مصر أيضا بعد حوالي قرن من الزمان، فكلا الرجلين كانت علاقاتهما متشعبة وتأثيرهما غير محدود⁽⁸⁰⁶⁾.

حاول السلطان محمد بن عبد الله على ما يبدو بعد هذه الحادثة إرضاء الشيخ الزبيدي، فخصص له مكافأة مالية، لكن العالم رفضها، الأمر الذي أغضب السلطان وجعل يلومه قائلا: "إنك رددت الصلة التي أرسلناها إليك من بيت مال المسلمين، وليتك حين تورعت عنها، كنت قد فرقتها على الفقراء والمحتاجين، فيكون لنا ولك أجر ذلك، إلا أنك رددتها وضاعت"⁽⁸⁰⁷⁾.

وكان الشيخ الزبيدي قد برر رفضه لهدية سلطان المغرب بحجة عدم مقابلته للوفد السلطاني الذي زار مصر، كما لم يؤذن له في قبول الهدية إذ قال: "وبعد السلام على كرام الوقت اقبلوا عذري في التخلف عنكم في هذه الساعة وما ذكرتم لنا من أنكم صحبتكم معكم صلة من جانب المنصور بالله، فإنه لم يؤذن لنا في قبولها وهو نصره الله قد استسمن ذا ورم، ونفخ في غير ضرم (كذا)، والآن اذهبوا بسلامة الله"⁽⁸⁰⁸⁾.

2.3- نماذج لعلماء مغاربة في الأزهر:

لم تقتصر اهتمامات السلاطين العلويين على إرسال المعونات المالية إلى الأزهر فقط، بل امتدت لتشمل نواحي أخرى ذات طابع ثقافي، من ذلك إيفاد العلماء المغاربة وطلبة العلم إلى المشرق الإسلامي لينهلوا من مناهل العلم هناك، لأن مصر في نظر علماء المغرب العالم الأصغر الذي اجتمع فيه ما افترق في العالم الأكبر كله -على ما ذكره سليمان الحوات- وبها في كل وقت من أئمة المذاهب ما لا يحصى كثرة، ولا حرمة لهم إلا معرفة الحلال والحرام، والبحث عما يحدث في الدين عن الدوام⁽⁸⁰⁹⁾. ولم يمنع احتكاك المغاربة بنظرائهم المشاركة من السماح لعلماء المغرب بتلقي بعض العلوم والمعارف للطلبة المسلمين

(805) ولد جمال الدين الأفغاني سنة 1254هـ/1839م، رائد من رواد النهضة والفكر الإصلاحية في الوطن العربي والإسلامي إبان القرن التاسع عشر، اشترك في تحرير جريدته الشهيرة "العروة الوثقى" إلى جانب الإمام محمد عبده. أنظر: - عبد القادر المغربي، جمال الدين الأفغاني ذكريات وأحاديث، تقديم كريم أبو حلاوة، ط4، الهيئة العامة السورية، دار البعث، 2008، ص ص: 13-14.

(806) أبو القاسم سعد الله، على خطى المسلمين، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2009، ص: 164-170.

(807) رزق، ص ص: 156-157.

(808) ابن زيدان، إتخاف أعلام الناس، ج3، 227.

(809) محمد ابن سودة الوزير، عبد الهادي ابن سودة، مناقب بني سودة، دط، المغرب، د.ت، ص: 20.

بمصر، وكان بعضهم على اطلاع واسع عن الحياة الاجتماعية للمجتمع المصري، نتيجة الاحتكاك المتواصل مع المصريين. من ذلك ما كان من صلة وثيقة بين الشيخ المرتضى الزبيدي شارح كتاب القاموس، والشيخ ابن الطيب الشرقي الذي قال عنه الزبيدي: "ومن أجمع ما كتب عليه مما سمعت ورأيت شرح شيخنا الإمام اللغوي أبي عبد الله محمد بن الطيب الفاسي المتولد بفاس سنة (1110هـ/1698م) والمتوفى بالمدينة المنورة سنة (1170هـ/1756م) وهو عمدتي في هذا الفن... وشرحه عندي في مجلدين ضخمين"⁽⁸¹⁰⁾. ولعل احتكاك الزباني بالجبرتي هو الآخر، أعطاه فكرة أكبر عن حياة المصريين كما ورد ذلك في الترجمانة⁽⁸¹¹⁾.

- وممن استقطبتهم جامعة الأزهر ومعاهد مصر من شيوخ المغرب وطلبة نذكر:
- ابن الطيب العلمي الفاسي، صاحب: الأئيس المطرب فيمن لقيته من علماء المغرب، توفي بمصر عام 1134 هـ/1721م.
 - أحمد بن عبد القادر القادري المدعو علاء: عاش سبع سنوات بالقاهرة، وتوفي بفاس عام 1133 هـ/1720م.
 - محمد بن أحمد بن عبد الله الورزازي التمجروتي الدرعي: اشتهر بالصغير وبالقاضي، أقرأ العلم بمصر خاصة الفقه وتوفي بها سنة (1138هـ أو 1139هـ/1725-1726م).
 - علي بن محمد العربي بن علي السقاط نور الدين المصري: ولد بفاس وتوفي بمصر عام 1183هـ/1769م.
 - عبد الوهاب التازي: رحل إلى المشرق واجتمع بالشيخين محمد بن أبي زيان الغندوسي⁽⁸¹²⁾ ومحمد بن سالم الحفناوي الشافعي إمام الصوفية وأستاذ الطريقة الخلوتية والشيخ محمود الكردي والشيخ البرناوي، توفي عام 1206هـ/1791م⁽⁸¹³⁾.

⁽⁸¹⁰⁾ محمد الفاسي، "أبو عبد الله محمد بن الطيب الشرقي"، مجلة المناهل، العدد6، وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية، الرباط، السنة الثالثة، 1976 ص ص: 84-85.

⁽⁸¹¹⁾ يونان رزق، ص ص: 125-128، و206-207.

⁽⁸¹²⁾ أبو عبد الله سيدي محمد ابن بوزيان القندوسي، من منطقة القنادسة المعروفة اليوم ببشار، كان حسن السيرة وله كرامات، كما كانت له علاقات وطيدة بالأمير عبد المالك ابن المولى إسماعيل. توفي سنة 1186هـ. أنظر:

- حجي، موسوعة أعلام المغرب (1151هـ/1170هـ)، ج6، ص: 2261.

⁽⁸¹³⁾ بنعبد الله، دعوة الحق، ج3، ص24، ص ص 17-33.

- الجيلالي بن أحمد بن المختار السباعي المغربي المدني: كان يحفظ "تفسير القرطبي"⁽⁸¹⁴⁾ ويقرأه بالأزهر. وصفه الحضيكي⁽⁸¹⁵⁾ في فهرسته بالمجدد على رأس المائة (الثالثة عشرة) لكثرة ما جمع من العلم. توفي بقرية يقال لها أحقاز بمصر عام 1213هـ/1798م⁽⁸¹⁶⁾.

وأما من تولى مشيخة الأزهر من المغاربة، نذكر:

- أحمد بن محمد بن أحمد الصقلي العريضي: قطب فاس، أخذ عن محمد بن سالم الحفناوي المصري الطريقة الخلوتية 1177هـ/1763م⁽⁸¹⁷⁾.

- الشيخ محمد بن الحسين ابن العطار: تولى مشيخة الأزهر الشريف عام 1246هـ/1830م، كان من أهل المغرب، وكان أبوه عطارا في القاهرة، نبغ ابن العطار في العلوم الشرعية وانكب كذلك على دراسة العلوم العصرية كالفلك والهندسة والجغرافيا، واتصل بعلماء الحملة الفرنسية فتعلم لغتهم، على ما ذكره الجبرتي. وقبل توليه مشيخة الأزهر أسندت إليه جريدة "الوقائع المصرية"⁽⁸¹⁸⁾ عام (1250هـ/1833م) وخلال فترة إشرافه على

⁽⁸¹⁴⁾ محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي الأندلسي، أبو عبد الله القرطبي (ت: 671هـ/1273م)، من كبار العلماء المسلمين المشهورين بالتفسير، من أهل قرطبة، رحل إلى المشرق واستقر بمدينة ابن خصيب في شمال أسبوط وتوفي فيها، من كتبه: "الجامع لأحكام القرآن، في عشرين جزءا يعرف بتفسير القرطبي - قمع الحرص بالزهد والقناعة - الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى - التذكار في أفضل الأذكار...". أنظر: - الزركلي، ج5، ص: 322.

⁽⁸¹⁵⁾ صاحب الرحلة هو الشيخ محمد بن أحمد بن عبد الله الجزولي المعروف بالحضيكي، عالم بالتراجم، من أدباء المالكية وفقهائهم بالمغرب الأقصى، المولود سنة (1118هـ/1706م) في دشرة ترسواط في قبيلة أمانوز بسوس جنوب المغرب، أين نشأ في كنف طلب العلم على يد والده، ثم على يد شيخه عبد الله بن إبراهيم الكريسفي. كما تلقى العلم على فطاحل علماء زمانه في أقاليم المغرب المختلفة، مثل الشيخ أبي العباس أحمد عبد الله الصوابي (ت: 1149هـ/1736م)، وعبد الله بن إبراهيم الرسموكي (ت: 1147هـ/1734م) وغيرهم، توفي الحضيكي سنة (1189هـ/1775م). أما عن رحلته إلى الحجاز، فقد رحل الحضيكي في طلب العلم والحج إلى الحجاز سنة (1152هـ/1740م). أنظر:

- أبي عبد الله محمد بن أحمد الحضيكي السوسي، الرحلة الحجازية، ضبط وتعليق عبد العالي المدبر، ط1، مركز الدراسات والأبحاث وإحياء التراث، المغرب، 2011، ص ص: 13-16.

⁽⁸¹⁶⁾ بن عبد الله، دعوة الحق، ع3، س24، ص ص 17-33.

⁽⁸¹⁷⁾ نفس المرجع، ص ص: 17-33.

⁽⁸¹⁸⁾ "الوقائع المصرية" هي أول صحيفة مصرية رسمية، إذ صدر العدد الأول منها في 25 جمادى الأول عام 1244هـ الموافق 3 ديسمبر 1828م، ويرجع الفضل في ذلك إلى الباشا محمد علي والي مصر، لتكون صدى لما عليه مصر من قوة وحياء، وكانت هذه الصحيفة مدرسة لأدباء الشرق عامة ولمفكري مصر خاصة، ومنفذاً لأقلامهم ومعرضاً لبحوثهم. كانت الصحيفة توزع على الجيش مقابل الرسوم المقررة لها، وعلى رجال الدولة ورعاياها هدية تقليداً لما كان يحدث =

هذه الجريدة، دعا من خلالها حكام مصر إلى الاهتمام بالعلوم الحديثة وبعث التراث العربي، ومنه تلقى العالم المصلح رفاعه الطهطاوي⁽⁸¹⁹⁾ صاحب كتاب تخلص الإبريز في أخبار باريس⁽⁸²⁰⁾.

ومن النماذج العلماء المغاربة الذين رحلوا إلى مصر واحتكوا بعلمائها وذاع صيتهم في المشرق والمغرب معا، نذكر:

الشيخ التاودي ابن سودة، الملقب بالتاودي تيمنا بالشيخ عبد الله التاودي من رجال القرن السادس،⁽⁸²¹⁾ رحل ابن سودة إلى المشرق قصد الحج والاتصال بشيوخ العلم والتصوف وذلك سنة (1191هـ/1778م). فلم تقتصر رحلته على أداء المناسك فقط، بل كانت رحلة علم ووسيلة لنقل الطرق الصوفية، والمؤلفات الدينية إلى المغرب. ومن هنا تبرز أهمية الرحلة إلى المشرق في ربط المعرفة المحلية بالمعرفة الإسلامية الشاملة⁽⁸²²⁾.

=في أوروبا في ذلك الوقت، فكانت تهدي إليهم الصحيفة حتى أصبحت حقاً مكتسباً يطالبون بها، ورأى محمد على أن الجريدة مقروءة عند فئة بسيطة، وهي كبار الموظفين وأمرأ البيت والعلماء والجيش فقط، ولهذا فكر في انتشارها عند طبقة جديدة من طبقات الشعب وهي طلاب العلم الذين لهم مكان عند الحكومة، لذلك كانت توزع الصحيفة عليهم بالمجان. وعلى الصعيد الآخر ألزم الموظفون الذين يتقاضون ألف قرش في الشهر بقراءتها إذ إنه يتم استقطاع رسم "الوقائع" 77 قرشاً من رواتبهم. أنظر:

- ميلاد حنا زكي، "الوقائع المصرية، صفحات مطوية من تاريخ الصحافة"، **المصري اليوم**، العدد 2666، 28 أغسطس، 2010، ص: 14.

⁽⁸¹⁹⁾ رفاعه الطهطاوي بن بدوي بن علي الطهطاوي، يصل نسبه إلى الحسين بن علي رضي الله عنهما، عالم مصري (1216-1290هـ/ 1801-1873) من رجال النهضة وأركانها في مصر في عهد محمد علي باشا، ولد في طهطا، دخل الأزهر سنة 1223هـ، وأرسلته الحكومة المصرية إماماً للصلاة والوعظ مع بعثة من الشبان أوفدتهم إلى أوروبا لتلقي العلوم الحديثة، فدرس الفرنسية وتثقف في الجغرافيا والتاريخ، ولما عاد إلى مصر ولي رئاسة الترجمة في المدرسة الطبية، وأنشأ جريدة الوقائع المصرية، وألف وترجم عن الفرنسية كتباً كثيرة. أنظر:

-الزركلي، ج3، ص: 29.

⁽⁸²⁰⁾ الخطابي، **دعوة الحق**، ع7، س 24، ص: 14.

⁽⁸²¹⁾ عبد الهادي التازي، "رواق المغاربة بالأزهر الشريف"، **دعوة الحق**، ع3، س24، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، رمضان 1403/ماي-يونيو 1983، ص: 11.

⁽⁸²²⁾ ابن سودة، **مناقب ابن سودة**، ص: 20.

ومما يوضح الدور العلمي لرحلة الشيخ التاودي ابن سودة، أن هذا الأخير عقد دروساً حافلة بالجامع الأزهر بالرواق حول الفقه المالكي في جموع حاشدة من الطلاب ومن العلماء⁽⁸²³⁾.

فقد درس كتاب الموطأ للإمام مالك بجامع الأزهر، يقول ابن سودة في فهرسته: "لما من الله سبحانه على العبد بالرحلة لأرض الحجاز، وظفر بزيارة الحرمين، نزل أرض مصر، فلقي من فقهاء وأئمتها وقدوتها من يشار إليه بالنبل في العصر، فطمعت نفوس طائفة لها بالعلم اعتناء، وفي الأخذ عن مشايخ المغرب رغباء، أن أقرأ لهم من كتب الحديث ما تيسر، وإن كنت في الحقيقة على جناح سفر، فأجبتهم بعد الاستخارة، وموافقة الأقدار، وأجمع الأمر على قراءة الموطأ بالجامع الأزهر⁽⁸²⁴⁾."

كما كانت الفرصة سانحة للشيخ التاودي ابن سودة أن يلتقي بالشيخ المتقي⁽⁸²⁵⁾، ويتأثر به ويكتب عنه منظومة شعرية تعرف "بالصلانية"⁽⁸²⁶⁾، جاء بها إلى المغرب وعرضها على السلطان محمد بن عبد الله، الذي نوه بشأنها، وكتب عدة نسخ منها ليوزعها على مدارس المغرب ومساجده⁽⁸²⁷⁾. كما سمحت له الفرصة كذلك للاحتكاك بشيخ الطريقة النقشبندية⁽⁸²⁸⁾

(823) التازي، دعوة الحق، ج3، ص24، ص: 11.

(824) عثمان بن خضرة، "الشيخ التاودي ابن سودة، إمام فقهاء المغرب، اجتهاد في العلم والعبادة ومحبة آل البيت"، دعوة الحق، العدد 283، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، أبريل 1991، ص: 5. (المجلة إلكترونية).

(825) الشيخ المتقي: هو علي عبد الشكور الحنفي الحريري المعروف بالمتقي، من أولاد الشيخ علي المتقي، ولد بالطائف ونشأ بها، درس بالحرمين وبالأزهر وأخذ العلم عن الشيخ العبدروس (1135هـ - 1192هـ) والشيخ الزبيدي سنة 1206هـ. أنظر: - الجبرتي، ج2، ص: 142.

(826) كتب لبيب يونان رزق: "أن الشيخ التاودي أعجب بقصيدة الشيخ العبدروس المسماة بالبائية فنقلها إلى المغرب وعرضها على السلطان محمد بن عبد الله". والصحيح ما ذكره الجبرتي: "كان الشيخ المتقي قد تعرف على الشيخ العبدروس وكانت بينهما مودة كبيرة ... فقد أرسل العبدروس قصيدته البائية البليغة المطولة وغير ذلك من مطارحات كثيرة للشيخ المتقي... وللمترجم (يقصد الشيخ المتقي) مؤلفات حسان كلها على ذوق أهل العرفان، منها المنظومة المعروفة بالصلانية، عجيبة شرحها مزجا كأصلها على لسان القوم ولما حج الشيخ التاودي ابن سودة كتبها عنه ووصل بها إلى المغرب ونوه بشأنها السلطان...". أنظر:

- نفس المصدر، ج2، ص: 142، وكذلك: - رزق، ص: 156-175.

(827) يونان رزق، ص ص: 125-128، و206-207.

(828) تنسب الطريقة النقشبندية لمحمد بهاء الدين النقشبندي البخاري، المعروف بشاه نقشبند، هلك سنة (791هـ/1388م) ومن أعلامها كذلك أبي يزيد البسطامي، كما تتصل الطريقة بالأئمة الراضية، لذلك نجد لديهم ميلاً للرافضة. ظهرت النقشبندية في القرن الثامن الهجري، من مبادئها أو من بدعها: أن الولي يقول للشيء كن فيكون، والحقيقة=

عبد الرحمان بن محمد الحسيني، وعنه قال الشيخ التاودي: "والبسني الخرقه، وأخذت عنه الطريقة النقشبندية، وأجازني بجميع ما له من العلوم وطرق القوم"⁽⁸²⁹⁾. وكانت المناسبة موالية كذلك ليلتقي الشيخ التاودي ابن سودة بالشيخ الجبرتي ويلتقى عنه بعض الرياضيات⁽⁸³⁰⁾.

وقد كان للشيخ أبو عبد الله محمد التاودي ابن سودة صدى كبيرا عند علماء المشرق، فقد أورد سليمان الحوات رحمه الله في كتابه الروضة المقصودة تلك المناظرة التي عقدها علماء الأزهر مع الشيخ التاودي ابن سودة لاختباره في المذاهب الأربعة، حيث استطاع هذا الأخير إفحامهم، مما دفعهم إلى طلب الإجازات منه حيث يقول: "حدثنا رضي الله عنه يوم مقدمه السعيد على فاس، أنه لما توفرت عنه دواعي الإقراء على الحضور للسماع منه غالب ما يشار إليه بالمهارة في العلوم، حيث الكثير من أهل المشيخة في المذاهب الأربعة. وأعدوا لاختباره بالمباحثة جماعة من العميان انتهت إليهم الرياسة في معرفة مواد الأقيسة ومسالك العلل وقوة الإدراك في مضائق الاستنباط، مع تمام الملكة وثقوب الذهن وصدق التوجيه بارتجال الفكر وسرعة الوعي مما يملأ عليهم، كما هو شأن غالب العميان، فأعادوا عليهم الإملاء، لما ظنوه قريبا من حد الإعجاز في مذاهبهم غير المالكي، وجعلوهم صدور المجلس، قال (التاودي): "يسر الله تعالى أن اجتمع بيدي من كتب المذاهب ما لي فيه الكفاية بحمد الله في الظهور عليهم... وما ألقوا بشيء من المباحث التي أعدوها إلا ضربت بها وجوههم ردا بالحق الذي لا يسعهم إنكاره..." وانحسروا إليه في طلب الإجازة - يقول الحوات⁽⁸³¹⁾.

=والمحمدية، ورؤية الله تعالى في اليقظة، وخطابه - سبحانه عما يقولون- وهي تتفق مع الطرق الأخرى في الفقر والخلوة، ولها فروع في الصين وتركيا وبعض بلدان آسيا الوسطى والهند وجاوة ومن فروعها: الصديقية، وخوجكانية. أنظر: - عبد الله بن دجين السهلي، الطرق الصوفية نشأتها وعقائدها وآثارها، ط1، دار كنوز إشبيلية للنشر والتوزيع، الرياض، 2005، ص ص: 91-92.

⁽⁸²⁹⁾ ابن سودة، مناقب ابن سودة، ص: 20.

⁽⁸³⁰⁾ التازي، دعوة الحق، ع3، ص24، ص: 11.

⁽⁸³¹⁾ ابن سودة، مناقب ابن سودة، ص: 19.

وفي حق الشيخ التاودي ابن سودة قال الحافظ الزبيدي:

ومنهم محمد بن الطالب	التاودي العدل ذو المذاهب
رئيس فاس كاشف الغيوم	وعالم المنطوق والمفهوم
إليه في بلاده يشار	عليه في المعارف المدار
صحبته في مصر في وفادته	فجاد بالكثير من إفادته
أجازني بكل ما يرويه	من كل ما يفيد أو يمليه

ويقول مرة أخرى في حقه تلميذه سليمان الحوات:

ولولاك يا غوت البرية لم يكن لمغربنا الأقصى فخار على الشرق (كذا) (832)

وفي الأخير لا بأس هنا أن نشير أن من المظاهر البارزة عن مدى ارتباط مصر والمغرب عبر العصور، أن آفاق جديدة عرفتها العلاقات بين البلدين منذ عهد المولى سليمان، فقد تعززت الجالية المغربية بوكلاء (أي قناصلة) يرعون مصالحها، حيث تداول على الوكالة السادة العربي الدمناتي ومحمد الحبابي ومحمد بن قاسم لحلو وعبد الغني التازي وعبد الواحد التازي. ولم تقتصر مهمة هؤلاء على السهر على شؤون الرعايا المغاربة القاطنين بمصر، بل حتى الوافدين عليها في طريق الحج (833).

وفي السياق ذاته لا بأس أن نشير إلى الدور الذي لعبه التجار في توطيد العلاقات بين المغرب ومصر، والواقع أن هذه العلاقات كانت من نتائج أداء مناسك الحج، فقد استقر عدد من التجار المغاربة في القاهرة، وكانوا يقومون باستقبال المنتجات الفاسية وتوزيعها (834). وبالخصوص الطرابيش والأحذية والجلابيب كما يقومون بمساعدة الحجاج المغاربة الوافدين حديثاً إلى القاهرة بحكم تجربتهم بها، حتى أضحت لهم عائلات وأسر بها، من ذلك: أسرة

(832) نفس المرجع، ص: 19. وكذلك: - عبد الحي بن عبد الكبير الكتاني، فهرس الفهارس والأثبتات ومعجم المعاجم والمسلسلات، ج 1، ط 2، تحقيق إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1982، ص: 257.

(833) بنعبد الله، دعوة الحق، ع 3، س 24، ص ص 17-33

(834) حسن قرنفل، أهل فاس المال والسياسة، ط 1، دار أبي الرقراق، الرباط، 2007، ص ص: 60-61.

كسوس، لحلو، مكوار، الأزرق، بناني، برادة، التازي، العليج، ابن ثابت، المراكشي، ابن عبد الله، الزيزي، الزمراني...⁽⁸³⁵⁾.

ناهيك عن الوكالات التجارية التي أسستها الكثير من الأسر المغربية في كل من القاهرة والإسكندرية والتي كانت تقوم بالمتاجرة في مختلف أنواع السلع التي احتكرها التجار المغاربة مثل الحاج عبد الرحمن بن الحاج محمد الشهير بالحلو المغربي الفاسي الذي كان يشرف على وكالة الموردي التجارية بشارع الفحامين بالقاهرة، ووكالة المرجان بالقاهرة التي احتكرتها أسرة السقاط بن الحاج محمد المغربي الفاسي، وكانت الوكالة تتاجر في استيراد المرجان. هذا بالإضافة إلى العديد من الوكالات التي حملت أسماء أصحابها مثل وكالة الشيرابي التي سميت باسم شيخ أسرة الشيرابي المشهورة في تاريخ مصر الاقتصادي، وكذلك وكالة السيد أحمد المراكشي، ووكالة فتح الله الناضوري...، وهكذا أصبحت الوكالات التجارية والمهنية، تمثل شكلا من أشكال التنظيم المغربي التجاري داخل المدن المصرية⁽⁸³⁶⁾.

وأمام أهمية السوق المصرية فإن أرباحا طائلة كان يجنيها التجار الفاسيين، وكان لبعض أرقام تجارية كبيرة في السوق المصرية تتراوح ما بين 20.000 و 60.000 فرنك سنويا، فالعربي لحلو مثلا تجاوز رأسماله 500.000 بسيطة، وعبد السلام المراكشي 100.000 بسيطة، ومحمد بن البدوي برادة مثل ذلك⁽⁸³⁷⁾.

ولعل أبرز تاجر في القاهرة في منتصف القرن 19م كان من أسرة ابن شقرون، فنظرا لمصالحه التجارية الكبيرة تمكن من أن يصبح وكيلا للمغاربة في مصر، وبحكم منصبه هذا استحوذ على أملاك المغاربة المقيمين في مصر، الذين أصابته المنية في أرض الكنانة،

⁽⁸³⁵⁾ حسن قرنفل، "النشاط التجاري في مدينة فاس في القرن 19"، أعمال ندوة التجارة في علاقتها بالمجتمع والدولة عبر تاريخ المغرب، ج2، جامعة الحسن الثاني، عين الشق، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الدار البيضاء، المغرب، 1989، ص: 53.

⁽⁸³⁶⁾ عبد الرحيم عبد الرحيم، المغاربة في مصر في العصر العثماني (1517-1798)، دراسة في تأثير الجالية المغربية من خلال وثائق المحاكم الشرعية المصرية، د.ط، منشورات المجلة التاريخية المغربية، تونس 1982، ص: 64-65.

⁽⁸³⁷⁾ قرنفل، أعمال ندوة التجارة، ص: 54.

وبالرغم من أن المخزن طالبه مرارا بإرجاع هذه الأموال، إلا أنه رفض وتكرر لذلك بل إنه أفلت من العقاب بعد أن أصبح مصري الجنسية⁽⁸³⁸⁾.

لاشك أن التجار المغاربة، نتيجة لاتساع دائرة نشاطهم، أصبحوا بمثابة عصب محرك للاقتصاد المصري، خاصة في القرن الثامن عشر، فقد تعددت نشاطاتهم الاقتصادية، وأصبحت الأسر التجارية الكبيرة، بمثابة مصارف مالية كبرى، تقوم بعمليات الإقراض، والشراء والبيع والرهن والاستبدال، حتى أن مصادر القرن الثامن عشر تجمع على أن الحاج محمد الدادة الشيرابي، هو أول مغربي في مصر أوجد الفائدة على عمليات المضاربة التي كان يقوم بها وأفراد أسرته في الكثير من مجالات التجارة والبيع والشراء والرهن في العقارات، وإسقاط الالتزامات، وذلك لعدم وجود نظام مصرفي مثلما هو الحال عليه اليوم⁽⁸³⁹⁾.

وتحت تأثير هؤلاء التجار ووزنهم الاقتصادي في مصر، فإن حكام مصر ورجال الإدارة الأتراك، أصبحوا يدورون في فلكهم، وكثيرا ما كانوا يستجيبون لطلباتهم، كما أنهم وقفوا إلى جانبهم في الكثير من الأمور، وكانوا يتوددون إليهم ويتقربون منهم طمعا في أموالهم، ليس هذا فقط، بل أضحى أفراد من أسر هؤلاء التجار جزءا من الإدارة الحاكمة في مصر على إثر قبول اندماجهم في الكثير من الوظائف الإدارية والعسكرية على غرار الجيش⁽⁸⁴⁰⁾.

⁽⁸³⁸⁾ قرنفل، أهل فاس المال والسياسة، ص ص: 60-61.

⁽⁸³⁹⁾ عبد الرحيم، ص: 79.

⁽⁸⁴⁰⁾ نفس المرجع، ص: 79.

الفصل الثالث

علاقات المغرب مع إيالتي ليبيا وتونس

I- علاقات المغرب مع إيالة ليبيا:

1- العلاقات السياسية والدبلوماسية:

اتسمت العلاقات المغربية الليبية، في القرن الثامن عشر والنصف الأول من القرن التاسع عشر، بالتواصل والمودة والتعاون المتبادل بين البلدين، وكذا التواصل الثقافي والديني وتبادل للهدايا الثمينة بين الجانبين، ناهيك عن المصاهرات التي كانت قائمة بين ملوك المغرب وحكام طرابلس كتنويع لجودة العلاقات.

وإلى جانب العلاقات الرسمية التي كانت قائمة بين المغرب وليبيا، فإن وجهها آخر من العلاقات غير الرسمية كان الغالب على الروابط بين البلدين. فقد كانت البلاد الليبية مثلاً منفذاً طبيعياً للمغاربة ذهاباً وإياباً لاسيما ما تعلق بقضاء مناسك الحج وطلب العلم في المشرق. وكان في ليبيا من يرفع مصالح المغاربة ويزودهم بما يحتاجونه في طريقهم، كما تعود المغاربة على بيع ما ينتجه المغرب من مواد مختلفة بأسواق ليبيا. وهذا ما نستشفه من خلال الرحلات المغربية التي سنقف عند بعض منها باعتبارها مصدراً لا غنا عنه في دراسة هذا الموضوع، إذ لا يمكن أن نتصور رحلات الحجاج المغاربة إلى المشرق دون المرور بالقطر الليبي الشقيق براً أو عن طريق البحر⁽⁸⁴¹⁾.

ومن أجمل الرحلات التي سجلتها لنا الكتابات التاريخية المغربية عن العلاقات المغربية الليبية رحلة الوزير الإسحافي أو أمير مغربي في طرابلس، كما عنونها الأستاذ عبد الهادي التازي. فقد كانت رحلة الإسحافي برفقة الأميرة خنثة بنت بكار زوجة المولى إسماعيل وحفيدها الأمير محمد بن عبد الله.

وتعد رحلة الإسحافي من الرحلات الرسمية التي ترتب عنها نمو وازدهار العلاقات الثنائية بين البلدين، كللت بعقد المصاهرة بين الجانبين.

(841) التازي، أمير مغربي، ص ص: 17-18.

1.1- رحلة السلطان محمد بن عبد الله إلى ليبيا:

عرفت ليبيا محمد بن عبد الله أميراً قبل أن تعرفه سلطانا، وذلك عندما نزل بها ضيفا مع جدته سنة (1143هـ/1730م) مع الوفد المغربي المتوجه إلى الحجاز لأداء فريضة الحج، كان الأمير محط إعجاب وتقدير كبيرين لدى الليبيين، الذين رحبوا به وتنافسوا على ضيافته⁽⁸⁴²⁾. وعن هذه الرحلة يقول صاحبها: "كان دخول مدينة طرابلس عصر يوم الجمعة 29 شعبان... ولما حل الوفد بطرابلس خرج ولي العهد ولد حاكم طرابلس أحمد باشا⁽⁸⁴³⁾ في جملة من أصحابه ومع أهل البلد رجلا ونساء في الطرقات، وعلى السطوح لاستقبال الوفد المغربي مظهرين الفرح والسرور، وضربت المدافع ترحيبا بهم، وتعالى أصوات الناس بالهتاف والصياح فرحا بقدوم الوفد المغربي الذي كان محاطا بكوكبة من جند عبيد البخاري⁽⁸⁴⁴⁾ وشخصيات مغربية كبيرة من قضاة ووزراء من أمثال الفقيه أبو القاسم التسولي، في زي مغربي جميل⁽⁸⁴⁵⁾.

وقد حضرت منصة شرفية لاستقبال الأمير والوفد المغربي المرافق له، والتحق الأمير بالقصر الملكي الذي خصص لإقامته، وأثناء استعراض ألعاب الفروسية من طرف الفرسان الليبيين وعسكر المخزن المغربي، كانت المناسبة مواتية للقاء الجيشين المغربي والليبي واستعراض المهارات الحربية لكلا الطرفين⁽⁸⁴⁶⁾.

(842) التازي، أمير مغربي، ص: 24-48.

(843) أحمد باشا الأول، حكم ما بين (1711-1745م) أول من حكم طرابلس من الأسرة القرمانلية خلفا للداي محمود أبو موسى الذي حكم 23 يوما بعد أن اغتال محمد داي (ولد الجن)، استولى أحمد باشا على الحكم بعد انقلاب دبره بالتحالف مع قبيلة غريان. أنظر:

- شارل فيرو، الحواريات الليبية، ترجمة محمد عبد الكريم الوافي، ط3، منشورات جامعة قار يونس، بنغازي، 1994، ص ص: 264-266.

(844) ابن زيدان، الإتحاف، ج3، ص ص: 29-30.

(845) التازي، أمير مغربي، ص: 48.

(846) نفس المرجع، ص ص: 48-49.

يقول الاسحاقي: "فتناولوا من لباسهم ومراكبهم وحسن زيهم ما كانوا أعدوه لذلك، ولعبوا بالبارود لعبا قضى منه الترك وغيرهم العجب، واعترفوا بأنهم لا قدرة لهم على ذلك اللعب ولا معهم من الفروسية ما يقاوم ذلك. وأهل البلاد المشرقية كلهم يتعجبون من زي مخزن سلاطين المغرب... واحتفل الباشا بضيافة ولد السلطان مع أمه غاية الاحتفال، فما تركوا شيئا قدروا عليه إلا وقدموه وداموا على ذلك مدة إقامتهم بطرابلس وكذلك فعلوا حال الأوبئة"⁽⁸⁴⁷⁾. وأمام مهارات عناصر الجيش المغربي التي أثارت فضول وانتباه رجال القصر في طرابلس، لم يجد هؤلاء من بد سوى نثر عبارات التقدير والإعجاب⁽⁸⁴⁸⁾.

وتقديرًا من حاكم طرابلس للوفد المغربي فقد أحاطه بضيافة معتبرة وعناية فائقة فخصص عددا من الجند لخدمة الوفد، ووفرة المؤونة اللازمة لأعضائه، وكانت الموائد تتردد باستمرار على بيوت الحاشية، فلقد كان يشرف بنفسه على راحة الأمير الصغير، وكانت عقيلته وجواريه يشرفن بأنفسهن على خدمة الأميرة المغربية خاتمة بنت بكار، ناهيك عن جو المرح الذي وفره حاكم طرابلس للأمير الصغير، إذ جعل له الرفقة من أبناء القصر، فتبادل معهم الحديث عن العادات المغربية في المأكل والملبس واللعب⁽⁸⁴⁹⁾.

بالمقابل ولشعورها بقيمة الترحاب وحسنه أخذت الأميرة في المكافأة على حسن الصنيع بأضعاف مضاعفة مما يستغرب وجوده في تلك الديار من التحف والهدايا⁽⁸⁵⁰⁾، ولخجله من كرم الأميرة بعث حاكم طرابلس أحمد باشا مع الوفد عشرات الجمال من أجود ما عرفته ليبيا، كما بعث في سائر الأقاليم بضرورة الاعتناء بالركب المغربي ذهابا وإيابا من وإلى ليبيا⁽⁸⁵¹⁾.

(847) ابن زيدان، الإتحاف، ج3، ص ص: 29-30.

(848) التازي، أمير مغربي، ص ص: 48-49.

(849) نفس المرجع، ص: 49.

(850) ابن زيدان، الإتحاف، ج3، ص: 30.

(851) التازي، أمير مغربي، ص ص: 50.

لقد كانت الفرصة سانحة للوفد المغربي من أجل الوقوف على المعالم الإسلامية في ليبيا مثل جامع عمرو بن العاص⁽⁸⁵²⁾ ومسجد الناقة⁽⁸⁵³⁾ ومسجد خطاب⁽⁸⁵⁴⁾ والمدرسة المستنصرية⁽⁸⁵⁵⁾، وكذا الوقوف على المعالم والآثار الرومانية الضاربة بجذورها في التاريخ الليبي، وزيارة الأضرحة مثل ضريح القائد التركي درغوث باشا⁽⁸⁵⁶⁾،

(852) نسبة إلى الصحابي الجليل عمرو بن العاص بن وائل السهمي القرشي (50 ق هـ - 43 هـ / 574-664م)، فاتح مصر وأحد عظماء العرب ودهاتهم، من أولي الرأي والحزم والمكيدة فيهم. كان في الجاهلية من الأشداء على الإسلام، وأسلم في صلح الحديبية، وولاه النبي صلى الله عليه وسلم إمارة الجيش في "ذات السلاسل". كان على رأس جيوش الشام في عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه. وهو الذي فتح قنسرين، وولاه الخليفة عمر فلسطين، ثم ولاية مصر بعد أن فتحها، وعزله الخليفة عثمان رضي الله عنه، ولما كانت الفتنة بين علي ومعاوية رضي الله عنهما، كان إلى جانب معاوية، فولاه معاوية على مصر سنة 38 هـ، حتى توفي بها. أما عن المسجد فتذكر المصادر ومنها التجاني في رحلته إلى أن جامع القديم بمدينة جنزور شيده عمرو بن العاص حوالي 23 هـ/643م، كما تذكر المصادر أن هذا الصحابي شيد مسجداً آخر بطرابلس، بعد تخليصها من البيزنطيين بالمكان المقام عليه جامع أحمد القرماني. أنظر:

- الزركلي، ج 5، ص: 79. وكذلك: - علي مسعود البلوشي، تاريخ معمار المسجد في ليبيا في العهد العثماني والقرماني 1551-1911م، نشأة ونمو وتطور المساجد الليبية، د.ط، جمعية الدعوة الإسلامية، ليبيا، 2007، ص: 87.
(853) يقع بالمدينة القديمة على بعد 50 متراً غرب جامع أحمد القرماني، وقد دمره الإسبان غداة احتلالهم لطرابلس الغرب سنة 1510م، وبقي في حالة خراب لمدة قرن تقريباً حتى جددته الوالي التركي صفر داي. أنظر:

- نفس المرجع، ص: 82.
(854) يقع على الجانب الشرقي من مدينة طرابلس، وهو ينسب إلى الشيخ أبي خطاب البرقي المتوفى سنة 373 هـ/983م، لكن هذا الجامع اندثر مع الزمن. وهناك مسجد آخر ينسب للشيخ الحطاب الطرابلسي الأندلسي الأصل، المتوفى سنة 1538م وهو مدفون بزوايته بتجوراء. أما المسجد فقد بني في نهاية القرن 16م وبداية القرن 17م، وهو مشهور بقبابه الستة. أنظر:

- نفس المرجع، ص: 83، وص ص: 201-203
(855) بنيت ما بين (655-658 هـ/1257-1259م) على يد الفقيه عبد الحميد بن أبي البركات بن أبي الدنيا رحمه الله (606-684م)، وهي من أحسن المدارس عمارة، تقع بالقرب من جامع طرابلس وقوس ماركوس أورليوس. أنظر:

- نفس المرجع، ص ص: 81-85. وكذلك: - أبو محمد عبد الله محمد بن أحمد التجاني، رحلة التجاني، تقديم حسن حسني عبد الوهاب، د.ط، دار الكتب العربية، تونس، 1981، ص: 252.
(856) تولى ولاية طرابلس الغرب سنة (964 هـ/1556م)، على عهد سليمان القانوني. شهدت طرابلس في فترة حكمه استقراراً وقوة، حيث وضع الأسس القوية للدولة. استدعاه سكان القيروان للتخلص من حكم وسطوة محمد بن أبي الطيب الشابي، وبعد أن قضى على حاكم القيروان ولى مكانه حيدر باشا، ثم قفل راجعاً إلى طرابلس. استشهد سنة (971 هـ/1564م) في مالطا، بعد أن خرج بعساكره لرد هجوم الحلف الصليبي الذي قادتته كل من إسبانيا ومالطا وجنوة. دفن في طرابلس وأصبح قبره مزار للناس. أنظر:

- أحمد بك النائب الأنصاري، المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب، د.ط، مكتبة الفرجاني، طرابلس الغرب، د.ت، ص ص: 209-210.

وسيدي سالم المشاط⁽⁸⁵⁷⁾، وعبد الوهاب القيسي⁽⁸⁵⁸⁾، ولم يقتصر الوفد المغربي على هذا النحو من الزيارة، بل كانت الفرصة أمامه مناسبة للتعرف على علماء البلد والاحتكاك بهم، من ذلك: "الفقيه والسياسي محمد التونسي الذي كان لاجئاً في ليبيا، والأديب محمد بن مقيل والشريف الفرجاني، والفقيه الأصرم"⁽⁸⁵⁹⁾.

هذا ولم يفوت الوفد الفرصة للاجتماع بأفراد من الجالية المغربية الموجودة في مدينة طرابلس والوقوف على أحوالهم. ومن الملاحظ في هذه الرحلة عند حديثها عن الحركة العلمية تشير بوضوح لركود الحركة العلمية في ليبيا بسبب ظروف الحرب والغزو الأجنبي الذي استهدف البلاد⁽⁸⁶⁰⁾.

وفي إشارة إلى الصعاب التي كان يلقاها ركب الحج المغربي بوجه عام في ليبيا، فعلى ما يبدو أن ركب الأمير اختلف عن ذلك كلياً، لقوته ومنعته، إذ أقام الركب بليبيا ثماني أيام كاملة معززا مكرما. ولقد كانت هذه المدة كافية لربط أواصر الأخوة بين المغاربة وأصحاب البلاد، فقد كانت فترة الوداع مؤثرة، لم يخفف من لوعتها إلا الأمل في العودة إلى طرابلس. لقد خرجت الأسرة القرمانيّة عن بكرة أبيها لتوديع الركب المغربي وعلى رأسها الأمير أحمد باشا وولي عهده محمد، وحريمه كذلك والوزراء والعلماء، والجند وكل يودع رفاقه⁽⁸⁶¹⁾.

وعلى ما يبدو فإن طرابلس الغرب كانت تستهوي الكثير من أمراء المغرب ممن فضل الإقامة بها. فهذا الأمير المعتصم ابن المولى إسماعيل زارها سنة (1151هـ/1738م) ومن محاسن الصدق أثناء إقامته بها أنه التقى ركب الحجاج القادم من البقاع المقدسة وعلى رأسه الشيخ أبو العباس أحمد القادري، فأبدى الأخير الرغبة في رؤية الأمير المعتصم، فتوجه القادري إلى إقامة الأمير، فقدر الأمير للقادري أدبه، فوقف عند الباب في استقباله

(857) حلاه صاحب المنهل العذب بكبير المقامات وشيخ السالكين، وقدوة العارفين، وعمدة المحققين، توفي سنة 899هـ/1493م، وهو دفين مدينة طرابلس مما يلي السور البحري. أنظر:

- نفس المصدر: ص: 184. وكذلك: - البلوشي، ص: 95.

(858) هو الآخر حلاه صاحب المنهل العذب بالناسك العابد، والورع الزاهد، الجامع للأخلاق المحمدية، عروس الصوفية، من أجل الشيوخ وأكابر العاملين، له كرامات كثيرة، مات رحمه الله في حدود المائتين، وضريحه بداخل مسجده بطرابلس. أنظر: - النائب الأنصاري: ص: 64.

(859) التازي، أمير مغربي، ص: 51.

(860) نفس المرجع، ص: 51.

(861) نفس المرجع، ص: 53-54.

مرحبا بهذه العبارة الجميلة: "مرحبا بسيدي الذي جاء عند ولد سيدي"، وأعادها مرارا وتكرارا، وهوى الشيخ القادري على رأس الأمير يقبله ويدعو له، وجلس إليه ردحا من الزمن يتبادل معه أطراف الحديث عن بلاد المشرق وبلاد المغرب، وهذا لقاء واحد من بين اللقاءات الكثيرة التي كانت تحدث في طرابلس في أثناء ذهاب وإياب ركب الحج المغربي⁽⁸⁶²⁾.

وبالعودة إلى رحلة المولى محمد بن عبد الله، فمنذ تاريخ هذه الرحلة والأمير يحمل ذكريات طيبة عن ليبيا وشعبها. إذ لما تقلد عرش المغرب، وثق علاقاته بليبيا. وفي سنة (1190هـ/1776م) تقدمت ليبيا بمساعدات غذائية للمغرب، بعدما أصابته المسغبة. واعترفا بالجميل الذي كانت تقدمه ليبيا للحجاج المغاربة عندما يصطدمون ببعض المصائب، وتقديرا من المغرب لمواساة ليبيا أيام الجفاف سنة (1190هـ/1776م)، حين وصلت إلى المغرب شحنات هامة من القمح، أزالَت الخوف عن سكان هذا البلد. وفي مبادرة مماثلة من المغرب أرسل السلطان محمد بن عبد الله كميات معتبرة من القمح إلى ليبيا حين أصابها هي الأخرى القحط والجفاف، تعبيرا عن التضامن القائم بين البلدين الشقيقين في مثل هذه الظروف⁽⁸⁶³⁾.

وما فتئت ليبيا هي كذلك تأخذ برأي سلطان المغرب، خاصة في ظروفها الصعبة وعلاقاتها مع بعض الدول الأوربية، لاسيما وأنها كانت عرضة لمضايقاتهم. مثلما حدث مع "نابلي"، حين توسط السلطان لدى الجانبين لإعادة العلاقات بينهما إلى سابق عهدها في ذي القعدة سنة 1196هـ الموافق لشهر أكتوبر 1781م. حدث ذلك عندما أرسل سلطان المغرب في وقت سابق عددا من السفن المحملة بالقمح إلى ليبيا بعد أن أصابها القحط، فاستولت نابلي على هذه السفن، فأرسل السلطان المغربي سفارة إلى نابلي وقام بتسوية الوضع⁽⁸⁶⁴⁾.

وقد أسفرت هذه المبادرة عن وصول مواكب من الأسرى الليبيين إلى ميناء بن غازي⁽⁸⁶⁵⁾ وميناء طرابلس، كان السلطان محمد قد افتداهم، حيث استقبل الأسرى استقبالا مهيبا⁽⁸⁶⁶⁾.

(862) نفس المرجع، ص: 55.

(863) نفس المرجع، ص: 48. وكذلك: - ابن زيدان، الإتحاف، ج3، ص إلى ص: 378.

(864) التازي، أمير مغربي، ص: 48.

(865) مدينة ليبية تقع على ساحل البحر الأبيض المتوسط عند الطرف الشمالي الشرقي لخليج سرت، إلى الشرق، وعند الطرف الغربي للجبل الأخضر، وبنغازي عاصمة الإقليم الشرقي من البلاد ومركز محافظة بنغازي، وهي مدينة آهلة بالسكان، واسعة الأرجاء، طيبة الهواء، جيدة المناخ، تحيط بها الكروم وبساتين الحوامض، والخضار. أطلق اسم=

وفي السنة نفسها توصل الوزير الإسباني "الكونت دي فلوريدا بلانكا" برسائل من طرف الطاهر فنيش ومحمد بن عثمان المكناسي، اقترحا فيها على إسبانيا: "أن سلطان المغرب على استعداد لضمان توقيع اتفاقية سلام وصداقة بين ولاية طرابلس وبلاط الصقليتين، وذلك بسبب علاقة الصداقة المتينة بين السلطان المغربي والباشا الكبير لطرابلس على حد قول ابن عثمان (867).

وفي سنة (1198 / 1783م)، وصل مبعوث باي طرابلس إلى المغرب، وكان الغرض من الزيارة الحصول على وعد من السلطان باستمراره في مساعي وساطته الحميدة لتوقيع اتفاقية السلام بين ولاية طرابلس وكل من إسبانيا والصقليتين (868).

وأكد الأب بولتاس أنه من أجل توقيع اتفاقية السلام بين طرابلس والدول المذكورة أراد المبعوث الطرابلسي الذهاب برسائل سلطان المغرب إلى إسبانيا، وهو ما أثار حفيظة هذا البلد الذي عارض هذا السلوك بشدة بحجة أن وساطة سلطان المغرب وحدها كفيلة وكافية لعقد اتفاقية السلام. لكنه تم التوصل لاحقا إلى توقيع اتفاقية سلام بين إسبانيا وولاية طرابلس دون تدخل المغرب، وهو الأمر الذي لم يرض سلطان المغرب (869).

كما جسد التضامن المغربي الليبي، الأمير يزيد ابن السلطان محمد بن عبد الله أثناء إقامته بليبيا، حين وجه خطابا إلى إحدى سفن الدوبرونيك (يوغسلافيا) لحمل مائة من الحجاج المغاربة من طرابلس إلى المغرب، إذ كانت السفينة قد تخلت عن الحجاج في طرابلس، وكان شرطا عليها نقلهم إلى المغرب، الأمر الذي دفع والده السلطان لإشهار الحرب على هذه الدولة (870).

=بنغازي على مدينة منطقة برنيق بعد أن استوطن فيها رجل صالح يدعى سيدي غازي سنة 1450م، ومات بها ودفن في مقبرة السيد خريبش، وسكانها الأوائل كانوا من المهاجرين والتجار القادمين من مصراتة وساحل طرابلس. استولى الأتراك عليها سنة 1578م، أنظر:

- الشامي، موسوعة المدن العربية، ص: 181-182. وكذلك: الطاهر أحمد الزاوي، معجم البلدان الليبية، ط1، مكتبة النور، طرابلس، ليبيا، 1968، ص: 64-65.

(866) التازي، أمير مغربي، ص: 24-25.

(867) دياز، ص: 106.

(868) نفس المرجع، ص: 106-107.

(869) نفس المرجع، ص: 106-107.

(870) التازي، أمير مغربي، ص: 20.

2.1- مصاهرة ملوك المغرب لأمرأ طرابلس:

لقد كللت العلاقات الجيدة بين المغرب وطرابلس الغرب إلى عقد مصاهرة أمرأ الدولة العلوية مع إحدى أهم وأكبر القبائل الحاكمة في طرابلس. فهذا اليزيد بن السلطان محمد بن عبد الله خلال الفترة التي كان يتردد فيها على ليبيا التي وجد فيها الوطن الثاني، والذي كان ملجأ له في فترة فراره من المغرب، لا سيما منذ سنة (1193هـ/1779م)، على ما ذهب إليه التازي، وكانت من أبرز المحطات في تاريخ العلاقات بين البلدين هي اقتران اليزيد سنة (1201-1202هـ/1787م) بالسيدة حفصة كريمة سيف النصر زعيم أولاد سليمان⁽⁸⁷¹⁾ من عرب الحنانشة⁽⁸⁷²⁾.

وللتعقيب على هذا الحدث وحقيقة هذه المصاهرة وأبعادها، ننقل ما أورده بعض المصادر التاريخية الليبية في هذا الموضوع، لاسيما ما ذكره أحد الرحالة الأوربيين واسمه (المس توليلي) في كتابه "عشر سنوات في بلاط طرابلس" أن هذه المصاهرة لم تكن عفوية وإنما جاءت كنتيجة حتمية لطيش اليزيد إذ قال: "كان يزد هذا عنيف المزاج محبا لسفك الدماء فتم إبعاده من بلاط مراكش، فقام سنة 1779م بأداء فريضة الحج للمرة الأولى، غير أن زيارته للأراضي المقدسة لم تؤد إلى تهذيب خلقه، فأجبره والده السلطان على تكرار فريضة الحج ثلاث مرات متتالية، وفي كل مرة كان يستقبل في طرابلس استقبالا عظيما، بالرغم من معاملته لكل من يدنو منه معاملة شاذة، فعند مروره بمنطقة سرت⁽⁸⁷³⁾ قام باختطاف ابنة الشيخ نصر ثم بعد ذلك تزوجها، واعداء برفعها إلى مرتبة السلطانة بمجرد خلافة والده على العرش، ومع توليه الحكم لم يستمر في منصبه كحاكم سوى 22 شهرا، ثم ولت أيامه، وعندئذ سمح لزوجته ابنة سيف النصر بالعودة إلى طرابلس"⁽⁸⁷⁴⁾.

(871) نفس المرجع، ص: 19-20.

(872) ويعرفون بأولاد حناش من المرتفع من بني عياض من الأتبع أحد فروع بني هلال الذين دخلوا إفريقيا في القرن التاسع هجري. أنظر: - إسماعيل كمالي، سكان طرابلس الغرب، تعريب وتعليق الهادي بن يونس، د.ط، مركز جهاد الليبي، طرابلس، 1997، ص: 42-44.

(873) تقع بين مسراته وبنغازي، اسم سرت بضم السين وسكون الزاء يطلق على ساحل سرت الكبير الذي جزؤه الشرقي يسمى (جون الكبرى)، لها ثلاثة أبواب القبلي والبحري والثالث صغير يشرف على البحر. وسرت مدينة قديمة أنشأها البربر في العصور الأولى قبل الإسلام، وأهلها من بربر منداة وفنطاس. فتحها المسلمون سنة 22هـ/642م. أنظر:

- النائب الأنصاري، ص: 107-108. وكذلك: - الزاوي، ص: 188.

(874) فيرو، ص: 333.

وعلى الرغم من الغموض الذي كان يلف هذه المصاهرة حسب المصادر الليبية إلا أن المصاهرة الثانية التي جرت بين المولى سليمان سلطان المغرب وبين سيف النصر كبير عرب الحنانشة تعد الحدث الأكثر أهمية في تاريخ العلاقات بين البلدين على ما ذهب إليه الضعيف، إذ أورد ما نصه: "في 13 شعبان سنة (1225هـ/1810م) وردت على السلطان بنت سيف النصر كبير عرب طرابلس -على فاس- وكانت أختها عند مولاي اليزيد. دخلت فاس فتلقاها الودايا بزي عجيب، وكان السلطان مولانا سليمان خطبها من أبيها، فركبت في البحر من طرابلس على يد سلطان طرابلس، ثم إن السلطان وجه معها جارية بديعة في الحسن والجمال ومعها جوارى حسان مغنيات يضربن الآلة، وجاء معها عشرة من رياس طرابلس واثنين من فقهاء أتيا ليعقدا عليها النكاح، نزلوا بالعرائش فوجه السلطان للعرائش مائة بغلة مع محتسب مكناس والحاج الطاهر بادو، لحمل أثاث هؤلاء النسوة، ومن رافقهن لأنهن أتين بمال جسيم ولباس وفرش سلطان طرابلس، فرحب السلطان برياس طرابلس وأعطاهم مالا جزيلا ونفس الشيء فعله مع الفقهاء، كما أهدى سفينة لسلطان طرابلس (كذا). ثم بعث السلطان المعلم حسن السوداني البناء على أن يفصل له قبة لبنت سيف النصر بنت أمير عرب الحنانشة"⁽⁸⁷⁵⁾.

وبعد هذه المصاهرة زاد التعاون بين المغرب وليبيا في عهد المولى سليمان والباشا يوسف القرمانلي، الذي صار واليا على ليبيا منذ أواسط عام (1210هـ/1796م)، إلى أن تنازل لأكبر أولاده علي بك عن الحكم أوائل عام (1249هـ/1833)، ويوسف باشا هذا من أسرة آل "قره مانلي" الذين تداولوا ولاية طرابلس وما إليها، وكان آخرهم علي بك آف الذكر. وقد استطرد ذكر يوسف باشا هذا، محمد بن عبد السلام الناصري في رحلته الصغرى⁽⁸⁷⁶⁾ وأثنى عليه بالحزم والضبط، ونعته بمحبة أهل الدين، وقمع الأشرار المعتدين⁽⁸⁷⁷⁾.

(875) الضعيف، ص: 361.

(876) وصف فيها ابن عبد السلام مسيره لقضاء فريضة الحج للمرة الثانية سنة (1211هـ/ 3 نوفمبر 1796م)، كما ضمنها عددا من أجوبته الفقهية عن النوازل التي سئل عنها في رحلته. أنظر:

- محمد بن عبد السلام الناصري، الرحلة الناصرية الكبرى، دراسة وتحقيق المهدي الغالي، ج1، ط1، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، 2013، ص: 14.

(877) المنوني، دعوة الحق، ع10، س25، ص: 81.

وقد توالى زيارات السفراء بين البلدين، فأرسل باشا طرابلس أحد العلماء سفيرا من ليبيا إلى المغرب. وكان هذا السفير من ذرية الولي الصالح عبد السلام الأسمر⁽⁸⁷⁸⁾ دفين مدينة زليطن⁽⁸⁷⁹⁾، وذلك لتقديم بعض الهدايا وتوثيق أواصر الأخوة والتعاون بين البلدين، ثم تلتها سفارة ثانية وثالثة، كما نقلت تلك البعثات للسلطان أخبارا عن حالة الجفاف الذي أصاب البلاد، وفي المقابل زود السلطان السفراء بالهدايا، والمؤونة الموجهة إلى ليبيا. كما وجه معهم بعض الهدايا لنجله المولى علي الذي كان وقتها مقيما في ليبيا⁽⁸⁸⁰⁾.

هذا وتطلعنا المصادر التاريخية المغربية عن بعض المراسلات التي تمت بين المولى سليمان ويوسف باشا، وفي هذا الصدد هناك ثلاث رسائل صادرة عن السلطان المولى سليمان لأmir ليبيا يوسف باشا، بالرغم من أن هذه الرسائل ظلت مجهولة في المؤلفات التاريخية المغربية والليبية التي تؤرخ هذه الفترة، إلى أن نشرها الأستاذ محمد المنوني في مجلة دعوة الحق، وهذا لطبيعتها السرية على ما يبدو، فقد ظلت حبيسة في كناشيتين اثنتين، بالخرانة الحسنية، حيث وردت الرسالة الأولى في كناشة -غير مرقمة- للأمر المولى عبد السلام بن السلطان المولى سليمان الذي أثبتها بخطه، وترك بها بياضا في موضعين، تحت رقم 4001، بينما احتفظ بالثانية والثالثة الأديب المغربي العربي الدمناتي⁽⁸⁸¹⁾، تحت رقم 3718، أوائل كناشته غير المرقمة أيضا، وقد كتبهما معا - بخطه الدقيق المدموج، مع

⁽⁸⁷⁸⁾ عبد السلام الأسمر بن سليم بن محمد بن سالم بن خليفة بن نفيل السعيد المغربي المخزومي القرشي، من كبار الأولياء الأقطاب، كان زاهدا فاضلا عارفا بربه لا يشق غباره في مقام التوكل. من مشايخ الطريقة العروسية، تتلمذ على يد الشيخ عبد الرحمن الوسلاتي والشيخ زروق، ثم أخذ التصوف على الشيخ الدكالي المغربي، كما أخذ عنه الطريقة العروسية. أنظر:

- النائب الأنصاري، ص: 207-209.

⁽⁸⁷⁹⁾ زليطن أو زليتن، تقع إلى الغرب من مصراته، على البحر المتوسط، تشتهر بزراعة الزيتون، واستخراج الزيوت، وكلمة زليطن محرفة عن الكلمة البربرية "يصليتين" التي كانت تطلق على قبيلة من قبائل هوارا التي كانت تسكن المنطقة، وقد حملت هذه القبيلة اسم جدها يصليتين بن مصر بن زاكيا بن ورسيك، ومع الوقت تخلى سكان المنطقة عن كلمة يصليتين لتقلها وحرفوها إلى كلمة زليتن. تشتهر زليطن بآثارها الرومانية المهمة. أنظر:

- الشامي، موسوعة المدن العربية، ص: 183. وكذلك: - الزاوي، ص: 170.

⁽⁸⁸⁰⁾ التازي، أمير مغربي، ص: 32.

⁽⁸⁸¹⁾ توفي سنة (1253هـ/1837م)، بالصويرة، كان علامة مشاركا بليغا، وشاعرا وكاتبا مقتدرا، له فهرسة سماها "سمط الجواهر في الأسانيد المتصلة بالفنون والأثر"، كما له رحلة باسمه. أنظر:

- حجي، موسوعة أعلام المغرب، ج7، ص: 2555.

التصريح عند تقديم الرسالة الثانية بأنها من إملائه، ولا شك أن هذا -أيضا- واقع الثالثة، حيث تتشابه مع سابقتها في أسلوبها، وتتحد معها في بعض فقراتها.

تتناول هذه الرسائل تقرير عن أواصر المودة بين المغرب وليبيا، والحديث عن المهادنة مع الولايات المتحدة، مع إعلان استعداد المغرب لمواصلة الدعم المادي العسكري لليبيا مهما كانت الظروف، وفي هذا الصدد ورد في الرسالة الثانية: "...لا نالوا جهدا في صلة نصركم، وإعزاز أمركم، واتساق سعدكم، وإسعاف قصدكم"، وتبرز الرسالة الغاية من قطع هذا الوعد. وتقول أيضا: "...وقصدنا بهذا أن يعلم اعتناؤنا بأمركم، وعملنا على نصركم، واهتمامنا بشأنكم، ليقصر شأن عدوانها، ويتضاءل طائر طغيانها..." وفي هذا تلويح لمحاصرة الأسطول الأمريكي لمدينة طرابلس، والتي سيأتي ذكر بعض تفاصيل هذه الأحداث لاحقا⁽⁸⁸²⁾.

كما ورد في الرسائل الثلاث ذكر أغراض طلبت ليبيا من المغرب إنجازها دون تحديدها، وقد تكون هذه الأغراض داخلة في نطاق الأسرار التي لا يباح للمراسلات إفشاؤها، وعلى ما يبدو فقد تم شرحها مشافهة من طرف القائمين بالسفارة⁽⁸⁸³⁾.

لقد كتبت الرسائل الثلاث بأسلوب حسن، ومتفاوت بالنسبة للرسالة الأولى مع باقي الرسائل، وجميعها غفل من تاريخ صدورها، حيث لم يكن إثباته يهم الناقلين لها. ولا بأس هنا أن ننقلها مختصرة:

- الرسالة الأولى:

بعد الحمدلة: "...قد وصلتنا رسالتكم الرائقة الغراء، فأصمت أسمعنا حسنا، وأعينا سحرا، مع ما اشتملت عليه من لطائف الإشارات، ومحاسن الكنايات... ولقد جدت من خالص المحبة القديمة عهدا، وقلدتكم في نحر هذا الدهر منها عقودا، إقتداء بأسلافكم الكرام، الذائدين عن بيضة الإسلام، فهم لكم خير سلف، وأنتم لهم خير خلف، وجوهركم مع جوهرهم في سلك واحد قد انتظم، وعلى منهج العدل القويم، والصراط السوي المستقيم... ثم طلع علينا صبرة هذا الكتاب المرفع، الذي بفرائد الفوائد مرصع، السيد الجليل سيدي عبد

(882) المنوني، دعوة الحق، ع10، س25، ص: 82.

(883) نفس المرجع، ص: 82.

السلام الأسمر، فاحتلنا بأثمد منظره عينا، وشنفنا بمحاسن حديثه أذنا، فلنعم البريد هو والسفير، وحبذا صاحب الخفير... وما وجهتم - بارك الله فيكم - من هديتكم فالكل قد وصل، وحل من نظرنا أحسن محل، وما استصغرتموه منها فليس عندنا بمستصغر، بل ذلك أجل ما يقتنى لدينا ويدخر، وما ذكرتم في كتابكم من إقلاع السحاب الغر في هذه السنة عن ذلك القطر، فإننا نتوسل إلى الله بمن يستسقى بوجهه الغمام، عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام، أن يخصب لنا ولكم ما بيننا من البطاح والآكام، وأن لا يعدمنا رغد العيش، وسعة الأيام، فإنه أهل لذلك والقادر عليه، وأن لا ملجأ منه إلا إليه، ثم ما أنزلتموه بساحتنا، ورجوتم قضاءه من جانبنا، فجميع أغراضك - على وفق مرادكم - أن شاء الله تقضى، وسفيركم الوافد علينا لا جرم يرضى، وهيهات أن ندع إعانتكم أو نبدي في ذلك عذرا، ولاسيما وقد قطعتم من إلهامه الفيح نجدا وغورا، ومن البحار الطامية لجاجا خضرا، إذ الحر للحر معوان، والمومن للمومن كالبنيان (كذا)، لا زالت أعلامكم منشورة، وسيوفكم على أعدائكم مقصورة، ولا برحتم في هناء وسرور، مطمئنين البال في حاضرتكم الشاهقة القصور، آمنين في ظل راحتكم من الإكدار والشرور، ولا زال هذا المجد مخلدا فيكم وفي عقبكم إلى يوم ينفخ في الصور، أمين، والسلام⁽⁸⁸⁴⁾.

- الرسالة الثانية:

فبعد الحمدلة والسلام: "... حضر بين أيدينا خديمكم الرئيس فلان (كذا)، كتب الله سلامته، وإلى كرامته، فألقينا إليه من شكر مقامكم ما لزم ووجب... إذ قدركم عندنا أجل، وذكركم بالجميل يملئ فلا يمل. وإلى هذا سدد الله أمركم، ورفع قدركم، فقد تقرر - جلبة مطبوعة، وسنة متبوعة - أن المهاداة تغرس المحبة وتثبتها، وتؤكد المودة وتثبتها... - رعاكم الله - أهل جهاد ورباط، هاديناكم بثمانية أفرس: أربعة ذكور ومثلها إناث، جيادا عتاقا، وجردا تسبق الصريخ استبقا (كذا)، تنظم بها البشرية - إن شاء الله - عقودا، وكيف وقد أخبرنا الصادق المصدوق أن الخير في نواصيها معقود، حبيناكم باهدائها، وسلطنا بها سبيل الملوك مع أودائها. وجددنا إليكم هذا الكتاب عقدا لإخاء كمالككم، واستطلاعا لما يسر - إن شاء الله - من متزايدات أحوالكم، عملا على شاكلة الود الكريم، والاعتقاد السليم، والرعي لما سلف من الود القديم، فمن الله نسأل أن يجعله في ذاته، وذريعة إلى مرضاته، وبلادنا لكم ولسلفكم

(884) نفس المرجع، ص: 83.

محراب مناجاة، وسوق بضائعكم غير مزجاة...وعملنا على نصركم، واهتمامنا بشأنكم، ليقصر شأن عدوانها (كذا)، ويتضاءل طائر طغيانها، والله- سبحانه - يصل لنا ولكم عوارف آلائه، ويحملنا من مرضاته على ما يضاعف مواهب نعمائه، ويحسن الظن فيكم من الدفاع عن دينه وجهاد أعدائه... يحفظكم في كل الأحوال، ويسدل عليكم عصمته الوارفة الظلال، ويطلعنا من أنبائكم على ما يبهج النفوس ويشرح الصدور، ويمهد الجهات ويصلح الأمور (كذا)" (885).

- الرسالة الثالثة:

"...السيد يوسف باشا... قد حضر لدينا خديمكم الرئيس عمورة يسر الله مرامه، وجعل الفتح خلفه وأمامه (كذا)، ووصل ما وجهتم لحضرتنا العلية صحبتته من الهدية، كثر الله خيركم، وتولى شكركم، والهدية وإن كانت سنة ماضية، وشريعة بازدياد الود آذنة وقاضية، فلدينا من كريم الإخاء ما لا يحتاج لتأكيد، ولا تكرير وترديد، والله على كل هذا رقيب وشهيد. ونحن وإن ثبت لدينا من إخوانكم ما قرره الحب وسنه، فلا غرو في الاستئذان بخصال الشريعة والسنة، فيصلكم منه 3 أفراس 2: لركوبك إن شاء الله، وواحد لنجلكم السيد علي أثمر الله غرسه، وزكى ذاته ونفسه (كذا). وقصارى الأمر ومنتهى المرام، أن تكون مضمن قوله عليه السلام: يظلكم الله بظله، ويدخلهم تحت كنف كرمه وفضله، ولم نال جهدا في إعانة خديمكم الرئيس (كذا)، والشاوش في مأمور جنابكم بعون الله ملحوظ في كل ما تريدون من إعانة في جهاد، أو التماس إرفاد، اللهم إلا ما كان من أمر الميرة، فما أخالكم تخفى عليكم أحوال هذا القطر مما به من الغلاء وارتفاع الأسعار، فلو فتحنا الباب على الخلق، لاتسع الخرق، ولكمال ودكم تقبلون المعاذير... ونحن إن شاء الله على ما يجب لإخوتكم من التعظيم والإجلال، والثناء بما لكم من الشيم الكريمة والخلال، وهو سبحانه يبلغ الجميع من مرضاته غاية الآمال، فهو ولي الإجابة وملجأ السؤال (كذا)" (886).

(885) نفس المرجع، ص: 85.

(886) نفس المرجع، ص: 85.

3.1- موقف المغرب من الصراع الليبي الأمريكي:

لم تكن الولايات المتحدة الأمريكية الدولة الفتية بعد استقلالها عن التاج البريطاني سنة (1190هـ / 1776م)، قادرة على حماية أسطولها التجاري في حوض المتوسط، وعلى السواحل الغربية لأوروبا⁽⁸⁸⁷⁾. رأت الولايات المتحدة، أن الحل يكمن في صداقتها مع فرنسا، التي تعهدت لها سنة (1192هـ / 1778م) باستعمال نفوذها مع دول شمال إفريقيا للحصول على حماية لتجارها، ولكن سرعان ما بدى واضحا للجانبين أنه من الأفضل لأمريكا عقد معاهدة سلم وصداقة مباشرة مع دول المغرب⁽⁸⁸⁸⁾.

وصادف السنة التي تعهدت فيها فرنسا لأمريكا بحماية أسطولها التجاري إرسال المغرب الأقصى، أحد سفرائه إلى فرنسا هو الطاهر فنيش، حاملا معه رسالة إلى الحكومة الفرنسية، يطلعها فيها على نوايا السلطان الحسنة في عقد السلم والهدنة مع جميع الدول التي لها قنصليات بفرنسا.

هذا وقد نالت الولايات المتحدة الأمريكية، انطلاقا من رغبة المغرب في عقد السلم والهدنة، حظها في ممارسة نشاطها التجاري بالمغرب⁽⁸⁸⁹⁾.

وهكذا عقدت أول معاهدة سلم وتجارة بين الولايات المتحدة والمغرب في 16 جويلية 1786، وحددت مدتها بنحو خمسين سنة، واعتبرها الأمريكيون المعاهدة الأكثر تسامحا، مقارنة مع ما عقد مع الجزائر وتونس، ونالت الولايات المتحدة حظها من الامتيازات بالمغرب ككل الدول الأوربية⁽⁸⁹⁰⁾.

⁽⁸⁸⁷⁾ كانت تجارة أمريكا كمستعمرة بريطانية، مع دول حوض المتوسط، جزءا من السياسة التجارية البريطانية، وكانت سفنها المقدرة حوالي 200 سفينة تجوب البحار بكل حرية، وما ذلك إلا للمكانة الكبيرة التي كانت تتمتع بها بريطانيا بين الدول، مما أعطى الحصانة للتجار البريطانيين والأمريكيين على حد سواء. لكن حرب الاستقلال الأمريكية نزعت عن التجارة الأمريكية هذه الحصانة، بحيث سحبت الحكومة البريطانية الوثائق التي كانت تمنحها للسفن الأمريكية في الحوض المتوسط بهدف حرية التجارة، دون أن تعترضها سفن أي دولة أخرى، وبذلك أصبحت السفن الأمريكية عرضة للقرصنة. أنظر: - إسماعيل العربي، العلاقات الدبلوماسية بين دول المغرب والولايات المتحدة (1776-1816)، سلسلة الدراسات الكبرى، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، د. ت، ص: 40-43.

⁽⁸⁸⁸⁾ هيفاء معلوف إمام، "العلاقات الأمريكية الشمال إفريقية في العصر الحديث"، المجلة التاريخية المغربية، العدد: 15-

16، تونس، جويلية 1979، ص: 66.

⁽⁸⁸⁹⁾ التازي، التاريخ الدبلوماسي، ج9، ص: 293.

⁽⁸⁹⁰⁾ نفس المرجع، ص: 393. وكذلك: - حركات، المغرب عبر التاريخ، ج3، ص: 117.

ولأن مبدأ احترام التعهدات كان الشعار الذي طبع الدبلوماسية المغربية منذ البداية، خاصة فيما يتعلق بتسوية الخلافات مع الدول الصديقة، فقد توسط سلطان المغرب بين ليبيا والولايات المتحدة الأمريكية بغية تجنبهما الحرب، واستطاعت الدبلوماسية المغربية أن تجنب الطرفين الحرب ردحا من الزمن⁽⁸⁹¹⁾.

جاءت هذه المبادرة من المغرب نزولا عند طلب الولايات المتحدة الأمريكية التي عهدت لسفيرها بالمغرب (جوهن لامب John Lamb) برفع طلب رسمي لملك المغرب بتاريخ 23 يونيو 1787م يتضمن التماس الرئيس الأمريكي جورج واشنطن⁽⁸⁹²⁾ بأن يقوم ملك المغرب بالتوسط لدى باي تونس وباشا طرابلس بعدم مضايقة التجارة الأمريكية في حوض المتوسط. فقد فشلت الولايات المتحدة الأمريكية قبل هذا التاريخ عن طريق ممثلها في إنجلترا أدامس وزير أمريكا المفوض، في الحصول على ضمانات من ليبيا عن طريق ممثلها السيد الحاج عبد الرحمن أغا⁽⁸⁹³⁾.

وكان رد المغرب بعد هذه الوساطة برسالة تقدم بها السلطان محمد بن عبد الله إلى الرئيس الأمريكي جورج واشنطن بتاريخ 15 ذي القعدة 1202هـ / 17 أوت 1788م، غير أن الظروف العصيبة التي كانت تعيشها أمريكا داخليا وخارجيا لم يتسن للرئيس الأمريكي أن يرد على رسالة ملك المغرب إلا في الفاتح من ديسمبر 1789م⁽⁸⁹⁴⁾.

وقد جاء في الرسالة ما نصه: "إلى جلالة إمبراطور المغرب: منذ تاريخ خطابنا الذي رفعه الكونغرس الأخير بواسطة رئيسه إلى جلالته، فضلت الولايات المتحدة تبديل حكومتها

(891) التازي، التاريخ الدبلوماسي، ج9، ص: 51 .

(892) أول رئيس للولايات المتحدة الأمريكية من سنة 1789 إلى 1797م، كان قائدا عاما لجيوش المستعمرات في حرب الاستقلال الأمريكية، يلقب بأبي الوطن، ولد بمزرعة الأسرة قرب نهر بوتوماك سنة 1732م، حصل على قسط ضئيل من التعليم، وفي سنة 1759م صار نائبا بولاية فرجينيا إلى غاية 1774م، ثم زعيما للمعارضة الاستعمارية البريطانية سنة 1775م، ثم انتخب بالاجماع رئيسا للولايات المتحدة الأمريكية. أنظر:

- محمود محمد محفوظ، وآخرون، الموسوعة العربية الميسرة، مج4، ط2، دار الجيل، بيروت، د.ت. ط، ص: 2592.
(893) ورد الحاج عبد الرحمن أغا سفيراً على المغرب مبعوثاً من طرف الباي علي باشا القرماني، وقد شكر السلطان محمد بن عبد الله على مساعيه الحميدة لعقد السلم بين ليبيا والولايات المتحدة، وقد أقيمت على شرف السفير مأدبة غداء كبيرة بمدينة مراكش في منتصف رجب 1204هـ / 1790م. أنظر:

- التازي، أمير مغربي، ص: 26.

(894) التازي، التاريخ الدبلوماسي، ج9، ص: 300.

بأخرى جديدة ... وما أن اجتمعت الولايات المتحدة على تعييني على رأس السلطة التنفيذية العليا لهذه الأمة حتى توصلت بخطاب جلالتم المؤرخ 17 أوت عام 1788م الذي ظل بدون جواب بسبب سقوط الحكومة السابقة كما توصلت بالخطابات التي تلطفتم جلالتم بتحريها لصالح الولايات المتحدة إلى بشوات تونس وطرابلس، وارفغ إلى ساحتكم شكر وامنتان الولايات المتحدة لهذه الالتفاتة الكريمة الدالة على صداقتكم لها...»⁽⁸⁹⁵⁾.

وبدورها قررت ليبيا هي الأخرى بعد هذه الوساطة إيفاد بعثة هامة إلى المغرب ضمت شخصيات كبيرة في الحكومة الليبية، أقام السلطان محمد بن عبد الله على شرفها مأدبة غداء فاخرة في شهر رجب (1204هـ/1790م)، وبعد عودة البعثة الليبية، حملت معها هدايا ثمينة، وكميات كبيرة من الأسلحة، وشحنات من القمح⁽⁸⁹⁶⁾.

ومع ذلك فقد قيل إن السفارة الليبية إلى المغرب كان يكتنفها الكثير من الغموض، إذ لم تظهر الأهداف الحقيقية من ورائها، فلقد ظلت المصادر المغربية تتكتم عن موضوع المهمة التي انتقلت من أجلها السفارة، رغم ما أشار إليه بعض المؤرخين من أن مضمون السفارة يوجد في بعض المراسلات المحفوظة بأرشيف "فينا" في النمسا، ما يرجح فرضية أن السفارة كانت لغرض طلب المدد العسكري وشحنات القمح لليبيا، بسبب الظروف الصعبة التي كانت تمر بها⁽⁸⁹⁷⁾.

وعلى نهج والده سار المولى سليمان في الاعتراف بمعاهدة الصداقة بين الولايات المتحدة والمغرب المبرمة سنة 1786م وذلك بتاريخ 1 صفر 1210هـ/ 18 أوت 1795م، ففي رسالة موجهة منه إلى الرئيس الأمريكي توماس جيفرسون⁽⁸⁹⁸⁾، جاء فيها: "نحن على السلم والمهادنة معكم على نحو ما كان بينكم وبين والدنا المقدس..."⁽⁸⁹⁹⁾.

(895) نفس المرجع، ص: 301.

(896) نفس المرجع، ص: 51 .

(897) التازي، أمير مغربي، ص: 25.

(898) حكم توماس جيفرسون ما بين (1801م و 1808م)، يعتبر أول رئيس من الحزب الجمهوري، عكس سابقه من الحزب الفدرالي، الذي في عهده صار حزبا معارضا، واعتبر انتقال الحكم من الفدراليين إلى الجمهوريين بمثابة ثورة عارمة في تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية. أنهى حكما دام 24 عاما لصالح الفدراليين، وكان فيه رؤساء أمريكا كلهم من ولاية فرجينيا التي صارت تلقب بأمرؤساء. يمثل جيفرسون الأرستقراطية الزراعية البسيطة التي حلت مكان الأرستقراطية التجارية، فرغم انحداره من عائلة كبيرة من فرجينيا، إلا أنه لم يكن أرستقراطيا، وإنما كان مزارعا في الأرياف داخل الولايات المتحدة الأمريكية، بالرغم من كونه يعتبر من أصحاب الملكيات الكبيرة الذين يملكون الرقيق، إلى جانب ذلك =

غير أن الأحوال لم تلبث أن تغيرت بين المغرب وأمريكا إلى عداوة على إثر الحرب التي قامت بين أمريكا وطرابلس في أواسط سنة (1212هـ/ أواخر سنة 1797م) ثم في سنة 1802م، فقد تجلى التضامن المغربي الليبي في أبهى مظاهره عندما قدم من طرابلس إلى المغرب سفير ليبي من أجل الحصول على كميات من الزرع، وقد أشرف هذا السفير بنفسه على وسق مركب مشحون بالحبوب، وقد عهد المولى سليمان لسفينة الدوبرونيك بنقل السفير الليبي مقابل تحمل المغرب مصاريف الكراء ومصاريف أخرى⁽⁹⁰⁰⁾.

وكان قدوم سفير آخر من طرابلس إلى المغرب سنة 1802م يطلب الدعم والمساندة من المولى سليمان إذانا بقيام الحرب بين المغرب وأمريكا، وبرر المغرب موقفه هذا من أن معاهدة الصداقة بين المغرب والولايات المتحدة نصت في البند السادس منها إلى عدم تعرض الولايات المتحدة للمسلمين، ومن واجب المغرب نصرته إخوانه في حال حدوث ذلك⁽⁹⁰¹⁾.

ومع الحصار الذي ضربته القوات الأمريكية على سواحل طرابلس الغرب في 1218هـ/ 25 يوليو 1803م، عمد المولى سليمان سلطان المغرب بعد أن وصلت أنباء الحصار إلى

=كان معماريا، حيث وضع خرائط بيته في مونتسلو، وساهم كذلك في إيجاد نباتات زراعية لزراعتها في الولايات المتحدة الأمريكية. ويقال إن جفرسون لم يكن من المتدينين إذ حاول بقوة فصل الكنيسة عن الدولة. لم يكن جفرسون يتمسك بالرسميات إذا ما قورن بسابقه، وقد خرج عن عادة سابقه، فبدلا من أن يخطب في الكونغرس في جلسة افتتاحية، فإنه كان يكتفي ببعث رسالة مكتوبة إلى الكونغرس، وبقيت هذه عادة متبعة فيما بعد إلى حين مجيء ويلسون عام 1912م. كما اشتهر عهد الرئيس جفرسون بالعداء الشديد مع طرابلس الغرب، ففي عهده زاد عدد السفن الأمريكية التي كانت تزور موانئ شمال إفريقيا، فزادت نتيجة لذلك الضرائب التي كانت تفرضها دول المغرب على هذه السفن، فرفض جفرسون الخضوع لسياسة الضريبة الجديدة عكس سابقه من الفدراليين الذين كانوا يخضعون لهذه الضرائب. أنظر:

- محمد محمود النيرب، مدخل إلى تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية، ج1، ط1، دار الثقافة الجديدة، القاهرة، 1992، ص: 141-143.

(899) التازي، التاريخ الدبلوماسي، ج9، ص: 302-304.

(900) شرف، ص: 171-172.

(901) التازي، التاريخ الدبلوماسي، ج9، ص: 302-304.

طرد السفير الأمريكي من مدينة طنجة.⁽⁹⁰²⁾ ثم هب المغرب مسرعا لنصرة ليبيا من خلال اعتراضه للأسطول الأمريكي قبل وصوله إلى طرابلس، أين أوقع به هزيمة نكراء⁽⁹⁰³⁾.

فقد شاركت السفينتين المغربيتين (المبروكة والميمونة) في العمليات الحربية البحرية ضد السفن الأمريكية لكن العملية اكتشفت عندما كان الكابتن بينبريدج (Banbridge) قائد سفينة (فيلاديلفيا) يقوم بمطاردة المراكب الطرابلسية، حيث واجهت السفينة الأمريكية السفينة المغربية مبروكة بتاريخ 9 جمادي الأولى 1218هـ الموافق لـ 26 أوت 1803م، التي كان يقودها الرئيس إبراهيم لوباريس وكانت السفينة المغربية قد أسرت سفينة أمريكية أخرى تحمل اسم سيليا (Cellia) من بوسطن، محاولة سحبها إلى ميناء طنجة، غير أن السفينة الأمريكية فيلاديلفيا تمكنت من أسر السفينة المغربية وسحبها إلى جبل طارق.⁽⁹⁰⁴⁾

وبناء على احتجاج تقدمت به الولايات المتحدة إلى المغرب برر المولى سليمان موقف المغرب تجاه الولايات المتحدة في رسالة وجهها للرئيس الأمريكي بتاريخ 20 جمادي الثانية 1218هـ الموافق لـ 8 أكتوبر 1803م جاء فيها: "... إن ما حدث لا ينبغي أن يعكر صفو العلاقات بين المغرب وأمريكا... إن الذين وردوا علينا من إخواننا المسلمين مستعجدين بنا كان من الصعب علينا أن نرد طلباتهم، حتى ولو فرضنا أن الطرابلسيين أعداء لكم، فحيث أنهم وصلوا دارنا، فقد كان عليكم أن لا تمسوهم رعاية لجانبنا وعلى وجهنا، وإن الرئيس الذي وقف إلى جانبهم إنما فعل ما تمليه عليه عاطفته..."⁽⁹⁰⁵⁾.

ولم تلبث أمريكا بعد هذه الهزيمة أن أرسلت أسطولا آخر لضرب طرابلس، فما كان من المغرب إلا أن جدد العهد مرة أخرى مع ليبيا وراح يمنع الأسطول الأمريكي من الوصول إلى سواحل سنة (1231هـ/1815م)، وبعد كر وفر ركن الجانبان إلى السلم.⁽⁹⁰⁶⁾ ذلك أن معاهدة الصلح التي أبرمت بين طرابلس والولايات المتحدة حملت سلطان المغرب على عقد

(902) فيرو، ص: 389.

(903) محمد المنوني، مظاهر يقظة المغرب الحديث، ج1، ط1، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب،

1972. ص: 7.

(904) التازي، التاريخ الدبلوماسي، ج9، ص ص: 302-304.

(905) نفس المرجع، ج9، ص: 305.

(906) المنوني، مظاهر يقظة المغرب، ص: 7.

الصلح كذلك مع الولايات المتحدة فضمنت الأخيرة بهذا الصلح أمن تجارتها مع المغرب وطرابلس (907).

وفي موقف آخر لمظاهر التضامن، تعاون المولى سليمان مع باشا ليبيا في منع الأسطول الروسي سنة (1222هـ/1807-1808م) من الوصول إلى البحر المتوسط عن طريق جبل طارق نزولا عند رغبة السلطان العثماني مصطفى الرابع (908).

كما تتجلى مظاهر التضامن المغربي الليبي في احتضان المغرب أحد الدبلوماسيين الليبيين الفارين من طرابلس ونقصد هنا حسونة الدغيس (909)، الذي كان وزيرا لباشا طرابلس، هذا الدبلوماسي الليبي الذي كانت له علاقات متشعبة مع مختلف الأطراف الدبلوماسية في ليبيا وخارجها. حيكّت ضده مؤامرة واتهم بقتل أحد الرعايا الإنجليز، فلم يجد الرجل من بد سوى الفرار من ليبيا على ظهر سفينة أمريكية إلى فاس بالمغرب الأقصى، ومنها كان يوجه رسائل لأصدقائه لتبرئة نفسه، حيث كاتب زميلا له في لندن: "لقد غادرت طرابلس الغرب لأكون بمنجى من الاستبداد والظلم، حيث ساقنتني الأحداث إلى مدينة فاس" (910).

ومن فاس لم يفتأ يعلن براءته: "إني على يقين من نفسي أن أجمل التسلية والمساعدة هي التي يمنحها لي اليوم أصدقائي... وستساعدوني وتعاضدوني في هذه القضية حتى أنال حقوقي من هذا الذي افترى علي، وأمحو هذه الشائبة التي لحقت بي..." (911).

(907) فيرو، ص: 389.

(908) التازي، أمير مغربي، ص: 31.

(909) ينحدر حسونة الدغيس من أسرة تركية، وصل جده طرابلس الغرب في أواخر القرن السابع عشر بإذن من السلطان العثماني، ليكون نائب الوالي بطرابلس الغرب، أما أفراد عائلته فقد تولت كلها المناصب العليا في الولاية، وقد كان والده وزيرا ليوسف باشا القرماني، وحسونة نفسه اشتغل بالمصالح العثمانية. يعد حسونة أول مغربي وأحد الشخصيات الهامة قبل رفاة الطهطاوي، الذين احتكوا بالحضارة الأوربية، وثمان ثمارها، كما انه تمكن من مجالسة الطبقات الأرستقراطية الحاكمة في أوربا، وعرف أبعاد تفكيرها، وأقام زمنا طويلا بأوربا لدراسة لغاتها، قوانينها، وعادات شعوبها خاصة فرنسا وإنجلترا، فكان بذلك المترجم الأمين لتلك الحضارة لدى رجال الدولة العثمانيين، عندما عهدت إليه بعض الوظائف في الإمبراطورية العثمانية. انظر:

- عبد الجليل التميمي، بحوث ووثائق في التاريخ المغربي، تونس، - الجزائر - ليبيا من 1816-1871، ط1، الدار

التونسية للنشر، 1972، ص ص: 264-265.

(910) نفس المرجع، ص: 267.

(911) نفس المرجع، ص ص: 267-268.

ومن المغرب كان حسونة الدغيس يتلقى رسائل أصدقائه من لندن وغيرها: "إذا أردتم ... تشريفي بتوجيه رسائلكم، فليكن ذلك بعنوان سيدي الحاج الطالب بن جلول وزير جلالة سلطان المغرب بفاس، حيث أنني إذا لم أكن هناك، فإن الوزير المذكور سيسلمها لي في الأماكن التي سأكون مقيما بها"⁽⁹¹²⁾.

2 - ليبيا من خلال رحلات المغاربة:

من المهم أن نتصور أن طرابلس في هذه الفترة، كانت حسب الوثائق التاريخية ملتقى حيويا لسائر القوافل الصادرة والواردة، ومنتدى لتبادل الثقافات، إذ كانت المدينة مزدهمة على الدوام بالمسافرين القاصدين البقاع المقدسة أو الواردين منها، والأعراب القادمين من مصر نحو طرابلس كأدلاء للحجاج ذهابا وإيابا،⁽⁹¹³⁾ ويكترون منها الرواحل، والحمالين، كما يشترتون منها الزاد الكثير. لذلك فبمجرد حلول الركب المغربي بها، يشتغل هؤلاء بكل ما يخدم مصالحهم، فيبيعون ما حملوه معهم من سلع، ويشترتون ما يحتاجون إليه، وبذلك قد تطول مدة إقامتهم بها لتتعدى الخمسة عشر يوما⁽⁹¹⁴⁾.

1.2 - رحلة ابن الطيب الشرقي:

لقد تغنى بمدينة طرابلس الكثير من الرحالة المغاربة ممن زاروا ليبيا على غرار أبي سالم العياشي وابن الطيب الشرقي وعلماء الزاوية الناصرية في رحلاتهم واصفيها وصفا بديعا يدل على قيمة هذه المدينة وأهميتها بالنسبة لركب الحج المغربي. فهذا ابن الطيب يقول عنها: "هي المدينة الظرفية ذات الفواكه المنوعة والظلال الوردية وقد دخلناها صبيحة يوم الخميس الخامس والعشرين من شعبان فألفيناها أزهى من دمشق (كذا)... فإذا هي مدينة صغيرة المساحة خصبة الساحة كثيرة الفواكه، ليس لها في زيارتها ولطافتها مثابه... وقد شهد أهلها بركة عظيمة في أمر معاشهم وقت الحجاج، وفيها من المساجد الأنيقة الجسيمة المشتملة على الأبنية الفائقة الوسيمة ما في مرآة البديع نزهة للناظر بين المناظر لاسيما

⁽⁹¹²⁾ نفس المرجع، ص ص: 267-268.

⁽⁹¹³⁾ التازي، أمير مغربي، ص: 55.

⁽⁹¹⁴⁾ أحمد عمالك، أحمد بن محمد بن ناصر الدرعي، الشيخ الصوفي المصلح، ط1، مركز الدراسات والأبحاث وإحياء التراث، المملكة المغربية، 2012، ص: 84.

المسجد المعروف بجامع الترك، فإنه ما ترك شيئاً من المحاسن البديعة الإنجاز عجيبة وبديعة...»⁽⁹¹⁵⁾.

ولشدة إعجابه بمدينة طرابلس قضى ابن الطيب فيها ستة وعشرين يوماً موزعة بين مرحلتي الذهاب والإياب، تمكن فيها من الاطلاع على الكثير من أحوال هذه المدينة، وكتب عنها وعن مثقفها فقرات جيدة كلها ثناء وإعجاب، وأشاد إشادة خاصة بأحد الأدباء التونسيين الوافدين على طرابلس يوم ذاك وهو أبو عبد الله محمد بن علي المعروف بالابن الأصرم القروي⁽⁹¹⁶⁾. فقد لقيه بها أثناء مرور ركب الحج المغربي في مرحلة الذهاب، وخلال هذه الفترة كان ابن الأصرم من خلالها يبالغ في إكرام ابن الطيب والركب حج المغربي ومن ثم نشأت بينهما صداقة ومودة وكانت بينهما جلسات ومناظرات⁽⁹¹⁷⁾. يقول ابن الطيب: "أكرمنا بأنواع الطعام والشراب... وأظهر لنا من المحبة الصافية والخلة الوافية ما نسأل الله تعالى أن يكافئه عليه... وكانت تقع بيننا في أنواع العلوم مباحث يستحسن الخوض في بحرها بفلك فكره كل باحث وقد حمّله صادق المحبة وحسن السيرة وصفاء المودة والسريرة على أن خاطبني بقوله:

قسما بمن أولاك أرفع منصب وبما حويت من البيان المعرب
ما شنف الأذان مثل فصاحة وأذنت بفضل محمد بن الطيب
شرفت به فاس وحق لها العلا فلذلك أضحت بين فضل المغرب
وأجابه ابن الطيب بأبيات قال فيها:
قسما بمكة والحطيم وزمزم والركن والبيت الشريف الأعظم
ما إن سمعت بمشرق أو مغرب كلا ولا في الروم أو في الديلم

(915) أبي عبد الله محمد بن الطيب الفاسي الشرقي، الرحلة الحجازية، مخطوط رقم: 746، جامعة لايبزيك بفينا، ص: 43-44.

(916) أسرة ابن الأصرم أسرة تونسية مشهورة بالعلم والسياسة، منها رئيس الكتاب أبو العباس أحمد الأصرم، المترجم في (عنوان الأريب) للنفيّر ص30، والوزير أبو عبد الله الأصرم باش كاتب (1227هـ/1812م)، وترجم له أيضا النفيّر، في ص: 114. أنظر:

- عبد العلي الودغيري، التعريف بابن الطيب الشرقي، ط1، منشورات عكاظ، الرباط، المغرب، 1990، ص: 91.
(917) نفس المرجع، ص: 91.

مثل الفقيه البارع اللسن الأديب اللوزعي محمد بن الأصرم⁽⁹¹⁸⁾. واجتمع ابن الطيب كذلك بالفقيه العالم أبو عبد الله محمد المكنسى المشهور بالفتوى في ليبيا منذ أعوام بين الخواص والعوام. وكذلك العالم المفتي الشيخ أبو عبد الله محمد بن مقيل، والفقيه أبو محمد عبد العزيز مروان، والفقيه أبو العباس أحمد بن الصفيين هذا الأخير أكرم ابن الطيب في داره مرارا، والفقيه أبو العباس أحمد كست الخطيب بجامع الترك، يقول ابن الطيب: "ورأينا غير هؤلاء من منطلق الطلبة زيادة على الأعيان لكن حال بيننا وبين إثبات أسمائهم النسيان وأقمنا نحو التسعة أيام وتأهبنا للتقوية على السفر والصيام"⁽⁹¹⁹⁾. ومن مدينة طرابلس إلى مدينتي مسراتة⁽⁹²⁰⁾ وبرقة⁽⁹²¹⁾ اللتين أجرى فيهما ابن الطيب لقاءات كثيرة مع طلبة العلم، قال عنها ابن الطيب: "قدم علينا جماعة من طلبة البلد بالغوا في الإكرام، جزاهم الله تعالى جزاء الكرام وسألوا عن مسائل علمية تدل على ضعف العلم في تلك الأرض وانقراضه وفشوا بالجهل في ذلك واعتراضه..." وهكذا مكث ابن الطيب ومن معه قرابة الخمسة أيام في تلك الأرض يلقنون الناس مسائل علمية⁽⁹²²⁾.

وبالمقابل لم تكن المدينتين تخلو من مظاهر الحياة الرغدة، فمسراتة مثلا بها أسواق عظيمة امتلأت بأنواع الشعير والدقيق والسمن والتمر والأغنام، التي كان الحجاج يتسوقون فيها ويتناولون فيها مآربهم. وكانوا يمرون لزيارة قبر الشيخ العالم أبي العباس أحمد بن أحمد

(918) ابن الطيب الشرقي، ص: 43-44.

(919) نفس المصدر، ص: 44.

(920) مسراتة أو مسراته كما جاء في كتب الرحلات، تقع على شاطئ البحر المتوسط، إلى الشرق من طرابلس، وهي مدينة زراعية، تكثر فيها حقول الزيتون واستخراج الزيوت وبها مرفأ تجاري وآخر لصيد الأسماك. اشتهرت مسراتة منذ القديم بالنشاط التجاري، عاصمتها القديمة تدعى (قصر حمد) على شاطئ البحر. أنظر:

- الشامي، موسوعة المدن العربية، ص: 189. وكذلك: - الزاوي، ص: 316.

(921) تقع بالجبل الأخضر بالجانب البحري، ذات عمارة كبيرة، وأراضي خصبة ومزارع كثيرة، بها قبر الصحابي رويغ بن ثابت بن السكن الأنصاري النجاري، وكان أميرا على برقة من قبل مسلمة بن مخلد، وبها كذلك قبر الصحابي زهين بن قيس البلوي، ندبه عبد العزيز بن مروان إلى برقة فقاتل الروم حتى استشهد. أنظر:

- النائب الأنصاري، ص: 104.

(922) ابن الطيب الشرقي، ص: 46.

زروق الفاسي⁽⁹²³⁾ إذ كان الحجاج يجتمعون عند ضريحه ويقرؤون من السور القرآنية ما تيسر ومن الأدعية والمدائح إلى غير ذلك⁽⁹²⁴⁾.

كما تشير المصادر أن مدينة تاجوراء هي الأخرى⁽⁹²⁵⁾ كانت من أهم المحطات التي تحط بها رجال الحجاج القادمين من المغرب مع نهاية القرن 17م وبداية القرن 18م لاحتوائها على طلبة العلم الموالين لعدد من الطرق بالمغرب على غرار الطريقة الناصرية التي دخلت باكرا إلى ليبيا. فبتاجوراء كان ركب الحجاج المغربي يبيت على الأقل ليلة واحدة ومن ثم الولوج إلى برقة، فبنغازي⁽⁹²⁶⁾. وقد نقل ابن الطيب في رحلته عن تاجوراء خصوبة وديانها وغازة مائها. وكان الحجاج يبيتون بالقرب من موضع يسمى توزعت وهو المعروف بوادي التوت، كما كان الحجاج يتوقفون ويستريحون عند ضريح الشيخ سالم القلعي يقول ابن الطيب: "في روضة غناء عامرة بالنخيل والماء، أين اجتمع المتأخرون من الحجاج، ثم واصلوا المسير..."⁽⁹²⁷⁾.

(923) أحمد بن أحمد بن محمد بن عيسى البرنسي الفاسي، أبو العباس زروق، فقيه محدث صوفي مغربي، ولد سنة (846هـ/1442م)، تفقه بالمغرب، وقرأ بمصر والمدينة، وغلب عليه التصوف فتجرد وساح في المغرب العربي، وتوفي بتكرين إحدى قرى مسراته بطرابلس الغرب سنة (899هـ/1493م)، من مؤلفاته: (شرح مختصر خليل - النصيحة الكافية لمن خصه الله بالعافية - القواعد...). أنظر:

- الزركلي، ج 1، ص: 91.

(924) ابن الطيب الشرقي، ص: 46.

(925) تقع في الجنوب الشرقي من مدينة طرابلس وهي قريبة منها، اتخذها خير الدين بربروس مركزا تنطلق منه الحملات الجهادية ضد فرسان القديس يوحنا الذي كانوا يحتلون طرابلس. بنى بها مراد أغا جامعا ومدرسة كبيرة لا تزال تعرف باسمه إلى اليوم. أنظر:

- محمد بن خليل غلبون، تاريخ طرابلس الغرب، المسمى: التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخبار، تصحيح وتعليق أحمد الزاوي، د.ط، المكتبة السلفية، القاهرة، 1349هـ، ص: 94. وكذلك: - الزاوي، ص: 75.

(926) عمالك، ص: 80.

(927) ابن الطيب الشرقي، ص: 44.

2.2- رحلات شيوخ الزاوية الناصرية:

وبالحديث عن المكانة التي تبوءها الحجاج المغاربة في ليبيا، فلا بأس أن نتحدث عن مكانة الركب الناصري مثلاً. فقد حظي الركب حظوة كبيرة لدى سكان ليبيا، وتأثر السكان بهم أيما تأثر، وورد أن سكان الجبل الأخضر (أولاد سيدي الناصر، من أهل سرت) اشتهروا بإتباعهم للطريقة الناصرية، وببرقة عدد كبير من الأتباع، قدّم عليهم شيخ الطريقة الناصرية رجلاً منهم يدعى عبد الرحمن عمارة⁽⁹²⁸⁾.

وعلى عادة ركب الحج المغربي عند وصوله إلى ليبيا وبالأخص طرابلس فإن أعيان البلد كانوا يهبون لاستقبال ضيوفهم بالترحاب، فقد حدث أن استضاف محمد بن أحمد المكي، مفتي طرابلس، الشيخ أحمد بن ناصر (1127هـ/1715م) في أثناء حجه سنة (1122هـ/1710م)، بل لقد التقى هذا الأخير بوالي البلد، وبعض كبار رجال الدولة، فبالغ هؤلاء في قضاء مآرب الحجاج المغاربة، حتى أن والي طرابلس أمر بالبحث عن بعض ما سرق لأحد الحجاج⁽⁹²⁹⁾.

(928) عمالك، ص: 96.

(929) تشير المصادر التاريخية المغربية إلى أن الشيخ أحمد بن ناصر الدرعي ترأس ثلاث رحلات لأداء فريضة الحج، كان ذلك في سنوات (1096هـ-1109هـ/1684-1696م) (1121هـ/1709م) إضافة إلى حجه ضمن ركب والده سنة (1076هـ/1666م). وفي أثناء رحلة الشيخ أحمد الخليفة الثانية، على رأس ركبته في السنة المذكورة (1096هـ/1684م)، وجد المدينة طرابلس محاصرة من قبل الأسطول الفرنسي، المكون من اثنين وعشرين سفينة، فما رعاه إلا أن رأى سكان المدينة، حتى العلماء والحكام قد أبدوا الجبن والخوف، وأقدم الكثير منهم على الفرار إلى الضواحي، لاسيما ضاحية المنشية التي تقع بظاهر المدينة القديمة، من طرابلس، وهي معروفة لدى الحجاج بنخيلها وأشجارها المتنوعة الفواكه. وبعد أن بذل الشيخ الناصري قصارى جهده لتحريضهم على المرافقة والجهاد، لم يستجب إليه إلا عدد قليل، لأن معظم الناس هالهم ما رأوا من تفوق الفرنسيين، حيث عمد هؤلاء إلى قصف المدينة بكثافة، وحتى يضرب لهم الشيخ المثل، فقد تزعم أعمال الجهاد، مع من صمدوا للدفاع عن المدينة. وعلى الرغم من تفوق الفرنسيين، وقرب الحجاج المغاربة من أهداف الرمي، وكثافة القصف، فقد تصدى الشيخ وأتباعه إلى الحراسة الليلية، فما وهنوا وما استكانوا، بل شمروا على ساعد الجد لبذل النفس والاستشهاد، حتى كتب كل وصيته، وأعد الشهادة مغنماً وفواتها مغرماً. والملاحظة الأساسية في هذه النقطة أن موقف الحجاج الناصريين ظل ثابتاً، حتى إذا انعقد الصلح بين والي التركي والفرنسيين، فإنهم لم يلتزموا بشروطه، لأنها في نظرهم مهينة للمسلمين، ولما بدأ الفرنسيون يترددون إلى المدينة، فإن الحجاج المغاربة لم يهادنهم، بل استمروا يناصبونهم العداء، كما يتضح من كلام الشيخ أحمد الخليفة حين قال: "وأما المغاربة وجميع الحجاج، فغلظوا على الكفرة، وأخشنوا لهم في القول، وربما ضربوهم، ولا ألقوا إليه (أي والي البلدة) بالاً، إغزازاً لدين الله. ولم يترك الحجاج المغاربة أي سبب لمداغة الأعداء إلا أخذوا به، من ذلك أنهم لما تبينوا رد فعل الحاكم التركي السلبي، اهتبلوا الغرة لدى العلماء، لاسيما المالكيين منهم، فعمدوا إلى تحريضهم ضد المسؤول الأعلى على المدينة، وتعبنتهم لإرغامه على رفض شروط الصلح المشينة، لكن ذلك لم يزد هؤلاء العلماء إلا صدوداً، حيث انتبذوا خارج المدينة". انظر:

- نفس المرجع، ص: 69. وص ص: 100-103.

واعتماد أهل طرابلس، ولاسيما علماء المالكية وتلاميذ الناصريين أن يشيعوا الركب المغربي طوال مرحلة أو مرحلتين ذهابا وإيابا⁽⁹³⁰⁾. فقد كان من عادة أهل هذه مدينة أن يشيعوا ركب الناصريين إلى حامة مطماطة بتونس⁽⁹³¹⁾، منذ سنة (1076هـ / 1665م) ومعلوم أن تلك المرحلة كان بها عدد من تلاميذ الناصريين، على رأسهم مقدّم يدعى عبد الله بن أحمد المخزومي، الذي لم يكن يدخر جهدا في إكرام الركب، ومساعدة الحجاج لإيجاد الأدلاء والجمالين، ومن حامة مطماطة، يجد الركب السير ليلقي عصا التسيار بحامة توزر⁽⁹³²⁾، قاعدة بلاد الجريد⁽⁹³³⁾، وكان السكان في ليبيا يبالغون في إكرام الركب المغربي، حتى أن أحد السكان بقرية أم الخير، كان يدعى (أبا الضياف) لأنه يحب الحجاج ويتلقاهم بالبشر والضيافة، ويلح عليهم في نزول داره⁽⁹³⁴⁾.

لعل تأثير الناصريين لم يكن الوحيد في سكان طرابلس الغرب، فالوزانيون شرفاء المغرب الأقصى كان لهم بدورهم تأثيرا كبيرا في العديد من مدن وقرى طرابلس الغرب، وربما يشبه إلى حد بعيد تأثير الطريقة الناصرية. فهذه الطريقة الطيبية التي تنسب إلى مولاي الطيب عبد الله الشريف الوزاني⁽⁹³⁵⁾، المنبثقة عن الزاوية الوزانية بالمغرب الأقصى، بعد أن انتشرت بالمغرب الأقصى، وعن طريق ركب الحج والرحلات أضحت لها فروع أيضا في

(930) نفس المرجع، ص: 84.

(931) تقع بين مدينة قسطلية ومدينة قابس، كثيرة النخيل والماء، بها كانت هزيمة بني غانية على يد يعقوب بن يوسف المنصور بن عبد المؤمن بن علي سنة 583هـ. أنظر:

- الناصري، الرحلة الناصرية، ج1، ص: 274.

(932) مدينة تونسية قديمة بناها الرومان بصحراء تونس، على ضفاف نهر صغير، وهي تقع جنوب البلاد، وقعت في يد المسلمين بعد فتحهم لإفريقية فأزالوها عنها الرومان، تتميز بكثرة التمور وجودتها، ويتصف أهلها بالثراء، كما تتميز بأسواقها الرائجة التي تقصدها القوافل والقبائل. أنظر:

- كربخال، ج3، ص: 171.

(933) تمتد بلاد الجريد من تخوم بسكرة إلى جزيرة جربة، بلاد شديدة الحرارة، قليلة المطر، تشتهر بالنخيل الجيد، ولهذا يسمى الإقليم كله بالجريد، ولقد شكل هذا الإقليم منذ القديم مملكة للقرطاجيين، واللذين يطلق عليهم كذلك اسم النفازيين. أنظر: - نفس المرجع، ص: 170.

(934) عمالك، ص ص: 85-86.

(935) ولد الطيب بن عبد الله الشريف الوزاني الحسني سنة 1151هـ، كان على قدر كبير من العلم والورع، شيخ الطريقة الوزانية في وقته، وإليه تنسب الطريقة الطيبية الوزانية، توفي سنة 1181هـ. أنظر:

- حاجي، موسوعة أعلام المغرب، ج8، ص: 2391.

طرابلس الغرب، فقد أسست الطريقة الطيبية ثلاث زوايا بكل من بني وليد، وبني وازين، وفي بني مازيغ، وعلى رأس كل زاوية من هذه الزوايا شيخ يعرف بشيخ الطريقة أو مقدم الطريقة، وعادة ما يختار من كبار السن الورعين (936).

وتشير الوثائق إلى أن الزاوية الطيبية بغدامس مثلاً كان في تواصل مباشر مع الزاوية الأم بوزان بالمغرب الأقصى، فإجازة شيخ الطريقة بغدامس كانت تتم بوزان. وعلى سبيل المثال الإجازة التي تقدم بها شيخ الطريقة الوزانية بالمغرب الأقصى إلى مقدم الطريقة بغدامس -من دون تاريخ: "من مولاي أحمد بن المهدي بن الطيب الشريف الحسيني الوزاني إلى كافة فقراء شارع العوينة، كبيراً وصغيراً، ذكوراً وإناثاً، السلام عليكم ورحمة الله وبعد: يا إخواننا، سابقاً كان عندكم محمد بن عبد الله بن حومان خليفة في زاويتكم، والآن انتقمتم عليه ومعكم من حضر بزاوية (كذا) من فقراء من بني وليد وبني وازين، وموافقة المقدم السابق محمد المانع بن عبد الله، ونحبه أن يكون مقدم محمد بن عبد الله المذكور (كذا)، والآن رأينا قدمناه عليكم وأذنناه أن يعطي الأوراد لمن طلبها منه، ويقبل الزيارات والعوايد، ويعمر الزاوية. فمن تبعه وامتلأ أمره، فهو منا وإلينا، ومن خالف أمره، ولم يتبعه فهو بريء منا، ودعوتنا إليه وفي ذريته (كذا)" (937).

3- لمحة عن العلاقات التجارية بين البلدين:

1.3- المساعدات المغربية لليبيا:

عرفت العلاقات التجارية المغربية الليبية بداية من النصف الثاني من القرن 18م تطورا هاما، وهذا نتيجة لتحسن علاقاتهما الدبلوماسية، بالرغم من تأزم الحالة الأمنية في طرابلس التي عجز الحكام القرمانليون عن التحكم فيها. واستنادا إلى المذكرة التي وضعها (جيس guys) القنصل الفرنسي بطرابلس في شأن الأوضاع التجارية في ليبيا، يمكن أن نتصور هذه الحالة. فقد أورد هذا القنصل أن الواردات الفرنسية إلى طرابلس طيلة النصف الثاني من القرن الثامن عشر مثلاً بلغت قرابة المليون ونصف فرنك فرنسي في حين بلغت صادراتها

(936) محمد عمران مروان، الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية في مدينة غدامس خلال العهد العثماني الثاني (1261-1331هـ/1835-1912م) دراسة تاريخية من خلال الوثائق المحلية، ط1، دار الكتب الوطنية، بنغازي، 2009، ص: 686.

(937) نفس المرجع، ص: 686.

مليوناً واحداً، وأشارت نفس المذكرة إلى أن سفن فرنسا التجارية التي حققت تلك الأرباح لفرنسا تم الحصول عليها من نقل تلك السفن للبضائع بين موانئ طرابلس وموانئ بعض ولايات الإمبراطورية العثمانية، وكانت تلك الحركة التجارية التي أطلقت عليها فرنسا تسمية (القافلة) محتكرة من طرف السفن التي ترفع العلم الفرنسي الذي اعتاد الأتراك على احترامه أكثر من أعلام الدول البحرية الأخرى⁽⁹³⁸⁾، ولذا كان يوفر للبيبين لنفس السبب ضمانات كبيرة، وهم الذين كان الباب العالي يعتبرهم من الرعايا المتمردين⁽⁹³⁹⁾.

لقد حمل موقف الآستانة حكام طرابلس القرمانليين على عقد تحالف مع المغرب الأقصى، ففي سنة (1198هـ/1783م) رأى علي باشا القرمانلي⁽⁹⁴⁰⁾ أنه من المستحسن إيفاد مندوب إلى ملك المغرب محمد بن عبد الله، وكلف بهذه المهمة سي أحمد خوجة، هذا الأخير كان قد اعتنق المسيحية ولجأ إلى إسبانيا منذ سنة (1195هـ/1780م) عندما أوفده علي باشا كمندوب لزيارة بلاطها. وقد نجح سي أحمد خوجة في توثيق الروابط بين طرابلس ومراكش أكثر مما كانت عليه. ويرجع الفضل في ذلك التقارب بين المغرب وطرابلس إلى المجهودات التي بذلها حسن بك ولي العهد الطرابلسي قاصداً بذلك إخراج والده من المآزق السياسية والاقتصادية التي وقع فيها⁽⁹⁴¹⁾.

(938) منذ أن أبرمت الدولة العثمانية بقيادة سليمان القانوني وفرنسا بقيادة فراسوا الأول اتفاقية صداقة وتعاون سنة 1535، وهي في الأصل عبارة عن تحالف وسياسة تقارب بين الدولتين، والعلاقات بينهما جيدة، تخللها العديد من الامتيازات والاتفاقيات، والاحترام المتبادل، وكان هذا الاتفاق سائراً على كافة الإيالات العثمانية لاسيما في شمال إفريقيا، على الرغم من بعض المواجهات البحرية التي كانت تحدث بين هذه الإيالات وفرنسا في حوض المتوسط من حين لآخر. ودامت هذه العلاقة أكثر من قرنين إلى غاية الحملة الفرنسية على مصر سنة 1798م، فقد كانت هذه الحملة سبباً مباشراً في قطع هذه العلاقة الطويلة، لأنها أبانت عن النوايا الحقيقية في أطماع فرنسا التوسعية في أقاليم الدولة العثمانية.

(939) فيرو، ص: 333.

(940) تولى ولاية طرابلس الغرب بعد وفاة والده محمد باشا 1167هـ، وقام بضبط ولايته على أحسن وجه، إلى أواخر عهده بالحكم حيث تعرضت الإيالة للإهمال وضياح التنظيمات العسكرية، فأدى ذلك إلى قيام ولده يوسف بك بتدبير انقلاب مع الشيخ خليفة بن عون كبير قبيلة بني نويرة لاستلام زمام الحكم. وهذا الظرف ساعد علي باشا برغل الجزيري ليستولي على الحكم سنة 1207هـ. أنظر: - النائب الأنصاري، ص: 296 - 300.

(941) فيرو، ص: 333.

وعلى إثر ذلك أصدر سلطان المغرب أمرا لخدمته في موانئ المغرب بتسهيل المبادلات التجارية مع طرابلس لا سيما وصول شحنات القمح إلى طرابلس: "يصل خديمنا القائد محمد بن عبد المالك هذا الكاغيد (كذا) نأمرك أن تجمع عليه قونصو⁽⁹⁴²⁾ الدانمارك وقونصو السويد وقونصو الفلامنك⁽⁹⁴³⁾ وقونصو البلنسيان⁽⁹⁴⁴⁾ وغيرهم من القنصوات وأقرأه عليهم. وهو من يوم توجه من عندنا أحمد خوجة للدار البيضاء بقصد وسق الزرع، أمرناه بشراء الزرع وتوجيهه إلى طرابلس. ويعلم هذا القونصوات وغيرهم من النصارى المتسببين، وكم من مرة كتبنا لهم هذا وأعلمناهم به واسترعينا عليهم حتى عرفوه وعلموه من أن كل سفينة حملت الزرع من الدار البيضاء وتوجهت به لطرابلس وأنزلته بموضع آخر بقصد البيع، فإنها تغرم الصاكة،⁽⁹⁴⁵⁾ والرايس هو ضامنهما وما كانت تشرع في وسقه حتى كانوا يقولون لهم العدول والأمناء⁽⁹⁴⁶⁾ هذا القول. ثم إن رؤساء الأجناس الذين حملوا هذا الزرع اتفقوا مع أحمد خوجة على ذلك وباعوا الزرع بمالقة⁽⁹⁴⁷⁾ غشا منهم وطمع (كذا) فقد كان من حقهم حيث راودهم أحمد خوجة على ذلك وعلموا الخيانة فيه لم يساعدونه لذلك، ويقولون له لا تفعل من هذا شيء ولا نتحدث به لأننا وجدناه من أمام عدول المرسى بالانسية⁽⁹⁴⁸⁾ (كذا) على أننا ننزلوه بطرابلس وإن فعلنا هذا الفعل نخاف على أنفسنا والعقوبة تلزمنا من عرفنا

(942) موظف تعيينه الدول في دول أجنبية أخرى ولاسيما في الثغور لحماية رعاياها المقيمين والعابرين، ويسمى القنصل، وأحيانا ينطقه المغاربة بالقنص، واللفظ أجنبي شاع استعماله حتى صار في الحكم العربي. أنظر:

- ابن زيدان، **العز والصولة**، ج1، ص: 413.

(943) المقصود قنصل هولاندا.

(944) المقصود قنصل بلنسية بإسبانيا.

(945) ضريبة تدفع للجمرك.

(946) كانت مهام العدول تتمثل في متابعة الإجراءات القضائية، وقد بلغ عددهم في مدينة فاس حوالي 300 فردا، يعينهم قاضي القضاة، وكانوا تابعين له تبعية مطلقة، يعينهم ويعزلهم بكل حرية، فهم يمثلون أعوانا للعدالة. لهم من التأثير الفعلي في حياة الناس، ما جعلهم موضع اعتبار كبير لديهم، إذ كانوا يحتكرون الإجراءات، ولم يكن لبعضهم مكاتب وهم الملقبون بالعدول السارحون، يحررون العقود إما في منازلهم أو عند زبائنهم، والبعض الآخر من العدول كانوا يجتمعون إثنين إثنين في سماء العدول أو باب العدول، وكانوا يشغلون نحو 20 دكانا بالقرب من جامع القرويين. أنظر:

- روجي لوطرونو، **فاس قبل الحماية**، ج1، ترجمة محمد حجي، محمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1412-1992، ص: 316.

(947) مدينة إسبانيا.

(948) وهي بلنسية المدينة الإسبانية.

ويقع من ذلك تخسير الخواطر ونكون نحن السبب في ذلك (كذا)... - باقي الرسالة غير واضح - رجب الحرام عام 1201هـ⁽⁹⁴⁹⁾.

لقد نجحت العلاقات التي أقامها القرمانيون مع سلطان المغرب سنة 1783 في تزويد الأخير ليبيا بكميات كبيرة من الحبوب في شكل هبة، فلقد وصلت إلى طرابلس ثلاث شحنات من القمح، وبهذه المبادرة انتشل الاقتصاد الليبي من أزمة اقتصادية حقيقية وكذا من حصار خانق ضربته عليها الدول الأوروبية⁽⁹⁵⁰⁾.

2.3 - من المظاهر التجارية بين البلدين في قوافل الحج:

بدورها كانت قوافل الحجاج القادمين من المغرب تمثل حلقة وصل تجارية بين مناطق ليبيا الداخلية وطرابلس، فكان الليبيون يعهدون ببضائعهم للمغاربة من أجل نقلها إلى طرابلس وتطلعنا المصادر الليبية والمغربية على حد سواء عن طبيعة هذه المعاملات وتفاصيلها، فهي تذكر مثلاً أنه في سنة 1780 ظهر طامع جديد في عرش إيالة طرابلس يدعى مصطفى من سلالة القرمانيون الأولى وبرز عند أسوار طرابلس وظل يحاصرها مستعرضاً قوته خلال ستة أشهر تقريباً، فلم تقو قوات باشا طرابلس على تحمل تبعات الحصار، لا سيما فيما يتعلق بالمؤونة ومصاريف الجند فعمد باشا طرابلس إلى الهجوم على قوافل الحجاج المغاربة العائدين إلى مراكش، الذين كانوا في طريقهم إلى طرابلس محملين بمختلف السلع، ومنها تلك التي عهد بها إليهم الشيخ بن مخريق من قبيلة المحاميد⁽⁹⁵¹⁾ زعيم جبل غريان⁽⁹⁵²⁾ الذي التزم الحياد في الحرب التي قامت بين الباشا

(949) التازي، أمير مغربي، ص ص: 22-23.

(950) فيرو، ص: 334. وكذلك: - ابن زيدان، الإتحاف، ج5، ص ص: 320-326.

(951) من أقوى القبائل العربية التي كانت تقطن لبيبة مابين قابس وجبل نفوسة، وهي تنتسب لعرب أولاد وشاح من العوامر الذين ينحدرون من بنو جابر المشهورين باسم بني يزيد من قبيلة ذباب (أولاد أحمد) فرع من بني سليم. أنظر:

- كمالي، ص: 37 وص: 54.

(952) مدينة واقعة في الشمال الغربي من ليبيا، تشتهر بزراعة الزيتون والتبغ. وكلمة غريان في الأصل هي تسمية لقبيلة بربرية استوطنت المنطقة قبل العرب وهم ينحدرون من قبيلة هواره من أورغة من مجموعة البرانس. أنظر:

- الشامي، موسوعة المدن العربية والإسلامية، ص: 189. وكذلك: - كمالي، ص: 15.

وقريبه الطامع في العرش. وهذا الحدث دفع بالشيخ بن مخريق لدخول الحرب التي هزم فيها الباشا (953).

وبحكم الصلات التجارية والأخذ والعطاء بين العابرين والمقيمين من المغاربة وأهل البلد الليبي لا يخلو الحال من المتابعات والمحاكمات، وعلى أعلى مستوى إذا اقتضى الحال، إذ عندما كان يتعرض ركب الحجاج المغربي لبعض المضايقات من بعض العناصر غير المسؤولة، نجد العاهل المغربي يبعث باستفساراته، واستدراكاته، وهكذا عندما حمل بعض التجار المغاربة معهم بعض العملة والبضائع المغشوشة⁽⁹⁵⁴⁾ باشر علي القرمانلي بالكتابة إلى السلطان عبد الله بن إسماعيل سنة (1165هـ/1752م) الأمر الذي استدعى فتح تحقيق في المغرب للضرب على يد المتهاونين للمحافظة على نوعية الصادرات المغربية⁽⁹⁵⁵⁾.

فلقد اعتاد الحجاج المغاربة على شراء الثياب وبيعها في طريقهم إلى طرابلس وفي أعمالها، ويحملون الدراهم والدنانير ويشتررون بها ما يتقوتون به في الطريق، فظهر النحاس في طرابلس في الدنانير والدراهم العام بعد العام، وصارت الثياب تتقطع وسطها، فشكى الناس ما نزل بهم إلى والي طرابلس، وأعمالها، فأراد القبض على الحجاج، فكلمه في ذلك بعض فقهاء طرابلس وقالوا له: "الحجاج لم يصنعوا الثياب بأيديهم، وإنما اشتروها ممن صنعها والدراهم والدنانير المنتحسة ليس هم من ضربها، وإنما قبضوها في أمتعتهم، فأعلم سلطانهم بذلك، فترك الحجاج وكتب رسالة في الموضوع للسلطان عبد الله بن إسماعيل.

(953) فيرو، ص: 328.

(954) كانت السكة قد فسدت منذ استقال القائد قاسم بن الأشهب بالتصرف في دار ضرب السكة بفاس، فإنه نحس دينار الذهب والموزونات، وبالع في تحسيس الموزونات غاية مقصده، فكان في الموزونات عشر فلوس من نحاس وأربعة عشر فلوس من فضة من غير علم السلطان. كما أن حالة مناسج الطرازين قد صارت سيئة، لما تولى الحسبة الفقيه السيد الطيب الريحاني، وكان المحتسب في فاس هو الذي يلي البحث في مناسج الطرازين والحرارين، ويمنع من يحدث دخولا أو فراغا في المنسج، أو نقصا في الحائك، فلما ولي الريحاني غفل عن البحث في ذلك. فأحدث الحرارون الفراغ وجعلوا مكان الكثير من الدقيق. وأحدث الطرازون الدخول في المناسج، وجعلوا يصنعون الذراعين اللذان يليان الطرفين معقودين ومن أنفاس القيام حلاوة وبياضا ورطوبة ويزدون حال النسج على الطرفين لتمكن الصحة فيها، ويجعلون وسط الثوب فارغا والسدا خشينا أحمر أسود، فإذا نسج الحايك تجد طرفه في غاية الحسن ورطوبة وصحة وبياضا ووسطه مثل الشبكة. أنظر: - ابن زيدان، الإتحاف، ج4، ص ص: 524-525.

(955) التازي، أمير مغربي، ص: 18.

ولما دفع له شيخ الركب الرسالة التي بعثها والي طرابلس وأعمالها، وأخبره بما وقع للحجاج بطرابلس، قرأ الرسالة وبعث بها إلى أهل فاس، فاجتمع أهل فاس وقرؤوه وقص عليهم الحجاج الخبر⁽⁹⁵⁶⁾، فقال لهم البعض من له الرأي من الفقهاء: هذا منكر متفق على تحريمه يجب تغييره، وقد ذم الله أمة كانوا لا يتناهون عن المنكر، فقال: ﴿كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه...﴾⁽⁹⁵⁷⁾ فاتفق أهل الرأي من أهل الدين والخير على تغيير ذلك وعينوا من يقوم به⁽⁹⁵⁸⁾.

وبعد أن ألحقت العقوبة بالجناة كلف السلطان عبد الله كاتبه أبا الحسن علي اليعمدي⁽⁹⁵⁹⁾ ليعلم والي طرابلس بالأمر فكتب في ذلك رسالة من بديع صنعه، قال في الدر المنتخب: "إنها اشتملت على أسلوب من البلاغة في المنثور تسحر الألباب، يعجز عن إدراك ذلك أهل العصر⁽⁹⁶⁰⁾".

ونظرا لارتفاع عدد الجالية المغربية في طرابلس في عهد المولى سليمان وعلى سبيل التحديد سنة (1210هـ/1795م) قام السلطان بتعيين وكيل يعنى بمصالح المغاربة هناك، وتحفظ أحد أزقة طرابلس القديمة باسم الشيخ الريفي الذي تولى إدارة هذه القنصلية، ثم خلفه شخص يدعى مبارك السباعي ثم الحاج محمد العيساوي، ثم عبد السلام حسان وهذه القنصلية اليوم تحتوي على عشرات الوثائق الخاصة بالمغاربة سواء منهم المقيمون أو العابرون، إذ أغلبها سجل أثناء عبور ركب الحج ذهابا وإيابا، إذ تسجل هذه الوثائق بوضوح المعاملات التجارية التي كان يجريها المغاربة مع نظرائهم من سكان طرابلس، أو في شكل عقود زواج يعود بعضها إلى عهد المولى إسماعيل⁽⁹⁶¹⁾.

(956) ابن زيدان، الإتحاف، ج4، ص: 525.

(957) سورة المائدة، الآية: 79.

(958) ابن زيدان، الإتحاف، ج4، ص: 525.

(959) توفي حوالي سنة 1200هـ، أديب له ديوان جمع فيه أشعاره، وكتاب سماه: "كشف الأسى بمحاسن الصالحات من

النساء"، وكذا التعريف ببعض الأعلام. أنظر:

- حجي، موسوعة أعلام المغرب، ج7، ص:

(960) ابن زيدان، الإتحاف، ج4، ص: 527.

(961) التازي، أمير مغربي، ص: 28.

وتذكر مصادر القرن 18 وكذلك 19م، أنه في ظل حكم الأسرة القرمانيّة استطاع بعض التجار المغاربة اليهود من احتكار تجارة بعض السلع في طرابلس الغرب، وكان علي باشا القرماني مثلاً، قد منح بعض التجار اليهود المغاربة الذين يملكون شركات تجارية احتكار بعض السلع مقابل مبلغ سنوي يدفع إليه، وعلى سبيل المثال فإن المغربي اليهودي المدعو "الجواني" كان يحتكر تجارة البارود بمبلغ 1500 ريال. سنوياً يقدمه لحاكم طرابلس منذ تاريخ 17 رجب 1244هـ الموافق لجانفي 1828م⁽⁹⁶²⁾.

⁽⁹⁶²⁾ سليمان أحمد حسين كرميش، تجار المدن والواحات الليبية خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين، ط1، منشورات المركز الوطني للمحفوظات والدراسات التاريخية، بنغازي، الجماهيرية العربية الليبية، 2010، ص ص: 173-174.

II - علاقات المغرب مع إيالة تونس:

1- العلاقات السياسية والدبلوماسية:

1.1- لمحة تاريخية:

لم تكن علاقات المغرب بتونس تختلف عن تلك العلاقات التي كانت قائمة بين المغرب وطرابلس فهي الأخرى اتسمت بالمودة والتواصل الثقافي والديني، كما اتسمت أيضا بالمجاملة والاحترام المتبادل⁽⁹⁶³⁾.

وقد تحدثت بعض مصادر تاريخ المغرب عن قدم وعمق العلاقة بين سلاطين المغرب وحكام تونس. ومنها تلك التي كانت قائمة بين المولى إسماعيل ومراد باي حاكم تونس. وكنا قد ذكرنا هذا الحدث في مستهل هذا البحث، وكيف أن هذه العلاقة تطورت إلى تحالف بين الدولتين لمواجهة تهديدات أتراك الجزائر.

وهذا السلطان محمد بن عبد الله الذي سار على نهج جده إسماعيل في علاقته مع حكام تونس، كانت له هو الآخر مراسلات سرية مع باشا تونس وشيوخ قبائل تلك النواحي، على ما ذكره إسماعيل أفندي في التقرير الذي رفعه إلى الخليفة العثماني عبد الحميد الأول على إثر زيارته للمغرب سنة (1201هـ/1787م). كما أشارت هذه المصادر إلى الزيارة التي قام بها السلطان المغربي إلى تونس في طريقه إلى الحج لما كان فتي صغيرا، رفقة جدته "خنائة"، فتفتنت تونس في إكرام الوفد المغربي والترحيب به. ومما يؤكد متانة العلاقة، موقف سلطان المغرب من قصف الأسطول الفرنسي لمدينة سوسة⁽⁹⁶⁴⁾ التونسية سنة (1190هـ/1776م)، إذ وجه السلطان رسالة شديدة اللهجة إلى ملك فرنسا "لويس الخامس عشر"⁽⁹⁶⁵⁾، مع سفيره أحمد الغزال، بتاريخ 6 ذي القعدة 1190هـ الموافق لـ 21 فبراير

(963) التازي، الموجز في تاريخ العلاقات الدولية، ص ص: 111-112.

(964) مدينة ومرفأ على ساحل المتوسط بتونس، اسمها القديم هيدروميثوم، أسسها الفينيقيون حوالي القرن 9 ق م، استعملها حنبعل كقاعدة لغزو سيقيون. أنظر:

- محفوظ، الموسوعة العربية الميسرة، مج3، ص: 1401.

(965) لويس الخامس عشر (1710-1784م) تقلد الحكم بعد وفاة جده لويس 14، تحت وصاية قلب الثاني، دوق أورليان، اشترك في حرب الوراثة البولندية، وحرب الوراثة النمساوية، وحرب السبع سنوات، أدى تبذيره وفساد بلاطه وفضائحه وعدم كفاءة وزرائه إلى قيام الثورة الفرنسية، مات مبغضا من شعبه. أنظر:

- نفس المرجع، مج4، ص: 2114.

1776م احتج فيها بشدة على الموقف الفرنسي، وقد أعطاه مدة أربعة أشهر ليسحب أسطوله من السواحل التونسية وإلا فسيشهر الحرب ضده⁽⁹⁶⁶⁾.

2.1- أمراء مغاربة في تونس:

لعمق العلاقة بين المغرب وتونس نجد من أمراء المغرب العلويين من اتخذ تونس ملجأ ووطناً ثانياً له بعد المغرب. ففي سنة (1206هـ / 1791م) عندما اجتاز المولى يزيد الأراضي التونسية فارا من والده السلطان محمد بن عبد الله قاصداً الحجاز، وضع الباي حمودة باشا⁽⁹⁶⁷⁾ حاكم تونس يومئذ، رهن إشارته كل أسباب الراحة وهياً له كل وسائل الإكرام، فقد أنزله بقصره من بساتين منوبة ثم قدم إليه مسلماً عليه وطلب منه أن يزور محله بباردو⁽⁹⁶⁸⁾.

وقد وصف أحمد ابن أبي الضياف هذا الحدث بقوله: "وبالغ في إكرامه لما بين الدولة الحسينية وهذه السلطنة الشريفة من المحبة والوصلة، وبقي أياماً يأتي الحاضرة ويرجع إلى منزله بمنوبة، إلى أن تسن له السفر إلى الحج"⁽⁹⁶⁹⁾.

ومن مظاهر الاحتفال بالأمير المغربي، إتاحة الفرصة له في الحضور، بل والمشاركة في إحدى التدريبات العسكرية التي كانت تجرى بقصر باردو⁽⁹⁷⁰⁾. خاصة وأن الأمير كان مولعاً بالرماية، لاسيما صناعة البومبة (القنابل)⁽⁹⁷¹⁾.

(966) التازي، التاريخ الدبلوماسي، ج 9، ص: 49.

(967) حمودة بن علي بن حسين بن علي تركي أبو محمد، حاكم تونس، فيها ولد سنة (1173هـ / 1759م)، أنابه والده في الولاية، ثم استقل بها بعد وفاة والده سنة 1196هـ، بعهد من الدولة العثمانية، له وقائع وآثار عمرانية تدل على شجاعته ورجاحة عقله، كانت علاقته جيدة وقوية مع أوروبا، خاصة مع نابليون سنة 1802م، واشتهر بحربه مع البندقية التي دامت ثماني سنوات ما بين (1784-1792م) توفي في تونس سنة (1229هـ / 1814م). أنظر:

- الزركلي، ج2، ص: 282.

(968) مصطفى بوهلال، "التعامل المغربي التونسي في نهاية القرن 18 وبداية القرن 19 بين الشمول والتكامل"، دعوة الحق، ع3، س23، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، 1982، ص: 89.

(969) ابن أبي الضياف، ج3، ص: 21.

(970) بوهلال، دعوة الحق، ع3، س23، ص: 89.

(971) ابن أبي الضياف، ج3، ص: 21.

ومما يذكر عن إقامته بتونس أنه مر ذات يوم بجنود المدفعية وإطلاق القنابل بباردو، فأوقف فرسه، وبقي يتأمل عمل أولئك الجنود، ثم أمر أحدهم باستعمال مدفع حسب طريقة ارتآها، ثم أمره بإطلاق القنبلة وتابع مسيرتها في الجو بعينيه، ولما أصابت هدفها بدقة - وكان الهدف خباء- واصل سيره والجنود يتعجبون من مهارته في استعمال الأسلحة استعمالاً جيداً" (972).

وعلى نحو اليزيد سار الأمير مسلمة أخو المولى سليمان لما وقعت بينه وبين أخيه وحشة سنة (1208هـ/1793م). وحسب ما أورده الزياتي فإن السلطان سليمان كان في خصومة مع أخيه مسلمة وكان مسلمة هذا رجلاً مشؤوماً ظالماً، فر من أخيه السلطان وتوجه إلى تلمسان، غير أن باي وهران محمد الكبير طرده منها، ففر إلى المشرق ومكث بمصر أين كان يتملق على ولاتها حتى ملوه، وكان بالمشرق يقطع طريق الحجاج المغاربة والتجار ويسلبهم أموالهم، فشكوه إلى أخيه السلطان، فطرد من مصر ودخل تونس ومكث عند حمودة باشا حاكم تونس الذي أكرمه وأنزله داره (973).

غير أن ابن أبي الضياف عندما تحدث عن الأمير مسلمة، ذكر: "أن مسلمة خرج من المغرب وجاب الآفاق وأقام مدة بالديار المصرية واجتمع فيها بنابليون بونابرت قائد الحملة الفرنسية، وأهدى أحدهما للآخر، وتحادث كل منهما إلى صاحبه، وكان الأمير مسلمة فيما بعد شديد الإعجاب بنابليون، وإذا تحدث عنه تحدث بمنتهى التقدير والإنصاف له، ويذكر ما شاهد من حزمه وضبطه وشجاعته وثقوب ذهنه، وينقل ما سمعه منه عما آلت إليه حالة المسلمين بسبب انغماسهم في الملذات والشهوات، وإسرافهم في الترف والنعيم (974).

وحسب ابن أبي الضياف دائماً، فإن الأمير مسلمة بعدما دخل تونس، نزل بحلق الوادي عند الشيخ علي الباهي أحد أعيان تونس، هذا الأخير لما علم بقدوم الأمير طلب من الكاهية أن يعجل بإرسال القارب لنزول الأمير، فقال له الكاهية: "نتوقف في ذلك على إذن خاص من الباي، فقال له الشيخ الباهي: أنا رسول الباي في هذا الشأن". فأتى الشيخ

(972) نفس المصدر ج3، ص: 21.

(973) الزياتي، الروضة السليمانية، ص: 233.

(974) ابن زيدان، الإتحاف، ج4، ص ص: 406-407.

الباهي الباي بقصره في باردو وكان الشيخ مقربا عند الباي، فقص عليه الخبر، وفرح الباي فرحا شديدا بقدوم الأمير المغربي، وشكر الشيخ الباهي على هذا الصنيع⁽⁹⁷⁵⁾.

ولأنه قدم على حمودة باشا شريدا، يبدو عليه الإرهاق والتعب وأثر خلعه من على مملكة فاس، فقد أنزله حمودة باشا أحسن منزلة⁽⁹⁷⁶⁾، فأكرمه وعظمه ورتب له جارية كجارية ولي عهده، وبقي مسلمة في تونس أين تزوج عقيلة من بيت أحد علماء تونس المعروف بالشيخ القصري، فأنجبت له ولدا توفي صغيرا⁽⁹⁷⁷⁾.

وفي أثناء إقامته بتونس زار مسلمة الشيخ الرياحي⁽⁹⁷⁸⁾، فأكرمه وأحسن ضيافته وأنشد فيه أبياتا جاء فيها:

ولما نزلنا في ظلال بيوتكم أمنا ولننا الخصب في زمن المحل
ولو لم يزد إحسانكم وجميلكم على البر من أهل حسبتكم أهلي⁽⁹⁷⁹⁾
فقال له مسلمة: "إنك أتيت أخي مدحته وأجازك وهو سلطان، وأنا غريب". وكان بأصبعه خاتم ثمين فنزعه من خنصره وناوله الشيخ فأخذه الشيخ وضمه إلى صدره وأنشد:
نظرت لخاتم قد جل قدرا تحف به الخلافة والكرامة
فقلت له شرفت وأي فضل حويت بلبس مولانا سلامة
وقال له: "إن خاتمك شريف، والشريف لا يستعمل، وقد أجازني أخوك في الدنيا وجائزتي منك في الآخرة"، ولما وضع الخاتم بين يديه امتنع الأمير مسلمة من قبوله، فقال له الشيخ:
"لا تحرمني من جائزة الآخرة"، فتركه الشيخ بين يديه⁽⁹⁸⁰⁾.

(975) نفس المرجع، ج4، ص ص: 406-407.

(976) الناصري، الاستقصاء، ج3، ص: 205.

(977) ابن زيدان، الإتحاف، ج4، ص: 405.

(978) أبو اسحق إبراهيم بن عبد القادر الرياحي، ولد بتستور عام (1180هـ/1766م)، قدم إلى تونس فانتسب إلى المدرسة العاشورية التي أصبح أحد مدرسيها فيما بعد، من شيوخه: صالح الكواش، وعمر المحجوب، ومحمد الفاسي، اشتغل كخطيب بجامع الزيتونة، وترأس أهل الفتوى والشورى بتونس، وبعد سفارته إلى المغرب، سافر إلى إسطنبول في مهمة دبلوماسية إلى السلطان محمود الثاني (1808-1839م)، توفي سنة (1266هـ/1850م). أنظر:

- بوهلال، دعوة الحق، ج3، ص23، ص: 90.

(979) ابن زيدان، الإتحاف، ج4، ص: 405.

(980) نفس المرجع، ص: 406.

ولما طال حله وترحاله في منفاه الاختياري، ساء حاله ونضب ماله، وتخلّى عنه الأتباع وجفاه الأصدقاء، واشتد حنينه إلى وطنه، وصار لا يفكر إلا في الرجوع إليه لقضاء بقية أيامه فيه. طلب مسلمة من حمودة باشا أن يشفع له عند أخيه السلطان سليمان، فوجه حمودة باشا كتابا إلى المولى سليمان يطلب فيه أن يقبل المولى مسلمة عنده.⁽⁹⁸¹⁾ فلما غادر مسلمة تونس إلى وهران أين نزل عند الباي محمد الكبير، طلب منه هو الآخر أن يشفع له عند أخيه المولى سليمان، فما لبث أن كتب الباي محمد الكبير كتابا للمولى سليمان يتشفع لأخيه مسلمة عنده.⁽⁹⁸²⁾

فقبله المولى سليمان وأمره أن يذهب إلى سجلماصة لينزل فيها بدار والده ويرتب له ما يكفيه من المؤونة والكسوة، على أن يبقى بعيدا عن أصحاب الفتن، وراسله المولى سليمان، غير أن مسلمة لم يعجبه جواب أخيه فعاد إلى تونس أين وافته المنية⁽⁹⁸³⁾. ودفن بزاوية أبي الحسن علي عزوز⁽⁹⁸⁴⁾ قرب سوق البلاط⁽⁹⁸⁵⁾.

3.1- التضامن والتعاون السياسي بين المغرب وتونس:

بلغ من اطمئنان حكام المغرب وحكام تونس إلى التكافل الموجود بينهم، أنهم كانوا يعتقدون أن في أعناقهم ودمهم دين تجاه بعضهم، لذلك سعوا للمحافظة على كل ما يمت إلى المغرب وتونس بصلة. فعندما ثار أحد الرعايا المدعو محمد بن شكر بمحلة الشتاء ضد حاكم تونس محمد باي⁽⁹⁸⁶⁾ الذي أرغم على الالتجاء إلى الصحراء، وعاث ابن شكر في

(981) الناصري، الاستقصاء، ج3، ص: 205.

(982) الزباني، الروضة السليمانية، ص: 233.

(983) الناصري، الاستقصاء، ج3، ص: 205.

(984) صاحب زاوية زغوان وغيرها المتوفى سنة 1122هـ. أنظر:

- محمد بن محمد مخلوف، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، ج1، د.ط، المطبعة السلفية، القاهرة، 1349، ص: 325.

(985) ابن زيدان، الإتحاف، ج4، ص: 406.

(986) محمد بن حسين بن علي تركي، أبو عبد الله المعروف بمحمد الرشيد، (1122-1172هـ / 1711-1759م) أمير تونس، فيها ولد ونشأ، وولاه أبوه بعض الأعمال، وبرع في الأدب، ولما قتل أبوه سنة 1153هـ قصد الجزائر، وعاد منها بجيش قاتل به علي ابن محمد، وانتصر عليه، فدخل تونس وبويع فيها سنة 1169هـ، وحسنت سيرته، ومات بتونس. أنظر:- الزركلي، ج6، ص: 104.

أموال التونسيين فسادا، إلى الدرجة التي لم يجد فيها السكان مخرجا، إلا الاستغاثة بالسلطان المقهور وتأييده من الداخل، بدعوته لإنقاذ البلاد من طغيان ابن شكر، وتم لمحمد باي الأمر حيث عاد لعرشه. وعندما حاول الثائر الالتجاء إلى المغرب بحثا عن مكان يعيد فيه ترتيب نفسه من جديد، ليقوم بالكرة على الباي، فتدخل المولى إسماعيل في الأمر ورفض استقبال الرجل، فحال ذلك دون تمكين ابن شكر من تحقيق غايته. وقد خاطبه المولى إسماعيل قائلا: "إن من يفعل هذا الفعل مع ولي نعمته لا يكون محلا للصنيعة، ومن كفر النعمة استوجب النعمة" (987).

وبالمقابل عندما تعرض قطاع الطرق من قبيلة النمامشة البربرية للحجاج الفاسيين سنة (1164هـ/1750م) وسلبوهم خيلا وإبلا وأحمالا وأموالا، رأى باي تونس، علي باشا (988)، أن يغزو بنفسه النمامشة ليسترد منهم ما سلبوه من حجاج فاس (989).

ولأن إيالة الجزائر كانت تشكل عدوا مشتركا للمغرب وتونس معا، فإن مختلف الوسائل والطرق كانت متاحة لحكام البلدين لزعزعة استقرار هذه الإيالة وإضعافها، وفي هذا الصدد نجد حمودة باشا باي تونس يستعين بابن الأحرش الدرقاوي -من عرب المغرب الأقصى- سنة (1218هـ/1803م) بعد أن شارك في مصر في مواجهة القوات الفرنسية، وعاد منها وقد أبلى بلاء حسنا، وبلغت شهرته الآفاق، وكان بعهدا قد نزل تونس عند حاكمها حمودة باشا، الذي أكرمه وأنزله منزلة خاصة، ثم قام بمفاوضته في القيام على حكومة الجزائر، بعد أن وعده بالمال والرجال، فاستجاب ابن الأحرش لطلب حمودة باشا وخرج من تونس إلى نواحي قسنطينة، ودعى لنفسه بالإمارة واشتدت شوكته، فأحدث الفوضى والثورة في بايلك الشرق، وتمكن من القضاء على باي قسنطينة، ولم تأفل شوكة ابن الأحرش إلا بعد مدة،

(987) "أهمية علاقات الدولة العلوية بتونس في بناء وحدة المغرب العربي"، دعوة الحق، العدد 96، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية،

المغرب، د.ت، ص: 20. (المجلة الإلكترونية)

(988) علي بن محمد بن علي تركي، أبو الحسن: باي تونس. له اشتغال بالأدب والعربية. صنف "شرح التسهيل لابن مالك" في النحو. ثار على عمه الباي حسين بن علي، واستعان بحاكم الجزائر، وقاتل عمه فأخرجه من تونس سنة 1147هـ، وتوالت المعارك بينهما إلى أن استشهد عمه جنوب القيروان سنة 1153هـ وصفا له الجو. وكان أبناء عمه قد ذهبوا إلى الجزائر ورجعوا منها بجيش حاصروا به تونس أياما حتى تمكنوا من علي باشا. أنظر:

- الزركلي، ج5، ص: 15.

(989) "أهمية علاقات الدولة العلوية بتونس في بناء وحدة المغرب العربي"، دعوة الحق، العدد 96، ص: 20. (المجلة الإلكترونية).

أين التحق بابن الشريف الدرقاوي⁽⁹⁹⁰⁾ في ناحية الغرب الجزائري، وهناك أين تم اغتياله على حين غفلة⁽⁹⁹¹⁾.

وامتد ترسيخ الروابط بين المغرب وتونس إلى مستويات أخرى من إطارات الدولة والطبقات الشعبية، فهذا وزير الحربية التونسية أبو المحاسن يوسف صاحب الطابع⁽⁹⁹²⁾ ينظم استقبالا مهيبا لقطع من الأسطول المغربي كانت مارة بالقرب من الإيالة التونسية، فجاءت هذه المبادرة إعظاما للمولى سليمان وترسيخا للعلاقات المتينة بين تونس والمغرب⁽⁹⁹³⁾.

وبالمقابل وإعظاما لهذا الوزير، أهداه المولى سليمان جوادا من أحسن خيول المغرب، وذلك لما سمع عن شغفه وولعه بالأحصنة، فقد بلغه عن طريق بعض سفراءه ممن مر بتونس، أن وزيرها يوسف صاحب الطابع أكرمه وهاداه ومن رافقه من المغاربة إعظاما للمولى سليمان، فما كان من السلطان إلا أن قال لوزيره: "أرسل هذا الحصان إكراما ليوسف صاحب الطابع"⁽⁹⁹⁴⁾

⁽⁹⁹⁰⁾ العربي بن أحمد بن الحسين بن علي الحسيني الإدريسي الشهير بالدرقاوي، الشيخ الشهير والمربي الكبير والولي الصالح، صاحب الأتباع الكثيرين، له زوايا في جل مدن المغرب. ولد بعد سنة 1159هـ، له رسائل شهيرة، وألفت في مناقبه ومناقب أتباعه تأليف كثيرة، ومازالت طريقته مشهورة إلى الآن. دفن في بوبريج من قبيلة بني زروال عام 1239هـ. أنظر:- حجي، موسوعة أعلام المغرب، ج7، ص:2516.

⁽⁹⁹¹⁾ بن محي الدين، ص: 77.

⁽⁹⁹²⁾ أصله من البغدان (جزء من مولدافيا الحالية)، أتى صغيرا دون البلوغ إلى إسطنبول، فاشتراه أحد تجارها، ولما تولى حمودة باشا حكم تونس بعث إلى إسطنبول أحد سفرائه لشراء بعض المماليك، ساقه القدر إلى هذا المملوك (يوسف خوجة)، فاشتراه، ولما أراد السفير الخروج بالمماليك منعه حارس المرسى لصدور فرمان يمنع خروج المماليك لمصر، فقال هذا المملوك (يوسف) للحارس: "أنا رجل حر أعترفني سيدي، ولي أخ بتونس هو صاحب الطابع بها، أريد السفر إليه"، فخلّى سبيله، فتعجب السفير لفطنته، فقرر أن يأخذه عنده ريثما يتعلم اللغة وأخلاق البلاد، حتى صار في خدمة حمودة باشا أين عينه في ختم المكاتب التي ترد الباي، فصار منذ ذلك الوقت يحمل لقب صاحب الطابع إلى أن صار له شأن في هذه الوظيفة. وترقى لرتبة وزير. أنظر:

- ابن أبي الضياف، ج7، ص: 89-91.

⁽⁹⁹³⁾ بوهلال، دعوة الحق، ج3، ص23، ص: 89.

⁽⁹⁹⁴⁾ ابن أبي الضياف، ج7، ص: 97.

2- نماذج لسفارات وبعثات عسكرية من تونس في المغرب:

1.2- سفارة الشيخ الرياحي:

تعزز التعاون بين المغرب وتونس من خلال المساعدات والخبرات العلمية والعسكرية التي كان يتبادلها الجانبان، ففي عام (1226هـ/1811م) طلبت تونس من المغرب المساعدة بالمؤونة، فبعث باي تونس حمودة باشا إلى المولى سليمان سفارة في ذلك.⁽⁹⁹⁵⁾ وكان الذي تولى السفارة العالم الأديب الشيخ أبو إسحاق إبراهيم بن عبد القادر الرياحي، شيخ الجماعة بتونس، فقدم الأخير إلى فاس ومعه هدية وكتاب يتضمن طلب الإمداد بالمؤونة لحدوث المسغبة بالبلاد التونسية⁽⁹⁹⁶⁾.

وكان الذي تولى كتابة رسالة باي تونس القاضي وكاتب الباي عمر بن المحجوب⁽⁹⁹⁷⁾، الذي طلب من الشيخ الرياحي أن يسلمها إلى الشيخ ابن شقرون أحد أعيان الدولة بالمغرب، وأحد معارف الشيخ عمر المحجوب، ليسهل بذلك على الشيخ الرياحي المهمة، ومن هاته الرسالة:

"... وننهي إليكم، وصل الله حفظكم وإسعادكم، ووفر من كراماته إمدادكم، وأطال فيما يزلفكم لديه آمادكم، وجعل في ذات الله محبتكم واعتقادكم... فننتهي من أخباركم بما ينشط القلوب والألباب، ويستخلص من الحمد والشكر خالص اللباب، وأنتم بحمد الله على الحالة التي يرتضيها كمالكم، وتبتسم بالإعجاب بها آمالنا وآمالكم، تحت (كذا) الإيالة التي ندعو الله تعالى أن لا يقلص عن المسلمين ظلالها، وأن يوسعكم زلالها، وإلى هذا نعرفكم، عرفكم الله عوارفه، وأسبغ عليكم من الفضل مطارفه، أن حضرة إفريقية حاطها الله بعنايته الكافية، وأسبغ على أهلها رداء العفو والعافية، قد أعوزها الخصب في الأعوام المنفصلة، وتوالى عليها الجذب في سنين متصلة، لاسيما هذه السنة الشهباء، فإنها تلونت لأهلها تلون

(995) ابن سودة، اتحاف المطالع، ص: 107.

(996) سبق أن ضرب الوباء تونس ودام ثلاثة أشهر من سنة 1803م، هلك فيه أكثر من عشرين ألف تونسي. انظر: - بوهلال، دعوة الحق، ج3، ص23، ص ص: 92-93.

(997) أبو حفص عمر ابن العلامة قاسم المحجوب الشريف الذي أخذ عنه الفقه المالكي، كان شغلة في الذكاء، حتى صار مثلاً يضرب لكل من يزاحم فوقه. برع الشيخ عمر المحجوب في علوم شتى لاسيما الأدب، فتصدر للتدريس بالزيتونة، ثم تقدم لخطبة القضاء والكتابة فبرع فيها حتى صار كاتباً لباي تونس، فلم يكن يومئذ كاتب بارع سواه. أنظر: - ابن أبي الضياف، ج7، ص: 52.

الحرباء، وما كشفت النقاب عن عوارها، ولا أوضحت لهم مكنون إعسارها، لكون الزرع قد استغلظ واستوى على سوقه، ولاحت لهم من الخصب واضحات بروقه، فما راع القوم إلا إخلاف أنوائها... ولم يجد القوم ملاذ من هذا الأمر، ولا مفزعا إلى أن يكشف الله سبحانه عنهم الضر، إلا أن أوفدوا الأنفار المذكورين أعلاه للمشور الأفخم، والنادي الأعظم، حضرة مولانا السلطان الشريف، ذي القدر المنيف، أعز الله تعالى سلطانه، وحرس بعين العناية أرجاءه وأركانه، وهؤلاء القوم، وإن كان بأيديهم مكتوب من أميرنا الباشا، أيده الله تعالى، في طلب ابتياع الميرة، من ممالك مولانا السلطان، نصره الله تعالى، إلا أنهم في الحقيقة وفد هذا الرعيل من جمهور المسلمين، أوفدهم على حضرة مولانا السلطان، ممتارين قائلين: ﴿مَسْنَا وَأَهْلُنَا الضَّرَّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفَ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾⁽⁹⁹⁸⁾. ولا جرم أنهم أصابوا المرمى واستبصروا، حين فزعوا لحضرة مولانا السلطان وانتصروا، وبهمته العالية على القحط استتصروا، وأرسلوا الأنفار المذكورين، وفودا لطلب الميرة وانتظروا، ونعرفكم بأن الأول منهم، هو الفقيه المتقن البارع أبو إسحاق سيدي إبراهيم الرياحي من نجباء الطلبة الذين اخذوا عنا، وميَّزه تحصيله بمزيد الوصية عليه منا، ولعلمكم، إن شاء الله، إذا بلوتم نجابته، واستنفضتم كنانته تحمدون في العلوم ذكاءه، وترضون توغله في معارجها وارتقاءه، ولكنه يتعسر عليه فيما هو بصدد سفارته، الإنتاج، ويجهل في علله الأدوية والعلاج، فالمطلوب من مقامكم، ووافر عزكم واحترامكم، أن تكون لهؤلاء الوفد معينا، وأن تقر لنا ولهم بمعونتك عينا، وتهديهم للظفر بالمقصود سواء السبيل، وتوضح لهم كيفية الإنتاج في هذا الأمر على التفصيل، حتى تترتب لهم الأقيسة المنتجة، وتفتح لهم الأبواب المرتجة، ولكم مزيد الدعاء بالسنة الخصوص والعموم... " (999).

وما أن وصلت هذه الرسالة إلى يد السلطان حتى خرج لاستقبال الشيخ الرياحي فاحتفى به وأكرمه وأحاطه بالتعظيم والإجلال، واغتتم الشيخ الرياحي هذه المناسبة فراح يمدح المولى سليمان بقصيدة طويلة من جيد شعره من بين ما قال فيها:

إن عز من خير الأنام مزار فلنا بزورة نجله استبشار
أوليس نور المصطفى بجبينه كالشمس يظهر نورها الإقمار

(998) سورة يوسف، الآية: 89.

(999) ابن أبي الضياف، ج7، ص: 54.

ومن جملتها قوله:

هذا الخليفة وابن أكرم مرسل وسليل من فخرت به الأمصار
وخلاصة الأشراف والخلفاء من بيت البتول ومن حواه أزار

إلى قوله :

هذا سليمان الرضي ابن محمد من أشرقت لجبينه الأنوار
هذا الذي رد الخلافة غضة وسما به للمسلمين منار⁽¹⁰⁰⁰⁾

وبعد مراسم الاستقبال وجه المولى سليمان الشيخ الرياحي لزيارة جامعة القرويين للوقوف على الدروس التي كانت تلقى بها وكذا للقاء العلماء، وخلال إقامته بالمغرب كان للشيخ الرياحي لقاء مع الشيخ أحمد التجاني صاحب الطريقة التجانية⁽¹⁰⁰¹⁾، فأخذ عنه الطريقة مباشرة، ولما كان بتونس أخذها عن طريق أحد المغاربة وهو الصوفي علي حرازم، الذي التقى به في جامع الزيتونة سنة (1216هـ/1801م)⁽¹⁰⁰²⁾.

وقبل هذا التاريخ كان الشيخ الرياحي منضما إلى الطريقة الشاذلية، وهو في تونس، فقد أخذ الشاذلية عن شيخ الطريقة البشير بن عبد الرحمن الرئيسي⁽¹⁰⁰³⁾. واجتمع الشيخ الرياحي في فاس بالعالم ابن كيران يدارسه ويذاكره⁽¹⁰⁰⁴⁾. وبالشيوخ عمر بن صادق الششتي المالكي الذي دارسه ثم أجازته⁽¹⁰⁰⁵⁾.

أما في سلا فقد اجتمع الشيخ الرياحي بالعالم محمد الطاهر المير السلاوي مفتي سلا والرباط، وواحد من العلماء الذين كانوا يحضرون مجالس العلم عند السلطان محمد بن عبد الله. وقد أتحف أحد الشعراء المغاربة هذين العالمين بأبيات جاء فيها:

⁽¹⁰⁰⁰⁾ الناصري، الاستقصاء، ج3، ص: 223.

⁽¹⁰⁰¹⁾ أبو العباس أحمد التجاني المولود عام 1150هـ بعين ماضي بالجزائر، رحل إلى فاس عام 1171هـ، فتعلم الحديث والتفسير، ثم أتى إلى تلمسان ليقرئ بها. حج سنة 1186هـ، وفي طريقه أقام بتونس عند الشيخ حسونة القصري العالم والتاجر الوارد من قصر الرباط (ت 1199هـ/1784-1785م). استوطن فاس سنة 1213هـ واجتمع بالمولى سليمان الذي أكرمه وأحسن نزله، توفي عام 1230هـ/1815م. أنظر:

- بوهلال، دعوة الحق، ج3، ص23، ص: 93.

⁽¹⁰⁰²⁾ مخلوف، ج1، ص: 387.

⁽¹⁰⁰³⁾ نفس المصدر، ص: 387.

⁽¹⁰⁰⁴⁾ بوهلال، دعوة الحق، ج3، ص23، ص: 92-93.

⁽¹⁰⁰⁵⁾ مخلوف، ج1، ص: 387.

كان مدرسا فصيحاً لسنا وأتقن التفسير درسا حسنا
لقيه الشيخ أبو إسحاق عالم تونس سنا الرفاق
وحضر الدرس له بفاس فأورد الإشكال في إئتاس
عن آية نسخت أو محكمة أجابه فوراً بما قد أفهمه
فيما لكل أمة شرعا يخص بأنها محكمة حجة نص⁽¹⁰⁰⁶⁾

ولما كان المولى سليمان من رواد القرويين، كان يلقي دروس التفسير بها، وبينما هو كذلك، وقف مرة في درسه في التفسير والشيخ الرياحي عنده في قوله تعالى: ﴿اعلموا أنما غنمتم من شيء فإن لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل﴾⁽¹⁰⁰⁷⁾. وما هي لحظات حتى جاء البشير، بأن سفينة من سفن السلطان الحربية، غنمت إحدى السفن الأوربية، وحسن موقع هذا الاتفاق، فهنا الشيخ الرياحي المولى سليمان بقصيدة جميلة مطلعها:

دلائل فضل الله فينا تترجم وإن غفلت عنها طوائف نؤم
ومن أكرم النعماء ولاية من له علينا وفيها حكمة وتحكم
تلطف في إخفائها متسترا ومن كملت فيه الولايات يكتم
ولما أراد الله إظهار ستره جرى الأمر في الإظهار من حيث يعلم
ألم تغتم وقت المساء وغدوة بدا الوقف في التفسير آية "واعلموا"
ليدري صحيح الذوق أن مليكنا له في طريق الكشف نهج مقوم
وأن لنا فيما قضاه مغانمنا فجعل ذي بدء لما هو أعظم
فلا زالت الأيام تخدم سعه ولا زال مثلي في حلاه ينظم⁽¹⁰⁰⁸⁾

وبعد أن قضى الشيخ الرياحي الغرض، قفل راجعا إلى تونس محملا بالمؤونة، ناشرا للطريقة التجانية، منشئا لها الأوراد، وقد أسس لها زاويته المشهورة بتونس قرب حوانيت عاشور. وبهذا يكون الشيخ الرياحي أول تونسي ينضم إلى الطريقة التجانية⁽¹⁰⁰⁹⁾.

⁽¹⁰⁰⁶⁾ ابن زيدان، الإتحاف، ج5، ص: 426.

⁽¹⁰⁰⁷⁾ سورة الأنفال، الآية: 41.

⁽¹⁰⁰⁸⁾ ابن أبي الضياف، ج7، ص: 76.

⁽¹⁰⁰⁹⁾ بوهلال، دعوة الحق، ج3، س23، ص ص: 92-93.

ومنذ عودته إلى تونس والشيخ الرياحي في تواصل مع المولى سليمان سلطان المغرب، يراسله ويكاتبه ويبادله الأشعار. فقد أثنى الرياحي على المولى إبراهيم ابن المولى سليمان حين أرسله والده برسالة إلى الأمير ابن سعود بالحجاز، على ما بدر منه من حسن الخلق، ورفقه بالمساكين والضعفاء مدة إقامته بالحجاز، وبعث بالقصيدة إلى والده السلطان سليمان يهنئه بعودة ابنه إلى الديار، كما ألمّ فيها بذكر خصال السلطان، فأعجبته وحركت مشاعره، وأمر المولى سليمان كتاب دولته أن يأخذوا منها نسخاً، وشرحها بعضهم، ونصها مختصراً:

هذا المنى فأنعم بطيب وصال	فلطالما أضناك طول مطال
ماذا وكم أوليتني يا مخبري	بقدومه من منة ونوالي
بشرتني بحياتي العظمى التي	قد كنت أحسبها حديث خيال
بشرتني بآبِن الرسول لو إنما	روحي ملكت بذلتها في الحال
بشرتني بسلالة الخلفاء من	أمداحهم تنثى بكل مثقال
من حبه فرض الكتاب كما	ترى إلا المودة حين يتلو التالي
يا حبه وصفيه من قومه	وخياره من سائر الأنجال
لو لم تكن أهلاً لصفو وداده	لم يستتبك لجدك المفضال
تهوى المشارق أن تكون مغاربا	لتنال من جدواه كل منال
يا فخر دين الله منه بناصر	وسعادة الدنيا به من وال
لا تفتخر فاس ولا مراکش	بلائه كل الأنعام موال
أوليس في كل البقاع ثناؤه	ورد البكور وسحة الآصال
أو لم يشد للدين والعلماء	والأشراف والصلحاء أي جلال
أولم يعم بجوده أقطارها	لا فرق بين جنوبها وشمال ⁽¹⁰¹⁰⁾

وما كان منه بعد أن سمع القصيدة، إلا أن أجابه السلطان بقصيدة على نفس الوزن جاء في مطلعها:

حيث فأحيت قلب صب صال كي ما تبشره بطيب وصال
هيفاء ترفل في ثياب سندس من نسج تونس لا تسام بمال

(1010) الناصري، الاستقصاء، ج3، ص ص: 228-230.

وقوله:

يأهل تونس حزتم شرفا بما أبديتمو من صالح الأعمال
يكفيكم أن فيكم هذا الذي حلت بلاغته محل كمال (1011)

وقد أرسلت هذه القصيدة فيما بعد صحيفة المراسلات الرسمية بين الدولتين، حتى أن الباي عندما وجدها ضمن البريد الرسمي ألح أن تتلى عليه قبل إرسالها لصاحبها الشيخ الرياحي (1012).

ولقد تساءل المؤرخون عن سبب اختيار تونس، المغرب الأقصى من بين الأقاليم المجاورة لنجدتها من الأزمة الاقتصادية التي وقعت فيها؟ وهل كان لحمودة باشا الخيار في التوجه نحو مصادر أخرى للتزود بالمؤونة؟

والحاصل أن ما أفادنا به المؤرخون، من أن حمودة باشا رغب في إيجاد أسواق دولية يستورد منها المؤونة لتونس، من ذلك إرساله لسفن عديدة نحو البحر الأسود لجلب الحبوب، كما أنه سمح للسفن الفرنسية بدخول تونس من أجل إغاثة الجالية الفرنسية بالإمدادات، بالرغم من العلاقات المضطربة التي كانت بين البلدين، فقد أرسلت فرنسا كمية دقيق تقدر بثلاثمائة قنطار (1013) غير أن هذا لم يحل المعضلة، وزادها تعقيدا الوضع الدولي المحيط بتونس وقتها، خاصة وأن العلاقات الإيطالية التونسية كانت متوترة، أسفرت عن مجموعة من الهجمات نفذتها السفن الحربية الإيطالية على الموانئ التونسية. والأمر نفسه حدث مع البندقية، التي لم تتردد في ضرب صفاقس (1014) وسوسة وحلق الواد، لا شيء إلا لإلحاح مجموعة من تجار تونس على تعويضهم بالسلع التي فرط فيها أحد ربان

(1011) ابن أبي الضياف، ج7، ص: 76.

(1012) بوهلال، دعوة الحق، ع3، س23، ص ص: 92-93.

(1013) نفس المرجع، ص ص: 94.

(1014) صفاقس أو صفاقس، مرفأ تونسي على خليج قابس، ومركز ولاية تعرف باسم صفاقس، ثاني أكبر مدينة تونسية من حيث عدد السكان، تقع على ساحل البحر المتوسط إلى الجنوب من تونس العاصمة. تبعد عن تونس حوالي 270 كلم، يقال لها مدينة الزيتون لأنها تضم أكبر ثروة من أشجار الزيتون في العالم (حوالي 15 مليون شجرة، وبها 600 معصرة للزيتون، ومصانع لتعليب الزيت والعشرات من المعامل لصنع الصابون. وهي في الأصل مدينة قديمة كان لها صور من الصخور والآجر، وكان بها الكثير من الحمامات والفنادق والرباطات. أنظر:

- الشامي، موسوعة المدن العربية، ص: 152.

سفن البندقية، واستمر التنديد حتى بعد التوقيع على معاهدة الصلح سنة 1206هـ/1792⁽¹⁰¹⁵⁾.

أما في طرابلس الغرب فالأوضاع هناك أسوء مما هي عليه تونس -اقتصاديا-لما خلفته المنازعات الدامية بين (البرغليين)⁽¹⁰¹⁶⁾ و(القرمانليين).

أما الجزائر فكانت علاقتها سيئة مع تونس بسبب احتضان ورعاية الجزائر لخصوم حمودة باشا، ناهيك عن علاقات العداء القديمة بين الإيالتين⁽¹⁰¹⁷⁾.

أما المغرب الأقصى فحسب ما تقدم معنا في هذا الموضوع، كانت علاقاته متينة وقوية مع تونس لاعتبارات عدة سبق الإشارة إليها، ثم إن المغرب حاول بشدة تقوية هذه العلاقات خاصة منذ عهد السلطان محمد بن عبد الله الذي باشر سياسة التقارب مع الإيالات العثمانية المجاورة لإيالة الجزائر ومنها تونس، في خطة دبلوماسية رسمها لعزل ولاية الجزائر.⁽¹⁰¹⁸⁾ وهي الخطة التي سار عليها خلفه المولى سليمان في جلب الأصدقاء، بالرغم من سياسة العزلة التي طبقها مدة توليه عرش المغرب، في محاولة منه لتجنب المغرب التدخل الأجنبي الأوربي في الشؤون الاقتصادية. ناهيك على أن أوضاع المغرب الاقتصادية كانت أحسن حالا وقتها عن باقي الأقاليم المغربية⁽¹⁰¹⁹⁾.

⁽¹⁰¹⁵⁾ بوهلال، دعوة الحق، ع3، س23، ص: 95.

⁽¹⁰¹⁶⁾ نسبة إلى علي برغل الجزيري الذي دخل طرابلس في 20 ذي الحجة من سنة 1207هـ، بعد أن تأكد لديه ضعف هذه الإيالة، وكان ذا رتبة بالجزائر، فخرج منها بذخائره وأمواله وقصد طرابلس لأجل بسط الأمن بها بعد أن وصلته أخبار تفيد قيام الفتن بها وخروج أهلها، ولما دخل طرابلس أخبر الناس أن لديه فرمانا سلطانيا يقضي بتوليته حاكما على طرابلس، وأن المدد بالعساكر العثمانية وراءه، فلم يجد القرمانليين من بد سوى الدخول في طاعته. أنظر:

- النائب الأنصاري، ص: 301-302

⁽¹⁰¹⁷⁾ بوهلال، دعوة الحق، ع3، س23، ص: 95.

⁽¹⁰¹⁸⁾ دياز، ص: 104.

⁽¹⁰¹⁹⁾ بوهلال، دعوة الحق، ع3، س23، ص: 89، ص: 95.

2.2- البعثة العسكرية التونسية:

على هذا النسق من العلاقات سارت تونس والمغرب، فتجذرت الصلة بين البلدين، وامتدت فروعها، للخلفاء من الأسرتين الحاكميتين في البلدين. فباعتلاء المولى عبد الرحمن بن هشام عرش المغرب عمل على تنظيم الجيش المغربي وفقا للتجربة العسكرية التركية، وكان أحسن من لقن هذه التجربة للمغاربة مدربون عسكريون، مكونين في المدرسة الحربية التركية قدموا من الجزائر وتونس خصيصا (1020).

وقد بلغ باي تونس أحمد باشا⁽¹⁰²¹⁾ من طرق غير رسمية أن المولى عبد الرحمن قرر إحداث تنظيمات عسكرية جديدة، وأنه حال دون تطبيقها عدم توفر الفنيين من غير الأتراك والفرنسيين الذين لا يمكن للسلطان الاعتماد عليهم نظرا لاختلاف اللغة والطباع، وأنه لذلك يفكر في أن يستقدم الفنيين الضروريين لتنفيذ برنامجه العسكري من تونس ومصر⁽¹⁰²²⁾. ولكن مرت الأيام ولم يصل تونس أي طلب في هذا الشأن من المولى عبد الرحمن، وهي التي كان حاكمها ينتظر بفارغ الصبر أن يساهم في تطوير الجيش المغربي، فقال الباي ذات مرة وقد تطرق للحديث عن هذا الموضوع لجلسائه: "تمنيت لو وقع ذلك - في الإشارة لطلب المغرب المعونة الفنية في الميدان العسكري- ف قيل له: ومتى تبعث؟ فقال: أبعث الأمير علي حسن المقرون - وكان هذا رئيس أركان جنده، ومعه من خيرة ضباط العسكر التونسي- ثم أضاف الباي قائلاً: أكا تبه بأننا بعثنا لشريف سلطنتك أشراف عساكرنا، وجرايتهم علينا، ونكتفي من فضلك بالقبول" (1023).

(1020) مصطفى الشابي، "الجيش المغربي في القرن التاسع عشر، ملاحظات أولية"، منوعات محمد حجي، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ص: 367.

(1021) ولد في 21 رمضان من سنة 1221هـ الموافق لـ 2 ديسمبر 1806م، وأمّه جارية من سبي سنييرة (جزيرة st. Prietro) في الجنوب الغربي من سردينيا جاءت صغيرة مع أمها وأختها وتربت بدار جدته لأبيه مصطفى باي. اعتنى أبوه بتربيته، وقرأ القرآن على يد الشيخ الفقيه الخطيب أبي العباس أحمد سنان، وتعلم اللغة التركية نطقاً وشيئاً من الكتابة، وكذا اللغة الإيطالية نطقاً. وكان يتزين بزي الأتراك ويتباه به، وبعد وفاة والده مصطفى باي سنة (1253هـ/ 1837م) آلت إليه ولاية الدولة، وكان أول من بايعه ابن عمه، وولي عهده، وآل بيته. ثم الوزير الكبير أبو الربيع سليمان الكاهية، ثم الوزير مصطفى صاحب الطابع، ثم بويع بيعة عامة. أنظر:

- ابن أبي الضياف، ج4، ص: 11.

(1022) سبقت الإشارة إلى هذه المراسلات التي تمت بين المولى عبد الرحمن بن هشام ومحمد علي باشا في الفصل الثاني.

(1023) أهمية علاقات الدولة العلوية بتونس في بناء وحدة المغرب العربي"، دعوة الحق، العدد 96، ص: 20. (المجلة إلكترونية).

هذا وقد أسند للضابط التونسي في البداية تقويم وضعية الجنود وتحديد مظاهر القصور التي يقف عليها. وفي هذا الصدد كتب تقريراً مفصلاً جاء فيه: "ضعف الجنود المغاربة بالقياس إلى نظرائهم في البلدان الغربية أو في الإمبراطورية العثمانية، وبالقياس أيضاً إلى ما هو مذكور في مؤلفات المهندسين المصريين المتعلقة بمسائل التدريب العسكري وقوانينه ومستلزماته" (1024).

لقد حرص الضابط التونسي على إظهار سعة إطلاعه في الميدان العسكري للمخزن، فراح يعرض بكثير من التفاصيل أنواع الحروب والاستراتيجيات والتكتيكات القائمة مستخلصاً التمايزات ولاختلافات، ومشدداً على خصوصية المتطلبات والاستعدادات، وطرق القتال المستتبطة من الحروب التي خاضها الجيش العثماني عامة والجيش المصري والجيش التونسي ضد الجيوش النظامية وضد القبائل المتمردة بصورة خاصة. وشدد الضابط في تقريره على ضرورة البدء في الإصلاح بالجيش، وتدريبه على الأسلحة الحديثة وتكوينه بطريقة جديدة تفضي إلى أحسن النتائج الممكنة في مواجهة العدو. هذا من الناحية النظرية. أما من الناحية العملية، فقد حاول الضابط إدخال صيغ القيادة المستعملة عند الجيش العثماني كما هي: (انتباه = أزروم)، (صف على اليمين = سارباربار)، (إلى الشمال = سولابرابار)، (الجبهة = ألي)، (قف = ضون)، (تقديم السلاح = أزور) ... إذن ومن خلال هذا العرض البسيط يظهر جلياً أن المخزن حاول من خلال إصلاح الجيش المغربي وتحديثه محاكاة النموذجين المصري والعثماني. (1025).

ولما خلف المولى محمد والده المولى عبد الرحمن بن هشام سار على نهج أبيه في تنظيم الجيش المغربي بالاستعانة بمدربين من تونس (1026).

وعندما توفي مصطفى باي (1253هـ/1837م) وقام مكانه ابنه المشير أبو العباس أحمد باي السابق الذكر، بادر بدوره في إرسال كتاب نعي وتعزية إلى المولى عبد الرحمن يعلمه فيه بتولي إمارة تونس، ومجدداً في ذلك عهد السلف، وملتمساً في الوقت نفسه اعتراف المغرب بتربيته على عرش تونس مكان أبيه، وطالبا من السلطان الدعاء والتأييد له. ولقد

(1024) سيمو، ص: 135.

(1025) نفس المرجع، ص: 136.

(1026) الشابي، منوعات محمد حجي، ص: 367.

أصبحت هذه المراسلات من العوائد المألوفة التي كانت تطبع العلاقات بين الأسرتين الحاكميتين في المغرب وتونس. وكان أحمد بن أبي الضياف المؤرخ التونسي، يشرف بنفسه على كتابة هذه الرسائل باعتباره كاتب الباي، من ذلك ما جاء في هذه الرسالة: "المقام الذي نتسلى عن المفقود بوجوده، ونتأسى بالأشراف آبائه وجدوده، مقام الملك المطاع، الساري ذكره في البقاع، المنعقد على فضله الإجماع، وما على الصبح ولا على الشمس قناع... الأمر جل والشمس تكبر عن الحل، أيده الله بنصر يسهل الصعاب. أما بعد: ... إن والدنا سيدي مصطفى باشا باي صار إلى عفو الله عاشر هذا الشهر المحرم (يعني شهر رجب) وأي سلك لا ينصرم. فياله من مصاب نبه عيوننا من سنة غرورها... فإننا لله وإننا إليه راجعون... والمبادرة لإعلامكم فرض أكيد، وقصد حميد، إذ الوداد بيننا نوره تألق، وثبت في صحف الخلوص مسطور... وحكم آل البيت فرض، على أهل الأرض، نسأل الله أن يجعله حبا باقيا... وأن يمدنا ببركة سلفكم الطاهر الحميد، بالإعانة والتأييد. والسلام من المعظم قدركم العالي أحمد باشا باي وفقه الله. وكتب في رجب سنة 1253هـ" (1027).

فأجابه السلطان برسالة تولى كتابتها العلامة أكنسوس صاحب كتاب الجيش العرمم (1028) مما جاء فيها: "من عبد الله تعالى المتوكل عليه المعتمص بالله أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين الشريف العلوي الحسني (كذا) أيده الله ونصره. إلى المقام الذي تتضاءل بوجوده الأرزاء، وتحصل بسلامة كماله الكفاية والإجزاء... الباشا الأجل السيد أحمد... أما بعد: حمد الله على كل حال، والصلاة والسلام على النبي والآل، فقد وصلنا كتابكم بخبر الحادث الذي روع السرب، الخطب الذي كدر الشرب، وهو خبر وفاة والدكم المبرور... فإننا لله وإننا إليه راجعون... ولقد أخذنا من التوجع للرزية، والابتهاج بما خولتم من الهبة السنية، ما يأخذ حبيب من مساهمة الأحباب، ويقاسم فيما يعرض العوارض والأسباب، إن المحبة بين الدولتين صحيحة المتون عالية الإسناد، والمودة ببيت الإيالتين مرفوعة الأحاديث عن الآباء والأجداد، قد تفتح في رياض الدول زهر، وفاح بين الأنام مسك ختامه. والله يحرس مجدكم، ويعينكم على ما قلدكم، ويعرفكم من نصره أضعاف ما عودكم، بمنه وفضله" (1029).

(1027) ابن أبي الضياف، ج4، ص ص: 13-14.

(1028) ابن زيدان، الإتحاف، ج5، 180.

(1029) ابن أبي الضياف، ج4، ص ص: 13-14.

3- تونس من خلال رحلات المغاربة:

تتدرج الرحلات المغربية الحجية ضمن العلاقات الثقافية التي تربط المغرب بالأقاليم الإسلامية الواقعة في طريق الحج ويلاحظ في موضوع الرحلة أن الذين دخلوا تونس من المغرب الأقصى، كانوا أكثر عدداً، وأوفر جمعا، ممن دخلوا المغرب الأقصى من أعلام تونس. وربما كان السبب في ذلك أن القيروان تقع في طريق المغاربة إلى حج بيت الله الحرام ورحلاتهم إلى المشرق. فكانوا يغتنمون الفرصة للمرور بها، والأخذ عن أعلامها. وليس الأمر كذلك بالنسبة لعلماء تونس، فقل من أجل ذلك الراحلون منهم إلى المغرب، فهذه قاعدة عامة لا تخص المغرب وحده، بل تشمل الأقطار التي لم تكن في طريق المشرق كالأندلس مثلاً. ومع ذلك فإن عدداً من أعلام تونس دخل المغرب الأقصى، إما لأغراض علمية بحثية، أو لغايات أخرى استفاد منها التواصل العلمي. ونظرا لكثرة الرحلات المغربية الحجية، وتعدر الإحاطة بها كلها، فإننا سنكتفي بذكر بعض منها على سبيل المثال، لا الحصر (1030).

1.3- رحلة أبو القاسم الزياني:

يعد أبو القاسم الزياني واحداً من الرحالة المغاربة القلائل الذين كانت لهم زيارات كثيرة لتونس سواء كسفير المغرب إلى إسطنبول، أو كحاج متوجه إلى البقاع المقدسة، أو هارب من المغرب على إثر النكبات التي تعرض لها على عهد اليزيد والمولى سليمان. إن أول محطة للزياني بتونس كانت عام (1200هـ/1785م) عندما أرسله السلطان محمد بن عبد الله سفيراً إلى إسطنبول، إذ كان توقفه في تونس اضطرارياً. فلما ركب البحر من الصويرة مع السفير تركي إسماعيل أفندي الذي كان في مهمة إلى المغرب، وبعد أن مر المركب بإسبانيا ثم تونس، تعطل فلجاً إلى تونس بقصد الإصلاح، فنزل الزياني عند باي تونس حمودة باشا الذي أكرمه وأحسن نزله (1031).

وعن هذا الحدث قال الزياني: "لما قضينا الغرض بمالقة، وسافرنا منها وقعت بنا فرتونة (اضطراب) في البحر، تكسر لنا فيها أحد صواري المركب فدخلنا تونس لإصلاحه وكان هذا

(1030) محمد يسف، "التواصل العلمي بين جامعة القرويين والجامعة الزيتونية بتونس، دعوة الحق، العدد 327، وزارة

الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، 1997، ص: 1. (المجلة الإلكترونية).

(1031) كنون، ذكريات مشاهير رجال المغرب، ص: 632.

الباشدور لما خرجنا من مالقة، طلب مني أن ندخل للجزائر ليدفع الكتاب الذي معه لباشا الجزائر، فلم أوافقه لأن أمير المؤمنين أوصاني على عدم دخولها. ولما تكسر لنا صاري المركب دخلنا مرسى تونس وكتبت لأميرها حمودة باشا أن يوجه لنا المعلمين لإصلاح المركب بحلق الوادي، فلما ورد عليه الكتاب، وجه أصحابه بالخييل والبغال، لركوبنا وركوب خدامنا، وأقسم علينا أن نأتيه للمدينة للضيافة، حتى يصلح المركب، فأسعفناه وتوجهنا إليه فأكرمنا، وأقمنا عشرة أيام، إلى أن أصلح ما تكسر في المركب، وركبنا ووجه لنا غنما، وبقرا وزادا، وتوجهنا من تونس". فكانت هذه الزيارة الأولى للزياني إلى تونس⁽¹⁰³²⁾.

وعلى إثر النكبة التي أصابت الزياني في المغرب سنة (1208هـ/1793م) في عهد السلطان سليمان تجدد عنده باعث السفر والرحلة، ففكر في زيارة الأستانة وبلاد المشرق مرة أخرى، متعهدا تلك الديار ومتفقدا ما له بها من أصحاب⁽¹⁰³³⁾. وكان الزياني قبل خروجه من المغرب طلب من بعض المغاربة المتوجهين لأداء فريضة الحج أن يكتروا له بيتا في تونس لينزل فيه إذا هو دخلها، حيث كانت رحلته برا عبر الجزائر، أين دخل قسنطينة ومنها إلى تونس⁽¹⁰³⁴⁾، حيث احتفل به الولاة والأعيان والعلماء في كل منها⁽¹⁰³⁵⁾.

وخلال تواجده بتونس وبالضبط بالقرب من جامع الزيتونة أين كان البيت الذي اكتراه، طلب الزياني مقابلة صديق له يدعى الوكيل الحاج علي الجزيري، فقد كان الأخير بحريا يسافر إلى العرائش عندما كان الزياني واليا عليها، أيام السلطان محمد بن عبد الله، وكيف صار هذا البحري خليفة لباشا الجزائر بتونس، وحتى يتمكن الزياني من ملاقة الحاج الجزيري، قال أن لديه مكاتيب من باشا الجزائر إلى حمودة باشا، عندها توجه الحاج الجزيري إلى الزياني وتعرف عليه وعلى ما آل إليه فأكرمه وأنزله في داره حتى خرج من تونس نحو المشرق⁽¹⁰³⁶⁾.

يقول الزياني: "وعلى عشرة أيام من قسنطينة بلغنا تونس فبتنا قريبا منها على فرسخ... فتقدمت لأنظر المنزل الذي كتبت عليه، فدخلت على باب المدينة وسرت في سوق وأنا

(1032) الزياني، الترجمانة، ص: 96.

(1033) كنون، ذكريات مشاهير رجال المغرب، ص: 632.

(1034) الزياني، الترجمانة، ص: 164.

(1035) كنون، ذكريات مشاهير رجال المغرب، ص: 632.

(1036) الزياني، الترجمانة، ص: 164.

أسأل عن جامع الزيتونة، فبينما أنا أسير في سوق إذ رأيت أحد الذين كتبت لهم على المنزل ولما رأيته اختفى في وسط المارة وهرب مني، فعدت أسأل عن بيت الوكيل الحاج الجزيري - وكان هذا الرجل صديقاً للزياني ذو منصب وذي جاه، إذ كان يتردد على حمودة باشا في قصره - يقول عرفته بحريا مع الرئيس صالح وهو شاب صغير إذ كان يقدم العرائش وأنا وال بهاء، إذ تزوج بسلا وتوجه للعيش في تونس، ولما دخلت تونس في سفارتي لإسطنبول عام (1200هـ / 1793م) وجدته بها رئيس مركب، وكان خليفة باشا الجزائر بتونس، وأدرك منصبا عظيما ومالا كثيرا وعقارا في أقرب مدة، فلما تراءينا خجل مني وخجلت منه... لأنني كنت أعرفه على حاله ويعرفني على حالي، فتبدل الأمر وانعكس الحكم" (1037).

وبعد أن استقبل الجزيري الزياني بأحر الترحاب، وهب له الدار ليقيم بها ومن معه من أهل فاس، طلب الجزيري من الزياني ضرورة مقابلة حاكم تونس حمودة باشا، لينظر في أمره، لكن الزياني رفض ذلك، وقال: "أما هذه فلا، ومالي وله، وما أقول له، فيما مضى كنت سفيراً من سلطان المغرب إلى سلطان المشرق، ولما دخلنا بلاده بعث لنا الخيل واقسم علينا أن نكون في ضيافته ونستريح ببلاده إلى أن نقضي أغراضنا، والآن سفير من؟ وكيف أقول؟ أنا فلان الذي عندك وقت كذا، لا أفعل هذا ولا أرتكبه إنما أنا رجل حاج أريد السفر في البحر ويكفيينا صنيعةك وضيافتك، ومن تمام إكرامك ألا تحدثه بهذا" (1038).

وبعد أن قضى غرضه في المشرق وعزم على العودة إلى الديار، وقع للزياني من الكروب الأمر الجلل، إذ لما عول على السفر وكان بأزمير اشترى بما معه من المال بضاعة من الحرير، فشحنها في مركب متوجه إلى الجزائر وتخلف هو لأن المركب امتلئ بالجند، فذهب في مركب آخر إلى تونس حيث وضعوا في الكرنينة الشنعا (الحجر الصحي) الممنوعة عرفاً وشرعاً، - كما قال الزياني - وكانت له جارية على وشك الولادة، فأشفق من حالها وكتب يتشفع إلى بعضهم فلم يجد شيئاً، ومن الليلة الموالية جاء الطلق للجارية فكان

(1037) نفس المصدر، ص ص: 164-165.

(1038) نفس المصدر، ص ص: 164-165.

هو القابلة وولد له ابن سماه عبد السلام، ثم أنشأ قصيدة في ذم هذه الكرنتينة ومن وضعها⁽¹⁰³⁹⁾.

يقول الزياني: "ولما بلغنا تونس الخضراء، ومعنا جماعة من الحجاج الفقراء وفتيان أنجاد من الأتراك، ونزلنا بحلق الوادي، ناداهم منادي من البر: أبعادوا من البر ففيكم الوباء ومعكم الشر، فرجع الناس إلى المركب تركبهم الحيرة والخوف." وكان الزياني قد وجه مع التجار كتاب إلى أحد معارفه (الحاج علي الجزيري)، لكنه لسوء حظه لم يكن الرجل وقتها بتونس، فقد انتقل إلى الجزائر في بعض شؤونه، ومع ذلك انتظر الزياني ومن معه من الركاب ليومين حتى جاءهم الإذن بالنزول إلى البر وبالذات إلى الحجر الصحي. وعلى ما يبدو من كلام الزياني فإن حجاجا كانوا قد دخلوا تونس ومعهم الوباء، لذلك خشي أمراء المدينة أن يهلك الناس، فأقاموا الحجر الصحي حتى لا يختلط الحجاج بغيرهم من سكان المدينة، حتى يزول الوباء⁽¹⁰⁴⁰⁾.

ولاشك أن الزياني كان يتذكر أيام الصولة في رحلته السابقة حين وقف هو وأصحابه بسلاحهم يهددون رئيس المركب ويصرفونه عن الدخول إلى ميناء مرسيليا خوفا من الكرنتينة، ويتمنى لو تأتي له أن يفعل مثل ذلك، وحتى ينتقم من هؤلاء الولاة القساة، ولكن حيل بين العير والنزوان، وقد كبر الرحالة وأنهكت قواه فلم يبق له إلى الرجوع إلى سلاح اللسان والطعن به بدل الطعن باللسان⁽¹⁰⁴¹⁾.

ويروي الزياني ما حدث له من الأمور الشنيعة في تونس، وكيف أن الأتراك بها طلبوا من حاكمها الخلاص دون غيرهم من الناس، فأمر الحاكم بإخراجهم صباحا، ولقد ألف الزياني قصيدة في ما رآه من وباء وكذا في هجاء حاكم المدينة إذ قال:

من كان يسعى لخلق الله في الضرر	ويظهر الخير والإحسان بالكذب
ومن يكن يفعل السوء عادته	يعامل الناس كابن عياد رجب
ذاك الذي قد طغى واخترع البدعا	بشره بالهم والأدبار والكرب
يلقى أبا لـهـب في شرر لـهـب	وزوجه مثله حمالة الحطب

⁽¹⁰³⁹⁾ كنون، ذكريات مشاهير رجال المغرب، ص ص: 638-639.

⁽¹⁰⁴⁰⁾ الزياني، الترجمانة، ص ص: 365-363.

⁽¹⁰⁴¹⁾ كنون، ذكريات مشاهير رجال المغرب، ص: 639.

حاشى لمثله أن يعزي له كرم أو حسب أو وفا ينسب العرب
سن الكرنتينة الشنعا ببدة في بلدة هي دار العلم والأدب
يحسبها بصميم الجهل منجية يقي بها النفس من سقم ومن عطب
ينسبها أمير الوقت مسخرة وذلك منه افترا حاشاه من شغب
إلى قوله:

آه على تونس الخضرا يسود بها معتزلي بلا دين ولا حسب
بضرب من وباء غير مخطئة تأتيك في القلب أو في صفحة الجنب (1042).
ولما انتهت مدة الحجر الصحي ودخل الزباني المدينة وجد الوباء لا زال قائما، فمنع
من الدخول، فاستنكر الزباني ذلك لجهل القوم، وعندها اكترى الزباني دارا عن طريق صاحب
له يدعى أبو ثور وبجواره، ثم ما لبث أن حدث الجفاء بينهما بسب قامة المركب التي كان
الوالي اكتراها للزباني (1043).

وفي تونس كان الزباني في غاية الاحتياج لأمر يقضي بها حوائج سفره، ولم يكن معه
من المال ما يكفي عدا مائة درهم، واعتقد أنه سيصيب المال من دين تركه عند صاحب له
في تونس يدعى أبو هلال عندما سافر إلى الحجاز في الرحلة الثانية، وكان أبو هلال هذا
لما بحث عنه الزباني قد رجع إلى فاس، فبقى الزباني متحيرا، إلى أن جاءه الفرج (1044).
وعند نزوله بتونس ماتت الجارية وتركت الولد فلم يجد الزباني من يرضعه، إلى أن
جاء رجل مغربي مات له صبي وبقيت امرأته بدون رضيع، فدفعه لها وسافر إلى قسنطينة.
أما بضاعة الزباني فقد وصلت بعد سبعة أشهر، بعد أن استولى قراصنة الجزائر على
المركب، ولم يفلت المركب من قبضتهم إلا بعد أن ادعى صاحب المركب أنه تونسي وكانت
تونس وقتها في صلح مع الجزائر، فأحرز الزباني بذلك بضاعته، فانتعش بعد الانتكاس
وعول على الإقامة بتلمسان، وكتب لأهله بفاس ليأتوا إليها، فمكث بتلمسان حتى أذن له
المولى سليمان بالعودة إلى المغرب (1045).

(1042) الزباني، الترجمانة، ص ص: 363-365.

(1043) نفس المصدر، ص: 371.

(1044) نفس المصدر، ص: 371.

(1045) كنون، ذكريات مشاهير رجال المغرب، ص: 639.

2.3- الرحلة الناصرية لمحمد بن عبد السلام الناصري (ت 1239هـ/1823م):

تعد الرحلة الناصرية الكبرى لمحمد بن عبد السلام الناصري من أهم ما وضعه المغاربة في فن الرحلة، وهي تصنف ضمن كتب الرحلات الحجازية الهامة، لتوفرها على معطيات إخبارية وبيوغرافية واجتماعية واقتصادية وثقافية وذهنية، قلما نجدها في الرحلات الأخرى. كما أنها تعد تنويجا لرحلات الناصريين (شيوخ الزاوية الناصرية) إلى المشرق منذ (1070هـ/1659-1660م)، خاصة وأنها الأخيرة من نوعها⁽¹⁰⁴⁶⁾.

تتزرع رحلة الناصري بالكثير من المعلومات والاستطرادات حول المناطق والمجتمعات التي مر بها صاحب الرحلة في طريقه، الشيء الذي جعلها تسهم في جمع المعرفة والمحافظة عليها، خاصة وأن الإجازات وردت منسوبة إلى أصحابها كما أنها استوعبت الكثير من تراجم العديد من العلماء وأخبار التصوف والمتصوفة. فقد أراد صاحبها أن تكون كما وصفها، "ديوان علم وسمر"⁽¹⁰⁴⁷⁾.

فقد عرف عن صاحبها شغفه بالكتب فهو "رحالة لا يبالي بالتعب" يقول: "لقد كانت وجهتي للحرمين مرتين، ولا حرمتنا الله من العود، أبحث كل البحث عن الكتب بالحرمين ومصر وطرابلس وتونس..." فكان يتردد في أسواقها بحثا عن أنفس الكتب، وبذل على ذلك عشرات المخطوطات التي وقف عليها، أو اشتراها أو استنسخها أو وصفها أو ذكرها في هذه الرحلة، حتى أنه خصص فصلا كاملا للحديث عن الكتب التي شاهدها بمكة، عنوانه بـ "فصل في ذكر ما شاهدت بمكة من الكتب مما لم أكن رأيته إلا نادرا في خصوص خزانتي"⁽¹⁰⁴⁸⁾.

وعن أخبار تونس في رحلة ابن عبد السلام الناصري، فإن الرحلة من الرحلات القليلة التي تناولت أخبار هذا البلد المغاربي في العصر الحديث. ولا تحدثنا المصادر التاريخية المغربية المتعلقة بالرحلة في الفترة الحديثة خاصة القرن (12هـ/18م) والقرن الذي يليه عن تاريخ تونس، وعلاقة المغاربة بسكان هذا البلد، بالرغم من استمرار الرحلة المغربية الحجازية إلى نهاية القرن (13هـ/19م)، تشق طريقها من وإلى البقاع المقدسة مروراً بهذا الإقليم. وكأن

(1046) الناصري، الرحلة الناصرية، ج1، ص ص: 5-6.

(1047) نفس المصدر، ج1، ص: 7.

(1048) نفس المصدر، ج1، ص: 12.

تونس في هذه الفترة صارت تمثل عائقا أمام تقدم ركب الحج المغربي، فلا نجد ذكر أخبارها إلا في أسطر معدودات عند بعض الرحالة المغاربة، بصرف النظر عن العلاقة المتينة التي كانت بين تونس والمغرب على المستوى الرسمي، وبصرف النظر كذلك عن كون تونس ملتقى تجاري تأتي إليه قوافل التجار وغيرهم من الشمال قبل الجنوب. في حين أن طرابلس الغرب نالت حضاها الوافر في كتابات الرحالة المغاربة على مر الأزمنة. فهذا ابن الطيب الشرقي الرحالة المغربي مثلا، الذي بلغت شهرته الآفاق في المشرق قبل المغرب لا يكاد يذكر تونس في رحلته إلا قليلا. فقد ذكر أن ركب الحج الذي سافر فيه، توقف في الذهاب والإياب بمدينة تونسييتين هما توزر وقابس، ومجموع ما أقامه ابن الطيب بالمدينة الأولى لا يزيد عن سبعة أيام مقسمة بين الذهاب والإياب. أما المدينة الثانية فلم يدخلها ابن الطيب إلا في مرحلة الإياب، ولم تزد إقامته فيها عن يوم وليلة، إذ كانت هذه المدة حسب ما ذكر كافية للاتصال بأهل العلم من شيوخ وطلاب. أجرى خلالها المذكرات والمباحثات في مسائل مختلفة من الفنون العلمية، أكثرها في الفقه وعلم الكلام⁽¹⁰⁴⁹⁾.

فهل عدم ذكر الرحالة المغاربة لأخبار تونس في هذه الفترة بشيء من التفصيل راجع لتقصير منهم، مع العلم أن الرحالة لا يترك صغيرة ولا كبيرة إلا ويذكرها في رحلته؟ أم أن تونس في هذه الفترة باتت تشكل خطرا على أمن وسلامة ركب الحج المغربي، فكان الرحالة يجتنبونها ويتجنبون الإقامة، حفاظا عن الأنفس والأموال؟ ولخطورة سكانها من قبائل البدو والأعراب وغيرهم، فلاشك أن هذه الخطورة قد ذكرها الرحالة عند حديثهم عن الأقاليم المختلفة في المغرب والمشرق مروراً بالجزائر وطرابلس ومصر فالحجاز؟ ولماذا انفرد شيوخ الزاوية الناصرية أكثر من غيرهم من الرحالة المغاربة في ذكر أخبار تونس وعلاقة الركب بسكانها؟ هل هذا مرده إلى رغبة أصحاب الزاوية الناصرية في تأسيس فروع لهم عبر مختلف المحطات التي كان ركب الحج يمر بها ومنها تونس، مع العلم أن الدور الذي عرفت به الزاوية الناصرية كان دورا علميا أكثر منه سياسيا، فكان ذلك في نظرهم واجب، فرض عليهم الاهتمام بفروع الزاوية الناصرية ومراجعة الطلاب والمريدين كلما سنحت الفرصة، لاسيما مناسبة الحج؟ أم أنه تقليد دأب عليه أصحاب الزاوية الناصرية أبا عن جد في رحلاتهم؟ وهل أوجد الناصريون لأنفسهم بتونس مكانة جعلتهم أكثر الرحالة المغاربة تعلقا بهذا الإقليم، فلا

(1049) الودغيري، ص: 90.

تكاد تجد رحالة من علماء الزاوية الناصرية إلا ويتحدث في رحلته عن تونس، مشيراً إلى ذكر أخبارها في رحلة من سبقه من شيوخ الزاوية، ومنها رحلة ابن عبد السلام الناصري؟ يعد شيوخ الزاوية الناصرية من أكثر المغاربة الذين تركوا بصماتهم وآثارهم في تونس. فعلى سبيل المثال، كان من أقدم المدن التي وصلتها الطريقة الناصرية، تونس ومدينة صفاقس، إذ انتقلت إليهما عن طريق المدعو علي النوري، الذي أخذ الورد عن الشيخ محمد بن ناصر بالقاهرة عام (1076هـ/1665م)⁽¹⁰⁵⁰⁾. وما رحلة ابن عبد السلام الناصري إلا حلقة ضمن سلسلة الرحلات التي قام بها شيوخ الزاوية الناصرية.

لقد أسهب ابن عبد السلام الناصري في ذكر أخبار تونس من خلال وصف القرى والمدن التي زارها مشيداً بجمالها وطبيعتها، وبالأمان والهدوء اللذين يسودانها. يقول صاحب الرحلة: "جميع إيالة تونس في غاية ما يكون من الأمان من شن الغارات، خوفاً من الولاية"⁽¹⁰⁵¹⁾. فهو في وصفه هذا ينقل لنا صورة مخالفة تماماً عما نقله الرحالة المغاربة السابقون، أمثال ابن بطوطة والعبدري⁽¹⁰⁵²⁾، فهي كما قال الأخير: "لا يسلكها إلا مخاطر، ولا تعدم عن عربانها إيلام خاطر، قد استوى لديهم الصالح والطالح، واتفق في مذاقهم لكفرهم كل عذب ومالح، اتخذوا أخذ الحاج خلقاً وديناً، واعتقدوا إهلاكه ملة وديناً". "وأما النهب والسرقة والاختلاس فاحفظ مالك، وما عليك من جميع الناس في جميع المواضع، وخصوصاً

(1050) عمالك، ص: 95.

(1051) الناصري، الرحلة الناصرية، ج1، ص: 260.

(1052) هو محمد بن محمد علي العبدري، وتشير المصادر أنه ينحدر من صلب عبد الدار بن قصي القرشي الذي وحد شمل قبيلته قريش، وأصل أسرته من بلنسية، ولكنها أقامت بالمغرب في طفولة العبدري أو صباه. أما سيرة العبدري فلا نكاد نعرف عنها شيئاً. وقد سافر من مدينة الصويرة في المغرب، تاركاً أسرته مع قبيلة حاحة، فسافر مع ابنه لتأدية مناسك الحج، وكانت الرحلة برا سنة 688هـ/1289م. وفي البداية سارت الرحلة ببطء وتوقف الرحالة خلالها وقفات طويلة بالمدن الكبرى. ومن مصر رافق قافلة الحج، وأقام بعد الحج فترة في فلسطين، ثم قفل معرجاً على الإسكندرية، وأثناء رحلة العودة إلى الديار، مرّ بتلمسان وفاس ومكناس حتى بلغ أزمور على المحيط، وهناك مكث بعض الوقت ريثما تلتحق به أسرته، وقد سلك طريق البر ذهاباً وإياباً تحاشياً لمخاطر البحر آنذاك، وقد بدأ تدوين وصف رحلته وهو بتلمسان، وأسهب بشكل خاص في وصف المدن في أقطار المغرب. أنظر:

- عبد الرحمن حميدة، أعلام الجغرافيين العرب ومقتطفات من آثارهم، ط1، دار الفكر، دمشق، 1995، ص: 496.

توزر، فإنها أكثر بلاد الله سرقة وخطفا، يسرقون بالليل ويخطفون بالنهار" - كما قال ابن بطوطة⁽¹⁰⁵³⁾.

ومما قاله أبو مدين الدرعي⁽¹⁰⁵⁴⁾ أحد شيوخ الزاوية الناصرية، فيما بعد، واصفا الأمر نفسه عن حامة مطماطة التي كانت من أكثر جهات البلاد التونسية التي شاع بين سكانها تعاطي السرقة والنهب، حتى أن كثيرا من الحجاج قد اشتبكوا معهم في معارك استعمل فيها الطرفان الأسلحة النارية: "ولما صلينا العشاء الأخيرة، تداعت علينا اللصوص تداعي الذئاب، وتخطف اختطاف الثعالب. فلم نزل معهم بالبارود والصياح حتى الصباح⁽¹⁰⁵⁵⁾".

غير أن تلك الحال قد تغيرت بعد تأسيس فرع للزاوية الناصرية هناك، فترجع أولئك الأعراب عن إذاية الحجاج، وأضحى مقدمها يتصدى لقطاع الطرق بالموعظة، والنهي عن تلك الأعمال الخبيثة، وقد ذكر ابن عبد السلام أن عقب ذلك المقدم لا يزالون متمسكين بالطريقة الناصرية، ماضين على سنن الناصريين، حتى عام (1196هـ/1781م)⁽¹⁰⁵⁶⁾.

لم يمنع هذا من وجود بعض الأعراب ممن ألفوا خطف ونهب الحجاج أيام حج صاحب الرحلة على حد قوله: "وبنو سعد تطوف بنا طواف الحبيب بالبيت، وهم حي يقال لهم ابن زيد، وهم من أشد الأعراب على الحاج قديما وحديثا، فقد وقعوا بعدنا على الركب الفاسي، ونهبوه أتم النهب، ووقع بين الفريقين قتلى وجرحى، ثم إن الله تعالى قيض لهم في غيبتهم أمير تونس فأخذهم على فعلتهم وعاقبهم بالأموال، وأخذ منهم جميع ما نهبوا لأربابه، جزا الله تعالى خيرا أمراء الترك"⁽¹⁰⁵⁷⁾.

ومما أثار اهتمام الناصري في تونس الأوضاع الاقتصادية في بعض قراها، من ذلك ما جاء في وصفه لمدينة توزر وعناية أهاليها بصفة خاصة بالزراعة وطرق توزيع المياه للرعي

(1053) نفس المصدر، ص: 260-261.

(1054) أبي مدين محمد بن أحمد الصغير السوسي الروداني الأصل الدرعي المتوفى سنة (1157هـ/1744م). سافر للحج مرتين: إحداها سنة (1152هـ/1740م)، وعنها ألف رحلته الحجازية. أنظر:

- التازي، رحلة الرحلات، ص: 311.

(1055) عمالك، ص: 94.

(1056) نفس المرجع، ص: 94.

(1057) الناصري، الرحلة الناصرية، ج1، ص: 270.

والسقي: "بعد اجتماع المياه بموضع يسمى وادي الجمال تنقسم على ستة جداول ويتشعب من تلك الجداول سواقي لا تحصى كثرة، تجري في قنوات مبنية من الصخر على قسمة عادلة لا يزيد بعضها على بعض شيئا، كل ساقية سعة شبرين ويلزم كل من يسقي منها أربعة أقراص مثقال في العام، ويلزم من يسقي نهارا أربعة أسداس المثقال في العام. ويعمد الذي يكون له دور السقي إلى قادوس، والقادوس هي عبارة عن آنية تسع اللتر وبها ثقب صغير، يترك أو يعلق، والماء ينبع فيه وخلال الربع ساعة يكون اللتر من الماء قد نفذ ثم يملأ من جديد، ويعتمد الذي يكون له دور السقي إلى سقي حائطه أو بستانه من تلك الجداول ... وقد علموا أن سقي اليوم الكامل هو قدما⁽¹⁰⁵⁸⁾.

وتوزر... ثمرها كثير يعم بلاد إفريقية، وبها الأترج⁽¹⁰⁵⁹⁾ الكبير الطيب، والبقول بها موجودة متناهية في اللذة والجودة، وسعر طعامها غال في أغلب الأوقات، لأنه يجلب إليها، والحنطة والشعير بها قليلان...⁽¹⁰⁶⁰⁾ وأما الآبار ففيها العذب البارد وغيره، وأما الخراج اليوم فبأضعاف مضاعفة ... ولقد أضر بهم جور الولاة، حتى كاد الخراب يستولي عليها، بالنسبة لما سلف، لضعف أهلها بالجبايات الظلمية"⁽¹⁰⁶¹⁾.

وبعد أن أطل ابن عبد السلام في وصف الأوضاع الاقتصادية للكثير من مدن وقرى تونس يستطرد في الحديث عن الأوضاع الاجتماعية وأشار بوجه خاص إلى الأمراض والأوبئة التي تشتهر بها بعض المدن والقرى التونسية في إشارة منه إلى مناخ وطبيعة

⁽¹⁰⁵⁸⁾ الناصري، الرحلة الناصرية، ج1، ص:247.

⁽¹⁰⁵⁹⁾ ويقال له الأترنج بالنون أيضا. وهو جنس شجر من فصيلة الحوامض (البرتقالية) وهو ناعم الأغصان والورق والثمر، وثمره كبير كالليمون، ذهبي اللون، زكي الرائحة، حامض الماء، ينبت في البلاد الحارة، ويعرف كذلك باسم "ترنج" بضم التاء، و"كباد"، وفي مصر والعراق "أترج"، كما يسمى "تفاح العجم"، و"تفاح ماهي" و"ليمون اليهود". فوائده الطبية كثيرة منها: أن زهره مسكن للنفخ وكذلك ورقه، وماؤه مزيل لصفرة العين، ومذهب للكلف، يقوي المعدة والأحشاء، ينفع من البواسير، يقاوم السموم، ويطيب نكهة الفم... وقد ورد الأترج في الطب النبوي وفي أحاديث النبي عليه الصلاة والسلام، من ذلك حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في وصفه للمؤمن قارئ القرآن بالأترج: "مَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الْأُتْرَجَةِ رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا طَيِّبٌ..." الحديث في صحيح البخاري.

أنظر: - ابن الوردي، منافع النبات والثمار والبقول والفواكه والخضروات والرياحين، تحقيق وتعليق، د.ط، محمد سيد

الرفاعي، دار الكتاب العربي، دمشق، د.ت، ص:78.

⁽¹⁰⁶⁰⁾ الناصري، الرحلة الناصرية، ج1، ص:246.

⁽¹⁰⁶¹⁾ نفس المصدر، ص:251.

المنطقة من ذلك قوله في وصف مدينة قابس⁽¹⁰⁶²⁾: "ومن المكاره التي حفت به جنة قابس، ما يتعاهدها من الوباء، وينتاب أهلها، وسبب ذلك فيما ذكره أهله، كثرة شجرة الدفلى بها، فيكسب الماء منها لدى جريه مرارة تضر ببدن ساكنيها كثيرا، ولذلك لا تجد وجوه كثير من أهلها إلا مصفرة. وعلى العكس من ذلك تماما فبلدة حامة مطماطة في أكثر أوقاتها سالمة من الوباء، لسخونة مائها الذي ينبع من عين حارة يستشفى بها المرضى، وينتفع بها القوم"⁽¹⁰⁶³⁾.

وما أثار انتباه صاحب الرحلة أن الكثير من القرى في تونس اندثر بها العلم، وقلت بها دواوينه فعند حديثه عن مدينة قابس يقول: "وأما العلم عندهم فقد ركبت ريحه، الجهل عندهم لا يؤسى جريحه، عام لا يتطرق إليه الخصوص، ظاهر جاء على وفق النصوص، وهذا حكم استقدته من العيان، ونتيجة الاختبار والامتحان، نعم بها أحد الصلحاء كالشجرة البيضاء في اللمة السوداء، يستمطر بهم المزن إذا لم يسبل سبله، النادر لا حكم له." ويروي ابن عبد السلام كيف أنه حضر مرة بإحدى جوامع قابس عند شيخ يشار إليه بالبنان، ويعتمد عليه في نوازل المسائل، وحوله جماعة من أعيان المدينة، وكيف أن هذا الشيخ اختلطت عليه أوجه الصواب من الخطأ: "باب استبهم عليه وجه الصواب، فخطبوا فيه خبط عشواء، وأتوا بكل شهواء"⁽¹⁰⁶⁴⁾. ثم أضاف قائلا: "وحضرنا صلاة الجمعة... مؤخرين الجمعة على العادة الذميمة إلى العصر... فخالف الخطيب السنة في تطويلها وتقصير الصلاة"⁽¹⁰⁶⁵⁾، وفي الوقوف الزائد... فشن الخطبة بالأحاديث الضعيفة"⁽¹⁰⁶⁶⁾.

يقول صاحب الرحلة هذا الكلام بالرغم من أنه كانت له لقاءات عديدة مع طلبة العلم وفقهاء البلد، كان خلالها يدارسهم في مسائل العلوم المختلفة من علوم الشريعة والنحو

(1062) مدينة تونسبة على خليج قابس، في الجنوب الشرقي من تونس، يطلق على قابس اسم بوابة البحر والصحراء، كما يطلق عليها اسم واحة الصحراء، فهي تقع في منبسط من أشجار النخيل، فيها سبع واحات، وحقول تنتج التمر والمشمش والعنب والليمون والرمان والزيتون والموز. وأهم ما في قابس ميناؤها التجاري، وكذا ميناء صيد سمك التونة. أنظر: -الشامي، موسوعة المدن العربية، ص: 153.

(1063) الناصري، الرحلة الناصرية، ج1، ص ص: 273-281.

(1064) نفس المصدر، ص: 283.

(1065) لحديث عمار τ مرفوعا: «إِنَّ طُولَ صَلَاةِ الرَّجُلِ وَقِصْرَ خُطْبَتِهِ مَنَّةٌ مِنْ فَهْمِهِ؛ فَأَطِيلُوا الصَّلَاةَ، وَأَقْصِرُوا الْخُطْبَةَ»

[رواه مسلم]. وتكون الخطبة الثانية أقصر من الأولى.

(1066) الناصري، الرحلة الناصرية، ج1، ص: 301.

والأدب والتاريخ: "فمن الذين اجتمعت بهم من طلبة البلد... الفقيه أبو عبد الله محمد بن أحمد بن منصور النجفي نسبة لبلده نفزاوة⁽¹⁰⁶⁷⁾... له ممارسة بالفقه والنحو... أدخلنا بيته وبالغ في إكرامنا... وأوقفنا على ما لديه من الكتب المتداولة وغيرها، كسلم السعادة للشيخ عبد الصادق بن عيسى، وشروح أبي عبد الله محمد بن علي الخروبي لنظم الشيخ زروق في عيوب النفس في نحو خمسة عشر كراسا، وكذا منظومة الأخضري في التوقيت الموسومة بالسراج وشروحها للشيخ سحنون بن عثمان..."⁽¹⁰⁶⁸⁾.

كما اجتمع ابن عبد السلام الناصري بالقاضي محمد بن عبيد وأخيه سيدي عبيد: "وكانت لي به معرفة أيام غربتي بفاس، يجمعني وإياه درس شيخنا أبي عبد الله محمد بن الحسن البناء، وأوقفني على رحلة صغيرة حسنة غالبها سجع للأديب اللذوعي الشريف أبي العباس أحمد بن عبد القادر القادري سماها: "تسمة الآس في حجة سيدنا أبي العباس"⁽¹⁰⁶⁹⁾. ومن الذين اجتمع بهم أيضا الشيخ الحاج عبد الرحمن أبي القطف، ومحمد بن محمد بن منصور المولود بتونس، وكان والده عالما يدرس بها⁽¹⁰⁷⁰⁾.

ولعل أثر شيوخ الزاوية الناصرية وتعاليمهم بدت واضحة في الكثير من سكان تونس، فقد روى ابن عبد السلام كيف أن رجالا من تونس تتلمذوا على أيدي شيوخ الزاوية الناصرية لما كان ركب الحج الناصري يمر بأرضهم ذهابا أو إيابا من الحجاز، فكانوا فيما بعد بمثابة العضد الذي اعتمد عليه الركب الناصري خاصة والركب المغربي عامة كلما مر بتونس،

⁽¹⁰⁶⁷⁾ من المدن الليبية القديمة، تقع بين قابس وقسطيلة وتبعد عن ساحل البحر بـ 150 كلم، تتكون من ثلاثة قصور، ذات تمر جيد غير أن ترابها لا يصلح لزراعة الحبوب. وكلمة نفزاوة في الأصل كلمة بربرية وهي اسم لقبيلة نفزاوة فرع من لواتة التي تنتمي إلى مجموعة مادغيس. أنظر:

- كريبخال، ج3، ص: 172. وكذلك: - كمالي، ص: 19.

⁽¹⁰⁶⁸⁾ الناصري، الرحلة الناصرية، ج1، ص ص: 252-253.

⁽¹⁰⁶⁹⁾ وهي رحلة حجازية سجل فيها أحمد القادري أحداث رحلة شيخه أبي العباس أحمد ابن مَعَن إلى الحج عام (1110هـ/1698م). وكان القادري قبل هذا التاريخ سبق له وأن حج عام (1083هـ/1672م) واستفاد أثناء إقامته بمصر من أجازة بعض العلماء له، فقرأ عليهم واستفاد منهم. والطريف في الرحلة أن صاحبها لا يتحدث عن نفسه، ولكن يغطي رحلة أستاذه، فهو يتحدث عنه كشيخ عظيم في قومه وعند مريديه، إذ نلاحظ في أسلوب القادري نوعا من أدب السلوك مع من نجلهم ونكبرهم، وهو من ناحية أخرى يؤدي صورة عن تمسك المالكية بمذهبهم في أداء بعض مناسك الحج من غير أن يخالفوا زملاءهم الحنفية في باقي الممارسات الأخرى. أنظر:

- التازي، رحلة الرحلات، ص: 265. وكذلك: - الناصري، الرحلة الناصرية، ج1، ص ص: 252-253.

⁽¹⁰⁷⁰⁾ نفس المصدر، ص: 260.

لاسيما ما تعلق بالزاد والإقامة والأمن لصعوبة المنطقة، ولعل هذا ما لمسَه ابن عبد السلام في رحلته حين ذكر أن ركب الحج الذي سافر فيه كان في ضيافة عدد من هؤلاء الرجال وأبنائهم حتى خرج الركب من تونس، مشيدا بدور الزاوية الناصرية في ذلك، ومؤكدا على تمسك هؤلاء القوم بتعاليم الزاوية الناصرية، وتلقينهم إياها لأولادهم. يقول صاحب الرحلة: "وفي بلدة يقال لها أدقاش، أولاد الحاج صالح أحمد بن علي، وهم: الحاج عمر والحاج خليفة، والحاج علي والحاج صالح والحاج إبراهيم والحاج بلقاسم، لهم محبة تامة في الركب النبوي، يطعمونه كلما مر بهم، عادة من أسلافهم، بل لهم في ذلك أحباس، أدخلونا دارهم في جماعة وافرة من الركب، فأطعمونا قصعة من كسكس ولحم، ما رأيت في عمري أعظم منها، وكأنها معدة لذلك، وأردفوها بفواكه من عنب وغيره... وبالقرب منهم زاوية المحب الضافي والزلال الصافي، سيدي مهذب آخذ العهد الناصري على عمنا الشيخ أبي يعقوب يوسف بن محمد بن ناصر، وحج معه لما مر به، وهو من ذرية الولي الصالح سيدي عبد الله أبو رويس، وهو والله متمسك بدينه، فار بنفسه إلى الله متوكل عليه. بنى بقرب داره مدرسة للطلبة، يموّنهم من عنده مع قلة ذات يده، ويخدم بنفسه وأولاده عليهم، ويظل لديهم يعلمهم. أدخلنا بيته ومدرسته، وبالح في إكرامنا" (1071).

وفي حامة مطماطة زاوية الولي الصالح عبد الله المجذوب تلميذ الشيخ أبي العباس ابن ناصر، أصله من القيروان، وهو خليفة الشيخ في تلقين الناس تعاليم الزاوية الناصرية بهذه البلدة، وكان سكانها قبل مقدم هذا الأخير إليها يشكلون خطرا وضررا على الحجاج بالسرقة والنهب والخطف، وبعد أن تمكنت منهم تعاليم الناصريين صاروا أكثر الناس حبا للحجاج ولفعل الخير، فقد مكث ابن عبد السلام عند ابن أخ عبد الله المجذوب المدعو سيدي سعيد، الذي أحسن ضيافة الركب: "وبالح في ودنا وإكرامنا منذ عرفناه إلى أن لقن الورد في رجعتنا هذه (كذا) ولا زالت ذريته الآن محترمة عند العامة، باق فيهم الدين وقراءة القرآن والمحبة التامة في الشيخ ابن ناصر، اجتمعنا بأولاده وبصاحب الزاوية سيدي أبي القاسم بن محمد بن عبد الله المجذوب، أدخلنا داره وهش وبش... وبقيت في أولاده إمامتنا إلى الآن، والذي تولها في الحال سيدي محمد المذكور" (1072).

(1071) نفس المصدر، ص: 263.

(1072) نفس المصدر، ص ص: 271-272.

ويستمر الدور الريادي لشيخ الزاوية الناصرية حتى أيام رحلة ابن عبد السلام، فقد تمكن الراكب من إخماد نار فتنة اندلعت شرارتها بين عدد من قبائل الأعراب بإحدى بوادي قابس، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على الاحترام الكبير الذي باتت تكنه هذه القبائل لراكب الحج الناصري على الخصوص، وعلى المكانة الكبيرة التي يحضى بها شيخ الزاوية الناصرية في تونس. يقول ابن عبد السلام: "وأقمنا بالبلد يومين، ووجدناها غالية في فتنة بينهم على عاداتهم، وافترقت أعراب بواديهم: ابن زيد والحزم وغيرهم، فتحزب مع كل فريق حلفاؤه منهم. فلما نزل الراكب عقدوا مهادنة، فلم نر سارقا ولا مختلسا ولا محاربا... وقامت بين الفرق مع الراكب سوق في المحتاج لكل" (1073).

وبقابس كانت لابن عبد السلام لقاءات وجلسات علمية مع عدد من فقهاءها يقول: "وممن اجتمعت به من فضلائها طلبة السادات الحمارنة، منهم مفتي البلد سيدي محمد البكري، وله ممارسة بالنوازل الفقهية، وابن عمه مدرس مدرسة أبي لبابة... أبو زيد عبد الرحمن... وعمه سيدي محمد بن عبد الرحمن وابن عمه سيدي صالح بن أحمد، وهؤلاء كلهم من ذرية السادات الحمارنة يسكنون بزاوية أبي لبابة... ومنهم الشاب الفاضل سيدي علي بن عبد الكريم المدعو الصالح... ذهب بنا لبيته وأجزل القرى وأوسعنا الفواكه، وصب علينا من رياحينه وأزهاره، وعاملنا بجميل أخلاقه... تجديدا منهم للعهد الذي بينهم وبين آبائهم وأسلافنا. وهم إلى الآن على محبة لا يقومون ولا يقعدون إلا بذكر الشيخ أبي العباس ابن الناصر، طهر الله منهم الباطن والظاهر، ينتسبون للساقية الحمراء من السوس الأقصى، ولهم بهذا الساحل زوايا كثيرة منها زريق البراني، والحارث وعرام، وهو أصل زواياهم، وبها قبور أسلافهم معظمون عند الخاصة والعامة" (1074).

ولعل أعظم وأحسن لقاء أجراه ابن عبد السلام حسب ما جاء في الرحلة كان مع قاضي قابس الشيخ أبو بكر بن الحاج أحمد بن تامر أقنون، فقد كانت بين الرجلين جلسات ومذاكرات عدة: "وهذا الرجل من أمثل ما اجتمعت به في سفري هذا من لدن خرجت من الوطن، علما وصلاحا، مجبورا على خطة القضاء من ولاية الأمر صراحا، له كمال الاعتناء بفن المعقول والكلام والأدب... لا يمل جلوسه ولا يفتر سميده وأنيسه، وكان مما جرى بيني

(1073) نفس المصدر، ص: 288.

(1074) نفس المصدر، ص: 288.

وبينه في المذاكرة قوله: من اشترى ملكا من أخيه (في الإشاعة بينه وبين الورثة) فلما تقابضا الثمن والمثمن، قامت بينة على المشتري أنه قال بعد انعقاد البيع ودفع الثمن: أن الملك المذكور حبس من والده دنية (كذا) وأشهد مع ذلك على نفسه ألا يرجع على البائع بما قبض من الثمن، هل يكون قوله هذا إقرارا على نفسه فيلزمه؟ وهل يسري إقراره لنصيب غيره من الورثة، أو يكون في نصيبهم شاهدا؟ فقلت: إقراره مقصور عليه لا يتعداه لغيره، عملا بقول ابن عرفة⁽¹⁰⁷⁵⁾: "الإقرار خبر يوجب حكم صدقة على قائله فقط بلفظه أو لفظ نائبه." ثم أورد صاحب الرحلة في هذه المسألة أحكاما مطولة نقلا عن شيوخ عدة من علماء الفقه المالكية من أمثال: القرافي⁽¹⁰⁷⁶⁾، والحطاب وابن فرحون^(1396/1319م)، وغيرهم⁽¹⁰⁷⁷⁾.

وأمام سعة علم ابن عبد السلام وإمامه بالمسائل الفقهية لم يجد القاضي بدا إلا أن طلب الإجازة منه، كما سألته أن يجيز معه الشيخ أبي العباس أحمد بن الحسن بن علي حفيد الشيخ ابن ناصر، يقول ابن عبد السلام: "إني قد أجزت الشيخين المذكورين، فيما صح لي من روايته بشرطه المعتبر عند أهله، داعيا لهما بما دعا به لي مشايخي، نفع الله بهم العباد"⁽¹⁰⁷⁸⁾.

عند ذلك أتحنف القاضي الشيخ ابن عبد السلام بقصيدة قال في مطلعها:

إن كان ترحالي وجد ركابي في السير حثا قاصد الأحباب

إلى قوله:

يا عمدة السالكين وقدة للعالمين بسنة وكتاب

هذا أبو بكر ببابك واقف مستسلم ومقبل الأعتاب

⁽¹⁰⁷⁵⁾ الإمام محمد بن محمد بن عرفة الورغمي التونسي، ولد بتونس في 27 رجب (716هـ - 1316م)، درس في الزيتونة عن القاضي محمد بن عبد السلام (ت749هـ - 1348م) وعن غيره. اشتغل ابن عرفة إماما بالجامع الأعظم ومدرسا بالمدرسة التوفيقية، ومفتيا، ترك كتابا عظيما في تفسير القرآن . أنظر:

- بوهلال، دعوة الحق، ع3، ص23، ص: 98.

⁽¹⁰⁷⁶⁾ شهاب الدين أبو العباس أحمد بن إدريس القرافي الصنهاجي المصري، الإمام المصري العلامة الحافظ، عمدة أهل التحقيق. أخذ العلم عن جمال الدين بن الحاجب العز بن عبد السلام، وشرف الدين الفكهاني وأبي عبد الله البقوري. له مؤلفات بديعة منها: "التفقيح في أصول الفقه، مقدمة للخيرة ... توفي سنة 684هـ. أنظر:

- مخلوف، ص: 188.

⁽¹⁰⁷⁷⁾ الناصري، الرحلة الناصرية، ج1، ص: 289-295.

⁽¹⁰⁷⁸⁾ نفس المصدر، ص: 295-296.

يرجو رضا منكم بغير عدة إن عضه الدهر الخؤون بناب
كما أمر القاضي ولده الأكبر محمد السوسي أن ينشد الشيخ ابن عبد السلام بقصيدة جاء
فيها:

يا من يجهز للرحيل شؤونه عنا وقد رام الرحيل لقابس
أورثتنا حزنا أذاب قلوبنا إذ كنت نعم منادي ومجالس
يانور مدرستي وشمس طلابها لما رحلت غدت خليل عابس
وحويت علما نافعا فاقصد به نفع الطلاب لدى المان الدارس⁽¹⁰⁷⁹⁾

ومن المسائل العلمية التي خاض فيها ابن عبد السلام والتي أبان فيها عن باعه
الطويل في الفقه وفي العلوم الشرعية، وكان له الفضل في رجوع بعض أهالي تونس عن
غيهم وضلالهم وأظهر ذلك عن جهلهم بمسائل الدين. أنه سئل مرة عن العبد يزوجه سيده
من أمته، هل لا بد من صداق أو يجوز بغيره إذ كل منها ملك للسيد يجمع بينهما فلا
صداق؟ إذ كان السائل من قوم يملكون العبيد، وكانوا يزوجونهم بالإماء من غير
صداق⁽¹⁰⁸⁰⁾.

ولما أبان ابن عبد السلام عن المسألة بالأحكام الشرعية من الآيات والأحاديث النبوية
على صاحبها أفضل الصلاة والسلام. رجع صاحب السؤال عن الخطأ بعد أن استيقن أنه
وقومه في فعلهم على ضلال، ورجع إلى قومه وهو يردد: "إن ردني الله تعالى للبلد، أعقد
لعبدي النكاح على صداق. وما لبث الرجل بعد أن رجع إلى قومه أن أشاع بينهم المسألة،
فعلمو ما وقعوا فيه من الخطأ وتابوا من فعلتهم⁽¹⁰⁸¹⁾.

ومن مدينة قابس إلى مدينة جربة⁽¹⁰⁸²⁾ هذه المدينة التي قال عنها الشيخ ابن عبد
السلام أنها مليئة بمذاهب أهل الهوى من إباضية ومعتزلية وغيرهم إلى جانب مذاهب أهل

(1079) نفس المصدر، ص: 298-299.

(1080) نفس المصدر، ص: 319.

(1081) نفس المصدر، ص: 319.

(1082) مدينة تونسية في جزيرة معروفة باسمها، مقابلة لمدينة قابس، على خليج قابس، أصل سكانها من البربر، فيها
واحات وبساتين، ولذلك أطلق على مدينة جربة واحة السوق، تشتهر بآثارها الفينيقية، وكذا بصناعة الفخار، وصيد الإسفنج
والأسماك. أنظر:

- الشامي، موسوعة المدن العربية، ص: 151.

السنة الأربعة وعلى رأسهم المذهب المالكي، وكيف أن أهلها لا يقيمون لأهل السنة وزنا، إذ قال: "وفيها ستة عشر مذهبا: مذاهب الأئمة الأربعة والقوي منهم فيها مذهب الإمام مالك والإثنا عشر الباقية كلهم أهل الأهواء" (1083).

ثم أورد ابن عبد السلام، كيف أن أصحاب الأهواء يسخرون من أهل السنة. وذكر قصة وقعت لشيخ أبي العباس أحمد بن محمد الناصر في بعض حجاته الأربعة عند دخوله مدينة جربة: "وكان مما ورد جماعة من المحبين من أهل جربة، وفيهم رجل محترق في الظاهر بالمحبة، فبالغ في خدمة الشيخ والإسداء إليه، فلما أراد أن يتوابع معه، وهو على فرس له، والشيخ على دابته، طلب منه أن يختلي به فيعزلا عن الركب ففعل، فأسر إليه: أبلغ مني النبي صلى الله عليه وسلم، وأبلغ مني أبا بكر وعمر كذا من نوع السب، ذكره صراحة إظهارا لعقيدته من التوغل في التشيع، فلعنه الشيخ، ورام الفتك به، فهرب على فرسه" (1084).

وابن عبد السلام نفسه سنحت له الفرصة في مدينة جربة، أن يجتمع بأحد الشيوخ من أهل الطوائف الواهية من الخوارج، ممن بقي على مذهب أبوزيد مخلص بن كيداد (1085) يدعى عبد الرحمن الرجم الزواري (1086) -على حد قوله- وعلى ما يبدو فإن اللقاء كان بمثابة مناظرة بين الرجلين، أراد من خلالها صاحب الرحلة أن يثبت صحة ما تناقله أسلافه من شيوخ الزاوية الناصرية عن فساد اعتقاد أهل المنطقة. يقول ابن عبد السلام: "ورأيت منهم

(1083) الناصري، الرحلة الناصرية، ج1، ص 305.

(1084) نفس المصدر، ص ص: 305-307.

(1085) مخلص بن كيداد بن سعد الله بن مغيث الزناني النكاري، أبو زيد، بربري الأصل، من زعماء الإباضية وأئمتهم، كان يغلب عليه الزهد والتقشف، ويلبس جبة الصوف قصيرة وضيقة الكمّين، ولد ونشأ في قسطيلة، وكانت تابعة لتوزر، وخالف النكارية وهم من الصفرية، وسافر إلى تاهرت، فكان معلما للصبيان فيها، تلقب بشيخ المؤمنين وكثر أتباعه، وعظم أمره فزحف في مائتي ألف مقاتل على تونس واستولى على القيروان سنة 333هـ. وأرسل أحد قواده إلى سوسة فاستباحها، وحاصر القائم بأمر الله في المهديّة، حتى جاع أهلها فأكلوا الميتة والدواب، ثم بدأت هزائمه بانتفاض البربر عليه، فرجع إلى القيروان سنة 334هـ. توفي سنة (336هـ/947م). أنظر:

- الزركلي، ج7، ص: 194.

(1086) نسبة إلى بلدة زوارة تقع على ساحل البحر بينها وبين زواغة (نسبة لقبيلة من البربر) ستة أميال وتبعد عن جربة شرقا 50 ميلا وهي بلدة ذات نخيل وأشجار. أنظر:

- الناصري، الرحلة الناصرية، ج1، ص: 314.

أقواما قد نحلت من العبادة أبدانهم، يكفرون العصاة، وأظهروا شيخا يعرف بعبد الرحمن الرجم الزواري يعظمونه، اجتمعت به فرأيت شخصا مجتهدا في العبادة، حسن السمات، إلا أنه في اعتقاده الفاسد قد ضيع أعماله، وتوسمت في أحد ممن وصل معه الطلب، فتكلمت معه فوجدته مشاركا في العلم معتقدا مذهب الخوارج من إنكار المسح على الخفين، فقلت: تواترت به الأحاديث، فقال: أخبار آحاد لا يجب العمل بها، قال: وقد نص لنا سيدنا أبو زيد مخلد بن كيداد على طرح ما كان من أحاديث يناقض أصلا من أصولنا، فلعنت النص ومن نصه، وهذا المذهب أيضا عليه الشيعة مستدلين بأن سيدنا عليا لا يراه". ولقبج أهل بلدة الزوارة، قال فيهم الشيخ أبي العباس بن ناصر شعرا طويلا من ذلك:

لقد قبح الله الزوارة كلها وألبسها من دين أربابها شيئا
وحق لمن قد جاور القبح أن يرى قبيحا خبيثا ليس يلقي له دينا
فيارب دمرها دمارا مؤيدا ولا تبقي من كل آثارها عينا⁽¹⁰⁸⁷⁾

وأنشد فيهم الحسين بن محمد بن علي شرحبيل البوسعي تلميذ الشيخ أحمد بن ناصر:

ودمرهم تدمير عتاد وألبسهم سراويل خزي كلما انتحلوا عينا
ونظمهم في سلك عنق فلا يرى لهم عقب إلا وجرعه حيناً
عدا السالكين منهم نهج حق واقتفوا سبيل رشاد واقتنوا بينهم بيناً⁽¹⁰⁸⁸⁾

ومما يصور قبج أهل هذه البلد أن أهلها دخلوا في معركة طاحنة مع ركب الحج الناصري وكانت الغلبة فيها للركب، هلك فيها من هلك، لولا تدخل العقلاء من الجانبين⁽¹⁰⁸⁹⁾.

ولا ينفي صاحب الرحلة تطاول بعض الصعاليك من الحبيج ممن رافق الركب على سكان بعض بلدات تونس بدخولهم حدائق وبساتين القوم دون إذن من أهلها، فجلب عليهم ذلك سخط أصحابها وأدخل الركب في مواجهات ساخنة مع الكثير من أهالي هذه البلدات، قتل فيها من الجانبين عدد معتبر. يقول ابن عبد السلام: "وسرنا فما زالت الشمس حتى خيمنا بالزواوية الغربية، ذات المياه العذبة، والأشجار البهية، والفواكه والخضر والنخيل آسية،

(1087) نفس المصدر، ص ص: 312-315.

(1088) نفس المصدر، ص ص: 315-316.

(1089) نفس المصدر، ص: 314.

والمزرعة الموضية، فما هو إلا أن حططنا الرحال، فتوجه نحو حدائقهم صعالكة الرحال، فاغتاظ إذ ذاك أهلها، فتراموا مع الحجاج بالبنادق والنصال، فمات من قضى نحبه، وجرح من بقي من أجله، فلحق صحبه، وتناهبوا الفريقان حتى جردت بذلك النساء والولدان، ولم يبق بحدائقهم ما يرد البصر، من الفواكه والخضر، ظلما وعدوانا من الصعالكة ومن أنصاف لهم من الرعاع، وهم إذ ذاك لا يقدرّون على الدفاع، فشمروا على ساق الجد الأمير، ومن أنصاف له من كل معين وظهير، فكانوا عوناً لأهل البلد على الحجاج المحاربين البغاة...⁽¹⁰⁹⁰⁾.

3.3- نماذج لعلماء مغاربة في تونس:

في نطاق التبادل الثقافي مع تونس الذي عرفته الرحلة المغربية، نقرأ في ترجمة حسونة القصري الفقيه العالم، الرباطي الأصل (ت1199هـ/1784م) الذي وفد تونس بقصد التجارة في أواخر القرن 18م، وكان له محل بالربع⁽¹⁰⁹¹⁾، وكان عالماً فقيهاً، يقوم بإلقاء دروس احتساباً لله فجر كل يوم بجامع الزيتونة، قبل التوجه إلى متجره، ورغب الطلبة في دروسه وانتفعوا بعلومه، ولما قام الباشا علي باي الحسيني⁽¹⁰⁹²⁾ بتخصيص مرتب مالي للمدرسين بجامع زيتونة أدرج الشيخ القصري في قائمة المدرسين المعيّنين بالمرتب، ولما بعث له مكتوب المرتب امتنع من قبوله، فأحضره الباشا لديه وقال له: "لم ترغب عن مرتب بلادنا، وأنت الآن من أعيانها؟ فقال له لم أرغب عن البلاد، بدليل أنني اخترتها، وقد جلست في الآفاق، لكن الله أغنانني، وله الشكر بما يسره على يدي من ربح التجارة، فلا يسوغ لي والحالة هذه أخذ الأجرة على العلم، فإني أثبت العلم لله خالصاً، فاعط ذلك لمن هو أحوج منا." فاستحسن الباشا حاله وعظمت نزلة الشيخ القصري عنده⁽¹⁰⁹³⁾.

⁽¹⁰⁹⁰⁾ نفس المصدر، ص: 318.

⁽¹⁰⁹¹⁾ سوق الربع في تونس.

⁽¹⁰⁹²⁾ علي بن حسين بن علي تركي، أبو الحسن، ولد سنة (1124هـ/1712م) بتونس ونشأ فيها أين تعلم الفقه والحديث، وولي بعض الأعمال، ثم ببيع سنة 1174هـ، بعد وفاة أخيه محمد باي. حارب الفرنسيين ثم صالحهم سنة 1184هـ وأعان السلطان مصطفى خان على محاربة الروس سنة 1185هـ. توفي سنة (1196هـ/1782م) أنظر:

- الزركلي، ج4، ص: 281.

⁽¹⁰⁹³⁾ ابن أبي الضياف، ج7، ص: 21.

ونظرا للمكانة التي أحرزها الشيخ القصري في تونس، فإنه كان مقصدا للوافدين من المغرب إلى تونس، وهذا الولي الصالح أحمد سالم التجاني لما أتى تونس نزل بداره، مدة إقامته بها، حتى أنهى جميع دروس "الحكم" لابن عطاء⁽¹⁰⁹⁴⁾ التي كان يقدمها بمسجد سوق البلاط، حتى قفل راجعا إلى المغرب، شاكرا للشيخ القصري على صنيعه⁽¹⁰⁹⁵⁾.

وفي سياق التبادل الثقافي دائما نقرأ عن الفقيه الورع أبو عبد الله محمد الفاسي الذي دخل تونس طالبا للعلم أواخر القرن 18م -قبل عام (1199هـ/1784)- قادما من فاس عن عمر يناهز الثلاثين سنة وقد أخذ عن أشياخها⁽¹⁰⁹⁶⁾.

وفي تونس ساقته الأقدار ليلتقي الشيخ المفتي أبو عبد الله محمد بن حسين البارودي، الذي أنزله داره على بساط إجلال وتعظيم، إذ كان الفاسي يفيد أبناء البارودي بالعلم، واستفاد الشيخ البارودي بمسامراته. وتوطدت علاقته ببيت البارودي، فتزوج إحدى قريباته، أنجبت له ولدا مات صغيرا⁽¹⁰⁹⁷⁾.

وفي تونس تعرف الشيخ محمد الفاسي على الشيخ إبراهيم الرياحي، وحدثت بينهما صداقة⁽¹⁰⁹⁸⁾.

هذا ودرّس الشيخ محمد الفاسي بجامع الزيتونة، حتى صار علما من أعلامه، فاستخلصه الوزير أبو الماحسن يوسف لنفسه، وجعله من المقربين، وتصدر بالمدرسة التي بناها الوزير لإقراء تفسير البيضاوي⁽¹⁰⁹⁹⁾ وشرح سعد الدين للعقائد⁽¹¹⁰⁰⁾، فكان بذلك أول

(1094) من المتصوفة، توفي بالمدرسة المنصورية بالقاهرة سنة 1309م.

(1095) ابن أبي الضياف، ج7، ص: 21.

(1096) بوهلال، دعوة الحق، ع3، س23، ص: 97.

(1097) ابن أبي الضياف، ج7، ص: 102.

(1098) بوهلال، دعوة الحق، ع3، س23، ص: 97.

(1099) عبد الله بن عمر بن محمد بن علي الشيرازي... ناصر الدين البيضاوي: قاض ومفسر وعامة، ولد بمدينة البيضاء (بفارس قرب شيراز) ولي قضاء شيراز مدة. وصرف عن القضاء فرحل إلى تبريز أين توفي سنة (685هـ/1286م) من تصانيفه (أنوار التنزيل وأسرار التأويل ويعرف بتفسير البيضاوي)، (وطوالع الأنوار) كتاب في التوحيد، ومنهاج الوصول إلى علم الأصول، ولب الباب في علم الإعراب... أنظر:

- الزركلي، ج4، ص: 110.

(1100) العقائد النسفية، كتاب في علم الكلام (التوحيد) الفه نجم الدين محمد النسفي السمرقندي، الفقيه والمفسر، المحدث والمتكلم، ولد سنة (461هـ/1069م)، وتوفي سنة (537هـ/1142م) أنظر:

- بوهلال، دعوة الحق، ع3، س23، ص: 98. وكذلك: - ابن أبي الضياف، ج7، ص: 102.

من درس بهذه المدرسة من المغاربة⁽¹¹⁰¹⁾. وقد حاول استحداث طرق تعليمية ومواد حديثة في التعليم بمراكز العلم في تونس على عهد حمودة باشا، ولأجل ذلك تهافت الناهلون على درسه، وعلا كعبه، وأشع علمه⁽¹¹⁰²⁾.

وحسب ابن أبي الضياف فإن الشيخ الفاسي: "صقل الأفكار ودرب النظر... ورأى الناس من هذا البحر الزاخر، مصداق كم ترك الأول للآخر، إذ كان على درجة كبيرة في تحقيق العلوم الشرعية والأدبية والعقلية كالمساحة والهندسة والفلك وغيرها." وابن أبي الضياف نفسه زار هذا العالم لما كان صغيراً وعن هذا الحدث قال: "زاره أبي في مرض موته، وحملني معه بنية التبرك وقال له يا سيدي إن ابني هذا نريد أن نطعمه البلاذر (نبات بالمغرب يستعملونه للحفظ) فسأله عن كيفية الاستعمال، فقال له: لا تفعل، لما فيه من الخطر، ثم التفت إلي وقال لي: يا بني إياك أن تفعل ذلك، فإن ابن عرفة سئل عن البلاذر فقال: هو الاجتهاد والتناظر. ثم أخرج كيساً تحت وسادته، فيه سكة من الذهب، وقال لوالدي: "هذا ما بقي عندي من إحسان المرحوم يوسف صاحب الطابع، أرجو أن أبلغ بها إلى انقضاء الأجل، وأن لا يجعل لغيره منة علي، ثم وضع يده على رأسي، ودعا لي، بما أرجو من الله قبوله"⁽¹¹⁰³⁾.

وكانت وفاة الشيخ محمد الفاسي بتونس عصر الثلاثاء ثاني ربيع الثاني سنة 1232هـ (1817م).

لكن ما يستخلص من النص السابق أن الطريقة التي انتهجها الشيخ الفاسي في التربية والتعليم لا تعتمد كلية على الحفظ والتلقين، بل تقوم على المشاركة الحية والفعالة في النقاش بالاعتماد على النفس واستعمال العقل، والمساهمة التلقائية في النقاش، وهو في هذا يلتقي مع الإمام التونسي ابن عرفة في طريقته المستجدة بالزيتونة⁽¹¹⁰⁴⁾. ولعل عن طريق التبادل الثقافي مع المغرب عرفت تونس من بين طرقها التربوية، الطريقة القائمة على إملاء الدرس من الحفظ والذاكرة دون النظر إلى كتاب أو فتح مرجع، ومعالجة الدرس بتقرير النظريات

(1101) مخلوف، ج 1، ص: 380.

(1102) بوهلال، دعوة الحق، ج 3، ص 23، ص: 98.

(1103) ابن أبي الضياف، ج 7، ص ص: 102-103.

(1104) بوهلال، دعوة الحق، ج 3، ص 23، ص: 99.

والتعليق عليها، ثم في النهاية يقرأ كتاب المصنف، فمن المحقق أن هذه الطريقة لم تكن معروفة إلا في القرويين من جميع الجامعات الإسلامية المعروفة يومئذ. ووفقا لما ذكره ابن أبي الضياف في ترجمة إبراهيم الرياحي، إن هذه الطريقة في التدريس لم تعرف إلا على يد هذا الرجل وأنه أول من باشرها بتونس⁽¹¹⁰⁵⁾.

وممن رحل من المغاربة إلى تونس من أعلام القرن الثاني عشر:

- أبو العباس أحمد الماكودي الفاسي (ت1170هـ / 1756م)، هو أحد أعلام البيت الماكودي الشهير بفاس علما وفضلا، عالم فقيه، محدث مسند الرواية. له تأليف عدة منها: "تحرير في وفيات الفقهاء السبعة". وفد على تونس، فحصلت له بها شهرة تامة، وتقلد الفتوى في عهد علي باشا وتصدر للتدريس، وأخذ عنه من أعلام تونس: الشيخ مقديش⁽¹¹⁰⁶⁾، وشيخ الإسلام محمد بيرم الأول (ت1240هـ / 1824م)، وأجازه، كما أجاز ابنه شيخ الإسلام الثاني (ت1247هـ / 1831م)، وحفيده شيخ الإسلام الثالث⁽¹¹⁰⁷⁾، والحفيد أجاز الشاذلي بن المؤدب⁽¹¹⁰⁸⁾.

ودخل تونس من علماء المغرب في القرن الثالث عشر:

- أبو عبد الله محمد أحمد بن التهامي بن عمر العربي الإدريسي الرباطي (ت1214هـ / 1799م)، فقيه مغربي وعالم متبحر في العلوم، وفي المنثور والمنظوم دخل تونس سنة (1243هـ / 1827م) برسم الحج، فأكرم علماء تونس وفادته، وعلى رأسهم العالمان: شيخ الإسلام الثالث محمد بيرم، وقاضي تونس ومفتيها، الشيخ مصطفى

(1105) نفس المرجع، ص: 97.

(1106) محمود مقديش الصفاقسي، صاحب باع طويل في العلم، كان من أصحاب الوزير أبي المحاسن يوسف صاحب الطابع. اشتغل بالتجارة حتى صار وكيلاً للدولة التونسية في شراء الزيت. رحل إلى الحج فتوفي بجدة سنة (1251هـ / 1835-1836م). أنظر:

- ابن أبي الضياف، ج8، ص: 24.

(1107) ولد في 27 ربيع الأول أوائل القرن التاسع عشر من أهل العلم البارزين في تونس، فقد اعتنى والده محمد بيرم الثاني بدارسته، كما تتلمذ على يد الشيخ أبي محمد سيدي الحسن الشريف. تصدر للتدريس نائباً عن أبيه في مدرسة الباشية، وفي جامع الزيتونة وكذا بالمدرسة العنقية، كما تقدم للتدريس بجامع الوزير أبي يوسف صاحب الطابع، متفوقاً على أتباعه. وتصدر للفتيا، وحاز مراتب عليا، وقام مقام أبيه في رئاسة المجلس الشرعي بعد وفاته. توفي سنة 1259هـ. أنظر:-

نفس المصدر، ص: 54-55.

(1108) مخلوف، ج1، ص: 346.

بيرم⁽¹¹⁰⁹⁾. وممن أخذ عنه من أعلام تونس الإمام الهمام، شيخ الإسلام الأول محمد بن أحمد بن الخوجة المتوفى سنة (1279هـ/1862م) الآخذ عن والده قاضي الحاضرة، وفقهها ومؤسس البيت الخوجي أحمد الخوجي، المتوفى سنة (1241هـ/1825م)⁽¹¹¹⁰⁾. وأبناء هذا الشيخ وأحفاده حازوا قصب السبق في مضمار النجابة، وتناولوا الخطط العلمية من قضاء وكتابة ومشیخة الإسلام، وكذا الفتوى والخطابة.

وممن دخل تونس من المغاربة كذلك أبو العباس أحمد بن الطالب بن سود، قاضي الجماعة بمكناسة الزيتون دخل تونس سنة (1268هـ/1851م) ومعه بعض أهل بيته من العلماء، واجتمع بعدد من أعلامها، استفاد منهم وأفادهم، وأجازه الشيخ محمد النيفر الأكبر⁽¹¹¹¹⁾، بما صحت له روايته من الحديث الشريف، كما أجازه شيخ الإسلام الرابع محمد بيرم (1220هـ - 1278هـ / 1805م - 1861م)⁽¹¹¹²⁾.

ومن الوافدين من المغرب إلى تونس المستقرين بها أيضا: أبو عبد الله محمد الشرقي، أسكنه الوزير محمد خوجة⁽¹¹¹³⁾ بميناء حلق الوادي، كما اختاره معلما ومربيا لأبنائه، وهو العارف بالحساب، حيث دعي لرأس موظفي (بيت الحساب - إدارة المالية) لدى باي تونس، فعمل بها مدة ليعود إلى وظيفته الأولى. ولمهارته في فن الحساب والإدارة تنازع عليه

(1109) من بيت آل بيرم مشهور بالعلم والفضل والسؤدد، كان صهرا للمشير محمد باي، الذي أوكل له خطة الحسبة على الأحباس ونحوها. توفي سنة (1280هـ/1863م). انظر:

- ابن أبي الضياف، ج8، ص: 132.

(1110) **مخلوف، ج1، ص: 382.**

(1111) أبو عبد الله الشيخ محمد بن أحمد النيفر، من بيت شرف وعلم من صفاقس، تتلمذ على يد والده، فحفظ القرآن وشمر في طلب العلم، فقرأ على يد الشيخ إبراهيم الرياحي، و الشيخ أبي العباس أحمد الأبوي، والشيخ محمد بيرم الثالث... تصدر للتدريس بالزيتونة تفسير البضاوي، كما تقدم لخطة القضاء بطلب من شيخه محمد بيرم، وهو الذي أشار على الباي بولايته. توفي في 1 محرم سنة 1277هـ. أنظر:

- ابن أبي الضياف، ج8، ص: 111-114.

(1112) **مخلوف، ج1، ص: 382.**

(1113) الوزير محمد خوجة، عمل على رأس إدارة بنزرت (كاهية) على صغر سنه في عهد علي باي، ثم لم يزل يتدرج إلى أن صار ثم الترسخانة بخلق الوادي أيام الباي حمودة باشا، فصار من رجال مشورته، ومشورة من بعد من الملوك، يعتمدون رأيه. وتردد على السفارة فاشتغل سفيراً إلى بريطانيا، ثم إلى فرنسا وغيرها من الدول. توفي بتونس سنة 1251هـ - 1846م. أنظر:

- ابن أبي الضياف، ج8، ص: 60.

كل من الوزير محمد خوجة ومحمد العربي زروق⁽¹¹¹⁴⁾ لتوظيفه ضمن الإدارة التي يشرفان عليها. وما لبث أن انتخبه المغاربة المقيمين بتونس وكيلا لهم، وأجرى عليه المشير أبو العباس أحمد باي جراية شهرية، توفي سنة (1282هـ/1866م) تاركا العهد لأولاده من بعده⁽¹¹¹⁵⁾.

أما عن الوافدين من تونس إلى المغرب في طلب العلم فلا تطلعنا المصادر إلا على شخصيات قليلة، من أبرز هؤلاء: أبو عبد الله محمد بن سليمان المناعي، المتوفى سنة (1247هـ/1832م)، رحل في طلب العلم إلى حاضرة فاس فأخذ عن الشيخ عبد السلام البازامي، والشيخ تاودي، واجتمع بالشيخ العالم، والولي الصالح أحمد بن سالم التجاني، وأخذ عنه الطريقة التجانية، ولما رجع إلى تونس عاد وقد امتلأ بالعلم متبحرا في الفقه والأصول، حتى أنه تصدر للتدريس في جامع الزيتونة، فبلغت شهرته الآفاق، مما جعل الوزير يوسف صاحب الطابع ينتدبه للعمل في خطة الشهادة والتوثيق، ثم في خطة الكتابة عند الباي أبو عبد الله حسين باشا⁽¹¹¹⁶⁾.

(1114) الوزير محمد العربي زروق، اعتمده باي تونس في الإشراف على إصلاح القلاع وتجهيزها، ثم تولى خطة خزندار، توفي 1822م. أنظر:

- بوهلال، دعوة الحق، ج3، ص23، ص:100.

(1115) نفس المرجع، ص:100.

(1116) ابن أبي الضياف، ج7، ص:165.

الفصل الرابع

العلاقات المغربية الجزائرية

I - العلاقات السياسية:

إن العلاقات الجزائرية المغربية بعد وفاة المولى إسماعيل رغم طابعها العدائي، إلا أنها عرفت انقطاعا دام قرابة الثلاثين سنة، وهي فترة الأزمة التي مرّ بها المغرب، نتيجة للصراعات التي قامت بين أبناء المولى إسماعيل طمعا في تولي عرش المغرب، إلى أن استقر الأمر بيد حفيده محمد بن عبد الله سنة (1171هـ/1757م) والذي عرف عهده بعهد الإصلاح والاستقرار السياسي، والنشاط الدبلوماسي المكثف، على المستوى العربي والإسلامي، وكذا على المستوى الأوروبي. وقد كان آباؤه قبل هذا العهد يوعزون سبب فشل سياساتهم على الصعيدين الداخلي والخارجي إلى الدور السلبي الذي كانت تقوم به إيالة الجزائر من إذكاء لنار الفتنة، وتدبير للمكائد والدسائس لزعة سلطان العلويين، حتى تتمكن من بسط نفوذها على أقاليم المغرب، أو على الأقل تعيين حاكم جديد في المغرب يكون ولاؤه للعثمانيين مطلقا. إلا أن أوضاع الجزائر في نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر حالت دون تمكين الأتراك من تحقيق مسعاهم تجاه المغرب، بل بالعكس مكنت السلطان محمد بن عبد الله وخلفائه من بعده، من تحقيق ما عجز عنه أجدادهم، لاسيما ما تعلق برسم الحدود بين الجزائر والمغرب، وكذا تفعيل المعاهدات الثنائية بين المغرب وبعض الدول الأوروبية، ونخص بالذكر فرنسا، إلى حين بسط الأخيرة سيطرتها على مدينة الجزائر وأقاليم أخرى من إيالة الجزائر.

فإلى أي مدى نجح المغرب في بلوغ مسعاه من تقويض لحكم الأتراك في الجزائر؟ وما مدى مساهمة الاتفاقيات المغربية الفرنسية في ذلك؟ وإذا كان الأتراك قد أخفقوا في الحفاظ على علاقتهم المتينة والطويلة التي ربطتهم بالجزائريين، كيف استثمر سلاطين المغرب إخفاقات الأتراك من الناحية السياسية والاجتماعية خاصة؟ وهل كانت لهم يد في أحداث التمرد والفتن التي عرفت إيالة الجزائر في أقاليمها الشرقية والغربية لاسيما ما تعلق بثورات بعض أصحاب الطرق الصوفية؟ ثم كيف استفاد سلاطين المغرب من هذه الأحداث؟ وما هي المكاسب التي حققوها على أرض الواقع؟ وعلى إثر الحملة الفرنسية على الجزائر وضع سلاطين المغرب ثقة مفرطة في الفرنسيين للتخلص من أتراك الجزائر وحكومتهم، ألا يمكن اعتبار الثقة المفرطة، هي التي أفلتت من أيديهم مكاسب كثيرة وضيعت عليهم تحقيق المزيد من طموحاتهم، بحيث أنهم أوهموا وخدعوا كما أوهم وخدع الجزائريون عندما أبلغتهم فرنسا

من أن حملتها البحرية على مدينة الجزائر لا تعدو أن تكون مجرد حملة تأديبية لأتراك الجزائر لا أكثر؟ أم أن سلاطين المغرب أرادوا استباق الأحداث والالتفاف حول أقاليم جديدة شرق المغرب، ظنا منهم أن الفرنسيين ليس لهم دراية عن وضعها، في وقت ينشغل فيه الفرنسيون بمواجهة ثورة سكان مدينة الجزائر؟ هل أهداف المخزن التوسعية كانت مرتبطة ببيعة أهل تلمسان وما جاورها من أقاليم لسلطان المغرب، وبالتالي رغبة السلطان في حماية سكان جزائريين اعتبرهم من رعاياه؟ وهل الأمر يتعلق بحماية المصالح التجارية للمغرب من جهة الشرق؟ وهل التواجد المخزني في الأقاليم الغربية للجزائر أثر في مقاومة الاستعمار الفرنسي؟ ثم لماذا تراجع السلطان عن فكرة التوسع في هذه الأقاليم بعد عام من بسط للسيطرة ونفوذه عليها؟

1- مشكلة الحدود بين البلدين:

1.1- عهد السلطان محمد بن عبد الله:

لقد ورث السلطان محمد بن عبد الله عن أسلافه عقلية سياسية ودينية في التعامل مع جيرانه أتراك الجزائر، لذلك استمر في عدائه لهم. وبالرغم من ظهور بعض الملامح الحسنة في العلاقات الثنائية بين المغرب والجزائر في السنوات الأولى التي تولى فيها عرش المغرب، إلا أنها في الحقيقة كانت محاولات لجس النبض بين الطرفين⁽¹¹¹⁷⁾. حيث أن المغرب كان يعتقد أن الخلافة العثمانية تتطلع دائما في أن ينتهي هذا العداء لصالح الجزائر، ليصبح المغرب إيالة عثمانية. لذلك جاءت المعاهدة المغربية الفرنسية سنة (1180هـ/1767م)⁽¹¹¹⁸⁾ كمحاولة من المغرب لكسر شوكة الجزائر، وتجريدها من

(1117) دياز ، ص:47.

(1118) تعد اتفاقية 28 ماي 1767 بين المغرب وفرنسا أهم بكثير من الاتفاقيات التي تمت بين المغرب والدول الأوربية الأخرى، نظرا للامتيازات المختلفة التي تحصلت فرنسا عليها ومنها التجارية، والتي استغلها بقوة إثر احتلالها للجزائر وهي أول اتفاقية بين البلدين تخص الجانب التجاري، تمت بين الملك لويس الخامس عشر، والمولى محمد بن عبد الله. جددت بعد ذلك لتصبح معاهدة الصداقة والسلم بين الجانبين في 17 ماي 1824 بين لويس 18 والمولى عبد الرحمن بن هشام وكذلك بعدها بعام أي في 23 سبتمبر 1825 في عهد شارل العاشر، وكانت هذه الاتفاقية بمثابة اللبنة التي بنت عليها فرنسا اتفاقيتها اللاحقة مع المغرب مثل اتفاقية طنجة بتاريخ 10 سبتمبر 1844 والتي نصت على وضع مراقبين على الحدود بين الجزائر والمغرب. ثم اتفاقية لالة مغنية لرسم الحدود بين الجزائر والمغرب في 18 مارس 1845، بالإضافة إلى اتفاقيات أخرى كثيرة. أنظر:

– Gustave Wlfrom, **Le Maroc, étude commerciale et agricole**, Paul Dupont éditeur, Paris, 1893, pp: 35–36.

حلفائها⁽¹¹¹⁹⁾. ولما أحست الخلافة العثمانية بخطورة الوضع، أرسلت مبعوثيها إلى المغرب للتخفيف من حدته على ما ذهب إليه بعض المؤرخين. أما المغرب فقد بعث برسائل إلى الخليفة العثماني، يحتج فيها بلهجة حادة تعنت أترك الجزائر: "إن لم تدفع ضررهم عن المسلمين فدعني وإياهم"⁽¹¹²⁰⁾.

ومع ذلك فعهد السلطان محمد بن عبد الله مقارنة بعهود أسلافه، عهد استقرار نسبي، فلم يكن السلطان يفكر في توسيع حدود مملكته في الجزائر أكثر من تفكيره في البروز كزعيم عربي وإسلامي يحكم المغرب العربي⁽¹¹²¹⁾. وقد أسفر هذا الاستقرار عن تمكن الأتراك من استرجاع مدينة وهران من يد الإسبان عام (1207هـ / 1792م)؟!⁽¹¹²²⁾

ويعتقد بعض المؤرخين أن سياسة استغلال نفور بعض القبائل الجزائرية من ظلم الأتراك ومحاولة استمالتهم لصالح المخزن لم تكن مجدية في عهد السلطان محمد بن عبد الله، لأنه فضل الصلح والهدنة بدل العداوة والحرب، نظرا لعلاقته الجيدة مع السلطان العثماني⁽¹¹²³⁾.

ومن أجل تطوير علاقاته مع الأوروبيين والمسلمين معا -حسب المؤرخ الإسباني رامون لوريدو دياز- كان السلطان في حاجة إلى تنشيط التجارة الأوربية في سواحله لإعادة الاعتبار للمغرب، لكنه مع ذلك لم يكن يرغب في التخلي عن علاقاته الناشئة مع البلاط العثماني، وهذا حتى يكسبه مكانة محترمة في العالم الإسلامي، وبالتالي يكون الطريق أمامه سهلا للانتقام من الجزائر، نظرا للحقد الذي يضره لحكامها، فخلال سنوات طويلة كان عليه كبت مشاعره الحقيقية تجاههم، والسلاح الذي استعمله في ذلك كان له طابع معنوي وديني خالص⁽¹¹²⁴⁾.

ويظهر جليا أنّ إستراتيجية السلطان المغربي في التعامل مع الجزائر كانت تهدف للتقليل من شأنها أمام العالم الإسلامي. ومع ذلك فقد أبدى السلطان في بعض المواقف

⁽¹¹¹⁹⁾ شحاته، ص: 440-445.

⁽¹¹²⁰⁾ الزباني، الترجمانة الكبرى، ص: 84.

⁽¹¹²¹⁾ شرف، ص: 176.

⁽¹¹²²⁾ إبراهيم ياسين، سلطة مغربية في غرب الجزائر، دراسة تاريخية، 1830-1832، ط1، مطابع الرباط نت، الرباط، 2015،

ص: 14.

⁽¹¹²³⁾ نفس المرجع، ص: 14.

⁽¹¹²⁴⁾ دياز، ص: 87.

الرصانة دون الانسياق وراء مشاعر الانتقام القوية ضد الجزائر⁽¹¹²⁵⁾، مثلما سيأتي معنا في قضية محاولة تحرير سبتة ومليلة من الاحتلال الإسباني.

لقد كان المغرب يسعى جاهدا لبناء علاقات طيبة مع العثمانيين حسب الزباني، وفي الوقت الذي كان حكام الجزائر يمارسون الفساد بتحريضهم لأمرأ فاس وبعض المتمردين المقيمين بالغرب الجزائري لسلب ونهب القبائل المخزنية، والتأمر على حكام المغرب، لم ينفذ السلطان محمد بن عبد الله أي موقف معاد، واكتفى بشكايتهم للسلطان العثماني⁽¹¹²⁶⁾.

ومن المفارقات الغريبة في بعض الكتابات، أننا نجد الخليفة العثماني يعطى المبرر الكافي للسلطان المغربي كي يشن هجوما على الجزائر، لاسيما بعد أن أبرمت الخلافة العثمانية الصلح مع اسبانيا سنة (1197هـ/1782)⁽¹¹²⁷⁾، والذي نصت بنوده على أن الصلح مع اسبانيا سائر على جميع الايالات العثمانية. ولكن الجزائر تمردت على تعليمات الخليفة العثماني، وهو ما دفع الأخير أن يطلب وساطة السلطان محمد بن عبد الله للتدخل لدى داي الجزائر عثمان باشا⁽¹¹²⁸⁾، وحمله على الاستجابة لرؤسائه في اسطنبول، ولم يسع المغرب إلا أن يتقبل هذا التشريف⁽¹¹²⁹⁾، فما كان من السلطان إلا أن وجه بيانا لأعضاء السلك الدبلوماسي المقيمين بإيالته، بتاريخ 2 ذي القعدة 1199هـ الموافق لـ 5 سبتمبر 1785م، جاء فيه: "إن أهل الجزائر إن فعلوا مع جنس الاصبنيول (كذا) الصلح الذي أمرهم به السلطان العثماني نصره الله، صلحا تاما كيف أمرهم، فعلى بركة الله، وإن لم يفعلوا ما

(1125) نفس المرجع، ص: 89.

(1126) سامح، ص: 502.

(1127) جاءت اتفاقية الصلح بعد انتصار الأسطول الإسباني على الأسطول الإنجليزي في مايوركا Mayorca، فرأت الدولة العثمانية من الحكمة التقارب مع اسبانيا. أنظر:

- التازي، التاريخ الدبلوماسي، ج9، ص: 31.

(1128) عثمان باشا (1766-1791م) من أشهر دايات الجزائر، تذهب بعض الروايات إلى أن أصله من بلاد قرمان (Caraman) جنوب الأناضول، وعند قدومه إلى الجزائر تمكن من الانضمام إلى هيئة الخوجات، ثم ارتقى في المناصب لمعرفة للكتابة، إلى أن ولاه علي خوجة وظيفة خزناجي. تعرفه الوثائق بالمعظم المحترم. أنظر:

- أحمد توفيق المدني، عثمان باشا داي الجزائر 1761-1791م، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986، ص: 162.

(1129) في وقت سابق وبالتحديد سنة 1187هـ الموافق لسنة 1773م قام سلطان المغرب بإشعار داي الجزائر عثمان باشا بخطر الأسطول الإسباني الذي كان يتجهز للقيام بحملة على الجزائر بقيادة الأميرال أنطونيو باركلو. أنظر:

- المدني، حرب الثلاثمائة سنة، ص: 474.

أمرهم به فإننا نوجه عشرة فراكيط⁽¹¹³⁰⁾ (كذا) من فراكيطنا الجهادية لباب مرسى الجزائر ونمنع جميع الأجناس النصارى من الدخول إلى الجزائر، وكذلك الاصبنيول يوجهون عشرة من فراكيطهم (كذا) وهم يتكلمون مع أهل الجزائر وأنا كلامي مع أجناس النصارى الذين يريدون الدخول للجزائر⁽¹¹³¹⁾.

وفي هذا الإطار بعث ملك المغرب إلى إمبراطور إسبانيا كارلوس الثالث رسالة قرأها نيابة عنه كاتبه اليهودي (سومبيل) يقول فيها: "يوصل سيدي الإمبراطور حملته حتى حدود ولاية الجزائر، ولولا التقدير الذي يكنه سيدي الإمبراطور للخليفة لنصب نفسه سيدا على تلك الولاية وعاصمتها، اعتبارا لكون كل الأقاليم ترغب في الخضوع لسلطته، ولا يمكن للجزائر أن تدافع عن نفسها ضد قوته المسلحة خلال يومين."⁽¹¹³²⁾ ولما أحس الخليفة العثماني أن الأمر جاد -يقول الزياتي- "راسل سلطان المغرب، وأبلغه أن يعرض عن أهل الجزائر لأنهم مجاهدون، فعليه أن يحسن جوارهم ويغض الطرف عن جهلهم وأفعالهم"⁽¹¹³³⁾.

وفي هذا السياق تأتي تلك الأحداث المتعلقة بالخلافات التي نشبت بين الداوي محمد بن عثمان وباي الشرق الجزائري الحاج جليل سنة (1194هـ/1780م)، حين عزم الداوي على عزله، ولأن إسبانيا كانت على علم بهذه الخلافات، حاولت أن تقحم سلطان المغرب محمد بن عبد الله في الموضوع بشكل غير مباشر للتخلص من حكام الجزائر، فقامت بتشجيعه للمضي قدما لقتال أتراك الجزائر، وقطعت له وعودا بمساعدته في حل المشاكل الاقتصادية العويصة التي كان يعاني منها المغرب وقتها. ولإنجاح هذه الخطة كلف الأب خوسي بولتاس بأمورية السفر إلى المغرب، لأن ظروف القيام بهجوم مشترك ضد الجزائر كانت مواتية، بحيث أن: "أربعة وزراء في الجزائر كتبوا للسلطان -يقول أحد رجال الدين الفرنسيين- يشتمون من استبداد الداوي، فاستجدوا بالسلطان للإطاحة بالداوي وتسليم إيالة الجزائر لسلطان المغرب". وكان الأب بولتاس قد اعتبر طلب النجدة هذا حيلة من قبل بعض الجزائريين

(1130) أطلق اسم فرقاطة في الأصل على سفينة طويلة ضيقة الشكل، عرفت في البحر المتوسط، تشق الماء بواسطة مجاديف أو أشعة مربعة، كانت ذات طابقين بها مدافع، وهي سريعة، يطلق اسمها اليوم على نوع من السفن الحربية. أنظر:

- محفوظ ، الموسوعة العربية، مج3، ص: 1738.

(1131) التازي، التاريخ الدبلوماسي، ج9، ص: 33.

(1132) دياز، ص: 57.

(1133) الزياتي، الترجمانة، ص: 84 .

وعلى رأسهم باي الشرق الحاج جليل للبقاء في منصبه، لكن يمكن استغلاله أيضا من طرف سلطان المغرب وكذا ملك إسبانيا لتبرير هجومهما على الجزائر⁽¹¹³⁴⁾.

والحقيقة أن من وصفوا بوزراء الداوي -يقول رامون لوريدو دياز- لم يكونوا إلا أربعة من أعيان الجزائر، انتقلوا بصفة شخصية إلى المغرب لمقابلة السلطان محمد بن عبد الله، حاملين معهم هدية نفيسة، وهذا حتى يسمح لهم السلطان بشراء بعض الخيول، ويعيد لهم حوالي 300 من الأحمال من سلع مختلفة كان تجار من الجزائر قد أرسلوها إلى فاس وصادرت، لأن هذه التجارة كانت محظورة بسبب الاحتلال الذي كان يمارس في دفع الرسوم الجمركية⁽¹¹³⁵⁾.

وبالرغم من الغموض الذي كان يلف هذه الحادثة لتضارب الأخبار حول صحتها، غير أنه يستنتج من ذلك كله أن العلاقات بين الجزائر والمغرب لم تكن مقطوعة كلياً⁽¹¹³⁶⁾. وبالعودة إلى قضية سبته ومليلة فإن سلطان المغرب قبل فك الحصار الذي ضربه على المدينتين مضطرا، وسبب ذلك هو خذلان حكام الجزائر الأتراك له، بعد أن اتفقوا معه مسبقا على مساندته في استرجاع سبته ومليلة المغربيتين وكذلك وهران في الجزائر من يد الأسبان، بتاريخ 05 محرم 1189هـ الموافق لـ 08 مارس 1775م. علاوة على نجاح إسبانيا في منع وصول بعض المعدات الحربية إلى المغرب عن طريق جبل طارق. وعلى إثر ذلك أرسل السلطان محمد بن عبد الله، إلى علماء المغرب يستفتيهم في أمر حكام الجزائر، لاسيما وأن داوي الجزائر -حسب تعبير الرسالة الموجهة إلى العلماء- سلط نقمته على بعض مسلمي الجزائر الذين شاركوا في الحصار مع السلطان المغربي: "لقد أباحوا دماءهم وروعوا أولياءهم وطوفوهم في الأزقة (كذا)"⁽¹¹³⁷⁾. وقد استصدر السلطان من العلماء فتوى فحواها: "أنه لا يجب اعتبار حكومة الجزائر مسلمة، وأن الشريعة تلزمنا بمحاربتهم قبل محاربة المسيحيين، بما أن هؤلاء يدافعون عن دينهم وأنفسهم، بينما امتنع أولئك ليس فقط عن محاربة

(1134) دياز، ص: 89.

(1135) الظاهر أن السلع المهربة إلى المغرب هي مادة الكوشنيل، التي كان تصديرها إلى المغرب ممنوعا. أنظر:

-Venture de Paradis, Jean-Michel, **Alger au XVIII siècle (1739-1799)**, édité par E.

Fagnan, Paris, 1898, P: 32.

(1136) دياز، ص: 89-90.

(1137) التازي، التاريخ الدبلوماسي، ج9، ص: 48.

المسيحيين، ولكنهم اعتدوا على أولئك الذين أتوا للانضمام إلينا لمحاربتهم، لذلك قررنا الاستناد إلى رأي الشريعة الإسلامية للقضاء على تلك الحكومة الجزائرية، واضطهادها جسدياً، لأنها لا تتبع لا إرادة ولا آثار الخليفة العثماني، فهي ليست سوى مجموعة من المتمردين، تنفذ ما تقرر في مجلسها دون استشارة العلماء المسلمين عكس ما نقوم به نحن" (1138).

ونحن نستغرب كيف أن بعض المؤرخين يعبر عن موقف الجزائريين هذا بالفضيحة، ولم نجد ما يعبر في مقابل ذلك عن اتفاقية فرنسا والمغرب لسنة (1180هـ/1767م)، (1139) التي نصت صراحة في البند التاسع منها أنه: "إذا انقضى الصلح بين وجاقات (كذا) الجزائر ووجاقات تونس وطرابلس والفرنسيين، فلا يأمر سيدنا السلطان محمد بن عبد الله بن إسماعيل نصره الله بإعانة الوجاقات المذكورين بشيء أصلاً... ولا يترك أحد من رعيته يتسلح ويركب تحت سنح" (1140) (كذا) أحد الوجاقات ليقاثل الفرنسيين، ولا يترك أحد من مراسيه ليقلمهم وإن فعل أحد من رعيته ذلك، عاقبه وضمن ما أفسده" (1141). والاتفاقية في مضمونها تحالف مع جنس من أجناس الكفار لضرب بلد مسلم هو الجزائر. ثم ألم يذكر أحمد الغزال أن سبب فك السلطان محمد بن عبد الله للحصار الذي ضربه على كل من سبتة ومليلة مرده إلى نص الاتفاقية الخاطيء الذي أبرمه هو، نيابة عن سلطان المغرب مع إمبراطور اسبانيا كارلوس الثالث؟!

وعليه يمكن القول أنه بالرغم من عدم تمكن السلطان محمد بن عبد الله من توسيع حدود مملكته شرق المغرب للأسباب المذكورة سابقاً، إلا أنه نجح في إبرام اتفاقية مع فرنسا ستكون بمثابة اللبنة التي تبنى عليها العلاقات بين البلدين في عهد خلفائه، لاسيما في شقها المتعلق بإيالة الجزائر.

(1138) دياز، ص ص: 66-67.

(1139)

-Thomossy, p: 132.

(1140) ويراد به الراية والعلم، ويعرف كذلك بالبنديرة في اللفظ المغربي. أنظر:

- ابن زيدان، العز والصولة، ج1، ص: 400.

(1141) عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ج4، دار الثقافة، بيروت، د. ت. ط، ص ص: 217-218.

2.1- عهد السلطان سليمان:

إن المتمعن في مختلف الحملات التوسعية المغربية داخل الحدود الجزائرية، يلاحظ أن المغرب في عهد العلويين حقق أكثر من أربع نجاحات عسكرية وسياسية، استطاع من خلالها رسم حدوده الجديدة في كل مرة مع إيالة الجزائر، أغلبها كان في عهد المولى سليمان. وكانت البداية منذ سنة (1064هـ / 1653-1654م)، فنقلت الحدود المغربية من وادي ملوية إلى وادي تافنة، وبقيت على هذه الصورة قرابة تسعة وثلاثين سنة، إلى أن أعادها الداوي شعبان باشا إلى ملوية سنة (1103هـ / 1691-1692م). ثم بعد أكثر من قرن عاد المولى سليمان ونقلها من ملوية إلى شرقي وجدة عام (1210هـ / 1795-1796م) ثم وسعها بعد ذلك إلى فكيك عام (1220هـ / 1805-1806م) ومن ثم نحو كورارة وتوات عام (1223هـ / 1808-1809م)، وبقيت على هذه الحالة إلى غاية الاحتلال الفرنسي للجزائر⁽¹¹⁴²⁾.

فهل كان للمولى سليمان الإمكانات الكافية للتوسع شرق المغرب والحصول على أراض جديدة، تذكر المصادر أنها كانت تابعة لإيالة الجزائر؟ بل إنه تمكن من أن إبرام اتفاقيات رسم الحدود الجديدة مع دايات الجزائر، لم تتغير إلا مع الاحتلال الفرنسي للجزائر، على الرغم من قيام السلطان عبد الرحمان بن هشام بمحاولة توسع جديد، فكيف استثمر المولى سليمان وخلفه عبد الرحمان بن هشام في الأوضاع المزرية التي عرفت إيالة الجزائر في هذه الفترة؟

تشير بعض الكتابات التاريخية في الموضوع إلى أن المولى سليمان كان حريصا على إبقاء علاقات ودية مع أتراك الجزائر منذ توليه العرش، وبحنكته السياسية استطاع إبعادهم عن مدينة وجدة، التي احتلها الأتراك أوائل عهد المولى سليمان، مستغلين بذلك حالة الفوضى التي عمت المغرب بعد وفاة والده المولى محمد بن عبد الله، وقد عمل الأتراك من خلال احتلال مدينة وجدة على مراقبة القبائل العربية في المغرب التي كانت تعتمد إلى دخول تلمسان والعبث فيها، كما كانت من حين لآخر تدخل وهران وتزعج الأتراك والسكان. أما المولى

⁽¹¹⁴²⁾ جلول مكي، مسألة الحدود بين المغرب والجزائر من 631 إلى 1263هـ / 1234 - 1847م، رسالة ماجستير،

معهد التاريخ، جامعة الجزائر، 1993، ص ص: 124-125.

- لتفاصيل أكثر عن وضع هذه الحدود انظر الملحق رقم: 2 ص: 376.

سليمان فقد تمكن من إبعاد الأتراك عن وجدة بطريقة سلمية بعد عدة مراسلات أجراها مع حاكم الجزائر وباي وهران⁽¹¹⁴³⁾.

غير أن حسين مؤنس يرى دخول وجدة في طاعة المولى سليمان، كان في أواخر (1211هـ/1796م) عندما أرسل إليها عددا من القوات لمحاربة الأتراك المتمركزين بها، وتمكن المولى سليمان بعد وفاة باي وهران محمد الكبير من الاستيلاء على تلمسان كذلك⁽¹¹⁴⁴⁾. ولابأس هنا أن نذكر ما نقله الناصري عن هذه الأحداث: "إن المولى سليمان بعث بعدد من العساكر من فاس إلى وجدة... وأمرهم أن يأتوا أرض وجدة ويدوخوها ويقاثلوا الترك الذين استحوذوا عليها ومانعوا دونها وكتب مع ذلك إلى الباي محمد باشا في أن يتخلى عنها وعن قبائلها أيام الفترة أو أن يأذن بالحرب، فامتثل الباي محمد ذلك ولم يمانع بل كتب إلى نائبه بها أن يتركها لأربابها ويتخلى عن قبائل بني يزناسن... ودخل جيش السلطان لوجدة وجبى زكواتها وأعشارها، واستخلف نائبه بها(كذا)..."⁽¹¹⁴⁵⁾.

هذا الكلام يؤكد دوماس (Daumas) (1803-1871) ودولامارتينيير (DE LA MARTINIERE) وغيرهم⁽¹¹⁴⁶⁾، من مؤرخي الاستعمار، حين ذكروا أن باي وهران لم يشأ الدخول في صراع مع المولى سليمان، الذي استغل حركات التمرد والفوضى التي قامت

(1143) خير فارس، ص: 126.

(1144) مؤنس، ج3، ص: 313.

(1145) الناصري، الاستقصاء، مج3، ص: 213.

(1146) في سنة 1845 قام المقدم دوماس المدير المركزي للشؤون العربية بالجزائر بوضع الكتاب المعنون بـ (الصحراء الجزائرية) (Le Sahara Algérien)، بإيعاز وتشجيع من الجنرال بيجو (Bugeaud). مع العلم أن دوماس أنجز قبل ذلك خريطة بتاريخ 21 ديسمبر 1840م بأمر من الجنرال (دو لامورسيير) (De Lamoricière)، بناء على معلومات مصدرها القائد التركي مصطفى بن إسماعيل، ونتيجة لاستجوابه حوالي مائة شخص من السكان المحليين من القبائل الجزائرية والمغربية المقيمة في الصحراء بمحاذاة واحات عين صالح وبلاد الطوارق، وكذا بناء على أبحاث استغرقت عشر سنوات تحت إشراف المديرية المركزية للشؤون العربية بالجزائر. ويلاحظ من الخريطة أن واحات فكيك وطنت في موضع واقع في التراب الجزائري. أنظر:

- خالد بن الصغير، واحات التخوم وحدود المغرب الشرقية، (1800-1903م)، وثائق وخرائط مختارة، ط1، منشورات المعهد الملكي للبحث في تاريخ المغرب، الرباط، 2013، ص: 36. وكذلك:

- DE LA MARTINIERE ET N.LACROIX ,DOCUMENTS POUR SERVIR A L'ETUDE DU NORD

OUEST AFRICAINE, les oasis de l'extrême-sud Algérie, T1, REUNIS ET Rédigé par ordre de Mr

JULES CAMBON, gouvernement général de l'Algérie, France, 1894-1897, P :16-18.

بها بعض القبائل ناحية وجدة، ليتوسع شرقا منذ سنة (1210هـ/1795م)، وبقي الوضع على ما هو عليه في المنطقة إلى غاية نزول الفرنسيين أرض الجزائر⁽¹¹⁴⁷⁾.

لقد حاول المغرب نقل الصراع إلى الحدود مع الجزائر عن طريق بعض التنظيمات لإضعافها -يقول دولا مارتينيير- وتركها تستقر في ناحية وجدة، هذه المدينة التي شغلها الأتراك مدة طويلة من الزمن إلى غاية نهاية القرن 18م، وحسب هذا المؤرخ دائما، فإن الأتراك كانوا أسياد هذه المدينة وما جاورها، ولا يوجد في كتب التاريخ ما يثبت أنهم تخلوا عن مدينة وجدة قبل سنة (1210هـ/1795م). وبعد خروجهم منها دخلها حكام المغرب عن طريق القبائل الموالية لهم، التي كانت نوعا ما مستقلة.⁽¹¹⁴⁸⁾

أما الباحث محمد المنصور، فيعتقد أن المولى سليمان بالرغم من الاضطرابات التي كانت تعيشها إيالة الجزائر، لاسيما الثورات على الحكام الأتراك، لم يستغل هذا الوضع ليوسع نفوذه شرق المغرب، فقد التزم الصمت وضبط النفس، ولم يستخدم ضعف جيرانه الأتراك لتحقيق مصالحه، مع أنه كان يعتقد شخصا أن الحد الفاصل بين المغرب والجزائر هو وادي تافنة، واستلهم الباحث هذا الرأي من خلال حديث كان قد أجراه المولى سليمان مع العالم الجزائري محمد أبو راس الناصري⁽¹¹⁴⁹⁾، وكان الناصري قد ذكر هذا الحدث في كتابه فتح الإله، وفحواه أن المولى سليمان لما سأل أبي راس عن الحدود الفاصلة بين الجزائر والمغرب، أجابه الناصري بقوله: "وفق ما جاء عند ابن خلدون وأيضا في الاتفاقية المبرمة

-Idem , T1, P :16-18.

(1147)

- للمزيد من التوضيحات في هذا الموضوع أنظر: الملحق رقم: 2، ص: 376. والملحق رقم: 3، ص: 377.
(1148) هذه الاستقلالية تبدو جليلة من كثرة التمرد الذي كانت تقوم به قبائل المنطقة، على إثر دخولها تحت سلطة المخزن، مما يثبت هشاشة النفوذ المخزني فيها، ويؤكد هذا الكلام رسالة بعث بها حسين باشا حاكم الجزائر إلى سلطان المغرب المولى سليمان في أواسط 1237هـ، على إثر فرار حاكم وجدة إلى تلمسان، بعد ثورة أهالي المدينة عليه، يخبره فيها أنه وجه الأمر إلى باي الغرب حسن لإرسال بعض الجنود مع حاكم وجدة ليعيدوه إلى منصبه واقتراح إرسال قوات جزائرية إلى أراضي فاس لإعادة الأمن بها. أنظر:

- حماش، ص: 224. وكذلك:

- لتفاصيل أكثر عن هذا الموضوع انظر الملحق رقم: 4، ص ص: 378-382.

(1149) مؤرخ جزائري عاش في أواخر القرن 18م وأوائل القرن 19م، اسمه محمد بن أحمد الناصر، عاش حياة متقلبة، ولكنها غنية بالتجارب، تنقل في أنحاء القطر الجزائري من غربه إلى شرقه، وتجول في المغرب وتونس ومصر وبلاد الحجاز وبلاد الشام، وتحدث إلى بعض حكام الجزائر والمغرب وتونس. أما كتابه فتح الإله، فهو نوع من السيرة الذاتية، تحدث فيه المؤلف عن أهله وبيئته وشيوخه وعلمه وأسفاره، ألفه صاحبه بعد سنة 1233هـ وعلى الأرجح أنها السنة التي توفي فيها أو توفي سنة 1238هـ. أنظر:

- محمد أبو راس الناصري، فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته، تحقيق وضبط محمد بن عبد الكريم الجزائري، د.ط، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1986، ص ص: 5-7.

بين الأتراك والمولى إسماعيل، يتمثل في مدينة وجدة"، إلا أن المولى سليمان أبدى رأياً مخالفاً، وقال: "إن الحد الفاصل بين الإيالتين المغربية والجزائرية هو وادي تافنة الواقع بين وجدة وتلمسان (كذا)"⁽¹¹⁵⁰⁾.

غير أن نفس الكاتب يذكر أن المولى سليمان استطاع أن يربط الصلة مع سكان توات وكورارة وغيرها من أقاليم الجنوب الشرقي، بعد توجيهه لحملة برية منذ سنة (1213هـ/1798م) وعلى إثرها قبل سكان هذه المنطقة إعطاء الزكاة والأعشار لبيت المال، وبالمقابل أذن لهم المولى سليمان في اختيار من يتولى أمورهم من بين الأعيان المحليين. وقد ضمنت هذه الحملة مد المخزن نفوذه تجاه الإقليم الجنوب الشرقي⁽¹¹⁵¹⁾.

هذه الأقاليم التي يقول عنها كذلك الباحث خالد بن الصغير أنها ظلت خاضعة للمغرب منذ عهد السعديين، وجددت الولاء والطاعة في عهد العلويين، وقد استند الباحث في كلامه إلى مجموعة من المراسلات جرت بين المخزن وأعيان هذه المناطق، كالرسالة الموجهة من المولى عبد الملك بن المولى إسماعيل إلى المدعو عبد الرحمان صاحب كرزاز بإقليم توات بتاريخ 23 المحرم عام 1111هـ الموافق لـ 21 يوليو 1699م، والتي دعاه فيها لحث قبيلة الغنانمة القاطنة بوادي الساورة للقدوم إلى المغرب، ومبايعة السلطان إسماعيل، وكذلك استنادا إلى وثائق أخرى تذكر إقدام المولى سليمان على عزل القواد الجائرين بواحات توات، مشددا فيها على الاكتفاء بتعيين أمناء، فضلاء من بين سكان توات، بغية استيفاء الزكوات والأعشار من القادرين على أدائها، ونشر العدل في صفوف أهل التوات، وذلك عبر توجيهه لرسالتين إلى المعنيين بالأمر، بتاريخ 28 صفر 1215هـ (21 يوليو 1800)⁽¹¹⁵²⁾.

في حين أن رأياً آخر أبداه الباحث اسماعلي مولاي، عبر من خلاله عن أفكار أخرى تتعلق باستغلال الأتراك للصراع الذي كان قائماً بين المولى سليمان وأخويه الأمير مسلمة

⁽¹¹⁵⁰⁾ يظهر من كلام المولى سليمان أنه لم يكن يعرف موقع وادي تافنة بالضبط، وكما سبقت الإشارة في مدخل هذا الموضوع أن هذا الوادي يقع بين وهران وتلمسان، ومن غير المعقول أن تكون تلمسان من المدن التي تخلى عنها الأتراك لصالح المغرب في هذه الفترة. أنظر:

- محمد المنصور، المغرب قبل الاستعمار، المجتمع والدولة والدين، (1792-1822)، ترجمة محمد حبيدة، ط1، المركز العربي الثقافي، الدار البيضاء، المغرب، 2006، ص: 185.

⁽¹¹⁵¹⁾ نفس المرجع، ص: 184.

⁽¹¹⁵²⁾ بن الصغير، ص: 16.

والأمير هشام، فقاموا باستمالة بعض القواد في شرق المغرب عن طريق العطايا والامتيازات المادية، وتارة أخرى بإثارة الفتنة بينهم ومساندة البعض على البعض الآخر، تمهيدا للاستيلاء على مدينة وجدة وقبائل بني يزناسن، فاستغلوا الظروف السائدة آنذاك عقب سنوات القحط والمجاعة التي تفشت في المنطقة وتمكنوا من احتلال وجدة، ولكن لمدة زمنية قصيرة لم تتعد الأربع سنوات (1792-1796م). ومع ذلك خلف هذا الاحتلال -حسب اسماعيلي مولاي- آثارا وخيمة على الحياة الاجتماعية والاقتصادية، فقد تقلصت المبادلات التجارية بين شرق المغرب وغربه، في حين ازدادت حجما وتنوعا في الغرب الجزائري خاصة في مدينة تلمسان، كما تأثر نمط اللباس والعمران، وحتى الألفاظ التركية كان لها وزن في المنطقة والتي استمر تأثيرها إلى أمد طويل في لغة سكان وجدة مثل كلمة خزناسي، وكلمة أحرش التي تطلق على حومة بحي أولاد القاضي، وكلمة باشا عادل... (1153).

إن المتمعن في هذه الأحداث، والمطلع عهد المولى سليمان، الذي تذكر المصادر التاريخية أنه طبق سياسة العزلة وعدم التفتح على الخارج، طيلة فترة حكمه للمغرب، نظرا للظروف الداخلية والخارجية التي كان يمر بها المغرب، يتضح له جليا أن الأقاليم الشرقية والجنوبية الشرقية لم تخضع فعليا للمغرب، إلا في عهد المولى سليمان وذلك ما بين سنتي (1210-1222هـ / 1796-1808م)، وهي الفترة التي اشتدت فيها الثورة الدرقاوية والثورة التيجانية في الغرب الجزائري ضد الأتراك، والتي كانت تتغذى من المغرب وتنشط في الأقاليم الغربية والجنوبية الغربية للجزائر كما سيأتي معنا.

3.1- عهد السلطان عبد الرحمان بن هشام:

كانت منطقة التخوم الشرقية للمغرب في عهد السلطان عبد الرحمان بن هشام تعيش حالة توتر دائم، هذا الوضع فرض على المخزن أن تظل أنظاره متجهة إلى هذه النواحي، في الوقت الذي كانت فيه فرنسا تنهياً لاحتلال مدينة الجزائر (1154).

وبعد احتلال الفرنسيين لمدينة الجزائر في 1246هـ الموافق لـ 5 جويلية 1830م، وما ترتب عن هذا الحدث من فوضى واضطرابات عمت كل القطر الجزائري، أقدم أهل تلمسان

(1153) اسماعيلي مولاي عبد الحميد العلوي، تاريخ وجدة وأنكاد في دوحة الأمجاد، ج1، ط1، مطبعة النجاح الجديدة، المغرب، ص

ص: 91-92.

(1154) ياسين، ص: 18.

من العرب على مبايعة المولى عبد الرحمان بن هشام سنة 1830، ثم لحقت بهم بعض القبائل العربية الأخرى، وعلى إثر ذلك أوفد السلطان ابن عمه المولى علي ليكون على رأس حامية عسكرية إلى مدينة تلمسان، وتمكن المولى علي من بسط سيطرته إلى غاية الحدود مع مدينة وهران. كما كان للسلطان أعوان آخرون وزعمهم على المدن الآتية: المدية، مليانة، معسكر، وهم على التوالي: القائد الشريف المعطي (الحاج المعطي بن محمد) والقائد أبو محمد العربي بن محمد الشريف، وابن العامري⁽¹¹⁵⁵⁾. وعن طريق هؤلاء حاول السلطان بسط نفوذه إلى غاية الحدود مع مدينة الجزائر⁽¹¹⁵⁶⁾.

غير أن فرنسا لم تكن غافلة عن أطماع المغرب التوسعية في الجزائر، فلم تستحسن تصرف السلطان عبد الرحمان بن هشام، وكان عليها منذ البداية ضبط مسألة الحدود مع المغرب⁽¹¹⁵⁷⁾. لذلك راسلت السلطان عن طريق نائب قنصلها في المغرب، واحتجت بشدة على هذا التصرف، وأعربت عن قلقها وأسفها، نظرا لعلاقة الصداقة التي تجمع البلدين، فراحت تذكر المغرب بالاتفاقيات والمعاهدات المبرمة بينهما، لاسيما اتفاقية سنة (1180هـ/ 1767م)⁽¹¹⁵⁸⁾.

وتبعاً لذلك أوفدت مبعوثها العقيد أوفراي Auvray إلى السلطان لأجل ثنيه عن البقاء في تلمسان وهران، وكذا الأقاليم الغربية للجزائر، لكنه عاد خائبا. لأن المخزن احتج ببقائه في هذه الأقاليم نزولا عند رغبة سكان المنطقة، واستنادا إلى البيعة التي قدموها للسلطان. وحتى لا تبقى فرنسا مكتوفة الأيدي تتفرج على الوضع غيرت من لهجتها مع المخزن وأرسلت الجنرال دامرمون (Damrémont) على رأس قواتها إلى مدينة وهران في ديسمبر 1830م، هذا الأخير دخلها بتاريخ 1247هـ الموافق لـ 4 جانفي 1831⁽¹¹⁵⁹⁾.

وعلى إثر ذلك وجد سلطان المغرب نفسه مرغما على الاستجابة لمطالب فرنسا، فسحب قواته وممثليه من الجزائر، وأوقف كل نشاط رسمي، سياسي ودبلوماسي وعسكري بالجزائر،

(1155) مكي، ص ص: 18-19.

- DE LA MARTINIÈRE, T1, P : 18.

(1156)

-Idem , T1, P :18

(1157)

(1158) مكي، ص ص: 130-131.

- DE LA MARTINIÈRE , T1, P : 18.

(1159)

بعد بقاء قواته فيها قرابة 10 أشهر⁽¹¹⁶⁰⁾. ثم أرسل الملك لويس فليب (Louis Philippe) (1773-1850م) سفارة إلى المغرب برئاسة الكونت (دومرني) لتجديد الروابط وعلاقات الصداقة بين فرنسا والمغرب بتاريخ 1248هـ الموافق لـ 15 مارس 1832م، وضبط مسألة الحدود.⁽¹¹⁶¹⁾ وبتاريخ 1252هـ الموافق لـ 27 يوليو 1836م ورد على سلطان عبد الرحمان بن هشام الجنرال دولارو (De la rue) سفيراً لملك فرنسا، في شأن تأكيد ما اتفق عليه الطرفان في اتفاقية سابقة حول رسم الحدود بين الجزائر والمغرب، ومحدراً في نفس الوقت من موالة الأمير عبد القادر، الذي كان يلقي الدعم من طرف المخزن، ومنذراً بإعلان الحرب في حال مساعدته، أو في حال انضمام رعايا السلطان للأمير، وبالتالي إلزام المغرب الحياد التام⁽¹¹⁶²⁾.

توالى السفارات والعمل الدبلوماسي المكثف بين المغرب وفرنسا لضبط مسألة الحدود بين الجزائر والمغرب، لكن المسألة لم تعرف الحل إلا بعد معركة إيسلي⁽¹¹⁶³⁾، التي على إثرها أبرمت معاهدة الصلح بطنجة بتاريخ 25 شعبان 1260هـ الموافق لـ 10 سبتمبر 1844م، والتي خصص البند الأول والخامس منها لقضية الحدود بين البلدين، ثم اتفاقية لالة مغنية بتاريخ 9 ربيع الأول 1261هـ الموافق لـ 18 مارس 1845م، وقعتها نيابة عن ملك فرنسا الجنرال دولارو، وعن سلطان المغرب السيد حميدة بن علي السجعي. وقد جاءت هذه المعاهدة لتتوجها للبحوث والدراسات التي قامت بها السلطات الاستعمارية الفرنسية، وكذلك استدراكاً للأخطاء السابقة التي وقعت فيها، والتي حاول المغرب استغلالها لصالحه قدر الإمكان، ولما وقّعت اتفاقية لالة مغنية احتج السلطان عبد الرحمان بن هشام بشدة على

⁽¹¹⁶⁰⁾ مكي، ص ص: 124-133.

⁽¹¹⁶¹⁾ ابن زيدان، إتحاف أعلام الناس، ج5، ص: 186.

⁽¹¹⁶²⁾ نفس المرجع، ص: 187.

⁽¹¹⁶³⁾ جرت أحداث هذه المعركة بوادي إيسلي بالقرب من وادي ملوية شرق المغرب بين القوات المغربية بقيادة الأمير المولى محمد بن عبد الرحمان، والقوات الفرنسية بقيادة بيجو، التي عمدت إلى احتلال وجدة التي كانت مركزاً لقوات الأمير عبد القادر الجزائري منذ تاريخ 30 ماي 1844م، وكانت المعركة بتاريخ 14 أوت 1844م وبعد نصف يوم من المواجهات الدامية بين الجانبين، انتهت بانتصار القوات الفرنسية وهزيمة القوات المغربية التي استشهد منها حوالي 300 فارس، و2000 جريح. وفي اليوم الموالي أي 15 أوت قام الأسطول الفرنسي بقصف مدينة الصويرة المغربية. وبتاريخ 10 سبتمبر 1844 توصل الطرفان المتحاربان إلى اتفاق لوقف القتال والتفاهم على جملة من الشروط منها مسألة الحدود. أنظر:

- حركات، المغرب عبر التاريخ، ص ص: 199-206. وكذلك:

مضمونها، واعتبر بنودها تمس بالسيادة المغربية، كما اتهم نائبه حميدة بن علي السجعي بالتقصير، والتواطؤ مع العدو. ولقد تضمنت الاتفاقية سبعة بنود، تفصل بدقة رسم الحدود بين الجزائر والمغرب ورعايا البلدين في كل إقليم منهما⁽¹¹⁶⁴⁾.

2 - قضية الأسرى:

إلى جانب النشاط الدبلوماسي المكثف الذي مارسه المغرب لاسيما في عهد السلطان محمد بن عبد الله للظهور كبلد قوي لا يستهان به خاصة أمام إيالة الجزائر، تبرز إلى السطح قضية افتداء الأسرى المسلمين، لاسيما أولئك الذين ينتسبون إلى إيالة الجزائر العدو التقليدي للمغرب. فهل هناك أسباب حقيقية وراء الجهد الدبلوماسي لسلطان المغرب من أجل افتداء هؤلاء الأسرى إلى جانب الدوافع الإنسانية التي كانت تحرك السلطان لتحرير الأسرى المسلمين من العبودية حسب ما أفاد به المؤرخون؟ وما هو الأثر الذي تركته مسألة تحرير الأسرى المسلمين وغير المسلمين عند الباب العالي والدول الأوربية، على يد سلطان مغربي كان مغمورا قبل بروز هذه المسألة على الساحة السياسية والدبلوماسية؟

إنه من الصعب تصديق أن نزعة الإيثار - يقول رمون لوريديو دياز - التي يحث عليها الدين الإسلامي هي التي كانت تحرك السلطان لإنفاق أموال طائلة في سبيل تحرير الأسرى المسلمين، من مالطا والجمهوريات الإيطالية الصغرى وإسبانيا، وخاصة رعايا عدوه اللدود الجزائر، التي كانت الرابح الأكبر والمستفيد الأول من هذه العملية، في وقت كان الأسرى المغاربة من رعاياه في أمس الحاجة إلى مثل هذه الأموال⁽¹¹⁶⁵⁾.

فلقد بلغ عدد ما افتداه، السلطان من أسرى مغاربة وجزائريين وأتراك وغيرهم، أو كان سببا في فدائهم آلاف الأسرى، بعث في افتدائهم سفارات مهمة إلى عدد من الدول الأوربية. على غرار سفارة أحمد الغزال وسفارة ابن عثمان المكناسي،⁽¹¹⁶⁶⁾ اللتين كانتا من أكبر وأهم السفارات في افتداء الأسرى، والتي حقق السلطان من ورائها نتائج إيجابية مذهشة، لحملته

⁽¹¹⁶⁴⁾ بن صغير، ص ص: 38-43. وكذلك:

-Renou Émilien, **Exploration scientifique de L Algérie pendant les années 1840-1841-1842**, Publier par ordre du gouvernement et avec le concours d'une commission académique, T8, imprimerie royale, Paris, s.d, pp : 459-464.

⁽¹¹⁶⁵⁾ دياز، ص ص: 97-98.

⁽¹¹⁶⁶⁾ كنون، مشاهير رجال المغرب، ص: 16-17.

الإنسانية المناوئة، إذ كانت أحسن سلاح وأكثر إقناع من سلطان المغرب أمام العالم الإسلامي بصفة عامة والعثمانيين بصفة خاصة للتقليل من شأن أترك الجزائر⁽¹¹⁶⁷⁾.

1.2- سفارة أحمد الغزال:

لقد بذل المولى محمد جل ما لديه من وسائل ومساع سياسية ودبلوماسية للتدخل في شؤون الجزائر، وقد حاول استمالة داي الجزائر عثمان باشا، من خلال فكرة تحرير الأسرى الجزائريين ومبادلتهم بالأسرى الإسبان، ثم إقناعه لعقد معاهدة سلام وتجارة مع إسبانيا عن طريق سفارة مثمرة سنة (1179هـ/1766م) يكون فيها المغرب وسيطا، وذلك عندما أرسل السلطان كاتبه أحمد الغزال إلى إسبانيا في نفس السنة⁽¹¹⁶⁸⁾.

ولقد شكر الداوي عثمان باشا الملك المغربي على جهوده في تحرير الأسرى الجزائريين من إسبانيا، آملا في أن يتواصل ذلك مستقبلا، كما أبدى رغبته في أن يتوقف القراصنة الأتراك في اعتراض السفن الإسبانية في المياه القريبة من الموانئ المغربية. وحتى تبدو مبادرة المغرب صادقة ونواياه حسنة، راح السلطان يحفز الحكومة الإسبانية على الشروع في مفاوضات سلام مع الجزائر، لكنه عمد إلى الإدعاء بأن السلطات الجزائرية هي التي ترغب في المفاوضات مع إسبانيا، وهي مهتمة بتحقيق السلام معها، وقد طلبت الوساطة من سلطان المغرب، بالرغم من عدم قيام إيالة الجزائر بأي خطوة من هذا القبيل. وحاول السلطان في الوقت نفسه إقناع إسبانيا أن القراصنة الجزائريين هم من يعترضون السفن التجارية الإسبانية في مضيق جبل طارق، وأنه سيفعل اللازم لمنع تكرار ذلك: "وبما أن المضيق مجاور لمناطق نفوذنا، ولكونه ضيقا فسيكون حرا من سبته إلى طنجة". وبالرغم من نجاحه في إبرام الصلح بين إيالة الجزائر وإسبانيا إلا أن كل المناورات السياسية التي قام بها السلطان كانت مبادرة فردية منه، تفتن لها أترك الجزائر، فقاموا بنقض معاهدتهم مع إسبانيا، مما دفع الأخيرة للاحتجاج بقوة أمام الملك المغربي نظيرا للوعود التي قدمها لها، لا سيما فيما تعلق بعدم مهاجمة السفن الجزائرية للسفن الإسبانية على بعد 30 ميلا من اليابسة⁽¹¹⁶⁹⁾.

⁽¹¹⁶⁷⁾ دياز، ص ص: 97-98.

⁽¹¹⁶⁸⁾ نفس المرجع، ص: 48.

⁽¹¹⁶⁹⁾ نفس المرجع، ص ص: 49-50.

وفي هذا الصدد قام ملك المغرب بتهديد الداوي من أجل إيقاف اعتداءاته ضد السفن التجارية الإسبانية قبالة سواحل المغرب، مذكرا إياه ببند الاتفاقية الجزائرية الإسبانية وجهود الوساطة المغربية في ذلك. لكن الداوي لم يول بالاً لردود الأفعال هذه. فما كان من ملك المغرب إلا أن كتب إلى سفيره بمدير قائل: "أعرف أنهم ليسوا أناسا صادقين (الجزائريون)... وقد قررت منذ اليوم أن يفعل كل منهم (الإسبان والجزائريين) ما يبدو له وأن يبعدونني حتى عن معاهدة 30 ميلا التي وقعتها معهم، فأبلغ الإسبان أنني أتبرأ من كل معاهدة أو مراسلة بسبب عدم وفاء هؤلاء الجزائريين بالوعد"⁽¹¹⁷⁰⁾.

والسؤال الذي يطرح هنا: إذا كانت هذه الأحداث تندرج ضمن وساطة قام بها السفير المغربي أحمد الغزال، فما حقيقة ما نقله هذا السفير من أن سفارته كانت لها بعد إنساني أكثر من أي شيء آخر؟

يذكر الغزال أن اهتمام السلطان محمد بن عبد الله بقضية الأسرى المسلمين بدأت عندما بعثت جماعة منهم في اسبانيا برسالة إلى السلطان المغربي تشكو فيها، ما نالهم من التعسف والاهانة ومما يكلفون به من الأعمال الشاقة، وقلة العناية بأكلهم ولباسهم. فقد تأثر السلطان لحال هؤلاء التعساء، واهتم بمصيرهم، فكتب إلى ملك اسبانيا كارلوس الثالث يبلغه بأمر الأسرى عموماً، وحفظه القرآن والعجزة منهم على الخصوص. وقد طلب منه أن يميز في معاملة هذه الفئة الأخيرة، كما يفعل هو في التمييز بين القساوسة ورجال الدين من الأسرى الإسبان الذين هم تحت يده⁽¹¹⁷¹⁾.

وعلى إثر ذلك قام السلطان محمد بن عبد الله بإطلاق سراح عدد من الأسرى الإسبان دون فدية، فرد عليه كارلوس الثالث برسالة شكر وهدايا قيمة حملتها بعثة من القساوسة، وطلب ملك إسبانيا من السلطان في الرسالة أن يبعث بأحد رجال دولته للاجتماع به وزيارة المدن الاسبانية والتعرف على أحوالها⁽¹¹⁷²⁾.

فكان ممن اختارهم السلطان على رأس الوفد المغربي المتوجه إلى اسبانيا كاتبه أحمد الغزال.

⁽¹¹⁷⁰⁾ نفس المرجع، ص ص: 50-51.

⁽¹¹⁷¹⁾ الغزال، ص ص: 8-9.

⁽¹¹⁷²⁾ نفس المصدر، ص ص: 8-9.

كانت السفارة ناجحة إلى أبعد الحدود على حد تعبير الغزال، لأن آثارها تجاوزت العلاقات المغربية الاسبانية لتشمل العلاقات الجزائرية الاسبانية، فبعد ما نجح الوفد في افتداء عدد كبير من الأسرى المغاربة والتخفيف على البقية التي لم يطلق سراحها بمنحهم الكسوة والغذاء، كتب كارلوس الثالث سنة (1182هـ/1768م) إلى سلطان المغرب، يخبره أنه لم يبق لديه أحد من الأسرى المغاربة، ماعدا قلة من الأسرى الجزائريين الذين يطلب مقايضتهم بأسرى اسبانيا في الجزائر، فهو يرجو إذن من سلطان المغرب التوسط لدى السلطات الجزائرية، من أجل قيام البلدين بتبادل الأسرى: "الرايس، بالرايس... والبحري بالبحري، والجندي بالجندي، ومن فضلت عنده فضله تكون على أساس البحري بخمسمائة ريال والرايس بألف ريال... الخ (كذا)"⁽¹¹⁷³⁾.

لقد قبل السلطان المغربي الوساطة بين اسبانيا والجزائر - يقول الغزال - ولكن داي الجزائر عثمان باشا كان متمردا، لأن بعض الدول الأوربية كانت تقدم له نصائح مغرضة، لأنها كانت تتخوف من أن يكون التقارب الجزائري الاسباني خطوة نحو خراب تجارة هذه الدول. ولكن السلطان المغربي كان متحمسا لهذه المهمة (الوساطة)، فقام بافتداء الأسرى الجزائريين بنفسه وأرسلهم مع كاتبه أحمد الغزال إلى الجزائر وأنزل من المراكب حوالي 1600 أسير، ولما رأت السلطات الجزائرية هذا الموقف، قامت بإطلاق سراح الأسرى الاسبان، فعادت المراكب إلى اسبانيا وعادت السفارة المغربية إلى المغرب مكلفة بالنجاح، مرة أخرى، وهو النجاح الذي سمح لأحمد الغزال من تدعيم مركزه في قصر السلطان بحيث أصبح من كبار رجال المخزن ومن مستشاري الملك المقربين، إلى حين عزله⁽¹¹⁷⁴⁾.

⁽¹¹⁷³⁾ نفس المصدر، ص: 13.

⁽¹¹⁷⁴⁾ نفس المصدر، ص: 13.

2.2- سفارة ابن عثمان المكناسي:

في سنة (1193هـ/1779م) بعث السلطان محمد بن عبد الله سفيره ابن عثمان المكناسي إلى اسبانيا لتجديد الصلح بين الدولتين، وحسب ما أورده "دوشيني" القنصل العام الفرنسي بالمغرب: "فإن قطع العلاقات السياسية بين فرنسا وإنجلترا، فجر الوضعية السياسية بأوروبا، فرأت اسبانيا أن الوقت مناسب للتقرب من إمبراطورية المغرب (كذا)"⁽¹¹⁷⁵⁾. ولا شك أن مهمة ابن عثمان لتجديد الصلح مع اسبانيا تضمنت كذلك تكليفا من السلطان بافتداء الأسرى المسلمين، حسب ما هو معنون من كتاب ابن عثمان نفسه، "الإكسير في فكاك الأسير"⁽¹¹⁷⁶⁾، وقد استطاع ابن عثمان أن يحرر عددا من الأسرى المسلمين الذين لقيهم باسبانيا، ووزع على من بقي منهم المؤونة والكسوة، كما عبر ابن عثمان بسخط وأسى كبيرين عن حال هؤلاء الأسرى لاسيما أسرى الجزائر منهم: "إن الولاة الأتراك بالجزائر لا يكثرثون لافتداء الأسرى العرب من أهل الجزائر، بل إنهم يهتمون بأبناء جلدتهم من الأتراك"⁽¹¹⁷⁷⁾، أكثر مما يهتمون بأبناء الجزائر العرب"⁽¹¹⁷⁸⁾.

وقد طرح ابن عثمان المسألة على ملك اسبانيا، الذي رد بأنه لا يقدر على تلبية طلبه بالكامل، لأن هناك بالمقابل أسرى إسبان بالجزائر، هو يتوق إلى إطلاق سراحهم. ومع ذلك فقد منحه مجموعة من الأسرى اختارهم ابن عثمان بنفسه، فكان عدد ما افتداه ابن عثمان مائة وعشرون أسيرا (120). ولما عاد ابن عثمان إلى المغرب دخل معه الأسرى المغاربة في مهرجان عظيم، بما فيهم أسرى الجزائر، واحتفلوا احتفالا لم يسبق للأسرى أن احتفوه"⁽¹¹⁷⁹⁾.

وفي سنة (1195هـ/1785م)، كلف ابن عثمان بسفارة أخرى إلى نابلي، وقد ألف فيها كتابا سماه "البدر السافر في افتكاك الأسرى من يد العدو الكافر"⁽¹¹⁸⁰⁾.

(1175) الفاسي، الوزير محمد بن عثمان المكناسي، ص: 8-9.

(1176) المكناسي، الإكسير، ص: ظ، (المقدمة).

(1177) الفاسي، الوزير محمد بن عثمان المكناسي، ص: 13.

(1178) برر أترك الجزائر سبب رفضهم افتداء أسراهم، بأن لديهم في الجزائر قانونا خاصا يمنعهم من استرجاع الأسير كيما كان أمره.

أنظر:- أحمد توفيق المدني، محمد عثمان باشا، دار البصائر، 2009، ص: 208.

(1179) الفاسي، الوزير محمد بن عثمان المكناسي، ص: 13.

(1180) المكناسي، الإكسير، ص: ك، (المقدمة).

لقد كللت جل السفارات المغربية في تحرير الأسرى المسلمين من بعض البلدان الأوربية بالنجاح، أما التي فشلت فكانت الأموال المرصودة لها، توجه إلى إسطنبول. وهذا التصرف لم يكن ليهضمه الخليفة العثماني بسهولة، فلم تكن تعجبه تصرفات سلطان المغرب، وكان يراقبها بحذر شديد⁽¹¹⁸¹⁾. ولذلك رد على المولى محمد برسالة جاء فيها: "سنعمل على افتداء الأسرى، وإن فقراء مكة والمدينة أحوج إلى النقود"⁽¹¹⁸²⁾.

وإزاء هذه الأوضاع، كان من الصعب بل ومن المزعج للخليفة العثماني وجود حاكم مسلم منافس له في الساحة الدولية آنذاك، فالهدايا القيمة التي كان يقدمها السفراء الأوربيين للسلطان محمد بن عبد الله، نظير جهوده في تحرير الأسرى المسلمين في مقابل الأسرى الأوربيين، كان لها بالتأكيد بالغ الأثر في البلاط العثماني، الذي كان يستقي أخبار السلطان السياسية والدبلوماسية من مندوب المغرب، الذي على ما يبدو، كان متواجدا بإسطنبول منذ سنة (1180هـ/1767م) بصفة دائمة. فعن طريقه علم الأتراك أن إسبانيا وقعت معاهدة سلام وتجارة مع المغرب شبيهة بتلك التي أبرمتها مع الباب العالي. وعن طريقه كذلك علمت أن سلطان المغرب تسلم شخصا قرابة الثمانمائة (800) أسير، منهم 300 أسير مغربي، والبقية جلمهم رعايا لإسطنبول أو لإيالاتها⁽¹¹⁸³⁾.

إن هم السلطان في افتداء الأسرى المسلمين، كان نابعا من شعوره بالمسؤولية الإسلامية تجاه أبناء دينه على ما تذكره المصادر المغربية، غير ناظر لطبيعة العلاقات مع دولهم⁽¹¹⁸⁴⁾، فقد كان يخاطب ملوك أوربا: "أنه لا يسعنا في ديننا إهمال الأسرى، وتركهم في الأسر، ولا حاجة في التغافل عنهم لمن ولاه الله الأمر، فيما نظن أنه لا يسعكم ذلك في دينكم أيضا"⁽¹¹⁸⁵⁾.

وعلى ما يبدو، فإن السلطان محمد بن عبد الله، كان يستقبل الأسرى المسلمين في المغرب في أجواء بهيجة فينفق عليهم المال والكسوة، ثم يرسلهم إلى بلدانهم⁽¹¹⁸⁶⁾، حتى إذا

(1181) سامح، ص: 498.

(1182) سامح، ص: 500.

(1183) دياز، ص: 50.

(1184) الخزانة الملكية، منتخبات من نوادر المخطوطات، ص: 18.

(1185) كنون، مشاهير رجال المغرب، ص: 16-17.

(1186) الغزال، ص ص: 219-230.

ما وصلوا نقلوا الانطباع الحسن عن سلطان المغرب إلى بلدانهم وذويهم، فتزداد محبتهم له وتتعلق قلوبهم به، فقد وجدوا عنده ما لم يجدوه عند ملوكهم، وبذلك تبلغ شهرته الآفاق وتنتشر بسرعة بين المسلمين، فقد كان تأثيره بارزا في شمال إفريقيا، وربما مقبولا لدى الباب العالي⁽¹¹⁸⁷⁾.

ومن جهة أخرى، يقوم السلطان بعملية مقايضة الأسرى الأوربيين على أمل الحصول على تجهيزات تقنية للسفن، كما جرى في المفاوضات الفرنسية المغربية لسنة (1179هـ/1765م)⁽¹¹⁸⁸⁾.

لا شك أن البعد الإنساني له دور في دفع الدول للاهتمام بشأن الأسرى، غير أن هذا البعد وحده لا يكفي لتبرير الاهتمام، إذ لا يمكن إغفال الخلفيات الاقتصادية أيضا.⁽¹¹⁸⁹⁾ أما بالنسبة للمغرب فإلى جانب البعد الإنساني والاقتصادي هناك البعد السياسي أيضا الذي يوظف في قضية الأسرى، لاسيما فيما يتعلق بمكانة المغرب وتنافس السياسي مع الخلافة العثمانية والولايات التابعة لها.

⁽¹¹⁸⁷⁾ دياز، ص ص: 49-50 .

⁽¹¹⁸⁸⁾ حركات، المغرب عبر التاريخ، ج3، ص: 112، وكذلك: - أحمد عسة، المعجزة المغربية، ط1، دار القلم للطباعة، بيروت، 1974-1975، ص: 111.

⁽¹¹⁸⁹⁾ قدوري، ص: 220.

3- موقف المغرب من احتلال فرنسا للجزائر:

منذ تولي السلطان عبد الرحمن بن هشام عرش المغرب سنة (1238هـ/1822م)، حرص على تقوية علاقاته مع فرنسا، متبعا في ذلك خطى آباءه، ففي سنة (1239هـ/1823م) أقرّ معها اتفاق جده السلطان محمد بن عبد الله لسنة (1180هـ/1767م)، هذا بالإضافة إلى اتفاقية جديدة أبرمها معها نصت بنودها على التعاون الثنائي، وتموين الجيش الفرنسي المتواجد وقتها بجبل طارق، وهو ما حصل فعلا عندما قدّم السلطان للحامية الفرنسية بإسبانيا حوالي أربعة آلاف رأس من الثيران وثلاثمائة ألف قنطار من الشعير كامتياز⁽¹¹⁹⁰⁾.

1.3- انعكاسات الحملة الفرنسية ضد الجزائر على سياسة المخزن:

مع قيام الخلاف الفرنسي الجزائري بعد حادثة المروحة الشهيرة، عبّر سلطان المغرب عن حياده في هذه المسألة، متذعرا في ذلك باتفاقية السلم والصداقة التي أبرمها جده مع فرنسا سنة (1180هـ/1767م) وقام هو بتجديدها، خاصة فيما يتعلق بالبند التاسع منها، الذي يمنع على المغرب مساندة خصوم فرنسا في حالة الحرب، وهي المعاهدة التي تقيد المغرب بتنفيذ بنودها حرفيا. وأثناء فترة الحصار البحري الذي فرضته فرنسا على إيالة الجزائر، تمكنت فرنسا عن طريق رجال الطرق والزوايا في المغرب من الحصول على معلومات مهمة عن الأوضاع الداخلية في الجزائر، فقدمت بذلك هذه الطرق خدمات مهمة للفرنسيين من أجل احتلال الجزائر⁽¹¹⁹¹⁾.

وفي محاولات لكسر الحصار البحري الذي فرضته فرنسا على إيالة الجزائر تمكن عدد من رجال البحرية التركية في صيف (1243هـ/1828م) من الاستيلاء على عدد من السفن التجارية الفرنسية واقتيادها إلى مينائي تطوان والعرائش، وهذا دفع فرنسا عن طريق ممثلها في المغرب دي لابورط (De Laporte) لثني المغرب عن قبول بيع بضائع هذه السفن في المغرب، وهو طلب قابله السلطان عبد الرحمان بن هشام في البداية بالرفض، في سبتمبر من نفس السنة. ومن ناحية أخرى طلب السلطان من عامله على طنجة محمد أشعاش أن

⁽¹¹⁹⁰⁾ ابن زيدان، إتحاف أعلام الناس، ج5، ص: 182.

⁽¹¹⁹¹⁾ مكي، ص ص: 127-128.

يساعد سرا البحارة الجزائريين بما يحتاجونه من مؤونة، وأن يسمح لهم ببيع غنائمهم خفية، مخاطبا إياه: "إن أهل الجزائر منا وإلينا لا ندخر عنهم شيئا من المعونة إن أمكننا"⁽¹¹⁹²⁾.

فهل حافظ السلطان على موقفه هذا من الجزائريين أم كان يعمل على ربح الوقت لصالحه، حتى يتمكن من توسيع حدود مملكته شرقا، وتنصيب نفسه حاكما على إيالة الجزائر، لاسيما وأن الأوضاع الداخلية لإيالة الجزائر وخصوصا الأقاليم الغربية منها لم يكن غافلا عنها؟

بعد قرابة الخمسة أشهر من حادثة البحارة الجزائريين، جددت فرنسا عن طريق ممثلها في المغرب دي لابورط لسلطان المغرب، طلبها في منع الجزائريين من بيع غنائمهم من السفن الفرنسية في تطوان والعرائش. وعلى إثر هذا الطلب أصدر السلطان فرمانا يطلب فيه من عامله على تطوان، منع الجزائريين من المتاجرة في موانئ تطوان، نزولا عند طلب الفرنسيين، دون أن يذكر السلطان شيئا عن المراكب الفرنسية المحتجزة والتي ظلت كذلك طيلة فترة المراسلات بين المغرب وفرنسا⁽¹¹⁹³⁾.

إن الوضعية التي كرسها الأتراك بين سكان الجزائر من خلافات ونزاعات جعلت السكان ينقمون وينتقمون من الأتراك، في مناسبات عدة، فترتب عن ذلك تمرد وثورات. وإزاء هذه الأوضاع لم يكن السلطان عبد الرحمان ليبقى مكتوف الأيدي متفرجا، بل كان ينتظر ويتربص حتى يغتتم فرصة تنصيب نفسه حاكما على إيالة الجزائر⁽¹¹⁹⁴⁾، لاسيما وأنها ليست المرة الأولى التي لجأ فيها أعيان من سكان الجزائر إلى المغرب للمطالبة بالانضواء تحت لواء السلطان، بعد كل ثورة أو تمرد⁽¹¹⁹⁵⁾.

وعندما أبلغت فرنسا حكومات الدول الأوروبية وغيرها من الحكومات في 12 مارس 1830 أنها عازمة على إرسال حملة بحرية لتأديب حكومة الداوي، وخدمة مصلحة أوربا كلها، ثم جددت البلاغ بعد شهرين من هذا التاريخ⁽¹¹⁹⁶⁾، أشعرت كذلك السلطان عبد

(1192) ياسين، ص: 20.

(1193) نفسه المرجع، ص: 20.

(1194) إسماعيل حمت، الحكومة المغربية واحتلال الجزائر، تقديم علي تابلت، ترجمة وتصدير زكي مبارك، محمد خوجة، ط1، دار أبي الرقراق، الرباط، 2010، ص: 25.

(1195) لقد كانت البيعة الأولى سنة 1217هـ/1802م والثانية سنة 1220هـ/1805م. أنظر:

- الضعيف، ص: 377.

(1196) يحي بوعزيز، الموجز في تاريخ الجزائر، ج2، ط2، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2009، ص ص: 135-136.

الرحمان بن هشام عن طريق عامل طنجة العربي السعيدى وأمين الديوانة الطيب البياز، في أفريل من نفس السنة، أنها سترسل حملة عسكرية بحرية إلى الجزائر لمعاقبة حكومة الداى حسين. وكانت تأمل في أن تجد السفن والرعايا الفرنسيين الذين قد ينزلون بشواطئ المغرب مع هذه الحملة، كل الدعم والمساعدة من طرف المخزن. وعلى حكومة المغرب أن تنتظر بعين الرضا للحملة الفرنسية التي ستخلص الجزائريين من اضطهاد الأتراك⁽¹¹⁹⁷⁾.

لم تجد فرنسا أي معارضة من المخزن، بل وجدت كل القبول، وكان عامل طنجة قد عبر للقنصل الفرنسي دي لا بورط أن فرنسا ستجد كل التسهيلات والمساعدة من طرف المخزن، غير أنه عبر عن قلقه من رؤية أرض إسلامية تدينس، وكان يأمل ألا تراق فيها الدماء. بالرغم من أن السلطان كان لا يثق في الفرنسيين حسبما ذكره في رسالة بعثها إلى عامل تطوان محمد أشعاش في 21 من شهر أفريل سنة 1830م، وقد أمره فيها أن يتخذ كل الإجراءات والاحتياطات الأمنية اللازمة تجاه الحملة الفرنسية على الجزائر. وقد فهم الفرنسيون موقف السلطان من هذه الاحتياطات، وأدركوا أن الإنجليز أبلغوا السلطان بأخبار مغلوبة عن الحملة حين أطلقوا عليها تسمية الحملة الإفريقية (L'Expédition d'Afrique)⁽¹¹⁹⁸⁾.

وفي ظل الظروف التي كانت تمر بها إيالة الجزائر جراء الحصار البحري الفرنسي، والحملة البحرية التي كانت فرنسا تتأهب لإرسالها إلى الجزائر، طلب الداى حسين من سلطان المغرب عبد الرحمان بن هشام المساعدة، وبعث له برسائل عدة عن طريق قنصل المغرب بجبل طارق (يهودا بن عليل)، في منتصف ماي 1830م⁽¹¹⁹⁹⁾، غير أن السلطان لم يعر لها اهتماما ورفض الرد عليها، بل بدا وكأنه التزم الحياد في هذه المسألة. لكنه من جهة أخرى هال فرحا، ومصفقا للحملة الفرنسية بعد انقضائها⁽¹²⁰⁰⁾. ووفقا لما ذكره سيباستيانى (Sebastiani) وزير الخارجية الفرنسي وقتها، نقلا عن قنصل فرنسا في المغرب، أن سلطان المغرب: "استجاب بسرعة إلى الخدمات التي طلبناها منه، بل إنه أفهمنا أننا نستطيع الحصول منه على أكثر من ذلك من دلائل الرعاية، دون خوف من المساس

(1197) ياسين، ص: 21.

(1198) نفس المرجع، ص: 22.

(1199) موقف لا يستبعد من يهودي ولو كان مغربيا وقد يكون الموقف شخصيا!؟

(1200) ياسين، ص: 23 إلى 30.

بالمشاعر الدينية لرعاياه". لكن مع ذلك أبدى وزير الخارجية الفرنسي مخاوفه تجاه سلطان المغرب وانتابته الشكوك لاعتقاده أن السلطان يخفي نواياه الحقيقية من مسابرة للفرنسيين⁽¹²⁰¹⁾.

هذه المشاعر التي على ما يبدو أنها اختلطت على السلطان لأنه من جهة أخرى بدا متحسرا من سقوط مدينة الجزائر في يد الفرنسيين، وقد بعث رسالة إلى قائد تطوان محمد أشعاش بتاريخ صفر 1246هـ الموافق لـ 31 جويلية 1830م، عبر له فيها عن حسرته الشديدة للاحتلال الفرنسي للجزائر. ونص الرسالة بعد الحمدلة: "وبعد وصلنا كتاب ابن عليل على شأن الواقعة التي ساءت الإسلام والمسلمين، وأقذت عيون أهل التقوى والدين، من استيلاء عدو الله الفرنسي على ثغر الجزائر (كذا)، واحتوائه على ما وجد فيها من الأموال والذخائر، وبعدما شرط على رئيسها ما شرط، ورضاه بالدنية التي ليس مثلها سلف ولا فرط، إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم أجر المسلمين في هذه المصيبة العظمى، واجعل رد هذا الثغر لهم قضاء سابقا وحكما، وأغص العدو والكافر بريقه، وعجل بهلاك فريقه، وأجبر صدع الإسلام، بجاه النبي عليه السلام، وكتبنا لك هذا وبيننا وبين الرباط مرحلة، والأحوال والحمد لله صالحة، والله يصلحكم والسلام (كذا)"⁽¹²⁰²⁾.

لكن ما ذكره الجنرال كلوزيل (Gl. Clauzel) عن موقف سلطان المغرب عبد الرحمان بن هشام عند سماعه خبر سقوط مدينة الجزائر، يجعلنا نقول أن السلطان كانت مواقفه متذبذبة ومتناقضة في نفس الوقت، فتارة يظهر أنه التزم الحياد، وتارة يعبر عن حسرته لسقوط مدينة الجزائر في يد القوات الفرنسية، وتارة أخرى يعبر عن سعادته للفرنسيين، بل ويؤكد لهم دعمه غير المنتهي، فقد ذكر كلوزيل أن السلطان كتب إليه خلال شهر أكتوبر مهنئا باحتلال مدينة الجزائر، وأوصاه بأن يكمل العمل الذي بدأه. وعليه فقد راسل كلوزيل ملك فرنسا لويس فليب (Louis Philippe) يخبره أن: "الاستيلاء على الجزائر لم يظهر أنه غير من شعور سلطان المغرب في البداية"⁽¹²⁰³⁾.

(1201) نفس المرجع، ص: 23 إلى 30.

(1202) بن صغير، ص: 21.

(1203) ياسين، ص: 29.

ويؤكد المؤرخ الفرنسي جورج إيفر (G. Yver) (1870-1961) أن المغاربة استقبلوا خبر سقوط مدينة الجزائر بكثير من الرضى وقليل من الانشغال، لأنه: "ظهر للمغاربة أن سقوط القوة التركية سيسمح لهم بامتلاك الأراضي التي كانوا يتنازعون عليها منذ ثلاثة قرون" (1204).

فهل شعر السلطان أن الحملة الفرنسية تجاوزت مهمة تأديب حكومة الداي، إلى مهمة أكبر هي احتلال إيالة الجزائر، التي كان يأمل في أن ينصب نفسه حاكما عليها، بعد نهاية حكم الأتراك بها، ولذلك عبر عن حسرته؟

بعد هذه المواقف نجد أن السلطان أقدم مندفعاً من أجل بسط سيطرته على الأقاليم الغربية لإيالة الجزائر، متذرعاً في ذلك بطلب أهل تلمسان وقبائل العرب التي بايعته حتى تدخل في طاعته، وتحت سلطانه.

ولأن أهل تلمسان أشرف، تربطهم بأهل المغرب العلويين روابط تاريخية تتعلق بوجه خاص بالنسب الشريف -يقول المؤرخ إسماعيل حمت - كان سهلاً عليهم التوافق في وجهات النظر؟ (1205)

ووفقاً لما ذكره حمدان بن عثمان خوجة (1206): "فعند الاحتلال الفرنسي للجزائر تجدد الصراع بين الأتراك وسكان المدينة (تلمسان) من العرب، وحتى لا تسود الفوضى طلب من سلطان المغرب عبد الرحمان بن هشام التدخل ليضع حداً للحرب الأهلية التي قامت في المدينة، فقبل السلطان هذه الدعوة، ولكنه بدلاً من أن يحمي السكان ويعيد الأمن، سلط على

(1204) نفس المرجع، ص: 30.

(1205) حمت، ص: 25.

(1206) كاتب وسياسي جزائري، من رواد الحركة الوطنية في الجزائر، ولد بمدينة الجزائر، وبها نشأ وتعلم. درس القانون على يد والده ثم قام مقامه بعد وفاته، وأصبح أستاذاً في الحقوق المدنية والقوانين الإسلامية، زار العديد من مدن البلقان واسطنبول رفقة خاله سنة 1784م، وفي سنة 1820م زار فرنسا وتعلم اللغة الفرنسية. ترأس الوفد المعارض للاحتلال الفرنسي لمدينة الجزائر المعروف بلجنة المغاربة أو حزب المقاومة. نفته السلطات الاستعمارية إلى فرنسا سنة 1833م، ثم سافر بعد ذلك إلى اسطنبول سنة 1836م، واشتغل بالتأليف والترجمة، والتحرير لجريدة "تقويم الوقائع" إلى حين وفاته. من آثاره: "كتاب المرأة، إتحاف المنصفين والأدباء في الاحتراس من الوباء، ستار الإتحاف، حكمة العارف بوجه ينفع لمسألة ليس في الإمكان أبدع...". أنظر:

- عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام إلى العصر الحديث، ط2، مؤسسة نويهض الثقافية، ببيروت، 1980، ص: 136-137.

المدينة ظلما أدهى وأمر من الظلم الذي كان يسودها، فأبعد إلى مدينة فاس عشرين من الأعيان ولم يطلق سراحهم إلا عندما استولى على سائر ممتلكاتهم...»⁽¹²⁰⁷⁾.

وعلى إثر ذلك نجح ابن عم السلطان المولى علي في تولي شؤون مدينة تلمسان، وتمكن من حشد وتعبئة الكثير من قبائل المنطقة لصالح المخزن وقبول بيعتها. في حين أن القبائل التي تأخرت أو رفضت البيعة ألح عمال السلطان على انتزاع البيعة والولاء منها، كقبائل بني هشام بمعسكر، وقبائل بني عامر، والدوائر والزماله، المتواجدة بين وهران وتلمسان، والتي لها وزنها وكلمتها بين القبائل، الأمر الذي جعل السلطان نفسه يبعث برسالة عن طريق عامله على تلمسان إلى هذه القبائل يقول لهم فيها: "... قل لهم فيها إن فلانا (السلطان) لا رغبة له في هذا الأمر، وقد قدم عليه أعيان تلمسان وبعض قبائلهم وذكرنا أنكم معهم على كلمة واحدة في الرغبة في الدخول في طاعته والطلب بحمايته، وقد أجابهم بما طلبوا من ذلك طلبا لجمع كلمة المسلمين، وحفظهم من أن يستفزه العدو الكافر، ويفرق جماعتهم، وصونا لهم من الهرج والفتن، وأنتم أولى من سعى في ذلك وقام به، فينبغي لكم أن ترغبوا فيه أكثر من غيركم (كذا)...»⁽¹²⁰⁸⁾.

2.3- سياسة المخزن تجاه الأمير عبد القادر:

بعد انسحاب القوات المخزنية من الأقاليم الجزائرية التي سيطرت عليها على إثر التدخل الفرنسي فيها، ألزمت فرنسا السلطان الاعتراف بسيادتها على الجزائر بحدودها التي كانت زمن الأتراك، والتزامه الحياد التام اتجاه ما يجري في الجزائر. لكن السلطان ضمن تدخله غير المباشر في إيالة الجزائر، عندما حمل الأمير عبد القادر الجزائري لواء الجهاد وأعلن طاعته وولاءه لسلطان المغرب، داعيا له بذلك في مساجد الغرب الجزائري، على أمل الحصول على الدعم المادي والعسكري للقيام بواجب الجهاد، ذلك أن المغرب كان الملجأ الوحيد للجزائريين في جهة الغرب عند الحاجة⁽¹²⁰⁹⁾.

⁽¹²⁰⁷⁾ حمدان بن عثمان خوجة، المرأة، تقديم وتعريب وتحقيق محمد العربي الزبيري، سلسلة التراث، منشورات، ANEP، الجزائر،

2005، ص: 56.

⁽¹²⁰⁸⁾ حمت، ص: 28.

⁽¹²⁰⁹⁾ مكي، ص ص: 134-135.

هذا الدعم الذي استمر إلى غاية سنة (1260هـ/1844م) وهي السنة التي وقعت فيها معركة إيسلي الشهيرة بين القوات الفرنسية والقوات المغربية، وعندها أصبح الأمير عبد القادر الجزائري مصدر قلق للمخزن، بعدما كان قد اتخذ من أراضي المغرب قاعدة لعملياته الجهادية في الجزائر. فصار وجوده فيها -حسب المخزن- يتنافى مع المعاهدات التي أبرمها المغرب مع الفرنسيين، الذين لم يترددوا ولو للحظة في الضغط على السلطان، لاسيما فيما يتعلق بالدعم المادي أو حتى المعنوي للأمير عبد القادر، الذي كانت تعتبره فرنسا أحد رعاياها الخارجيين عن القانون⁽¹²¹⁰⁾. هذا بالإضافة إلى تخوف المخزن من تقوي شوكة الأمير وظهوره كقوة جديدة منافسة لسلطان المغرب في المنطقة. ولنسبه الشريف كذلك الذي مكنه من إقامة علاقات طيبة مع الكثير من القبائل المغربية، المحيطة بمدينة فاس ومكناس القليلة الولاء للسلطان⁽¹²¹¹⁾.

وهكذا وجد الأمير نفسه محاصرا بين المخزن وبين القوات الفرنسية، وبين الموالين لهما من القبائل والخصوم، الذين خاضوا ضده معارك كثيرة، كان النصر في الغالب حليف الأمير، إلا أن التحالف المغربي الفرنسي كلف الأمير عبد القادر بتاريخ 8 محرم 1264هـ الموافق لـ 16 ديسمبر 1847م، هزيمة شنيعة، الأمر الذي أدخل البهجة والسرور لدى المخزن، لاسيما عند استسلام الأمير ورجاله للقوات الفرنسية التي كان يقودها وقتها الجنرال دولاموريسيير (De Lamoricière) في 1264هـ الموافق لـ 23 ديسمبر 1847م⁽¹²¹²⁾.

(1210) حمت، ص ص: 68-76

(1211) مكي، ص ص: 135-134.

(1212) حمت، ص: 110. وكذلك: - شارل هنري تشرشل، حياة الأمير عبد القادر، ترجمة وتقديم وتعليق أبو القاسم سعد الله، الدار التونسية للنشر، تونس، دت، ص ص: 250-231.

II - العلاقات الاقتصادية:

1- لمحة تاريخية عن طبيعة الحركة التجارية بين البلدين:

1.1- العوامل المشتركة في النشاط التجاري بين البلدين:

دأبت مختلف الكتابات التاريخية المغربية والجزائرية منها على حد سواء والتي تناولت علاقات المغرب بإيالة الجزائر التركية، على حصر هذه العلاقات ضمن الطابع السياسي والعسكري، دون تسليط الضوء على الجانب الاقتصادي والثقافي والاجتماعي والذي في حقيقة الأمر لم يكن ذي طابع رسمي في الغالب، لذلك لم يلق من الاهتمام والرعاية ما ناله الجانب السياسي والعسكري. وهذه العلاقات غير الرسمية في الحقيقة عززت من صور التفاعل وتبادل التأثيرات الحضارية بين البلدين.

ولعل عدم إلمام المؤرخين بالعلاقات الثقافية والاجتماعية الاقتصادية التي هي محل دراسة في هذا الفصل، مرده إلى قلة النصوص التاريخية، وغياب المصادر المهمة بكذا علاقات، إذ أن جلها إن لم نقل كلها ركزت على المخاطر والتهديدات التي مارستها الدولة العثمانية ضد المغرب والعكس⁽¹²¹³⁾.

فهل معنى ذلك أن العلاقات الاقتصادية بين الجزائر والمغرب لم تكن قائمة؟ أم أثرت عليها العلاقات السياسية المتميزة بالعداء والتوتر الدائم على حدود البلدين، لاسيما في العهد العلوي؟ وإذا كانت العلاقات الاقتصادية قائمة، فما هي أهم مظاهرها؟ وما مدى تأثير الظروف الطبيعية والصحية والاجتماعية على الأوضاع الاقتصادية عامة والعلاقات التجارية بوجه خاص؟ وهل توقف النشاط التجاري للقوافل الصادرة والواردة من الجزائر وإلى المغرب جراء ذلك والعكس؟ وما هي مكانة قافلة الحج في النشاط الاقتصادي؟ وما هي أهم المواد والعملات المستعملة في المبادلات التجارية بين البلدين وأهم الأسواق والمراكز التجارية؟ وعلى إثر الاحتلال الفرنسي للجزائر، هل تأثرت علاقاتها التجارية مع المغرب؟ وما هي الإجراءات الاقتصادية التي اتخذها سلطان المغرب في ذلك؟ ولماذا أولى الفرنسيون أهمية بالغة لتجارة الصحراء؟

⁽¹²¹³⁾ قدور بوزياني، "بعض الملامح الثقافية في علاقة المغرب بإيالة الجزائر التركية"، مكناسة، مجلة كلية الآداب والعلوم، العدد 03، كلية الآداب مكناسة، المغرب، 1996، ص: 165.

وفقا لما ذكره المؤرخون ومنهم الأستاذ عمار بن خروف في كتابه الدارس للعلاقات المغربية الجزائرية، وفي الجانب الاقتصادي منها، أن هذا الأخير تميز بتشابه كبير بين الجزائر والمغرب في العصر الحديث، سواء من حيث العوامل الداخلية الموروثة من الحقبة السابقة للقرن العاشر الهجري، السادس عشر الميلادي، وسواء كان لها تأثير سلبي أو إيجابي، قوي أو ضعيف في اقتصاد كل بلد أو في العلاقة بينهما، وتأتي في طليعة هذه العوامل: العوامل الجغرافية المتشابهة في كلا البلدين من موقع جغرافي، ومناخ وتضاريس، التي رسمت التماثل في الإنتاج الزراعي والحيواني والصناعي والحرفي، وحتى في خطوط الاتصال التجاري التي تربط البلدين ببعضهما، أو بأقطار أخرى مثل أوربا عن طريق البحر وبالسودان وإفريقيا جنوبا⁽¹²¹⁴⁾.

هذا بالإضافة إلى عوامل تاريخية وسياسية وبشرية مشتركة كالاستعمار والأصول المشتركة لقبائل البلدين إلى غير ذلك. والتي كان لها تأثير في أوجه الحياة المختلفة لسكان البلدين، ومنها العلاقات التجارية التي كانت تتأثر بالتجاذبات السياسية والبشرية، حتى أن بعض المناطق بين البلدين كانت تحت سيطرة مطلقة لقبائل الحدود مثل قبيلة بني يزناسن. كما أن بعض الطرق التجارية التي كانت منفذا للبضائع والسلع وممرًا للقوافل التجارية الصادرة والواردة إلى الجزائر والمغرب معا، قطعت بسبب الاضطرابات السياسية والاستعمار البرتغالي والإسباني، أو حتى الغارات التي كان يقوم بها قطاع الطرق⁽¹²¹⁵⁾.

وإذا نظرنا إلى التجارة مع بلاد السودان الغربي والأوسط، والشرقي، فإنه يمكن القول أنها كانت محتكرة لشعوب شمال القارة الإفريقية ومنها الجزائر والمغرب الأقصى، إذ تتوفر بلاد السودان على ما لا يقل عن 800 مركز عمراني في الاتجاهات العرضية بين خطي عرض 17 جنوب خط الاستواء، وما لا يقل عن 500 مركز عمراني في الاتجاهات العرضية من الغرب إلى الشرق، وازدهرت التجارة فيها وتطورت منذ القرن التاسع الميلادي.

⁽¹²¹⁴⁾ عمار بن خروف، العلاقات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية بين الجزائر والمغرب في القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي، ج2، الأمل للطباعة والنشر، الجزائر، 2008، ص ص: 7-14.

⁽¹²¹⁵⁾ نفس المرجع، ج2، ص ص: 7-14.

ومن ضمن هذه المراكز: غدامس وغات⁽¹²¹⁶⁾، ورقلة وتوات، وكورارة وتومبوكتو وسجلماسة. وجل القوافل المتجهة إلى هذه المراكز كان يتم تجهيزها في الشمال، بطرابلس والقيروان، وقسنطينة والجزائر، وتلمسان، وفاس، ومراكش، وكان عدد جمالها يتراوح بين ألف وثلاثة آلاف جمل، تشحن حمولاتها بمختلف البضائع والسلع، وتتمر على معظم الأسواق والمراكز العمرانية في الصحراء حسب اتجاهاتها⁽¹²¹⁷⁾.

وبالنسبة للمغرب فإنه على مدى قرون عديدة كانت المنتجات الصحراوية والسودانية الغربية تجد لها منفذا رئيسيا فيه، إلا أنه مع قيام المستعمرات الأوروبية على الساحل الإفريقي⁽¹²¹⁸⁾ وتحول طريق التجارة البعيدة المدى عن المنطقة بسبب سيطرة البرتغاليين على تجارة العبيد والذهب ببلاد السودان وتوجيهها نحو موانئ المتوسط والأطلسي منذ السنوات الأولى من القرن السادس عشر، أدى هذا إلى التحول عن الطريق التجارية الرئيسية، ولكنه تم بصورة تدريجية وبطريقة مطردة، بحيث لم تظهر آثاره المدمرة ونتائجه السلبية على مراكز الصحراء المهمة مثل ورقلة وتوغرت وخدامس وفكيك وتافيلالت، إلا بعد نهاية القرن السابع عشر، حيث أصبح فيه التعامل التجاري الصحراوي لا يتجاوز نطاق العشائر البدوية المحلية، في وقت اختفت فيه منتجات، السودان من الأسواق وأصبحت لا تدخل ضمن قائمة السلع المحلية إلا عرضا⁽¹²¹⁹⁾.

(1216) غدامس أو ردامس، مدينة بربرية قديمة لا يعرف تاريخ تأسيسها بالتحديد، كانت تسمى قديما "سيداموس"، وهي واحة من واحات طرابلس الصحراوية، ومركز من أقدم مراكز الحضارة فيها. أما غات فهي واحة من واحات ليبيا الصحراوية، واقعة في الجنوب الغربي من مدينة طرابلس بنحو 1130 كلم. أنظر:

- الزاوي، ص ص: 238-242.

(1217) يحي بوعزيز، "طريق القوافل والأسواق التجارية بالصحراء الكبرى كما وجدها الأوربيون خلال القرن التاسع عشر، البضائع، العملات، والأسعار، والأساليب التجارية"، تجارة القوافل ودورها الحضاري حتى نهاية القرن التاسع عشر، د.ط، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، معهد البحوث والدراسات العربية، بغداد. 1948، ص ص: 131-132.

(1218) المنصور، المغرب قبل الاستعمار، ص: 120.

(1219) سعيدوني، ورقات، ص ص: 488-489.

2.1- مساعي المخزن والأترك في السيطرة على التجارة العابرة للصحراء:

إن احتلال السعديين للسودان الغربي في نهاية القرن 16م، وامتداد سيطرتهم لتشمل كذلك محاور ومراكز التجارة الصحراوية المارة عبر واحات توات وغيرها من واحات السودان الغربي، أدى معه إلى تحول محاور التجارة لصالحهم، نحو تارودانت ومراكش، إذ كانت هذه الواحات على صلة وثيقة بواحات جنوب المغرب، كتافيالت وفكيك، ومدن داخلية كفاس ومكناسة، ومدن ساحلية كتطوان. فمنذ تاريخ (932هـ/1526م) تحولت تجارة الواحات وبلاد السودان لفائدة السعديين إلى أن سيطروا على الواحات مع أواخر القرن (10هـ/16م) لتتنعش بذلك تجارة جنوب المغرب⁽¹²²⁰⁾.

ولكنه بالمقابل أثر كذلك على تجارة القوافل العابرة للصحراء، فسادت الفوضى في أقاليم عديدة من السودان على إثر انهيار مملكة صنغاي عام (1000هـ/1591م)، وتفكك إمبراطورية الهوسا جراء هذا الاحتلال، في الوقت الذي اشتد فيه التنافس بين البدو والطوارق، واستحكم العداء بين حكام ورقلة وبعض العشائر البدوية المجاورة.⁽¹²²¹⁾ مما دفع العديد من القبائل ومنهم الطوارق إلى الابتعاد عن المناطق الخاضعة لرقابة المخزن، ومع الوقت صارت مجموعات منهم تقوم بتهديد كل ما له علاقة بتجارة التوات والسودان، وأدى ذلك إلى شل الطريق الرابط بين ورقلة وآغاداس⁽¹²²²⁾.

ونظرا لأهمية هذا الطريق الرابط بين مختلف الأقطار المغاربية والسودان والمار بمنطقة ورقلة وتوغرت، فقد ترتب عنه انكماش اقتصادي وحالة فوضى واضطرابات امتدت آثارها إلى الجنوب الجزائري منذ منتصف القرن السابع عشر⁽¹²²³⁾.

وبعد انهيار الدولة السعدية في أواسط القرن السابع عشر، لم يبق للوجود السياسي للمخزن في المناطق الصحراوية اعتبار، فقد أصبح متقطعا في الزمان ومحدودا في المجال. وقد أدى هذا الوضع إلى تراجع العلاقات التجارية للمغرب ببلاد السودان خاصة والتجارة الصحراوية بشكل عام⁽¹²²⁴⁾.

(1220) بن خروف، ج2، ص ص: 86-87.

(1221) سعيديوني، ورقات، ص ص: 488-489.

- DE LA MARTINIERE , T2, P: 369.

(1222)

(1223) سعيديوني، ورقات، ص ص: 488-489.

(1224) المنصور، المغرب قبل الاستعمار، ص: 120.

ولعل محاولات السلطان العلوي المولى إسماعيل في بسط السيادة المغربية على المناطق الصحراوية والجنوبية الغربية خاصة، نجحت ولو ظرفيا في تحويل حيز هام من تجارة الصحراء باتجاه الشمال، غير أن جهوده أفستتها الفتن السياسية التي أعقبت وفاته، ولم يعد بوسع سلاطين المغرب بعد ذلك بسط نفوذهم على هذه المناطق. وإبان النصف الثاني من القرن 18، لم يظهر خلفه المولى محمد بن عبد الله اهتماما كبيرا بتجارة القوافل، والصحراء عامة، بل كان اهتمامه منصبا على التجارة البحرية⁽¹²²⁵⁾.

والجدير بالذكر أنه في الوقت الذي كان النفوذ المخزني يمتد في المناطق الصحراوية كان النفوذ التركي فيها يتقلص، نتيجة لضعف جهاز حكمهم وقيام العديد من الثورات في هذه المناطق بتشجيع من المخزن، فالأتراك بالرغم من سيطرتهم الفعلية على الجزء الشمالي لإيالة الجزائر، فإن علاقاتهم التجارية مع المناطق الصحراوية كانت قائمة ولاسيما إقليم توات⁽¹²²⁶⁾، فقد أدركوا أهمية تجارة الواحات منذ قدومهم إلى الجزائر، فراحوا يبسطون نفوذهم على المعابر والطرق البرية المتصلة بها مثل ورقلة وتوغرت وبسكرة، ليسيطروا في الأخير على تجارة الجنوب وبلاد السودان، باعتبار هذه المراكز ملتقى للعديد من الطرق التجارية الرابطة بين بلاد السودان والمغرب الأقصى وشمال إفريقيا وبلاد المشرق⁽¹²²⁷⁾.

ليس هذا فقط بل إن الأهمية التجارية لهذه المناطق جعلت حكومة الجزائر التركية تفرض رقابة شديدة على هذه المناطق، من خلال تعيين مراقبين في أماكن مختلفة ومتفرقة منها، وبالتالي العمل على استخلاص الضرائب، الأمر الذي دفع الكثير من الأهالي المقيمين بهذه المناطق، لاسيما أولئك الذين يمارسون التجارة لإخفاء بضائعهم ومنتجاتهم عن أعين الأتراك. وشيئا فشيئا وفي ظل هذه الظروف، فإن جزء هاما من التجارة الصحراوية الذي كان يتوجه نحو الشمال تقلص، فمناطق كورقلة وقسنطينة وتلمسان التي كانت تلعب دور الوسيط في استقبال المنتجات والبضائع القادمة من السودان، فقدت مع الوقت كل علاقة مع هذه المقاطعة⁽¹²²⁸⁾.

(1225) نفس المرجع، ص ص: 120-121.

- DE LA MARTINIERE , T2, P: 369.

(1226)

(1227) بن خروف، ج2، ص ص: 86-87.

- DE LA MARTINIERE , T2, P: 369.

(1228)

ولأن التنافس كان على أشده بين المخزن والأتراك للسيطرة على مصادر التجارة، ومد النفوذ إلى المناطق الصحراوية والحدودية بين البلدين، فإن حروبا طاحنة قامت بين حكومتي الجزائر والمغرب طيلة الفترة الحديثة، وترتب عن ذلك صراعات سياسية واتفاقيات رسمية بين الأتراك والمخزن، وبالمقابل فإن القبائل القاطنة على حدود البلدين لم تكن تؤمن بوجود حدود بين الجزائر والمغرب بل كانت تقوم بالمبادلات فيما بينها كأنها في بلد واحد، مما يفيد بانعدام مفهوم الحدود عند سكان البلدين وانحصاره في الاتفاقيات والمعاهدات لا أكثر. ناهيك عن الانتماء إلى ملة واحدة، والتشابه في التقاليد والعادات وانعدام عنصر التفاوت في المستوى الاقتصادي⁽¹²²⁹⁾.

بل إنّ التجار من كلا البلدين كانوا يشتركون في قوافل متفاوتة الأهمية، ويتوجهون بها نحو مدن فكيك، سجلماسة، فاس وتلمسان ومدن جزائرية ومغربية أخرى في الشمال والجنوب⁽¹²³⁰⁾.

ويبدو أن السيطرة على المنافذ والمراكز التجارية كانت من بين الأسباب الرئيسية التي دفعت المخزن مع نهاية القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر، إلى استعمال القوة لاستخلاص الضرائب وفرض الرسوم على السلع الموجهة إلى غرب الجزائر، فكانت القوافل تلزم بدفع الرسوم بمجرد حلولها بفاس، قبل الانتقال إلى مدن مغربية أخرى⁽¹²³¹⁾.

بل إن جزءا كبيرا من تجارة الصحراء أصبح له منفذا رئيسا نحو تافيلالت منذ (1212هـ/1796م) وهي السنة التي فرض فيها المولى سليمان سيطرة المخزن على المناطق الشرقية والجنوبية الشرقية للمغرب، من وجدة وفكيك إلى توات، فصارت هذه المناطق مصدرا للمخزن في استخلاص الضرائب والزكوات⁽¹²³²⁾.

(1229) عكاشة براحاب، من قضايا الحدود بين الجزائر والمغرب، ط1، دار أبي الرقراق، الرباط، 2003، ص: 42.

(1230) بن خروف، ج2، ص: 64.

(1231) عكاشة براحاب، "التهميش والحدود في شمال شرق المغرب، وقفات في تاريخ المغرب"، دراسة مهداة للأستاذ إبراهيم بوطالب، ط1، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة البحوث والدراسات رقم: 27، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 2001، ص: 341.

(1232) المنصور، المغرب قبل الاستعمار، ص: 121.

وفي مقابل ذلك فقدت الجزائر مراكز اقتصادية وتجارية هامة مثل وجدة، فكيك، كورارة، توات. وانجر عنها تخريب الفلاحة وعرقلة الحركة التجارية وخسائر مالية ضخمة جراء انقطاع الجباية الضريبية من النشاط الاقتصادي لقبائل هذه المناطق⁽¹²³³⁾.

لقد أثبت الجهود الرامية لتعزيز سلطة المخزن بالمناطق الجنوبية والشرقية مدى هشاشتها، وعدم جدواها⁽¹²³⁴⁾. فإلى جانب المتاعب السياسية التي واجهت المخزن، كانت المتاعب الاقتصادية في هذه المناطق تؤرقه، من ذلك تلك الغارات التي كان تقوم بها بعض القبائل العربية على التجار وقوافل الحج عبر الممرات المؤدية إلى تازة ووجدة وفاس، فكان المخزن من حين لآخر يرسل قواته إلى هذه المناطق لفرض الأمن وحماية قوافل الحج والتجار معا⁽¹²³⁵⁾. وقد كان التجار يولون أهمية قصوى لعلاقات المخزن بالقبائل، حيث أن كل عصيان قبلي يضر مباشرة بالمصالح التجارية، وهذا السبب جعل فئة التجار تتسج علاقات طيبة مع المخزن، خصوصا في القرن 19م، وهذا لارتباط مصالح التجار بقوة المخزن، حيث أن تعزيز القوة المركزية للمخزن يعود أساسا بالفائدة على التجار. وقد تكبدت التجارة الفاسية ومعها القطاع الحرفي - خاصة حين يتعلق الأمر بتصدير المنتجات المحلية - خسائر فادحة كلما قطعت الطرق التجارية الرئيسية، حيث كان يتعذر وصول البضائع المتوجهة إلى الجزائر⁽¹²³⁶⁾.

هذا الشلل الذي أصاب النشاط التجاري جعل القنصل البريطاني ماترا سنة (1203هـ/1788م) يصفه قائلا: "القوافل المتجهة صوب الجنوب قد تناقصت كثيرا لعدة سنوات خلت"، ويضيف، أن: "هذا التردّي يتجلى في التضاؤل الهائل في عدد العبيد المستوردين" فمن أصل 10 آلاف عبد كان يتم جلبه من السودان الغربي، وصل عددهم إلى 700 عبد فقط في إحدى القوافل، وفي سنة (1233هـ/1817م)، أصبح تدفق العبيد السود إلى المغرب محدودا جدا، إلى درجة لجأ معها التجار المغاربة إلى التزود بما يحتاجونه من الرقيق من مدينة الجزائر⁽¹²³⁷⁾.

(1233) مكي، ص ص: 125-126.

(1234) المنصور، المغرب قبل الاستعمار، ص: 121.

(1235) مؤنس، ج3، ص311.

(1236) قرنفل، أعمال ندوة التجارة، ص: 56.

(1237) المنصور، المغرب قبل الاستعمار، ص: 124.

وأما الحديث عن النشاط البحري بين الجزائر والمغرب فيمكن القول أنه كان مزدهرا طيلة القرن السادس عشر والسابع عشر. حسب ما ذكره المؤرخون والرحالة الأجانب، ومنهم المؤرخ الإسباني هايدو الذي أطلعنا على حال هذا النشاط فقال: "إن التجار يرسلون إلى فاس عن طريق تطوان بضائعهم المختلفة...على متن سفن ذات مجاديف، كانت تبحر في كل الفصول، ويرافق بضائعهم أبناؤهم أو مواليتهم أو أقاربهم لبيعها هناك، واستخلاص أثمانها" (1238).

ومع حلول القرن الثامن عشر وتفتتح المغرب على تجارة الأطلسي في عهد المولى محمد بن عبد الله، تحولت رغبة معظم التجار في المغرب للمتاجرة بالمنتجات الأوربية في الموانئ المغربية مما دفع الكثير منهم للاستغناء عن تجارة القوافل البرية، والمشاركة في التجارة البحرية مع أوربا، ويعد التاجر عبد الكريم بن طالب أحسن نموذج لهذا الصنف الجديد من التجار ذوي البعد العالمي، فبعد سنوات عديدة قضاها في مزاوله التجارة مع بلاد السودان، حول اهتمامه نحو التجارة البحرية وخاصة تصدير الحبوب وقد وصفه القنصل البريطاني ماترا في المغرب سنة (1219هـ/1804م) بأنه تاجر نزيه، سجلاته التجارية لا تقل ضبطا عن وثائق أي مصرفي أوربي،⁽¹²³⁹⁾ وكان يتقن لغات أوربية عديدة، بما في ذلك الانجليزية. ولمكانة هذا التاجر أصبح من "تجار السلطان" المرموقين الذين يستعين بهم المخزن في تدبير شؤونهم المالية، بل شغل مهام سياسية، فعقب الهجوم البريطاني الهولندي على الجزائر عام (1232هـ/1816م)، أرسله المولى سليمان في مهمة سياسية إلى الجزائر وتونس والقسطنطينية، وفي السنوات الأخيرة من عهد المولى سليمان، عينته إيالة الجزائر وكيلا تجاريا لها بالمغرب، وهو ما سمح لها من تعزيز وتكثيف نشاطها التجاري مع المغرب، وعليه فقد أضحى لهذا التاجر ارتباطات عديدة مع الدولة العثمانية ومع بلدان حوض المتوسط بشكل عام⁽¹²⁴⁰⁾.

(1238) بن خروف، ج2، ص: 64.

(1239) المنصور، المغرب قبل الاستعمار، ص: 88.

(1240) نفس المرجع، ص: 89.

غير أنه أثناء الحصار البحري الذي فرضته فرنسا على مدينة الجزائر طلبت الحكومة الفرنسية من السلطان عبد الرحمان بن هشام منع هذا التاجر المغربي من المتاجرة في موانئ المغرب لصالح إيالة الجزائر، باعتباره المنفذ الوحيد لها للتخلص من التبعات الاقتصادية للحصار⁽¹²⁴¹⁾.

2 - الطرق التجارية والأسواق بين البلدين:

1.2- الطرق التجارية:

لقد تحدث العديد من الرحالة والمؤرخين عن نشاط الشبكات التجارية وتجارة القوافل وعن مسالكها ببلدان المغرب العربي تجاه الصحراء، كما أشاروا بإسهاب إلى حجم المبادلات التجارية، وأعجبوا بنشاط القوافل، وتضحيات التجار، ورغبتهم في الكسب وتحسين مستوى المعيشة⁽¹²⁴²⁾. وتحدثوا بإسهاب كذلك عن المساهمة الكبيرة لطرق المواصلات في الربط بين المغرب الأقصى والجزائر في مختلف أوجه الحياة لاسيما من الناحية التجارية وحركة القوافل، وهذا لتوفرها على الشروط الملائمة من قرب واتساع في المسالك إلى توافر الماء فيها، ومحطات إستراتيجية⁽¹²⁴³⁾.

وسواء كانت القوافل مدفوعة من قبل سكان المدن أو من طرف الحكام، فإنها مثلت بحق شريان الحياة لقبائل عدة في أقاليم البلدين ولشعوب أخرى كثيرة، من سكان بلاد المغرب ومن سكان بلاد ما وراء الصحراء لتتجاوز بذلك النطاق الإقليمي للتجارة وتسهم حتى بشكل فعال في التجارة الدولية⁽¹²⁴⁴⁾.

ومن خلال البحث في هذا الموضوع سيتضح لنا جليا أن طرق المواصلات والتجارة التي سنأتي على ذكرها، ظلت تربط بلدان المغرب العربي فيما بينها وكذا بلاد السودان بوجه عام والمغرب والجزائر بوجه خاص، وعلى مدار قرون عدة وإلى غاية الفترة المدروسة، إلا ما توقف منها بسبب العوامل المختلفة التي ذكرناها سابقا، أو التي سنأتي على ذكرها لاحقا.

(1241) ياسين، ص: 20.

(1242) قويدر بشار، "القوافل التجارية المغاربية (طبيعة التجار وآثارها)"، طريق القوافل، د.ط، المركز الوطني للبحوث في عصور ما قبل التاريخ وعلم الإنسان والتاريخ، الجزائر، 2001، ص: 13.

(1243) بن خروف، ج2، ص: 15.

(1244) بشار، طريق القوافل، ص: 13.

فمن الطرق الصحراوية النشطة بالقوافل التجارية والتي تشترك فيها كل مناطق بلاد المغرب، نذكر:

- طريق مراكش إلى تومبوكتو: ويمر على تارودانت وتندوف ومحطات أخرى كثيرة، ليتفرع بعد ذلك إلى مسالك تؤدي إلى تومبوكتو وإلى شاطئ المحيط الأطلسي⁽¹²⁴⁵⁾.

- طريق فاس ومكناس نحو تومبوكتو: ويمر بقصبة المخزن وأم درينة، ويتبع حوض وادي غير إلى إيغلي، ثم حوض وادي الساوره إلى توات، ومن ثم إلى تومبوكتو ومراكز تجارية عديدة مثل أكابلي (أقبلي)، وبئر تيريشومين...⁽¹²⁴⁶⁾.

وحسب المصادر فإن هذه الطرق التجارية الرابطة بين مدن المغرب وتومبوكتو هي التي تضررت أكثر مقارنة بالطرق الأخرى العابرة للصحراء، وإن قسما هاما من التجارة تحول نحو الإيالات العثمانية وخاصة طرابلس، وذلك نتيجة الاستقرار السياسي الذي تمتعت به طرابلس الغرب خاصة في عهد يوسف القرمانلي من (1210-1246هـ/1795-1830م)⁽¹²⁴⁷⁾.

- وهناك طريق آخر ينطلق من وهران وأرزو إلى تومبوكتو، ويمر على خيثر (الخيثر) ومشيرة وعين الصفراء، وفكيك ويتبع مجرى وادي زوزفانة إلى إيغلي أين يلتقي بطريق فاس إلى تومبوكتو. وهناك طريق آخر إلى شرق الأول، مستقيم يبدأ من الخيثر إلى البيض، إلى الأبيض سيدي الشيخ، والمنقب وتوات أين يلتقي بطريق وهران وفاس ومكناس إلى تومبوكتو⁽¹²⁴⁸⁾.

- وطريق مدينة الجزائر إلى تومبوكتو: ويمر على البليدة وبوغار والأغواط وغرداية والقلعة وعين صالح وأكابلي (أقبلي) وبئر ترشومين أين يلتقي بطريق توات إلى تومبوكتو. ولهذا الطريق فرع آخر من عين صالح إلى مالي ومناطق أخرى جنوب الصحراء⁽¹²⁴⁹⁾.

⁽¹²⁴⁵⁾ إبراهيم مياسي، "الاهتمام الفرنسي بالصحراء"، طريق القوافل، د.ط، المركز الوطني للبحوث في عصور ما قبل التاريخ وعلم

الإنسان والتاريخ، الجزائر، 2001، ص: 86-87.

⁽¹²⁴⁶⁾ نفس المرجع، ص: 86-87.

⁽¹²⁴⁷⁾ المنصور، المغرب قبل الاستعمار، ص: 123.

⁽¹²⁴⁸⁾ مياسي، طريق القوافل، ص: 86-87.

⁽¹²⁴⁹⁾ نفس المرجع، ص: 86-87.

- طريق سكيكدة، وقسنطينة إلى تمبوكتو: ويمر على باتنة وبسكرة وتقرت وورقلة والبيوض، ومراكز أخرى ليصل إلى تومبوكتو. ولهذا الطريق فرع يبدأ من جنوب بسكرة ويتجه إلى وادي سوف ومنها إلى غدامس، وصولاً إلى عين صالح⁽¹²⁵⁰⁾.

وهنا تجدر الإشارة إلى أن قسنطينة كانت تحضى بمكانة تجارية راقية باعتبارها عاصمة بايلك الشرق، وحلقة وصل بين واحات الصحراء ومدن شمال الجزائر وكذا معبر هام نحو تونس وطرابلس الغرب وبلاد المشرق. أما في علاقاتها التجارية مع المغرب، فقد كانت القوافل المغربية لا تضيع فرصة في المرور على مدينة قسنطينة لبيع وشراء البضائع أو حتى محطة يتزود فيها الحجاج بما يحتاجون إليه في سفرهم ذهاباً وإياباً، ناهيك عن علاقاتها المتشعبة مع مدن عديدة في المغرب، كبادس وتطوان وفكيك وفاس وغيرها⁽¹²⁵¹⁾.

- الطريق الرئيسي المار بورقلة المعروف بطريق الواحات والقصور: هذا الطريق أعطى لمنطقة ورقلة أهمية بالغة باعتبارها مركز تبادل تجاري مهم في الصحراء الجزائرية، فهو معبر لمختلف تجار بلاد المغرب، انطلاقاً من تافيلالت نحو غدامس في ليبيا، ويتفرع من ورقلة وتوغرت إلى كل من غات وتماسين والقليلة والأغواط والزيبان⁽¹²⁵²⁾.

كما يعد هذا الطريق معبراً للقوافل المتوجهة إلى المغرب والقادمة من مصر أين كانت ورقلة نقطة التقاء، بحيث تتصل بهذه القوافل، قوافل أخرى قادمة من طرابلس ثم تتجه مجتمعة إلى المغرب⁽¹²⁵³⁾. وهذا الطريق الرئيسي هو الذي سلكه ابن مليح السراج عام 1660م، ووصفه العياشي في رحلته للحج سنة (1074هـ/1663م)، "بأنه كان يمتاز باستتباب الأمن، وكثرة الأرباح التي يحصل عليها التاجر بواسطته،" بحيث يصبح التاجر موسراً بعد أن يشارك في رحلة أو رحلتين عبر هذا الطريق، فضلاً عن كون هذا الطريق أقصر مسافة من طريق التل الواصل بين فاس وتلمسان والجزائر وقسنطينة وتونس، فهو لم

(1250) نفس المرجع، ص ص: 86-87.

(1251) بن خروف، ج2، ص: 88.

(1252) سعيدوني، وراق، ص ص: 485-486.

(1253) أحمد العراقي، "تجارة القوافل ودورها بين الشمال وغرب إفريقيا، أثرها الحضاري"، تجارة القوافل ودورها الحضاري حتى نهاية القرن التاسع عشر، د.ط، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، معهد البحوث والدراسات العربية، بغداد، 1948، ص: 150.

يتجاوز الألف كيلومتر بين منطقة متليلي وبسكرة وبين مدينة تونس، مرورا على مدينة ورقلة⁽¹²⁵⁴⁾.

- وهناك طريق آخر لا يقل أهمية عن الطريق السابق وهو الطريق المعروف عند الرحالة والجغرافيين بطريق الذهب، وهو الآخر كان يمر بورقلة وتوغرت ويربط موانئ بلاد المغرب العربي المختلفة بالمدن الرئيسية لممالك السودان. فبفضل هذا الطريق أصبحت ورقلة ومنطقتها محطة ومستودعا مؤقتا وسوقا استهلاكية لمنتجات الصحراء والتل والسودان⁽¹²⁵⁵⁾.

فمن الصحراء كانت تنزود بالتمور والصوف والجلود والحنة والمواشي والجمال ومختلف الأنسجة كالبرانس، فضلا عن ملح البارود وأنواع السكاكين والسيوف والحلي الفضية. في وقت كانت تستورد من التل الحبوب والزيوت والأسلحة والعطور مع بعض المنتجات المستوردة عن طريق البحر كالأقمشة المتنوعة والقهوة والسكر والشاي والورق، بينما كان السودان مصدرا للبخور الأسود والعاج والفلفل والفول السوداني، مع كميات معتبرة من التبر وأعداد كثيرة من العبيد السود⁽¹²⁵⁶⁾.

وبالإضافة إلى هذه الطرق هناك طرق أخرى برية وبحرية لا تقل أهمية عن سابقتها، من ذلك، أن سكان شرق المغرب كانوا يتجهون إلى بعض المراسي بغرب الجزائر كلما تعذر عليهم ربط الاتصال بفاس، ومنها على وجه الخصوص مينائي الغزوات ووهران التي كانت تحت الحكم التركي، ولعل هذا المسلك كان الطريق الثاني الذي يمد سكان هذه المنطقة بالإمدادات والسلع المختلفة لاسيما الأوربية، بعد المسلك الأول الذي ينطلق من طنجة وفاس مرورا بوجدة، والذي كان غير آمن في غالب الأوقات⁽¹²⁵⁷⁾.

أما المسلك الثالث لقبائل شرق المغرب لاقتناء السلع الأوربية، فكان نحو مدينة، بل صار هذا الطريق هو الرئيسي بعد الاحتلال الفرنسي للجزائر، لأجل تأمين وصول السلع والمؤن لمناطق شرق المغرب⁽¹²⁵⁸⁾.

⁽¹²⁵⁴⁾ سعيدوني، ورقات، ص ص: 485-486.

⁽¹²⁵⁵⁾ نفس المرجع، ص ص: 485-486.

⁽¹²⁵⁶⁾ نفس المرجع، ص ص: 485-486.

⁽¹²⁵⁷⁾ براحاب، من قضايا الحدود بين الجزائر والمغرب، ص: 46.

⁽¹²⁵⁸⁾ نفس المرجع، ص: 46.

أما الطريق البحري بين المغرب والجزائر، الذي مر منه التمغروتى سنة (697هـ/1589) فينطلق من تطوان على البحر المتوسط شمالي المغرب، ومن ثم إلى هنين⁽¹²⁵⁹⁾ المدينة الهامة بتلمسان، ثم تليها أرزيو، فمستغانم، فنتس، ثم شرشال، فمدينة الجزائر، فدلّس، فبجاية، فالقل فعنابة ومن ثم إلى مرسى مدينة بنزرت التونسية. للعلم فإن وهران كانت وقتها تحت الاحتلال الإسباني، وإلا فإنها كانت محطة يتوقف عندها التمغروتى⁽¹²⁶⁰⁾.

وفي الغالب فإن هذا الطريق لم يكن آمناً لا للتجار ولا للبضائع أو حتى الحجاج وهذا بسبب القراصنة الأوروبيين الذين كانوا يعترضون سبل السفن الواردة والصادرة من الجزائر والمغرب انتقاماً من غزاة البحر المسلمين⁽¹²⁶¹⁾.

أما الطرق البرية فهناك طريقان رئيسان أحدهما يمر من الشمال في الغالب عبر المدن الداخلية من فاس عبر تازة، فوجدة فتلمسان بالجزائر، فمعسكر، فمازونة⁽¹²⁶²⁾، فمدينة الجزائر، ومنها إلى بجاية، قسنطينة، فعنابة، فالقطن التونسي، وهذا الطريق عبره الحسن الوزان في رحلته سنة (921هـ/1515م). وتتفرع منه طرق تجارية أخرى تنطلق من قسنطينة إلى بسكرة، مروراً إلى الأراضي التونسية. وهذا الطريق كان يسلكه الحجاج الجزائريون ليلتقوا بنظرائهم من الحجاج المغاربة، وكانت هذه الطريق أيضاً معبراً للتجار القادمين من الشمال وخاصة قسنطينة والمتوجهين نحو الجنوب الجزائري وبلاد السودان، وللمغاربة الذين يعرجون إلى قسنطينة عبر بسكرة⁽¹²⁶³⁾.

⁽¹²⁵⁹⁾ مدينة ساحلية من مدن ضواحي تلمسان تقع ناحية الغرب، أسسها السكان الأصليون، وهي مدينة محصنة بأسوار، كما يوجد بها ميناء صغير محصن ببرجين قويين، كانت تضم مجموعة من المساجد الجميلة ومنازل حسنة البناء، أهلة بالتجار والصناع، إذ كانت السفن من البندقية تتحدر إليها كل سنة عند قدومها إلى تلمسان، خاصة منذ أن احتل الكاردينال "خيمينيس" وهران والمرسى الكبير. أنظر: - كاريخال، ج2، ص: 296.

⁽¹²⁶⁰⁾ بن خروف، ج2، ص: 16.

⁽¹²⁶¹⁾ نفس المرجع، ج2، ص: 16.

⁽¹²⁶²⁾ مدينة جزائرية عتيقة تقع بين مستغانم ونتس، على الساحل، اشتهرت منذ القديم بكثرة القمح والمواشي، تعرضت للتخريب على يد الرومان، ثم في الحروب التي وقعت بين ملوك تلمسان، كانت مركزاً لبلايك الغرب في العهد التركي في أول الأمر قبل أن ينقل مركز العاصمة إلى معسكر. أنظر:

- كاريخال، ج2، ص: 359.

⁽¹²⁶³⁾ بن خروف، ج2، ص: 17.

- يبدو أن الطريق البحري الذي سلكه التمغروتى، سلكه أيضاً الرحالة توماس شاو، أنظر الملحق رقم: 3، ص: 377.

أما الطريق الرئيسي الثالث وهو أطول الطرق، إذ كان يستغرق قطعه قرابة الشهرين أو أكثر، فقد كان ينطلق من تافيلالت، فسجلماسة بالجنوب الشرقي للمغرب، فبوسمغون بالجنوب الجزائري فالغسول، فعين ماضي، فالأغواط، فالبرج، فسيدي خالد، فبسكرة، فسيدي عقبة، فتوزر بالجنوب التونسي⁽¹²⁶⁴⁾، وهو الطريق الذي كان يسلكه ركب الحج المغربي، غير الرسمي، من ذلك ركب الحج الناصري الذي كان ينطلق من تافيلالت مقر الزاوية الناصرية. وقد سلكه صاحب الرحلة الناصرية الكبرى الشيخ ابن عبد السلام في رحلته إلى المشرق في القرن 19⁽¹²⁶⁵⁾. وقبل ذلك سلكه العديد من الرحالة المغاربة من أمثال ابن الطيب الشرقي. هذا الأخير الذي ننقل عنه ما رود في رحلته إلى الحج حين وصف هذا الطريق وأهميته التجارية وكذا المنازل التي توقف عندها ركب الحج المغربي بالجنوب الجزائري لقضاء بعض المنافع إذ قال: "ولما نزلنا بقرية مشرية تعرض أهلها للحجاج وأخذوا معهم في البيوع والأشربة (كذا) وألفينا فيها من السمن والأغنام ما فيه غنيمة للأنام..."⁽¹²⁶⁶⁾. وبعد ذلك نزل الركب في عين ماضي يقول ابن الطيب: " فأضحينا بعين ماضي... وقامت بين الحجاج وأعرابها سوق عظيمة لا يعبر عن إغرابها وقد حاز أهلها من كرم الأخلاق أوفى حظ وأوفر خلاق، أكثرهم للقرآن حافظ وبالعرفان لافظ..."⁽¹²⁶⁷⁾. ثم يضيف قائلاً ولما وصلناها (الأغواط) خرج أهلها لملاقاتنا وطلبوا من الشيخ النزول عندهم للتسوق، واشتراء السلع المغربية وبيع السوق، فساعفهم بذلك (كذا) بعد تمنع شديد لما رأى في إقامة السوق هنالك لنازلهم من الرأي السديد ونزلنا قبالة نخيلهم الباسقة وقصورهم المتناسقة، وبات الحجاج أخذين الحذر هنالك، لما يعتادون فيها من النهب والسرقة وغير ذلك، وقامت بينهم سوق حافلة كفيلة بمقتضيات الركاب العظيمة فضلا عن القافلة"⁽¹²⁶⁸⁾.

هذا وكان الحجاج يعرجون من حين لآخر على توات من أجل تبديل العملة فيها، نظرا لرخص الذهب فيها، ومن توات التي كانت ملتقى لقوافل تجار الشمال وتجار بلاد السودان،

(1264) نفس المرجع، ج2، ص: 17.

(1265) الناصري، الرحلة الناصرية، ج1، ص إلى ص: 180 - 229.

(1266) ابن الطيب الشرقي، ص: 29.

(1267) نفس المصدر، ص: 30.

(1268) نفس المصدر، ص: 32.

كانت قوافل الحج تشق طريقها نحو المشرق متجهة شمالا إلى ورقلة، فتوغرت، فوادي سوف، فالجنوب التونسي⁽¹²⁶⁹⁾.

2.2- الأسواق التجارية:

إن المتمعن في الطرق التجارية وحركة القوافل يرى أنه ليس من السهل إيجاد مدينة مغربية ليست لها علاقات تجارية مع مدن الصحراء وما وراء الصحراء، بحيث لو أردنا أن نرسم خريطة لمسالك القوافل لوجدنا أن كل مدينة لها شبكات ومسالك تجارية متشعبة ومعقدة تربطها بالصحراء وبلاد السودان وهذا نظر للموقع الاستراتيجي الذي كانت تتمتع به بعض المدن المغربية⁽¹²⁷⁰⁾.

لتشمل هذه العلاقة المتشعبة علاقات تجارية كثيرة أقامها التجار المغاربة ونظرائهم من الجزائر فيما بينهم وفي العديد من مدن الجزائر والمغرب، إذ كانت الكثير من مدن البلدين مراكز تجارية هامة والتي نذكر منها:

* مدينة الجزائر:

تعد من بين أهم مراكز التبادل التجاري بين الجزائر والمغرب، إن لم يكن أهمها على الإطلاق، وزادت أهمية مدينة الجزائر منذ أن اتخذها الأتراك قاعدة لحكمهم منذ العقد الثالث من القرن (10هـ/16م)، فتفوقت على مدن تلمسان وبجاية، وقسنطينة، وتوسعت بسرعة، وازداد عدد سكانها حتى أضحت المدينة الكبرى في شمال إفريقيا، وأفضل من جميع بلاد إفريقيا، وأعمر وأكثر تجارا وفضلا، وأنفذ أسواقا، ومتاعا، حتى سميت إسطنبول الصغرى. واتسعت علاقاتها التجارية لتمتد مع دول البحر المتوسط ومن المغرب إلى إسطنبول⁽¹²⁷¹⁾.

أما بخصوص علاقاتها التجارية مع المدن المغربية فهي كثيرة، وعلى سبيل المثال لا الحصر، فإن علاقاتها مع مدينة تطوان بدأت منذ النصف الأول من القرن (10هـ/16م)، وحسب المصادر أن خير الدين باشا ابتاع منها الحبوب سنة (938هـ/1531م)، لمواجهة القحط والجفاف الذي كانت تعاني منه مدينة الجزائر. وتنقل إلى تطوان العديد من التجار والسفن الجزائرية إذ كانت الوجهة منها إلى فاس، كما كان الحجاج والتجار المغاربة ينتقلون

⁽¹²⁶⁹⁾ بن خروف، ج2، ص: 17.

⁽¹²⁷⁰⁾ بشار، طريق القوافل، ص: 13.

⁽¹²⁷¹⁾ بن خروف، ج2، ص: 79.

من مدينة الجزائر ببضائعهم نحو تطوان ومدن أخرى. بل أكثر من ذلك فقد شارك غزاة تطوان نظرائهم في الجزائر الهجمات على المحتل البرتغالي والإسباني⁽¹²⁷²⁾. واتخذ الجزائريون من ميناء تطوان ملجأ كلما تعذر عليهم عبور مضيق جبل طارق، أو عند التزود بالموئ والأقوات، كما كانت تجلب إليه الغنائم والأسرى التي يأتي بها هؤلاء البحارة⁽¹²⁷³⁾. ورغم الحظر الذي فرضه المخزن المغربي على السفن الجزائرية من دخول الموانئ المغربية، إلا أن تطوان رفضت العمل بأمر الحظر وسمحت للسفن الجزائرية بالدخول والخروج منها، فقد كانت تجارتها مع الجزائر تدر عليها أرباحا كثيرة⁽¹²⁷⁴⁾.

وعلى هذا النحو صارت المبادلات التجارية بين مدينة الجزائر والعديد من المدن المغربية إلى غاية الاحتلال الفرنسي لمدينة الجزائر، وقد أشار إلى هذه المبادلات العديد من القناصل الأوربيين في المغرب ومنهم لوي دوشني القنصل الفرنسي بسلا، الذي كتب رسالة بتاريخ 16 رمضان 1189هـ الموافق لـ 10 نوفمبر 1775م جاء فيها: "إن الأتراك كانوا يستوردون من المغرب الشاشية (الطربوش) (كذا) ويطلقون عليه اسم طربوش فاس"⁽¹²⁷⁵⁾. وكذلك القنصل البريطاني ماترا، حين تحدث عن توجه عدد من تجار المغرب لشراء العبيد من مدينة الجزائر، حين تعذر عليهم التوجه إلى السودان الغربي، والحال نفسه عندما تعلق الأمر بالحصار الفرنسي البحري لمدينة الجزائر، عندما توجه عدد من الأتراك يتقدمهم وكيل الجزائر التجاري، المغربي الأصل عبد الكريم بن طالب لبيع البضائع التي غنموها من السفن الفرنسية في مدينة تطوان. وسيتضح لنا في المبحث الموالي كيف أن تطوان كانت من بين المدن المغربية المفضلة للكثير من الجزائريين الذين آثروا الهجرة إليها والاستقرار بها طيلة التواجد العثماني بالجزائر وبعد الاحتلال الفرنسي لها.

(1272) نفس المرجع، ج2، ص: 81.

(1273) عبد العزيز سعود، تطوان في القرن الثامن عشر، ط1، مطبعة الخليج، تطوان، 2007، ص: 204.

(1274) بن خروف، ج2، ص: 81.

(1275) التازي، التاريخ الدبلوماسي، ج9، ص: 29 .

* مدينة تلمسان:

تحولت تلمسان إلى مركز تجاري رئيسي في الغرب الجزائري منذ العهد الزياني، لاسيما في علاقاتها التجارية مع المغرب الأقصى، كما أضحت محطة مهمة في التبادل التجاري مع بلاد السودان وأوربا، تنافس مدينة فاس المغربية وقد تتفوق عليها أحيانا، وقبل أن تظهر مدينة الجزائر بالمركز الرئيسي في إيالة الجزائر، من حيث الأهمية التجارية، ضربت تلمسان علاقات تجارية وطيدة مع كل من تازة وفاس، وسجلماسة وفكيك، وغيرها. وفي هذا قال مارمول: "إن لتجار تلمسان وفاس وغيرها تجارة قوية فيها، وإن مدينة تازة كانت تمون المناطق المجاورة، بما تحتاج إليه من القمح وغيره"⁽¹²⁷⁶⁾.

ومن فكيك أيضا كانت تلمسان تستورد الملابس الصوفية الرفيعة، أما من سجلماسة وتافيلالت، فكانت تستورد الجلود والنيلة التي تستعمل في الصناعات الحرفية. ولعل المركز المتقدم الذي كانت تحضى به تلمسان في ميدان الحرف جعلها تحتل المكانة المرموقة بين الكثير من المدن الجزائرية لجودة منتجاتها التي كانت تصدر منها إلى المغرب. وكان التجار سواء الوافدين إليها أو الصادرين منها تلمسانيون أو فاسيون لا يترددون في بيع وشراء السلع التلمسانية،⁽¹²⁷⁷⁾ خاصة الكوشنيل⁽¹²⁷⁸⁾، والحرير، إذ يتم نقل هذه السلع إلى المغرب عن طريق التهريب⁽¹²⁷⁹⁾.

وعلى إثر الاضطرابات التي تعرضت لها مدينة تلمسان وتخريب ميناء هنين على يد الإسبان، إذ كان هذا الميناء بوابة تطل منها تلمسان على المتوسط، تستورد وتصدر عبرها مختلف المنسوجات نحو أوربا ومدن مغربية ساحلية⁽¹²⁸⁰⁾.

⁽¹²⁷⁶⁾ بن خروف، ج2، ص: 85.

⁽¹²⁷⁷⁾ نفس المرجع، ج2، ص: 86.

⁽¹²⁷⁸⁾ نسبة إلى حشرة من فصيلة الخنافس، حمراء اللون، سريعة التكاثر بأعداد هائلة تصل إلى عشرات الآلاف، لاسيما في المناطق الحارة، وفي أواخر فصل الربيع خاصة، وهي تتغذى من النباتات الشوكية للحصول على اللون الأحمر. يتم سحق هذه الخنافس للحصول على لونها الأحمر الذي كان يستعمل في صباغة الملابس، وأول من استعمل مسحوق هذه الخنافس قبائل المايا والأستيك في أمريكا اللاتينية. أنظر:

- وائل المصري، "خنفساء الكوشنيل تسبب التسمم"، **جريدة الوطن**، العدد 6078، قطر، 24 أبريل 2012، ص: 4.

⁽¹²⁷⁹⁾ -De Paradis , P : 32.

⁽¹²⁸⁰⁾ بن خروف، ج2، ص: 86.

فقدت تلمسان المكانة التجارية الراقية في الغرب الجزائري، وزاد في تعقيد وضعيتها التجارية سيطرة السعديين على محور التجارة الرابط بين سواحل المغرب ومراكش وبلاد السودان⁽¹²⁸¹⁾.

ولأنها محور تجاري هام، نشط بالحركة الصناعية والتجارية وغني بالثروات المختلفة، وكذا لموقعها المتميز-إذ تقع على بعد ثمانية أميال من المغرب- حاول الجنرال كلوزيل السيطرة عليها منذ تاريخ 1252هـ الموافق لـ 28 يناير 1836⁽¹²⁸²⁾.

* مدينة فاس:

يعتبر النشاط التجاري في مدينة فاس من أقدم القطاعات التي عرفتھا المدينة، فقد اتفق العديد من الرحالة والمؤرخين الذين كتبوا عن هذه المدينة برواج العديد من المنتجات الحرفية والصناعية والزراعية بها، خاصة بعد استقرار عدد من الأندلسيين وكذا التونسيين بالمدينة، وكان الفضل لهذه الجاليات في إدخال النشاط التجاري إلى هذه المدينة، ومنذ ذلك الوقت أصبحت فاس المدينة التجارية الأولى في المغرب، لكونها كانت تزود كل مناطق المغرب بالمواد المصنوعة محليا، ثم لأنها كانت تربطها علاقات مهمة مع الخارج. وقد زادت الأهمية التجارية لمدينة فاس وعرفت ازدهارا خاصا منذ القرن 16م، فقد أشار الرحالة المغاربة وغيرهم للمكانة التجارية لهذه المدينة، ونذكر على سبيل المثال الحسن الوزان الذي تحدث عن وجود العديد من الدكاكين المخصصة لبيع المواد المصنعة محليا، وكذا تجارة القماش في القيسارية التي تعرف رواجا كبيرا، ويعد ممارسوها من أغنى فئات المجتمع، كما ازدهرت التجارة في مدينة فاس في القرون الموالية حتى بلغت أوجها في القرن 19م، وأصبحت علاقاتها مع العالم الخارجي متعددة ومتنوعة⁽¹²⁸³⁾.

وكانت هذه العلاقات تتم في الغالب عبر تجارة القوافل البرية التي كانت تشمل قافلتين سنويتين، الأولى تربط فاس بتومبوكتو، والثانية تتطلق من فاس باتجاه المشرق بمناسبة الحج⁽¹²⁸⁴⁾. كما كانت لتجارة فاس وجهة أخرى نحو الجزائر عبر القوافل البرية، باستثناء تلك

(1281) نفس المرجع، ج2، ص: 86.

(1282) أ. ف. دينيزن، الأمير عبد القادر والعلاقات الفرنسية العربية في الجزائر، ترجمة أبو العيد دودو، د.ط، دار هومة، الجزائر،

2003، ص: 92.

(1283) قرنفل، ص: 49.

(1284) المنصور، المغرب قبل الاستعمار، ص: 122.

التي كانت تتعرض للمخاطر المختلفة فإن وجهتها كانت البحر، إذ تمر عبر ميناء العرائش وطنجة غالبا⁽¹²⁸⁵⁾.

وهذه القوافل هي فرصة هامة ومواتية للحرفيين والصناعيين الفاسيين لترويج سلعهم⁽¹²⁸⁶⁾، أين كانت المنتجات الفاسية من أحذية (بلاغي، والشرابل) والمنتجات الفخارية تحظى بسمعة كبيرة وتقدير هام⁽¹²⁸⁷⁾، لاسيما في الأسواق الجزائرية، التي كان جزء معتبر من المنتجات الفاسية تصلها بقوة، ولعل هذا ما يفسر استقرار عدد معتبر من التجار الفاسيين في بعض المدن الجزائرية مثل وهران⁽¹²⁸⁸⁾، أو القريبة منها كمدينة وجدة⁽¹²⁸⁹⁾، وكان هؤلاء التجار موزعين في أماكن عديدة، غير أنهم كانوا يشكلون جالية غير متماسكة⁽¹²⁹⁰⁾.

والأهم في هذا أنهم كانوا يسهرون على حسن سير تجارتهم، وقد ساعد على ازدهار التجارة الفاسية في الأسواق الجزائرية، وجود بعض التجار من أصل جزائري مقيمين في فاس، من ذلك أسرة بنونة على سبيل المثال، التي كان لها نشاط مزدهر في فاس وتطوان خصوصا، وكان جزء معتبر من تجارة هذه الأسرة يتم مع الجزائر. ومن جهة أخرى كان التجار الفاسيون المقيمون في وجدة، يتزودون من المنتجات الأوربية التي كانت تدخل عبر موانئ كل من مغنية وتلمسان والغزوات، لاسيما الحبوب أيام القحط والجفاف والمجاعات⁽¹²⁹¹⁾.

⁽¹²⁸⁵⁾ لوطورنو، ج1، ص: 627.

⁽¹²⁸⁶⁾ المنصور، المغرب قبل الاستعمار، ص: 91.

⁽¹²⁸⁷⁾ قرنفل، أهل فاس المال والسياسة، ص ص: 59-60.

⁽¹²⁸⁸⁾ لوطورنو، ج1، ص: 640.

⁽¹²⁸⁹⁾ قرنفل، أهل فاس المال والسياسة، ص ص: 59-60.

⁽¹²⁹⁰⁾ لوطورنو، ج1، ص: 640.

⁽¹²⁹¹⁾ قرنفل، أهل فاس المال والسياسة، ص ص: 59-60.

* مدينة وجدة:

تعد مدينة وجدة مركزا تجاريا هاما في شرق المغرب، فبالرغم من كونها بلدة صغيرة، فقيرة المظهر، وتتعهد فيها الصناعة، وتفتقر إلى أراض زراعية، ومع ذلك لا يمكن لمن يدخلها إلا أن يدرك الأهمية الكبيرة للسوق التجاري الذي تحتضنه هذه المدينة، والذي يوجد وسط أراض جد بئيسة. هذا بالإضافة إلى موقعها الممتاز الذي جعلها مركزا تجاريا هاما باتساع يصل إلى حوالي 350 كلم، في المغرب الشرقي، وهي قريبة جدا من الحدود الجزائرية فهي تبعد عنها حوالي 13 كلم⁽¹²⁹²⁾. وهي بذلك حلقة وصل بين المحاور الشمالية والشرقية والجنوبية في المغرب والجزائر إذ كانت ملتقى للعديد من الطرق التجارية القادمة من سبلماسة جنوبا، وفاس وتابريدا غربا⁽¹²⁹³⁾، وملوية شمالا وتلمسان شرقا، وبذلك مثلت - بامتياز - طريقا للوافدين من المشرق إلى المغرب والعكس على حد قول العديد من الرحالة وعلى رأسهم البكري⁽¹²⁹⁴⁾، وربما تكون قد وصلتها كل المواد التي اشتهرت بها المراكز التجارية أو أقاليمها. ونظرا لتجارة القوافل الوافدة أو الصادرة إليها استدعى ذلك إقامة أسواق، الأمر الذي يستدعي بالضرورة بناء فنادق للغرباء من التجار ومخازن لسلعهم الكثيرة على غرار باقي المدن وهو ما يعطي لمبادلات السلع التي تختلف باختلاف مصادرها، حيوية اقتصادية خاصة، والغالب على الظن أن يهود فاس كانوا من العناصر المتاجرة التي دخلت وجدة من أجل المتاجرة في النحاس⁽¹²⁹⁵⁾.

(1292) مصطفى الغديري، الريف، قراءة في وثائق، سلسلة كتب الريف، مطبعة الجسور، المغرب، 2009، ص: 145.

(1293) تسمى اليوم بملتقى الويدان حيث يصب وادي زا في نهر ملوية. أنظر:

- مارية دادي، "الصراع على الغزو التجاري لمدينة وجدة والمناطق الشرقية من خلال وثيقة إسبانية، الطرق التجارية نموذجاً"، الحماية والمقاومة المغربية على عهد مولاي يوسف، مركز الدراسات والبحوث العلوية، مطبعة دار المناهل، المغرب، 2005، ص: 110.

(1294) كنيته أبو عبيد الله، واسمه الحقيقي هو عبد الله بن عبد العزيز بن محمد بن أيوب بن عمرو البكري الأندلسي، يرتفع نسبه إلى بكر بن وائل، ولد سنة (405هـ/1014م) من أسرة محترمة بمدينة شالطين بإحدى إمارات الأندلس الغربية إلى الغرب من إشبيلية، وبعد زوال الحكم الأموي في الأندلس تمكنت أسرته من تأسيس إمارة لها بمدينة شالطين، إذا فهو ينتمي إلى أسرة الأمراء، غير أن هذه الإمارة لم تصمد طويلا أمام إمارة بني عباد في إشبيلية، فاضطر أبوه أن يتخلى عن أملاكه ويرحل إلى قرطبة، وفي هذه المدينة واصل البكري تحصيله العلمي، وبعد وفاة والده رحل إلى المرية، وفيها صار له شأن عظيم ومكانة مرموقة لدى الأمير محمد بن معن، فصار وزيرا له. توفي البكري سنة (487هـ/1094م). أنظر:

- حميدة، أعلام الجغرافيين، ص: 356.

(1295) دادي، ص: 110-112.

تضم مدينة وجدة تسعة فنادق، أغلبها في شكل قيساريات أو عمارات، مثل: (قيسارية ابن التاج، وقيسارية بن هطال) وأغلبها يحيط بالمدينة، أما عدد المخازن التجارية فبلغ 300 وحدة من أملاك الخواص، و 101 للأحباس، بالإضافة إلى قيساريّتان كبيرتان حيث يتمركز -في الغالب- التجار الفاسيون، وكذا الجزائريون وأتراك تلمسان. أما الأسواق بمدينة وجدة فهي تشكل بؤرا كبيرة لحركة التجارة، وأهمها تلك التي تقام في ساحة المدينة، وهي سوق الخميس بباب سيدي عبد الوهاب (الباب القبلي)، حيث تعرض أعداد كبيرة من الحبوب أو ما يعرف برحبة الزرع، وهناك سوق الخضّر، وسوق الخبز... وعليه يمكن القول أن هذه المعطيات حول مدينة وجدة كافية لإدراك الأهمية التجارية التي تتوفر عليها⁽¹²⁹⁶⁾.

ولقد سمح الازدهار التجاري لوجدة بظهور مجموعة من المدن والقرى ذات الصلة بها، أورد البكري بعضا منها مثل: تافرجنّيت، وجراوة وندرومة وترنانا وتاونت، إلى جانب قريتين كبيرتين هما الشها والحامة، وتعتبر مدينة تابحرّيت ساحل مدينة وجدة، فقد صار مينائها محط السفن ومقصد القوافل من كل حذب وصوب. وزاد من ازدهار وجدة وأهميتها، عديد الطرق التجارية التي تمر بها، على أنّ أهم الطرق التي تتبعها الجغرافيون وأطنب الرحالة في ذكرها، والتي ترتبط بمدينة وجدة نذكر: طريق وجدة-تلمسان، وطريق وجدة-فاس، وطريق وجدة-مليلية، وطريق وجدة سجلّماسة، ولكل طريق خصوصيته⁽¹²⁹⁷⁾.

كما أن الطريق الذي يربط بين وجدة وتازة والمعروف عند الأهالي بـ "محج السلطان" هو الخط الذي يربط الجزائر بوسط المغرب. وهو ممر طبيعي يقع بين مناطق جبلية وعرة، ناهيك عن ارتباط هذا الخط بممرات تجارية أخرى تؤدي إلى كل أنحاء الجنوب الشرقي للمغرب، وكذا المناطق الواقعة في الشمال الشرقي، ناهيك عن وجود سلسلة جبال بني يزناسن التي تمتد من الضفة اليمنى لنهر ملوية إلى غاية حدود الجزائر، والتي تتخللها ممرات سهلة العبور⁽¹²⁹⁸⁾.

وبالرغم من الأحداث السياسية التي توالى على شرق المغرب عموما (إيالة الجزائر) ومدينة وجدة خصوصا فإنها لم تغير في الطرق التجارية، سواء المنطلقة من وجدة أو

(1296) الغديري، ص ص: 148-149.

(1297) دادي، ص ص: 110-112.

(1298) الغديري، ص ص: 146-147.

المتجهة إليها، عدا طريق وجدة سجلماصة الذي تأثر بجملة من العوامل الاقتصادية والتاريخية، إلى حد الاندثار في بعض الأحيان⁽¹²⁹⁹⁾.

غير أن مصادر تاريخ المغرب، خاصة بعد الوزان ومارمول⁽¹³⁰⁰⁾، لا تتحدث عن أي نشاط اقتصادي لمدينة وجدة، ولم تستأنف هذه المصادر حديثها إلا في القرن (13هـ/19م) حيث ذكر "دوفوكو" أنه: "أصبح مرور القوافل بها والتجارة مع الجزائر ينعش فيها الحركة الاقتصادية ويحمل إليها الثروة". هكذا ومع بوادر التدخل الاستعماري في المنطقة عادت وجدة مرة أخرى لتتصدر ميدان التبادل التجاري مع الجهة الشرقية للمغرب، ولكن بمواد مختلفة وظروف مغايرة⁽¹³⁰¹⁾.

* توات:

تعد توات محطة تجارية هامة بالنسبة للقوافل العابرة للصحراء والقادمة من مختلف الأقطار المغاربية والإفريقية، كما أن الدور الآخر الذي لعبته توات، هو مساهمتها بقوافلها الواردة إليها خاصة من مدن الشمال في تجارة الصحراء، وقد جرت العادة في توات أن تجمع أصحاب القوافل في ضواحي (قصر حاسي أودكار) الواقعة بمقاطعة أقبلي التابعة لمنطقة (تيدكلت) وكان يطلق على هذا التجمع اسم (كابارا)، ولم يقتصر هذا التجمع على تجار توات، بل إن الكثير من التجار القادمين من هنا وهناك كانوا يشتركون فيه. كما كان التجار التواتيين يستأجرون الأدلاء للسير بهم في أسواق تومبوكتو والصحراء الموحشة. وهناك عدة مسالك تربط توات من كل الاتجاهات لاسيما تلك المتوجهة إلى الجنوب، وأغلبها تحتوى على آبار المياه⁽¹³⁰²⁾.

(1299) دادي، ص ص: 110-111.

(1300) ولد بغرناطة في أوائل القرن السادس عشر، وخرج من مسقط رأسه وهو حديث السن، فسار في جيش الإمبراطور شارلكان الذي غزا تونس سنة (994هـ/1535م)، وبعد احتلال تونس وعودة الأسطول الحربي إلى إسبانيا بقي مارمول في شمال إفريقيا، في مهمة كلفه بها شارلكان وطال مقامه في هذه البلاد قرابة الاثنتين والعشرين عاما، أسر خلالها من طرف حكام المغرب السعديين، وبقي في الأسر سبعة أعوام وثمانية أشهر. أنظر:

- كريخال، ج1، ص ص4-5.

(1301) دادي، ص ص: 110-111.

(1302) محمد حوتية، "توات والقوافل التجارية"، طريق القوافل، د.ط. المركز الوطني للبحوث في عصور ما قبل التاريخ وعلم الإنسان والتاريخ، الجزائر، 2001، ص: 35.

كما أن تنوع السلع بتوات ورخص أثمانها، كان يدفع الكثير من قوافل التجار وحتى الحجاج لشراء ما يحتاجون إليه من المؤن نظرا لرخص أثمانها، وفي هذا الصدد يقول العياشي: "إن الكثير من الحجاج لما غلا صرف الذهب في تافيلالت أخروا الصرف إلى توات لأن الذهب فيها أرخص وكذلك سعر القوت من الزرع والتمر ويوجد فيها من البضائع والسلع التي تجلب هناك شيء كثير والسلع التي من المغرب مما هو خارج السودان والملابس والطرز والحريز" (1303).

يبدو من الوهلة الأولى أن عالم المبادلات المتبع في توات مع الأقاليم المجاورة بسيطا، فهو يعتمد على المقايضة من جهة، والتي كانت تتم بين مختلف القبائل من خلال الحبوب والتمور والمواشي والسمن... ومع ذلك لم يكن في توات نظام مالي معين متبع. فقد كانت توات تستعمل في مبادلاتها التجارية نقود الأقاليم المجاورة لها وبعض نقود الدول الأوربية والإسلامية، مثل النقود المغربية والتركية والفرنسية والإسبانية ذات قيمة 5 فرنك، وهذه الأموال كانت تجلبها القوافل والرحالة في تنقلاتهم، خاصة أولئك المتوجهون أو القادمون من الشمال نحو توات، ومع ذلك تبقى المعلومات عن النظام المالي في توات قليلة بحكم قلة المصادر (1304).

وحسب المصادر الفرنسية للقرن التاسع عشر، ونخص بالذكر ما نقله الرائد كولونيو (Colonieu) في رحلته إلى المنطقة في بداية النصف الثاني من القرن 19م، فإن النقود المستعملة في واحات توات وكورارة منها:

- نقود فرنسية من قيمة 5 فرنك المسماة عند الأهالي الدورو. والتي تختلف قيمتها من منطقة تجارية لأخرى، فقيمتها في تيمي (Timmi) (أدرار) 35 أوقية وفي تيدكلت 15 أوقية. وهناك الرولف (Rohlfs) وهو عملة مغربية، قيمته أعلى نوعا ما، فهو يساوي 17 أوقية في توات مقابل 2/1 أوقية في المغرب. (1305).

(1303) نفس المرجع، ص: 35.

- DE LA MARTINIERE, T2, P :374.

(1304)

- Idem , T2, P :376.

(1305)

- الدورو وهو أنواع: منه الدورو بومدفع، به صورة مدفع على إحدى وجهيه وهو إسباني الصنع من قيمة 5 فرنك إسباني، كما يحتوى نوع آخر من الدورو على مربعين أو خانتين وقيمته 6 فرنك، وقيمته في توات تساوي 18 أوقية، أما الدورو من قيمة 5.35 فرنك يساوي 16 أوقية في تيدكلت.

- واحد ريال: قيمته 6 أوقيات أو 24 موزونة (أو وجه) أو 2 فرنك (حسب نوع الصرف).
- واحد روبية (ورقة ريال): قيمته 6 موزونات (6 وجه) ويساوي 0.50 فرنك فرنسي - الأوقية أو (الأنصة)، وتعرف كذلك بالدرهم قيمته 4 موزونات أي ما يعادل 0.333 فرنك، وفي الغالب 3 أوقيات تساوي 1 فرنك.

- التينة (Le tenin) تساوي 3 موزونات، والموزونة أو الوجه وهي قطعة فضية تساوي 0.075 فرنك أو 0.08 فرنك⁽¹³⁰⁶⁾.

أما قيمة القنطار⁽¹³⁰⁷⁾ في توات تساوي 1000 مثقال أو 1600 فرنك، غير أن قيمة المثقال في تيدكلت تساوي ضعفها في توات. والرولف في تيدكلت يساوي 150 مثقال أي ما يعادل 500 فرنك، وفي المغرب القنطار يساوي 100 مثقال⁽¹³⁰⁸⁾.

وأما النقود الذهبية فنادر وجودها في توات في عهد الرائد كولونيو نظرا لكون القبائل القادمة من توات إلى مدن شمال الجزائر، في تعاملاتها لا تستعمل إلا النقود الفضية، غير أن هناك البعض يستعملها في بيوعهم مع الرحالة، من حين لآخر. وهنا تجدر الإشارة إلى أن قوافل تافيلالت غالبا ما تمر للبحث عن الذهب في توات وخصوصا منطقة أدرار، وكورارة، للحصول على عروض أرخص تتراوح بين 5% و 10% مقارنة لما هو عليه في مناطق أخرى⁽¹³⁰⁹⁾.

- Idem , T2, P :376.

(1306)

(1307) ترد هذه العبارة للدلالة على مبلغ من النقود، ويعتقد أنه وزن، ولكنه في حقيقة الأمر عدد من المثاقيل أو الريالات يساوي (100 مثقال أو مائة ريال، وهو يرد في السجلات التجارية -عادة- كما يرد في تقدير وثائق بعض بنود الأعراف القبلية، ولكن نادرا ما كان القنطار يساوي ألف (1000 مثقال)، ولقد استعمل القنطار في نهاية القرن الثامن عشر للدلالة على الألف. كما أن قيمة القنطار المعمول بها في المغرب تساوي حوالي 44 كيلوغرام ونصف، وفي إسطنبول حوالي 56 كيلوغرام ونصف في هذه الفترة. أنظر:
- عمر أفا، النقود المغربية في القرن الثامن عشر، أنظمتها وأوزانها في منطقة سوس، ط1، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1993، ص: 87. وكذلك: - الطبايلي، من إياون إلى إستانبول، ص: 167.

- DE LA MARTINIERE, T2, P :374-375

(1308)

- Idem , T2, P :376.

(1309)

كما كانت منطقة توات تستعمل النقود المسماة الفرنك التواتي، والريال التواتي من قيمة 0.90 و 0.80 فرنك فرنسي على التوالي.

أما منطقة كورارة والتي هي الأخرى تتبع توات، فإن النقود المستعملة فيها في حقيقة الأمر هي الأوقية المغربية. وكذا العملة التركية من قيمة 0.20 فرنك فرنسي والمسماة (التسمية السواك) أو المثقال وهي تعادل كذلك نصف السلطاني، إذ يمكن تقسيم هذه العملة بالسكين إلى أربعة أجزاء، فنحصل على أربع موزنات وهذه الطريقة عملية في تروبيج النقود حسب صاحب الرحلة.

وتستعمل في منطقة كورارة أيضا النقود المغربية المسماة الروبية (ورقة الريال) ناهيك عن نقود أخرى من قيمة 5 فرنك، لاسيما النقود الفرنسية التي كانت مفضلة ومقبولة لدى التجار بالمنطقة، مقارنة بالنقود الإيطالية والإسبانية، وهذا إلى حدود (1281هـ/1864م). الملاحظ في كورارة كذلك أن النقود النحاسية لم تكن مقبولة أو رائجة. أما النقود الذهبية فكان المعروف منها من قيمة 20 فرنك، ولكن كان وجودها صعبا للغاية. والجدول الآتي يوضح لنا بعض النقود المستعملة في كورارة وأقاليم توات⁽¹³¹⁰⁾.

اسم العملة	المصدر (الأصل)	قيمتها في كورارة
الموزونة	مغربية	0.08 فرنك
التسمية	فرنسية تساوي 0.20 فرنك	0.23 فرنك
الأوقية	مغربية	0.30 فرنك
الروبية	فرنسية أو مغربية	0.50 فرنك
الفرنك الدزيري	فرنسية	1 فرنك
الريال الدزيري	فرنسية	2 فرنك
التسمية السواك	تركية	2.50 فرنك
المثقال	مغربية	3.50 فرنك
السلطاني	فرنسية	5 فرنك

—Idem , T2, P :376-377.

(1310)

— عن أسواق إقليم توات والطرق التجارية الرابطة بينها، أنظر الملحق رقم: 5، ص: 383.

إن النظام المالي المتبع في توات والأقاليم التابعة لها شبيه إلى حد كبير بالنظام المالي المتبع في باقي المناطق التجارية الأخرى، من مدن الشمال في الجزائر والمغرب وغيرها، إلى المناطق الصحراوية الأخرى التي تمر بها قوافل التجار والحجاج، فطرق الدفع كانت إما نقدا وإما مقايضة، بحسب أهمية المواد والسلع وكذا حسب رغبة التاجر، وهذا النوع من المعاملات كان رائجا في أسواق الجزائر والمغرب، وعلى ما نقله الحسن الوزان وغيره من الرحالة أن المقايضة كانت رائجة في النصف الثاني من القرن (10هـ/16م)، غير أن أسلوب المقايضة تراجع مع مرور الزمن نظرا للتدفق الهائل للمعادن الثمين مثل الذهب والفضة من أمريكا وأوروبا وبلاد السودان، وازدهار الغزو البحري الجزائري بوجه خاص، وكذا التطور التجاري في أوروبا، مما ساعد على تغلب التعامل النقدي بقوة في المعاملات التجارية بين البلدين وكثرة تداولها بين الناس⁽¹³¹¹⁾.

ومع قدوم الأندلسيين فإنهم ساهموا بقوة في رواج العملات الإسبانية الفضية، خاصة الريال في الجزائر وخارج الجزائر.

وعليه فمن العملات المستعملة في التداول التجاري بين البلدين وداخلهما: العملات المسكوكة داخل البلدين والعملات العثمانية والأوربية، والتي لا تختلف كثيرا عن تلك المستعملة في توات، كالسلطاني الذي كان يضرب في مدينة الجزائر، وهو مصنوع من الذهب الخفيف، وقيمة القطعة الواحدة منه كانت تعادل 140 آسبر، في القرن (10هـ/16م). والآسبر أو الأقجة، العملة العثمانية الفضية، والمتقال فاسي، والدينار الذهبي المغربي، ناهيك عن عملات أخرى كالريال الإسباني بأجزائه (الريال الرباعي وريال الثمانية) والذي كان من أكثر العملات الأجنبية تداولاً في المعاملات التجارية بين البلدين وداخلهما⁽¹³¹²⁾.

والملاحظ أن الرقابة على النقود لم تكن مفروضة، بل كانت حرية التعامل مفتوحة للجميع دون استثناء، غير أنه بداية من القرن (11هـ/17م)، فرض الأتراك الرقابة على العملات، بسبب إغراق الأوربيين للأسواق في شمال إفريقيا بالعملات المزيفة، إلا أن المصادر التاريخية في الجزائر والمغرب لم تشر إلى ذلك⁽¹³¹³⁾.

⁽¹³¹¹⁾ بن خروف، ج2، ص: 62.

⁽¹³¹²⁾ نفس المرجع، ج2، ص: 62-63.

⁽¹³¹³⁾ نفس المرجع، ج2، ص: 63.

أما عن أنواع المبادلات بين المغرب والجزائر فإن المعطيات العديدة المنتظمة للقوافل التجارية المتوجهة من المغرب إلى الجزائر والعكس قليلة، ولكن على الرغم من قلتها يستفاد منها في أن القوافل التجارية كانت تنطلق بانتظام بين فاس ووجدة أو بين فاس وتلمسان، أما السلع المنقولة، فبعضها منتجات فلاحية مغربية (حبوب، ملابس صوفية، جلود خام، أو جلود مصنعة، زيوت، حناء، عسل...) وبعضها سلع من أوربا (توابل، شاي، سكر، والمنسوجات المختلفة)،⁽¹³¹⁴⁾ الصابون، ونوع من التراب كان يستعمل في التنظيف كالصابون المعروف باسم (الطفل)، والذهب، والأحجار الكريمة، وكذا الجلود المدبوغة في تافيلالت المعروفة بالفيلايلية، والبلغات المصنوعة من الجلد، والحياك الصوفية، والسيوف، والحديد، والنقود، وتبر الذهب، والبخور والنيلة وغيرها. وكان العبيد أو بالأحرى المستعبدين من الأسرى النصارى قد شكلوا في كل الأحوال مادة مريحة في كلا البلدين.

ومن الجزائر كانت تصدر نحو المغرب جملة من السلع والبضائع نذكر منها: السيوف الخناجر، الأقمشة الهندية والتركية (القسطنطينية)، والمواد الصباغية المسماة بـ (COCHENILLES D'ESPAGNE).

وكانت الجزائر تصدر أيضا نحو المغرب عن طريق البر، الحرير المجلوب من تونس، والأقمشة الصوفية المصنوعة في واحات الجزائر، كالبرانس، والحياك، وكذا الدواب، والماشية، ولوازم السفر كالبرادع، والحبال والتمر، والدروع وغيرها⁽¹³¹⁵⁾.

ومع كثرة السلع وكذا القوافل الناقلة لها، كان المخزن يتحكم في هذه التجارة، من خلال الرسوم التي كانت تفرض عليها من ذلك ضريبة التعشير التي كانت تؤدي بفاس أو بوجدة، ومما شجع المبادلات التجارية بين الجزائر والمغرب، المعاملات التي كان يحكمها النظام الإسلامي. ويؤكد هذه الظاهرة تلك العلاقات التجارية بين قبائل الحدود من الجانبين، حيث لم تخضع لأية مراقبة ولم تؤد عنها رسوم لهذا الجانب أو ذاك، حيث كانت قبائل شرق

⁽¹³¹⁴⁾ عاكشة بרחاب، "مشكلة التجارة بين المغرب والجزائر (1830-1907)"، أعمال ندوة التجارة في علاقتها

بالمجتمع والدولة عبر تاريخ المغرب، ج2، جامعة الحسن الثاني، عين الشق، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الدار

البيضاء، المغرب، 1989، ص: 250

⁽¹³¹⁵⁾ بن خروف، ج2، ص ص: 60-61.

المغرب قبل القرن 19 توالي الأتراك تارة وتارة أخرى المخزن المغربي، ومثله يقال عن قبائل غرب الجزائر⁽¹³¹⁶⁾.

والجدير بالذكر أن البضائع التي كانت تعبر من فاس نحو الجزائر، كان جزء منها يتوقف في الطريق، إذ كانت البضائع تباع لقبائل الحدود المجاورة، انطلاقاً من مراكز وجدة وتازا ومدن صغيرة من الدرجة الدنيا، مثل كرسيف ودبدو⁽¹³¹⁷⁾.

كما كان الباعة من بادية إقليم فاس، ومن ناحية تازا، ومكناس، وحتى من السهول الأطلنطية، في فترات الأمن على الأقل لا يترددون في السفر إلى فاس لبيع دوابهم لوسطاء يتجهون بها بعد ذلك إلى الجزائر. ومع ذلك فإن أهم المشتركين كانوا من الجزائريين بفاس، إلا في فترات العيد الأضحى حيث تكثر العائلات الوافدة إلى سوق فاس⁽¹³¹⁸⁾.

3 - مشكلة التجارة بين الجزائر والمغرب:

1.3- أثر الاحتلال الفرنسي للجزائر على المعاملات التجارية مع المغرب:

عند احتلال فرنسا للجزائر تغير وضع العلاقات الاقتصادية بين الجزائر والمغرب، فصارت الجزائر البلد الإسلامي تعيش في ظل نظام غير إسلامي، وعليه فقد بادر السلطان عبد الرحمان إلى معارضة إقامة علاقات تجارية بين البلدين، وتخوف من أن تستعمل التجارة مطية لامتداد النفوذ الفرنسي إلى شرق المغرب، فتسعى قبائل الحدود إلى ربط علاقات تجارية مع المستعمر، لذلك اعتبر قرار المقاطعة بمثابة جهاد⁽¹³¹⁹⁾.

فهل قرار المقاطعة كان فعالاً وعملياً أم أنه كان مجرد حبر على ورق؟ وهل جسده المخزن والقبائل المغربية معاً، خاصة في المناطق الشرقية للمغرب؟ أم أنه عبارة عن مناورات أراد من خلالها المخزن منع بعض القبائل من ربط علاقات تجارية مع الأمير عبد القادر الذي كان نفوذه في منطقة شرق المغرب يؤرق المخزن والمستعمر معاً، خاصة وأن

⁽¹³¹⁶⁾ كانت البضائع التي تخرج من فاس فقط، خاضعة لإتاوة تسمى عشر فندق النجارين باسم المكان الذي تدفع فيه، وكان المولى عبد الرحمن بن هشام هو من وضعها في الأصل، مباشرة بعد معاهدة 1845 مع فرنسا، ليتاح للمخزن الاستفادة من تجارة التصدير المهمة التي كانت تخرج خاصة من فاس نحو الجزائر. وبلغت قيمته مع بداية القرن العشرين 10% . أنظر:

- برحاب، أعمال ندوة التجارة، ص: 248.

⁽¹³¹⁷⁾ لوطورنو، ج1، ص: 564.

⁽¹³¹⁸⁾ نفس المرجع، ص: 610.

⁽¹³¹⁹⁾ برحاب، أعمال ندوة التجارة، ص: 249.

المخزن لم يتردد في فتح فضائه التجاري للسفن الفرنسية للتزود بالموءن والبضائع أيام الحملة الفرنسية على الجزائر؟ وهل هذا التصرف يدخل كذلك في نطاق الجهاد؟ وهل قرار المقاطعة جاء على إثر انسحاب المخزن من الأقاليم الجزائرية التي احتلها، على إثر الحملة الفرنسية على الجزائر؟

في الواقع لم يكن قرار المقاطعة فعلا وعمليا، بل كان شكليا ونظريا فقط، فمنذ الوهلة الأولى التي احتلت فيها فرنسا مدينة الجزائر، قام المغرب بالسماح للسفن الفرنسية بالتزود بالحبوب واللحم مقابل أداء الضريبة الجمركية، فقد اقترح القنصل الفرنسي بطنجة على وزير خارجية بلاده بتاريخ 12 أبريل 1830م أن يمون المغرب الجيش الفرنسي، وللعلم فإن الحبوب كان الحصول عليها يتطلب مفاوضات، لأن تصديرها للدول الأوروبية وقتها كان محضورا، لاسيما وأن محصول الحبوب في هذه الفترة كان جيدا ويمكن الحصول عليها بسهولة وبأثمان بخسة. ولقد وافق السلطان على طلب الفرنسيين وراسل في ذلك أمين الديوانة الطيب البياز، وأمره أن يسمح للفرنسيين التزود بالموءنة من موانئ المغرب، مقابل أداء ما عليهم من ضريبة⁽¹³²⁰⁾.

ورغم أن أطرافا أخرى سعت لعرقلة هذا النشاط مثل وكيل الجزائر التجاري بتطوان عبد الكريم بن طالب، والقنصل البريطاني بطنجة (ديريموند هاي) (D.Hay) وكذا قنصل الدانمارك، وذلك من خلال نشرهم لأخبار مغلوبة وكاذبة عن الحملة الفرنسية على الجزائر، إلا أن المغرب سمح للسفن الفرنسية التزود بما تحتاجه من الموءنة من مراسيه، وتأكد للفرنسيين أن المخزن لم يوافق على مطالبهم إلا تحت الخوف، وبعدما تأكد له خبر سقوط مدينة الجزائر في أيديهم⁽¹³²¹⁾.

لقد تأثرت تجارة المغرب مع الجزائر جراء الاحتلال، وتدننى مستوى المبادلات بينهما وتضرر التجار وانقطعت بعض الطرق التجارية الرئيسية التي تربط مراكز تجارية مهمة في المغرب والجزائر،⁽¹³²²⁾ إلا أنه كان من الصعب مراقبة مدى احترام القبائل المغربية لقرار

⁽¹³²⁰⁾ ياسين، ص ص: 26.

⁽¹³²¹⁾ نفس المرجع، ص ص: 27.

⁽¹³²²⁾ خديجة بن بوسلهم، المخزن والمجتمع في النصف الأول من القرن التاسع عشر، عهد مولاي عبد الرحمن بن هشام 1822-1859م، ط1، دار أبي الرقاق للطباعة والنشر، المغرب، 2013، ص ص: 183-184.

المقاطعة، نظرا للحدود الطويلة والشاسعة بين المغرب والجزائر الممتدة على مئات الكيلومترات⁽¹³²³⁾.

ويبدو من البداية أن قرار المقاطعة التجارية مرتبط أساسا بمشاكل الحدود بين الجزائر والمغرب، ومع ذلك هادن السلطان عبد الرحمان الفرنسيين، ودعا القبائل إلى الحفاظ على حسن الجوار معهم، وفي نفس الوقت دعاها لقطع العلاقات التجارية مع المحتل، وهذا تناقض واضح في سياسة المخزن يتعارض مع إرادة قبائل الحدود. في حين سعت فرنسا إلى تنمية العلاقات الاقتصادية بين غرب الجزائر وشرق المغرب، وفي إطار ما يسمى بالتوسع السلمي. وبذلك صارت العلاقات التجارية بين المغرب والجزائر، تمثل بحق مشكلا في نظر المخزن المغربي⁽¹³²⁴⁾.

وهنا تجدر الإشارة إلى أن فرنسا نفسها لم تكن متحمسة لتسهيل التعامل التجاري مع المغرب عبر البر في هذه الفترة، لأن ذلك حسب زعمها يقوي شوكة الأمير عبد القادر الذي كان يستفيد من القوافل التجارية التي تنتقل بين الجزائر والمغرب عبر الحدود⁽¹³²⁵⁾. وهذا ما حصل فعلا عندما قام التاجران الفاسيان الحاج الطالب بن جلون ومحمد مكار باقامة علاقات وطيدة مع الأمير عبد القادر⁽¹³²⁶⁾.

أضف إلى ذلك أن قبائل الصحراء التي كانت تتوجه نحو موانئ الشمال، صارت تتوجه إلى داخل المغرب. كما أن حركية تجارية عرفتها مدينة تلمسان مع توات على إثر معاهدة التافنة التي أبرمها الأمير عبد القادر مع الفرنسيين سنة (1253هـ/1837م)، والتي كانت تصب في مصلحة الأمير، هذا بالإضافة إلى أن إنجلترا في هذه الفترة كانت تريد استغلال الوضع الاقتصادي من خلال مبادلتها للسلاح والبارود مع القبائل، والذي كان يمر عبر جبل طارق، مقابل الحصول على السلع مثل الحبوب (القمح والشعير) والكتان⁽¹³²⁷⁾.

وفي هذا السياق أصدرت السلطات الاستعمارية بالجزائر مرسوما بتاريخ 1259هـ الموافق لـ 16 ديسمبر 1843م يحظر المبادلات التجارية بين المغرب والجزائر، ولعل هذا

(1323) قرنفل، أهل فاس المال والسياسة، ص: 60

(1324) برحاب، أعمال ندوة التجارة، ص: 247-249.

(1325) برحاب، من قضايا الحدود بين الجزائر والمغرب، ص: 44.

(1326) قرنفل، أهل فاس المال والسياسة، ص: 60.

(1327)

القرار كان ظرفيا ومؤقتا، ومرتبطا بمقاومة الأمير عبد القادر لا أكثر⁽¹³²⁸⁾. إذ سرعان ما عمدت الإدارة الاستعمارية إلى تشجيع التبادل التجاري بين قبائل الحدود بين المغرب والجزائر، من خلال استصدارها لمجموعة من القوانين لتفعيل هذه الخطوة، رغم أوامر المنع التي أصدرها المخزن، والتي أعطاه صيغة دينية تمنع المتاجرة مع الكافر ومقاطعته بشتى السبل. وأضحى كل من خالف هذه الأوامر معرضا للزجر والعقاب. وحسب الباحث عكاشة برحاب، كان هذا أول بوادر محاربة ظاهرة التجارة غير المرخصة عبر الحدود البرية بين المغرب والجزائر⁽¹³²⁹⁾.

وهكذا بدأت ظاهرة التهريب تطل في الأفق، وهو ما أدى إلى إفشال قرار المقاطعة للتجارة مع الجزائر الذي أقره المخزن، وشيئا فشيئا تكونت منطقة تجارية حرة بغرب الجزائر، كان هدفها إدخال السلع الفرنسية إلى المغرب⁽¹³³⁰⁾.

وفي هذا الصدد كتب الكثير من علماء المغرب في مسألة تحريم التجارة مع المحتل من ذلك الناصري، ومحمد بن المدني كنون، الذي كتب إلى بعض أهل فاس القاطنين بالجزائر، من التجار في رسالة سماها "نصيحة في التحذير من الإقامة بأرض العدو"، حثهم فيها على الهجرة من دار الحرب إلى دار السلام⁽¹³³¹⁾.

والجدير بالذكر أن تجارة فاس مع الجزائر في هذه الفترة تكاد تكون تجارة تصدير فحسب، لا سيما المنتجات الحرفية، وكانت تسلك الطريق الرئيسي بين فاس ووهران، وكانت هذه المبادلات منظمة بين تجار فاس المقيمين بوجدة والجزائر، وعلى سبيل المثال كان بالجزائر العاصمة شخص اسمه دادي ممثلا للتاجر الفاسي اليهودي الأصل محمد كوهن⁽¹³³²⁾. والكثير من أمثال هذا التجار كانت حياتهم معرضة للخطر، نتيجة التعامل مع المستعمر. فقد جاء في رسالة جوابية إلى القائد أشعاش، بعد أن تناهى للسلطان خبر مقتل تاجرين مغربيين بوهران: "وصلنا كتابك مخبرا بما وقع بالتجارين التطواني والفاسي بوهران،

⁽¹³²⁸⁾ برحاب، من قضايا الحدود بين الجزائر والمغرب، ص: 44.

⁽¹³²⁹⁾ نفس المرجع، ص: 45.

⁽¹³³⁰⁾ قرنفل، أهل فاس المال والسياسة، ص: 60.

⁽¹³³¹⁾ أحمد مكاي، "مسألة التجارة في خطاب مؤرخين مغربيين الناصري والسليمانى"، أعمال ندوة التجارة في علاقتها بالمجتمع والدولة عبر التاريخ، ج1، جامعة الحسن الثاني، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، عين الشق، الدار البيضاء، 1989، ص: 139.

⁽¹³³²⁾ لوطورنو، ج1، ص: 615.

فسحقا سحقا، فحيث كان المسلمون بها لم تكن عندهم أرض تجارة، وحيث صارت مأوى الكفار، حسنت لهم التجارة بها، فما أقل دينهم»⁽¹³³³⁾.

2.3- إجراءات المخزن من أجل تحسين وضعية الخزينة:

بعد هزيمة إيسلي سنة (1260هـ/1844م) وما ترتب عنهما من نتائج وخيمة على المغرب، من ذلك اتفاقية لالة مغنية سنة (1261هـ/1845م)، المتعلقة برسم الحدود، والتي جرّت المخزن للتوقيع على اتفاقية تجارية مكملّة لاتفاقية الحدود، الأمر الذي دفع السلطان عبد الرحمان إلى رفض ذلك بشكل قاطع، مسلطا جام غضبه على عامله حميدة بن علي الشجعي الذي فوضه للوقوف على اتفاق لالة مغنية لأنه تجاوز صلاحياته، وخاض مع الوفد الفرنسي في أمر التجارة إلى جانب مسألة الحدود⁽¹³³⁴⁾. الأمر الذي جعل إقناع قبائل الحدود بفكرة المقاطعة أمرا مستحيلا، إذ كيف له من جهة أن يحرم التعامل مع الكافر المحتل لبلاد المسلمين، ومن جهة أخرى يعقد معه الصلح والهدنة، فهذا في نظر القبائل تناقض وقع فيه المخزن، فلم يوفق المخزن في منع التجارة مع المستعمر والتعامل معه، الأمر الذي كلف المخزن خسائر اقتصادية كبيرة⁽¹³³⁵⁾.

ومن أجل تحسين وضعية الخزينة قرر السلطان عبد الرحمان، احتكار التجارة الخارجية، وهكذا أعلنت بعض أنواع التجارة، كتجارة السكر والشاي والقهوة، ممنوعة من الممارسة من طرف الأشخاص ليصبح احتكارها في يد تجار يختارهم السلطان، يسمون "تجار السلطان" وكان يتم تمويلهم من الخزينة، وتقسم الأرباح بينهم وبين السلطان، وقد اختير هؤلاء التجار من اليهود المغاربة ومن أهل فاس⁽¹³³⁶⁾.

⁽¹³³³⁾ بن بوسلهام، ص: 184.

⁽¹³³⁴⁾ براحاب، من قضايا الحدود بين الجزائر والمغرب، ص: 44. وكذلك:

- DE LA MARTINIERE , T1, PP : 517-535.

⁽¹³³⁵⁾ لقد حاول الناصري رصد الأضرار التي شهدتها المغرب خلال القرن التاسع عشر لاسيما أيام حكم السلطان عبد الرحمان بن هشام، جراء معاهدة الصلح مع فرنسا بعد معركة إيسلي، فقد أشار إلى ارتفاع السكة المغربية ورافقها ارتفاع في الأسعار، بالرغم من محاولات السلطان لحصر ذلك ولكن دون جدوى، بالإضافة إلى إسقاط السلطان الرسوم المخلفة عن التجار الأجانب. أنظر:

- مكاي، أعمال ندوة التجارة، ص: 140-141. وكذلك:

- براحاب، أعمال ندوة التجارة، ص: 250.

⁽¹³³⁶⁾ قرنفل، أهل فاس المال والسياسة، ص: 61.

وبالرغم من جهود المخزن في تفعيل قرار المقاطعة التجارية مع الجزائر، إلا أن رغبة المستعمر الفرنسي في التغلغل جنوبا انطلاقا من وهران، دعتة إلى تشجيع حرية التجارة بين الجزائر والمغرب، ورفع الحظر عن المنتجات المغربية القادمة إلى الجزائر برا، وصدر بموجب ذلك مرسوم بتاريخ 1270هـ الموافق لـ 11 أوت 1853، ثم مرسوم آخر بتاريخ 1284هـ الموافق لـ 17 جويلية 1867، يعفي المنتجات المغربية القادمة إلى الجزائر برا من الرسوم الجمركية، وخلق هذا متاعب كبيرة للمخزن من خلال تمرد الكثير من التجار على قرار المقاطعة وأدى إلى انتشار ظاهرة التهريب، لاسيما فيما تعلق بالماشية والحبوب، والصوف والجلود⁽¹³³⁷⁾.

⁽¹³³⁷⁾ برحاب، أعمال ندوة التجارة، ص:250.

III - العلاقات الثقافية والاجتماعية بين البلدين:

يعتبر التواصل الثقافي أهم مظهر من مظاهر وحدة المغرب العربي، رغم التقلبات السياسية التي كانت تشهدها المنطقة المغاربية في الفترة الحديثة لا سيما فيما يتعلق بالجزائر والمغرب، نظرا للحرازمات السياسية والصراعات البينية، التي كانت تقضي في الأخير لمعارك وحروب على حدود البلدين، إلا أن التواصل الثقافي ظل قائما ليعزز الانتماء إلى حقل ثقافي واحد⁽¹³³⁸⁾.

وعليه فقد اتخذت العلاقات الثقافية بين المغرب والجزائر لاسيما في الفترة المدروسة، طابعا شعبيا، حافظت من خلاله على عمقها التاريخي واستندت إلى ما يجمعها من قواسم مشتركة، مذهبيا ولغويا، على إمكانيات سبل التواصل والتفاعل بينهما، وبغض النظر عن الاتجاه العام الذي طبع ثقافة العصر، فقد شكلت اللغة التركية، والمذهب الحنفي، فضلا عن بعض الطرق الصوفية التي مارست تأثيرا روحيا بارزا في إيالة الجزائر عامة، والأقاليم الغربية والجنوبية الغربية منها خاصة المظهر الحقيقي لثقافة العصر⁽¹³³⁹⁾.

فقامت هذه الطرق بدور مهم في بلورة الأوضاع الاجتماعية والثقافية وحتى السياسية والاقتصادية في هذه البلاد، وجاء انتشارها تعبيرا لحاجيات الفرد والمجتمع، لم تتمكن السلطة الحاكمة من توفيرها.⁽¹³⁴⁰⁾

يضاف إلى ذلك المستوى الثقافي المتواضع لمعظم الولاة والحكام الأتراك، والذين كان انشغالهم منصبا على احتكار المناصب العسكرية والإدارية، فقلل ذلك من مساهماتهم في الحياة الثقافية والاهتمام بمؤسساتها التعليمية، وعدم اكتراثهم بتشجيع اللغة العربية والمدارس المالكية والتعليمية الكبرى، فساهم ذلك في احتضار الحياة الفكرية، التي اتسمت بقلّة الإنتاج وطغيان التقليد، وغلب عليها الطابع الجهوي الإقليمي، كما اعتمدت معظم المناطق الجزائرية على إمكانياتها الذاتية لتطوير التعليم. ومن جهة أخرى اضطر العديد من العلماء في

⁽¹³³⁸⁾ محمد زروق، دراسات في تاريخ المغرب، ط1، إفريقيا الشرق، المغرب، 1991، ص: 71.

⁽¹³³⁹⁾ بوزياني، مكناسة، ص: 166.

⁽¹³⁴⁰⁾ محمد الخداري، "الدور السياسي للطريقة الدرقاوية في العلاقات بين المغرب والجزائر، في بداية القرن التاسع عشر"، المناهل، العدد 124، المغرب، 2007، ص: 257.

الجزائر للهجرة إلى الخارج لاستكمال دراساتهم وتعليمهم، وكان اعتناق العدد الكبير من الجزائريين للمذهب المالكي دافعا لانتقال بعض العلماء الجزائريين إلى القرويين والزيتونة والأزهر للتمكن من علوم هذا المذهب، ثم العودة لبلادهم من أجل تعزيزه إزاء المنافسة الحنفية. ناهيك عن مساهمة الزوايا والطرق الصوفية في إحياء ونشر العلوم الدينية والأدبية، والتي ارتبطت بأهم الطرق الصوفية المشهورة في تلك الفترة⁽¹³⁴¹⁾.

والجدير بالذكر أن الاستقرار السياسي الذي عرفه المغرب الأقصى عموما، مقارنة، بأحوال الجزائر السياسية، وكذا إسهامات سلاطين المغرب في تطوير الحياة العلمية والثقافية في المغرب، من ذلك جهود المولى محمد بن عبد الله الإصلاحية ما بين (1171-1205هـ/1757-1790م)، ثم جهود خلفه المولى سليمان السلطان العالم، وغيرها من الإسهامات. بالإضافة إلى الإشعاع الثقافي والعلمي الذي لعبه القرويين في حياة المغاربة منذ سقوط الأندلس، ناهيك عن النخب البارزة من العلماء الفطاحل على المستوى المحلي والمغربي، بل والإسلامي عامة، التي كانت بحق منارات للعلم يقصدها الطلاب، وخاصة عندما يتعلق الأمر بالمذهب المالكي. وهذا يجعلنا نقول أن المغرب الأقصى كان من الوجهات المفضلة للكثير من الجزائريين الراغبين في طلب العلم، بعد الحرمين الشريفين والأزهر، مقارنة بنظرائهم الوافدين من تونس وليبيا⁽¹³⁴²⁾.

وفي هذا السياق لا مانع من طرح بعض الأسئلة عن أحداث ذات صلة بالموضوع من ذلك:

(1341) بوزياني، مكناسة، ص: 166.

(1342) تجدر الإشارة إلى أن تونس كانت سباقا في استقطاب العلماء وطلاب العلم من الجزائر منذ النصف الأول من القرن التاسع الميلادي، الثالث الهجري، أما في المغرب الأقصى، ولا يكاد المرء يعثر على أي أثر للعلماء الجزائريين هناك حتى منتصف القرن الحادي عشر الميلادي، الخامس الهجري، وهذا لأسباب موضوعية، منها على سبيل المثال أن القيروان في تونس كمركز علمي، وكعاصمة سياسية أقدم من فاس ومن القرويين، فالأولى تأسست في الثلث الأخير من القرن السابع الميلادي، بينما لم تشتهر الثانية إلا في القرن العاشر الميلادي. أنظر:

- عمار هلال، "العلماء الجزائريون في فاس فيما بين القرنين العاشر والعشرين الميلاديين (4/14هـ)"، مجلة الدراسات التاريخية، ع9، معهد التاريخ، جامعة الجزائر، 1415هـ-1995م، ص: 7.

كيف كانت طبيعة العلاقات الثقافية بين الجزائر والمغرب؟ وما هي أهم مظاهرها؟ وهل أثر التوتر السياسي بين البلدين على أحوالها؟ وما هو موقف حكام البلدين من هجرة العلماء من المغرب إلى الجزائر والعكس؟ وما هي إسهامات العلماء في ذلك؟ وهذا ما يجعلنا كذلك نتساءل عن سر اهتمام سلاطين المغرب بعلماء الجزائر الوافدين إلى بلادهم، خاصة إذا علمنا أن المولى سليمان مثلاً، كان على صلة وثيقة بعدد من شيوخ الطرق الصوفية التي ذاع صيتها في الجزائر والمغرب معاً، وقد تسببت هذه الطرق في إحداث اضطرابات سياسية عنيفة بإيالة الجزائر نظراً للعدد الكبير لأتباع هذه الطرق بها، وكذا شهرة مشايخها. فهل استثمر هذا السلطان علاقته مع هؤلاء الشيوخ لتحقيق مكاسب سياسية، على حساب أتراك الجزائر، في وقت تذكر فيه المصادر التاريخية أن عهد المولى سليمان كثرت فيه الاضطرابات الداخلية، ولم يكن له من القدرة والإمكانات لتحقيق ما عجز عن تحقيقه أسلافه لاسيما فيما يتعلق بتوسيع حدود مملكته شرقاً وجنوب شرق المغرب؟

ثم ألم يكن من الأجدر للأتراك أن يعملوا على تقوية علاقاتهم بأهل العلم على اختلاف مناهلهم ومشاربهم للحفاظ على استقرار حكمهم، وتحقيق من وراء ذلك مكاسب سياسية واجتماعية؟ ولعلنا هنا نذكر بمحاولات المولى سليمان في استدراج أبي راس الناصري -الذي كانت تربطه علاقة طيبة بأتراك الجزائر- وذلك عندما حاول السلطان أن يقنعه بأن حدود المغرب الشرقية تصل إلى وادي التافنة، فكانت إجابة هذا العالم واضحة وصريحة، تصب في مصلحة إيالة الجزائر، ثم محاولة السلطان إقناع هذا العالم ببقاء عنده حتى يجزل عليه العطايا فرفض، ألا يعد هذا مثلاً مكسباً لو واصل الحكام الأتراك توطيد علاقاتهم مع العلماء؟

1- إسهامات العلماء الثقافية في العلاقات بين البلدين:

1.1- إسهامات الجزائريين الثقافية:

بالنسبة للروابط الثقافية بين المغرب وإيالة الجزائر، هناك العديد من القرائن والشواهد التي تبرهن على استمرارية صور وملامح التفاعل الثقافي بينهما، ويهمننا في هذا الصدد أن نشير إلى بعض النماذج التي تؤكد انفتاح العلماء من الجزائر والمغرب على البيئة المغربية والجزائرية على حد سواء.

فضّل بعض العلماء الجزائريين وطلاب العلم التوجه إلى المغرب والإقامة به والمساهمة في إثراء الحياة الفكرية بكل حرية ودون منافسة، كما أخذ بعضهم عن كبار علماء المغرب، وأخذوا عنهم الإجازة في مروياتهم ومؤلفاتهم⁽¹³⁴³⁾. ونذكر منهم:

- سعيد المنداسي التلمساني إبان القرن السابع عشر، الذي نال الرعاية من حكام المغرب العلويين، فقد تقرب من المولى الرشيد ومن خلفه المولى إسماعيل، ونظم العديد من الأشعار في عهدهما والإشادة بكرمهما معه⁽¹³⁴⁴⁾.

- عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري: صاحب الرحلة المسماة "لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال"، الذي يعد واحدا من الرحالة الجزائريين القلائل في القرن 18م الذين أخذت رحلاتهم طابعا وذوقا خاصا بها، نظرا لاهتمامها بالمسائل العلمية من رياضيات وطب وصيدلة شعبية وغيرها من العلوم⁽¹³⁴⁵⁾.

كما يعد ابن حمادوش أول جزائري يترك وصفا دقيقا لمدن مغربية مثل تطوان ومكناس وفاس وما تخللها من أحوال اجتماعية واقتصادية وثقافية خلال القرن الثامن عشر⁽¹³⁴⁶⁾.

وفي أثناء هذه الرحلة التقى ابن حمادوش بعدد من العلماء وجالسهم وأخذ عنهم الإجازة كالعالم أحمد البناني الفاسي، الذي حضر دروسه في شرح صحيح البخاري بجامع زاوية سيدي أحمد بن ناصر (صاحب رحلة الدرعي المشهورة)، وكذا درس في شرح سيدي خليل في الفقه المالكي، وختمه في (صفري) لسيدي أحمد السنوسي التلمساني

(1343) بوزياني، مكناسة، ص: 166.

(1344) نفس المرجع، ص: 169.

(1345) عبد الرزاق ابن حمادوش الجزائري، رحلة ابن حمادوش الجزائري، المسماة لسان المقال في النبأ عن النسب والحال،

تقديم وتحقيق وتعليق د. أبو القاسم سعد الله، د. ط، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 1983، ص: 24.

(1346) أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرحلة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983، ص: 204.

(ت895هـ/1490م) وهي من أهم النصوص المتداولة بين العلماء، وقد كتب ابن حمادوش قصيدة قدمها للشيخ البناني يطلب فيها الإجازة منه (1347).

وقد أجازته البناني في قوله:

أجزت لكم مروينا مطلقا وما لنا * سائلا أن نتحفوا بالدعاء

وسنحت الفرصة لابن حمادوش أن يدرس كتاب المقنع للطلبة بعد قرابة الأسبوع من حضوره لدروس البناني (الظاهر أنه شرح كتاب محمد ابن سعيد السوسي على نظم محمد بن علي المعروف بأبي مقرع، شرح السوسي يعرف بالمقنع في علم أبي المقرع) وهذا بعد أن أخذ الإذن من الشيخ البناني والشيخ الوريزي (1348).

هذا الأخير حضر ابن حمادوش دروسه وسمع عنه تفسير البخاري ومسلم وكذا الموطأ، وقد أجاز الوريزي صاحب الرحلة في قوله: "...إن الشريف الفاضل العلامة سيدنا ومولانا عبد الرزاق بن محمد بن أحمدوش (كذا) الجزائري دارا ومنشأ، رغب أن يسمع مني ما سهل الله سبحانه من الحديث مما سمعته عن أشياخي رحمننا الله وإياهم، فأسعفته في رغبته، فأسمعته بعض موطأ مالك بن أنس، رضي الله عنه، من رواية يحيى بن يحيى الليثي وأجزته سائرته (كذا)" (1349).

كما قرأ ابن حمادوش على شيخ آخر هو أحمد السرائري الذي أجازته بطلب من الشيخ البناني، يقول السرائري: "فقد طلب مني الفقيه النجيب، الأديب الأريب العلامة الأوحى سيدنا ومولانا عبد الرزاق بن محمد بن حمادوش الجزائري دارا ومنشأ، طلب مني الإجازة، مع عدم أهليتي لذلك، فأجبتة، فأجزته فيما سمع وفي غير ذلك مما يصح لي وعني روايته إجازة تامة عامة" (1350).

واشتغل ابن حمادوش كذلك في نسخ الكتب ليستفيد منها، كما كان يشتري بعضها، لا سيما ما تعلق منها بالحديث والسيرة والمنطق والأدب، أما في علم الفلك والطب في تطوان، فلم يجد صاحب الرحلة من يتقن هذه العلوم (1351)، فانتقل إلى مكناس. وأثناء إقامته بها

(1347) ابن حمادوش، ص ص: 32 إلى 35.

(1348) نفس المصدر، ص ص: 35-39.

(1349) نفس المصدر، ص: 37.

(1350) نفس المصدر، ص: 68.

(1351) نفس المصدر، ص: 76.

تواصل ابن حمادوش مع علمائها مثل العالم عبد السلام القباب وعنه قال ابن حمادوش: "بلغني أنه من خيارهم، فلم أجده يحسن شيئاً من علم التوقيت، وهو موقت جامع النجارين، فأجمعت معه حسن اللقا (كذا)". وقد دله هذا العالم على من هو أحسن منه اتقانا لعلم التوقيت وهو الشيخ عبد القادر الفاسي، غير أنه كان مثل صاحبه، لا يتقن منه إلا الشيء القليل (1352).

ولاهتمام ابن حمادوش بعلم الفلك توجه إلى فاس، أين التقى بالمنجم محمد القسنطيني المشهور في فاس بهذا الفن غير أنه لم يكن بارعا فيه على قدر الكفاية فشهرته فاقت علمه، وعنه يقول ابن حمادوش: "فراجعته نحو الثلاثة أيام، وأحضرت له النصابات (يعني العمليات الفلكية والجداول ونحوها) فلم يدر ما يحكم، وإنما يحكم للعامة بحسب ما يظهر له، حتى أيقنت أنه يكتسب (يتكسب) كأصحاب خط الرمل المنتصبين له وغيرهم. ولم أجد عنده من العلم ما يغني ففارقته...» (1353).

وعلى خطى ابن حمادوش سار العديد من العلماء الجزائريين وطلاب العلم إلى المغرب، نذكر منهم:

- العالم الجزائري التلمساني المولد والمغربي الدار، المعروف بالشيخ عبد الرحمان بن أحمد المنجري الإدريسي الحسني، ثم الفاسي، المعروف بالشيخ المنجرة، المتوفى سنة (1189هـ/1783م)، فقد مكث بفاس فترة طويلة حتى صار له تأثير كبير في المغرب حتى فاق أقرانه من علماء المغرب، بل إن صيته بلغ تونس، وصار يلقب الفاسي بدلا من التلمساني، وكانت له اهتمامات عديدة بالفقه والأصول والتفسير والحديث واللغة العربية (1354).

وإذا كان هؤلاء وغيرهم من رواد العلم في القرن 18م، فإن القرن 19م شهد هو الآخر حركة هجرة كبيرة لعلماء وطلاب علم من الجزائر قاصدين المغرب، ولعل الهجرة الكبيرة

(1352) نفس المصدر، ص: 77-78.

(1353) نفس المصدر، ص: 83.

(1354) هلال، مجلة الدراسات التاريخية، ص: 37.

لعلماء الجزائر تزامنت مع الاحتلال الفرنسي للجزائر وما ترتب عنه من تضيق الخناق عليهم لمكانتهم ودورهم في مواجهة مزاعم الاستعمار⁽¹³⁵⁵⁾.

فمن رواد القرن 19م نذكر: محمد بن عبد القادر بن علي الراشدي الحسيني الإغريسي، كان قاضيا وفتيها من علماء المالكية، من أهل وادي الحمام بالقرب من معسكر، انتقل إلى فاس وبقي بها أعواما ثم رحل إلى طنجة ومنها إلى تونس، غير أنه عاد إلى الجزائر واستقر بقسنطينة أين تولى وظيفة القضاء بها.⁽¹³⁵⁶⁾

- أبي راس الناصري (ت1238هـ/1823م) الذي زار المغرب في تاريخ غير معروف للمرة الأولى، ثم زاره مرة ثانية سنة (1216هـ/1801م)، وخلالها زار مدينة فاس وتطوان، وحضر مجالس العلماء وناقشهم في مسائل مختلفة. كما حضر مجالس السلطان سليمان، ولعله رجع إلى المغرب مرة أخرى بعد الثورة الدرقاوية⁽¹³⁵⁷⁾.

ولعل ما يميز أبي راس عن غيره من العلماء في الجزائر أنه عاش في فترة تعاقبت فيها الأحداث الكبرى في الجزائر وفي العالم الإسلامي واحدة تلو الأخرى مثل حملة أوريلي وحملة اللورد إكسموث الأوربية على الجزائر، وفتح وهران الثاني⁽¹³⁵⁸⁾، وثورة درقاوة ضد العثمانيين، كما عاصر ظهور الدعوة الوهابية والحملة الفرنسية على مصر، واعتلاء محمد علي سدة الحكم فيها، وعاصر عهد الإصلاح في الدولة العثمانية، وقد أثرت عليه هذه الأحداث وغيرها على مزاجه وأفكاره وأحكامه. أضف إلى ذلك أنه عاصر كبار العلماء في العالم الإسلامي كالجبرتي مثلاً⁽¹³⁵⁹⁾، وقد ألف كتاب سماه (عجائب الأسفار ولطائف الأخبار)، على نسق كتاب الجبرتي المعنون بـ (عجائب الآثار في التراجم والأخبار). ولما زار المغرب وفد على المولى سليمان واشتهر أمره في فاس ولقبه علماءها بالحافظ، وأطلق

⁽¹³⁵⁵⁾ نفس المرجع، ص: 38.

⁽¹³⁵⁶⁾ نويهض، ص: 21.

⁽¹³⁵⁷⁾ أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي (1500-1830)، ج2، ط1، دار الغرب الإسلامي، 1998، ص: 379.

⁽¹³⁵⁸⁾ كان الفتح الأول لوهران في 19جانفي 1708م، والفتح الثاني في فيفري 1792م. أنظر:

- الأغا بن عودة المزاري، طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن 19م، تحقيق ودراسة يحي بوعزيز، ج1، د.ط، دار الغرب الإسلامي، د.ت، ص ص235-260.

⁽¹³⁵⁹⁾ نفس المرجع، ص ص: 376-377.

عليه مجيزوه اسم حافظ المغرب الأوسط، وقد رغبه السلطان في البقاء بالمغرب فاعتذر له، ومن علماء المغرب الذين لقيهم عبد الرحمن التادلي⁽¹³⁶⁰⁾.

ولأبي راس الكثير من المؤلفات فاقت العشرين، ذكرها الأستاذ أبو القاسم سعد الله رحمه الله في دراسته عن هذا العالم. غير أننا نذكر منها المؤلفات والشروح التي أنجزها عندما كان بتطوان مثل (روضة السلوان المؤلفة بمرسى تطوان)، وصف فيها تطوان بأنها بلد الأمان، فقد ذهب إلى المغرب بعد عزله من وظائفه سنة (1211هـ/1796م)، واستقبله المولى سليمان بفاس، وعرض عليه بعض الوظائف، ولكن أبا راس اعتذر، فأرسله السلطان إلى مرسى تطوان للركوب إلى الجزائر، ولما كان فتح وهران تأثر الناصري لذلك، ودعا المولى سليمان للحدو حذو الأتراك لتحرير سبتة ومليلة والثغور المغربية الأخرى التي احتلها الإسبان، وله شرح آخر سماه "الخبر المعرب عن أمر المغرب، والحال بالأندلس وثغور المغرب"⁽¹³⁶¹⁾.

- أحمد بن شريف السنوسي: قصد أحمد بن شريف السنوسي مدينة فاس في المغرب الأقصى ومكث بها قرابة السبع سنوات، فأخذ العلم عن أفضل علماء المغرب، مثل حمودة بن الحاج، حمدون بن عبد الرحمن، الطيب الكيراني، محمد بن عامر المعداني، أبو بكر الأدريسي، وإدريس بن زيان العراقي، ومحمد بن منصور، ومحمد بن عمر الزروالي، ومحمد البازغي، والعربي بن أحمد الدرقاوي. وقد تبحر ابن السنوسي في معرفة الطرق الصوفية إلى جانب التفقه في علوم الدين والفقه المالكي، وتحصل على إجازات من علماء راسخين وأصبح مدرسا بالجامع الكبير بمدينة فاس، ونال المشيخة الكبرى بها، وأقبل عليه الناس لما رأوا من صلاحه وتقواه وفهمه الدقيق لعلوم الشريعة، ولما خشي المخزن في عهد المولى سليمان من نفوذه، بدأت تحاك ضده الدسائس والمؤامرات والعراقل، فوجد نفسه مجبرا على مغادرة فاس، وقرر الارتحال عنها إلى الجزائر ومنها إلى المشرق لأداء مناسك الحج، بعد

⁽¹³⁶⁰⁾ أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج1، طبعة خاصة، دار البصائر، الجزائر، 2007، ص ص:

88-78.

⁽¹³⁶¹⁾ نفس المرجع، ص ص: 92 إلى 102.

أن تبلورت أصول الدعوة في ذهنه وعزم على محاربة الأوهام والخزعبلات التي أبعدت الإسلام عن حقيقته، وذلك منذ عام (1235هـ/1819م)⁽¹³⁶²⁾.

ومن أبرز الوافدين إلى المغرب من الجزائريين في القرن 19 الشيخ محمد سعيد بن محي الدين ابن مصطفى الحسيني الجزائري، الشقيق الأكبر للأمير عبد القادر الجزائري، كان فقيها وصوفيا، له اهتمامات كثيرة ببعض علوم عصره، ولد بالقيطنة بمعسكر، حيث نشأ وتعلم، وبعدها رحل إلى المغرب أين تولى مشيخة الطريقة القادرية، وقد عرضت عليه الإمارة قبل شقيقه عبد القادر فلم يقبلها، غير أنه اشترك في كفاح الفرنسيين مع شقيقه، وإسهاماته العلمية غير جلية في الجزائر كما المغرب، إلا أنها بارزة في دمشق، أين أكمل باقي حياته⁽¹³⁶³⁾.

2.1- إسهامات المغاربة الثقافية:

أما علماء المغرب فقد تعددت زياراتهم إلى الجزائر، وساهم بعضهم في حلقات التدريس التي عرفتها بعض المراكز بها، وجمعتهم بعلماء الجزائر علاقة وطيدة، من ذلك صداقة العالم المغربي أبي سالم العياشي للمرابط الجزائري أبو عيسى الثعالبي⁽¹³⁶⁴⁾، فقد لقيه في الحجاز وأخذ عنه علوم الحديث وأسانيد الفقه المالكي، ومبادئ الزهد وعلوم الباطن⁽¹³⁶⁵⁾.

⁽¹³⁶²⁾ على محمد محمد الصلابي، الثمار الزكية للحركة السنوسية في ليبيا، ج1، ط1، مكتبة الصحابة، الشارقة، 2001، ص: 28-34.

⁽¹³⁶³⁾ هلال، مجلة الدراسات التاريخية، ص: 40.

⁽¹³⁶⁴⁾ من كبار علماء المالكية في عصره، يعود نسبه إلى جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه، أصله من ناحية وادي يسر بالجنوب الشرقي من مدينة الجزائر، ولد ونشأ في زواوة، وانتقل إلى العاصمة فأخذ عن الشيخ سعيد قدورة وغيره، ورحل إلى تونس ومنها إلى المشرق فحج سنة (1096هـ/1684م)، ودخل مصر وأخذ عن علمائها كالقاضي الشهاب أحمد الخفاجي وغيره، عاد إلى مكة وتوفي بها. من مؤلفاته فهرسة سماها "كنز الرواة المجموع في دار المجاز وبواقيت المسموع"، ورسالة بعنوان "مضاعفة ثواب هذه الأمة". أنظر:

- نويهض، ص: 91.

⁽¹³⁶⁵⁾ بوزياني، مكناسة، ص: 169-170.

كما سار الشيخ المغربي محمد بن سليمان الروداني المولود بتارودانت سنة (1037هـ/1627م) إلى الجزائر وأخذ عن شيوخها⁽¹³⁶⁶⁾. وتتلذذ كذلك على يد العالم الجزائري سعيد بن إبراهيم قدورة⁽¹³⁶⁷⁾ بالحجاز⁽¹³⁶⁸⁾.

ونذكر أيضا أحمد بن زكور الفاسي، الأديب واللغوي البار، ولد ونشأ بفاس حوالي (1075هـ/1664م)⁽¹³⁶⁹⁾، وعلى الأرجح أنه توفي بها في 20 محرم سنة 1120هـ الموافق لـ 1708م⁽¹³⁷⁰⁾، صال وجال في أقطار العالم العربي، وزار الجزائر سنة 1683م، وأخذ عن مشايخها وعلمائها، مثل الشيخ سعيد بن محمد قدورة (ت 1099هـ/1687م)، والشيخ عمر المانجلاتي، ومحمد بن عبد المؤمن الشريف وغيرهم⁽¹³⁷¹⁾ وله في ذلك تأليف مشهور عن رحلته إلى الجزائر سماه: "نشر أزهير البستان فيمن أجازني بالجزائر وتطوان"، وهي تنقسم إلى قسمين، قسم عن أهل الجزائر والقسم الثاني عن أهل تطوان من مشايخ وعلماء⁽¹³⁷²⁾.

وأخذ العالم المغربي عبد الرحمان الجامعي عن الشيخ أحمد قاسم البوني، الحديث والسيرة النبوية، وكانت بينهما صلات وثيقة، ومدح الجامعي أترك الجزائر وعلى رأسهم الداوي محمد بكداش بالأشعار عند تحريرهم وهران من يد الإسبان⁽¹³⁷³⁾.

ولدينا أيضا ابن الطيب الشرقي، فقد سبق الحديث عن هذا العالم الرحالة المغربي في فصول سابقة، إلا أن رحلته إلى المشرق تخللها محطات هامة، لأن الطريق من فاس إلى الديار المقدسة برا كانت تفرض على ركب الحج عامة والرحالة خاصة المرور عبر الأراضي

⁽¹³⁶⁶⁾ عبد الله كنون، النبوغ المغربي في الأدب العربي، ج 1-3، ط2، المغرب، د.ت، ص: 257.

⁽¹³⁶⁷⁾ سعيد بن إبراهيم قدورة (1066هـ/1656م)، مفتي مدينه الجزائر وفقهها، أصله من تونس، جزائري المولد والنشأة، أخذ العلم عن سعيد المقرئ وعن محمد بن إسماعيل مفتي الجزائر، وعن يحيى الشاوي وغيره، من آثاره "شرح الصغرى" للسنوسي و"شرح السلم المرونق" في المنطق للأخضري، و"شرح على جوهرة التوحيد" للقاني في العقائد. أنظر: - نويهض، ص: 259.

⁽¹³⁶⁸⁾ بوزياني، مكناسة، ص ص: 169-170.

⁽¹³⁶⁹⁾ كنون، مشاهير رجال المغرب، ص: 1268.

⁽¹³⁷⁰⁾ مولاي بلحميسي، الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني، القسم الأول، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1979، ص: 19.

⁽¹³⁷¹⁾ كنون، مشاهير رجال المغرب، ص: 1268.

⁽¹³⁷²⁾ بلحميسي، ص: 19.

⁽¹³⁷³⁾ بوزياني، مكناسة، ص: 170.

الجزائرية لاعتبارات مختلفة، أمنية واقتصادية واجتماعية وعلمية وغيرها، وهنا لا يفوتنا أن نتحدث عن نزول ابن الطيب الشرقي في مدن جزائرية عديدة، ذكرها في رحلته. فكانت الأغواط في الجنوب الجزائري، من المنازل التي توقف فيها ركب الحاج المغاربة.⁽¹³⁷⁴⁾ يقول ابن الطيب: "... وارتحلنا فأصبحنا عند ارتفاع النهار على الأغواط، البلدة المحمودة الأنجاد الممدوحة. الأغواط قال فيها أرباب الرحلات إنها بلدة واسعة ذات أراضي واسعة، ومحارث كثيرة وفواكه متنوعة... وورد علينا هنالك جماعة من طلبة فيهم إخواننا في الله ومحبة شيخنا ووسيلتنا إلى ربنا والواسطة بيننا وبين نبينا، الإمام أبو العباس أحمد بن الناصر..."⁽¹³⁷⁵⁾ وسنحت الفرصة لابن الطيب أن يلتقي الفقيه أبي زيد عبد الرحمان الفيجي وولده إسماعيل، وفيهم قال ابن الطيب: "...وأكرمونا بأنواع التمر والخضر والفواكه جزاهم الله خيرا وتناولنا معهم مسائل متنوعة في الفنون العلمية، وورد علينا سؤال يتضمن الاستتار في البول واستشكال عدة من الكبائر في البخاري (كذا)..." ثم ذكر ابن الطيب جوابه عن السؤال بتمامه⁽¹³⁷⁶⁾.

وأما من لقيهم ابن الطيب في بسكرة من أهل العلم، فيقول عنهم: "وارتحلنا فوصلنا بسكرة ضحى يوم الخميس الرابع من شعبان... فأقمنا بها الخميس والجمعة... وتوجهنا يوم الجمعة إلى مسجدنا الجامع المزهو على ما عداه من الجوامع... وبعدما صلينا اجتمعنا في ذلك المسجد بجماعة من أصحاب شيخنا الأمام الكبير العارف بالله تعالى أبي العباس أحمد بن محمد بن الناصر الدرعي رضي الله عنه وعنا به، فيهم الأخ المأذون له من الشيخ في تلقين الناس بتلك النواحي كلها، البركة الخير المسن المرضي الأحوال أبو محمد عبد الحفيظ بن الطيب من أولاد سيدي ناجي نفعنا الله به، وأخوه الفقيه المشارك أبو عبد الله محمد بن الطيب وأولادهما وغير هؤلاء من الإخوان..."⁽¹³⁷⁷⁾.

⁽¹³⁷⁴⁾ الودغيري، ص: 90.

⁽¹³⁷⁵⁾ ابن الطيب الشرقي، ص: 31-32.

⁽¹³⁷⁶⁾ الودغيري، ص: 90.

⁽¹³⁷⁷⁾ ابن الطيب الشرقي، ص: 35.

هذا وتبقى رحلة ابن الطيب ثرية من حيث المحطات الهامة التي توقف عندها، وكذا من لقيهم من علماء وطلبة العلم بالصحراء الجزائرية، شأنه في ذلك شأن سابقه ومن اقتفى أثره من الرحالة المغاربة كابن عبد السلام الناصري صاحب الرحلة الناصرية الكبرى.

- الزياني: زار الجزائر فارا من المغرب، بعد أن كان واليا على وجدة في عهد المولى سليمان، ولما حدثت بها الفتن وثار عليه أهلها، خاف على نفسه من بطش سلطانه فدخل وهران، ونزل عند الباي محمد الكبير، ووجد عنده الترحاب وحسن الضيافة،⁽¹³⁷⁸⁾ ثم ما لبث حتى غادرها قاصدا تلمسان، أين قضى مدة طويلة بين أهلها وعلمائها. ولأنه حتى إلى ذكريات اسطنبول، فقد قرر السفر إليها، وهذه المرة كان السفر برا عبر قسنطينة فتونس، ولما صال وجال في المشرق، رجع قافلا إلى تلمسان، أملا في البقاء والإقامة بها، إلا أن الظروف لم تسعف إلى ذلك، لأن ضغوطا وحاجات عديدة من المغرب جعلته يغادر أرض الجزائر إلى بلاده⁽¹³⁷⁹⁾.

2- إسهامات الجزائريين الاجتماعية في المغرب:

يعد التفاعل الاجتماعي بين الجزائريين وأشقاؤهم المغاربة وجه آخر من أوجه العلاقات المتشعبة بين الجزائر والمغرب، ولقد نتج هذا التفاعل إما عن طريق العلاقات السياسية أو الاقتصادية أو الثقافية، وأسفر ذلك عن استقرار عدد من الأسر أو الأفراد في أقاليم البلدين لسبب أو لآخر، في فترات مختلفة من التاريخ الحديث، إلا أن من استقر من الجزائريين في المغرب أكثر نوعا ما مقارنة بمن استقر من المغاربة في الجزائر، حسب ما تناولته بعض الكتابات التاريخية في هذا الموضوع على قلتها، وهذا ما يجعلنا نتساءل عن عدد الوافدين إلى المغرب من الجزائريين، وعدد الوافدين من المغاربة إلى الجزائر؟ وعن الدوافع الحقيقية وراء الهجرة الجماعية للجزائريين إلى المغرب، وكذلك بالنسبة للمغاربة؟ ثم ما هي مواقف حكومتي البلدين من الهجرة الجماعية لرعاياها نحو الجزائر والمغرب على حد سواء؟ وما هي

⁽¹³⁷⁸⁾ حماش، ص: 224.

- لتفاصيل أكثر عن هذا الموضوع أنظر الملحق رقم: 4، ص ص: 378-382.

⁽¹³⁷⁹⁾ بلحميسي، ص: 21.

مكانة هؤلاء المهاجرين في المجتمعات الجديدة التي استقروا بها، وكذا أهم المدن التي استقروا بها، وإسهاماتهم المختلفة فيها؟

1.2- هجرة الجزائريين إلى المغرب في القرنين 18/19م (الأسباب والدوافع):

تذكر الكتابات المغربية في هذا الموضوع أن مدينة فاس كانت الوجهة الأولى المفضلة للكثير من الجزائريين الوافدين إلى المغرب، ثم تليها مدينة تطوان، فوجدة، القصر الكبير... ذلك أن عدد الوافدين إلى فاس إذا تمت مقارنته بالمدن المغربية الأخرى كبير، نظرا لشهرتها الكبيرة في العالم الإسلامي، وضمها للقرويين وعددا كبيرا من العلماء والفقهاء، وكذا للنشاط التجاري والصناعي الذي تزخر به⁽¹³⁸⁰⁾.

ويعتقد الباحث حسن قرنفل أن هجرة الجزائريين إلى فاس في العهد العلوي كانت في مناسبتين لا أكثر، الأولى في عهد السلطان عبد الله بن إسماعيل، أما الثانية فبعد الاحتلال الفرنسي للجزائر⁽¹³⁸¹⁾. والحقيقة عكس ذلك تماما، لأن المتصفح للعلاقات الجزائرية المغربية يجد أن هجرة الجزائريين إلى المغرب وفاس خصوصا، لاسيما الهجرة الجماعية، كانت في مناسبات كثيرة ولأسباب مختلفة.

وعليه فإن أول هجرة حقيقية للجزائريين إلى فاس كانت سنة (1159هـ / 1746م) في عهد السلطان العلوي عبد الله بن المولى إسماعيل⁽¹³⁸²⁾، بالرغم من حالة الفوضى التي كان يعيشها المغرب لا سيما وأن الفترة، مرحلة حرجة من ثورة العبيد التي كان لها تداعيات خطيرة على الحياة المعاشية لسكان المغرب، فهل كانت فاس أحسن حالا وقتها مقارنة بباقي مدن المغرب؟

جاءت هذه الهجرة بعد انتفاضة شعبية قام بها سكان تلمسان من العرب ضد الحاكم التركي يوسف باي، ونظرا لعددهم الضئيل فإن اندماجهم في المجتمع الفاسي كان سريعا، ولعل هذا الانصهار السريع يعود بالدرجة الأولى للبيئة الاجتماعية الفاسية التي تشبه إلى حد

⁽¹³⁸⁰⁾ حسن قرنفل، أهل فاس المال والسياسة، ص: 40.

⁽¹³⁸¹⁾ نفس المرجع، ص: 38.

⁽¹³⁸²⁾ نفس المرجع، ص: 38.

بعيد البيئة الاجتماعية التلمسانية، خاصة وأن كلتا المدينتين تزخر بتراث حضاري أندلسي متشابه (1383).

وهناك هجرات أخرى إلى فاس وقعت في عهد المولى سليمان حين فرّ من بطش الأتراك، الكثير من العائلات الجزائرية خاصة من أهل تلمسان من العرب والمناطق الجبلية المجاورة ممن ينتمي أصحابها إلى الطريقة الدرقاوية (1384).

كما تزامنت هذه الهجرات مع المجاعة التي ضربت البلاد حتى لم يجد وقتها باي وهران في تلمسان من يتكلم معه أو يأمره، فأرسل إلى المولى سليمان طالبا منه أن يبعث بهم إلى أوطانهم (1385)، فرفض السكان المهاجرون وتكلموا مع السلطان عن الظلم الذي أصابهم من الأتراك، وكيف يستأثرون بالحبوب دونهم (1386). وكانت إجاباتهم للسلطان على ما نقله الناصري: "تذهب إلى بلاد النصارى ولا نجاور الترك، فنجمع علينا الجوع والقتل"، وأمام هذا الوضع لم يجد السلطان من بد إلا أن أبقاهم في بلاده وأجرى عليهم النفقات والصدقات، وتدخل لإصلاح علاقتهم مع الترك، حتى أخصبت بلادهم ورخصت الأسعار، فرجع بعضهم إلى بلادهم (1387).

وأما موجة الهجرة الأخرى للجزائريين فكانت مع احتلال فرنسا للجزائر سنة 1830م، وهي هجرة مهمة من حيث العدد الكبير للوافدين إلى المغرب من الجزائر، وكذا من حيث الفترة الزمنية، إذ بادر سكان تلمسان من العرب والقبائل المجاورة لها إلى مبايعة المولى عبد الرحمن بن هشام ليدخلوا تحت ولايته وحكمه (1388).

وفي هذا السياق نذكر أهم الأسر الجزائرية الوافدة إلى فاس، والتي كان لها وزن وثقل تجاري واجتماعي معتبر، كأسرة بنونة وهي أسرة امتهنت التجارة، وكان لها العديد من المشاريع في كل من فاس وتطوان، وأسرة ابن عبد الله، وأسرة المشرفي وزمامة والسقاط

(1383) نفس المرجع، ص: 38.

(1384) الخداري، المناهل، ص: 266.

(1385) خير فارس، ص: 126.

(1386) ياسين، ص: 17.

(1387) الناصري، الاستقصاء، مج3، ص: 218.

(1388) إدريس بوهليلة، جزائريون في تطوان خلال القرن 13هـ/19م، ط1، مطبعة الهداية، تطوان، المغرب، 2012،

ص: 56.

والمقري، فأما الأخيرة فتقلد أبنائها مناصب سياسية مهمة في المغرب مثل الحاج المقري الذي شغل منصب الوزير الأعظم⁽¹³⁸⁹⁾. وأما أسرة المشرفي فنذكر منهم من المتأخرين محمد المشرفي صاحب "كتاب الحل البهية"، الذي ينتمي إلى أسرة جزائرية من معسكر والمولود حوالي (1255هـ/1839م) ومتوفى بفاس حوالي (1334هـ/1916م)، فقد هاجرت أسرته إلى فاس حوالي (1260هـ/1844م)، وهو في سن الخامسة⁽¹³⁹⁰⁾.

وهناك العديد من الأسر كأسرة بوخروبة وابن عثمان وابن شكشكو وبوطالب وبلقاضي وبلخدير وابن عودة والزعاري والبارودي وابن شعبان وابن يخلف وابن مغنية وابن يشو واللبار وابن حريط، والبوزيدي والداودي وابن عتو وابن صالح وابن يحي والمهندس وابن ثابت وابن كمزو⁽¹³⁹¹⁾.

أما من ينتمي إلى الطريقة الدرقاوية وهاجر إلى فاس: الشيخ شارف بن عبد الله تكوك، رحل مع عائلته ولم يرجع إلى الجزائر إلا مع الاحتلال الفرنسي لمدينة وهران سنة (1248هـ/1832م)، والقاضي محمد بن سعيد بن الحاج الحسيني التلمساني، الذي فر بعائلته إلى فاس، الشيخ محمد بن الخضر المهاجي الذي وافته المنية بفاس سنة (1274هـ/1875م)، بعد أن استقر بها مع عائلته، الشيخ محمد بن محمد ملوك التلمساني، استقر بفاس وكان مدرسا بجامع القرويين، إلى أن وافته المنية سنة (1278هـ/1861م)، وغير هؤلاء كثير. وأكثر من حل بفاس، كانوا من قبيلة بني عامر التي تقيم بين تلمسان ووهران⁽¹³⁹²⁾.

(1389) حسن قرنفل، أهل فاس المال والسياسة، ص: 38.

(1390) بوهليلة، ص: 56.

(1391) حسن قرنفل، أهل فاس المال والسياسة، ص: 41.

(1392) الخداري، المناهل، ص: 266.

2.2- نماذج لعائلات جزائرية في المغرب:

انقسم المهاجرون الجزائريون في فاس إلى صنفين:

مجموعة من الفئات الاجتماعية المتواضعة، كانت تمتن المهن الوضيعة التي كان يعزف عنها أهل فاس، وكان أغلبهم من سكان تلمسان. والمجموعة الثانية من الأسر الشريفة والثرية وقضاة وعدول من سكان وهران ومستغانم ومعسكر وهاشم وبني عامر. وقد تولد عن هذا التفاوت صراعات حقيقية بين المهاجرين الجزائريين لتقلد منصب النقيب الذي كانت له علاقة مباشرة مع المخزن، يرمى من خلال هذه الوظيفة مصالح المهاجرين وشؤونهم، ناهيك عن نظرة الغرباء التي كان ينظر بها سكان فاس لهؤلاء المهاجرين، وعلى أنهم برانية، فقد نافسهم في الكثير من النشاطات الصناعية والحرفية والتجارية⁽¹³⁹³⁾. لذلك كانوا مهددين بالطرد من فاس، إذا صدر عنهم أي سلوك يتنافى وتقاليد المدينة، وإلى غاية الخمسينيات من القرن العشرين كان باشا مدينة فاس يملك صلاحية طرد أي شخص لا ينتمي إلى مدينة فاس (براني)، إذا صدر منه ما يسيء للمدينة وأهلها⁽¹³⁹⁴⁾.

تطوان هي الأخرى استقبلت عددا كبيرا من الجزائريين خاصة على إثر احتلال فرنسا للجزائر سنة (1246هـ/1830م)، وهذه الهجرة سيكون لها بالغ الأثر على مختلف المجالات الثقافية (مصطلحات لغوية عثمانية جديدة على العامية التطوانية) والاجتماعية (اللباس، الطبخ...)، الاقتصادية (التجارة، الحرف...)، هذا فضلا عن الروابط التاريخية المتنوعة التي تجمع سكان الجزائر والمغرب. وكان أكثر المهاجرين الوافدين لهذه المدن قادمين من مدن الغرب الجزائري (مستغانم، وهران، تلمسان...) ومن مدينة الجزائر والبليدة. وانقسم هؤلاء المهاجرون خاصة في تطوان بين كراغلة وعددهم 44 وأتراك 05 وعرب 41 وسودانيين 02، ومن أصول عرقية مجهولة 11... أما عن مهنتهم فتتوزعت بين الحرفيين 42، والطبجية 20 والأعيان 17 والبحرية 05 ورؤساء البحر 04 وتجار وعطارون 03 وإداريون وشواش 02⁽¹³⁹⁵⁾.

⁽¹³⁹³⁾ حسن قرنفل، أهل فاس المال والسياسة، ص: 40.

⁽¹³⁹⁴⁾ نفس المرجع، ص: 42.

⁽¹³⁹⁵⁾ بوهليلة، ص: 83-83.

ومن العائلات التي استقرت بمدينة تطوان: عائلة الغنمية التلمسانية الأصل، التي ينتسب إليها الأديب العالم أبو العباس أحمد بن عبد الكريم السليمانى المعروف باسم "الغنمية" المولود سنة (1292هـ/1875م).

- عائلة العنابي: القادمة من مدينة عنابة والمستقرة بمدينة تطوان منذ تاريخ (1214هـ/1799م)⁽¹³⁹⁶⁾.

- عائلة القسنطيني: القادمة من قسنطينة إلى تطوان ومن أشهر أعلامها الفقيه هاشم بن القسنطيني، كان عدلا بتطوان سنة (1185هـ/1745م).

- عائلة المتيجي: أصولها من متيجة، كانت بمدينة تطوان منذ سنة (1192هـ/1778م).

- عائلة المستغانمي: كانت بمدينة تطوان منذ سنة (1203هـ/1788م).

- عائلة الرايس: كانت بمدينة تطوان منذ تاريخ (1240هـ/1824م)، وقد اشتغل أحد أفرادها المسمى أحمد الحجام مهنة رايس البحر.

ولدينا كذلك عائلة: ابن جعفر، ابن دباغ، ابن سفاج، ابن زكور، ابن صيام، ابن طالب، ابن عبد البر، ابن فاضل، ابن يونس، أبو عمامة، أبو معزة، أبو البلهوان، الحرايقي، الحفاف. ومن هذه الأسر من انقرض كابن سفاج وابن دباغ، أبو البلهوان والحرايقي⁽¹³⁹⁷⁾.

أما عن الهجرة الجماعية للمغاربة نحو الجزائر فهي قليلة جدا، نظرا للدراسات القليلة في هذا الموضوع، ولعل أهم ظاهرة للهجرة شهدتها سكان المغرب نحو الجزائر وبالأخص منطقة الريف، كانت في منتصف القرن 19م، وهذا حسب ما نقله الرحالة الفرنسي "هنري دوفيراى" (Henri Duveyrier) في إحدى مقالاته، وهي أول وثيقة فرنسية تتحدث عن هذه الظاهرة، حسب الباحث ميمون أزيزا.⁽¹³⁹⁸⁾ إذ كان سكان الريف ينتقلون إلى الجزائر لكراء سواعدهم عند المعمرين أيام الحصاد وهذا نظرا للمستوى المعيشي المتفاوت وقتها بين

(1396) نفس المرجع، ص: 76.

(1397) نفس المرجع، ص: 77.

(1398) ميمون أزيزا، "هجرة أهل الريف إلى الجزائر بين قساوة الطبيعة وعنف الاستعمار"، العنف في المغرب، أشغال الأيام الحادية والعشرين للجمعية المغربية للبحث التاريخي، منشورات ملتقى الطرق، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 2015، ص: 19.

الجزائر والمغرب، ويعتقد بعض المؤرخين مثل "هنري باسيت" (Henri Basset) أن أصول قبيلة بطيوية في وهران المستقرة حالياً بأرزيو تعود إلى قبيلة بني سعيد الريفية التي يحتمل أن تكون استقرت في المنطقة منذ القرن 18م⁽¹³⁹⁹⁾.

وفي صورة أخرى من صور الهجرة من المغرب نحو الجزائر، فرار جماعات من العبيد السود، كانت السلطات الاستعمارية الفرنسية سنة (1262هـ/1846م)، قد حرصتهم على المخزن للتخلص من عبودية المسلمين على حد زعمها، واللجوء إلى حماها، بدعوى معاهدة إلغاء العبودية التي أبرمتها فرنسا وإنجلترا⁽¹⁴⁰⁰⁾، وقد قابل السلطان هذا الموضوع بالرفض في رسالة وجهها لعامله الطالب حمو الروداني بتاريخ 8 شعبان 1262هـ الموافق لـ 1846م، يخبره فيها: "بأن إلغاء أمر العبودية شيء محمود، إلا أن نظرة الفرنسيين للعبيد السود في المغرب أمر خاطئ، وهذا شأن يخص المخزن، الذي لا تعنيه هذه المعاهدة، فالأمر معمول به منذ القديم، بالاعتماد على أدلة العبودية المطابقة للقوانين الشرعية، لذا فهو يطلب من عامله إرجاع هؤلاء العبيد حتى لا يغتر بهم آخرون"⁽¹⁴⁰¹⁾.

أما عن موقف المخزن من المهاجرين الجزائريين نحو المغرب، فمنذ بيعة أهل تلمسان العرب وقبائل بعض المناطق المجاورة لها، للسلطان عبد الرحمان بن هشام، حاول المخزن أن يظهر تعاطفه مع هؤلاء المهاجرين، لأنهم أصبحوا في نظره من رعايا السلطان الواجب حمايتهم، وهذه رسالة من السلطان لعامله على تطوان محمد أشعاش بتاريخ 3 جمادي الأولى عام 1246هـ الموافق لـ 20 أكتوبر 1830م، يأمره فيها بالعمل على إدراج أهل الصنائع من المهاجرين الجزائريين الوافدين إلى المغرب في صفوف الجيش السلطاني:

"... خديمنا الأرضي القائد أشعاش، أعانكم الله وسلام عليكم ورحمة الله وبركاته. وبعد: فقد بلغنا أن أهل الجزائر الذين يردون منها، ردها الله دار إسلام، فيهم البحرية والطبجية

(1399) نفس المرجع، ص: 15.

(1400) في 28 يناير 1846م أبرمت فرنسا مع إنجلترا اتفاقا خاصا، نصّ على الحق لهذين الدولتين في تفتيش سفن بعضهما، وإذا وجدت سفينة تحمل العبيد، فإنها تساق إلى أحد موانئ الدولتين. جاء هذا الاتفاق استكمالاً لما اتفقت عليه الدول الأوروبية في مؤتمر فيينا سنة 1815م، من إقرار منع تجارة الرقيق، ثم استكمالاً كذلك لما نصّ عليه مؤتمر لندن في 20 ديسمبر 1831م: "أن تجارة الرقيق من أعمال القرصنة البحرية من شأنها أن تزيل عن السفينة حماية علمها". أنظر:

- عبد السلام الترماني، الرق ماضيه وحاضره، سلسلة عالم المعرفة، العدد 23، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1978، ص: 156.

(1401) حمت، ص ص: 79-80.

والعارفون بصناعة البنية (القنابل)، والكورة والمهارس (كذا). فبوصول كتابنا هذا إليك اخترهم وأضف كل فريق إلى أهل خطته، وأعلمنا بهم، فإنهم إن أهملوا بقوا عرضة للضياع، ولابد، وفقكم الله والسلام (كذا)" (1402).

3- موقع القوى الدينية والمرابطية من الخلاف المغربي الجزائري:

على غرار الكثير من قنوات الاتصال الثقافي التي كانت بين المغرب والجزائر، تعتبر الطرق الصوفية واحدة منها، فقد ساهمت هذه الطرق في نشر التعليم القرآني، وساهم بعضها في الحفاظ على مبادئ الإسلام من خلال نشر تعاليمه بين المريدين، والأهالي عن طريق فروعها المختلفة في أقاليم شتى من بلاد المغرب العربي، وحتى في المشرق، في ظل غياب دور السلطة المركزية، خاصة في البوادي والقرى، إلا أن بعض الطرق نظرا لوزنها، وكثرة مريديها وأتباعها، نسجت علاقات سياسية مع السلطة المركزية في محاولة من الطرفين لتبادل المصالح والمنفعة، وفي هذا الإطار تبرز الطريقة الدرقاوية والطريقة الشاذلية، اللتين دخلتا كطرف حقيقي في الصراع السياسي الذي كان قائما بين أترك الجزائر والمخزن في نهاية القرن 18 وبداية القرن 19م. فما حجم تأثير هذين الطريقتين في هذا الصراع؟ وهل مشاركتها في هذا الصراع كانت طوعية أم تحت تأثير الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية، لاسيما وأن المستفيد الأكبر من مشاركتها كان المخزن المغربي؟

1.3- الطريقة الدرقاوية:

مع نهاية القرن 18م قام الشيخ العربي الدرقاوي (1150هـ-1239/1737-1823) بتأسيس زاويته المعروفة باسمه الزاوية الدرقاوية، ومن خلالها أراد أن يبعث حياة جديدة في التصوف الشاذلي باعتبار الدرقاوي واحد ممن نهلوا من تعاليم الشاذلية في المغرب، (1403) فكانت الدرقاوية في شكل ثورة على قيم المجتمع، وظهر هذا التصور جليا في أحوال شيوخها ومريديها، التي بدت غير مألوفة في الواقع الديني والصوفي على حد سواء، إلى درجة تشبيه الدرقاوية بالثورة الفرنسية على قول محمد بن محمد الجنوبي (ت1214هـ/1799-1800م)

(1402) بن صغير، ص: 23.

(1403) المنصور، المغرب قبل الاستعمار، ص: 280.

أحد فقهاء تطوان: "...إن درقاوة قاموا في هذا القطر والنصارى الفرنسيس (كذا) قاموا في قطرهم..." (1404).

وبعد ظهورها بالمغرب انتشرت الدرقاوية في الجزائر، أين شكلت موطنا لنشر دعوتها، والبحث عن مريدين جدد وسط السكان المستأعين من الحكم العثماني، أين تخرج على يد الشيخ العربي الدرقاوي العديد من المريدين والأتباع في الجزائر. نذكر منهم: عبد القادر بن الشريف، المقدم المفضل لدى الشيخ الدرقاوي، وقائد الثورة الدرقاوية في الغرب الجزائري، وأبوزيان محمد المعسكري (ت1279هـ/1863-1864م)، من أهم أصحاب الشيخ العربي، رافقه مدة عشرين سنة، ألف كتابا في الطبقات الدرقاوية، وابن الأحرش المغربي الأصل وقائد ثورة درقاوة شرق الجزائر، ومحمد بن معروف بوشنافة (ت1218هـ/1803-1804م)، النقي الشيخ العربي بفاس فأرسله لنشر الطريقة بمعسكر، وأبو الطويل العربي بن عيطة الونشريسي، تكفل بنشر الطريقة الدرقاوية بجبل الونشريس، وكذلك محمد بن بوعزة التلمساني من بني عامر قرب تلمسان... (1405).

وفي ظرف وجيز تمكنت الدرقاوية من كسب الآلاف من الأتباع بالمغرب والجزائر معا (1406). ولعل أهم دور لعبته الدرقاوية في المجتمع الجزائري وأثر بشكل كبير على العلاقة بين المغرب والجزائر هو الدور السياسي، حين قامت بمعاداة الحكام الأتراك والثورة عليهم، خاصة سكان البوادي، الفقراء والمحرومين والمرابطين والناقمين على الأتراك. ومع الوقت وعلى مدار عقدين من الزمن منذ بداية القرن التاسع عشر، شكلت الدرقاوية معارضة حقيقية للحكام الأتراك، فكانت البداية بالشرق الجزائري، لتمتد إلى الغرب الجزائري (1407). حيث نشب صراع بين باي وهران وشيخ الطريقة الدرقاوية بالجزائر عبد القادر بن الشريف وأنصاره، أدى إلى مقتل عدد من أنصارها (1408). وفي المقابل ألحقت الدرقاوية هزائم متعددة بالأتراك وتمكنت من توسيع نفوذها من المدينة شرقا إلى تلمسان غربا، وفرض أنصارها حصارا شديدا على وهران لسنوات عديدة. ولما عجز الأتراك عن مواجهة الدرقاوية كتب داي الجزائر إلى

(1404) الخداري، المناهل، ص: 258.

(1405) نفس المرجع، ص: 260.

(1406) المنصور، المغرب قبل الاستعمار، ص: 282.

(1407) الخداري، المناهل، ص: 261.

(1408) خير فارس، ص: 126.

المولى سليمان لحمل شيخ الطريقة في المغرب للضغط على تلميذه ابن الشريف الدرقاوي حتى يضع حدا لحركته التمردية ويرفع حصاره عن وهران⁽¹⁴⁰⁹⁾ ومخاطبا إياه: "إن هذه الحية ذنبها عندنا ورأسها عندك..."⁽¹⁴¹⁰⁾.

وبالرغم من استجابة المولى سليمان لأتراك الجزائر وإرساله لشيخ الطريقة الدرقاوية لوضع حد لابن الشريف، إلا أن الشيخ الدرقاوي قام بعكس ذلك تماما، فقد زاد من تحريض المتمردين، ودفعهم لبيعة المولى سليمان سلطان المغرب⁽¹⁴¹¹⁾. فلم يجد الأتراك لهذا العمل تفسيراً إلا بقولهم أنها مؤامرة دبرها سلطان المغرب لبسط نفوذه على الأقاليم الشرقية، إذ جاء في رسالة وجهها المولى سليمان للشيخ العربي الدرقاوي بتاريخ شعبان 1220 هـ الموافق لـ 22 نوفمبر 1805، يذكر فيها: "أنه يرغب في زيارة منطقة تلمسان في الربيع الموالي للوقوف على مجريات الأحداث وإكمال الفتح..."⁽¹⁴¹²⁾.

وبالفعل فقد كانت أحداث الدرقاوة، دافعا لتبرير ضرورة تعزيز نفوذ المخزن على الحدود الشرقية، فاستغل السلطان الوضع لصالحه وتمكن من تأمين الحدود الشرقية لمملكته انطلاقاً من وجدة منذ سنة (1213 هـ/1798 م)⁽¹⁴¹³⁾، وما بين (1220-1223 هـ/1805-1808 م) تمكن من السيطرة على فكيك وتوات وكورارة⁽¹⁴¹⁴⁾.

لقد تخلل هذه الأحداث بين سنة (1220-1229 هـ/1805-1813 م) بيعة الدرقاوية بالغرب الجزائري وأهل تلمسان ونواحيها للسلطان سليمان على مرتين. وكان من ضمن المبايعين الباي بوكابوس⁽¹⁴¹⁵⁾ باي الغرب الجزائري، حين أعلن ولاءه لسلطان المغرب بعد

(1409) ياسين، ص: 16.

(1410) الخداري، المناهل، ص: 263.

(1411) ياسين، ص: 16.

(1412) الخداري، المناهل، ص: 263.

(1413) المنصور، المغرب قبل الاستعمار، ص: 185.

(1414) الخداري، المناهل، ص: 265.

(1415) حمل عدة ألقاب منها: الرقيق لأنه كان نحيل الجسم، والمسلوخ لأن رأسه سلخ وملئ بالقطن بعد أن ظفر به داي الجزائر على إثر تمرده وإعلان ولاءه للمولى سليمان، ولقب كذلك بالمشتمل لأنه كان يتشبه بالعرب في الاشتغال بالكساء، ولا يلبس لباس الأتراك في غالب الأحوال كغيره من البايات، كما لقب ببوكابوس لأنه كان يحمل الكابوس "البشطول" ولا يفارقه لا في حله ولا في ترحاله. وأما اسمه الحقيقي فمحمد بن عثمان الصغير، للتفريق بينه وبين أخيه الباي محمد بن عثمان الكبير فاتح وهران. أنظر:

- المزاري، ص ص، 327-333.

تأثره بتعاليم الدرقاوية، وعندها هلك السلطان فرحا، فراح يبلغ رعيته في المغرب بذلك، فقد جاء في رسالة بتاريخ 20 جمادي الثانية 1228هـ الموافق لـ 21 يونيو 1813م بعث بها إلى أهل الرباط وسلا يخبرهم "بأن أهل تلمسان ومستغانم والبليدة ووهران وفدوا عليه بالبيعة وقتلوا الترك". غير أن السلطان سليمان لم يلبث مليا حتى غير موقفه من البيعة ورفضها تماما. فلعله أدرك أنه وقع في خطأ كبير قد يجره لحرب ضروس مع جيرانه الأتراك، لذلك كان متخوفا من ردود أفعالهم من جهة،⁽¹⁴¹⁶⁾ وكذا تخوفه من زيادة نفوذ شوكة الدرقاويين شرق المغرب من جهة ثانية، وبالتالي قيامهم بإمارة مستقلة قد تكون بداية لقيام ثورات أخرى في المغرب تقوم بها طرق أخرى، تأسيسا بالدرقاوية⁽¹⁴¹⁷⁾. هذا بالإضافة إلى أسباب أخرى لا يتسع المجال لذكرها، ولكن مع هذا كله يبقى المستفيد الأول من هذه الأحداث هو المغرب.

2.3- الطريقة التجانية:

تنتسب الطريقة التجانية لمؤسسها أحمد التجاني بن محمد بن مختار بن أحمد الشريف، المغربي الأصل، من شيوخ التصوف، وفقهاء المالكية، ولد بعين ماضي بالأغواط بالجنوب الجزائري، أين نشأ وتعلم، ومن ثم رحل إلى فاس سنة (1171هـ / 1757م) حيث درس بالقرويين، وبها أسس طريقته⁽¹⁴¹⁸⁾. وبين فاس وأبي سمغون وتلمسان ظل الشيخ التجاني يتردد قبل استقراره النهائي بفاس عام (1213هـ / 1798م) على إثر مضايقة محمد بن عثمان باي وهران له، نظرا لكثرة أتباعه ومريديه، ولمكانته بين الناس كذلك⁽¹⁴¹⁹⁾.

فقد كانت تعاليم التجانية تدعو إلى الحياة الرغدة والتوسعة في العيش وهو ما شجع العديد من التجار والأثرياء الانضمام إليها، ما أضفى على الطريقة طابع النخبوية، على الأقل داخل المجتمعات الحضرية، على عكس الدرقاوية التي كانت تدعو إلى الزهد والتقشف والمسكنة. ومما زاد من مكانتها داخل المجتمع المغربي رعاية المخزن لها ولاسيما المولى سليمان الذي خص الشيخ التجاني بمعاملة خاصة فأسكنه فاس وكان يحضر مجالسه، وقد وجد السلطان في الطريقة التجانية السند لمواجهة أصحاب البدع والمواسم وزيارة الأولياء

(1416) الخداري، المناهل، ص: 264.

(1417) المنصور، المغرب قبل الاستعمار، ص: 185.

(1418) هلال، مجلة الدراسات التاريخية، ص ص: 37-38.

(1419) عبد العزيز بن عبد الله، "لماذا رعاية المخزن للزاوية التجانية"، مجلة دعوة الحق، ع 4 س 27، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، 1985، ص ص: 50-51.

والصالحين، كما وجدت التجانية الرعاية من طرف المخزن لاسيما بعد اضطهاد أتراك الجزائر لشيخ التجاني عام (1213هـ/1798م)، الذي حل على إثر ذلك بفاس⁽¹⁴²⁰⁾. وقد سبق للمولى سليمان أن استنفر عام (1212هـ/1797م) جميع رعاياه الأوفياء، وهي الفترة التي تمكن فيها المغرب من بسط نفوذه على وجدة وتوات وكورارة وفكيك. ومن هؤلاء الأوفياء -حسب المؤرخ المغربي عبد العزيز بنعبد الله- الشيخ التيجاني، الذي حز في نفسه الصراع بين الأتراك والمخزن، فكان يرى فيه مساسا بسيادة المغرب ووحدته، وقد أثمر التعاون بين الشيخ التيجاني والمولى سليمان عن استنفار الشيخ لأتباعه في الجزائر لمحاربة الأتراك، مثلما فعل النعيمي بن زيدان زعيم منطقة تيارت في الجزائر حين قام بالتصدي للأتراك في المنطقة، وكان الشيخ التيجاني يتدخل في الصحراء لرسم الحدود المتنازع عليها بين القبائل كما فعل بين الشلالة وأبي سمغون، وهو ما ساعد المولى سليمان على التوسع جنوب شرق المغرب⁽¹⁴²¹⁾.

وبعد وفاة الشيخ التجاني سنة (1230هـ/1814م) تزعم الطريقة التجانية وكذا الثورة على الأتراك في عهد المولى عبد الرحمن بن هشام، نجله محمد الكبير التيجاني انطلاقا من عين ماضي بالأغواط مقر الزاوية التيجانية، فقد زحف مع أنصاره ومن انضم إليه من القبائل إلى معسكر في محاولة للاستيلاء عليها سنة (1240هـ/1824م)، إلا أنه هزم وقتل مع عدد كبير من الأنصار⁽¹⁴²²⁾.

(1420) المنصور، المغرب قبل الاستعمار، ص ص: 289-290.

(1421) بنعبد الله، مجلة دعوة الحق، ع 4 س 27، ص: 52.

(1422) ياسين، ص: 17.

الخاتمة

يعود الفضل للعثمانيين في بقاء العالم الإسلامي موحدًا طيلة الفترة الحديثة ولاسيما أقاليم شمال إفريقيا، كما يعود الفضل لهم كذلك في أن حافظت هذه الأقاليم على إسلامها وعروبيتها، ولولا ذلك لصارَت إلى ما صارَت إليه الأندلس حين ضاعت من أيدي المسلمين بعد أن عمروها طويلاً، ثم إن الصليبيين بعد اغتصابهم للأندلس لم يتوانوا ولو للحظة في التوسع نحو شمال إفريقيا عامة وبلاد المغرب العربي خاصة، باعتبارها القاعدة التي انطلق منها الإسلام إلى أوروبا الغربية، وهي التي كانت تمدّه بالرجال ووسائل الصمود غداة احتلال الأندلس، ثم احتلال سواحل بلاد المغرب من تونس إلى الجزائر والمغرب الأقصى ومكوث هؤلاء الصليبيين وعلى رأسهم إسبانيا لسنوات طويلة في وهران وسبتة ومليلة لخير دليل على الرغبة الصليبية في التوسع على حساب الإسلام في بلاد المغرب العربي.

غير أن هذا لا ننفي رغبة العثمانيين في التوسع في حوض المتوسط والسيطرة عليه باعتباره مركزاً للنشاط التجاري البحري العالمي في الفترة الحديثة، ناهيك عن ضمه لمنافذ بحرية مهمة كجبل طارق، مما كان سيسهل عليهم التنقل بكل حرية عبر هذا المضيق بين الحوض الغربي للمتوسط والمحيط الأطلسي.

أما عن علاقات الدولة العثمانية مع الأقاليم الإسلامية، فمنذ تقلد العثمانيون لقب الخلافة الإسلامية، حالوا ضم كل الأقاليم الإسلامية تحت مظلة الخلافة بطريقة مباشرة أي من خلال تعيين حكام أترك على هذه الأقاليم مثلما حدث مع الجزائر وتونس وليبيا، أو بطريقة غير مباشرة من خلال ضمان ولاء حكام أقاليم أخرى نظراً لنسبهم الشريف، فقد كان العثمانيون يقدرّون أصحاب النسب الشريف يحترمهم ويكرمهم، وهي العلاقة التي كانت قائمة بين العثمانيين وأشراف مكة والمدينة الذين حافظوا على حكمهم في هذه الأقاليم أبا عن جد، في مقابل تقديم فروض الطاعة والولاء للخليفة العثماني، والأمر نفسه ينطبق على حكام المغرب السعديين بعد معركة وادي المخازن.

غير أن هذا الولاء لم يدم طويلاً وكان ظرفياً ومرحلياً، فقد اختلت العلاقات بين الدولة العثمانية والمغرب، على إثر ضعف الدولة العثمانية وتزعزع قوتها وبداية تفكك وحدتها، كما أن السعديين فقدوا الكثير من قوتهم وبريقهم بعد وفاة أحمد المنصور، فقد دخل أبنائهم في صراع على حكم المغرب، ونافسهم عليه كذلك الأشراف العلويين الحكام الجدد للمغرب بعد السعديين.

فمنذ تولي العلويين حكم المغرب، أبدوا العداء الشديد للدولة العثمانية وإيالتها الجزائر، بل إنهم سعوا جاهدين للتوسع على حساب أقاليمها شرقا وجنوبا، في محاولة لإقامة مملكة كبيرة تمتد على كامل بلاد المغرب العربي، وحجتهم في ذلك أصلهم العربي ونسبهم الشريف الذي يخول لهم حق الخلافة الإسلامية بدلا من حكام الدولة العثمانية الأتراك، الأعاجم. ويتجلى ذلك في كثرة الحملات البرية التوسعية التي قاموا بها داخل التراب الجزائري طيلة القرن 17م و18م، والنصف الأول من القرن 19م، خاصة في عهد المولى إسماعيل الذي يعتبر من أقوى سلاطين المغرب العلويين.

أما خلفه محمد بن عبد الله فقد أبدى في تعامله مع الدولة العثمانية والباب العالي نوعا من الليونة والتقارب في النصف الثاني من القرن 12هـ/18م، فقد تطورت العلاقة بين المغرب والدولة العثمانية في عهده إلى درجة يعتقد فيها الباحث أن المغرب صار جزءا من الدولة العثمانية بل إيالة تابعة لها، فلم يخف هذا الحاكم تعاطفه مع الدولة العثمانية في حروبها مع النمسا وروسيا، ولم يدخر جهدا في تحرير أسراها من الرق من الدول الأوروبية. فقد بذل السلطان محمد بن عبد الله المال والرجال، وأرسل السفارات في سبيل ذلك، وفي سبيل البقاء في أعين الباب العالي الحاكم الوفي، الصادق في مشاعره، قبل علاقاته السياسية والدبلوماسية، لم يتأخر في مبايعة الخليفة العثماني، والدعاء له في سبيل الأخوة الإسلامية. إلا أن هذا كله لم يشفع له عند الأتراك الذين كانوا يراقبون تحركاته وسياسته الدولية بحذر. فقد تقلد في وقت وجيز مكانة مرموقة ومحترمة عند الدول، وكان يسعى من وراء ذلك للبروز كزعيم إسلامي ينافس الخليفة العثماني في بلاد المغرب العربي والعالم الإسلامي عامة، نظرا للعلاقات القوية التي نسجها مع حكام تونس وطرابلس الغرب وأشرف مكة والمدينة الذين جمعهم به روابط الدم. هذا بالإضافة إلى الاتصالات غير الرسمية التي كانت تجمعهم ببعض سكان الأقاليم الغربية للجزائر المجاورة للمغرب، في محاولة منه للتأثر من حكام الجزائر، عدوه اللدود وكذا الرغبة في التوسع شرق المغرب.

ولا يخفى كذلك العلاقة المتينة التي كانت قائمة بين حكام المغرب العلويين والعديد من القبائل العربية المغربية التي لها وزنها في المغرب مثل الودايا وحلفائهم، الشديدة الولاء لأشراف العلويين، فمنذ البداية سعت هذه القبائل للالتفاف حول العلويين، فعقدت معهم تحالفات سياسية، منها التصدي للتواجد التركي في بلاد المغرب.

نسج المغرب في عهد السلطان محمد بن عبد الله وعهد خلفائه، المولى سليمان والمولى عبد الرحمان بن هشام، علاقات متينة مع مختلف الأقاليم العثمانية شرقا وغربا، على الصعيد الرسمي والشعبي، غير أن علاقات سلاطين المغرب مع الباب العالي بقي يشوبها الشك والحذر الدائمين، أما مع أترك الجزائر فكان يطبعها العداء والتوتر، خاصة وأن حكام المغرب لم يخفوا علاقاتهم القوية مع أعداء الدولة العثمانية، وإيالة الجزائر خاصة، فالوهابية مثلا رفضتها كل الأقاليم العثمانية وقبلها المغرب، فقد تبادل السفراء مع آل سعود أصحاب هذه الدعوة، وتبنى أفكارها ودافع عنها.

ولم يتأخر حكام المغرب العلويين في عقد التحالفات وإبرام الاتفاقيات والمعاهدات في سبيل كسر شوكة الجزائر، ورأينا مدى تأثير الاتفاقية الفرنسية المغربية لسنة 1767م على مستقبل إيالة الجزائر، وعلاقة المغرب بها على إثر الاحتلال الفرنسي للجزائر.

وهنا لابد من الإشارة كذلك للضغط الذي كانت تمارسه بعض الدول الأوروبية القوية على المغرب في سبيل الحصول على الامتيازات، أوفي سبيل ثنيه عن تقديم يد العون للدولة العثمانية وقت الحاجة، مما دفع المغرب للتطبيق سياسة العزلة الدولية في عهد المولى سليمان، تجنباً لأي تدخل أجنبي، لكن بالمقابل هذه السياسة أضحت عائقاً أمام المغرب لتطوير علاقاته مع الدولة العثمانية وإيالاتها.

ولعل ما يلاحظ كذلك أن العلاقات على المستوى الشعبي، الاقتصادية والاجتماعية والثقافية بين سكان المغرب سواء العلماء والتجار والحجاج وغيرهم وسكان أقاليم الإيالات العثمانية، لم تكن تؤمن بالخلافات السياسية التي كانت تحدث بين الحين والآخر في جو العلاقات المغربية العثمانية، بل ما كان يجمع هذه الشعوب أكثر مما كان يفرقها. والملاحظ كذلك أن المتنقلين من المغرب نحو الأقطار الإسلامية وخاصة العلماء أكثر من غيرهم المتنقلين إلى المغرب من هذه الأقطار، فمصر مثلاً استقطبت جالية كبيرة من المغاربة، نظراً لوقوعها في طريق الحج، وكذلك لمكانة الأزهر الكبيرة عند المغاربة، وقد شارك المغاربة المقيمين في مصر والعابرين لأراضيها، إخوانهم المصريين في صد الحملة الفرنسية سنة 1798م، ووقفوا في وجه القوات الفرنسية، وبذلوا في ذلك أنفسهم وأموالهم، ومن لم يجد منهم سبيلاً إلى ذلك عبر عن حزنه بلسانه وقلمه، وهو حال بعض العلماء والشعراء في

المغرب. وهذا إن دل فإنما يدل على فعالية المغاربة في المجتمعات الإسلامية سواء كأفراد أو كجماعات.

وتجدر الإشارة إلى الدور الذي لعبته بعض الطرق الصوفية التي لديها قاعدة شعبية في المغرب في الربط والتواصل بين أقاليم المغرب العربي على المستوى الشعبي عندما كان شيوخها يقطعون الفياقي والصحاري من المغرب إلى الحجاز لأداء فريضة الحج. وهنا يبرز الدور الذي لعبته الزاوية الناصرية وشيوخها، ومثلها الزاوية الوزانية خاصة وأن دور هذه الزوايا كان تربويا، تهييبيا وتعليميا في وقت واحد، مما أثر في الكثير من سكان الصحراء المغاربية الذين كانوا يقومون بنهب وسلب قوافل الحج والقوافل التجارية حين عبورها بأراضيهم، وأضحوا بعد أن أثرت فيهم الزاوية الناصرية وزاوية الوزانية بتعاليمها، خدما وحراسا لهذه القوافل، يبذلون المال والعون والعطايا لخدمتها وخدمة الحجاج، وقد أقاموا لأجل ذلك مراكز، حافظوا من خلالها على تعاليم هذه الزوايا، وتكوين مريديها.

كما يبرز كذلك الدور التثقيفي والتعليمي للعلماء الذين كانوا يرافقون القوافل، من خلال احتكاكهم بنظرائهم وطلاب العلم في المدن والقرى التي تمر بها القوافل، ولنا في ذلك على سبيل المثال رحلات العلماء المغاربة مثل رحلة ابن الطيب الشرقي ورحلة ابن عبد السلام الناصري اللذين جمعتهم لقاءات علم وصداقة مع الكثير من العلماء وطلاب العلم من الجزائر إلى تونس ثم طرابلس فمصر فالحجاز، ناهيك عن أولئك العلماء الذين وصلوا في رحلاتهم إلى بلاد الشام واسطنبول، عن طريق السفارات الرسمية أو الرحلات الحجية أو العلمية، كسفارة الزياني وابن عثمان المكناسي وغيرهم.

كما لا يخفى أيضا الدور الاقتصادي الذي كانت تقوم به قوافل الحج والقوافل التجارية في تنقلاتها عبر الأقاليم المغاربية، فقد كانت تضم في تعدادها إلى جانب العلماء، التجار. الذين كانت أعدادهم كبيرة مما كان يصنع حركة تجارية ضخمة من خلال الأسواق التي كانت تمر بها القوافل، أو تلك التي يقيمها الحجاج حين مرورهم بالمدن والقرى، وهذا ما جعل أيضا الكثير من المدن في المغرب والجزائر بمثابة أسواق حقيقية تصلها مختلف قوافل التجار والحجاج وتغمرها كثرة البضائع والسلع، التي كانت مبادلتها تتم إما عن طريق المقايضة أو عن طريق البيوع، أين تكون العملات المختلفة من مغربية وتركية وأوربية هي العصب المحرك للعملية التجارية.

كانت القوافل بمثابة الشريان الاقتصادي الحيوي تمر عبرها السلع والبضائع من المغرب نحو إيلات الدولة العثمانية والعكس، وفي مقدمتها الجزائر بحكم الجوار، مما أضاف إلى الصراع على الحدود، صراعا آخر كان هدفه الاستئثار بالتجارة الصحراوية والطرق التجارية العابرة لها. إلا أنه لا مكان لهذا الصراع في حياة سكان البلدين، فالانتماء إلى الملة الواحدة والتاريخ المشترك، والأصول المتشابهة لقبائل البلدين، كانت تحول دون تحقيق حكومتي البلدين أهدافهما السياسية والاقتصادية، إلا في بعض الحالات التي استغل فيها المخزن أطرافا لها وزنها الثقافي والاجتماعي في الجزائر ليعقد معها تحالفا ويحقق من وراء ذلك مكاسب سياسية، وفي هذا الإطار تتدرج علاقة المخزن بالقوى الصوفية والمرابطية صاحبة الثقل الاجتماعي في الغرب والجنوب الغربي الجزائري لاسيما الطريقة الدرقاوية والطريقة التجانية. أما في أغلب الأوقات فإن الكثير من العائلات الجزائرية هاجرت إلى المغرب واستقرت به في مناسبات عدة ولأسباب مختلفة، والأمر نفسه بالنسبة للمغاربة وإن كانت الإحصائيات في ذلك قليلة مقارنة بعدد المهاجرين من الجزائر إلى المغرب، اللهم إلا تلك التي تتحدث عن العلاقات الثقافية وهجرة العلماء المتبادلة من الجزائر والمغرب لدواعي مختلفة، وكذا مساهماتهم العلمية والثقافية في كلا البلدين.

الملاحق

الملحق رقم: 01

[illegible]

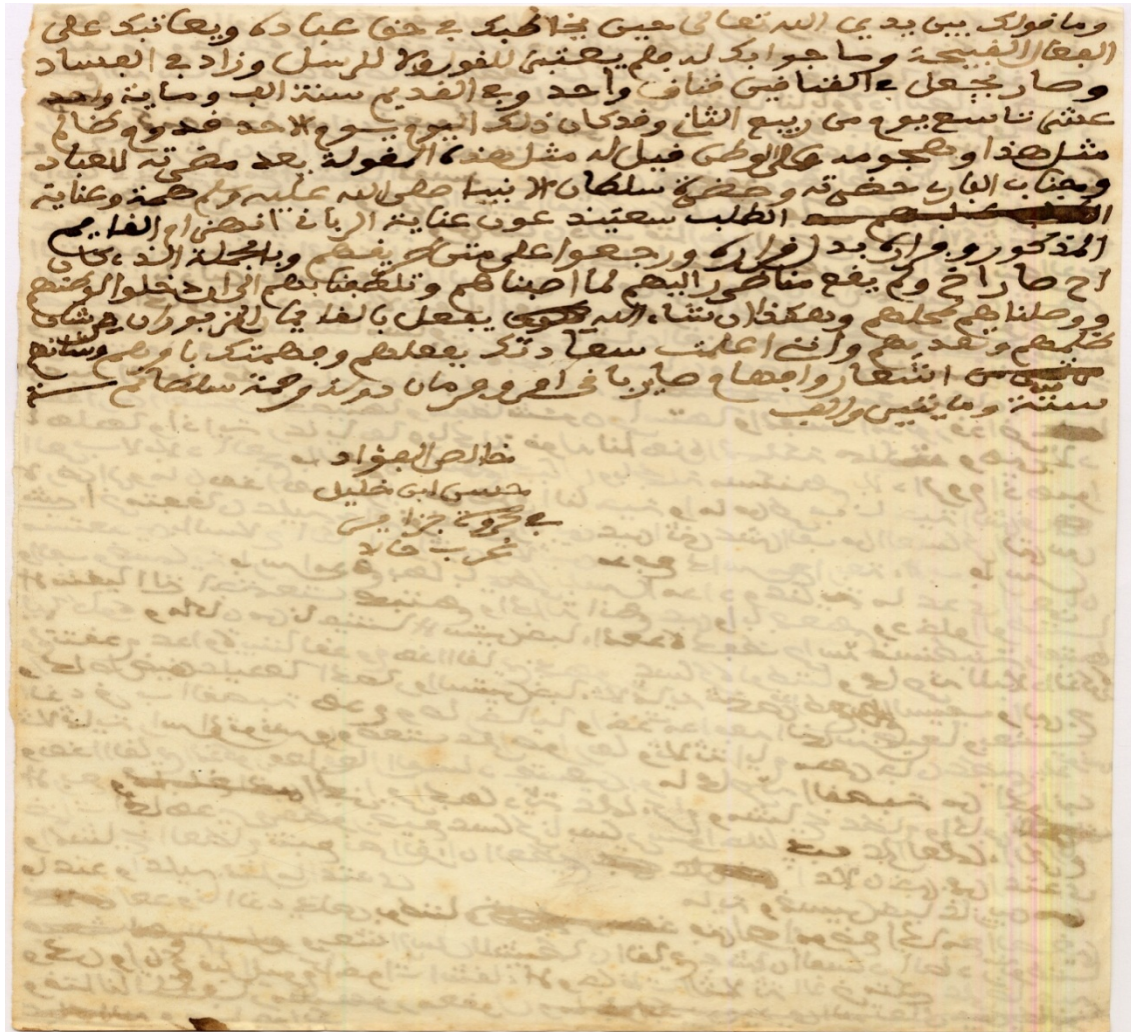
وثيقة تتناول خبر التحالف المغربي التونسي ضد إيالة الجزائر

الصفحة الأولى من الوثيقة تتضمن أخبار عن اتصالات قام بها المولى إسماعيل ملك المغرب مع مراد باي تونس للهجوم على إيالة الجزائر بالإضافة إلى أخبار أخرى متفرقة⁽¹⁴²³⁾.

(1423) الوثيقة رقم: 53، الملف الأول، المجموعة 3205، قسم المخطوطات بالمكتبة الوطنية الجزائرية مؤرخة عام

1206ھ.

تابع للملحق رقم: 01



الصفحة الثانية من الوثيقة التي تتضمن أخبار الاتفاق المغربي التونسي للهجوم على أترك الجزائر. (1424)
الوثيقة مؤرخة سنة 1206هـ

تتناول الوثيقة مجموعة من الأحداث تتعلق بالتحالف المغربي التونسي الليبي من أجل الهجوم على إيالة الجزائر من جهتي الشرق والغرب بتاريخ 9 ربيع الثاني 1111هـ/1699م، كما تتناول أخبار هذا الهجوم وما غنمه أصحاب هذا التحالف لاسيما المولى إسماعيل ملك المغرب ومراد باي تونس وعلى إثر ذلك أقام باي تونس احتفالا في إيالته بهذا النصر .

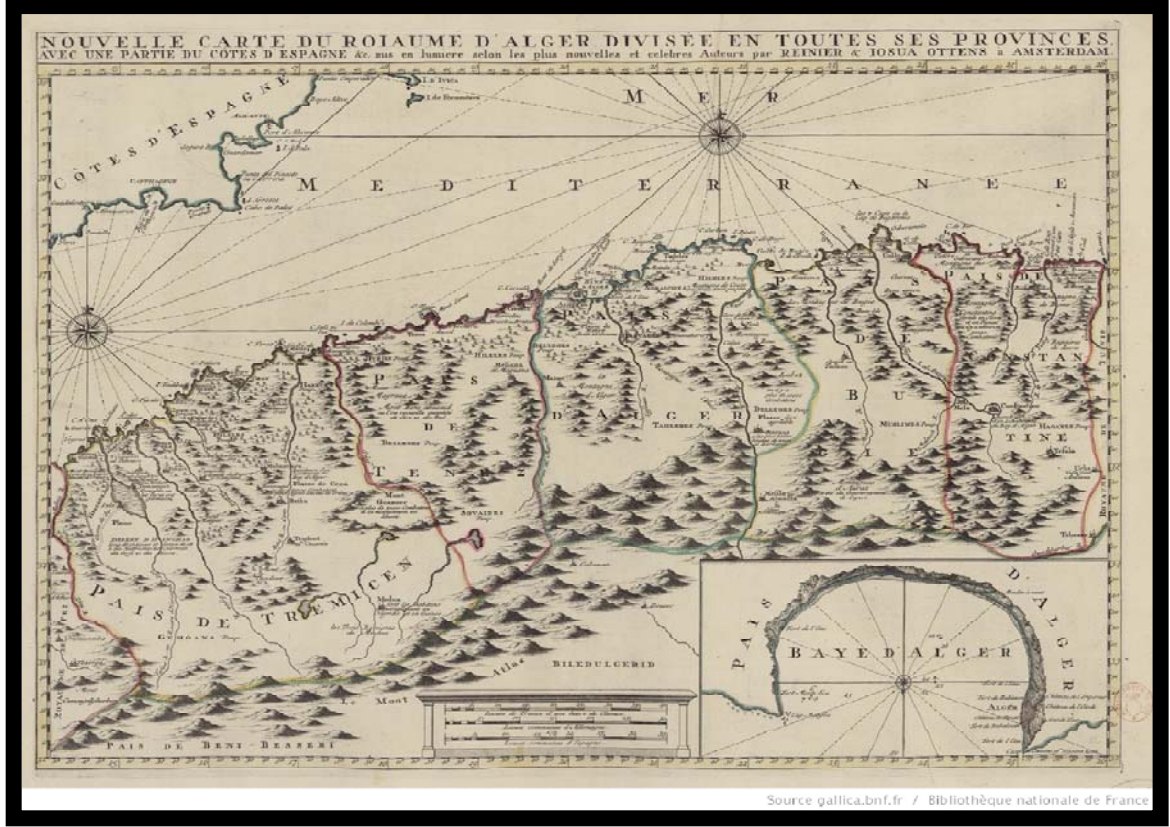
ملاحظة: التاريخ المدون في نهاية الوثيقة (1206هـ) لا يوافق تاريخ الأحداث المذكورة في الوثيقة، والاحتمال الوارد أن الوثيقة أعيد كتابتها في العهد الاستعماري كغيرها من وثائق المكتبة الوطنية الجزائرية، فوقع خطأ في التاريخ الثاني (1206هـ).

تابع للملحق رقم: 01

مسكن الوزارة ساكن طريق العدالة كبير جليل فخم كافة راحة وعناية رتب وزير مشير الملوك خالصات لطف وكرم وجواهر درر السلطنة (غير واضحة) مجراه حضرة سلطانه (كذا) عظم الله شأنه وحياته وصانه باللطف عما شأنه من تراب نعل سعادتم المذنب (غير واضحة) أما بعد أصوب الصواب عرض خالد كافي من اشتغالنا بأولاد النصارى أخذ وانتقام كم مقدار غوازي ضعيفة (كذا) (غير واضحة) بالضرورة المزبورة مجتمعة ليل ونهار (كذا) في رضا الرحمان غز أو جهاد خدمتنا وديننا في صيد الكفار (كذا) على الدوام والاستمرار وأيضا لا يخل حريتنا مع الأشقياء المفسدين من العريان (غير واضحة) قدومهم لطريقنا وإذابتهم إلينا (كذا) وتعطيلهم حال وطننا قرب وهران التي بيد المشركين طابفة كفار الصبنيول (كذا) من حراسة حفظ المملكة وخيانة الرعايا ومن شأن ذلك قتال جوال وحرب وقتال أكثر نال مقال الشهداء (كذا) واستغراق المرحمة وأنت أفندينا رجائنا منكم مظهر دعا وي الخير بنصر الدين المبين لأننا باذلين أنفسنا في سبيل الله (كذا) ومع هذا من طريق حاكم فاس إسماعيل به شهر بطمعه الخاوي (كذا) جند جنوده الأشقياء المفسدين عموما ظلما وتعدي ودخل لوطنا وقد كان مقدار من سفننا مسافرين بالبحر في شأن الغزو (غير واضحة) مستعدين أراد انتهاز فرصة الغنيمة بأخذه بلاد تلمسان وحصارها (غير واضحة) وإذابة الرعية الفقراء (كذا) فكر لمحاصرتها بخيله ورجاله (غير واضحة) وقد كان بها مقدار من العسكر لتحسينها وحفظا شؤون حراستها (كذا) والمفسد المذكور قد أضر (غير واضحة) أهلها وإذابة رعاياها وبالجملية قول لنا هذه المملكة مملكته وهي بلاد العرب لا بلاد العجم فالحجم مسكنهم الجبال وبالجملية مسكنهم بلاد الروم اذهبوا لأرض الرومان هذا هو جوابه من هذه الناحية وأما من طرف ناحية الشرف (غير واضحة) شيء آخر متفقان عليه حاكم تونس مراد باي عين اثني عشر ألف من العساكر التي هي مستعدين بالسلاح الكامل واثني وثلاثين مدفع نحاس مع أربعة آلاف فارس وألف وخمسمائة فارس أمدهم بها باي طرابلس إمداد وعناية ما عدى العريان الأشقياء التي اجتمعت صحبتهم (كذا) والحالة أنهم عبروا بأجمعهم ودخلوا لوطنا ليأكلوه (كذا) وما الستين خباء المعدة لحفظ حراسة قسنطينة وقصبتها ولم تتقدم عداوة بيننا لقدوم هذا القائم بجمهور عساكره لوطنا ومحاصرته للبلاد المذكورة (كذا) والحاصل ضيق عليها الحصار والستين خباء، ثلاثمائة شخص قد (غير واضحة) السيف والبرج الذي قرب القصبية هدم وصار خاليا وأخذت مدافعه النحاس جميعا وبعث ثلاثمائة رأس إلى تونس ووضعت على أسوارها وثلاثة أيام مهرجان عظيم ببلد تونس وهذا القائم المذكور فعل فعال الفساد في تسعين يوما محاصرته القصبية من الجوانب الأربع (كذا) ولما بلغ الخبر الجزائر الجهادية علماء كرام ومشايخ عظام وأكابر (غير واضحة) غزاة المجاهدين وحضور جميع عساكرنا بسائر سواحلنا (كذا) يجب على العلماء الكرام والمشايخ العظام تتبع نص القرآن العظيم (غير واضحة) إعلان خبر فمن اعتدى فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى (فراغ) مائة وخمسين خباء غازيين (غير واضحة) لعدونا الذي يخلص بوطنا (غير واضحة) فنزلوا بموضع الجامع الصغير (غير واضحة) وبعث الرسل للشيطان القائم في شأن الفساد الصادر منه بوطنا ونحن وإياكم قبل هذا اليوم كأخوات أشقاء الأوجاقات الثلاثة الآخر منكم على صاحبه (كذا) وقتالنا للكفار مشهور معقول (غير واضحة) وما حدا بكم وما قولكم بين يدي الله تعالى حين يخاطبكم في حق عباده ويعاتبكم على الفعال القبيحة وما جوابكم له فلم يعتبر للقول ولا للرسل وزاد في الفساد وصار يجعل في القنايين قناق (كذا) واحد وفي القديم سنة ألف ومائة وإحدى عشر تاسع يوم ربيع الثاني قدوم ظالم مثل هذا وقد كان ذلك يوم الأحد وهجومه على الوطن قيل له مثل هذه المقولة بعد مضرته للعباد وجناب الباربي حضرته وحضرة سلطان الأنبياء صلى الله عليه وسلم همة وعناية (غير واضحة) الطلب سعيه عون عناية الربانية انهزام القائم المذكور وفراره بدل قراره ورجعوا على متن طريقهم وبالجملية الذي كان أخ وصار أخ ولم يقع منا ضرر إليهم لما أصبناهم وتلفطنا بهم إلى أن دخلوا لوطن هم ووصلناهم محلهم وهكذا إن شاء الله يفعل بالقائمان المزبوران من شأن ظلمهم وتعديهم وأنني أعلمت سعادتم بفعلهم وفهمكم بأمرهم وشأنهم (غير واضحة) إشعار وإفهام صاير باقي أمر وفرمان دولة وهمة سلطانه (كذا). سنة ستة ومائتين وألف.

خالص فؤاد حسين ابن خليل في محروسة جزائر غرب حالا (كذا) (1425)

الملحق رقم: 02



خريطة تبين بوضوح حدود إيالة الجزائر الشرقية والغربية وكذا الجنوبية مأخوذة سنة 1750م⁽¹⁴²⁶⁾

الحدود الغربية مع المملكة المغربية تتوقف عند وادي ملوية المبين باللون الأحمر أما الحدود الجنوبية فهي مبينة باللون الأخضر، هذا بالإضافة إلى الحدود الفاصلة بين بياك الإيالة.

المفتاح:

الحدود الشرقية والغربية لإيالة الجزائر، وكذا الحدود الفاصلة بين بايلك الغرب ودار السلطان وبالك الشرق ودار السلطان، على أن الحدود الغربية مع المملكة المغربية في أقصى يسار الخريطة تمتد من وادي ملوية شمالا إلى جبال الأطلس جنوبا في نفس الجهة وكذا بداية بلاد بني البصيري (كذا)

الحدود الجنوبية لإيالة الجزائر بالموازاة مع امتداد سلسلة جبال الأطلس على كامل الخريطة وكذا الحدود إقليم دار السلطان ممتدة عموديا. وتوضح الخريطة جزء من الملكة الإسبانية في شمال إيالة الجزائر على الجهة اليسرى.

⁽¹⁴²⁶⁾ Reinier et Tosua Ottens, *Nouvelle carte du royaume d'Alger, divisée en toutes ses provinces avec une partie du côtes d'Espagne etc*, Mis en lumière selon les plus nouvelles à Amsterdam, 0070, [ca 1750], Source gallica.bnf.fr, Bibliothèque nationale de France.

الملحق رقم: 03



Source gallica.bnf.fr / Bibliothèque nationale de France

خريطة تمثل الجزء الغربي من إيالة الجزائر وكذا حدودها الغربية كما نقلها الرحالة توماس شاو سنة 1700م

(1427)

تبين الخريطة بوضوح أن نهر ملوية في الشمال هو الحد الفاصل بين المملكة المغربية وإيالة الجزائر، ناهيك تواجد منطقة وجدة ضمن التراب الجزائري خلال هذه الفترة.

والمعلومة الأخرى التي تنقلها الخريطة هو الطريق البحري الذي سلكه الرحالة توماس شاو صاحب الخريطة في تنقلاته من المغرب إلى الجزائر، وعلى ما يبدو فهو الطريق نفسه الذي سلكه التمغروني .
ملاحظة: الألوان من وضع الباحث للتوضيح.

– المفتاح:

الطريق البحري الذي سلكه الرحالة توماس شاو، وعلى ما يبدو أنه الطريق الذي سلكه التمغروني.

منطقة وجدة

-Shaw Thomas, voyageur, **Partie occidentale du royaume d'Alger**, 0072, [ca1700], Source ⁽¹⁴²⁷⁾
gallica.bnf.fr, Bibliothèque nationale de France.

الملحق رقم: 4

43. Copy

الحمد لله حق محمد - وصلى الله على سيدنا محمد وآله وأسرته الطاهرة
سلاما وسلاما دائما يمين مثلنا يمين اليمين العظيم

Nicholson
Moulin
Moulin

السيادة التي اقامها الله تعالى بافوار الهداية وشدة مبالغة على قواهم الحق
بالتوفيق والعناية والبسملة بسبب العز والفتنة وكسرها من المفاخر ثياب اهل
المجد والافتخار سيادة من انتم في طلل الاحقاد وافاض عليهم
سبحان العدل والاحسان ورد بسياسة العكوار الى الاجفان ويسد
بهيبته ذوق يا حوج الفتنة طروق العدو وان ذلك ابونا عظيم القدر
النشأ ونحسنا وصديقنا مولانا سليمان ادلم الله لنا وجودة واياه
وثبت على نعم الهدى والتقوى اقدامة وتصرايقه الشريفة وجودة في
اعوانه وجعل الخلافة باقية فيه وفي نسله وعقبه الى يوم القيامة سلام
عليكم مع الرحمة والرضوان ودوام العافية والغفران ما تعاقب الملوك من
اختلف الجديان وطبع الفرقان يهدي الى ذلك المقام الذي اركان حجة
ان شارب الله تعالى راسية راسية وعز عزة بادية فاخذة واعلام خرة
سامية شاعنة ~~في كل يوم~~ اما بعد محمد الله محمد
مخترع عمادتي شاكر لفضله وبهامة الذي نصر الحق واعلته ودحض
الباطل والارادة ووعد من قول عليه وفوض امره اليه بحسن عقباة
افرح الذين كفروا من ديارهم وقطنوا ان حوسوهم ما نعتهم به الله
فما اوسع رحمة واسيع نعماء والصلوة والسلام على سيدنا محمد سيرو
الوجود ومعناه ومبدى الكمال ومنتهاه الذي لا ينم قلبه الشريف
اذا نامت عيناه وقد اختاره الله للتليق واجتباة وقربة اليه
وناجاة سلاما وسلاما دائما يمين مثلنا يمين اليمين لقياء فاه
الموجب لتطير هذا الكتاب وقصديرة الى ذلك الباب اول السؤال
عنكم وعن الرضية احوالكم جعلكم اسد غير وعافية في جميع اوقانكم وثافيا
فلتعلم يا نعم الاب الكريم والصديق الملا لطف الحميم ان خديكم
قايد بلاد وخدة ما هموا عليه تلك القابل ونصواله الاشراك و

رسالة حسين باشا حاكم الجزائر إلى المولى سليمان (1428)

(1428) الوثيقة رقم: 43، الملف الثالث، المجموعة 3205، قسم المخطوطات بالمكتبة الوطنية الجزائرية مؤرخة عام
أواسط صفر 1237 هـ.

والجبال: فرَّ هارباً منهم إلى بلاد تلمسان: ادام الله لكم الاحسان: و
حيث بلغنا امره: واطرق مسامعنا خبره: امرنا ابتنا وعاملنا
المعظم الرجل: الزكي الفضل: السيد حسى باى الله يوجهه معه البعض
اعوانه: يسبرونه معه الى بلاد: ويقيمونه في محله ومكانه: رغماً على
انف اعداية: ثم انه قد بادر بتلك الافعال وابقى معددهم فيها اثني
عشر رجلاً من الابطال يكونون عوناً له في الامور والاحوال: بلغنا الله و
اياكم جميع الامال: هذا وقد بلغنا ايضاً يا نعم السيد الشريف: ذو القدر
والشاه العظيم المنيف: الله جميع طرقايت تلك النواحي والمسالك: قد
استند فيها الخوف على المسلمين وكثرت فيها المعاطيب والمهالك: حيث
لا يقدر ان يسلكها سالك: فان ظهر للسعيدة الشريفة سيادتهم
ووافر عقلكم: انه نأمر وعاملنا البائى المذكور: بالاعانة لكم على اهل الزنج
والضلال والفسور: فاعلمونا بما تريد ونه من تلك الاشياء والامور: فنكونوا
ان شاء الله عوناً لكم على ما هموسوقوم ومسطور: وتكون يدنا ويدهم الشريفة
يد واحدة على كل من بغى وطغى وخبر: وخرج عن الطاعة وعنى في الارض
الفساد والفساد: وكنت ارجو منكم حال واحد: وامر منفرد متحد:
يسرنا ما يسركم: ويسورنا ما يسوركم: لانك انت ابونا وابو الجميع:
ادام الله لناو للمسلمين مقامكم الرفيع: ونصرهم وجعلكم في حصنه الحصين
المنيع: نجاة النبي الشفيع: وايضاً فانت اخوانه مؤمنوه: وعلى البرر و
التقوى الله شارة متعاونوه: وقد قال مولانا العظيم شديد القوى: فتعاونوا
على البرر والتقوى: وقال صلى الله عليه وسلم: وشرف وكرم: ورجد
وعظم: المؤمن المؤمن كالبنيان المرصوص: شد بعضه بعضاً الحديث
وغيره من الايات القرآنية: والاجاديت الصحيحة النبوية: التي لا
تحقق على حضرةكم العالمة: هذا ولا يخفى ايضاً على ذوي العقول والعلوم
مثلكم والفضل والاحسان: انه هذا هو اخر الزمان: الذي تكثر فيه
الشرور والفتن والظلم والعدوانة: والمخالفة والفساد والعصيان:

رسالة حسين باشا حاكم الجزائر إلى المولى سليمان⁽¹⁴²⁹⁾

تابع للملحق رقم: 4

ولا يخفى على سيادتكم ما وقع ايضا من مولا السلطان : العثماني
في تلك الاقطار والبلدان : مع فورة الفرائض عبدة الروثان : وغيرهم
اهل الرقيع والضلال مشاهدة بالعيان : فانه تغلي يعيننا وايتا وايتاكم على
الجميع في كل وقت واوان : ومحل ومقام وهكاه : نجاة المصطفى سيدي واد
عدنان : صلى الله عليه وعلى اله واصحابه الى يوم الامتنان : والمطلوب ايضا
من مولا الكريم : الغفور الرحيم : ان يلهمنا واياكم العمل الصالح السديد :
والرأي الصائب الرشيد : وان يمدنا جميعا بالنصر والتأييد : ويحكم
جميعنا من ناصية كل جبار عنيد : وكل عاص ومخالف قريب او بعيد : وان
يمهد لنا ولكم البلاد احسن : تمهيد : ويصلح احوال العباد على طريقي
ماحيب ونشأ ونريد : فهذا منا اليكم ولا زائد حمد الله سوى حبكم :
والدعاء الصالح منا لحضرتكم : فعلى هذا عقدت منا الطمأنينة : كما يشهد بذلك
علام الغيوب والسراير : ثم الرجوع من حضررتكم الشريفة : وطلعتكم
المباركة المنيرة : الا تنسونا من دعواتكم المستطابة : التي لاشك فيها
بانها مقبولة ومستجابة : لانكم من اهل الفضل والشرف الواضح المستبين :
والعلم والحلم والجود والكرم وانت خليفة رب العالمين : قدمتم في امام الله
محفوظين : وبعين العناية الربانية المحفوظين : في كل وقت وخير :
نجاة سيدي الاولين والآخرين : وهو السلام الشام : العتري الحتام :
يهدى الى ذلك المقام : في البدء والختام : فهذا نظير ما كتبناه بالبنان :
للمعظم الرفع مولا سليمان : من غير زيادة فيه ولا نقصان : ع
اذن من له العز والقدرة الرفيع والحظ والشان : مولا الدولا على السيد
حسين باشا ادام الله تعالى له الاحسان : والجود والفضل والامتنان :
نجاة المصطفى سيدي ولد عدنان : رامي رامي : يا مجيب
سائلي : بتاريخ اواسط شهر صفر الحير ١٢٤٣ هـ

رسالة حسين باشا حاكم الجزائر إلى المولى سليمان (1430)

(1430) الوثيقة رقم: 43، نفس المصدر.

تابع للملحق رقم: 4

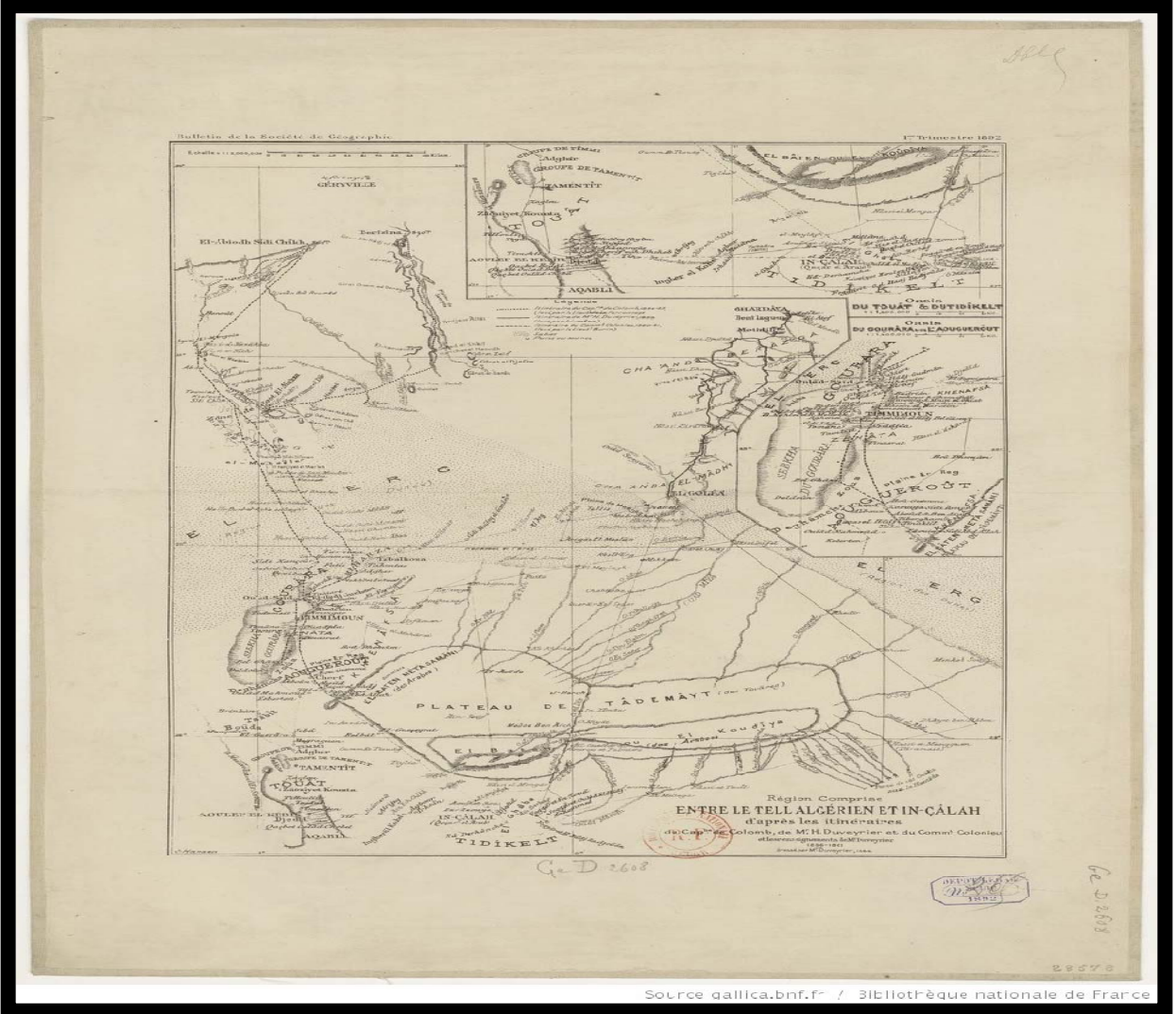
نص الرسالة:

الحمد لله وصلى على سيدنا محمد نبراس الظلام صلاة وسلاما دائمين متلازمين إلى يوم القيام السيادة التي أقامها الله تعالى بأنوار الهداية وشد مبانيها على قوائم الحق بالتوفيق والعناية وألبسها ملابس العز والفخر، وكساها من المفاخر ثياب أهل المجد والإفتخار، سيادة من أنام الآنام في ظل الأمان (كذا) وأفاض عليهم سجال العدل والإحسان، ورد بسياسته الضرار إلى الأجفان، ويسد بهيبته دون ياجوج الفتنة طرق العدوان، ذلك أبونا عظيم القدر والشأن ومحبنا وصديقنا مولاي سليمان، أدام الله وجوده وأيامه وثبت على نهج الهدى والتقوى أقدامه، ونصر رايته الشريفة وجنوده وأعوانه، وجعل الخلافة باقية فيه وفي نسله وعقبه إلى يوم القيامة: سلام عليكم مع الرحمة والرضوان ودوام العافية والغفران ما تعاقب الملوان (كذا) واختلف الجديان، وطلع الفرقان يهدي إلى ذلك المقام الذي أركان مجده إن شاء الله تعالى راسية راسخة، وغرر عزه باديه فاذخة (كذا) وأعلام فخره سامية شامخة (فراغ) أما بعد: حمدا لله حمد مغترف بما أدى شاكر لفضله ونعماءه (كذا) الذي نصر الحق وأعلاه، ودحض الباطل وأرداه ووعد من توكل عليه وفوض أمره إليه فأحسن عقابه وأخرج الذين كفروا من ديارهم، وقد ظنوا أن حصونهم مانعتهم من الله، فما أوسع رحماء، وأسبغ نعماء والصلاة والسلام على سيدنا محمد سيد الوجود ومعناه (كذا) ومبدي الكمال ومنتهاه الذي لاينام قلبه الشريف إذا نامت عيناه، وقد اختاره الله من الخليفة واجتباها وقر به إليه ونجاه (كذا) صلاة سلاما دائمين متلازمين إلى يوم القيام، فإن الموجب لتسطير هذا الكتاب، وتصديره إلى ذلك الجنب، أولا السؤال عنكم وعن المرضية أحوالكم، جعلكم الله بخير وعافية في جميع أوقاتكم، وثانيا فلتعلم يانعم الأب الكريم والصديق الملائف الحميم أن خديمكم قائد بلاد وجدة لما هجم عليه القبائل (كذا) ونصبوا له الإشراك (كذا) والحبائل فرّ هاربا منهم إلى بلاد تلمسان، أدام الله لكم الإحسان وحين بلغنا أمره، وأطرق مسامعنا خبره، أمرنا ابننا وعاملنا المعظم الأجل، الزكي الأفضل: السيد حسن باي أن يوجه معه البعض من أعوانه يسيرون معه إلى بلاده وبقيمونه في محله ومكانه، رغما على أنف أعدائه، ثم انه قد بادر بتلك الأفعال وأبقى عددا منهم فيها إثني عشر رجلا من الأبطال يكونون عوناً له في الأمور والأحوال (كذا) بلّغنا الله وإياكم جميع الآمال، هذا وقد بلغنا أيضا نعم السيد الشريف ذو القدر والشأن المنيف. (كذا) أن جميع طرقات تلك النواحي والمسالك قد اشتد فيها الخوف على المسلمين وكثرت فيها المعاطب والمهالك (كذا) بحيث لا يقدر أن يسلكها سالك، فإن ظهر للسعيدة والشريفة سيادتكم ووافد عقلكم، أن نأمر عاملنا الباي المذكور بالاعانة لكم على أهل الزيغ والضلال والفجور، فأعلمونا بما تريدون من تلك الأشياء والأمور، فنكون إن شاء الله عوناً لكم على ما هو مرقوم ومسطور، وتكون يدنا ويدكم الشريفة يد واحدة على كل من بغى وطغى وتجبر، وخرج عن الطاعة وعتي في الأرض الفساد واستكبر (كذا) وكيف لا ونحن معكم حال واحد، وأمر منفرد متحد يسرنا ما يسركم، ويسؤنا ما يسوءكم، لأنك أنت أبونا وأبو الجميع، أدام الله لنا وللمسلمين مقامكم الرفيع، ونصركم وجعلكم في حصنه الحصين المنيع، بجاه النبي الشفيع، وأيضا فإننا إخوان مؤمنون، على البر والتقوى إن شاء الله متعاونون، وقد قال مولانا العظيم شديد القوى: "فتعاونوا على البر والتقوى". وقال صلى الله عليه وسلم، وشرف وكرم ومجد وعظم: "المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص، يشد بعضه بعضا" الحديث. وغيره من الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية الصحيحة التي لا تخفى على حضرتكم العالمة، هذا وقد لا يخفى أيضا على ذوي العقول والعلوم مثلكم والفضل والإحسان، أن هذا هو آخر الزمان الذي تكثر فيه الشرور والفتن والظلم والعدوان والمخالفة والفساد والعصيان، ولا يخفى على سيادتكم ما وقع أيضا (فراغ) لمولانا السلطان العثماني في تلك الأقطار والبلدان، مع فرقة القرايق عبدة الأوثان (كذا)،

وغيرهم من أهل الزيغ والضلال مشاهدة بالعيان فالله تعالى يعيننا وإياه وإياكم على الجميع في وقت وأوان (كذا)، ومحل ومقام ومكان، بجاه المصطفى سيد ولد عدنان، صلى الله عليه وعلى آه وأصحابه إلى يوم الامتتان ، والمطلوب أيضا من مولانا الكريم ، الغفور الرحيم أن يلهمنا وإياكم إلى العمل الصالح السديد والرأي الصائب الرشيد، وأن يمدنا جميعا بالنصر والتأييد، ويمكن جميعنا من ناحية كل جبار عنيد، وكل عاص ومخالف قريب أو بعيد، وأن يمهد لنا ولكم البلاد أحسن تمهيد ويصلح أحوال العباد على طبق ما نحب ونشاء ونريد، فهذا ما منا إليكم ولا زايد بحمد الله سوى حبكم والدعاء الصالح منا لحضرتكم، فعلى هذا عقدت منا الضمائر كما يشهد بذلك علام الغيوب والسرائر، ثم المرغوب من حضرتكم الشريفة، وطلعتكم المباركة المنيفة، ألا تتسونا من دعواتكم المستطابة، التي لا شك فيها بأنها مقبولة ومستجابة، لأنكم من أهل الفضل والشرف الواضح المستبين والعلم والحلم، والجود والكرم وأنت خليفة رب العالمين، فدمتم في أمان الله محفوفين ويعين العناية الربانية ملحوظين، في كل وقت وحين، بجاه سيد الأولين والآخرين وثم السلام التام العنبري الختام يهدي إلى ذلك المقام في البدء والختام، فهذا نظير ما كتبناه بالبنان للمعظم الأرفع مولاي سليمان ، من غير زيادة فيه ولا نقصان عن إذن من له العز والقدر الرفيع والحظ والشأن، مولانا الدولاتلي السيد حسن باشا أدام له الإحسان والجود والفضل والامتتان بجاه المصطفى سيد ولد عدنان، آمين ، آمين، آمين، يا مجيب السائلين. (كذا)

بتاريخ أواسط شهر صفر الخير سنة 1237هـ⁽¹⁴³¹⁾

الملحق رقم: 05



- خريطة تمثل أسواق الواحات منطقة عين صالح وإقليم توات وقورارة والطرق التجارية الرابطة بينها⁽¹⁴³²⁾
- كما تبين الخريطة المناطق الصحراوية الأخرى مثل تديكلت وغرداية وبعض واحات البيض (جيرفيل) مثل بريزينة والأبيض سيدي الشيخ وفقا لما نقله الرائد الفرنسي كلونيو سنة 1856م. (بتصرف)
- ملاحظة: الألوان المبية على الخريط من وضع الباحث
- المفتاح:
- الطرق التجارية وقوافل الحج المعروفة وطرق أخرى سلكها الرائد كولونيو بالموازاة مع تنقلات الرائد الموضوع في الخريطة بالخطوط المتقطع
- الأسواق التجارية الصحراوية (واحات توات، قورارة، تديكلت...)

(1432) - Duveyrier, Hansen, Jules-André-Arthur, **Région comprise entre le Tell algérien et in-Cyâalah, d'après les itinéraires du Capne de Colomb et du Commandant Colonieu, 1856-1861**, les renseignements de, Mr. Duveyrier, 0070, Source gallica.bnf.fr, Bibliothèque nationale de France.

البليو غرافيا

قائمة المصادر والمراجع

* ملاحظة: لا يعتد في ترتيب الفهارس بـ: (ال، ابن، أبو، أبي).

المصادر والمراجع بالعربية:

المصادر المخطوطة:

- 1- أكنسوس أبي عبد الله محمد، الجيش العرمرم، ج2، مخطوط، مكتبة الملك عبد العزيز، الدار البيضاء، المملكة المغربية، 1354.
- 2- الزياني أبو القاسم، الروضة السليمانية، مخطوط، مكتبة الملك عبد العزيز، الدار البيضاء، المملكة المغربية، د.ت.ط.
- 3- بن الطيب الفاسي الشرقي أبي عبد الله محمد، الرحلة الحجازية، مخطوط رقم: 746، جامعة لايبزيك بفيينا.
- 4- أبي العلاء إدريس، الابتسام في دولة بني هشام وديوان العبر في أعيان القرن الثالث عشر، مخطوط، مكتبة الملك عبد العزيز، الدار البيضاء، المملكة المغربية.
- 5- الوثيقة رقم: 43، الملف الثالث، المجموعة 3205، قسم المخطوطات بالمكتبة الوطنية الجزائرية مؤرخة عام أواسط صفر 1237هـ.
- 6- الوثيقة رقم: 53، الملف الأول، المجموعة 3205، قسم المخطوطات بالمكتبة الوطنية الجزائرية مؤرخة عام 1206هـ.

المصادر المطبوعة:

- 1- التجاني أبو محمد عبد الله محمد بن أحمد، رحلة التجاني، تقديم حسن حسني عبد الوهاب، د.ط، دار الكتب العربية، تونس، 1981.
- 2- الجبرتي عبد الرحمن، عجائب الآثار في التراجم والأخبار، ج2، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، دار الكتب والوثائق القومية، مصر، 1998.
- 3- الحضيكي أبي عبد الله محمد بن أحمد السوسي، الرحلة الحجازية، ضبط وتعليق عبد العالي المدبر، ط1، مركز الدراسات والأبحاث وإحياء التراث، المغرب، 2011.

- 4- ابن حمادوش عبد الرزاق الجزائري، رحلة ابن حمادوش الجزائري، المسماة لسان المقال في النبأ عن النسب والحال، تقديم وتحقيق وتعليق د.أبو القاسم سعد الله، د.ط، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 1983.
- 5- الحوات سليمان، ثمرة أنسي في التعريف بنفسي 1160-1231هـ/ 1747-1816م، تحقيق عبد الحق الحيمر، د.ط، مركز الدراسات والبحوث الأندلسية، شفشاون، المغرب، 1996.
- 6- ابن خلدون عبد الرحمن، مقدمة ابن خلدون، ج1، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، د.ت. ط.
- 7- خوجة حمدان بن عثمان، المرأة، تقديم وتعريب وتحقيق محمد العربي الزبيري، سلسلة التراث، منشورات، ANEP، الجزائر، 2005.
- 8- ديكو طوريس، تاريخ الشرفاء، ترجمة محمد حجي، محمد الأخضر، د.ط، الجمعية المغربية للتأليف والنشر، شركة النشر والتوزيع، الدار البيضاء، المغرب، د.ت.ط.
- 9- دينيزن.أف، الأمير عبد القادر والعلاقات الفرنسية العربية في الجزائر، ترجمة أبو العيد دودو، د.ط، دار هومة، الجزائر، 2003.
- 10- الزباني أبو القاسم، تحفة الحادي المطرب في رفع نسب شرفاء المغرب، تقديم وتحقيق الأستاذ رشيد الزاوية، ط1، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية، المطبعة الأمنية، الرباط، 2008.
- 11- الزباني أبو القاسم، الترجمان المعرب عن دول المشرق والمغرب، د.ط، المطبعة الجمهورية، باريس، 1884.
- 12- الزباني أبو القاسم، الترجمانة الكبرى في أخبار المعمورة برا وبحرا 1147-1249هـ الموافق لـ 1734-1904م، تحقيق عبد الكريم فيلاي، دار النشر للمعرفة، المغرب، 1991.
- 13- السلاوي الناصري أبو العباس أحمد، الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، ج2، ج3، ط1، تحقيق محمد عثمان، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2007.

- 14- الشافعي الإمام، الرسالة، تحقيق ونشر أحمد محمد شاكر، د. م. ط، د. د. ت. ط، (المكتبة الشاملة، إص.ث).
- 15- بن أبي الضياف، أحمد إتحاف أهل الزمان بأخبار تونس وعهد الأمان، ج2، ج3، ج4، ج7، ج8، النشرة الثانية، الدار التونسية للنشر، الشركة الوطنية للنشر، الجزائر، د. ت.
- 16- الضعيف محمد بن عبد السلام ، تاريخ الضعيف (تاريخ الدولة السعيدة)، تحقيق وتقديم أحمد العماري، ط1، نشر دار المآثورات، المغرب، 1989.
- 17- الطرنباطي أبي عبد الله بن مسعود، بلوغ أقصى المرام في شرف العلم وما يتعلق به من الأحكام، تحقيق عبد الله رمضان، ط1، الرابطة المحمدية للعلماء، منشورات مركز الدراسات الأبحاث وإحياء التراث، المملكة المغربية، 2008.
- 18- الغزال أحمد بن مهدي، نتيجة الاجتهاد في المهادنة والجهاد، تحقيق إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1984.
- 19- ابن غلبون محمد بن خليل، تاريخ طرابلس الغرب، المسمى: التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخبار، تصحيح وتعليق أحمد الزاوي، د.ط، المكتبة السلفية، القاهرة، 1349هـ.
- 20- الفشتالي أبي فارس عبد العزيز، مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفاء، دراسة وتحقيق عبد الكريم كريم، د.ط، مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية والثقافية، المغرب، د.ت.ط.
- 21- القادري محمد بن الطيب، التقاط الدرر ومستفاد المواعظ والعبر من أخبار وأعيان المائة الحادية والثانية عشر، 1167/1164هـ، تحقيق هاشم العلوي الفاسي، ط1، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1983.
- 22- القيرواني ابن أبي زيد، الرسالة، تحقيق صالح عبد السميع الآبي الأزهري، المكتبة الثقافية، بيروت، د. ت. ط، (المكتبة الشاملة، إص.ث).
- 23- كاريخال مارمول، إفريقيا، ج1، ج2، ج3، ترجمة محمد حجي وآخرون، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مكتبة المعارف، الرباط، 1984م.

- 24- الكتاني عبد الحي بن عبد الكبير، فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمسلسلات، ج1، ط2، تحقيق إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1982.
- 25- مجهول، تاريخ الدولة السعودية التكمдарتية، تقديم وتحقيق عبد الرحيم بنحادة، ط1، عيون المقالات، دار تينمل للطباعة والنشر، مراكش، 1984.
- 26- المحبي تقي الدين بن داود، خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، د.ط، د.م.ط، د.ت. م. ك. ش.إ.ث.
- 27- بن محي الدين محمد بن عبد القادر الجزائري، تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر، السيرة السيفية، ج1، د.ط، المطبعة التجارية، عزوزي وجاويش، الإسكندرية، 1903.
- 28- المرادي أبي الفضل السيد محمد خليل أفندي، سلك الدرر في أياان القرن الثاني عشر، د.ط، د.م.ط، د.ت، م.ش.إ.ث.
- 29- المزاري الأغا بن عودة، طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن 19م، تحقيق ودراسة يحي بوعزيز، ج1، د.ط، دار الغرب الإسلامي، د.ت.
- 30- المشرفي محمد بن محمد بن مصطفى، الحلل البهية في ملوك الدولة العلوية وعد بعض مفاخرها غير المتناهية، دراسة وتحقيق إدريس بوهليلة، ج2، ط1، منشورات وزارة الأوقاف والتؤون الإسلامية، المغرب، 2005.
- 31- المكناسي ابن عثمان، الإكسير في فكاك الأسير، سلسلة الرحلات السفرية، المركز الجامعي للبحث العلمي، المغرب، 1965.
- 32- المكناسي محمد بن عبد الوهاب بن عثمان، الإكسير في فكاك الأسير، سلسلة الرحلات السفرية، المركز الجامعي للبحث العلمي، المغرب، 1965.
- 33- المكناسي محمد بن عبد الوهاب بن عثمان، رحلة المكناسي، إحرارز المعلى والرقيب في حج بيت الله الحرام وزيارة القدس الشريف والتبرك بقبر الحبيب 1785م، د.ط، د.م.ن. المملكة المغربية. د.ت.
- 34- النائب الأنصاري أحمد بك، المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب، د.ط، مكتبة الفرجاني، طرابلس الغرب، د.ت.

- 35- الناصري محمد أبو راس، فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته، تحقيق وضبط محمد بن عبد الكريم الجزائري، د.ط، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1986.
- 36- الناصري محمد بن عبد السلام، الرحلة الناصرية الكبرى، دراسة وتحقيق المهدي الغالي، ج1، ط1، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، 2013.
- 37- الوزان الفاسي الحسن بن محمد الوزان ، وصف إفريقيا، ج1، ط2، ترجمة محمد حاجي، محمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان 1983.
- 38- الوفرائي محمد الصغير بن عبد الله، نزهة الحادي بأخبار ملوك الحادي، د.ط، مطبعة بردين، أنجي، د.م.ط، 1888م.
- 39- الياضي أبو محمد عبد الله بن أسعد بن علي، مرآة الجنان وعبرة اليقظان بحوادث الزمان، د. م. ط، د. ت. ط. (المكتبة الشاملة، إ.ث).

المراجع:

- الكتب:

- 1- آق كوندوز أحمد، سعيد أوزتوك، الدولة العثمانية المجهولة، وقف البحوث العثمانية، إسطنبول، 2008.
- 2- آصاف يوسف، تاريخ سلاطين آل عثمان العظام، د.ط، المطبعة العمومية، مصر، 1895.
- 3- أحمد علي ، تاريخ الفكر العربي الإسلامي، د.ط، منشورات جامعة حلب، مطبعة الروض، سوريا، 1997.
- 4- الأرقش دلندة، الأرقش عبد الحميد، بن طاهر جمال، المغرب العربي من خلال المصادر، المركز الجامعي، د. م. ط، 2003.
- 5- أفا عمر، النقود المغربية في القرن الثامن عشر، أنظمتها وأوزانها في منطقة سوس، ط1، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1993.
- 6- باحو مصطفى، علماء المغرب ومقاومتهم للبدع، ط1، جريدة السبيل، المغرب، 2007.

- 7- البستاني يوسف ، نابليون الأول أو النسر الأعظم، ط2، مطبعة الهلال، مصر، 1924.
- 8- برحاب عكاشة، من قضايا الحدود بين الجزائر والمغرب، ط1، دار أبي الرقراق، الرباط، 2003.
- 9- بروكلمان كارل، تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة أمين فارس، منير البعلبكي، ط6، دار العلم للملايين، بيروت، 1974.
- 10- بلحميسي مولاي، الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني، القسم الأول، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1979.
- 11- البلوشي علي مسعود، تاريخ معمار المسجد في ليبيا في العهد العثماني والقرماني 1551-1911م، نشأة ونمو وتطور المساجد الليبية، د.ط، جمعية الدعوة الإسلامية، ليبيا، 2007.
- 12- بنحادة عبد الرحيم، العثمانيون المؤسسات والاقتصاد والثقافة، ط1، اتصالات سبو، الدار البيضاء، المغرب، 2008.
- 13- بيرك جاك، العروي عبد الله وآخرون، الأتربولوجيا والتاريخ حالة المغرب العربي، ترجمة عبد الأحد السبتي، ط2، دار توبقال للنشر، المغرب، 2007.
- 14- البيومي محمد رجب، مجالس العلم في حرم المسجد، المؤسسة العربية الحديثة للنشر، القاهرة، 1988.
- 15- التازي عبد الهادي، أمير مغربي في طرابلس 1143هـ-1731م، مطبعة فضالة، المغرب، د. ت. ط.
- 16- التازي عبد الهادي، التاريخ الدبلوماسي للمغرب من أقدم العصور إلى اليوم، مج9، العهد العلوي 1، د.ط، مطابع فضالة، المغرب، 1408هـ-1988م.
- 17- التازي عبد الهادي، رحلة الرحلات مكة في مائة رحلة مغربية ورحلة، ج1، د.ط، مراجعة عباس صالح طاشكندي، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، مكة عاصمة الثقافة الإسلامية، 2005.
- 18- التازي عبد الهادي، الموجز في تاريخ العلاقات الدولية للمملكة المغربية، ط1، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، المغرب، 1965.

- 19- التازي عبد الهادي، القدس والخليل في الرحلات المغربية، رحلة ابن عثمان نموذجاً، منشورات المنظمة الإسلامية للعلوم والثقافة - اسيسكو، السعودية، 1997.
- 20- التازي عبد الهادي، في تاريخ المغرب، جامع القرويين، المسجد والجامعة بمدينة فاس، ج3، ط1، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1972.
- 21- بن تاويت محمد، تاريخ مدينة سبتة، ط1، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، دار الثقافة، الدار البيضاء، 1982.
- 22- تشرشل شارل هنري، حياة الأمير عبد القادر، ترجمة وتقديم وتعليق أبو القاسم سعد الله، الدار التونسية للنشر، تونس، د.ت.
- 23- التميمي عبد الجليل، بحوث ووثائق في التاريخ المغربي، تونس، - الجزائر - ليبيا من 1816-1871، ط1، الدار التونسية للنشر، 1972.
- 24- جمعة محمد كحال، انتشار دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب خارج الجزيرة العربية، الرياض، 1981.
- 25- جوليان شارل أندري، تاريخ إفريقيا الشمالية، تونس، الجزائر، المغرب الأقصى، من البدء إلى الفتح الإسلامي، تعريب محمد مزالي، البشير بن سلامة، النشرة الثالثة، الدار التونسية للنشر، الشركة الوطنية الجزائرية، الجزائر، 1978.
- 26- الجيلالي عبد الرحمن، تاريخ الجزائر العام، ج4، دار الثقافة، بيروت، د.ت. ط.
- 27- الحجي عبد الرحمن علي، التاريخ الأندلسي من الفتح حتى سقوط غرناطة (92-897هـ/811-1492م)، ط2، دار القلم، دمشق، 1981.
- 28- حجي محمد، الزاوية الدلائية دورها الديني والعلمي والسياسي، المطبعة الوطنية، الرباط، المغرب، 1964.
- 29- الحجوي حسن محمد، العقل والنقل في الفكر الإصلاحي المغربي (1757 . 1912)، ط1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، د.ت. ط.
- 30- حراز السيد رجب ، الدولة العثمانية وشبه جزيرة العرب، 1840-1909م، د.ط، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، 1970.
- 31- حركات إبراهيم، التيارات السياسية والفكرية بالمغرب، خلال قرنين ونصف قبل الحماية، ط1، الدار البيضاء، 1984.

- 32- حركات إبراهيم، السياسة والمجتمع في العصر السعدي، دار الرشاد الحديثة الدار البيضاء، المغرب، 1987.
- 33- حركات إبراهيم، المغرب عبر التاريخ، من بداية المرينيين إلى نهاية السعديين، ج2، ط1، دار الرشاد الحديثة، المغرب، 1398هـ - 1978م.
- 34- حركات إبراهيم، المغرب عبر التاريخ من نشأة الدولة العلوية إلى إقرار الحماية، الجزء الثالث، ط1، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، 1985.
- 35- الحرير عيسى، تاريخ المغرب والأندلس في العصر المريني، (610-869هـ/1213-1465م)، ط1، دار القلم للنشر والتوزيع، الكويت، 1985م.
- 36- حليم إبراهيم بك، تاريخ الدولة العثمانية العلية، ط1، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، 1988م.
- 37- حنظل فالح، العرب والبرتغال في التاريخ (93هـ - 1134هـ / 711م - 1720م)، ط1، منشورات المجمع الثقافي، أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة، 1418هـ - 1997م.
- 38- حماس خليفة، كشاف وثائق تاريخ الجزائر في العهد العثماني بالمكتبتين الوطنية الجزائرية والتونسية، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية(4)، قسنطينة، 2010.
- 39- حمان عبد الحفيظ المغرب والثورة الفرنسية، د.ط، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، 2002 .
- 40- حمت إسماعيل، الحكومة المغربية واحتلال الجزائر، تقديم علي تابليت، ترجمة وتصدير زكي مبارك، محمد خوجة، ط1، دار أبي القرقاق، الرباط، 2010.
- 41- الحمود سامي بن خالد ، الانتصار على التتار، دراسة تجمع بين الماضي والحاضر، د.ط، د.م.ط . د.ت.ط (م ك. ش. إ.ث).
- 42- بن خروف عمار، العلاقات السياسية بين الجزائر والمغرب، في القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي، ج1، د.ط، دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2006م.
- 43- بن خروف عمار، العلاقات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية بين الجزائر والمغرب في القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي، ج2، الأمل للطباعة والنشر، الجزائر، 2008.

- 44- الخزانة الملكية، منتخبات من نواذر المخطوطات، القصر الملكي، الرباط، 1978.
- 45- خير فارس محمد، علي عامر محمود، تاريخ المغرب العربي الحديث" المغرب الأقصى - ليبيا"، منشورات جامعة دمشق، 1999-2000.
- 46- داود محمد، تاريخ تطوان، مج1، د.ط، معهد مولاي الحسن، تطوان، 1379هـ - 1959م.
- 47- داهش محمد علي، الدولة العثمانية والمغرب، إشكالية الصراع والتحالف، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2011.
- 48- دياز رامون لوريديو، المغرب وأحلام الزعامة على الغرب الإسلامي، ترجمة مولاي أحمد الكمون، بديعة الخرازي، ط1، منشورات الزمن، النجاة الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، 2013.
- 49- الرافي عبد المحسن، مجموع مؤلفات الرفضية، د. م. ط، غزة، 1425هـ، (المكتبة الشاملة، إص.ث).
- 50- رزق يونان لبيب، محمد مزين، تاريخ العلاقات المصرية المغربية منذ مطلع العصور الحديثة حتى عام 1912، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1982.
- 51- روجرز ب.ج، العلاقات الإنجليزية- المغربية حتى عام 1900، ترجمة يونان لبيب رزق، ط1، دار الثقافة، الدار البيضاء، 1981.
- 52- زروق محمد، دراسات في تاريخ المغرب، ط1، إفريقيا الشرق، المغرب، 1991.
- 53- زيادة خالد، اكتشاف التقدم الأوروبي، دراسة في المؤتمرات الأوربية على العثمانيين في القرن 18م، ط1، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، د. ت. ط.
- 54- ابن زيدان عبد الرحمن، المنزع اللطيف في مفاخر المولى إسماعيل بن الشريف، تقديم وتحقيق عبد الهادي التازي، ط1، مطبعة إديال، الدار البيضاء، 1413هـ - 1993م.
- 55- ابن زيدان عبد الرحمن، العز والصولة في معالم نظم الدولة، ج1، المطبعة الملكية، الرباط، 1381هـ-1961م.
- 56- ابن زيدان عبد الرحمن، الرحلة إلى الحجاز ومصر والشام، تحقيق ودراسة سليمان الفرشي، ط1، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، 1430هـ-2009م.

- 57- ابن زيدان عبد الرحمن، الدرر الفاخرة بـمآثر الملوك العلويين بفاس الزاهرة، المكتبة الاقتصادية، الرباط، 1355هـ.
- 58- السبتي عبد الأحد، فرحات حليلة، المجتمع الحضري والسلطة بالمغرب من القرن 15 إلى القرن 18م، ط1، دار توبقال، المغرب، 2007.
- 59- سعد الله أبو القاسم، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج1، طبعة خاصة، دار البصائر، الجزائر، 2007.
- 60- سعد الله أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي (1500-1830)، ج2، ط1، دار الغرب الإسلامي، 1998.
- 61- سعد الله أبو القاسم، تجارب في الأدب والرحلة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983.
- 62- سعد الله أبو القاسم، على خطى المسلمين، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2009.
- 63- سعود عبد العزيز، تطوان في القرن الثامن عشر، ط1، مطبعة الخليج، تطوان، 2007.
- 64- سعيدوني ناصر الدين، ورقات جزائرية، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، ط2، دار البصائر، الجزائر، 2008.
- 65- بن بوسلهام خديجة، المخزن والمجتمع في النصف الأول من القرن التاسع عشر، عهد مولاي عبد الرحمن بن هشام 1822-1859م، ط1، دار أبي الرقراق للطباعة والنشر، المغرب، 2013.
- 66- ابن سليمان يحيى، نحن المغاربة، مشاكل النمو بين التقليد والتجديد، ط1، دار الغرب الإسلامي، الدار البيضاء، 1985.
- 67- السهلي عبد الله بن دجين، الطرق الصوفية نشأتها وعقائدها وآثارها، ط1، دار كنوز إشبيلية للنشر والتوزيع، الرياض، 2005.
- 68- ابن سودة محمد الوزير، ابن سودة عبد الهادي، مناقب بني سودة، د.ت، المغرب، د.ت.
- 69- سيمو بهيجة، الإصلاحات العسكرية بالمغرب 1844-1912م، سلسلة رسائل وأطروحات رقم 1، اللجنة المغربية للتاريخ العسكري، الرباط، المغرب، 2000.

- 70- الشامي أحمد بن صالح ، فقه العبادات الحنبلي، د. م. ط، 1405هـ/1985م، ص:11-29، (المكتبة الشاملة، إص.ث).
- 71- شحاتة حسن إبراهيم، أطوار العلاقات المغربية العثمانية، قراءة في تاريخ المغرب عبر خمسة قرون (1510-1947م)، دار المعارف، الإسكندرية، 1981.
- 72- الشناوي عبد العزيز محمد، الدولة العثمانية، دولة إسلامية مفترى عليها، ج1، د.ط، مكتبة أنجلو المصرية، القاهرة، 1980.
- 73- الشوبير محمد بن سعيد، تصحيح خطأ تاريخي حول الوهابية، ط3، وزارة التعليم العالي، السعودية، 1419هـ.
- 74- بن صغير خالد، المغرب وبريطانيا العظمى في القرن التاسع عشر (1856-1886م)، ط2، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1997.
- 75- بن الصغير خالد، واحات التخوم وحدود المغرب الشرقية، (1800-1903م)، وثائق وخرائط مختارة، ط1، منشورات المعهد الملكي للبحث في تاريخ المغرب، الرباط، 2013.
- 76- الصقلي العربي، مذكرات التراث المغربي من تثمين الدولة إلى المخاطر، ج3، منظمة الشمال، د. م. ط، 1985.
- 77- الصلابي علي محمد، صفحات من تاريخ الإسلام في شمال إفريقيا، الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط، د.ط، د.م.ط، د.ت، (م.ك. ش.إ. ث).
- 78- الصلابي علي محمد محمد، الثمار الزكية للحركة السنوسية في ليبيا، ج1، ط1، مكتبة الصحابة، الشارقة، 2001.
- 79- الضيقة حسن، دولة محمد علي والغرب، الاستحواذ والاستقلال، ط1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 2002.
- 80- طقوش محمد سهيل، تاريخ العثمانيين من قيام الدولة إلى الانقلاب على الخلافة، ط2، دار النفائس، بيروت، 2008.
- 81- العافية عبد القادر، الحياة السياسية والاجتماعية والفكرية بشفشاون وأحوازها خلال القرن 10هـ -16م، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، 1982 .

- 82- عبد القادر نور الدين، صفحات في تاريخ مدينة الجزائر، من أقدم عصورها إلى نهاية العهد التركي، ط2، نشر كلية الآداب، مطبعة البعث، قسنطينة، 1965م.
- 83- عبد الرحيم عبد الرحيم، المغاربة في مصر في العصر العثماني (1517-1798)، دراسة في تأثير الجالية المغربية من خلال وثائق المحاكم الشرعية المصرية، د.ط، منشورات المجلة التاريخية المغربية، تونس 1982.
- 84- بنعبد الله عبد العزيز، الجيش المغربي عبر العصور، سلسلة قسم الدراسات الدبلوماسية والقنصلية، وزارة العدل، الرباط، 1986.
- 85- العبود صالح بن عبد الله بن عبد الرحمان، عقيدة الشيخ محمد بن عبد الوهاب السلفية وأثرها في العالم الإسلامي، مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي، المدينة المنورة، د.ت.
- 86- العثيمين محمد بن صالح، القول المفيد على كتاب التوحيد، م1، ط1، دار ابن الجوزي، الحجاز، 1421هـ.
- 87- العربي إسماعيل، العلاقات الدبلوماسية بين دول المغرب والولايات المتحدة (1776-1816)، سلسلة الدراسات الكبرى، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، د. ت. ط.
- 88- العروي عبد الله، مجمل تاريخ المغرب، ط1، المركز الثقافي، الدار البيضاء، المغرب، 2007.
- 89- بوعزيز يحيى، الموجز في تاريخ الجزائر، ج2، ط2، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2009.
- 90- بوعسرية بوشتي، من مصادر تاريخ العلاقات بين المغرب وشبه الجزيرة العربية، رحلات المغاربة إلى الحرمين الشريفين (ق12-14هـ / 18-20م)، ط1، إعداد محمد ياسر الهلالي، الجمعية المغربية للبحث التاريخي، المطبعة الأمنية، الرباط، د.ت.
- 91- عزيز سامح إتر، الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية، تحقيق محمود علي عامر، ط1، دار النهضة العربية، بيروت، 1408هـ - 1989م.
- 92- علل خالد كبير، صفحات من تاريخ أهل السنة والجماعة ببغداد، (200-500هـ/815-1106م)، د.ط، دار هومة، الجزائر، د.ت.

- 93- عمالك أحمد، أحمد بن محمد بن ناصر الدرعي، الشيخ الصوفي المصلح، ط1، مركز الدراسات والأبحاث وإحياء التراث، المملكة المغربية، 2012.
- 94- العلوي اسماعلي مولاي عبد الحميد، تاريخ وجدة وأنكاد في دوحة الأمجاد، ج1، ط1، مطبعة النجاح الجديدة، المغرب.
- 95- الغاشي مصطفى، الرحلة المغربية والشرق العثماني، محاولة في بناء الصورة، ط1، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت، 2015.
- 96- الغديري مصطفى، الريف، قراءة في وثائق، سلسلة كتب الريف، مطبعة الجسور، المغرب، 2009.
- 97- عسة أحمد، المعجزة المغربية، ط1، دار القلم للطباعة، بيروت، 1974-1975.
- 98- فالنزي لوسات، المغرب العربي قبل احتلال الجزائر، 1790-1830، ترجمة حمادي الساحلي، سيراس للنشر، تونس، 1994.
- 99- فيرو شارل، الحوليات الليبية، ترجمة محمد عبد الكريم الوافي، ط3، منشورات جامعة قار يونس، بنغازي، 1994.
- 100- قدوري عبد المجيد، المغرب وأوربا، مابين القرن الخامس عشر والثامن عشر، مسألة التجاوز، ط1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 2000م.
- 101- قرنفل حسن، أهل فاس المال والسياسة، ط1، دار أبي الرقاق، الرباط، 2007.
- 102- كرميش سليمان أحمد حسين، تجار المدن والواحات الليبية خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين، ط1، منشورات المركز الوطني للمحفوظات والدراسات التاريخية، بنغازي، الجماهيرية العربية الليبية، 2010.
- 103- كمالي إسماعيل، سكان طرابلس الغرب، تعريب وتعليق الهادي بن يونس، د.ط، مركز جهاد الليبيين، طرابلس، 1997.
- 104- كنون عبد الله، النبوغ المغربي في الأدب العربي، ج1-3، ط2، المغرب، د.ت.
- 105- كنون عبد الله، ذكريات مشاهير رجال المغرب في العلم والأدب والسياسة، ج1، ط1، تقديم محمد بن عزوز، مركز التراث الثقافي المغرب، دار ابن حزم، الدار البيضاء، 2010.

- 106- كنون محمد الراضي، المجموعة الكاملة لرسائل أبي عبد الله محمد أكنسوس (1211-1294هـ/1796-1877م)، د.ط، معلمة سوس، المغرب، 1997.
- 107- لوطورنو روجي، فاس قبل الحماية، ج1، ترجمة محمد حجي، محمد الأخضر، دار الغرب الاسلامي، بيروت، 1412-1992.
- 108- مؤنس حسين، تاريخ المغرب وحضارته من الفتح الإسلامي إلى الغزو الفرنسي، ج3، العصر الحديث للنشر والتوزيع، د.م.ط، 1992.
- 109- المحامي فريد بك، تاريخ الدولة العلية العثمانية، تحقيق إحسان حقي، ط1، دار النفائس، بيروت، 1401هـ/1981م.
- 110- المدني أحمد توفيق، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا 1492-1792م، ط3، دار البصائر، الجزائر، 2009.
- 111- المدني أحمد توفيق، عثمان باشا داي الجزائر 1761-1791م، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986.
- 112- مروان محمد عمران، الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية في مدينة غدامس خلال العهد العثماني الثاني (1261-1331هـ/1835-1912م) دراسة تاريخية من خلال الوثائق المحلية، ط1، دار الكتب الوطنية، بنغازي، 2009.
- 113- المغربي عبد القادر، جمال الدين الأفغاني ذكريات وأحاديث، تقديم كريم أبو حلاوة، ط4، الهيئة العامة السورية، دار البعث، 2008.
- 114- منتران روبير، تاريخ الدولة العثمانية، ترجمة بشير السباعي، ج1، ط1، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة، 1962.
- 115- المنصور محمد، المغرب قبل الاستعمار، المجتمع والدولة والدين، (1792-1822)، ترجمة محمد حبيدة، ط1، المركز العربي الثقافي، الدار البيضاء، المغرب، 2006.
- 116- المنوني محمد، مظاهر يقظة المغرب الحديث، ج1، ط1، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، 1972.
- 117- نصار ممدوح، وهبان أحمد، التاريخ الدبلوماسي، العلاقات السياسية بين القوى الكبرى 1815-1991، د.ط، قسم العلوم السياسية، كلية التجارة، الإسكندرية، د.ت.

- 118-** النيرب محمد محمود، مدخل في تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية، ج1، ط1، دار الثقافة الجديدة، القاهرة، 1992.
- 119-** الهاللي محمد تقي الدين، خطبة السلطان المقدس مولانا سليمان العلوي رحمه الله في الانتصار للسنة، ومحاربة بدع الطوائف الضالة، د.ط، مكتبة ومطبعة الساحل، الرباط، د.ت.ط.
- 120-** الهاللي محمد تقي الدين الحسيني، الانتصار للسنة ومحاربة البدع والطوائف الضالة، خطبة للسلطان المولى سليمان العلوي، ط1، دار التوحيد، فاس 2008.
- 121-** بوهليلة إدريس، جزائريون في تطوان خلال القرن 13هـ/19م، ط1، مطبعة الهداية، تطوان، المغرب، 2012.
- 122-** الودغيري عبد العلي، التعريف بابن الطيب الشرقي، ط1، منشورات عكاظ، الرباط، المغرب، 1990.
- 123-** ابن الوردي، منافع النبات والثمار والبقول والفواكه والخضروات والرياحين، تحقيق وتعليق، د.ط، محمد سيد الرفاعي، دار الكتاب العربي، دمشق، د.ت.
- 124-** ياسين إبراهيم، سلطة مغربية في غرب الجزائر، دراسة تاريخية، 1830-1832، ط1، مطابع الرباط نت، الرباط، 2015.
- 125-** ياغي إسماعيل أحمد، الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث، ط2، مكتبة العبيكان، السعودية، 1998.
- 126-** ياغي إسماعيل أحمد، العالم العربي في التاريخ الحديث، ط1، مكتبة العبيكان، الرياض، 1418هـ-1997م.

- المجالات والجرائد والملتقيات:

- 1-** الأرناؤوط محمد، "تحقيق وثائق عثمانية جديدة: هل كان المغرب تابعا لاسطنبول"، مجلة المؤرخ، العدد 5-6، المغرب، 2009.
- 2-** أزيما ميمون، "هجرة أهل الريف إلى الجزائر بين قساوة الطبيعة وعنف الاستعمار"، العنف في المغرب، أشغال الأيام الحادية والعشرين للجمعية المغربية للبحث التاريخي، منشورات ملتقى الطرق، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 2015.

- 3- "أهمية علاقات الدولة العلوية بتونس في بناء وحدة المغرب العربي"، دعوة الحق، العدد 96، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، د.ت. (المجلة الإلكترونية)
- 4- برحاب عكاشة، "مشكلة التجارة بين المغرب والجزائر (1830-1907)"، أعمال ندوة التجارة في علاقتها بالمجتمع والدولة عبر تاريخ المغرب، ج2، جامعة الحسن الثاني، عين الشق، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الدار البيضاء، المغرب، 1989.
- 5- برحاب عكاشة، "التهريب والحدود في شمال شرق المغرب، وقفات في تاريخ المغرب"، دراسة مهداة للأستاذ إبراهيم بوطالب، ط1، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة البحوث والدراسات رقم: 27، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 2001.
- 6- بنحادة عبد الرحيم، "تنازع السيادة بين المغرب والدولة العثمانية"، من إيناون إلى استانبول، أعمال مهداة إلى عبد الرحمن المودن، تتسيق عبد الأحد السبتي - عبد الرحيم بنحادة، ط1، المطبعة الأمنية، الرباط، 2012.
- 7- التازي عبد الهادي، "رواق المغاربة بالأزهر الشريف"، دعوة الحق، ع3، س24، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، رمضان 1403/ ماي-يونيو 1983.
- 8- التازي عبد الهادي، "السياسة الخارجية للمملكة المغربية إزاء العثمانيين"، المجلة التاريخية المغربية، السنة 14، العدد: 47-48، تونس، ديسمبر 1987.
- 9- الترماني عبد السلام، الرق ماضيه وحاضره، سلسلة عام المعرفة، العدد 23، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1978.
- 10- تسوكي أحمد، "العرش المغربي في شعر المشرق، مشاهد ولمحات من أمجاد وبطولات"، دعوة الحق، ع1، س23، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، 1982.
- 11- التميمي عبد الجليل، "تاريخ العلاقات الثقافية بين إسطنبول والمغرب الأقصى خلال العصر الحديث"، المجلة التاريخية المغربية، السنة 13، العدد: 43-44، تونس، نوفمبر 1986.
- 12- الجابري محمد عابد، "الأصالة والتحديث بالمغرب"، مجلة الثقافة، العدد: 77، السنة: 13، وزارة الثقافة بالجزائر، سبتمبر 1983.
- 13- جادور محمد، "دبلوماسية أحمد المنصور السعدي من خلال تقايد أسير برتغالي"، مجلة المؤرخ، العدد: 4، المغرب، أوت. 2009.

- 14- حواش محمد بلعربي، "قيم التضامن بين الشعوب الإسلامية الخطاب النظري والواقع التاريخي مقارنة تاريخية حالة المغرب"، *مجلة الإحياء*، العدد، 34-35، الرابطة المحمدية للعلماء، المغرب، 2011.
- 15- حوتية محمد، "توات والقوافل التجارية"، *طريق القوافل*، د.ط. المركز الوطني للبحوث في عصور ما قبل التاريخ وعلم الإنسان والتاريخ، الجزائر، 2001.
- 16- الخداري محمد، "الدور السياسي للطريقة الدرقاوية في العلاقات بين المغرب والجزائر، في بداية القرن التاسع عشر"، *المناهل*، العدد 124، المغرب، 2007.
- 17- بن خضرة عثمان، "الشيخ التاودي ابن سودة، إمام فقهاء المغرب، اجتهاد في العلم والعبادة ومحبة آل البيت"، *دعوة الحق*، العدد 283، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، أبريل 1991. (مجلة إلكترونية)
- 18- الخطابي محمد العربي، "مصر والمغرب خواطر وذكريات"، *دعوة الحق*، ع7 س24، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، 1404/ديسمبر 1983.
- 19- دادي مارية، "الصراع على الغزو التجاري لمدينة وجدة والمناطق الشرقية من خلال وثيقة إسبانية، الطرق التجارية نموذجاً"، *الحماية والمقاومة المغربية على عهد مولاي يوسف*، مركز الدراسات والبحوث العلوية، مطبعة دار المناهل، المغرب، 2005.
- 20- زكي ميلاد حنا، "الوقائع المصرية، صفحات مطوية من تاريخ الصحافة"، *المصري اليوم*، العدد 2666، 28 أغسطس، 2010.
- 21- بوزياني قدور، "بعض الملامح الثقافية في علاقة المغرب بإيالة الجزائر التركية"، *مكناسة*، مجلة كلية الآداب والعلوم، العدد 03، كلية الآداب مكناسة، المغرب، 1996.
- 22- السويكت فهد بن محمد، "مواقف الأشراف السعديين بالمغرب من مسألة الخلافة العثمانية"، *مجلة الملك سعود*، ع: 19، كلية الآداب، الرياض، 1427هـ/2006م.
- 23- سيد أحمد فؤاد، "ملاحظات جديدة حول ظهور المماليك"، *دراسات عربية وإسلامية مهداة إلى أديب العربية الكبير، أبي فهر محمود محمد شاكر*، بمناسبة بلوغه السبعين، د.ط. مطبعة المدني، القاهرة، 1982.
- 24- الشابي مصطفى، "الجيش المغربي في القرن التاسع عشر، ملاحظات أولية"، *منوعات محمد حجي*، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998.

- 25- الصباغ ليلي، "الوجود العثماني في المشرق المتوسط في العصر الحديث"، مجلة التاريخ المغربية، العدد: 7-8، تونس، جانفي 1977.
- 26- الطبايلي عبد الحفيظ، "أصول وثائق مغربية في الأرشيف العثماني، مراسلات المخزن العلوي مع الباب العالي، 1198هـ/1784م"، من إيناون إلى استانبول، أعمال مهداة إلى عبد الرحمن المودن، تنسيق عبد الأحد السبتي- عبد الرحيم بنحادة، ط1، المطبعة الأمنية، الرباط، 2012.
- 27- طحطح خالد فؤاد، "العلاقات المغربية العثمانية خلال العصر الحديث (القرن السادس عشر- أواخر القرن الثامن عشر)"، دورية كان التاريخية، العدد الرابع عشر، ديسمبر 2011.
- 28- طليمات عبد القادر، "حملة نابليون على مصر ونداءات الجهاد العثمانية إلى مولاي سليمان"، مجلة حضارة الإسلام، المجلد 1، العدد 7، مصر، كانون الثاني، 1961.
- 29- بنعبد الله عبد العزيز، "مصر والمغرب الأقصى عبر التاريخ"، دعوة الحق ع3، س24، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، المغرب، ماي/ يونيو، 1983.
- 30- بنعبد الله عبد العزيز، " لماذا رعاية المخزن للزاوية التجانية"، مجلة دعوة الحق، ع4، س27، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، 1985.
- 31- بنعبد الله عبد العزيز، "الرحالة العرب والمسلمون من المغرب وإليه"، الرحلات السفارية، ندوة الرباط الأولى، وحدة العلم والعمران بالمغرب، الرابطة المحمدية للعلماء، 2003.
- 32- بنعبد الله عبد العزيز، "الوزارة والوزراء عبر التاريخ، نموذج للوزراء وكتاب الدولة عبر المغرب الأقصى"، دعوة الحق، ع271، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، أكتوبر 1988. (المجلة إلكترونية).
- 33- العراقي أحمد، "تجارة القوافل ودورها بين الشمال وغرب إفريقيا، أثرها الحضاري"، تجارة القوافل ودورها الحضاري حتى نهاية القرن التاسع عشر، د.ط، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، معهد البحوث والدراسات العربية، بغداد، 1948.
- 34- بوعزيز يحيى، "طريق القوافل والأسواق التجارية بالصحراء الكبرى كما وجدها الأوربيون خلال القرن التاسع عشر، البضائع، العملات، والأسعار، والأساليب التجارية"، تجارة القوافل

- ودورها الحضاري حتى نهاية القرن التاسع عشر، د.ط، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، معهد البحوث والدراسات العربية، بغداد. 1948.
- 35- الفاسي محمد، "مشاركة المغرب في الجهاد المصري للحملة الفرنسية"، دعوة الحق، ع4-5، س16، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، المغرب.
- 36- الفاسي محمد، "أبو عبد الله محمد بن الطيب الشرقي"، مجلة المناهل، العدد6، وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية، الرباط، السنة الثالثة، 1976.
- 37- الفاسي محمد، "الوزير محمد بن عثمان المكناسي"، مجلة المغرب الجديد، السنة الثانية، العدد 12، السنة الثانية، 1936.
- 38- الفاسي محمد، "الوزير محمد ابن عثمان المكناسي، مجلة المغرب الجديد، السنة الثانية، المغرب العدد، 13، 1936.
- 39- الفاسي محمد، "الوزير ابن عثمان المكناسي"، مجلة المغرب الجديد، السنة الأولى، العدد 11، السنة الثانية، 1355هـ.
- 40- قرنفل حسن، "النشاط التجاري في مدينة فاس في القرن 19"، أعمال ندوة التجارة في علاقتها بالمجتمع والدولة عبر تاريخ المغرب، ج2، جامعة الحسن الثاني، عين الشق، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الدار البيضاء، المغرب، 1989.
- 41- قويدر بشار، "القوافل التجارية المغاربية (طبيعة التجار وآثارها)"، طريق القوافل، د.ط المركز الوطني للبحوث في عصور ما قبل التاريخ وعلم الإنسان والتاريخ، الجزائر، 2001.
- 42- المريني عبد الحق، "أصداء معركة وادي المخازن في الشعر المغربي"، مجلة التاريخ العربي، د.ع، الرباط، د.ت. (م.ش. إ.ث).
- 43- المصري وائل، "خنفساء الكوشنيل تسبب التسمم"، جريدة الوطن، العدد 6078، قطر 24 أبريل 2012.
- 44- معلوف إمام هيفاء، "العلاقات الأمريكية الشمال إفريقية في العصر الحديث"، المجلة التاريخية المغربية، العدد: 15-16، تونس، جويلية 1979.

- 45- مكاوي أحمد، "مسألة التجارة في خطاب مؤرخين مغربيين الناصري والسليمانى"، أعمال ندوة التجارة في علاقتها بالمجتمع والدولة عبر التاريخ، ج1، جامعة الحسن الثانى، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، عين الشق الدار البيضاء، المغرب، 1989.
- 46- المنونى محمد، "ثلاث رسائل من المغرب إلى ليبيا"، دعوة الحق، ع10، س25، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، 1984.
- 47- مياسى إبراهيم، "الاهتمام الفرنسى بالصحراء"، طريق القوافل، د.ط المركز الوطنى للبحوث فى عصور ما قبل التاريخ وعلم الإنسان والتاريخ، الجزائر، 2001.
- 48- هلال عمار، "العلماء الجزائريون فى فاس فيما بين القرنين العاشر والعشرين الميلاديين (4/14هـ)"، مجلة الدراسات التاريخية، ع9، معهد التاريخ، جامعة الجزائر، 1415هـ-1995م.
- 49- بوهلال مصطفى، "التعامل المغربى التونسى فى نهاية القرن 18 وبداية القرن 19 بين الشمول والتكامل"، دعوة الحق، ع3، س23، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، 1982.
- 50- يسف محمد، "التواصل العلمى بين جامعة القرويين والجامعة الزيتونية بتونس، دعوة الحق، العدد 327، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، 1997. (المجلة إلكترونية)

الرسائل الجامعية:

- 1- شرف موسى، الإصلاحات فى المغرب الأقصى فى عهد السلطان محمد بن عبد الله، (1757-1790)، مذكرة لنيل الماجستير فى التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة الجزائر (2)، جويلية 2010.
- 2- معريش محمد العربى، المغرب الأقصى فى عهد السلطان الحسن الأول 1873-1894 / 1290-1311هـ، رسالة ماجستير، معهد التاريخ، جامعة الجزائر، د.ت. ط.
- 3- مكي جلول، مسألة الحدود بين المغرب والجزائر من 631 إلى 1263هـ / 1234-1847م، رسالة ماجستير، معهد التاريخ، جامعة الجزائر، 1993.

المعاجم والقواميس والموسوعات:

- 1- حجي محمد، موسوعة أعلام المغرب، ج1، ط1، دار الغرب الإسلامي، 1996.
- 2- حجي محمد، موسوعة أعلام المغرب (1171-1300هـ)، ج7، د.ط، دار الغرب الإسلامي، المغرب، د.ت.
- 3- حجي محمد، موسوعة أعلام المغرب (1151/1170هـ)، ج6، د.ط، دار الغرب الإسلامي، المغرب، د.ت.
- 4- حرفوش بطرس وآخرون، المنجد في الأعلام، ط1، دار المشرق، بيروت، 1989.
- 5- حميدة عبد الرحمن، أعلام الجغرافيين العرب ومقتطفات من آثارهم، ط1، دار الفكر، دمشق، 1995.
- 6- الذهبي شمس الدين أبو عبد الله محمد، تجريد أسماء الصحابة، ج1، د.ط، دار المعرفة، بيروت، د.ت.
- 7- الزاوي الطاهر أحمد، معجم البلدان الليبية، ط1، مكتبة النور، طرابلس، ليبيا، 1968.
- 8- الزركلي خير الدين، الأعلام، ج5، ج6 ط15، دار العلم للملايين، 2002.
- 9- السمعاني ابن منصور التيمي، الأنساب، ج1، ط1، تقديم وتعليق عبد الله عمر البارودي، مركز الخدمات والأبحاث الثقافية، دار الجنان، بيروت، 1988م.
- 10- بن سودة عبد السلام بن عبد القادر، دليل مؤرخ المغرب الأقصى، دليل ابن سودة، ط1، مكتب البحوث والدراسات، دار الفكر، بيروت، 1997م.
- 11- بن سودة عبد السلام بن عبد القادر، إتحاف المطالع بوفيات أعلام القرن الثالث عشر والرابع، 1171-1400هـ/1756-1980م، تحقيق محمد حجي، ج1، ط1، دار الغرب الإسلامي، 1997.
- 12- شامي يحيى، موسوعة المدن العربية والإسلامية، ط1، دار الفكر العربي، بيروت، 1993.
- 13- صابان سهيل، المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية، السلسلة3، مطبوعات مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، 2000.
- 14- بن عبد الله عبد العزيز، الموسوعة المغربية للأعلام البشرية والحضارية، ج4، د.ط، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، 1981.

- 15- بنعبد العزيز عبد الله، الموسوعة المغربية للأعلام البشرية والحضارية، معلمة الصحراء، ج9، مطبعة فضالة، المغرب، 1976.
- 16- ابن العربي الصديق، كتاب المغرب، ط3، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، دار الغرب الإسلامي، 1984.
- 17- بن عقيل موسى محمد بن حسن، المختار المصون من أعلام القرون، مختارات من تسعة عشر كتابا، من القرن الثامن حتى القرن الثالث عشر، سلسلة التاريخ والأعلام، ط2، دار الأندلس الخضراء، جدة، د. ت. ط.
- 18- أبو عمران الشيخ وآخرون، معجم مشاهير المغاربة، د. ط، المؤسسة الجزائرية للطباعة، جامعة الجزائر، 1995.
- 19- محمود محمد محفوظ، وآخرون، الموسوعة العربية الميسرة، مج3، مج4، ط2، دار الجيل، بيروت، د. ت. ط.
- 20- مخلوف محمد بن محمد، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، ج1، د. ط، المطبعة السلفية، القاهرة، 1349.
- 21- بن منصور عبد الوهاب، قبائل المغرب، ج1، المطبعة الملكية، الرباط، 1969.
- 22- نويهض عادل، معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام إلى حتى العصر الحديث، ط2، مؤسسة نويهض الثقافية، بيروت، 1980.

المصادر والمراجع بالأجنبية:

- 1- A. de. Voulx, **Tachrifat, recueil de notes historiques sur l'administration de l'ancienne régence d'Alger**, imprimerie du gouvernement, Alger, 1852.
- 2- Brignon Jean, Abdelaziz Amine, Brahim Boutaleb, **Histoire du Maroc**, édition librairie Nationale, Casablanca, 1967.
- 3- DE LA Martiniere et N.Lacroix, **documents pour servir a l'etude du nord ouest Africain, les oasis de l'extreme - sud Algérie**, t1, t2, reunis et rédigé par ordre de Mr Jules Cambon, gouvernement général de l'Algérie, France, 1894-1897.
- 4- De Paradis Venture, Jean-Michel, **Alger au XVIII siècle (1739-1799)**, édité par E. Fagnan, Paris, 1898.
- 5- Drague Georges, **Esquisse d'histoire religieuse du Maroc, confréries et zaouias** ,Paris, 1951.
- 6 - Duveyrier , Hansen , Jules-André-Arthur , **Région comprise entre le Tell algérien et in-Cyâalah, d'après les itinéraires du Capne de Colomb et du Commandant Colonieu**, 1856-1861, les renseignements de, Mr. Duveyrier,0070, Source gallica.bnf.fr, Bibliothèque nationale de France.
- 7- Gustave Wlfrom, **Le Maroc, étude commerciale et agricol** Paul Dupont éditeur, Paris, 1893 .
- 8- Institut des Hautes etudes marocaines, **Introduction à la connaissance du Maroc, regards sur l'islam au Maroc**, Imprimerie Reunies, Casablanca, 1942.

9–(Rd) Thomossy, **Relation de La France avec l'empire du Maroc**, Paris, S. d.

10-Reinier et Tosua Ottens, **Nouvelle carte du royaume d'Alger, divisée en toutes ses provinces avec une partie du côtes d'Espagne etc**, Mis en lumière selon les plus nouvelles à Amsterdam, 0070, [ca 1750], Source gallica.bnf.fr, Bibliothèque nationale de France.

11-Renou Émilien, **Exploration scientifique de L agricole Algérie pendant les années 1840-1841-1842**, publier par ordre du gouvernement et avec le concours dune commission académique, T8, imprimerie royale, Paris, s.d.

12 -Shaw Thomas, **voyageur, Partie occidentale du royaume d'Alger**, 0072, [ca1700], Source gallica.bnf.fr, Bibliothèque nationale de France.

الفهارس

فهرس الأعلام

(أ)

- آغا الحاج عبد الرحمان (السفير): ص: 222.
آغا خليل (السفير): 59.
بن أحمد محمد باشا (ولي العهد): ص: 212.
أدمس (الوزير الأمريكي): ص: 222.
الأنصاري محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح (العالم): ص: 200.
الأزرق (تاجر): ص: 204.
أريزا ميمون (مؤرخ): ص: 359.
الأسمر عبد السلام (الولي الصالح): ص: 217-218.
أشعاش محمد (والي): ص: 360.
الأصرم (الفقيه): ص: 212.
ابن الأصرم القروي أبو عبد الله محمد بن علي (الفقيه): 228-229.
الأفغاني جمال الدين (المصلح): ص: 198.
أفندي إسماعيل (السفير): ص: 77-78-79-80-81-82-83-84-85-86-87-88-89-90-91-92-93-94-95-96-97-98-99.
أفندي عزمي (السفير): ص: 98-99.
أفندي محمد (الصدر الأعظم): ص: 104.
أقنون أبوبكر بن الحاج أحمد بن تامر (قاضي): ص: 270.
أقنون السوسي محمد (ابن القاضي أقنون): ص: 272.
أكنسوس (مؤرخ): ص: 92-93-94-95-96-97-98-99-100-101-102-103-104-105-106-107-108-109-110-111-112-113-114-115-116-117-118-119-120-121-122-123-124-125-126-127-128-129-130-131-132-133-134-135-136-137-138-139-140-141-142-143-144-145-146-147-148-149-150-151-152-153-154-155-156-157-158-159-160-161-162-163-164-165-166-167-168-169-170-171-172-173-174-175-176-177-178-179-180-181-182-183-184-185-186-187-188-189-190-191-192-193-194-195-196-197-198-199-200-201-202-203-204-205-206-207-208-209-210-211-212-213-214-215-216-217-218-219-220-221-222-223-224-225-226-227-228-229-230-231-232-233-234-235-236-237-238-239-240-241-242-243-244-245-246-247-248-249-250-251-252-253-254-255-256-257-258-259-260-261-262-263-264-265-266-267-268-269-270-271-272-273-274-275-276-277-278-279-280-281-282-283-284-285-286-287-288-289-290-291-292-293-294-295-296-297-298-299-300-301-302-303-304-305-306-307-308-309-310-311-312-313-314-315-316-317-318-319-320-321-322-323-324-325-326-327-328-329-330-331-332-333-334-335-336-337-338-339-340-341-342-343-344-345-346-347-348-349-350-351-352-353-354-355-356-357-358-359-360-361-362-363-364-365-366-367-368-369-370-371-372-373-374-375-376-377-378-379-380-381-382-383-384-385-386-387-388-389-390-391-392-393-394-395-396-397-398-399-400-401-402-403-404-405-406-407-408-409-410-411-412-413-414-415-416-417-418-419-420-421-422-423-424-425-426-427-428-429-430-431-432-433-434-435-436-437-438-439-440-441-442-443-444-445-446-447-448-449-450-451-452-453-454-455-456-457-458-459-460-461-462-463-464-465-466-467-468-469-470-471-472-473-474-475-476-477-478-479-480-481-482-483-484-485-486-487-488-489-490-491-492-493-494-495-496-497-498-499-500-501-502-503-504-505-506-507-508-509-510-511-512-513-514-515-516-517-518-519-520-521-522-523-524-525-526-527-528-529-530-531-532-533-534-535-536-537-538-539-540-541-542-543-544-545-546-547-548-549-550-551-552-553-554-555-556-557-558-559-560-561-562-563-564-565-566-567-568-569-570-571-572-573-574-575-576-577-578-579-580-581-582-583-584-585-586-587-588-589-590-591-592-593-594-595-596-597-598-599-600-601-602-603-604-605-606-607-608-609-610-611-612-613-614-615-616-617-618-619-620-621-622-623-624-625-626-627-628-629-630-631-632-633-634-635-636-637-638-639-640-641-642-643-644-645-646-647-648-649-650-651-652-653-654-655-656-657-658-659-660-661-662-663-664-665-666-667-668-669-670-671-672-673-674-675-676-677-678-679-680-681-682-683-684-685-686-687-688-689-690-691-692-693-694-695-696-697-698-699-700-701-702-703-704-705-706-707-708-709-710-711-712-713-714-715-716-717-718-719-720-721-722-723-724-725-726-727-728-729-730-731-732-733-734-735-736-737-738-739-740-741-742-743-744-745-746-747-748-749-750-751-752-753-754-755-756-757-758-759-760-761-762-763-764-765-766-767-768-769-770-771-772-773-774-775-776-777-778-779-780-781-782-783-784-785-786-787-788-789-790-791-792-793-794-795-796-797-798-799-800-801-802-803-804-805-806-807-808-809-810-811-812-813-814-815-816-817-818-819-820-821-822-823-824-825-826-827-828-829-830-831-832-833-834-835-836-837-838-839-840-841-842-843-844-845-846-847-848-849-850-851-852-853-854-855-856-857-858-859-860-861-862-863-864-865-866-867-868-869-870-871-872-873-874-875-876-877-878-879-880-881-882-883-884-885-886-887-888-889-890-891-892-893-894-895-896-897-898-899-900-901-902-903-904-905-906-907-908-909-910-911-912-913-914-915-916-917-918-919-920-921-922-923-924-925-926-927-928-929-930-931-932-933-934-935-936-937-938-939-940-941-942-943-944-945-946-947-948-949-950-951-952-953-954-955-956-957-958-959-960-961-962-963-964-965-966-967-968-969-970-971-972-973-974-975-976-977-978-979-980-981-982-983-984-985-986-987-988-989-990-991-992-993-994-995-996-997-998-999-1000.
أورلي (اللورد): ص: 349.
أوفراي (العقيد): ص: 294.
الأول أحمد (والي طرابلس): ص: 209-210-212.
الأول سليم (السلطان العثماني): ص: 2-3-4-12.
الأول عبد الحميد (السلطان): ص: 72-73-74-75-76-77-78-79-80-81-82-83-84-85-86-87-88-89-90-91-92-93-94-95-96-97-98-99-100-101-102-103-104-105-106-107-108-109-110-111-112-113-114-115-116-117-118-119-120-121-122-123-124-125-126-127-128-129-130-131-132-133-134-135-136-137-138-139-140-141-142-143-144-145-146-147-148-149-150-151-152-153-154-155-156-157-158-159-160-161-162-163-164-165-166-167-168-169-170-171-172-173-174-175-176-177-178-179-180-181-182-183-184-185-186-187-188-189-190-191-192-193-194-195-196-197-198-199-200-201-202-203-204-205-206-207-208-209-210-211-212-213-214-215-216-217-218-219-220-221-222-223-224-225-226-227-228-229-230-231-232-233-234-235-236-237-238-239-240-241-242-243-244-245-246-247-248-249-250-251-252-253-254-255-256-257-258-259-260-261-262-263-264-265-266-267-268-269-270-271-272-273-274-275-276-277-278-279-280-281-282-283-284-285-286-287-288-289-290-291-292-293-294-295-296-297-298-299-300-301-302-303-304-305-306-307-308-309-310-311-312-313-314-315-316-317-318-319-320-321-322-323-324-325-326-327-328-329-330-331-332-333-334-335-336-337-338-339-340-341-342-343-344-345-346-347-348-349-350-351-352-353-354-355-356-357-358-359-360-361-362-363-364-365-366-367-368-369-370-371-372-373-374-375-376-377-378-379-380-381-382-383-384-385-386-387-388-389-390-391-392-393-394-395-396-397-398-399-400-401-402-403-404-405-406-407-408-409-410-411-412-413-414-415-416-417-418-419-420-421-422-423-424-425-426-427-428-429-430-431-432-433-434-435-436-437-438-439-440-441-442-443-444-445-446-447-448-449-450-451-452-453-454-455-456-457-458-459-460-461-462-463-464-465-466-467-468-469-470-471-472-473-474-475-476-477-478-479-480-481-482-483-484-485-486-487-488-489-490-491-492-493-494-495-496-497-498-499-500-501-502-503-504-505-506-507-508-509-510-511-512-513-514-515-516-517-518-519-520-521-522-523-524-525-526-527-528-529-530-531-532-533-534-535-536-537-538-539-540-541-542-543-544-545-546-547-548-549-550-551-552-553-554-555-556-557-558-559-560-561-562-563-564-565-566-567-568-569-570-571-572-573-574-575-576-577-578-579-580-581-582-583-584-585-586-587-588-589-590-591-592-593-594-595-596-597-598-599-600-601-602-603-604-605-606-607-608-609-610-611-612-613-614-615-616-617-618-619-620-621-622-623-624-625-626-627-628-629-630-631-632-633-634-635-636-637-638-639-640-641-642-643-644-645-646-647-648-649-650-651-652-653-654-655-656-657-658-659-660-661-662-663-664-665-666-667-668-669-670-671-672-673-674-675-676-677-678-679-680-681-682-683-684-685-686-687-688-689-690-691-692-693-694-695-696-697-698-699-700-701-702-703-704-705-706-707-708-709-710-711-712-713-714-715-716-717-718-719-720-721-722-723-724-725-726-727-728-729-730-731-732-733-734-735-736-737-738-739-740-741-742-743-744-745-746-747-748-749-750-751-752-753-754-755-756-757-758-759-760-761-762-763-764-765-766-767-768-769-770-771-772-773-774-775-776-777-778-779-780-781-782-783-784-785-786-787-788-789-790-791-792-793-794-795-796-797-798-799-800-801-802-803-804-805-806-807-808-809-810-811-812-813-814-815-816-817-818-819-820-821-822-823-824-825-826-827-828-829-830-831-832-833-834-835-836-837-838-839-840-841-842-843-844-845-846-847-848-849-850-851-852-853-854-855-856-857-858-859-860-861-862-863-864-865-866-867-868-869-870-871-872-873-874-875-876-877-878-879-880-881-882-883-884-885-886-887-888-889-890-891-892-893-894-895-896-897-898-899-900-901-902-903-904-905-906-907-908-909-910-911-912-913-914-915-916-917-918-919-920-921-922-923-924-925-926-927-928-929-930-931-932-933-934-935-936-937-938-939-940-941-942-943-944-945-946-947-948-949-950-951-952-953-954-955-956-957-958-959-960-961-962-963-964-965-966-967-968-969-970-971-972-973-974-975-976-977-978-979-980-981-982-983-984-985-986-987-988-989-990-991-992-993-994-995-996-997-998-999-1000.
الأول محمود (سلطان): ص: 65-70.
بن أنس مالك (صاحب المذهب): ص: 347.

إبراهيم (شريف من مكة): 136.
ابن إدريس عبد الله (الوزير): ص: 93.
الإدريسي الشريف (الجغرافي): ص: 121.
بن إسحاق خليل الجندي (الإمام): ص: 133-153-346.
الإسحاقى (الوزير صاحب الرحلة): ص: 139-208-210.
الإسكندراني محمد (العالم): ص: 139.
إكسمونث (اللورد): ص: 349.
إيفر جورج (مؤرخ): ص: 307.

(ب)

باحو مصطفى (مؤرخ): ص: 147-164-166.
بادو الحاج الطاهر (محتسب): 216.
البارودي أبو عبد الله محمد بن حسين (مفتي): ص: 276.
البارودي الحاج محمد بن جنان التلمساني (العالم): ص: 144.
البازغي محمد (العالم): ص: 349.
البازمي عبد السلام (فقيه): ص: 280.
باسيت هنري (مؤرخ): ص: 360.
الباشا أحمد (باي تونس): ص: 254-255.
الباشا حسن (قائد الأسطول العثماني): ص: 73.
الباشا حمودة (باي): ص: 241-242-243-244-245-247-252-253.
257-258-259-277.
الباشا خليل (الصدر الأعظم): ص: 73.
باشا خير الدين: ص: 10-11-12.
الباشا درغوث (البایلرباي): ص: 211.
الباشا سعيد (والي مصر): ص: 176.
الباشا شعبان (الداي): ص: 289.
الباشا عباس (والي مصر): ص: 174-175.
الباشا علي (باي تونس): ص: 108-245.

- الباشا كمال الدين (الصدر الأعظم): 129.
- الباشا محمد (باي): ص: 244 - 245.
- الباشا محمد علي (والي مصر): ص: 155 - 174 - 175 - 349.
- الباهي علي: ص: 242 - 243.
- الباي مصطفى (باي تونس): ص: 255.
- البخاري (راوي الحديث): ص: 347.
- برادة محمد بن البدوي (تاجر): ص: 204 - 205.
- البرتغالي محمد (الملك الوطاسي): ص: 17 - 18.
- برحاب عكاشة (مؤرخ): ص: 340.
- بركاش الحاج المكي (القائد): ص: 75 - 109.
- البرناوي (العالم): ص: 199.
- البرنوصي قدور (قائد): ص: 104.
- البصري أبو عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي (متصوف): ص: 150.
- البصري عبد الله بن سالم (العالم): ص: 139.
- ابن بطوطة (الرحالة): ص: 121 - 264 - 265.
- أبو بكر (الصحابي): ص: 273.
- أبو بكر الإدريسي (العالم): ص: 349.
- البكري أبو عبيد الله (الرحالة): ص: 329.
- البكري محمد أفندي (العالم): ص: 197.
- بناني (تاجر): ص: 204.
- البناني أحمد (العالم): ص: 346 - 347.
- بناني حاج الطاهر (السفير): ص: 103.
- البوسعدي الحسين بن محمد بن علي شرحبيل (طالب علم): ص: 274.
- البوصيري (فقيه): ص: 192.
- بولتاس (قس): ص: 214 - 286 - 287.
- بونابرت جوزيف (حاكم): ص: 184.
- بونابرت نابليون: (الإمبراطور) ص: 82 - 83 - 176 - 179 - 182 - 184 - 186 - 187 - 242.

البوني أحمد قاسم (العالم): ص: 352.
بيات فاضل (مؤرخ): ص: 32.
البياز الطيب (أمين الديوانة): ص: 305.
بيرم الأول محمد (العالم): ص: 278-279.
بيرم الثالث محمد (العالم): ص: 278.
بيرم الثاني محمد (العالم): ص: 278.
بيرم الرابع محمد (العالم): ص: 279.
بيرم مصطفى (العالم): ص: 279.
بينبريدج (قائد): ص: 225.

(ت)

التونسي محمد (الفقيه): ص: 212.
التادلي عبد الرحمان (العالم): ص: 350.
التازي (تاجر): ص: 204.
التازي عبد الغني (وكيل تجاري): ص: 204.
التازي عبد الهادي (مؤرخ): ص: 50-77-101-135-157-199-215-208.
التازي عبد الواحد (وكيل تجاري): ص: 204.
التازي عبد الوهاب (العالم): ص: 199.
التجاني أحمد (شيخ طريقة): ص: 249-276-280-364-365.
التسولي أبو القاسم (الفقيه): ص: 209.
بن التهامي أحمد (فقيه): ص: 278.
التمغروتي (الرحالة): ص: 115-322.

(ث)

ابن ثابت (تاجر): ص: 204.
الثالث جورج (ملك): ص: 184. ابن خلدون: ص: 7-147.
الثالث سليم (السلطان): ص: 75-76-82-177.

الثالث كارلوس (الإمبراطور): ص: 119 - 286 - 288 - 298 - 299.
الثالث مراد (السلطان): ص: 34 - 35 - 36 - 38 - 39 - 41 - 42.
الثالث مصطفى (السلطان): ص: 92 - 103 - 115 - 125.
الثاني جوزيف (إمبراطور): ص: 97.
الثاني سليم (السلطان): ص: 30 - 31 - 32.
الثاني سليمان (السلطان): ص: 59.
الثاني شارل (ملك): ص: 59.
الثاني فليب (ملك): ص: 34 - 40.
الثاني محمد (السلطان الفاتح): ص: 17 - 131.
الثانية كاترينا (ملكة): ص: 97 - 98 - 108.
الثعالي أبو عيسى (العالم): ص: 351.
أبو ثور (صاحب الزيان): ص: 261.
الثوري سفيان (الفقيه): ص: 151.

(ج)

الجابري (مؤرخ وفيلسوف): ص: 146.
جادر محمد (مؤرخ): ص: 40.
الجامعي عبد الرحمان (العالم): ص: 352.
الجبرتي (مؤرخ): ص: 186 - 189 - 191 - 192 - 196 - 199 - 200 - 203 - 349.
جحاف عبد الله (مؤرخ): ص: 188.
الجزار أحمد باشا (حاكم): ص: 82 - 177 - 187 .
الجزولي (المتصوف): ص: 84.
الجزيري الحاج علي (وكيل تجاري): ص: 258 - 259 - 260.
جفرسون توماس (الرئيس الأمريكي): ص: 223.
بن جلول الحاج الطالب (الوزير): ص: 227.
بن جلون الطالب (تاجر): ص: 339.
الجنوي محمد بن محمد (متصوف): ص: 361.
الجواني اليهودي (تاجر): ص: 239.
جوليان شارل أندري (مؤرخ): ص: 148.
الجون موسى (شريف من مكة): ص: 136.

جيس (قنصل): ص: 233.

الجيلالي بن أحمد بن المختار السباعي (العالم): ص: 200.

(ح)

الحاج إبراهيم (طالب علم): ص: 269.

الحاج بلقاسم (طالب علم): ص: 269.

الحاج جليل (باي): ص: 286 - 287.

بن الحاج حمدون (العالم): ص: 158 - 159 - 160 - 162 - 163 - 165.

بن الحاج حمودة (العالم): ص: 349.

الحاج خليفة (طالب علم): ص: 269.

الحاج صالح (طالب علم): ص: 269.

الحاج علي (طالب علم): ص: 269.

الحاج عمر (طالب علم): ص: 269.

بن الحاج محمد بن سعيد (القاضي): ص: 357.

الحافي محمد (كاتب): ص: 104.

الحبابي محمد (وكيل تجاري): ص: 204.

حسان عبد السلام (قنصل): ص: 238.

الخطاب يحيى بن محمد (الفقيه): ص: 196 - 271.

بن الحسن البنا أبي عبد الله محمد (فقيه): ص: 268.

الحسن بن خير الدين (بايلر باي): ص: 27 - 29 - 33 - 38 - 43.

أبي الحسن عزوز (ولي صالح): ص: 244.

أبو حسون صاحب إلغ: ص: 47.

الحسيني أحمد بن علي إبراهيم (العالم): ص: 192.

الحسيني علي باي (والي تونس): ص: 275 - 278.

الحضيكي (الرحالة): ص: 200.

الحفصي عبد العزيز: ص: 10.

الحفناوي محمد بن سالم (العالم): ص: 199.

ابن حنبل (الإمام صاحب المذهب): ص: 133-151-161-164-167.
أبي حنيفة النعمان (الإمام صاحب المذهب): ص: 133.
بن حمادوش عبد الرزاق (رحالة): ص: 346-347-348.
الحوات سليمان أبو الربيع (مؤرخ): ص: 100-153-193-198-203-204.
بن حومان محمد بن عبد الله (مقدم طريقة): ص: 233.

(خ)

الخامس عشر لويس (ملك): ص: 240.
الخروبي أبي عبد الله الطرابلسي (العالم): ص: 20.
الخروبي محمد بن علي (فقيه): ص: 268.
بن خروف عمار (مؤرخ): ص: 311.
بن الخطاب عمر (الصحابي): ص: 193-273.
بن الخطيب لسان الدين (الوزير): ص: 83.
خوجة أحمد (سفير): ص: 234-235.
خوجة حمدان ابن عثمان (مؤرخ): ص: 307.
خوجة محمد (الوزير): ص: 279.
الخوجي أحمد (العالم): ص: 279.
الخياط عبد الله (أمير الركب): ص: 103.

(د)

داداي (تاجر): ص: 340.
دامرمون (الجنرال): ص: 294.
الدرابي علال (قائد): ص: 104.
الدردير أحمد بن محمد (الفقيه): ص: 196.
الدرعاوي ابن الأحرش (المتصوف): ص: 186-245-362.
الدرعي الحسين بن القاسم (قاضي): ص: 113.
الدرعي أبو مدين (متصوف): ص: 265.

الدرقاوي ابن الشريف عبد القادر (متصوف): ص: 246-362-363.
الدرقاوي العربي بن أحمد (متصوف): ص: 349.
الدرقاوي العربي (شيخ طريقة): ص: 362-363.
الدغيس حسونة (دبلوماسي): ص: 226-227.
الدكالي محمد بن أحمد (الوزير): ص: 73.
الدمناتي العربي (وكيل تجاري): ص: 204-217.
الدلائي محمد بن علي (مرابط): ص: 30.
دوفوكو (مؤرخ): ص: 331.
دوفيراى هنري (رحالة): ص: 359.
دولارو (جنرال): ص: 295.
دولامارتينيير (المؤرخ): ص: 290-291.
دولامورييسير (الجنرال): ص: 309.
دوماس (الرائد): ص: 290.
دومرني (كونت): ص: 295.
دون سيياستيان (ملك): ص: 36-37-38.
دي فلوريدا بلانكا (الوزير الإسباني): ص: 214.
دي لابورط (قنصل): ص: 303-304-306.
دياز رامون لوريدو (مؤرخ): ص: 107.

(ذ)

الذهبي نفيسة (مؤرخ): ص: 31.

(ر)

الرابع مراد (السلطان): ص: 60.
الرابع مصطفى (السلطان): ص: 100.
الرابع محمد (السلطان): ص: 60-61.
الراشدي محمد بن عبد القادر بن علي (العالم): ص: 349.
رايس صالح (البيلباي): ص: 21-22-23-27.
رايس مراد (قائد تركي): ص: 33.

الرتبي الأمين بن جعفر (فقيه): ص: 165.
الرحمانية لالاسحابة (الأميرة): ص: 33.
الرزيني الحاج محمد بن الحاج أحمد التطاواني (العالم): ص: 144-176.
رغوان عبد الكريم (السفير): ص: 104.
الرنيسي البشير بن عبد الرحمان (شيخ طريقة): ص: 249.
الرهوني محمد (العالم): ص: 193.
الروداني محمد بن سليمان (العالم): ص: 352.
أبو رويس عبد الله (ولي صالح): ص: 269.
الرياحي إبراهيم أبو إسحاق (العالم): ص: 243-247-248-249-250-251-276-278.
الريفي: ص: 238.

(ز)

بن زاكور أحمد (العالم): ص: 352.
الزبيدي المرتضى (الفقيه): ص: 197-198-199.
الزداغي إبراهيم (قاضي): ص: 166-183.
الزروالي محمد بن عمر (العالم): ص: 349.
زروق أبو العباس أحمد بن أحمد الفاسي (الولي الصالح): ص: 230-268.
زروق محمد العربي (الوزير): ص: 280.
الزمراني (تاجر): ص: 204.
الزواوي ابن القاضي: ص: 8.
الزواري عبد الرحمن الرجم (زعيم طائفة): ص: 273-274.
الزوين محمد (قائد): ص: 98-109.
الزياني (المؤرخ): ص: 26-84-85-86-87-88-89-90-105-106-115-118-120-122-124-125-126-127-128-129-130-132-146-157-158-159-160-168-199-242-257-258-259-260-261-285-286-326-354.
ابن زيدان عبد الرحمان (مؤرخ): ص: 119-135-136.

بن زيدان النعيمي (زعيم منطقة): ص: 365.
بن زيد سعد الشريف (أمير مكة): ص: 136.
الزيزي (تاجر): ص: 204.

(س)

الساحلي محمد العربي (فقيه): ص: 165.
سارية بن العرياض (الصحابي): ص: 171.
سباستيانى (وزير): ص: 305.
السباعي مبارك (قنصل): ص: 238.
السجعي حميدة بن علي (نائب السلطان): ص: 295.
السرائري أحمد (العالم): ص: 347.
السراج ابن مليح: ص: 320.
سرفانتس (مؤرخ): ص: 34.
سعد الله أبو القاسم (مؤرخ): ص: 350.
السعدي حران (أمير): ص: 19.
السعدي الشيخ بن الغالب (أمير): ص: 43.
السعدي عبد الله (الأمير): ص: 21.
السعدي عبد المؤمن (أمير): ص: 30-32-33-34-38-40-41-42-43-50-114.
السعدي عبد الملك (الملك): ص: 33-34-35-36-37-38-40-40.
السعدي أبو محمد الغالب (الأمير): ص: 29-30-32-33.
السعدي المتوكل محمد (أمير): ص: 33-34-35-36-37.
السعدي المهدي محمد الشيخ (الملك السعدي): ص: 18-19-21-23-24-25-28.
السعدي الناصر بن الغالب (أمير): ص: 43.
السعدي المنصور أحمد (الملك): ص: 33-34-38-39-40-41-42-43-50-114.
ابن سعود عبد الله (أمير): ص: 154-155-156-157-158-159-160-161-162-163-164-166-251.
السقاط نور الدين المصري (العالم): ص: 199.
السكري الجيلاني بن أحمد (الفقيه): ص: 183.

- السللاوي محمد الطاهر مير (مفتي): ص: 249.
- السليمانى أبو العباس أحمد بن عبد الكريم "الغنيمة" (العالم): ص: 359.
- السنوسي أحمد (العالم): ص: 346.
- ابن السنوسي أحمد بن الشريف (شيخ طريقة): ص: 350-351.
- السوداني حسن (البناء): ص: 216.
- ابن سودة أحمد (العالم): ص: 144.
- ابن سودة أحمد بن طالب (فقيه): ص: 279.
- ابن سودة التاودي (العالم): ص: 201-202-203.
- ابن سودة المهدي بن طالب (القاضي): ص: 144.
- السوسي محمد ابن سعيد (العالم): ص: 347.
- سومبيل اليهودي (كاتب): ص: 286.
- السويكت محمد (مؤرخ): ص: 30-31.
- السيدة حفصة (ابنة سيف النصر): ص: 215.
- سيف النصر (زعيم قبيلة): ص: 215-216.

(ش)

- الشاطبي إبراهيم بن موسى (العالم): ص: 169.
- شارف بن عبد الله تكوك (متصوف): ص: 357.
- الشافعي (الإمام صاحب المذهب): ص: 133-151.
- شايب عينو قدور (رايس): ص: 109.
- شحاتة حسن مؤرخ: ص: 81.
- الشرفي الحاج عبد الله (السفير): ص: 88.
- الشرقي ابن الطيب (العالم): ص: 112-199-227-228-229-230-263-323-352-353-354.
- الشرقي محمد (فقيه): ص: 279.
- الشريف أبو البركات (أمير مكة): ص: 4.
- الشريف سرور (أمير مكة): ص: 141-142-154.
- الشريف عبد المعين (أمير مكة): ص: 139.

ابن شقرون (تاجر): ص: 205.
بن شكر محمد (ثائر): ص: 244-245.
بوشنافه محمد بن معروف (متصوف): ص: 362.
شيداو فارس (نصراني): ص: 93.
الشيرابي الحاج عبد الله (السفير): ص: 106.
الشيرابي محمد الدادة (تاجر): ص: 206.

(ص)

الصابونجي علي (رايس): ص: 109.
بن صادق عمر الششتي (فقيه): ص: 249.
الصفدي مصطفى (العالم): ص: 126.
بن الصغير خالد (مؤرخ): ص: 292.
بن الصفيين أبو العباس أحمد (الفقيه): ص: 229.
الصنهاجي محمد بن سعيد بن حماد بن عبد الله (العالم): ص: 192.

(ض)

ابن أبي الضياف أحمد (مؤرخ): ص: 241 - 242 - 256 - 277 - 278.

(ط)

بن طالب عبد الكريم (تاجر): ص: 317 - 325 - 338.
الطبايلي عبد الحفيظ (مؤرخ): ص: 72 - 73 - 78.
طحطح خالد (مؤرخ): ص: 32 - 46.
الطرنباطي (مؤرخ): ص: 153.
طوريس ديكو (المؤرخ): ص: 21 - 22.
الطهطاوي رفاعة (الرحالة): ص: 201.
بن الطيب محمد أبو عبد الله (فقيه): ص: 353.
بن الطيب محمد عبد الحفيظ (متصوف): ص: 353.

(ع)

- بن العاص عمرو (الصحابي): ص: 211.
- ابن العامري (قائد): ص: 294.
- عبد الرحمان (صاحب كرزاز): ص: 292.
- بن عبد الرحمان حمدون (العالم): ص: 349.
- العبدري (الرحالة): ص: 264.
- عبد السلام الحاج (السفير): ص: 175-176.
- بن عبد السلام الطاهر بن علي (أديب): ص: 103.
- ابن عبد الله (تاجر): ص: 204.
- بنعبد الله عبد العزيز (مؤرخ): ص: 365.
- بن عبد المؤمن محمد الشريف (العالم): ص: 352.
- بن عبد المالك محمد (السفير): ص: 96-97-235.
- عبد المجيد (السلطان): ص: 92-93.
- بن عبد الوهاب محمد (صاحب الدعوة): ص: 146-156-157-165-167.
- بن عبيد محمد (قاضي): ص: 268.
- عثمان باشا: ص: 49-50-285-297-299.
- العراقي إدريس بن زيان (العالم): ص: 349.
- ابن العربي أبي بكر (العالم): ص: 121.
- ابن عرفة (الفقيه): ص: 271.
- عروج: ص: 10-12-17-18.
- العريضي أحمد الصقلي (العالم): ص: 200.
- عزيز سامح (مؤرخ): ص: 60-76.
- ابن عطاء (الفقيه): ص: 276.
- ابن العطار محمد بن الحسين (العالم): ص: 200.
- بن عطية أبو الطويل العربي الونشريسي (متصوف): ص: 362.
- العلج (تاجر): ص: 204.
- علج علي: ص: 13-39.
- العلمي الفاسي ابن الطيب (العالم): ص: 199.

العلوي أحمد ابن إسماعيل (أمير): ص: 62.
 العلوي إبراهيم ابن عبد الرحمان بن هشام (أمير): ص: 144-145.
 العلوي إبراهيم ابن سليمان (أمير): 158-165-166-183-184.
 العلوي ابن إدريس عبد الملك (السفير): ص: 141.
 العلوي إسماعيل الشريف (الملك): ص: 45-46-54-55-56-57-58-59-60-61.
 62-138-173-208-212-240-245-282-292-314.
 العلوي الرشيد الشريف (الأمير): ص: 45-53-54-138-346.
 العلوي سليمان (ملك): ص: 65-66-83-90-98-100-124-144-153-155.
 156-157-158-163-165-167-168-169-173-176-177-179-180.
 181-184-185-193-194-204-216-217-223-224-225-226-238.
 244-246-247-248-249-250-251-253-257-261-289-290-293.
 315-317-344-345-349-350-354-356-363-364-365.
 العلوي عبد الرحمان هشام (ملك): ص: 92-144-289-293-294-295-303-305.
 306-307-318-360.
 العلوي عبد السلام ابن سليمان (أمير): ص: 217.
 العلوي عبد السلام ابن محمد الثالث (أمير): ص: 140-142-143.
 العلوي عبد الله ابن إسماعيل (الملك) ك: ص: 62-70-71-76-140-143-193.
 العلوي عبد الله جعفر ابن عبد الرحمان بن هشام (أمير): ص: 144-145.
 العلوي عبد الملك ابن إسماعيل (أمير): ص: 58-62.
 العلوي علي (أمير): ص: 140.
 العلوي علي (أمير ابن عم السلطان عبد الرحمان): ص: 308.
 العلوي علي ابن سليمان (أمير): ص: 144.
 العلوي علي ابن عبد الرحمان بن هشام (أمير): ص: 144.
 العلوي علي ابن محمد الثالث (أمير): ص: 173.
 العلوي عمر ابن سليمان (أمير): ص: 144.
 العلوي محرز أحمد (أمير): ص: 56.
 العلوي محمد الشريف (الملك): ص: 45-46-47-48-49-51-52.
 العلوي محمد بن عبد الرحمان بن هشام (أمير): ص: 255.
 العلوي محمد بن عبد الله الثالث (ملك): ص: 66-69-71-72-73-74-75-76-78.
 79-81-85-86-87-89-90-91-95-96-97-98-99-103-104-105.
 106-107-108-109-115-116-119-120-123-125-127-130-132.
 138-140-141-143-144-145-146-147-148-149-150-152-153.
 154-155-158-161-173-178-184-195-196-197-198-202-208.

209 - 213 - 214 - 215 - 222 - 223 - 233 - 234 - 240 - 241 - 249 - 253 - 257
258 - 269 - 282 - 283 - 284 - 285 - 286 - 287 - 288 - 289 - 296 - 298 - 300
301 - 303 - 314 - 317 - 344.

العلوي مسلمة بن محمد الثالث (أمير): ص: 183 - 242 - 243 - 244 - 292.

العلوي المعتصم بن محمد الثالث (أمير): ص: 212.

العلوي هشام بن محمد الثالث (أمير): ص: 293.

العلوي يزيد بن محمد (أمير): ص: 81 - 241.

العلوية لالة حبيبة (أميرة): ص: 140.

العلوية لالة لبابة (أميرة): ص: 140.

بن علي أحمد بن الحسن أبي العباس (طالب علم): ص: 271.

بن علي أرزين الشريف (شاعر): ص: 193.

بن علي صالح أحمد (فقيه): ص: 269.

بن عليل يهودا (قنصل): ص: 305.

عمارة عبد الرحمان (متصوف): ص: 231.

عمر (الوزير): ص: 141.

أبي عنان فارس (ملك): ص: 84.

العنقي محمد (رايس): ص: 109.

العوني عبد الكريم (السفير): ص: 89 - 90.

العايشي (مجاهد): ص: 53.

العايشي أبي سالم: (الرحالة): ص: 122 - 227 - 320 - 332 - 351.

العيساوي الحاج محمد (وكيل): ص: 238.

بن عيسى عبد الصادق (فقيه): ص: 268.

(غ)

ابن غالب أحمد (شريف من مكة): ص: 137.

الغاشي مصطفى (مؤرخ): ص: 123.

الغراري محمد (العالم): ص: 114.

الغزال أحمد (السفير): ص: 240 - 296 - 297 - 298 - 299.

الغزالي أبي حامد (المتصوف): ص: 153 - 197.

الغندوسي محمد بن أبي زيان (العالم): ص: 199.

غيلان الخضر: ص: 47- 53- 54- 56.

(ق)

القادري أحمد بن عبد القادر (العالم): ص: 199.

القادري أبو العباس أحمد بن عبد القادر (الرحالة): ص: 212- 213- 268.

ابن القاضي (ابن العافية) (العالم): ص: 84.

القانوني سليمان (السلطان): ص: 19- 24- 25- 27- 27- 31- 32- 128- 129.

القباب عبد السلام (العالم): ص: 348.

قدورة سعيد بن براهيم (العالم): ص: 352.

قدورة سعيد بن محمد (العالم): ص: 352.

قدوري عبد المجيد (مؤرخ): ص: 34.

القديس يوحنا: ص: 8- 13.

القرافي (الفقيه): ص: 271.

القرطبي (العالم): ص: 200.

القرمانلي علي الباشا (باي): ص: 234- 239.

القرمانلي مصطفى (باي): ص: 236.

القرمانلي يوسف باشا (الباي): ص: 216- 217- 220- 319.

قرنفل حسن (مؤرخ): ص: 355.

القسنطي محمد (منجم): ص: 348.

بن القسنطيني هاشم (فقيه): ص: 359.

القصري: ص: 243.

القصري حسونة (فقيه): ص: 275- 276.

أبي القطف الحاج عبد الرحمان (فقيه): ص: 268.

القلعي سالم (الولي الصالح): ص: 230.

القلقجي عمر (قائد): ص: 188- 191.

القيرواني ابن أبي زيد (الفقيه): ص: 150.

القيسي عبد الوهاب (الولي الصالح): ص: 212.

(ف)

- الفاسي أبو عبد الله محمد (فقيه): ص: 276-277.
- الفاسي عبد القادر (العالم): ص: 348.
- الفاسي قصارة (التاجر): ص: 139.
- الفاسي محمد (العالم): ص: 276-277.
- الفاسي محمد (مؤرخ): ص: 119.
- بن فتيح بدوي (متصوف): ص: 192.
- الفجيجي عبد الرحمان (فقيه): ص: 353.
- الفجيجي إسماعيل (طالب علم): ص: 353.
- الفشتالي عبد العزيز محمد بن علي (مؤرخ): ص: 27-114.
- ابن فرحون (الفقيه): ص: 271.
- الفرجاني الشريف (الفقيه): ص: 212.
- فنيش الطاهر (السفير): ص: 95-96-97-99-106-118-214-221.
- فنيش عبد العزيز (السفير): 96.
- فلوريش المعطي (رايس): ص: 183.
- فليب لويس (ملك): ص: 295-306.

(ك)

- بوكابوس (باي وهران): ص: 363.
- كاربخال مارمول (مؤرخ): ص: 326-331.
- الكتاني محمد بن جعفر (متصوف): ص: 162.
- الكبير محمد (باي): ص: 242-244-290.
- الكردي محمود (متصوف): ص: 199.
- كست أبو العباس أحمد (الإمام الخطيب): ص: 229.
- كسوس (تاجر): ص: 204.
- كلوزيل (الجنرال): ص: 306-327.
- بن كنانة فهر بن مالك بن النضر: ص: 26.

- كنون عبد الله (مؤرخ): 152.
- كنون محمد بن المدني (فقيه): ص: 340.
- كولونيو (رحالة) : ص: 332-333.
- كوهن محمد اليهودي (تاجر): 340.
- بن كيداد أبو زيد مخلد (زعيم طائفة): ص: 273-274.
- ابن كيران (العالم): 249.
- بن كيران الطيب (متصوف): ص: 162.
- بن كيران العباس أبي الفضل (قاضي): ص: 165.
- الكيراني الطيب (العالم): ص: 349.
- كبيط (قنصل): 180-181.

(ل)

- لحلو (تاجر): ص: 204.
- لحلو محمد بن قاسم (وكيل تجاري): ص: 204.
- لوي دوشيني (قنصل): ص: 325.
- الليثي يحيى بن يحيى (العالم): ص: 347.

(م)

- ماترا (القنصل): ص: 325.
- الماكودي أبو العباس أحمد الفاسي (فقيه): ص: 278.
- المانجلاتي عمر (العالم): ص: 352.
- بن المؤدب الشاذلي (فقيه): ص: 278.
- مؤنس حسين (مؤرخ): 20-29-290.
- المتقي (العالم): ص: 202.
- المتوكل على الله محمد (ال خليفة العباسي): ص: 3.
- المتوكل محمد (الحاكم المغربي): ص: 33.
- المجنوب سيدي سعيد (طالب علم): ص: 269.

- المجنوب عبد الله (ولي صالح): ص: 269.
- أبو المحاسن يوسف صاحب الطابع): ص: 246 - 276 - 280.
- بن المحجوب عمر (قاضي): ص: 247.
- المحبي (مؤرخ): ص: 42.
- بن محمد الحاج المعطي (قائد): ص: 294.
- أبو محمد العربي بن محمد الشريف (قائد): 294.
- بن محي الدين عبد القادر: ص: 308 - 309 - 339 - 340.
- بن محي الدين محمد السعيد (فقيه): ص: 351.
- المخزومي عبد الله بن أحمد (مقدم طريقة): ص: 232.
- بن مخريق (زعيم قبيلة): ص: 236 - 237.
- المدني يوسف (السفير): ص: 93.
- المرادي (مؤرخ): ص: 112.
- المراكشي عبد السلام (تاجر): ص: 204 - 205.
- مروان أبو محمد عبد العزيز (الفقيه): ص: 229.
- بن مروان عمر بن عبد العزيز (السلطان): ص: 168.
- مرين (قس): ص: 43.
- المريني عبد الحق (الملك): ص: 17.
- المزطاري محمد (متصوف): ص: 112.
- المزغناوي محمد بن عبد العالي الحضري (فقيه): ص: 49.
- المزميزي (رايس): ص: 183.
- المشاط سالم (الولي الصالح): ص: 212.
- المشرفي محمد (المؤرخ): ص: 357.
- المشير محمد باشا (والي): ص: 175.
- بن مشيش عبد السلام (المتصوف): ص: 142.
- المس توليلي (رحالة أوربي): ص: 215.
- مسلم (راوي الحديث): ص: 347.
- المعداني محمد بن عامر (العالم): ص: 349.
- المغافرية خنائة بنت بكار (الأميرة): ص: 138 - 139 - 140 - 208 - 210.

- المغربي أبي القاسم (شيخ رواق المغاربة): ص: 190.
- المغربي محمد بن محمد الحسيني الشهير بالبليدي (العالم): ص: 112.
- مقديش: (العالم): ص: 278.
- أبي المقرع (العالم): ص: 347.
- المقرون علي حسن (ضابط): ص: 254.
- المقري (العالم): ص: 122-357.
- المقري الحاج (الوزير): ص: 357.
- بن مقيل أبو عبد الله محمد (الفقيه): ص: 229.
- بن مقيل محمد (أديب): ص: 212.
- المكناسي ابن عثمان (السفير): ص: 84-118-120-129-141-300.
- المكنسي أبو عبد الله محمد (الفقيه): ص: 229.
- مكوار (تاجر): ص: 204.
- مكوار محمد (تاجر): ص: 339.
- المكي محمد بن أحمد (مفتي): ص: 231.
- ملوك محمد بن محمد (متصوف): ص: 357.
- المناعي محمد بن سليمان (فقيه): ص: 280.
- المنداسي سعيد (العالم): ص: 346.
- المنجري عبد الرحمان بن أحمد (العالم): ص: 348.
- بن منصور محمد (العالم): ص: 350.
- المنصور محمد (مؤرخ): ص: 291.
- بن منصور محمد بن محمد (فقيه): ص: 268.
- المنوني محمد (مؤرخ): ص: 217.
- المهاجي محمد بن الخضر (متصوف): ص: 357.
- مهاوش أبي بكر (متصوف): ص: 162.
- الموحدي المنصور أبو يعقوب يوسف (ملك): ص: 152.
- مولاي اسماعيلي (مؤرخ): ص: 292.

الميلي (عالم): ص: 162 - 163.
ابن ميمون علي المغربي (العالم): ص: 113.

(ن)

الناصرى (المؤرخ): ص: 20 - 24 - 51 - 69 - 105 - 120 - 144 - 146 - 156 - 157 - 165 - 166 - 169 - 290 - 356.
بن ناصر أحمد (شيخ طريقة): ص: 231 - 264.
الناصرى أبى راس (العالم): ص: 291 - 350 - 351.
الناصرى أحمد بن عبد السلام (الرحالة): ص: 216 - 261 - 262 - 263 - 264 - 265 - 268 - 354.
النجمى أحمد بن منصور (فقيه): ص: 268.
النفزى عبد الله بن عبد الله الغفار (فقيه): ص: 49.
النفس الزكية محمد بن الحسين: ص: 136.
النيفر محمد الأكبر (الفقيه): ص: 279.
النورى علي (متصوف): ص: 264.

(هـ)

هاى ديريموند (قنصل): ص: 338.
أبو هلال (صاحب الزيانى): ص: 261.
الهلالى محمد تقي الدين (مؤرخ): ص: 157 - 158.
بن هماد مبارك (السفير): ص: 88 - 106.
الهوزالى أبو العباس بن يحيى (العالم): ص: 114.
هولاكو (ملك التتار): ص: 3.

(و)

واشنطن جورج (الرئيس الأمريكى): ص: 222.
الورزازى محمد بن أحمد بن عبد الله (العالم): ص: 199.
الورزىزى (العالم): ص: 347.

الوزان الحسن: ص: 15-18-322-327-335.
 الوزاني مولاي أحمد بن المهدي بن الطيب الشريف الحسيني (شيخ طريقة): ص: 233.
 الوزاني مولاي الطيب عبد الله الشريف (شيخ طريقة): ص: 232.
 الوطاسي أبو حسون (الملك): ص: 19-20-21-23-28.
 الوفرائي (المؤرخ): ص: 29.
 الولتيتي أحمد (قائد): ص: 140.

(ي)

اليحمدي أبو الحسن علي (كاتب): ص: 238.
 أبي يعقوب يوسف بن محمد بن ناصر (متصوف): ص: 269.
 ينيش (بارون): ص: 97.

فهرس الأماكن

(أ)

آسفي: ص: 15.
 آسيا: ص: 1.
 آسيا الصغرى: ص: 110.
 آغاداس: ص: 313.
 أبنود (بمصر): ص: 188.
 الأبيض سيدي الشيخ: ص: 319.
 أدرار: ص: 332-333.
 أدقاش: ص: 269.
 أرزيو: ص: 319-322.
 أزميز: ص: 86-117-259.
 إسبانيا: ص: 8-11-40-41-43-60-71-82-88-98-99-108-119-120-176-180-181-184-214-234-257-286-287-288-296-297-298-299-300-301-303.
 إسطنبول: ص: 29-30-34-38-42-43-54-58-59-60-70-73-76-77-80-85-86-87-88-89-90-91-98-99-100-101-103-104-105-106-107-109-110-111-113-114-115-116-117-119-120-122.

123-124-125-126-127-128-129-130-131-132-133-139-141-142-164-257-259-285-301-324-354.
الإسكدار: ص: 131.
الإسكندرية: ص: 82-183.
أصيلا: ص: 37-40.
الأغواط: ص: 48-58-364-365.
إفريقيا: ص: 1-324.
أكابلي: ص: 319-331.
الأناضول: ص: 113-114-130.
إنجلترا: ص: 41-59-87-102-117-176-179-180-182-222-300-339-360.
الأندلس: ص: 6-7-8-10-11-116-163-172-193-257-344-350.
أم دربينة: ص: 319.
إمارة كوكو: ص: 9.
أمريكا: ص: 221-222-225-335.
أوربا: ص: 1-16-17-22-64-98-102-335-336.
إيسلي: ص: 295.
إيغلي: ص: 319.

(ب)

باتنة: ص: 320.
الباردو: ص: 241.
باريس: ص: 108-119-201-225.
بئر تيريشومين: ص: 319.
بجاية: ص: 8-11-12-322-324.
البحر الأحمر: ص: 5.
البحر الأسود: ص: 252.
البرج: ص: 323.
برقة: ص: 229-230-231.
البريدة: ص: 156.
بسكرة: ص: 314-320-321.
البصرة: ص: 4.
بغداد: ص: 3-11.
بلاد الجريد: ص: 232.

البلاد العربية: ص: 1-2
بلاد الهبط: ص: 47.
البلنسيان: ص: 235.
البلدية: ص: 319-358-364.
البندقية: ص: 253.
بني عباس (قلعة): ص: 10.
بني مازيغ: ص: 233.
بني وازين: ص: 233.
البيوض: ص: 320.
بني وليد: ص: 233.
بورصة: ص: 110-111-113-117-131.
بوسطن: 225.
بولونيا: ص: 98.

(ت)

تابحریت: ص: 330.
تابريدا: ص: 329.
تاجوراء: ص: 230.
تارنانا: ص: 330.
تارودانت: ص: 29-313-319-352.
تازا: ص: 52-56-337. 316-322-326-330.
تافرجنيت: 330.
تافيلالت: ص: 312-313-315-320-323-326-332-333-336.
تاونت: ص: 330.
تركيا: ص: 61-70-85-86-88-109-110-113-120-125-131-165.
التطري: ص: 12.
تطوان: ص: 54-56-91-105-303-304-305-306-313-317-320-322-324-325-328-338-346-347-349-350-352-355-356-358-359-360-362.
تلمسان: ص: 9-12-17-19-20-29-33-43-48-49-50-52-53-56-57-90-144-242-261-283-289-290-292-293-294-307-308-312-314-315-320-322-324-326-327-328-329-330-336-339-354-355-356-357-358-359-360-362-363-364.
تنس: ص: 12-322.

توات: ص: 43-292-313.
توزر: ص: 232-263-265-266-323.
توغرت: ص: 312-313-314-320-321-324.
تومبوكتو: ص: 312-319.
تونس: ص: 5-7-8-13-22-32-34-41-57-60-62-78-89-90-98-108-156-157-158-159-160-162-165-183-185-221-222-223-232-240-241-242-343-244-245-246-247-249-250-251-252-253-254-255-256-257-258-259-260-261-262-263-264-265-266-267-268-269-270-272-274-275-276-277-278-279-280-288-317-320-321-336-344-347-348-349-354.
تيدكلت: ص: 331-332-333.

(ج)

جالديران: ص: 6.
جبل طارق: ص: 82-92-97-98-100-177-182-183-184-225-226-287-297-303-305-325-339.
جدة: ص: 5.
الجديدة (مدينة): ص: 40.
جراوة: ص: 330.
جربة: 272-273.
الجزيرة العربية: ص: 13-155-156-157.
الجنوب الشرقي للمغرب: ص: 292-323-330.
جيغل: 12-17.

(ح)

حامة مطماطة: ص: 232-265-267-269.
الحجاز: ص: 4-5-138-202-209-241-261-268-351-352.
حجرة بادس: ص: 23-29-81.
الحرمين الشريفين: ص: 4-5-70-75-123-140-141-144-157-158-159-166-344.
حصن الصخرة (البنيون): ص: 12.
الحطيم: ص: 135.
حلب: ص: 111-131.
حلق الوادي: ص: 242-243-260.

الحوض الغربي للمتوسط: ص: 5- 8- 10- 11.

(خ)

الخليل: ص: 121- 122- 123.
خندق الريحان (معركة): ص: 35.
الخيثر: ص: 319.

(د)

الدانمارك: ص: 235-338.
درعة: ص: 51.
دلس: ص: 11.
دمشق: ص: 92- 111- 112.
دمنهور: ص: 188-189.
دوبرونيك: ص: 104-214-224.
الدولة الصفوية: ص: 3.
الدولة المملوكية: ص: 3.

(ر)

الرباط: ص: 31- 91- 105- 119- 175- 185- 249- 306- 364.
الركن أو الروكان (معركة): 35.
روسيا: ص: 80- 95- 96- 98- 100- 101- 105- 108- 109- 176.
الروميلي: ص:
الرياض: ص: 156.
الريدانية: ص: 6.
الريف المغربي: ص: 47.

(ز)

الزاب: ص: 8.
زليطن: 217.
الزيبان: ص: 320.

(س)

الساحل الإفريقي: ص: 312.
الساقية الحمراء ص: 270.
سانت كلود (قصر): ص: 179.

الساورة (الوادي): ص: 292.
سبتة: ص: 81-88-89-184-285-287-288-297-350.
سجلماسة: ص: 51-52-244-312-323-312-315-326-329-330.
سرت: ص: 215-231-258.
السعودية: ص: 157-158.
سلا: ص: 54-103-105-109-185-219-249-259-325-364.
سمجون أو سمغون: ص: 58-323-364-365.
السودان: ص: 85-311-312-313-314-316-317-318-321-323-324-325-332-335.
السودان الأوسط: ص: 311.
السودان الشرقي: ص: 311.
السودان الغربي: ص: 311-313-316-325.
السوس الأقصى: ص: 23-32-47-56-114-270.
سوسة: ص: 240-252.
سوق البلاط: ص: 244-276.
سيدي خالد: ص: 323.
سيدي عقبة: ص: 323.
سيقز (جزيرة): ص: 61.

(ش)

الشام: ص: 11-78-118-131-141-156-157-165-187-194.
شبه جزيرة أيبيريا: ص: 22-27-43.
شرشال: ص: 11-60-322.
الشلالة: ص: 365.
شلف (النهر): ص: 19-56.
شمال إفريقيا: ص: 5-6-7-8-10-11-13-16-17-18-27-101-221-302-324-335.
الشهبا: ص: 330.
الشيشمة (مرسى): ص: 86.

(ص)

صفاقس: ص: 252-264.
الصقليتين: ص: 214.
صنغاي: ص: 313.

(ط)

طرابلس الغرب: ص: 5- 8- 13- 22- 41- 183- 212- 224- 226- 232- 239- 253- 263- 319.
طرابلس الشرق: 111.
طنجة: ص: 35- 36- 90- 117- 144- 181- 183- 225- 295- 297- 303- 305- 321- 328- 338- 349.

(ع)

العرائش: ص: 40- 41- 105- 108- 183- 185- 216- 258- 259- 303- 304- 328.
عشما (قرية بمصر): ص: 191.
عكا: ص: 187.
عنابة: ص: 322- 359.
عين صالح: ص: 319- 320.
عين الصفراء: ص: 58.
عين ماضي: ص: 48- 58- 322- 323.

(غ)

غات : ص: 312.
بن غازي : ص: 213- 230.
الغاسول: ص: 48- 323.
غدامس: ص: 312- 320- 323.
الغرب الجزائري: ص: 285- 293- 358- 363.
غرداية: ص: 319.
غريان: ص: 236.
الغزوات: ص: 321.

(ف)

فاس القديمة: ص: 21.
فرنسا: ص: 60- 87- 88- 101- 107- 102- 113- 118- 176- 177- 178- 179- 180- 181- 182- 183- 184- 221- 234- 240- 252- 282- 288- 293- 358- 359- 360- 363- 365- 366- 367- 368- 369- 370- 371- 372- 373- 374- 375- 376- 377- 378- 379- 380- 381- 382- 383- 384- 385- 386- 387- 388- 389- 390- 391- 392- 393- 394- 395- 396- 397- 398- 399- 400- 401- 402- 403- 404- 405- 406- 407- 408- 409- 410- 411- 412- 413- 414- 415- 416- 417- 418- 419- 420- 421- 422- 423- 424- 425- 426- 427- 428- 429- 430- 431- 432- 433- 434- 435- 436- 437- 438- 439- 440- 441- 442- 443- 444- 445- 446- 447- 448- 449- 450- 451- 452- 453- 454- 455- 456- 457- 458- 459- 460- 461- 462- 463- 464- 465- 466- 467- 468- 469- 470- 471- 472- 473- 474- 475- 476- 477- 478- 479- 480- 481- 482- 483- 484- 485- 486- 487- 488- 489- 490- 491- 492- 493- 494- 495- 496- 497- 498- 499- 500- 501- 502- 503- 504- 505- 506- 507- 508- 509- 510- 511- 512- 513- 514- 515- 516- 517- 518- 519- 520- 521- 522- 523- 524- 525- 526- 527- 528- 529- 530- 531- 532- 533- 534- 535- 536- 537- 538- 539- 540- 541- 542- 543- 544- 545- 546- 547- 548- 549- 550- 551- 552- 553- 554- 555- 556- 557- 558- 559- 560- 561- 562- 563- 564- 565- 566- 567- 568- 569- 570- 571- 572- 573- 574- 575- 576- 577- 578- 579- 580- 581- 582- 583- 584- 585- 586- 587- 588- 589- 590- 591- 592- 593- 594- 595- 596- 597- 598- 599- 600- 601- 602- 603- 604- 605- 606- 607- 608- 609- 610- 611- 612- 613- 614- 615- 616- 617- 618- 619- 620- 621- 622- 623- 624- 625- 626- 627- 628- 629- 630- 631- 632- 633- 634- 635- 636- 637- 638- 639- 640- 641- 642- 643- 644- 645- 646- 647- 648- 649- 650- 651- 652- 653- 654- 655- 656- 657- 658- 659- 660- 661- 662- 663- 664- 665- 666- 667- 668- 669- 670- 671- 672- 673- 674- 675- 676- 677- 678- 679- 680- 681- 682- 683- 684- 685- 686- 687- 688- 689- 690- 691- 692- 693- 694- 695- 696- 697- 698- 699- 700- 701- 702- 703- 704- 705- 706- 707- 708- 709- 710- 711- 712- 713- 714- 715- 716- 717- 718- 719- 720- 721- 722- 723- 724- 725- 726- 727- 728- 729- 730- 731- 732- 733- 734- 735- 736- 737- 738- 739- 740- 741- 742- 743- 744- 745- 746- 747- 748- 749- 750- 751- 752- 753- 754- 755- 756- 757- 758- 759- 760- 761- 762- 763- 764- 765- 766- 767- 768- 769- 770- 771- 772- 773- 774- 775- 776- 777- 778- 779- 780- 781- 782- 783- 784- 785- 786- 787- 788- 789- 790- 791- 792- 793- 794- 795- 796- 797- 798- 799- 800- 801- 802- 803- 804- 805- 806- 807- 808- 809- 810- 811- 812- 813- 814- 815- 816- 817- 818- 819- 820- 821- 822- 823- 824- 825- 826- 827- 828- 829- 830- 831- 832- 833- 834- 835- 836- 837- 838- 839- 840- 841- 842- 843- 844- 845- 846- 847- 848- 849- 850- 851- 852- 853- 854- 855- 856- 857- 858- 859- 860- 861- 862- 863- 864- 865- 866- 867- 868- 869- 870- 871- 872- 873- 874- 875- 876- 877- 878- 879- 880- 881- 882- 883- 884- 885- 886- 887- 888- 889- 890- 891- 892- 893- 894- 895- 896- 897- 898- 899- 900- 901- 902- 903- 904- 905- 906- 907- 908- 909- 910- 911- 912- 913- 914- 915- 916- 917- 918- 919- 920- 921- 922- 923- 924- 925- 926- 927- 928- 929- 930- 931- 932- 933- 934- 935- 936- 937- 938- 939- 940- 941- 942- 943- 944- 945- 946- 947- 948- 949- 950- 951- 952- 953- 954- 955- 956- 957- 958- 959- 960- 961- 962- 963- 964- 965- 966- 967- 968- 969- 970- 971- 972- 973- 974- 975- 976- 977- 978- 979- 980- 981- 982- 983- 984- 985- 986- 987- 988- 989- 990- 991- 992- 993- 994- 995- 996- 997- 998- 999- 1000.
فكيك: ص: 43- 289- 312- 313- 315- 316- 319- 320- 326- 363- 365.

الفلامنك: ص: 235.

(ق)

قابس: 263-266-269-270.
القاهرة: ص: 4-111-173-177-188-189-200-204-205.
القدس: ص: 194.
القسطنطينية: ص: 17-123.
قسطنطينية: ص: 8-245-258-261-320-322-323-354-359.
القصر الكبير: ص: 37.
قصر كتامة: ص: 37.
القلعة: ص: 319.
القيروان: ص: 150-269.

(ك)

كرزاز: ص: 292.
كورارة: ص: 289-292-312-316-332-333-334-363-365.
الكلال (بالمغرب): ص: 29.
الكوفة: ص: 4.
كوم أبي الريش (بمصر): ص: 189.

(ل)

لوگس (نهر): ص: 40.
الليبانة (معركة): ص: 33-34.

(م)

مازونة: ص: 322.
مالطة: ص: 80-92-104-119-190.
مالقة: ص: 235.
مالي: ص: 319.
متليلي: ص: 321.
متيجة: ص: 359.
المدية: ص: 294.
مدريد: ص: 298.
المدينة: ص: 4-145-164-194.

مدينة الجزائر: ص: 6-9-12-17-282-283-293-294-306-307-316-318-319-324-325.
مراكش: ص: 15-20-32-35-44-46-56-62-124-215-236-251-319.
مرج دابق: ص: 6.
مرسيليا: ص: 260.
مستغانم: ص: 358-364.
مسراتة: 229.
المشرق العربي: ص: 6-145.
مشربة: ص: 319-323.
مصر: ص: 3-4-13-24-25-78-82-99-100-115-118-131-141-143-156-157-158-162-163-165-172-173-174-175-176-177-178-179-181-182-185-186-187-188-189-191-193-194-195-196-197-198-199-200-201-202-204-205-206-227-242-245-254-262-263-349.

مصر العليا: ص: 187.
معسكر: ص: 48-294-308-322-349-351-357-358-362-365.
المغرب الإسلامي: ص: 2-6-7-8-10.
مكة: ص: 4-5-76-79-82-97-125-130-135-138-139-140-141-142-144-154-155-175-186-194-3010.
مكناس: ص: 23-118-120-124-143-144-216-279-309-313-319-337-346-347.
مليانة: ص: 294.
مليلة: ص: 88-184-285-287-288-350.
منوبة: ص: 241.

(ن)

نابولي: ص: 99-119-300.
ندرومة: ص: 49-330.
النكور (جزيرة): ص: 88.
النمسا: ص: 60-76-94-95-96-97-98-101-109-127-223.

(هـ)

الهند: ص: 90-176.
هنين: ص: 322-326.

الهوسا: ص: 313.

هولاندا: ص: 117.

(و)

وادي تافنة: ص: 45-51-57-95-289-291-292-339-345.

وادي زوزفانة: ص: 319.

وادي سوف: ص: 320-324.

وادي غير: 319.

وادي اللبن: ص: 29.

وادي اللبن: ص: 29.

وادي المخازن (معركة): ص: 37-39.

وادي ملوية : ص: 12-289-329-330.

وادي ملوية : ص: 12-289-329-330.

وجدة: ص: 8-12-47-48-49-289-290-291-292-293-315-316-328-

329-330-331-337-354-363-365.

ورقلة: ص: 12-312-313-314-320-321-324.

الونشريس: ص: 12-362.

وهران: ص: 11-60-71-81-242-244-284-287-289-290-294-319-

322-328-342-349-350-352-354-356-357-358-360-363-364.

(ي)

اليمن: ص: 5-90-141.

الينبوع أو ينبع: ص: 139-145.

يوغسلافيا: ص: 214.

فهرس القبائل والجماعات والفرق والزوايا والمساجد

- آل سعود (حكام): ص: 151- 156 - 157.
الإباضية (فرقة): ص: 164-272.
الإخوة بربروس: ص: 10- 17.
الإسبان: ص: 2- 7- 8- 10- 23- 27- 29- 34- 38- 41- 47- 60- 68- 71- 181- 284- 287- 297- 298- 299- 350- 352.
أشراف مكة والمدينة: ص: 4- 5- 32- 139- 143- 154- 196- 215- 256.
الأشعرية (فرقة): ص: 147- 148- 153.
الإنكشارية: ص: 28- 36- 44- 49- 95.
أهل الحسينية (طائفة): ص: 189.
أولاد سيدي ناجي: ص: 353.
أولاد سيدي الناصر (عشيرة): ص: 231.
أولاد سليمان (قبيلة): 215.
البرتغاليين: ص: 2- 16- 23- 36- 37- 38- 312.
البرغليين (طائفة): ص: 253.
بنوزيان (ملوك): ص: 9.
بنو مرين (ملوك): ص: 8- 25- 122.
بني سليم (قبيلة): ص: 7.
بني عامر (قبيلة): ص: 358.
بني عثمان (السلطين الأتراك): ص: 26- 61.
بني مالك بن زغبة (قبيلة): ص: 48.
بني المعقل (قبيلة): ص: 48- 49.
بني هاشم (قبيلة): ص: 358.
بني هلال (قبيلة): ص: 7.
بني يزناسن (قبيلة): ص: 47- 48- 52- 290- 293- 311- 330.
بني يزيد بن زغبة: ص: 48.
دخيسة: ص: 48.
الدلائيين (مرابطين): ص: 46.
الجعافرة (قبيلة): ص: 48.
الحارث (قبيلة): ص: 48.
الحسينيين (البايات): ص: 62.
حصين (قبيلة): ص: 48.
الحفصيين (ملوك): ص: 8- 32.

حميان (قبيلة): ص: 48.
 الحنانشة (قبيلة): ص: 216.
 الخوارج (فرقة): 273.
 الرافضة: ص: 143.
 زمعة الأسدية (قبيلة): ص: 136.
 السادات الحمارنة (صلحاء): ص: 270.
 السعديين (السلطين): ص: 14-16-19-24-25-27-30-31-32-35-43-44-45-46-122-173-292-313-327.
 سويد (قبيلة): ص: 48.
 الشيعة (فرقة): ص: 274.
 الصفويين (حكام): ص: 1.
 الطوارق: ص: 313.
 العباسيين (الخلفاء): ص: 3.
 عبيد البخاري (جيش): ص: 55-56-58-66-109-144-195-209-355.
 العلويين (حكام المغرب): ص: 45-46-47-54-55-66-69-122-138-195-198-241-282-289-292-307-346.
 العمارنة (قبيلة): ص: 48.
 الغز (المماليك): ص: 186.
 القرمانليين (الأسرة الحاكمة): ص: 212-234-236-239-253.
 قريش (قبيلة): ص: 26-136.
 فرسان القديس يوحنا: ص: 8-13.
 المحاميد (قبيلة): ص: 236.
 المرابطين (أصحاب الدولة): ص: 121-147.
 مشيخة الجزائر: ص: 9.
 المعتزلة (فرقة): ص: 151-272.
 المغول: ص: 11.
 المماليك: ص: 2-186.
 المنبات (قبيلة): ص: 48.
 الموحدين (ملوك): ص: 7-8-121-147.
 النمامشة (قبيلة): ص: 245.
 هواره (قبيلة): ص: 186.
 الودايا (قبيلة): 216.
 الوهابية (دعوة): ص: 65-66-145-146-148-154-155-156-157-160-162-164-165-349.

فهرس الزوايا والفرق

- زاوية أمحمد بن ناصر : ص: 346.
- التجانية (طريقة): ص: 249 - 250 - 280 - 364 - 365.
- جلالة (طريقة): ص: 170.
- زاوية الحارث : ص: 270.
- زاوية أبي الحسن عزوز: ص: 244.
- الخلوتية (طريقة): ص: 199-200.
- الدلائية (زاوية): ص: 52.
- زاوية زريق البراني: ص: 270.
- الشاذلية (طريقة): ص: 112 - 249 - 361.
- الطبيبة (طريقة): ص: 232-233.
- زاوية عرام: ص: 270.
- عيساوة (طريقة): ص: 170.
- العيسوية (طريقة): ص: 192.
- الزاوية الغربية: ص: 274.
- القادرية (طريقة): ص: 531.
- زاوية أبي القاسم بن محمد بن عبد الله المجذوب: ص: 269.
- زاوية أبي لبابة : ص: 270.
- المالكية (زاوية): ص: 110.
- المهدوية (طريقة): ص: 188.
- الناصرية (الزاوية): ص: 154 - 227 - 230 - 231 - 232 - 263 - 264 - 265 - 268.
- 269 - 270 - 273 - 323.
- النقشبندية (طريقة): ص: 202.
- الوزانية (الزاوية): ص: 154 - 232 - 233.

فهرس الأسر

(أ)

آل البيت

(ب)

أسرة البارودي: ص: 357.

أسرة بلخدير: ص: 357.

أسرة بلقاضي: ص: 357.

عائلة أبو البلهوان: ص: 359.

أسرة بنونة: ص: 356.

أسرة البوزيدي: ص: 357.

(ث)

أسرة ابن ثابت: ص: 357.

(د)

عائلة ابن دباغ: ص: 359.

أسرة الداودي: ص: 357.

(ج)

عائلة ابن جعفر: ص: 359.

(ح)

عائلة الحرايقي: ص: 359.

أسرة ابن حربيط: ص: 357.

عائلة الحفاف: ص: 359.

(خ)

أسرة بوخروبة: ص: 357.

(ر)

عائلة الرايس: ص: 359.

(ز)

عائلة ابن زاكور: ص: 359.

أسرة الزعاري: ص: 357.

أسرة زمامة: ص: 356.

(س)

عائلة ابن سفاج: ص: 359.

أسرة السقاط: ص: 356.

(ش)

أسرة ابن شعبان: ص: 357.

أسرة ابن شكشكو: ص: 357.

(ص)

أسرة ابن صالح: ص: 357.

عائلة ابن صيام: ص: 359.

(ط)

عائلة ابن طالب: ص: 359.

أسرة بوطالب: ص: 357.

(ع)

عائلة ابن عبد البر: ص: 359.

أسرة ابن عبد الله: ص: 356.

أسرة ابن عتو: ص: 357. ص: 357.

أسرة ابن عثمان: ص: 357.

عائلة أبو عمامة: ص: 359.

عائلة العنابي: ص: 359.

أسرة ابن عودة: ص: 357.

(غ)

عائلة الغنمية: ص: 359.

(ف)

عائلة ابن فاضل: ص: 359.

(ق)

عائلة القسنطيني: ص: 359.

(ك)

أسرة ابن كمزو: ص: 357.

(ل)

أسرة اللبار: ص: 357.

(هـ)

الأسرة الهاشمية: ص: 5.

(م)

عائلة المتيجي: ص: 359.

عائلة المستغانمي: ص: 359.

أسرة المشرفي: ص: 356.

عائلة أبو معزة: ص: 359.

أسرة ابن مغنية: ص: 357.

أسرة المقرري: ص: 356.

أسرة المهندس: ص: 357.

(ي)

أسرة ابن يحي: ص: 357.

أسرة ابن يخلف: ص: 357.

أسرة ابن يشو: ص: 357.

عائلة ابن يونس: ص: 359.

فهرس المساجد

- الأزهر (الجامع): ص: 110-112 - 173 - 195 - 196 - 198 - 199 - 200 - 202 - 203 - 344.
- جامع الترك (جامع): ص: 228.
- مسجد خطاب (مسجد): ص: 211.
- الزيتونة (جامع): 249 - 258 - 259 - 275 - 276 - 277 - 280 - 344.
- السليمانية (مسجد والمدرسة): ص: 128 - 131 - 132.
- القرويين (الجامع): ص: 149 - 162 - 249 - 250 - 278 - 344 - 357 - 364.
- المستنصرية (مسجد ومدرسة): ص: 211.
- مسجد الناقة (مسجد): ص: 211.

فهرس المحتوى

العنوان:	الصفحة
المقدمة.....أ	
المدخل: 1.....	
I - العلاقات المغربية العثمانية من القرن 16م إلى منتصف القرن 18م.....1	
1- التوسع العثماني في شمال إفريقيا في القرن 10هـ/16م.....1	
2- العلاقات السعدية العثمانية.....15	
3- العلاقات العلوية العثمانية إلى منتصف القرن 12هـ/18م.....45	
 الفصل الأول: التقارب العثماني المغربي.....63	
I - على الصعيد السياسي والدبلوماسي: 69.....	
1- المراسلات والسفارات بين الباب العالي والمغرب: 70.....	
1.1 - المراسلات: 70.....	
- تنازع السيادة على العالم الإسلامي من خلال المراسلات.....71	
2.1 - السفارات: 83.....	
- سفراء مغاربة في إسطنبول.....84	
- سفراء أتراك في المغرب.....89	
2 - أثر الأحداث الإقليمية والدولية في العلاقات بين البلدين.....93	
1.2- موقف المغرب من صراع الدولة العثمانية مع روسيا والنمسا...94	
II - على صعيد التعاون الثنائي في المجال العسكري والثقافي: 102.....	
1 - التعاون العسكري: 102.....	
1.1-الخبرات والمساعدات العسكرية.....103	
2- التعاون الثقافي (البعثات العلمية والتبادل الثقافي والمعرفي): 110.....	
1.2- الامتداد الثقافي.....110	

2.2- نماذج من الرحلات المغربية إلى إسطنبول في القرن 12هـ/18م:....	118.....
- رحلة ابن عثمان المكناسي.....	118.....
- رحلة أبي القاسم الزياني.....	127.....
الفصل الثاني: علاقات المغرب مع إيالات المشرق	134.....
I - علاقات المغرب مع الحجاز:	135.....
1- صلات حكام المغرب العلويين بحكام الحجاز:	135.....
1.1- مع أمراء الحجاز أشراف مكة والمدينة.....	135.....
2- الوهابية في المغرب بين الاعتقاد والتطبيق:	145.....
1.2- السياسة الدينية للسلطان محمد بن عبد الله.....	145.....
3- الوهابية بصورة علنية في المغرب:	153.....
1.3- رسالة ابن سعود إلى المولى سليمان.....	156.....
2.3 - موقف المولى سليمان من الدعوة الوهابية:	165.....
- الوفاة المغربية إلى ابن سعود.....	165.....
- إجراءات عملية بعد الوفاة.....	167.....
II - علاقات المغرب مع إيالة مصر:	172.....
1- العلاقات السياسية والدبلوماسية:	173.....
1.1- المراسلات والسفارات.....	173.....
2- موقف المغرب من الحملة الفرنسية على مصر:	176.....
1.2- الموقف الرسمي المغربي.....	176.....
2.2- موقف المغاربة في مصر والمغرب من الحملة.....	185.....
3- التواصل الثقافي والعلمي بين القرويين والأزهر:	195.....
1.3 - الأزهر في خطة السلطان محمد بن عبد الله الإصلاحية.....	195.....
2.3 - نماذج لعلماء مغاربة في الأزهر.....	198.....

207.....	الفصل الثالث: علاقات المغرب مع إيالتي ليبيا وتونس
208.....	I - علاقات المغرب مع إيالة ليبيا:
208.....	1- العلاقات السياسية والدبلوماسية:
209.....	1.1- رحلة السلطان محمد بن عبد الله إلى ليبيا
215.....	2.1- مصاهرة ملوك المغرب لأمرأ طرابلس
221.....	3.1- موقف المغرب من الصراع الليبي الأمريكي
227.....	2 - ليبيا من خلال رحلات المغاربة:
227.....	1.2- رحلة ابن الطيب الشرقي
231.....	2.2- رحلات شيوخ الزاوية الناصرية
233.....	3- لمحة عن العلاقات التجارية بين البلدين
233.....	1.3 - المساعدات المغربية لليبيا
236.....	2.3- من المظاهر التجارية بين البلدين في قوافل الحج
240.....	II - علاقات المغرب مع إيالة تونس:
240.....	1- العلاقات السياسية والدبلوماسية:
240.....	1.1- لمحة تاريخية
241.....	2.1- أمرأ مغاربة في تونس
244.....	3.1- التضامن والتعاون السياسي بين المغرب وتونس
247.....	2- نماذج لسفارات وبعثات عسكرية من تونس في المغرب:
247.....	1.2- سفارة الشيخ الرياحي
254.....	2.2- البعثة العسكرية التونسية
257.....	3- تونس من خلال رحلات المغاربة:
257.....	1.3- رحلة أبو القاسم الزياني
262.....	2.3- الرحلة الناصرية لمحمد بن عبد السلام الناصري (1239هـ/1823م).
275.....	3.3- نماذج لعلماء مغاربة في تونس

281.....	الفصل الرابع: العلاقات المغربية الجزائرية
282.....	I - العلاقات السياسية:
283.....	1- مشكلة الحدود بين البلدين:
283.....	1.1- عهد السلطان محمد بن عبد الله
289.....	2.1- عهد السلطان سليمان
293.....	3.1- عهد السلطان عبد الرحمان بن هشام
296.....	2- قضية الأسرى:
297.....	1.2- سفارة أحمد الغزال
300.....	2.2- سفارة ابن عثمان المكناسي
303.....	3- موقف المغرب من احتلال فرنسا للجزائر
303.....	1.3- انعكاسات الحملة الفرنسية ضد الجزائر على سياسة المخزن
308.....	2.3- سياسة المخزن تجاه الأمير عبد القادر
310.....	II - العلاقات الاقتصادية:
310.....	1- لمحة تاريخية عن طبيعة الحركة التجارية بين البلدين:
310.....	1.1- العوامل المشتركة في النشاط التجاري بين البلدين
	2.1- مساعي المخزن والأتراك في السيطرة على التجارة العابرة للصحراء.
313.....	
318.....	2- الطرق التجارية والأسواق بين البلدين:
318.....	1.2- الطرق التجارية
324.....	2.2- الأسواق التجارية: (مدينة الجزائر، تلمسان، فاس، وجدة، توات)
337.....	3- مشكلة التجارة بين الجزائر والمغرب:
	1.3- أثر الاحتلال الفرنسي للجزائر على المعاملات التجارية مع المغرب
337.....	
341.....	2.3- إجراءات المخزن من أجل تحسين وضعية الخزينة
334.....	III - العلاقات الثقافية والاجتماعية بين البلدين:

346.....	1- إسهامات العلماء الثقافية في العلاقات بين البلدين:
346.....	1.1- إسهامات الجزائريين الثقافية.
351.....	2.1- إسهامات المغاربة الثقافية.
354.....	2 - إسهامات الجزائريين الاجتماعية في المغرب:
354.....	1.2- هجرة الجزائريين إلى المغرب في القرنين 18/19م (الأسباب والدوافع).
355.....	
358.....	2.2 - نماذج لعائلات جزائرية في المغرب.
361.....	3- موقع القوى الدينية والمرابطية من الخلاف المغربي الجزائري:
361.....	1.3- الطريقة الدرقاوية.
364.....	2.3 - الطريقة التجانية.

366.....	الخاتمة.
372.....	الملاحق.
384.....	البibliوغرافيا.
385.....	قائمة المصادر والمراجع.
409.....	الفهارس.
410.....	فهرس الأعلام.
431.....	فهرس الأماكن.
441.....	فهرس القبائل والجماعات والفرق والزوايا.
448.....	فهرس المحتوى.